الأسباب والعوامل الحزبية الداخلية في

تاريخ استشهاد سعاده...وما بعده

«قراءة ناقدة في تاريخ صاخب»

شحادة الغاوي

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى- سنة 2019

ISBN: 978-9953-597-77-5

لايسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

اسم الكتاب	الأسباب والعوامل الحزبية الداخلية في تاريخ استشهاد سعاده...وما بعده «قراءة ناقدة في تاريخ صاحب»
اسم الكاتب	شحادة الغاوي
الإخراج الفني	TRIGRAPHICS DESIGN & PRINTING
الناشر	دار أبعاد لبنان - بيروت - الحمرا - شارع البصرة ص.ب: 113-7179 بيروت – لبنان هاتف: 751541-1- 00961 00961-1-740495 E-mail: abaaddar@gmail.com
	لطلب الكتاب عبر الانترنت من خلال الموقع التالي: www.beb2beb.com

الأسباب والعوامل الحزبية الداخلية في

تاريخ استشهاد سعاده...وما بعده

«قراءة ناقدة في تاريخ صاحب»

شحادة الغاوي

دار ابعاد

الطبعة الأولى 2019

المحتويات

الإهداء **21**

كلمة شكر **23**

المقدمة العامة **25**

الفصل الأول – البدايات الصعبة (1932– 1938) **35**

تمهيد 37

سعاده لم يستكمل بناء الحزب 38

35 بالمئة فقط 39

الخطاب المنهاجي الأول 41

اثنان منافقان واثنان خائنان 48

السجن الأول 49

السجن الثاني 50

المجلس الأعلى وخذلانه لسعاده 52

محاولة قتل سعاده في السجن 53

معاناة سعاده مع معاونيه 53

ضعف وتشتت استقبال الزعيم 54

ويحارب على جميع الجبهات 55

خيانة في حزب قومي نهضوي 56

الحزب في مواجهة أفعى الخيانة والجاسوسية 57

جولة حزبية إلى الساحل الشمالي 59
محاولة اعتقال رابعة في بيروت وخامسة في قبرص 60
سعاده ينجو من خطر كبير في عمان 62
الفصل الثاني - السجن الطويل (1938 - 1947) 65
القسم الأول: في المغترب 67
سعاده في أوروبا 67
سعاده سجيناً في البرازيل 69
عذاب سعاده في الأرجنتين 71
أظلم سجن طويل عرفته 71
معاناة سعاده من عدم تعاون وعدم تلبية معاونيه 73
سعاده يكافح الجاسوسية 75
جميل الصفدي خائن ثانٍ في البرازيل 77
أوراق الزعيم بحوزة الجاسوس جميل الصفدي 78
سعاده وجريدة «سورية الجديدة» 80
سياسة الزعيم وموقفه تجاه أطراف الحرب 82
جريدة الزوبعة 84
سعاده يستنزف قواه للحد الأقصى 85
سعاده يعمل لتأمين معيشته وحفظ كرامته 86
موقف الزعيم السياسي من أطراف الحرب العالمية الثانية 88
من إسبانيا 88
ومن الحكومة البريطانية 90
القسم الثاني: في الوطن 94

سلسلة اعتقالات وسجون 95

بداية التورط 96

ماذا يقول فريد الصباغ؟ 96

وماذا يقول جورج عبد المسيح؟ 97

السياسات الانحرافية والنفعية طلباً للسلامة الشخصية 100

ماذا جرى في سجن راشيا؟ 101

رفقاء قياديون موظفون مع الجيش الإنكليزي 101

الانحراف يأخذ وجهاً نافراً 102

أين كان عبد المسيح وماذا كان دوره؟ 104

شهادات عن دور عبد المسيح في الانحرافات 107

عبد المسيح يدافع عن نعمة ثابت أمام الزعيم 110

سعاده يداري ويحرص على النظام ووحدة الحزب 112

أزمة الاتصالات مع المركز رغم انتهاء الحرب 114

سعاده يداري نعمة ثابت ويستوعبه 115

نصف انفراج 118

مكروا فمكرنا... والحرص على وحدة الحزب 118

سعاده يحرج نعمة ثابت ثم يفضح كذبه 119

تفاصيل من فريد الصباغ 121

كيف حصل الزعيم على جواز سفر؟ 122

في القاهرة 123

تغيّر نظرة القياديين إلى الزعيم 124

الفصل الثالث – تجديد الروح والحصاد الوفير (من آذار 1947 إلى حزيران 1949) ... 127
جموع القوميين من جميع مناطق الوطن السوري تلاقي زعيمها في بيروت 129
مذكرة التوقيف والمعركة المزدوجة 130
بعض أوجه المعركة الداخلية 131
معاونون لا يعاونون 133
سعاده يحسم داخل الحزب 134
سعاده يجتمع بكل من بشارة الخوري وكميل شمعون 137
أزمة عبد المسيح 138
أين هو عبد المسيح في تفكير وتقدير سعاده؟ 141
سعاده يربح المعركة العقائدية – المحاضرات العشر 143
الإقطاع الأنترنسيوني 145
قرار قتل سعاده 147
تدريب عسكري للمسؤولين المركزيين 149
مكتب «مام» 149
مجلس العمد لا يعمل 150
اشتداد الضغوط ودخول المرحلة الحرجة 151
الحركة تمتد في الساحل والداخل 153
لقد سبقوه 155
انقلاب حسني الزعيم 156
شعار السيادة اللبنانية بوجه الشام فقط 157
حسني لا يعرف شيئاً عن الحزب لكن يريد التقرب من الزعيم 157
رأي سعاده الحقيقي بالانقلاب 158

معالجة الحمى بقشور البطيخ 159

ذروة التحدي في خطاب برج البراجنة 161

المقابلة الأولى 163

مناورة حسني ومضمون المقابلة الأولى 166

مضمون اللقاء الأول وروايتا قباني وقدورة 167

تحريض مزدوج من حكومتي دمشق وبيروت لسعاده كي يقوم بانقلاب مسلح في لبنان 169

تحضيرات الحكومة اللبنانية 172

الفصل الرابع - المطاردة والتوريط والاستشهاد (9 حزيران - 8 تموز 1949) 175

نظرية المؤامرة 177

سعاده والمؤامرة 178

ملخص توثيق ناجي جرجي زيدان 180

وثائق السفارة البريطانية في بيروت 183

وثائق السفارة الأميركية 184

عودة إلى وثائق السفارة البريطانية 185

تقرير شهر أيلول يذكر دوراً لعبد المسيح 186

كيف تعامل الحزب مع خطة تصفيته وقتل زعيمه؟ 187

الاعتقاد الخاطئ والحقيقة الصادمة 189

ماذا عند بشير موصلي؟ 190

وماذا عند سامي جمعة؟ 190

ماذا حدث في ليل 9 - 10 حزيران؟ 192

سلة القنابل ورامز البستاني وعبد المسيح 193

مغادرة عبد المسيح وندمه الغريب على المغادرة قبل أن يغادر 195

الفهم السطحي للأحداث 197
الدور المرسوم للحكومة اللبنانية 198
كيف خرج سعاده من دائرة النار؟ 199
لماذا إذاً غادر الزعيم بيته؟ 200
الاختراق الأمني 201
خطة المطاردة والتوريط 202
الدلائل الأربعة 203
الدليل الأول 203
الدليل الثاني 205
الدليل الثالث 206
الدليل الرابع 208
سعاده يختار بين العصيان في جبل لبنان أو الثورة من الشام 209
كيف أفلت عبد المسيح من الاعتقال ليل 9 – 10 حزيران؟ 211
سعاده يستدعي عبد المسيح وهذا لا يستجيب 212
لكن ماذا يقول عبد المسيح؟ 214
الزعيم يستدعي عبد المسيح مرة ثانية 216
في الشام حسني مستعجل وسعاده متحفظ وأديب الشيشكلي متآمر 221
سعاده يقع بين براثن ومخالب اليهود 225
سامي جمعة وحسني الزعيم وابراهيم الحسيني وموشى شاريت والعقيد حبي وأديب الشيشكلي 225
وما دخل أديب الشيشكلي؟ 227
كيف تصرف سعاده؟ 228
في لبنان 229

في سرحمول معركة – لا معركة في سرحمول 229
ماذا كانت مهمة وخطة وبرنامج عبد المسيح في الثورة؟ 232
عبد المسيح يلوم الزعيم ويحمّله مسؤولية الفشل 232
ما هو مضمون رسائل سعاده إلى عبد المسيح؟ 233
في دمشق مجدداً 235
المقابلة الثالثة 235
هذا ليس سعاده 239
هذا هو سعاده 240
سعاده يحارب حتى الرمق الأخير 242
مجلس قيادة 243
تبييض أوجه 244
الاختيار بين الموت والموت 245
نعم كان يعلم 247
يوميات القرار الصعب 248
لماذا تزامن التوقيتان: معركة مشغرة وتسليم سعاده؟ 251
سعاده لم يفاجأ بالإعدام وسار إليه هادئاً 251
هل تعرض سعاده للخداع؟ 253
مقارنة 254
سبب سرعة المحاكمة وتجاوز أصولها وشروطها القانونية 255
هل كان يمكن إنقاذ سعاده؟ 257
كيف عرف عبد المسيح باستشهاد سعاده؟ 259
أين كان شوقي خيرالله؟ 260

إلى أين ذهب شوقي بعد الإعدام مباشرة 262
قبل أن يقتسموا حزبه، اقتسموا أشلاءه وثيابه 262
عبد المسيح يُخفي رُفات الزعيم 263
الفصل الخامس: السيطرة على الحزب بعد استشهاد الزعيم........ 265
مقدمة الفصل الخامس 267
بدء مرحلة استيعاب الحزب والسيطرة عليه 268
انتقال عبد المسيح إلى دمشق 268
إقامة عبد المسيح في بيت الأمينة الأولى 273
هالة عبد المسيح 274
هل صحيح أن موت سعاده كان شرطاً لانتصار قضيته؟ وهل قال سعاده ذلك؟ 276
انحياز 278
هل استشهاد سعاده كان رائعاً؟ 278
رأي عبد المسيح بحسني الزعيم 279
حسني الزعيم طاغية – لا، حسني الزعيم ليس طاغياً........ 280
محاكمة القوميين في لبنان 281
حتى لا نظلم ابراهيم يموت 282
رياض الصلح يطلب الصلح 283
هل قبل عبد المسيح مالاً لعائلات الشهداء من رياض الصلح؟ 283
دور غسان تويني المشبوه 284
هذه هي السياسة الحزبية التي ينبغي علينا اتباعها 287
تحصين العملاء 288
العم يطرد اثنين 290

سابقة إدارية غير منطقية 292
نشوء الأزمات والتسويات 294
قالوا في عبد المسيح 295
كيف صار عبد المسيح رئيساً بعد أن زعم أنه كان مسؤولاً أولاً مرتين؟ 296
تسميته من أطراف خارجية مرتين 299
في دمشق 302
الفضل لعبد المسيح أم لسامي خوري؟ 303
عبد المسيح يظلم هشام شرابي 304
انتقال السلطة حسب دستور سعاده، وخطأ وخطيئة المرسوم الثامن 307
في مصدر السلطة (من يَنتخِب) 309
الاستبداد الديموقراطي والدكتاتورية الديموقراطية 311
الاستثنائي المؤقت صار دائماً 313
عذر أقبح من ذنب 314
في أصحاب السلطة، أي في المؤهلين لاستلام السلطة (من يُنتخَب) 319
الانتخاب هو تعبير عن رأي وليس تعبيراً عن إرادة 321
الخطأ الأفدح: كيف منحوا رتبة الأمانة 322
من هو الصادق؟ 323
تسوية 1954 325
فضيحة التصويت على منح رتبة الأمانة 328
كيف عاد عبد المسيح رئيساً؟ 328
الضغط المسلح لانتخاب العم رئيساً 329
تكرار الضغط المسلح بعد أربعين سنة 329

ألاعيب ومناورات 330
إنجازات 332
الوضع السياسي في سورية 333
من هو أديب الشيشكلي؟ 333
اغتيال الرفيق «الرب» مجيب المرشد 336
اغتيال قائد سلاح الجو العقيد محمد ناصر 336
أديب الشيشكلي الطائفي 337
الإسرائيليون يدعمون الشيشكلي 338
انقلاب الحناوي 340
الليرات الذهبية الإنكليزية 341
ضياع الفرصة الأولى 342
انقلاب الشيشكلي الأول 344
الحزب في ظل الشيشكلي 346
موقف الحزب الشاذ من قضية الانفصال الجمركي 348
قضية الاتحاد مع العراق 348
أين كان الحزب؟ 350
الحزب والعمل السياسي والتحالفات 351
الانقلاب العسكري الثاني للشيشكلي وموقف الحزب التابع له 353
مآثر وبدائع الشيشكلي والحزب يخسر سياسياً وشعبياً 354
نشوء حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب يعزل نفسه سياسياً 354
الشيشكلي يؤلف حزبه 355
عبد المسيح في خدمة أديب؟ 356

أديب يصبح رئيساً للجمهورية والحزب معه «على طول» 357
رغم ذلك أديب يخذل الحزب 358
ويسقطه في الانتخابات 359
الانفجار الشعبي ضد الشيشكلي 360
موقف محرج ومخجل للحزب 361
كيف استقر الوضع السياسي بعد مغادرة الشيشكلي؟ 361
رسائل الشرابي 362
البيان السياسي 365
رفض 368
انعطاف ثم ترحيب 369
والحزب يوافق على مشروع أيزنهاور 371
كيف تطورت الأحداث في الشام ولبنان؟ 371
نفس الموقف ونفس التبريرات بعد نصف قرن 372
المنطق المتهافت الفاسد يناقض نفسه دائماً 373
يضع اللوم على غيره وهو المسؤول 374
المحايري يكرر نفس الموقف المزدوج بعد 36 سنة 375
استمرار العلاقة مع الأميركان 377
الشيشكلي مجدداً- سلاح صدئ مكسور والحزب يصر على استعماله 378
الحملة على مصر خدمة للأميركان 379
مقتل المالكي 381
من هو عدنان المالكي؟ 381
شقير يستعمل الحزب في صراعه مع المالكي 382

المالكي يخاصم المحور المصري- السعودي 383
ويخاصم البعث 384
صعود المالكي 385
شقير ينقذ غسان جديد! 386
من هو عبد الحميد السراج؟ 386
تسريح غسان جديد 387
الإيقاع بين الحزب وأركان الجيش والمالكي 388
محاولة الاتصال بالمالكي 389
ومحاولة المالكي الاتصال بالحزب 390
محاولة أخرى كادت ان تتم 390
كيف بدأ التوتر والخلاف مع مصر عبد الناصر؟ 391
المالكي أيضاً في مواجهة المصريين 393
قوة الحزب 395
وقتل عدنان المالكي/ وقتل الحزب 397
أين هي الحقيقة؟ 398
مجادلات 399
تبرئة الحزب! 401
علاقة عبد المسيح بمقتل المالكي 402
حجج براءة عبد المسيح 403
حجج إدانة عبد المسيح 406
هل هذا هو المخرج وهل هذه هي الحقيقة؟ 413
القضية الأخطر والأهم 418

أين المحكمة الحزبية التي شرّعها سعاده؟ 420
في المصيدة الأميركية 422
حصاد المتآمرين والمستفيدين 424
هستيرية العسكريين الجائعين لضرب الحزب 425
روحية التحدي والإيمان بصحة القضية ينتصران في قوميي الشام 425
في مقابل قيادات تسعى مجدداً في خدمة الشيشكلي! 426
كيف انتهى شوكت شقير؟ 428
محاولة انقلاب 1956 والحزب المخدوع 428
مقدمات الجمهورية العربية المتحدة 430
مخاض الجمهورية العربية المتحدة 431
كيفية إعلان الوحدة السورية المصرية – الجمهورية العربية المتحدة 433
أين كان الحزب السوري القومي الاجتماعي؟ 434
يقظة القومية السورية والتحرر من التبعية لمصر 435
وصول حزب البعث إلى السلطة في سورية 436
الانشقاقات 437
محاولة الاشتراك بالسلطة الحزبية قبل الانشقاق 444
الأمراض السياسية والاجتماعية 445
ابراهيم يموت يشهد 446
وعبدالله سعاده يستفيق... ويشهد 447
كيف عاد عبدالله سعاده رئيساً للحزب 449
كيف استقال عبد المسيح وكيف طُرد 450
شريط سريع للأحداث الحزبية، قبل تهريبة الطرد 452

كيفية حدوث الانشقاق 455

قضية الخارجين على النظام 457

المركزيون يزدادون وضوحاً وعلانية في مسارهم 458

بعض المنشقين يصحون ويعتكفون 458

وبعض المركزيين أيضاً يصحون ويعتكفون 461

الرفيق الأول والأمين الأول والرئيس الأول والانشقاق الأول 463

ينتقد الزعيم ويتمرد عليه 464

عبد المسيح يفتتح حملات التجريح بالرفقاء والأمناء 465

انتخابات عبدالله سعاده النيابية والتلاعب الأميركي بالحزب والعذر الأقبح من ذنب 469

حلوة وكذابة 471

حزب الروم 473

والفرنسيون يتلاعبون بالحزب أيضاً ورئيس الحزب «يا غافل إلك الله» 475

الأسئلة الكبيرة والجواب الضائع 477

الملاحق **479**

الملحق الأول: عبد المسيح العقائدي وعصام المحايري العروبي وإنعام رعد الثوري 481

جورج عبد المسيح العقائدي 482

الغموض 483

المدرحية 485

الإنسان- المجتمع 492

الجماهيرية والجماهير 494

عيد العمال – عيد العمل 496

بين الحياة والعيش 500

الموقف من اليهود 502
الاشتراكية العلمية 506
الباطل هو النقص في الكمال!؟ 508
عصام المحايري العروبي 508
الواقع اللبناني - الواقع العروبي 509
هذا زكي قنصل وليس سعاده 510
عروبة عصام المحايري 511
الضعف المثلث الأضلاع 514
إنعام رعد الثوري 520
الملحق الثاني: صورة من تقرير فريد الصباغ إلى المجلس الأعلى 525
الملحق الثالث: وثائق السفارة الإنكليزية في بيروت 527
الملحق الرابع: وثيقة من مائير زامير 531
الملحق الخامس: صفحة من مذكرات فريد الصباغ 533
الملحق السادس: هذا هو حسني الزعيم 535
فهرس الأعلام **541**
لائحة المراجع **557**

إهداء إلى اثنين:

إلى روح المرحوم والدي الذي قاوم بشدة انتمائي إلى الحزب، من موقعه خصماً شديداً له، والذي نصحني وقال لي:

«فلتكن ثقتك مبصرة وليست عمياء».

وإلى الذي فتح أبصاري لأول مرة على نور عقيدة سعاده الخالد وقضيته الباقية، الأستاذ الأمين ميشال الحاج.

شحادة الغاوي

كلمة شكر

أتوجه بالشكر الكبير لجميع الرفقاء والأصدقاء الذين ساعدوني بطريقة أو بأخرى في إنجاز هذا الكتاب.

وأخص منهم جوزيف حداد المقيم في كندا الذي ناقشني في فكرة الكتاب وزودني بمستندات ومخطوطات عديدة كبيرة الأهمية، كما بملاحظاته المفيدة وتحذيره من الانزلاق والوقوع في الاتهامات الشائعة دون إسناد وإثبات.

وللأمين إيلي عون شكري الكبير لتزويده إياي بمعلومات ثمينة ولمراجعته هذا الكتاب ومساعدتي في تنقيحه قبل طبعه.

وللأمين ميشال الحاج وللرفيق أسامة المهتار شكري وامتناني لجهودهما وملاحظاتهما المفيدة ومساهمتهما في تنقيح وتصويب لغة هذا الكتاب.

وأخص الباحث والأديب جان داية للجهد الذي بذله ولمساهمته معي وتزويدي بصور عن النسخ الأصلية لوثائق السفارة البريطانية في بيروت للأشهر التي تلت استشهاد سعاده سنة 1949.

وللباحث القومي طه غدار شكري الكبير لمواكبته كل مراحل العمل في هذا الكتاب وتزويدي بالكتب والمراجع وإرسالها لي من الوطن إلى استراليا.

وأشكر الدكتور عادل بشارة الذي ساعدني معنوياً ومادياً في تزويدي بمراجع وأصول معلومات ومنها ما يُكشف لأول مرة في هذا الكتاب، كما لجهوده التي ساعدت في دفع هذا الكتاب إلى الطبع.

والشكر الكبير للأمين أحمد الأيوبي وجميع الرفقاء والأصدقاء الذين وضعوا مكتباتهم في تصرفي أو أفادوني بمصادر ومعلومات، وخاصة عقل موسى وجعفر البعلبكي وميكائيل نصر الدين وفادي خوري وجورج يزبك وزياد علم الدين.

المقدمة العامة

سبعون سنة مرت على استشهاد سعاده فجر الثامن من تموز 1949، أضف إليها 16 سنة هي عمر أصغر أعضاء الحزب القوميين آنذاك، يكون عمر أصغر الذين عاصروا ذلك الحدث الرهيب اليوم 86 سنة. لذلك فإنه إذا استثنينا قلة قليلة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة، مثل الأمناء هيام محسن وسليم سعدو سالم وعصام المحايري وشوقي خيرالله ومعين عرنوق، أطال الله بعمرهم، يكون من النادر جداً ومن شبه المستحيل وجود شواهد حية وموثوقة عليه. فالذي يريد معرفة وقائع وحقائق تلك الأحداث التاريخية ليس له إلا أن يستند إلى مدونات الراحلين، وهذه لا تقدم إلا معلومات مبعثرة ناقصة ومتناقضة أحياناً، وهذا طبعاً لا يكفي. فلا بد إذاً من اللجوء إلى «الفك والتركيب» أي إلى التحليل والاستنتاج لبناء الحقيقة، أكثر منه إلى السرد والرواية.

وما يزيد الموضوع صعوبة وتعقيداً هو غياب التوثيق وعدم حفظ الملفات ذات الأهمية التاريخية لدى مؤسسات الحزب المعنية قبل غيرها في هذه المسألة، وهي أولى من جميع المراجع الأخرى بتدوين أحداث ووقائع تلك القضية وحفظ ملفاتها. يكاد الباحث عن الحقيقة التاريخية لا يصدق أن أصحاب العلاقة الأولين، أي الحزب ومؤسساته وأجهزته، لا يملكون شيئاً موثقاً كاملاً متكاملاً أكيداً واضحاً ومتسلسلاً يقدمونه للناس والتاريخ. كل ما عندهم هو روايات ناقصة غير كاملة، بل مختلفة ومتناقضة أحياناً، منقولة عن أشخاص لعبوا أدواراً كبيرة أو صغيرة في الحزب، وجاءت رواياتهم، في أغلبها، تبريراً لتقصير أو تستراً عن ارتكاب أو دفعاً لاتهام، وفي أحسن الأحوال تأويلاً ضعيفاً ومتأخراً لأحداث عاصروها ولم يكونوا فاهمين أهميتها التاريخية، فلم يوثقوا أو يدونوا شيئاً في حينه، فجاءت مذكراتهم ورواياتهم متأخرة جداً ويشوبها الكثير من النقص والغموض.

إن مسألة عدم التوثيق في الحزب وعدم الحفظ، والاستهتار بحرمة الحقائق وبضرورة صيانتها من الضياع، وعدم احترام التاريخ وحق الأجيال في معرفته والاطلاع عليه للاستفادة منه، هي مسألة لا تقتصر فقط على تاريخ استشهاد سعاده بل هي تشمل

مسائل وقضايا أخرى أصغر وأسهل بكثير. فمثلاً إذا سألت دوائر الحزب المختصة اليوم عن جداول بأسماء المسؤولين في المجلس الأعلى ومجلس العمد ووكلاء العمد بالتسلسل منذ 1935 تاريخ انكشاف وجود الحزب حتى تاريخ الاستشهاد، أو حتى اليوم، يقولون لك: ليس موجوداً، لا نعرف بالضبط. وإذا سألتهم عن ملف حادث طرد عبدالمسيح أو «الانتفاضة» وأسبابها الحقيقية وحوادثها وتطورها ونتائجها، يقولون لك: ليس موجوداً، لا نعرف بالضبط. وهذا ينطبق على الجميع، أي على طرفي قضية عبد المسيح اللذين أصبحا حزبين اثنين. تستطيع الحصول على «مراحل الانتفاضة» من المعنيين بها ولكنها رواية من طرف واحد لا تتضمن وثائق الطرف الثاني، لا تستطيع الحصول على وثائق الطرف الثاني لأنها ناقصة أو مفقودة. والأسهل من السهل صار أيضاً أمراً صعباً، فقد صارعت قبل الحصول على بيان الحزب بخصوص موقفه من حلف بغداد سنة 1955 ولكن لم أستطع الحصول على ما أطلق عليه «رسائل الشرابي» التي صادرتها السلطات الحكومية بعيد اغتيال العقيد المالكي ويُفترض وجود نسخ عنها في حوزة الحزب، أو أحد أطرافه. هذا فضلاً عن وثائق عديدة أخرى كان يجب أن تكون متوفرة لإثبات هذه الرواية أو تلك، مثال على ذلك المرسوم المزعوم لسعاده بتعيين جورج عبد المسيح «رئيساً لمجلس وكلاء العمد» قبل الاستشهاد بوقت قصير، وأيضاً مرسوم تجريد عدد من الأمناء من رتبتهم، وغيرها.

لعل هذه المسألة، مسألة عدم التوثيق وعدم الحفظ وعدم الأمانة الكلية في نقل الحدث التاريخي، هي أول إشارة إلى وضع الحزب ومستوى أهلية مؤسساته وأجهزته التي كانت، ولا تزال، نقيضاً لخطط سعاده ونظامه وتشريعاته وتوجيهاته وغرضه من إنشاء المؤسسات التي قال عنها إنها أعظم أعماله بعد وضع العقيدة، وسيجيء تفصيل ذلك في متن هذا الكتاب. يوجد اليوم في الحزب، ومنذ سنوات عديدة، لجنة اسمها «لجنة تاريخ الحزب» يرأسها الأمين لبيب ناصيف. والحقيقة أن هذه اللجنة هي اسمية فقط لأنها ليست لجنة فعلية حقيقية بل هي «مؤلفة» من الأمين لبيب وحده ولا أعضاء فيها غيره والأمين لبيب يعاني ما يعانيه مما لا يعرفه إلا القليلون، يعاني من تركه وحده دون معاونين، اللهم رفيقة واحدة للأعمال المكتبية، ودون ميزانية، ودون مقر، فهو يستعمل بيته في بيروت كما بيته المستأجر في ضهور الشوير مستودعاً ومكاناً لتكديس الأوراق والمراجع والمحفوظات في الصالون وغرف الطعام والنوم، والتي هي بحاجة

لتصنيف وترتيب ومعالجة، وبحاجة لمن يتولى هذهالأعمال ويأخذ عن الأمين لبيب أحمالاً من أطنان الأعباء الموضوعة على كتفيه وحده وهو على عتبة الثمانين من عمره. إنه بحاجة لجولات وزيارات ومقابلات لا يمكن للأمين لبيب إجراؤها دون معاونين، في وقت لا يستطيع هو قيادة سيارة وهو لا يملك سيارة. إن لنا من معاينتنا شخصياً لبيت الأمين لبيب، وللعمل المستحيل الذي يقوم به، ما نعتبره مستنداً لما نقول.

ولنا من تراث سعاده المكتوب وفي أماكن عديدة ورسائل عديدة منه لرفقاء عديدين، ينبّه فيها ويشدد على ضرورة حفظ تاريخ أعمال الحركة وتاريخ الحزب بشكل عام وتدريسه للرفقاء الجدد تباعاً، حتى إنه اعتبر عدم العناية بتدريس تاريخ الحزب هو المسؤول عن الاتجاهات الانحرافية التي نشأت في غيابه، «**فتاريخ الحزب لم يكن له أثر فاعل في التوجيه. وهذه الحقيقة تدل على أنه لم تكن هناك عناية بتدريس تاريخ الحزب، تاريخ نشأته وسيره الأول، وكيف تغلب على الصعوبات وما هي القضايا التي جابهها وكيف عالجها، وكيف أنشأ قضية عظيمة وجعلها تنتشر وتمتد وتسيطر على الرغم من كل الصعوبات التي اعترضتها**» (محاضرة الزعيم الأولى في 7 ك2 سنة 1948). إننا نذكر ذلك هنا لنعطي أنموذجاً عن كيفية تعاطي الحزب مع قضايا ومسائل على درجة كبيرة من الخطورة، مثل مسألة تاريخ الحزب رغم أن سعاده كان قد نبّه إليها وإلى أهميتها وخطورتها في وقت مبكر قبل سنة 1948. فوضع الحزب وحالته التنظيمية الداخلية ومستوى أهلية أجهزته وقياداته المركزية والفرعية لم تكن يوماً كما أرادها سعاده وخطط لها أن تكون. ولذلك فليس مستبعداً ولا مستغرباً كيف لعبت هذه القيادات، منذ 1935، دوراً كبيراً في فشل الحزب في حماية زعيمه والحفاظ عليه ومنع قتله.

هذا الكتاب يحوي عرضاً للعوامل والأسباب الحزبية الداخلية التي ساعدت وسهلت لأعداء سعاده الخارجيين تنفيذ قرار اغتياله. إن قرار التخلص من سعاده وقتله ما كان لينجح تنفيذه لو عرف أعوان سعاده وأركان حزبه كيف يحمونه ويحافظون عليه. «**إني أحمل ما أحمل من أعدائي ومن أعواني**»، هذا ما كتبه سعاده نفسه في رسالة منه لعبدالله قبرصي سنة 1938. إن ما تركه لنا سعاده من تراث مكتوب يدل بوضوح كم كان يعاني من قصور أعوانه عن مواكبته، وقصورهم عن إدراك عمق فلسفة عقيدته ونظامه معاً، وعن فهم القضية بكامل خطورتها وقيمتها التاريخية وضرورتها لنهوض

سـورية وقيامتهـا من قبر التاريـخ. أما أن يلعـب أعوانه وأركان حزبـه، في حياته وبعد استشـهاده، دوراً معاكسـاً له ولنهجـه وللقواعد الفكرية والنظاميـة التي وضعها، فهو آخر ما كان منتظراً منهم، وهو ما سنشرحه في هذا الكتاب ونرى كيف أدى إلى المساهمة عملياً في مؤامرة قتله سنة 1949 وإعادة قتله عدة مرات بعد ذلك. كأن سعاده قد جاء لجيل غير الجيل الذي عايشه وعمل معه. وكأن سعاده كان عارفاً مصيره ومتوقعاً نهايته كإنسـان، فردّ على الطريقة التي حدثت بالضبط، ففي غمرة صراعه وحربه ضد «التنين المتعدد الرؤوس» حسب تعبيره، كتب للرفيق وليم بحليس سنة 1946 يقول: «**إن الأمم الغبيـة تفعل بأبطالها كما تفعل الأطفال في ألعابها، تحطمها ثم تبكي طالبة غيرها**». إن في ذلك القول إشارة واضحة إلى توقع سعاده أن «تحطيمه» سيكون لأمته وبالتالي لحزبه يد فيه. إن سعاده لم يقتله أعداؤه فقط، بل إن أعوانه أيضاً قد شاركوا بطريقة أو بأخرى في تسهيل قتله. قد لا يكون حدث ذلك عن قصد واشتراك في التقرير والتخطيط والتنفيذ، بـل عن قصـور وتقاعس وعدم يقظة وتهاون في تحمل مسـؤولية كانت فوق طاقتهم أو أكبر منهم ومن مستوى فهمهم وإدراكهم، وهذا القصور والتقاعس والتهاون يرقى في نظر الكثيرين ويساوي في نتائجه وتبعاته مسألة الاشتراك في القتل.

قـد يبدو مـن هذه المقدمة وكأن غـرضي من هذا البحث هو إدانة أشـخاص معينين والنيـل منهم أو الحط من قيمة جهادهـم وتضحياتهم، وهذا غير صحيح، لذلك يجدر التنبيـه إلى أن هـذا الكتـاب وما يحتويه لن يديـن أحداً ولن يحكم على أحـد، فهذا ليس غرضـه أبـداً. صحيح أن فيه معلومات جديدة وخطيرة تتناول أشـخاصاً بعينهم، وفيه أسئلة كثيرة وتساؤلات عن أدوارهم في الحزب، وفيه قرائن ومقاربات عديدة وخطيرة، لكن قرائنه ومقارباته لا تسـتهدف أشـخاصاً بعينهم، كما أنها ليسـت مبنية على فراغ بل مسـتندة إلى حقائـق ووقائع وأمور حدثت فعلاً ولا بد مـن معرفتها وفهمها في ظروفها وفهـم علاقتهـا بالقضيـة الأسـاس. وإذا كان لا بد مـن إدانة أحد، أو أكثـر من واحد، فلسـت أنا من يفعـل ذلك. أنا أعرض وأقـدّم الوقائع والأحداث وأبنـي العلاقة بينها وأسـاعد القارئ على فهمها وعليه هو نفسـه أن يكوّن رأياً بناء على ما سـيطلع عليه من وقائع وحقائق. ولن أكتفي بذلك بل إني أحثه وأشجعه على اتخاذ موقف والإقلاع عن هذه العادة السـيئة التي اسمها «الثقة العمياء»، فالثقة يجب ألا تكون عمياء بل مبصرة. صحيح أن الثقة أسـاس يقوم عليه النظام، حسـب سـعاده وتعليمه، وصحيح أن الثقة

مبدأ ديموقراطي كما يقول سعاده أيضاً، لكنه يقول أيضاً وأيضاً «بأن الثقة تُمتحَن»، والامتحان فيه نجاح كما فيه رسوب.

أعلم أنه سيوجد وسينبري كثيرٌ من القوميين الاجتماعيين ويحتجون ويقيّمون محاولتي سلبياً ويعتبرونها جلداً للذات ويرمونها ربما بما يشبه الحرم. إنهم لم يتعودوا على هذا النوع من الكتابات والأبحاث ولا يريدون أن يصدقوا أن من اعتادوا على اعتبارهم أركان الحزب وقادته الكبار يمكن أن يكونوا قد ساهموا مباشرة أو مداورة، عن قصد أو عن غير قصد، في القضاء على سعاده والتخلص منه أو في إضعاف الحزب وتدميره. هذا الموضوع لم يكتب عنه الكثير، بل لم يكتب عنه بالمرة بهذا التوسع والتفصيل والتوثيق على ما نعلم. لكنني أظل أنا مرتاح الضمير ولا يهمني إلا البحث عن الحقيقة وقولها والانحياز لها. إن معرفة الحقيقة وإعلانها دائماً نافعة ومفيدة، وإنني على ثقة تامة بأن ما أقوم به سيكون مفيداً. إن ما سأقوله في هذا الكتاب يستند إلى أساس صلب ويعتمد على حقائق، بعضها أشار إليها سعاده نفسه وبعضها الآخر كان كامناً خلف كثير من المسائل والأحداث التي تحتاج إلى إيضاحها والكشف عنها. أكتفي هنا في هذه المقدمة، وكمثل واحد، بقول سعاده في رسالته إلى الرفيق إبراهيم طنوس في البرازيل بتاريخ 2-8-1940: «**أما خطأ أسد الأشقر وخالد أديب في حادث التوقيف في سان باولو فيقع ضمن الأخطاء التاريخية الخطيرة الشأن، إذ كاد الأمر يقضي عليّ نهائياً، إما بانحلال القوى ضمن السجن وإما بتسليمي إلى السلطة في سورية، فتكون الرحلة قد انتهت بأعظم نكبة في تاريخ الحركة. وقد تحول أمر خطأ خالد أديب فيما بعد إلى مسألة خيانة صريحة وإجرام ضد الحركة القومية لم يكن يخطر في بال**».

لقد ورد في الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنيات»، وهذا صحيح رغم أن الشريعة الإسلامية المحمدية فيها حدود وقوانين مادية تحاسب الناس على أعمالهم وليس على نواياهم. وهذا الحديث هو أقرب إلى تعليم يسوع الذي كان تعليماً مناقبياً تهذيبياً روحياً خاطب العقول والضمائر والنفوس وأراد محاسبتها على نواياها وإيمانها (إيمانك خلصك)، ولم يكن يسوع صاحب تشريع أو واضع قانون مادي ليحاسب الناس على أفعالهم وأعمالهم ونتائجها، ولكن ذلك لم يمنع يسوع نفسه من القول: «من ثمارهم تعرفونهم» أي إن الأعمال والأفعال ونتائجها (أي ثمارها) هي محك ومقياس معرفة

الأشخاص والحكم لهم أو عليهم. وإذا كان سعاده قد عكس الحديث وقال: «إن النيات بالأعمال وليست الأعمال بالنيات»، فإن قوله صحيح أيضاً لأن سعاده قد دعا إلى حركة صراع قومي اجتماعي لبناء نظام جديد لحياة جديدة وإلى حركة مقاومة ضد الإرادات الأجنبية من أجل تحقيق السيادة القومية الوطنية (دون حرف واو) وهذا يتطلب أعمالاً وأفعالاً وجهداً وتعباً وعرقاً وبذل دماء ولا تكفي معه مجرد النوايا الحسنة، بل محكّه ومقياسه الأعمال والأفعال. إن هذا الكتاب هو دعوة إلى معرفة القيادات التي تعاقبت على الحزب كلها، والتي ستأتي في المستقبل أيضاً، وهذا هو الأهم، من أعمالها وأفعالها ونتائجهما ومحاسبتها، ولو معنوياً، على هذه الأفعال والنتائج وليس الاكتفاء بمحاسبتها على نواياها والقبول بها والقبول بتكرارها أو بتكرار نسخ عنها بدعوى أن نياتها كانت حسنة. فالتاريخ، يقول سعاده، لا يسجل الأماني والنيات بلا الأعمال والأفعال.

وثائق، وثائق...

لم يعرف أحد من الرفقاء والأصدقاء بقرب صدور هذا الكتاب، إلا وتمنى وطالب وألحّ بأن تكون فيه وثائق وألا تكون استنتاجاته دون أساس من وثائق، وأن الوثائق هي ما يجب أن أبحث عنه قبل أي شيء آخر. وأنا على أي حال لم أكن غافلاً عن هذه المسألة، وقد بحثت عن «الوثائق» ذات العلاقة بالموضوع. وتذكرت الرفيق «شمدص جهجاه» الذي أبدى يوماً استعداده لشراء وثائق يقال إنها «موجودة في هذه الصندوقة» وأن هذه الصندوقة ممنوع لمسها إلا من فلان. وعندما وصل «شمدص» إلى معاينة ما سُمّي وثائق في تلك الصندوقة، قبل دفع الثمن، تبين أن لا وثائق ولا من يوثقون. ولقد فكرت ملياً: ما معنى وثائق؟ ما الذي يجعل هذه الورقة أو تلك وثيقة أو لا يجعلها؟ وهل يجوز أن ننتظر ونتوقع وجود وثائق من نوع محاضر اجتماعات وجلسات لمتآمرين ومتواطئين قرروا قتل سعاده ووضعوا أسماءهم ووقعوا عليها؟ إنها لسخافة وسذاجة أن نبحث عن ذلك أو أن نتوقع وجود ذلك. فإذا كانت الوثائق هي الدلائل المادية التي لا يرقى إليها الشك، وهي كذلك، فإن الكثير منها متوفر ومتاح للجميع، وما علينا إلا أن ننفخ ما تراكم عليها من غبار حتى تلمع أمامنا وتعطينا الخبر اليقين. مثلاً، عندما يكتب سعاده لعبدالله قبرصي ويقول له: «**إذا اعتُقِلت تكون أنت من سلمني**»، ألا تكون هذه وثيقة من سعاده نفسه تبين لنا أنه كان عارفاً بتهاون وإهمال وسوء تقدير

معاونيه لدرجة كشفه أمنياً وتعريضه للوقوع بقبضة أعدائه؟ وبعد، أي نوع من الوثائق يريد هذا الجيل؟ إننا يجب أن نعرف أن من يخطط للقتل لا يترك وثائق مادية ولا يحفظها إن وجدت. رغم ذلك لا بد من الإقرار بوجود بعض المعلومات وربما محاضر ومحفوظات تحتوي تفاصيل معينة غير منشورة تتعلق بعملية قتل سعاده موجودة في دوائر حكومية أجنبية، ولكن ما هو موجود ومنشور ومعروف حتى الآن هو أكثر من كافٍ ولسنا بحاجة لكل هذا العناء لنبرهن أن سعاده قُتل غيلة نتيجة تدبير وتخطيط من أعدائه وأعداء بلاده وأمته وحزبه وقضيته، وأن مقربين من سعاده قد ساهموا وقدموا خدمات، لا ندري من أي نوع، ساعدت في عملية القتل. ومن يتوقع وينتظر أن نلقي القبض على هؤلاء بالجرم المشهود فعليه أن يبقى منتظراً. خذ مثلاً هذه الواقعة:

رئيس الجمهورية اللبنانية العماد إميل لحود، إثر عودته من جولة في كندا نهاية تسعينيات القرن الماضي، استقبل وفداً من الحزب برئاسة رئيسه علي قانصو آنذاك وبعض العُمد ونواب الحزب في البرلمان اللبناني. خلال الاجتماع قال العماد لحود لأعضاء الوفد الحزبي إنه طلب ملف سعاده من المحكمة العسكرية، لتنفيذ وعد قطعه لقوميي كندا بإعادة فتح هذا الملف. وقال لحود إنه حصل على الملف ولكنه وجده فارغاً!

هذه المعلومة نشرها الباحث القومي جان داية في جريدة الأنوار البيروتية في الحلقة السادسة ضمن سلسلة من ست حلقات عن سعاده، بتاريخ 20-12-1999. ولو لم تكن المعلومة صحيحة، وهي منقولة عن لسان رئيس الجمهورية، لكان صدر عن رئاسة الجمهورية تكذيب أو تصحيح لها. وبما أنه لم يصدر أي تكذيب أو تصحيح فيمكن اعتبار المعلومة صحيحة مئة بالمئة. وهذا معناه أن ما يحتويه ملف محاكمة سعاده من معلومات ووثائق قد تم بيعه أو سرقته أو إخفاؤه أو إتلافه. حتى ولو جارينا بعض أصحاب الظنون، ونحن نستبعد ظنونهم كلياً، بأن لحود نفسه قد يكون ادّعى أن الملف كان فارغاً ليتملص من وعده بفتحه لكي يرضي آل الصلح، أو على الأقل ليتفادى إغضابهم، في وقت هو يحتاج لهم ولصهرهم الأمير الوليد بن طلال ليكونوا عوناً له في صراعه مع الحريري، فإن هذا الملف المهم قد اختفى أو أخفي بطريقة أو بأخرى، وهو حتماً كان يحتوي مرافعة سعاده التي استغرقت أكثر من ساعة أمام المحكمة في

7 تموز 1949. وأن ملف محاكمة سعاده وما يحتويه ليس أهم من مسودة كتاب «نشوء الأمة السورية» الذي اختفى أيضاً بعد أن صادرته سلطات الانتداب مع الأوراق التي صادرتها إبان الاعتقال الأخير لسعاده سنة 1936.

أخيراً يجب التأكيد على أن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ، إنه فقط بحث في التاريخ، والفرق كبير. إن كتابة التاريخ ليست أمراً هيناً كي ينبري أي فرد مهما كانت مؤهلاته العلمية ويكتب تاريخاً. إن في كتابة التاريخ مسؤولية كبيرة وهي منوطة فقط بمؤسسات اختصاصية، تتفرع عنها لجان في اختصاصات عديدة حتى يأتي عملها تعاونياً أقرب إلى الحقيقة منه إلى الآراء والمؤثرات الشخصية. لا يحق لأحد وحده أن يكتب تاريخاً، هذا موضوع أعرفه جيداً، ولذلك جاء كتابي بحثاً في التاريخ وليس تاريخاً. وفي هذا البحث في التاريخ جهدت كل الجهد لتجنب الاستغراق في الآراء والتقييمات الشخصية، وحاولت أن أضع القارئ أمام الوقائع والحقائق التي حصلت عليها أو التي توصلت إليها بالبرهان. رغم ذلك فلا يخلو بحث أو عمل من بصمات القائمين به.

ولا بد من التنويه والتشديد هنا على أن هذا البحث يتناول بشكل رئيس العوامل الحزبية الداخلية التي ساعدت الأعداء على قتل سعاده. وليس من مهمة هذا البحث سرد وتفصيل كل مراحل الاستشهاد ومقدماته وحوادثه، لأن هذه المراحل والمقدمات والحوادث وتفاصيلها نجدها في مراجع عديدة لكتاب ومؤرخين كثر، قوميين اجتماعيين وغيرهم أيضاً، فمن الضروري لطلاب المعرفة مراجعتها. لذلك فقد يبدو هذا الكتاب، للمبتدئين في درس استشهاد سعاده غير الحاصلين على معرفة سابقة بحيثياته وحوادثه، إنه كتاب ناقص يتجاوز الكثير من المسائل والقضايا المهمة والضرورية لاستيعاب وفهم كيف استشهد ولماذا استشهد صاحب تلك الشخصية الاستثنائية التي يعتبر وجودها حدثاً تاريخياً بحد ذاته. لذلك فإنني أنبّه القراء إلى أن هذا الكتاب يجب اعتباره تكميلياً لكتب سابقة تحدثت عن استشهاد سعاده، لكنها لم تذكر شيئاً كثيراً أو كافياً عن العوامل والأسباب الحزبية الداخلية لاستشهاده.

ولأن هذا البحث هو بحث في التاريخ، فقد اتبعت في استعراض العوامل والأسباب الحزبية الداخلية لاستشهاد سعاده التسلسل الزمني منذ تأسيس الحزب إلى اليوم، وليس فقط إلى 8 تموز سنة 1949. ذلك أنني أعتبر أن خطة القضاء على سعاده قد لحظت كيفية

السيطرة على حزبه والقضاء على قضيته بعد القضاء عليه هو. هذا من جهة، ومن جهة ثانية لأن ما حدث في الحزب بعد استشهاد الزعيم له علاقة وثيقة ببرنامج خطة القتل، وهو يضيء جوانب مهمة من تلك الخطة. لقد جعلت فصوله خمسة هي:

1- من تشرين الثاني 1932 حتى 12 حزيران 1938 تاريخ مغادرة سعاده الوطن إلى المغترب، فترة امتدت أقل من ست سنوات.

2- من 12 حزيران 1938 إلى 2 آذار 1947 تاريخ عودته من المغترب، فترة امتدت تسع سنوات، أسميتها فترة السجن الطويل.

3- من 2 آذار 1947 إلى 9 حزيران 1949 تاريخ حادثة الجميزة، فترة امتدت أقل من سنتين، أسميتها فترة الانتشار الكبير والحصاد الوفير.

4- من 9 حزيران إلى 8 تموز 1949 أقل من شهر واحد هي فترة «المطاردة والتوريط».

5- من 9 تموز 1949 إلى اليوم، وهي المرحلة التي إذا ما استمرت على ما هي عليه فستكون جديرة بتسميتها مرحلة الموت البطيء للحزب.

في هذا العمل، اعتمدت بالدرجة الأولى على المراجع التي تركها لنا سعاده نفسه، وهي المراجع الوحيدة الأكيدة الموثوقة التي لا يرقى إليها الشك، وخاصة على رسائله، وليس أفضل من الرسائل كمراجع للتاريخ. ثم اعتمدت بدرجة أقل، وبحذر وتحفظ، على مذكرات ومرويات ومدونات أعوان سعاده الأولين، وأيضاً على شهادات من أطراف أخرى من خارج الحزب تطرقت إلى قضية الحزب واستشهاد الزعيم.

كما أنني استفدت كثيراً مما كتبه غيري عن حوادث استشهاد سعاده، وخاصة كتب الأستاذ المرحوم أنطوان بطرس والدكتور مطانيوس يوسف ابراهيم والأمين الراحل بشير موصلي والأمين سامي خوري والأمين أحمد أصفهاني، وغيرهم، ففيها كمية لا بأس بها من وثائق، محاضر ورسائل وأحاديث ومقابلات حية وحصرية حصلوا عليها أو أجروها مع شخصيات عديدة عاصرت وشاهدت واشتركت في أحداث الاستشهاد، وأكثر هذه الشخصيات قد توفي الآن.

تبقى مسألة أثارها في وجهي رفيق آخر موجود فيَّ، ساكن في داخلي، في وجداني وعقلي، قال: وماذا تستفيد أنت ويستفيد الحزب وتستفيد الأمة من محاولتك وشكوكك وفتحك هذه الصفحات والتركيز عليها، أليس الأفضل أن تعمل على إبراز الجوانب المضيئة والمشعة الناصعة من تاريخ الحزب بدلاً من تحريك هذه القضايا المضرة؟

أجيب: لا ليست مضرة أبداً، إنها نافعة، بل هي نافعة كثيراً جداً. ذلك أن كل مساهمة في الكشف عن الحقيقة، مهما كانت هذه الحقيقة، هي عمل يجب أن يكون مطلوباً ومشكوراً. الحقيقة هي قيمة إنسانية مجتمعية تكتسب قيمتها بمعرفتها وليس بإخفائها. الحقيقة هي أن نعلنها إذ نعرفها ونراها، لا أن نخبئها، هي أن ننحاز إليها دائماً، أن ننصرها لتظهر ويستفيد منها المجتمع ويستفيد من العبر التي تقدمها. ليس أفضل من الحقيقة أن نبني عليها. إن كل فلسفة سعاده وقضيته هي مبنية على حقائق وليس على أوهام وافتراضات، وإن تلامذة سعاده ومريديه لا يخشون الحقيقة أبداً، بل يطلبونها.

الفصل الأول

البدايات الصعبة
من التأسيس الأول إلى السجن الطويل
(من 1932 إلى 1938)

تمهيد

متى يبدأ تاريخ استشهاد سعاده؟

هل يبدأ من يوم ولادته فجر الأول من آذار 1904 على أساس أن حياته كلها منذ اليوم الأول لولادته كانت ملحمة صراع متواصل ومستمر مليئة بالصعوبات الاستثنائية على كل صعيد، وكان متوقعاً له أن يقضي أو يستشهد في كل مرحلة من مراحلها؟ أم أن تاريخ استشهاد سعاده يبدأ من تاريخ تأسيسه للحركة السورية القومية الاجتماعية سنة 1932 والتي قال عنها هو نفسه إنها ستحرقه حيث قال: «**إنها تحرق وتضيء، تحرق من أتى بها ومن يقف في طريقها وتضيء طريق الحياة لأمة ظنها أعداؤها ميتة**»؟ أم أن تاريخ استشهاد سعاده يبدأ من حادثة الجميزة ليل 9-10 حزيران 1949، أي تاريخ شرارة «المطاردة والتوريط» التي خطط لها اليهود الصهيونيون ونفذوها بواسطة الحكومات والأدوات المحلية كوسائط للتنفيذ؟

لقد اخترت أن أبدأ من يوم تأسيس الحزب سنة 1932 رغم وجود أوجه منطقية مقبولة جداً للبدء بكتابة تاريخ استشهاد سعاده من كل واحدة من المراحل الثلاث المذكورة أعلاه، ذلك لأن موضوعي الرئيس الذي سأركز عليه هو العوامل والأسباب الحزبية الداخلية للاستشهاد. إن هذه العوامل والأسباب الحزبية الداخلية هي التي حتمت البدء من تاريخ تأسيس الحزب.

لقد كُتب الكثير عن حياة سعاده وجهاده الأسطوري المليء بالإعجاز، من طفولته إلى شبابه الأول إلى تأسيسه الحزب، ولن نعيد أو نكرر ما كُتب عن تلك المرحلة رغم علاقتها بجهاده اللاحق الذي أدى إلى استشهاده، بل سنبحث أكثر في طبيعة البيئة الاجتماعية- الثقافية- السياسية التي تعامل معها وجنّدها وقادها منذ سنة 1932، أي في أعضاء الحزب واستعداداتهم ومستوى مؤهلاتهم الروحية والمناقبية ودرجة استجاباتهم لما يطلبه الحزب ويتوقعه منهم وكيفية فهمهم وتعاملهم مع القضية التي أنشأها سعاده وتعاقد معهم على تحقيقها. سنبحث في ذلك أكثر من بحثنا في خصوم الحركة وأعدائها ونوعية أسلحتهم التي استعملوها في هذه الخصومة وهذا العداء.

ولقد كُتب أيضاً الكثير عن وقائع المواجهة والصراع الدائم بين الحزب وخصومه وأعدائه، الذي طبع حياة الحزب كلها منذ تأسيسه حتى لحظة الاستشهاد، ولكن لم يكتب أحد بعد كيف أن الأوضاع الحزبية الداخلية قد ساهمت وساعدت وسرّعت في عملية استشهاد هذا القائد التاريخي الاستثنائي الفريد عن عمر 45 سنة فقط، وهو في عزّ وأوج عطائه الفكري الفلسفي لأمته السورية وللعالم. في هذا الموضوع المحدد سنبينّ البون الشاسع بين تجاوب الأعضاء القوميين الاجتماعيين وإيمانهم بسعاده معلماً وهادياً وزعيماً، وبالتالي استعدادهم الدائم لبذل الدم والروح في سبيل الحركة والحزب والقضية، من ناحية، وبين معاكسة الأعوان والقيادات وبُعدها عن مواكبة زعيمها وعن فهمه وفهم خطورة قضيته، من جهة أخرى.

الفصل الأول هذا سيتمحور إذاً حول فكرتين أساسيتين هما: أولاً، أن حياة سعاده كانت دائماً مهددة منذ سنة 1932 وكان هو مشروع شهيد منذ ذلك الوقت، وكاد أن يستشهد عدة مرات. وثانياً، إيمان مطلق واستعداد كامل للتلبية في صفوف الحزب الشعبية مقابل معاكسة ومقاومة في صف المعاونين والأركان القيادية. ولا نقصد بذلك تبسيط المشهد واختزاله بوضع الحدّ بين استجابة الأعضاء ومعاكسة المعاونين، بل تقديم الصورة العامة الأكثر بروزاً، مع التنويه بوجود قيادات تاريخية ساهمت وأنجزت وأعطت ولكنها لم تستطع تغيير الصورة العامة والمشهد العام. وهذه المسألة هي مسألة ملفتة ونافرة وهي جديرة بأن تحظى بدراسة معمقة مستقلة بحثاً عن أسبابها. أما هنا فسنكتفي باستعراض حوادثها ووقائعها ونتائجها فقط دون الخوض في أسبابها التي نتركها لوقت آخر أو للمؤهلين أكثر لتناولها ودرسها.

سعاده لم يستكمل بناء الحزب... وأعاد ترميم ما تهدم عدة مرات

يكاد يجمع القوميون الاجتماعيون اليوم، وهم بأكثريتهم لم يكونوا قد ولدوا سنة 1932عندما تأسس الحزب، على أن سعاده كان يمكن له أن يفلت من قبضة أعدائه لو تسنى له أن يبني الحزب على القواعد والأسس التي وضعها له في نظامه ودستوره المكتوب والمنشور. إن سعاده لم يكن موجوداً فعلياً وعملياً ودائماً على رأس الحزب الذي أسسه سرياً سنة 1932 وبنى مداميكه الأولى حتى سنة 1935 تاريخ انكشافه، إلى سنة 1949 تاريخ استشهاده. فمن 1932 إلى 1949، سبع عشرة سنة لم يمارس سعاده

سلطته فعلياً وعملياً خلالها سوى خمس أو ست سنوات، وعلى فترات غير متواصلة بل متقطعـة ومضطربة لم يكن ممكنـاً خلالها إعداده إعداداً كافياً للوقوف بوجه قرار وخطة القضاء عليه.

35 بالمئة فقط

1 – مـن 16 تشريـن الثاني 1932 إلى 16 تشرين الثاني 1935 تاريخ السـجن الأول : ثلاث سنوات عمل سري صعب.

2 – من 16 تشرين الثاني 1935 إلى 16 أيار 1936 تاريخ الإفراج: ستة أشهر سجن.

3 – من 16 أيار 1936 إلى 16 حزيران 1936: شهر واحد استقبال وفود.

4 – مـن 16 حزيـران 1936 إلى 26 حزيران 1936 تاريخ سـجنه الثـاني: عشرة أيام عمل.

5 – من 26 حزيران إلى 12 تشرين الثاني 1936: أربعة أشهر ونصف سجن تقريباً.

6 – من 12 تشرين الثاني 1936 إلى 20 شـباط 1937 تاريخ يوم بكفيا: ثلاثة أشـهر ونصف عمل تقريباً.

7 – من 20 شـباط 1937 إلى 8 آذار 1937 تاريخ الاعتقال الثالث: أسـبوعان تقريباً ملاحقة ومطاردة

8 – من 8 آذار 1937 إلى أواسط أيار 1937: شهران سجن تقريباً.

9 – من أواسط أيار 1937 إلى 12 حزيران 1938 تاريخ مغادرته مركز الحزب باتجاه المغترب: سـنة وشـهر واحد عمل، ضمنها الشـهران الأخيران قضاهما حذِراً ومطارداً لتفادي الاعتقال الرابع.

10 – من 12 حزيران 1938 إلى 2 آذار 1947 تاريخ العودة إلى الوطن: ثماني سنوات وثمانيـة أشـهر تقريبـاً قضاهـا بعيداً عن قيـادة الحـزب، وكان قد تهدم كثير مما بناه قبل مغادرة الوطن.

11 – من 2 آذار تاريخ صدور مذكرة التوقيف إلى 9 تشرين الأول 1947 تاريخ سحب مذكرة التوقيف: سبعة أشهر وأسبوع تقريباً من الملاحقة والمطاردة.

12 – من 9 تشرين الأول 1947 إلى 9 حزيران 1949 تاريخ حادثة الجميزة: سنة وثمانية أشهر عمل. وهي أطول فترة عمل ونشاط بقيادة سعاده.

13 – من 9 حزيران إلى 8 تموز 1949: شهر واحد من المطاردة إلى الاستشهاد.

إذا جمعنا الفترات التي تحتها خط نحصل على عشر سنوات وثمانية أشهر تقريباً، كان سعاده فيها بعيداً عن قيادة الحزب، غير قادر عملياً على إكمال بنائه ومضطراً لإعادة ترميم ما تهدم منه عدة مرات. وذلك من أصل ست عشرة سنة وسبعة أشهر ونصف من عمر الحزب الإجمالي عند الاستشهاد. إذا أجرينا عملية حسابية بسيطة نحصل على نسبة مئوية هي فقط خمس وثلاثون بالمئة من عمر الحزب، كان خلالها سعاده قادراً عملياً على قيادته، وخمس وستون بالمئة كانت فترة فيها الكثير من العبث والتلاعب والانحراف العقائدي والنظامي والسياسي الذي ارتكبته القيادات الحزبية في غيابه، مع الأخذ في عين الأعتبار أن فترات العمل كان جزء كبير منها يصرف في إعادة بناء ما تهدم خلال فترات السجن أو الابتعاد القسري أو الملاحقة والمطاردة.

نورد ذلك بهذا التفصيل لنقول إن سعاده لم يتسن له بناء الحزب على الأساس الذي وضعه وشرعه له في نظامه ودستوره المكتوب. وتبعاً لذلك، إذا كان الحزب لم يستطع حماية زعيمه والمحافظة عليه فلا يعود السبب إلى فساد القواعد والأساس الذي بُني عليه، بل إلى استحالة البناء في ظروف تلاحق السجون والملاحقة والمطاردة وما يتخللها من تهديم لما بني في فترات العمل السابقة، واضطرار سعاده في كل مرة يخرج فيها من الأسر إلى إعادة ترميم وإصلاح ما تهدم.

قد يسأل القارئ الآن: وما هي الأسس والقواعد التي يفترض أن يكون الحزب قد بُني عليها؟ وكيف أقدمت قياداته في غياب الزعيم على تهديمها أو الانحراف عنها؟

القواعد والأسس هي عقيدة الحزب ونظامه، هي دستوره المكتوب والمنشور، وهي متضمنة في كل خطب سعاده وشروحه ومحاضراته ورسائله وكتاباته كما في قدوته وأعماله وسيرة جهاده حتى استشهاده. لكننا سنكتفي هنا بنشر وثيقة واحدة اعتبرها

سعاده نفسه أنها «**تفسير أول**» لقضية الحزب، أعني الخطاب المنهاجي الأول الذي ألقاه في اجتماع سري للمسؤولين المركزيين والمحليين في أول حزيران 1935، أي قبل انكشاف أمر الحزب بأسبوعين. أما عن كيفية إقدام القيادات الحزبية في غياب الزعيم على التهديم والانحراف العقائدي والنظامي والسياسي فسنورد أيضاً ملخصاً عنه عن طريق استعراض أبرز المحطات في تاريخ الحزب، في كل فصل من فصول هذا الكتاب، مبتدئين في هذا الفصل الأول الآن، من سنة 1932 حتى سنة 1938.

الخطاب المنهاجي الأول

منذ الساعة التي أخذت فيها عقيدتنا القومية الاجتماعية تجمع بين الأفكار والعواطف وتلم شمل قوات الشباب المعرضة للتفرقة بين عوامل الفوضى القومية والسياسية المنتشرة في طول بيئتنا وعرضها، وتكوّن من هذا الجمع وهذا اللمّ نظاماً جديداً ذا أساليب جديدة يستمد حياته من القومية الجديدة هو نظام الحزب السوري القومي الاجتماعي - منذ تلك الساعة انبثق الفجر من الليل وخرجت الحركة من الجمود وانطلقت من وراء الفوضى قوة النظام، وأصبحنا أمة بعد أن كنا قطعاناً بشرية وغدونا دولة تقوم على أربع دعائم: الحرية، الواجب، النظام، القوة، التي ترمز إليها أربعة أطراف الزوبعة القومية الاجتماعية الممثلة في علم الحزب السوري القومي الاجتماعي.

منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ وابتدأنا تاريخنا الصحيح، تاريخ الحرية والواجب والنظام والقوة، تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي، تاريخ الأمة السورية الحقيقي.

منذ الساعة التي عقدنا فيها القلوب والقبضات على الوقوف معاً والسقوط معاً في سبيل تحقيق المطلب الأعلى المعلن في مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي وفي غايته، وضعنا أيدينا على المحراث ووجّهنا نظرنا إلى الأمام، إلى المثال الأعلى، وصرنا جماعة واحدة، وأمة حية تريد الحياة الحرة الجميلة - أمة تحب الحياة لأنها تحب الحرية، وتحب الموت متى كان الموت طريقاً إلى الحياة.

لم تكن للشعب السوري قبل تكوين الحزب السوري القومي الاجتماعي قضية قومية بالمعنى الصحيح. كل ما كان هنالك تململ من حالات غير طبيعية لا يمكن

للشعب السوري أن يأنس إليها أو يجد فيها سداً لحاجاته الحيوية.

وقد تزعّمت جماعةٌ تململ الشعب وجعلوا همهم استثمار هذا التململ لينالوا مكانة يطمعون فيها، واستندوا في تزعمهم إلى بقية نفوذ عائلي مستمد من مبادئ زمن عتيق تجعل الشعب قطائع موقوفة على عائلات معينة تبذل مصالح الشعب في سبيل نفوذها. ورأى هؤلاء المتزعمون أن العائلة والبيت لا يكفيان في هذا العصر لدعم التزعم فلجؤوا إلى كلمات محبوبة لدى الشعب، كلمات الحرية والاستقلال والمبادئ، وتلاعبوا بهذه الألفاظ المقدسة متى كانت تدل على مثال أعلى لأمة حية، التعابير الفاسدة متى كانت وسيلة من وسائل التزعم وستاراً تلعب وراءه الأهواء والأغراض، خصوصاً المبادئ، ففيها يجب أن تتجلى حيوية الأمة وحاجاتها الأساسية. أما المتزعمون فقد اتخذوا من الشعب وسيلة للتعبير عن بعض المبادئ. فعكسوا الآية بطريقة لبقة، وقد يكون ذلك عن جهل مطبق، في سبيل تلك المبادئ. وقد كادوا ينجحون في تضحيته. وبدهي ألا تكون هذه القضية قضية قومية إلا للذين ضلوا ضلالاً بعيداً.

ففي هذا الزمان الذي هو زمن تنازع الأمم للبقاء، وفي هذا الوقت الحرج وشعبنا تعمل فيه عوامل الفساد والتجزئة والملاشاة القومية، انبثق الحزب السوري القومي الاجتماعي كما ينبثق الفجر من أشد ساعات الليل حلكةً ليعلن مبدأً جديداً هو مبدأ الإرادة- إرادة الحياة لأمة حية- مبدأ أن المبادئ توجد للشعوب لا الشعوب للمبادئ- مبدأ أن كل مبدأ لا يخدم سيادة الشعب نفسه ووطنه هو مبدأ فاسد- مبدأ أن كل مبدأ صحيح يجب أن يكون لخدمة حياة الأمة.

ليس الحزب السوري القومي الاجتماعي، إذاً جمعية أو حلقة، كما قد يكون لا يزال عالقاً في أذهان بعض الأعضاء، الذين لم يسمح لهم الوقت بالوقوف على المبدأ الحيوي الذي ينطوي عليه الحزب السوري القومي الاجتماعي وعلى حاجة الأمة السورية في هذا العصر. إن الحزب السوري القومي الاجتماعي لهو أكثر بكثير من جمعية تضم عدداً من الأعضاء أو حلقة وُجدت لفئة من الناس أو من الشباب. إنه فكرة وحركة تتناولان حياة أمة بأسرها، إنه تجدد أمة توهّم المتوهمون أنها قضت إلى الأبد، لأن العوامل العديدة التي عملت على قتل روحيتها القومية كانت أعظم كثيراً من أن تتحمل أمة عادية نتائجها ويبقى لها كيان أو أمل بكيان، إنه نهضة أمة غير عادية- أمة ممتازة بمواهبها،

متفوقة بمقدرتها، غنية بخصائصها- أمة لا ترضى القبر مكاناً لها تحت الشمس.

هـذا هو الحزب الســوري القومي الاجتماعي للذين وحّـدوا إيمانهم وعقائدهم فيه، هذا هو الحزب الســوري القومي الاجتماعي للذين وحّـدوا قوتهم فيه، هذا هو الحزب السوري القومي الاجتماعي للأمة السورية.

إن الغرض الذي أنشئ له هذا الحزب غرض أسمى، هو جعل الأمة السورية صاحبة السيادة على نفسها ووطنها. فقبل وجود الحزب السوري القومي الاجتماعي كان مصير هذه الأمة معلقاً على إرادات خارجية، وكانت أنظارنا دائماً تتجه إلى الإرادات الخارجية بعـد أن نكيّـف أنفسـنا وفقـاً لهـا. أمـا الآن فقد غـيّر وجود الحـزب السـوري القومي الاجتماعـي الموقـف. إن إرادتنا نحـن هي التي تقرر كل شيء، فنحـن نقف على أرجلنا وندافـع عـن حقنا في الحيـاة بقوتنا. ومن الآن فصاعـداً تدير إرادتنا نحـن دفة الأمور. كل عضو في الحزب السـوري القومي الاجتماعي يشـعر أنه آخذ في التحرر من السيادة الأجنبية والعوامل الخارجية المخضعة، لأنه يشـعر بأن الحزب هو بمثابة دولته المستقلة التي لا تستمد قوتها من انتداب ولا تستند إلى نفوذ خارجي.

الحقيقـة، أيها الرفقاء، أننا قد ترابطنا في الحزب لأجل عمل خطير جداً، وهو إنشـاء دولتنا، وليكون كل واحد منا عضو دولته المسـتقلة، والعمل ولا شك شاق فهل نعجز عنه؟

إن الجـواب على هذا السـؤال يختلج في نفوسـنا ويتردد ضمـن صدورنا، وقد يخرج من حلوقنا ولكن إثباته على صفحات التاريخ يتوقف على جهادنا. فالتاريخ لا يسـجل الأماني ولا النيات بل الأفعال والوقائع. وما أشـك، وهذه الوجوه المتجلية فيها دلائل القـوة والعـزم ماثلة أمامي، في أن أفعالنا ووقائعنا سـتثبت حكـم إرادتنا التي لا تعرف عجزاً.

إننا قد حررنا أنفســنا ضمن الحزب من السيادة الأجنبية والعوامل الخارجية، ولكن بقـي علينا أن ننقـذ أمتنا بأسرها وأن نحرر وطننا بكامله. وفي هذا العمل الخطير نواجه صعوبات داخلية وخارجية يجب أن نتغلب عليها، مبتدئين بالأولى منها، لأنه لا يمكننا أن نتغلـب على الصعوبات الخارجية تغلباً تامـاً إلا بعد أن نكون تغلبنا على الصعوبات

الداخليـة. وأول مـا يعترضنا مـن الصعوبات الداخليـة، هو خلو مجموعنـا من تقاليد قوميـة راسـخة نتربى عليها ونتمسـك بها. فنفسـياتنا الشـخصية هي دائـماً في تضارب مـع نفسـيتنا العامة في كل ما له علاقة بقضايانا العامـة وكيفية التصرف فيها. أضف إلى ذلك التقاليد المتنافرة المسـتمدة من أنظمتنا المذهبية وتأثيرها في مقاومة وحدة الشـعب القوميـة. ولا بد لي هنا من التصريح بأن الحزب السـوري القومي الاجتماعي قد أوجد طريقـة للتغلب على هـذه الصعوبات بنظامنا الـذي يظهر التقاليد منافيـة لوحدة الأمة والنفسـيات الشخصية المنافية لنفسـية الأمة. والنجاح الأخير يتوقف فعلاً على إدراكنا قيمـة هـذه الحقيقة وعلى تطبيقنـا رموز الحزب الأربعة التي تربطنـا ربطاً لا يحل، والتي هـي: الحريـة والواجب والنظام والقـوة. وإن إدراكنا لحقيقة التغـير الذي شرع الحزب السـوري القومي الاجتماعي يحدثه في حياتنا القومية ليجعلنا لا نغفل عن طبيعة التغير ومـا يصحبه مـن حوادث. والحقيقـة التي تثلج صدورنـا هي: أن السـوريين القوميين الاجتماعيـين عمومـاً يؤمنون بضرورة هذا التغير إيماناً تاماً ويظهرون اسـتعدادهم التام وعزمهـم الأكيـد عـلى أن يحققوا انتصـار مبادئ الحزب السـوري القومـي الاجتماعي مبتدئين كل واحد بنفسـه. وفي هذا الصراع بين عوامـل الرجعة وعوامل التجدد نؤمن بانتصار القوى الجديدة، والقوة المجددة، القوى التي تريد أن تتغلب على كل ما يقف في طريقهـا للخروج من حالة عفنة لا نظام فيها ولا قوة، إلى حالة صحيحة عنوانها النظام وشعارها القوة، القوة الممثلة في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

كذلـك أريد بهذه المناسـبة أن أصرّح بأن نظام الحزب السـوري القومي الاجتماعي ليـس نظامـاً هتلريـاً ولا نظاماً فاشـياً، بل هو نظـام قومي اجتماعي بحـت لا يقوم على التقليد الذي لا يفيد شيئاً، بل على الابتكار الأصلي الذي هو من مزايا شعبنا.

إنـه النظـام الذي لا بـد منه لتكييـف حياتنا القوميـة الجديدة ولصون هـذه النهضة العجيبة، التي سـتغير وجه التاريخ في الشرق الأدنى، من تدخل العوامل الرجعية التي لا يؤمـن جانبهـا والتي قـد تكون خطراً عظيماً يهدد كل حركة تجديدية بالفسـاد في ظل النظـام البرلماني التقليدي الذي لا سـلطة له في التكييف. أزيـد أيضاً أن نظامنا لم يوضع عـلى قواعـد تراكمية تمكن من جمع عدد مـن الرجال يُقال إنهـم ذوو مكانة يقفون فوق أكـوام من الرجال تمثل التضخم والتراكم بأجلى مظاهرهما، بل على قواعد حيوية تأخذ

الأفـراد إلى النظام وتفسـح أمامهم مجـال التطور والنمو حسـب مواهبهم ومؤهلاتهم. لقد بلغني وطرق أذني مراراً أن أعضاء دخلوا الحزب متوقعين أن يروا أصحاب المكانة المتضخمـة عـلى رأسـه، ولكن عجبهـم لم يلبث أن تحـول إلى إعجاب حـين وجدوا أن سياسـة الحزب الداخلية تتجه إلى الاعتماد على القوة الحقيقية، وقوة السواعد والقلوب والأدمغة لا على قوة المكانة. إن مكانة كثيرين من الرجال في الزمن الذي نريد أن يزول مسـتمدة بالأكثر من مبادئ لا تتفق في جوهرها ولا في شـكلها مع المبادئ التي سنجدد بها حيوية أمتنا.

إن مبادئنـا القوميـة الاجتماعية قـد كفلت توحيـد اتجاهنا، ونظامنا قـد كفل توحيد عملنا في هذا الاتجاه ونحن نشعر أن التغيير يفعل الآن فعله الطبيعي.

إن مبدأ «سـورية للسـوريين والسـوريون أمة تامـة» أخذ في تحرير نفسـيتنا من قيود الخوف وفقدان الثقة بالنفس والتسليم للإرادات الخارجية.

ليست القومية إلا ثقة القوم بأنفسهم واعتماد الأمة على نفسها. ومن هذه الجهة نرى أن مبدأنا هذا يكسـبنا الحيوية المطلوبة لجعل شـخصيتنا القومية ذات مثال أعلى خاص وإرادة مسـتقلة هي أسـاس كل اسـتقلال. «ومبدأ أن الأمة السـورية مجتمع واحد» هو مبـدأ يجب أن يتغلغل في أعماق نفوسـنا لأنه المبدأ الذي يضع شـخصية أمتنا فوق جميع الأهواء والنزاعات الموروثة من تربية لا تزال البعثات والمدارس الدينية تزيد إضرامها- حالة، سـيكون من أهم أعمالنا، وضع حد لها وابتداء قومية صحيحة تحل محلها وتكفل توحيـد عواطفنا. ومبدأ «إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أسـاس الإنتاج» مبدأ تقرر ليقوم عليه بناء نجاحنا الاقتصادي الذي لابد منه لتوفير القوة المادية والحياة الصحيحة لمجموع الأمة.

تحت عوامل مبادئ الحزب السـوري القوي الاجتماعي تسـير عمليـة تحرير أفكارنا مـن عقائـد مهترئة وأوهـام قعدت بنا عن طلب مـا هو جدير بنا، كالوهـم الذي يدعو إليـه فريق من ذوي النفوس السـقيمة والعقول العقيمة، وهو أننـا قوم ضعفاء لا قدرة لنـا عـلى شيء ولا أمـل لنا بتحقيـق مطلـب أو إرادة، وأن أفضل ما نفعله هو أن نسـلم بعجزنـا ونترك شـخصيتنا القومية تضمحل بين الأمم ونقنع بكل حالة نسـير إليها. إن

السوريين القوميين الاجتماعيين قد حرروا أنفسهم من مثل هذا الوهم الباطل وأخذوا على أنفسهم تحرير بقية الأمة منه. هذه مسؤولية ملقاة على عاتق كل عضو من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهي مسؤولية تصغر أمامها كل المسؤوليات الأخرى وتعظم مع عظمها حيوية كل فرد من أفراد مجموعنا. وسورية الناهضة، القائمة على القوى القومية الجديدة الممثلة في الحزب السوري القومي الاجتماعي ستكون غير سورية الرازحة تحت التقليد المسترسلة إلى أوهام فاقدي الروح القومية وعديمي الثقة بالنفس.

إن سورية الحزب السوري القومي الاجتماعي هي سورية الوحدة القومية المنظمة بطريقة تجعل المواهب المخزونة فيها قوة عامة قادرة على تحقيق ما تريد. إننا نؤمن إيماناً تاماً بأن الروح المتولدة من مبادئنا ستنتصر انتصاراً نهائياً وتتغلب على جميع الصعوبات الداخلية، وإذا كان ذلك يحتاج إلى وقت فذلك لأن الوقت شرط أساسي لكل عمل خطير.

أما الصعوبات الخارجية فتهون متى تغلبنا على الصعوبات وتمركزت إرادة أمتنا في نظامنا الذي يضمن وحدتها ومنع عوامل القسمة المتفشية خارج الحزب من التسرب إلى وحدتنا المتينة التي نضحي في سبيلها بكل ما تطلبه منا التضحية. وبهذه المناسبة لا أريد أن أتناول وجهة قضيتنا الخارجية بتمامها، فلهذه فرصة عسى أن تكون قريبة. فأقتصر على ذكر مبدأ عام سائد في التاريخ، وهو أن مصير سورية يقرر بالمساومات الخارجية دون أن يكون للأمة السورية شأن فعلي فيها. وعلى هذا المبدأ تعتمد الدول الكبرى في مزاحمتها لبسط نفوذها علينا. وأنا أريد الآن أن أصرح بأن إنشاء الحزب السوري القومي الاجتماعي ونموه المستمر سيتكفلان بطرد مثل هذه الوساوس من رؤوس السياسيين الطامعين.

إننا نشعر الآن بوجود دعاوى إيطالية قوية في هذه البلاد خصوصاً وفي الشرق الأدنى عموماً. وكذلك نشعر نحن بمثل هذه الدعاوى من جهة ألمانيا وبمثل ذلك من دول أخرى. فزعامة الحزب السوري القومي الاجتماعي تحذّر جميع الأعضاء من الوقوع فريسة للدعوات الأجنبية. إننا نعترف بأن هنالك مصالح تدعو إلى إنشاء علاقات ودية بين سورية والدول الأجنبية، خصوصاً الأوروبية. لكننا لا نعترف بمبدأ الدعاوى الأجنبية. يجب أن يبقى الحزب السوري حراً مستقلاً، أما المصالح المشتركة

فنحن مستعدون لمصافحة الأيدي التي تمتد إلينا بنية حسنة صريحة في موقف التفاهم والاتفاق.

يجب على الدول الأجنبية التي ترغب في إيجاد علاقات ودية ثابتة معنا أن تعترف، في الدرجة الأولى، بحقنا في الحياة وأن تكون مستعدة لاحترام هذا الحق، وإلا فالإرادة السورية الجديدة لا تسكت عن المناورات السياسية التي يقصد منها استدراج أمتنا إلى تكرار الأغلاط السياسية التي ارتكبت والتي كانت وبالاً عليها.

إن مهمة صون نهضتنا القومية الاجتماعية هي من أهم واجبات الحزب السوري القومي الاجتماعي، ولن نعجز عن القيام بها على أفضل وجه ممكن، فيمكن للدعوات الأجنبية أن تتفشى في فوضى الأحزاب، لكنها متى بلغت إلى السوريين القوميين الاجتماعيين وجدت سداً منيعاً لا تنفذ فيه، لأن السوريين القوميين الاجتماعيين حزب غير فوضوي ولأنهم لا يتمشون إلا على السياسة التي يقرها حزبهم. ليسوا هم جماعة مبعثرة بل قوة نظامية.

أعود فأقول إن هذه القوة النظامية ستغير وجه التاريخ في الشرق الأدنى، وقد شاهد أجدادنا الفاتحون السابقون ومشوا على بقاياهم أما نحن فسنضع حداً للفتوحات!

تحت طبقة الثرثرة والصياح المنتشرة فوق هذه الأمة، يقوم السوريون القوميون الاجتماعيون بعملهم بهدوء واطمئنان وتمتد روح الحزب السوري القومي الاجتماعي في جسم الأمة وتنظم جماعتها. ولكن سيأتي يوم، وهو قريب، يشهد فيه العالم منظراً جديداً وحادثاً خطيراً- رجالاً متمنطقين بمناطق سوداء، على لباس رصاصي، تلمع فوق رؤوسهم حراب مسنونة، يمشون وراء رايات الزوبعة الحمراء يحملها جبابرة من الجيش فتزحف غابات الأسنة صفوفاً بديعة النظام. فتكون إرادة للأمة السورية لا ترد، لأن هذا هو القضاء والقدر! (انتهى الخطاب).

هذا كان ملخصاً مكثفاً جداً للقواعد والأسس التي بُني عليها الحزب، أي لعقيدة الحزب ونظامه وغايته ولمنهجه أيضاً، أي سياسته، لتحقيق هذه الغاية. فلنبدأ الآن بعرض المحطات الرئيسة لتاريخ سير الحزب ونرى مدى التزام قياداته، خاصةً في غياب زعيمه، بهذه القواعد والأسس.

اثنان منافقان واثنان خائنان

لقد بدأت معاناة سعاده باكراً جداً مع معاونيه داخل الحزب، قبل معاناته مع أعدائه الخارجيين. فولادة الحزب سنة 1932 كانت ولادة قيصرية شهدت انتماء «منافقين» اثنين، ما اضطر سعاده للتظاهر بأنه تخلى عن فكرة الحزب بالمرة، كأسلوب للتخلص منهما دون مضاعفات انتقامهما وإفشائهما سرّ وجوده. وبعد انكشاف وجود الحزب سنة 1935 فإن خائنين اثنين آخرين من حلقة المقربين منه تسببا في سجن سعاده مرتين، السجن الأول والثالث (السجن الثاني لم يكن بسبب خيانة). الخائن الأول تسبب في السجن الأول لسعاده عندما سلّم للسلطات الانتدابية أسماء الأركان وأوراق الحزب، ما أدى إلى اعتقال الجميع وزجهم في السجن بتاريخ 16 تشرين الثاني 1935 استناداً إلى قانون منع الأحزاب (خطاب الزعيم في أول آذار 1938،الأعمال الكاملة 3 ص 186). إن ما انكشف لاحقاً (مقالة محمد نزال في جريدة الأخبار في 16-11-2016) من أن رئيس الجامعة الأميركية في بيروت بيار دودج هو الذي وشى للسلطات الفرنسية المنتدبة عن وجود الحزب، لا ينفي كلام سعاده عن خيانة العضو الذي سلّم الأمن العام أوراق الحزب ووثائقه.

وفي المرة الثانية (السجن الثالث) أفشى الخائن الثاني للسلطات مكان وجود سعاده، حيث جرى اعتقاله على طريق ضهر البيدر في السيارة برفقة جورج عبد المسيح ووداد ناصيف بتاريخ 8 آذار 1937، وذلك بعد صدور مذكرة توقيف بحق سعاده على أثر ما عُرف بتاريخ الحزب «بيوم بكفيا». الخائن الأول هو عزيز الهاشم، أما الثاني فهو محمد باشا المناصفي، وقد اكتشفه سعاده واكتشف خيانته بعد حين وهو في قبرص في طريقه إلى أوروبا وأميركا الجنوبية.

هذا كان عن السجنين الأول والثالث، أما عن السجن الثاني فكان بسبب، أو بحجة، وقوع «مرسوم الطوارئ» الحزبي بيد السلطات الانتدابية جراء إهمال أحد الأعضاء وهو جورج حداد، والذي اعتبرته هذه السلطات دليلاً على وجود تنظيم عسكري داخل الحزب. وأيضاً بحجة قيام منفذ عام بيروت الرفيق عبدالله الجميّل بتأديب أحد الصحفيين المتهجمين والمفترين على الحزب.

السجن الأول

في السجن الأول لم يتوقف الأمر على الاعتقال وحجز الحرية ووقف العمل، بل شهد السجن معاكسات وسلبيات من أعوان سعاده أنفسهم، أكان داخل السجن أو خارجه. فخلال السجن الأول يروي سعاده نفسه كيف ضعف وانهار بعض الرفقاء المسجونين معه حتى إن أحدهم «تنكر لي وتظاهر أنه لا يعرفني»، وكيف استطاع أن يعيد لهم تماسكهم وإيمانهم «بالموقف الذي وقفناه بين دخول السجن والخروج من المحكمة انتصرت روحية الحزب السوري القومي على عوامل الزمن العتيق وروحيته العديمة الفضائل والمناقب» (خطاب أول آذار سنة 1938). فموقف الزعيم في المحكمة ورفضه التكلم بالفرنسية مع القاضي الفرنسي، مع أنه يجيد التكلم بها، وقوله للقاضي إنني في وطني وأرفض التكلم بلغة غير لغة بلادي القومية، كما رفضه أن يناديه القاضي باسم أنطوان وإصراره على اسمه الحقيقي أنطون، ورده تهمة خرق وحدة وسيادة الدولة إلى مطلقيها وانتقاله من الدفاع إلى الهجوم وقوله إن خرق سيادة بلادنا قد تم فعلاً في سيفر ولوزان وسان ريمو، في إشارة إلى القرارات والاتفاقات الدولية التي انتهكت وحدة الوطن السوري وسيادة السوريين على وطنهم سورية.

وخلال السجن الأول أيضاً، لا بأس من إلقاء الضوء على مسألة كيفية ظهور ما صار يسمى «نائب الزعيم». يروي فريد الصباغ في مذكراته أن سعاده من سجنه الأول كلف المسؤولين الذين أفلتوا من الاعتقال والسجن بملء الشواغر وتعيين مسؤولين مكان رفقائهم السجناء، وهم بالإضافة إلى فريد، زكريا اللبابيدي ورفعت زنتوت وعادل عيتاني وصلاح لبكي، وكيف أقدم المكلفون على تعيين الرفيق صلاح لبكي نائباً للزعيم. ولما عرف الزعيم من سجنه قال لفريد الصباغ: «من أين أتيتم بهذه البدعة فزعامة الحزب ليست مسؤولية تخضع للتغيير وإعطائها لغير الزعيم». وعندما قال له فريد إننا سنلغيه، أجابه الزعيم: «لا تلغوه لقد حصل الآن». وقد استعمل سعاده تعبير «النائب الإداري للزعيم» (خطاب أول آذار 38) أي مضيفاً كلمة «الإداري» لأن الزعامة تشمل أعمالها ما هو أبعد من إدارة الحزب بكثير، تشمل التأسيس والإنشاء وخلق القضية والمبادئ والعقيدة، وهذه مهمة ومسؤولية لا تنتقل لغيره.

ويجب أن نذكر أيضاً أنه بالرغم من السجن وأجوائه المظلمة الضاغطة وصعوبة

الوصول إلى المراجع، فإن سعاده أنجز كتابه العلمي الفريد الفائق الأهمية «نشوء الأمم» وهو سجين.

أما خارج السجن فيخبرنا سعاده في خطاب أول آذار لسنة 1938 ويقول: «ولا بد لي من التصريح أيضاً أن الحزب قد قصر كثيراً أثناء وجودي في السجن في الاستفادة من القوة الروحية العظيمة التي ولدها في الشعب، ولم يفعل شيئاً في سبيل إظهار قوته. فبالرغم من تعليماتي الصادرة من السجن بأني أريد أن أرى الحزب في جمهوره وقوته المعنوية يوم خروجي من السجن، فإن الإدارة المركزية قررت منع السوريين القوميين من استقبال الزعيم في مجموعهم يوم خروجه من السجن، وقسمت الاستقبال إلى فرق ومواعيد استغرقت نحو شهر كامل فتقسمت بذلك معنوية الحزب وضعف اندفاع أعضائه، وكانت تلك الفرصة مناسبة جداً لزيادة معنويات الحزب وإظهار قوته.

السجن الثاني

رغم ذلك فقد كان لموقف سعاده البطولي خلال حوادث السجن الأول مفعوله القوي في إنقاذ معنويات الأعضاء وجذب انتباه وتعاطف الشعب، وصار الناس يريدون التعرف أكثر على هذه الحركة القومية الجديدة الناشئة القائمة على إيمان وصمود وثبات زعيمها وأعضائها الأوائل. كانت ردود الفعل الحزبية والشعبية تتميز بالحماس والتأييد والابتهاج، مما ساعد كثيراً على امتداد الحزب وانتشار عقيدته في مختلف الأوساط والمناطق، مما أثار قلق السلطات الأجنبية الانتدابية الحاكمة فترصدت تحرك الزعيم ومعاونيه ووضعتهم تحت رقابة شديدة متحينة الفرصة للضربة الثانية.

ننقل عن بشير موصلي من مذكراته (الطبعة الأولى 2016 عن دار الفرات ص 60): «في 12 أيار 36 كان بعض المسؤولين والرفقاء ملتفين حول سعاده في منزله يتحدث إليهم حول المرسوم الجمهوري الذي حلّ الحزب، معلناً لهم بأن الحكومة يمكنها حلّ الحزب بمرسوم، ولكن الحزب قائم بإرادة الشعب وليس إرادة الحكومة، وإرادة الشعب تستطيع حل الحكومة ولكن الحكومة لا تستطيع حل إرادة الشعب». ولا شك أن هذا التصريح لسعاده من شأنه أن يزعزع أوصال الحكومة ويدفعها إلى التربص والتفكير بوقف هذه الحالة الثورية ووضع حد لصاحبها.

ففـي الثلاثين مـن حزيران 36 اعتقل سـعاده ثانية بعد اتهام السـلطة المنتدبة للمنفذ العـام الرفيـق عبـد الله الجميل بتأديـب الصحافيـين المفترين والمتهجمـين على الحزب، فطوق رجال الأمن وعلى رأسهم فريد شهاب (هو نفسه الذي تسلم سعاده من حسني الزعيم بعد 13 عاماً وحاول قتله على الطريق بين دمشق وبيروت) منزل الزعيم ودخلوه عنـوة بعد عـراك مع الرفقاء الموجودين في السـاحة. فأطل سـعاده وانتهر رجال الأمن فانسـحبوا خارج المنزل، ما عدا رئيسـهم فريد شهاب الذي أبلغ الزعيم بوجود مذكرة توقيف وطلب الحضور إلى دائرة التحقيق. فعاد الزعيم إلى الغرفة وترك مسدسه وكتب مرسـوماً بتعيين مجلس أعـلى مؤقت. ثم تبين فيما بعد أن موضـوع التوقيف كان ظاهره موضوع تأديب الصحافيين وباطنه اتهام سعاده ورفقائه بإعادة تشكيل الحزب السياسي المنحـل بمرسـوم جمهوري، وهو جـرم ينطبق عليه نص المادة 13 مـن قانون الجمعيات العثماني الساري المفعول» (نفس المصدر ص 61).

أما في داخل السـجن الثاني فقد اسـتدعاه مدعي عام التمييز ألفريد أتيان (مذكرات فريد الصباغ) وهدده بالقتل عن طريق تسـميم طعامه والقول إنه انتحر، إذا بقي مصراً على عقيدته ولا يعمل على أسـاس كيان لبنان فقط. وسـعاده يجيب القاضي قائلاً له إنه لا يأبه لتهديده ولموته فالحزب قد تأسس، وإنه كان يكره أن يموت قبل تأسيس الحزب وليس الآن.

ومـرة أخـرى يحوّل سـعاده سـجنه إلى فرصـة للإنتاج ويكمـل الصراع مـن داخل السـجن، فهـا هـو يخبرنا: «إن السـجن مع كل ما يورثـه من أذى ومتاعـب ليس عديم الجدوى، فقد تمكنت في الأسـبوعين الأخيرين من إكمال العمل التأسـيسي الذي بدأته، وكانـت حياتي في هـذه المدة القصـيرة كثيرة الإنتاج مـع كل الظـروف الصعبة المحيطة بي. وإننـي أعتـبر إنجازي شرح مبادئ الحزب في مدة لا تتجاوز 24 سـاعة أعظم عمل قمت به في حياتي في أقصر وقت. إن هذا الشرح الوجيز يحتوي تعاليم الحزب وإيضاح قضيته. وقد أنجزت مع الشرح المذكور أهم شغل في بناء الحزب منذ إنشائه، أي تكوين جذعه الذي هو هيئات عليا ومجالس دنيا وعليا. فقبل هذا الإنشاء الجديد كنت أتصور الحـزب رأسـاً وأعضـاء دون صدر وأكتاف، أمـا الآن فهو هيكل حي تـام قابل النمو» (الأعمال الكاملة 9 ص 18). أما وصف سعاده لشرح المبادئ بأنه أعظم عمل قام به في

حياته في أقصر وقت، فهو لأن «شرح المبادئ بلور العقيدة وصفّاها من التأويلات غير المسؤولة ومن الاختلاطات الغريبة» (من رسالته إلى غسان تويني تاريخ 26 أيار 46).

المجلس الأعلى وخذلانه لسعاده

المجلس الأعلى الذي كتب سعاده مرسوم تعيينه قبيل السجن الثاني بلحظات كان مؤلفاً من المحامي صلاح لبكي رئيساً وعضوية نعمة ثابت ومأمون أياس وفوزي بردويل ويوسف بحمدوني. هذا المجلس لم يستطع تأدية الدور المطلوب منه، وقد برهن أن سعاده كان نسيجاً وحده في العقيدة والتنظيم والقيادة وفي كل شيء. في خطاب أول آذار لسنة 38 يقول سعاده عن هذا المجلس: «اجتمع هذا المجلس بعد جهد جهيد في جلسة غير نظامية وغير رسمية وأجمعت آراء ثلاثة أخماسه على عدم إمكانية العمل وعدم مقاومة الضغط وعلى التخلي عن المسؤوليات. كانت تلك روحية سيئة جداً انعكست على روحية الأعضاء عموماً وأوجدت ميلاً إلى الخنوع للضغط والتراخي وزعزعت مبدأ التضامن في المسؤوليات وعدمت كثيراً من الثقة العامة التي اكتسبها الحزب من مظاهر القوة والعزم في السجن الأول.»

الجدير ذكره هنا أن صلاح لبكي عاد واعتذر لسعاده عندما انضم إليه في سجنه وأبدى استعداده للعمل بعد خروجه من السجن. وهكذا كان الرفقاء الأوائل، يستمدون من سعاده روحية القوة والعزم وإرادة الصراع حتى وهو في سجنه. فأعاد سعاده تشكيل مجلس أعلى جديد بعد الخروج من السجن، وبرئاسة لبكي نفسه.

كان سعاده من سجنه يخطط وينظم ويوزع الأعمال ويقود الصراع، فقد اندلعت في الثامن من تموز (يا له من تاريخ) سنة 1936 أول مواجهات حزبية احتجاجية بوجه السلطة الأجنبية الانتدابية وأدواتها المحلية. لقد قامت تظاهرات في مختلف المناطق الحزبية كطرابلس وبيروت والجبل والبقاع والكورة أمام السراي ومخافر الدرك. ففي الأشرفية قدم المسؤول عن التظاهرة الرفيق فيليب فارس عريضة جاء فيها: «لما كنتم اعتقلتم زعيم السوريين القوميين من أجل عقيدته، ولما كنا نحن أيضاً ندين بالعقيدة نفسها، لذلك جئنا طالبين اعتقالنا نحن أيضاً إلى أن يفرج عن زعيمنا» (جريج – من الجعبة ج 2). والدليل أن وراء هذه التظاهرات مخطِط ومنظِم واحد هو سعاده رغم

سجنه، هو أن نص هذه العريضة هو عينه الذي قُدم في جميع التظاهرات التي اندلعت في كل مناطق الحزب.

محاولة قتل سعاده في السجن

إن تجربة سعاده الأولى مع محاولة قتله وإطفاء شعلة صراعه وكفاحه كانت في سجنه الثاني سنة 1936، أي سنة واحدة بعد انكشاف تأسيس الحزب. يخبرنا جبران جريج من جعبته أن مدعي عام الاستئناف ألفرد ثابت (فريد صباغ يقول إنه مدعي عام التمييز ألفرد أتيان) وجه تهديداً للزعيم بالقتل وقال له: «إنني قادر على أن أسمم طعامك في سجنك وأدعي أنك انتحرت». كان جريج ونهاد حنا يتواجدان بين العديد من أعضاء الحزب أمام دائرة التحقيق عندما خرج سعاده من التحقيق مطوقاً من الدرك. شاهد سعاده الرفيقين جبران وحنا فأخذ يرسل لهما إشارات في الهواء بأصابعه في تشكيل معين، أحياناً برفع إصبع وتخفيض أخرى أو برفع إصبعين... ونهاد حنا يكتب على ورقة ما ترمز إليه حركات الأصابع وإشارات سعاده. يقول جبران إنه تحت الاستغراب والاندهاش سأل حنا عن معنى ما شاهد فشرح له حنا وجود لغة سرية للتخاطب هي لغة الأصابع، فكل شكل يعني حرفاً معيناً، وإن سعاده نقل بهذه الإشارات خبراً مفاده أن المدعي العام هدده بالقتل وسيقال إنه وُجد منتحراً. لا شك أن سعاده كان في إشاراته يستعمل اللغة الخاصة بالصم والبكم لتعذر مخاطبته لنهاد حنا مباشرةً، بسبب بعده عنه، ولم يكن جبران جريج قد سمع أو عرف بهذه اللغة من قبل.

بالرغم من أن أسلوب جبران في الرواية فيه نوع من الغرابة يلامس المبالغة، فإن واقعة محاولة قتل الزعيم في السجن الثاني عن طريق تسميمه هي واقعة أكيدة وردت أكثر من مرة على لسان أكثر من راوٍ. في اليوم التالي كان وفد من أنسباء سعاده ورفقائه يقدم مذكرة للمدعي العام يسجل فيها مسؤوليته عن أي حادث يعرض حياة الزعيم للخطر أو الموت.

معاناة سعاده مع معاونيه

لقد قلنا في المقدمة العامة لهذا الكتاب إن تاريخ الحزب، في جزء منه، هو تاريخ عبقرية سعاده وتجاوب رائع وسريع وصادق من الأوساط الشعبية في مختلف فئاتها

وألوانها المذهبية والعائلية ومراتبها الاجتماعية والاقتصادية، في مقابل ضعف وتخاذل وقصور من قبل المعاونين في قيادة الحزب وأصحاب المسؤوليات القيادية المركزية العليا. لقد حدثنا سعاده كثيراً في رسائله وفي خطبه عما بذل من جهد وعناء كبير لشد عصب معاونيه وتقوية معنوياتهم وإنقاذهم من عوارض الخوف والضعف والتراجع أمام عتوّ ضغط السلطات الأجنبية المنتدبة في البلاد وأعوانها وعملائها وصناعها المحليين، وتكتل الإقطاع ورجال الدين وأصحاب المصالح الفردية والمرتزقين من طاعة السلطات الأجنبية والخضوع لها. القوميون يرددون اليوم قول سعاده المشهور: «إذا كنتم ضعفاء وقيتكم بصدري وإذا كنتم جبناء أقصيتكم عني وإذا كنتم أقوياء سرت بكم إلى النصر»، وقليل منهم يعرف ظروف وأسباب هذا القول. لقد ذكرنا عوارض ضعف وتراجع وانكفاء معاوني سعاده الأولين أمام صدمة السجن الأول عقب انكشاف أمر الحزب، وقد ذكرنا تخلي أول مجلس أعلى عيّنه سعاده عن مسؤوليته، قبيل سجنه الثاني. وكل ذلك كان ضعفاً وقصوراً عن مواكبة بطولة سعاده رغم الإيمان بقضيته وأحقيتها وصحتها. لكن أن يُقدِم معاونو سعاده على عصيان تعليماته وأوامره الواضحة، فهو ما كان ينقص سعاده لتكتمل معاناته وتُغلق عليه سبل تحقيق وتنفيذ ما خطط له وأراد إنجازه. ولعل ذلك كان مقدمة لما ستفعله هذه القيادات بعد غياب سعاده في الاغتراب القسري ثم في الاستشهاد، من عصيان عليه والانحراف عن عقيدته والخروج على نظامه إلى درجة شق حزبه وتشتيت أعضائه. وكل ذلك سنذكره بالتفصيل في الفصول التالية.

ضعف وتشتيت استقبال الزعيم

كان لصمود سعاده وفرادة وألق مواقفه في المحاكمات وفي السجن، الأول والثاني، إلى جانب صحة عقيدته وأحقية قضيته القومية، مفعول قوي جداً في سرعة انتشار الحزب في الأوساط الشعبية المتعطشة لمن يجندها ويقودها للصراع، وخاصة أن زعيمها يمثل صفات ومزايا البطولة والشجاعة والثبات، فضلاً عن المعرفة والعلم وسمو الفكر والأخلاق والسيرة والمناقب. لقد تكثفت الانتماءات إلى الحزب في جميع مناطق الوطن السوري ابتداء من محيط مركز الحزب في بيروت، امتداداً إلى المناطق البعيدة من صيدا وصور والنبطية وعكا وحيفا والقدس وعمان وحوران والشام وحمص وحلب

والجزيرة والساحل والجبل بحماس خلاق وصمود وتحدٍّ زادته العقيدة الواضحة الصحيحة رسوخاً وثباتاً واستعداداً للتضحية بكل شيء، كما قال لهم سعاده بالضبط: «إننا تعاقدنا على أمر خطير يساوي وجودنا».

لم يشأ المجلس الأعلى للحزب، الذي تخلى عن مسؤولياته كما ذكرنا فوق، أن يدع سعاده يستفيد من قوة انتشار الحزب وإبراز قوته عن طريق تنظيم استقبال جماهيري حاشد له عند خروجه من السجن في أول تشرين الأول 36. يقول سعاده في ذلك ما يلي: «ولا بد لي من التصريح أيضاً أن الحزب قد قصر كثيراً أثناء وجودي في السجن في الاستفادة من القوة الروحية العظيمة التي ولدها في الشعب، ولم يفعل شيئاً في سبيل إظهار قوته. فبالرغم من تعليماتي الصادرة من السجن بأني أريد أن أرى الحزب في جمهوره وقوته المعنوية يوم خروجي من السجن، فإن الإدارة المركزية قررت منع السوريين القوميين من استقبال الزعيم في مجموعهم وقسمت الاستقبال إلى فرق ومواعيد استغرقت نحو شهر كامل، فتقسمت بذلك معنوية الحزب وضعف اندفاع أعضائه وكانت تلك الفرصة مناسبة جداً لزيادة معنويات الحزب وإظهار قوته.»

ويحارب على جميع الجبهات

لقد كان على سعاده أن يحارب على جميع الجبهات. صمود ومواقف رائعة في السجن وفي التحقيق، إنتاج فكري ودستوري وتنظيمي داخل السجن، توجيه وقيادة من سجنه للمواجهات والمظاهرات التي يقوم بها القوميون في المناطق، تصدٍّ للحالة السياسية الراهنة في البلاد وتوضيحها وشرحها واتخاذ المواقف القومية منها. وفي هذا الصدد أصدر بلاغاً إلى الرأي العام صار يعرف بالبلاغ الأزرق، أصدره من سجنه بتاريخ 15 تموز 36 انتقد فيه أعمال السياسيين السوريين وسياسة الوفد السوري إلى المحادثات الروسية- الفرنسية- الإنكليزية حينذاك لاقتسام ما سمّي بتركة الرجل المريض، أي سورية، مشدداً على وجوب اعتبار القضية السورية قضية قومية واحدة مستقلة تشمل الشام ولبنان، وكان بلاغاً نموذجاً عن كيفية رسم الموقف السياسي على أساس العقيدة والمبادئ القومية.

ومن السياسة الدولية إلى السياسة المحلية، كان لا بدّ لسعاده في ظل اتكال معاونيه

عليه في كل شأن كبير أو صغير، أن يضطر بنفسه للاهتمام بالشؤون المحلية. كان عليه هو أن يعالج مسألةً هي من صلاحية ومسؤولية منفذ عام بيروت. فبعد خروج الزعيم من سجنه الثاني بأسبوعين، أي في 16 تشرين الثاني 36 حدثت فتنة طائفية كان أبطالها الاحزاب الطائفية المحمدية واليسوعية في بيروت. فقد وقع تحريض واصطدام بين أحزاب الكتائب والوحدة اللبنانية المارونيين من جهة، وفرق النجادة الإسلامية والكشاف المسلم من جهة أخرى. وقد وصل التحريض إلى منابر خطباء الجوامع الذين دعوا إلى رد التحدي بمثله للمسيحيين الذين اعتدوا على بعض متاجر للمحمديين في بعض الأحياء المسيحية (كذا!).

حينها وزع الحزب على نطاق واسع بياناً يحمل عنوان «نداء إلى القوميين الاجتماعيين بمناسبة الفتنة الدينية»، ومما جاء فيه: «إن تحويل الوطن إلى ميدان ينقسم فيه الشعب الواحد الموحد المصالح والمصير إلى جيشين يتطاحنان للوصول إلى غاية واحدة هي الخراب، عمل شائن لا يليق إلا بالشعوب البربرية، والرجعية تحب البربرية لأن فيها حياتها». كما وجّه سعاده فرقتين نظاميتين من الحزب إلى مناطق الصدام لوقفه: واحدة إلى البسطة المحمدية بقيادة جورج عبد المسيح والثانية إلى الأشرفية بقيادة الرفيق مأمون أياس، وألقى هؤلاء خطابات في جموع المتظاهرين من الطرفين دعت إلى الاتحاد القومي ونبذ العصبيات الطائفية المتسترة بالدين. والمفارقة المؤلمة هي أن هذه الأفعى الطائفية ذات الرأسين عادت سنة 1949 والتفت على عنق سعاده وقتلته في أبشع فاجعة حلت بالبلاد على مدى عهود طويلة.

خيانة في حزب قومي نهضوي!

الحقيقة أن أبشع ما كان يعانيه الحزب هو من المثالب التي كانت متمكنة من أفراد المجتمع في عهد الخنوع والذل تحت السيطرة الأجنبية، والتي بقيت آثار منها تتحرك في المقبلين على النهضة القومية الاجتماعية نفسها، رغم أن هذه النهضة قد جاءت بالمناقب الجديدة وبالعقلية الأخلاقية الجديدة ورفعت القيم المجتمعية فوق القيم والنظرة الفردية وتوجت مبادئها الأساسية بمبدأ «مصلحة سورية فوق كل مصلحة». فها هو سعاده يصف بلاء الأمة وحالتها النفسية التي كونتها في عهد الذل والانحطاط المناقبي والأخلاقي، ويقول في المحاضرة العاشرة من محاضراته العشر سنة 1948: «...وكانت

الجاسوسية متفشية ومنتشرة في كل الأوساط. وكانت الخيانة منتشرة وتصدر من كل جهة تقريباً بلا حساب ولا مسؤولية... وكان كل خائن يظن أنه يقوم بمهارة عظيمة إذا سبق غيره إلى الخيانة ليستفيد من نتائجها».

وكان في خطاب أول آذار سنة 1938 قد قال «...فإذا النفسية العامة في الأمة نفسية خوف وجبن وتهيب وتهرب وترجرج في المناقب والأخلاق، ومن صفات هذه النفسية العامة الخداع والكذب والرياء والهزء والسخرية والاحتيال والنميمة والوشاية والخيانة وبلوغ الأغراض الأنانية ولو كان عن طريق الضرر بالقريب وعضو المجتمع. هذه هي الظروف السياسية والروحية التي وجدتني محاطاً بها عندما قررت وجوب إنقاذ الأمة بإنشاء الحزب السوري القومي والسعي لاكتشاف العناصر السليمة التائهة في فوضى هذه الظروف، وتنظيمها في الحزب». إلى أن أوضحَ سعاده مسألة الخيانة التي كشفت أمر الحزب للسلطات الانتدابية بهذا القول: «...لكن الشعور بوجود الحزب واتصال هذا الشعور بدوائر الاستخبارات والأمن العام لم يكونا كافيين لجلاء حقيقة هذا الحزب وطبيعته ومبلغ قوته، فكان لا بد من اكتشاف خائن لأن رجال الحزب المركزيين كانوا كلهم مخلصين ومنزهين وثابتين في مراكزهم، فتمكنت هذه الدوائر من اكتشاف أكثر من خائن ومأجور واحد، ولكن واحداً منهم فقط تمكن من انتهاز فرصة تشعب أعمال الحزب والوصول إلى معلومات وثيقة عن أماكن أوراق الحزب وأسماء جميع العاملين المركزيين فأعطى هذه المعلومات إلى دائرة الأمن العام التي اتخذت تدابيرها في الحال وكان أمر القبض علينا في السادس عشر من تشرين الثاني 1935.»

الحزب في مواجهة أفعى الخيانة والجاسوسية

يردد الرفقاء القوميون اليوم قول سعاده المشهور: «اقضوا على الخيانة أينما وجدتموها» ولا يعرف معظمهم ظروف هذا القول ودوافعه. إن صراع الحزب منذ اللحظة الأولى لتأسيسه كان صراعاً مزدوجاً، فالمثالب والأمراض الاجتماعية كان من المستحيل القضاء عليها مرة واحدة وكان متوقعاً تسربها إلى داخل الحزب، وقد تسربت بالفعل إلى داخل الحزب وعانى الحزب منها الكثير وكانت مواجهتها من أقسى الأعمال صعوبة. وقد تكلم الزعيم عليها في خطابه المنهاجي الأول سنة 1935 قال: «أما الصعوبات الخارجية فتهون متى تغلبنا على الصعوبات الداخلية وتمركزت إرادة أمتنا في نظامنا

الـذي يضمـن وحدتها ويمنع عوامل القسـمة المتفشـية خارج الحزب مـن التسرب إلى وحدتنا المتينة التي نضحي في سـبيلها بكل ما تطلبه منا التضحية». ثم يقول في خطاب أول آذار لسـنة 1938: «إن عملية تنقية الحزب السـوري القومي من العناصر الفاسـدة غير الصالحة لحمل الرسالة القومية الجديدة ابتدأت مع ابتداء الحزب، ويجب أن تستمر ليكون الحزب متيناً جديراً بحمل أعباء النهضة القومية».

بـين أيدينا كتـاب لحضرة الأمين أحمد أصفهاني هو «أنطون سـعاده والحزب السـوري القومـي الاجتماعي في أوراق الأمير فريد شـهاب المدير العام للأمـن العام اللبناني» صدر سـنة 2006. في هـذا الكتاب عـدد كبير من الوثائـق والأوراق التي توثـق تقارير مرفوعة من عملاء زرعتهم أجهزة المخابرات الفرنسـية ثم اللبنانية في الحزب. من هؤلاء من كان عضـواً عادياً في الحـزب، ومنهم من كان مدير مديرية، ومنهم من كان عميداً أو موظفاً في أحـد العمدات، لمن يريـد الاطلاع أكثر على هذه القضية يمكنه قـراءة ذلك الكتاب، ففيه تفاصيل كثيرة ومثيرة عنها. أما هنا فنكتفي بذكر هذه الواقعة التي حدثت قبيل استشـهاد سعاده بعدة أيام. بين أوراق فريد شهاب تقرير مرفوع من أحد عملائه يتكلم عن مضمون تقريـر مرفـوع من رئيس مكتـب المخابرات الحزبية إلى الزعيم بواسـطة نائـب رئيس هذا المكتب الرفيق عبدو نادر. يقول العميل: «بتاريخ 15-5-1949 مساء حضر إلى بيت نعمة ثابت في الغبيري كل من ريمون إده، كميل شـمعون، المفوض الكونت دي شـايلا، هنري فرعـون، جورج ثابـت، الكولونيل بركات وغيرهم، حيث عقد اجتماع دام حتى السـاعة 21 ليـلاً. وكانت سـيارات ذات الرقـم 39هـ س و144 هــ س و500 خصوصية بانتظار بعـض المجتمعـين. وإنه قد حـضر قبل الاجتماع بنهـار، في 14-5-49 راهبان مونسـنيور الأرجـح أنهما من قبل المطران مبارك أو لتمهيد الاجتماع الذي حصل وتناولوا الغداء على مائدة نعمة ثابت....».

هـذه كانت فقرات من تقرير مكتب «مام» الحـزبي إلى الزعيم. ويكمل العميل سرد معلوماته الشـخصية ويقول: «في 13-5-49 حضر إلى بيت أنطون سـعاده ليلاً راهب بثوبه ومعه شـخصان، حيث اجتمعوا به سـاعتين تناولوا في حديثهم السياسـة اللبنانية ونشاط الحكومة والأحزاب، ونشاط الحزب القومي وقوته. وهذا الخوري كان يدخل بطريقة سرية، هذا ما علمته من رئيس الحرس عند الزعيم».

قـد يكـون المخبر العميل مبالغـاً أو مفبركاً وقد لا يكون، لكنـه من الأكيد أن الأمن العـام كان لديـه عملاء وجواسـيس داخل الحزب، وأنه كان يعلم ويعرف حتى أسـماء رجـال مكتـب «م.أ.م» الحـزبي، أي المكتـب الأمني المختـص، وعلى الأقل اسـم نائب رئيسـه الرفيـق عبـدو نادر. أما رئيـس حرس بيت الزعيـم فنعتقد أنـه كان جورج عبد المسـيح حسبما قال لنا هـو في يومياته، لكن طبعـاً لا نعتقد أن عبد المسـيح يعرف عمالة المخبر الذي نقل عنه.

لن نطيل الآن في هذا الموضوع الذي سنتطرق إليه في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ونعـود إلى مـا كان يتعرض له الحزب ويواجهه الزعيم في الوطن قبل مغادرته في جولته إلى المغتربات.

جولة حزبية إلى الساحل الشمالي

إن فـترة ما بعد السـجن الثـاني كانت بدايتها هادئة نسـبياً، وقد سـمّاها البعض فترة الاسـتراحة. لكنها لم تسـتمر طويلاً، حيث اسـتأنفت السـلطات الانتدابية وعمالها من أصحـاب النفوذ الإقطاعـي والمالي والإعلامـي الهجوم على سـعاده والتصدي لحركته القوميـة، خاصة بعد زيارته الناجحة شـعبياً إلى مناطق طرابلـس وتل كلخ وطرطوس وصافيتا ومرمريتا وجبال العلويين حتى حدود لواء الاسكندرون.

كان سـعاده في جولتـه ينشر الحزب على نطاق واسـع ويزرع الرفقـاء الجدد زرعاً في كل ناحيـة يمـر بها. ففـي صافيتا مثـلا اجتمع خمسـة آلاف مواطن في مـكان واحد هو سـاحة الميدان للاستماع إلى صوت سـعاده، يوقظ فيهم الشعور بوحدة الحياة والمصالح والمصـير على امتداد رقعة الوطن الواحد، ويزرع في نفوسـهم وعقولهم الوعي القومي الاجتماعي بأنهم مجتمع واحد وأمة واحدة قوية عزيزة بديلاً للنعرات الطائفية والعائلية والمناطقية التي قزمتهم وجعلت منهم أقواماً وقطعاناً متحاربة ومتصارعة.

وفي تـل كلخ أحاطت بموكبه كواكب من الفرسـان من كل جانب، فأعطته العظمة والمهابـة التـي يسـتحقها ويسـتحقها كل قائـد قومي يسـمو عـلى التناحـرات الطائفية والإقطاعيـة المميتـة. في تل كلخ وتحت المطر الغزير كان لسـعاده قوله الشـهير: إن هذه السـيوف التي يحملها هؤلاء الفرسان الشـجعان قد حولها العهد القومي الذي نبنيه إلى

سيوف عز لشرف الأمة الواحدة ومجدها بعد أن كانت سيوفاً تقاتل لخدمة الاحتلال الأجنبي والإقطاع المحلي المتحالف معه...

إن ما كان يحققه سعاده وينجزه على صعيد انتشار الحزب وإيقاظ الشعب على حقيقة وحدة حياته ومصالحه ومصيره في هذه الحياة، لم يكن يعكره إلا بعض الجبن وبعض الضعف والتردد من بعض المعاونين الذين لم يكونوا ليثبتوا على ما أسسه سعاده ولم يكونوا ليستثمروا ما زرعه وسقاه بعلمه وفلسفته وصراعه وجهاده الكبير، ثم بدمه في 8 تموز 1949.

محاولة اعتقال رابعة في بيروت وخامسة في قبرص

لقد تكلمنا على الاعتقال الأول والثاني، أما الاعتقال الثالث فكان بسبب تحطيم سلاح الدرك والاشتباك معهم بالأيدي والعصي في بكفيا فيما عرف في تاريخ الحزب «بيوم بكفيا»، حيث لوحق الزعيم ثم اعتقل في 9-3-37.

أما في المرة الرابعة فقد أفلت الزعيم من محاولة الإيقاع به واعتقاله بأن غادر لبنان سراً وعلى عجل متوجهاً إلى أميركا الجنوبية عن طريق درعا- عمان- حيفا- قبرص، ثم روما- برلين- البرازيل- الأرجنتين. محاولة الاعتقال في المرة الرابعة كانت بسبب تركيب تهمة قبول الرشوة المالية من المرشح الخاسر غبريال منسى. ومنسى هذا كان قد تبرع بمبلغ مئتي ليرة للحزب أملاً في دعم الحزب له في الانتخابات، لكن الحزب لم يدعمه لأنه لم يجد فيه أهلية للنيابة عن الشعب، فأقام دعوى قضائية انتقامية ضد سعاده، متهماً إياه بقبول رشوة، ورغم انكشاف بطلان دعوته وعدم صحة التهمة المستندة إليه، فإن رئيس دائرة التحقيق القضائية رضا التامر أصدر مذكرة إحضار للزعيم في محاولة فاضحة لاعتقاله زوراً واستبداداً، مما يدل على أن السلطات كانت تبحث عن أي ذريعة للقبض على سعاده وإيقاف حركته. كان سعاده في تلك الفترة قد أعد خطة للسفر في جولة حزبية على المغتربات السورية، فعمد لتنفيذ خطته فوراً وغادر بيروت في 12حزيران 1938. ويبدو أن سعاده كان متنبهاً لكل ما يدبره أعداؤه له، على عكس ما كان عليه معاونوه، وبالتحديد هذه المرة عبد الله قبرصي رئيس المجلس الأعلى. داهمت قوى الأمن مكاتب الحزب بتاريخ 13 حزيران لاعتقال سعاده الذي

كان قد أفلت وغادر إلى عمان سراً في اليوم السابق. كان سعاده معرضاً للاعتقال إما في مكتب الحزب وإما في دار القضاء لو حضر ولبّى مذكرة الإحضار. إن تفاصيل خطة السلطة لإلقاء القبض على سعاده وكيفية اكتشاف سعاده لهذه الخطة وإحباطه لها، رغم تطمين عبد الله قبرصي لسعاده واستنتاجاته «السخيفة» حسب وصف سعاده لها، يمكن الاطلاع عليها في رسالتين بعثهما سعاده من قبرص لكل من قبرصي وفخري معلوف بتاريخ 1-7-38 و2-7-38. في رسالته إلى عبدالله يقول له: «إذا أُعِدتُ فتكون أنت الذي سلمني»، ويقصد إذا قُبِض عليه في قبرص وأُعيد إلى بيروت مخفوراً. وأيضاً: «إني أحمل ما أحمل من أعدائي ومن أعواني».

وفي رسالة أخرى لفخري معلوف، وقد صار رئيساً للمجلس الأعلى بديلاً لقبرصي، وسعاده لا يزال في قبرص، يقول له فيها: «يجب الاستعداد للطوارئ. وإذا كان الخصوم سيلجؤون إلى وسائل غير مقبولة ويستعملون اللؤم، فيجب الاحتياط لإحباط جميع مؤامراتهم والوقوف موقفاً عاماً هذه المرة. لأن الصراع هذه المرة أساسي وفاصل لأنه يتناول مؤامرة تدبر للقضاء على الزعيم ومنع النهضة القومية من الاستفادة من ابتكاره وتخطيطه...». وفي نفس الرسالة يعود ويطلب ما كان طلبه من زمان من عبدالله قبرصي، وقبرصي لم يلبِّ، وهي معلومات لها علاقة بما تنشره جريدة البشير التي تعادي الحزب، ويقول: «كنت من زمان طلبت من الأمين قبرصي أن يعطيني قائمة لها علاقة بإمكانيات المحاولة المنشورة في البشير، ولكنه نام على طلبي كما نام على كل الأمور التي لها علاقة بحياة الزعيم وتنفيذ خططه. فهو لا يعرف أن يصدع بالأمر، وله تقديراته الخصوصية التي يسمح لنفسه أن يجعلها تتعارض مع تخطيط الزعيم فيعرض هذه الخطط للفشل...» (الأعمال الكاملة 9 ص 374 - 373).

وفي قبرص الواقعة تحت سلطة بريطانيا، وبعد هذه الرسالة بعدة أيام فقط، حاولت السلطات البريطانية اعتقاله وأفلت منها بعد أن خابره الأمين فخري معلوف من بيروت وأبلغه معلومات نقلها إلى الحزب أحد رجال مكتب التحري المخصص لملاحقة الحزب المؤلف من 20 رجلاً بقيادة وجيه خوري. غادر سعاده قبرص فوراً وتوجه إلى روما وثم إلى برلين كما سيجيء.

سعاده ينجو من خطر كبير في عمان

ما جرى لسعاده في بيروت وفي قبرص كان محاولَتَي اعتقال، أما في عمان فقد نجا من خطر محقق على حياته. هذا ما يرويه سعاده نفسه في رسالته إلى فخري معلوف بتاريخ 25-6-1938 من قبرص: «... وعند الظهر غادرنا السلط، وفي صباح اليوم التالي، السبت في 18 الجاري (حزيران) ذهبت لمقابلة الأمير في موعد ضربه. وكان عنده رئيس وزارته والسيد فؤاد الخطيب رئيس دوائر الشرطة. وبعد أن استقر بنا المقام وفاتحة مجاملة، أبلغني الأمير أنه لا يحب نشوء أحزاب في منطقة نفوذه وأنه بلغه أني قادم لإنشاء فرع للحزب وهو لا يود ذلك، فجاملته وقابلت كلامه بعدم اكتراث ظاهر ونهضت وخرجت بعد أن ودعت الأمير وأنا منتصب كما سلمت عليه عند قدومي. والظاهر أن الأمير شعر بصلابة عودي فلم يقر له قرار بعد خروجي من عنده....». إلى أن يصل ويقول: «...وقد بلغني أنهم كانوا يقصدون القبض علي وتوقيفي ذلك الليل ووضعي خارج الحدود... فسافرت في صباح الثلاثاء 21 حزيران بطريق إربد- جسر المجامع- طبريا...». ولفهم ما قاله سعاده عن كيفية لقائه بالأمير يجب أن نعرف أن ضيوف «صاحب السمو» يفترض أن ينحنوا أمامه ويقبلوا يده عند اللقاء به وعند وداعه.

عندما وصل إلى حيفا كان معه ثلاث ليرات وعدد من نسخ كتاب نشوء الأمم، كانت كافية لوصوله إلى قبرص في 23 حزيران. ومن هناك راسل رفقاءه في إفريقيا فأمنوا له ما يكفيه للاستراحة 35 يوماً في قبرص، ومن هناك أفلت من الاعتقال في الوقت المناسب، حيث انتقل إلى روما ثم برلين وحل ضيفاً على الرفقاء فيهما. إن مرور سعاده في روما وبرلين كلفه سجناً في البرازيل دام ثلاثة أشهر، كما سنرى بعد قليل.

لم يكد سعاده يغادر الأرض السورية من قبرص في 28 تموز حتى بدأت معاناته مع أعوانه في المركز في بيروت، وهذه المعاناة اتخذت أشكالاً مختلفة سنأتي على ذكرها في الفصل التالي، ونكتفي هنا، كتمهيد، بما لخصه لنا عبد الله قبرصي في مذكراته، يقول: «لم نكن كلنا مجتمعين بقادرين على الحلول محل سعاده لا في الحركة ولا في الإبداع. لذلك كان غيابه امتحاناً عسيراً لكل منا كأشخاص ولنا كمؤسسات مركزية، فلم ينتج مجلس وكلاء العمد ولا العمد ما يذكر. وما قام به الحزب وحققه، وهو قليل، كان من

عمل المنفذين العامين في مناطقهم» (عبدالله قبرصي يتذكر ص 255). يضيف قبرصي: «وعندما عاد سعاده من مغتربه خاطبنا من عمق إيمانه قائلاً: «أنقذتم شرف الأمة وحيدين». لقد أعطانا أكثر مما نستحق بكثير إذا كان المقياس ما أنتجنا». هذا ما يقوله قبرصي، أما نحن فإننا نرى أن سعاده في قوله هذا (لقد أنقذتم شرف الأمة وحيدين) قد شمل القياديين تشجيعاً فقط، وأنه كان متوجهاً إلى جموع الأعضاء القوميين وليس إلى القياديين المركزيين فقط كما ظن قبرصي. القياديون المركزيون، ومنهم قبرصي، كانوا قد أنحرفوا عن العقيدة وعقدوا صفقات سياسية على حسابها، مما لم يذكره قبرصي في قوله آنف الذكر. وكان سعاده الذي عانى ما عاناه مع القياديين المركزيين قد توجه إلى رفقائه القوميين في مهرجان الإصلاح في ضهور الشوير قبل سنة وقال لهم: «ما أعظم رضاي عنكم وما أشد اعتزازي بكم وما أروع الانتصار الذي أسير بكم إليه»، أما معاونوه في قيادة الحزب فكان له معهم حديث آخر وتجربة مريرة أخرى سنتوسع فيها في الفصل التالي.

لقد تعمدت الاختصار قدر الإمكان في الفصل الأول هذا، لأن الجديد الذي سيقدمه هذا الكتاب هو في الفصول التالية تصاعدياً حتى الفصل الخامس الأخير الذي هو أكبر فصول هذا الكتاب.

مع مغادرة سعاده لقبرص في 28 تموز سنة 1938 يكون قد غادر أرض الوطن، وسيبدأ فصولاً جديدة من الصراع وسيأخذ صراعه أشكالاً جديدة سندرسها في الفصل التالي.

الفصل الثاني

السجن الطويل
سجون وتشرد في الأرجنتين وفي الوطن
(من 1938 إلى 1947)

القسم الأول: في المغترب

سعاده في أوروبا

الوجهة الرئيسة المقررة لرحلة سعاده كانت البرازيل التي وصلها في 23 آذار 1939، حيث التواجد الكبير والكثيف للسوريين، وحيث لسعاده معارف كثيرة وتاريخ حافل من العمل الصحافي والسياسي في أوساط الجالية السورية هناك. لكن سعاده توقف في روما وفي برلين حوالي سبعة أشهر، حيث استقبله واستضافه فرع الحزب هناك. لم يتوفر لدينا أو لغيرنا أي تفاصيل عن أي أحداث جرت مع سعاده في برلين أو روما، وقد تضاربت المعلومات إذا كان قد قابل هتلر أم لا. بعض المعلومات تتحدث عن ذلك وتقول إن سعاده حاور هتلر وبيّن له فساد العقيدة العنصرية النازية وأوضح له صحة العقيدة المجتمعية التي تعترف بالمزيج السلالي بديلاً لخرافة النقاء العرقي، كما شرح له النظرة الجديدة إلى الإنسان، الإنسان- المجتمع، وسمو الحضارة السورية التي أعطت العالم العلم والفن والفلسفة، وأن اللقاء انتهى على توتر وخلاف. وبعض المعلومات الأخرى تتحدث عن أن سعاده لم يلتق هتلر بل التقى مساعديه. ويجزم الكثيرون بأن سعاده لم يلتق لا هتلر ولا أحداً من معاونيه وأنه لا توجد أي وثيقة تشير إلى هذا الموضوع. لكن بشير موصلي ينقل عن أسد الأشقر أنه في لقاء سريع مع سعاده خلال توقف الباخرة التي أقلته من أوروبا إلى البرازيل، في مرفأ داكار السنغالي، يسمع الأشقر أخطر ما قاله سعاده عن «خطر الحلف الألماني- الإيطالي على سورية بعدما تنازلت ألمانيا لإيطاليا عن كل تدخل في حوض المتوسط. ولا شك أن انتصار هذين الحليفين سيجعل من سورية المقاطعة الرومانية الجديدة، فالخطر الكبير الذي يحيط بنا إذاً ليس من الاستعمار الفرنسي- البريطاني وحده، بل أيضاً من انتصار ألمانيا وإيطاليا في حرب آتية حتماً».

إن ما سمعه أسد الأشقر من سعاده يرجّح لقاءه بمسؤولين كبار في إيطاليا وألمانيا ووقوفه على أفكار القادة الكبار فيهما، ويرجح ذلك أيضاً بقاء سعاده فترة زمنية امتدت عدة أشهر بين إيطاليا وألمانيا، من 28 تموز سنة 38 تاريخ مغادرته قبرص إلى 23 آذار 39 تاريخ وصوله إلى البرازيل، أي ثمانية أشهر يجب أن نحسم منها مدة السفر بالباخرة من قبرص إلى إيطاليا ثم من أوروبا إلى البرازيل عن طريق إفريقيا. إن بقاءه سبعة أشهر ثمينة

على الأقل في أوروبا يرجح ليس فقط مجرد مقابلته السريعة لكبار المسؤولين في إيطاليا وألمانيا، بل وإجرائه مباحثات ومفاوضات معهم، كما يرجح صحة رواية عبد المسيح أن سعاده قابل هتلر وحدّثه عن عظمة الشعب السوري وفضله على التمدن الغربي نفسه وبالتالي لا يجوز استعماره. وأيضاً اتصل بفلاسفة النازية، وأن مشادة حصلت مع أحدهم عندما أفهمه سعاده خطأ النظرة العرقية النازية...الخ (كتيب سعاده المعلم 2004 ص 40). ولا بد أن عبد المسيح سمع ذلك وأخذه مباشرة من الزعيم.

لقد مكث سعاده في روما شهرين ونصف تقريباً قبل أن يغادرها إلى برلين. نعرف ذلك من تواريخ رسائله، حيث إنه كتب أول رسالة من روما إلى رئيس المجلس الأعلى بتاريخ 22-8-38، وآخر رسالة منها بتاريخ 30-9-38 إلى معتمد الحزب في الولايات المتحدة الأميركية. ثم كتب أول رسالة من برلين بتاريخ 16-10-38 إلى فؤاد أبي عجرم، فتكون النتيجة أنه بقي في روما شهرين ونصف تقريباً، والباقي أربعة أشهر ونصف قضاها في برلين. إن هذا الوقت الثمين غير القصير الذي قضاه في أوروبا يرجح روايات اتصاله بالمسؤولين الطليان والألمان. وما يرجح ذلك أيضاً هو ما ورد في رسالته إلى الرفيق أنطون ضاحي في الأرجنتين، حيث يقول له: «**إن لحزبكم تاريخه وهو تاريخ جهاد وبطولة وعظمة وارتفاع نحو المثل العليا الجميلة. وأن لزعيمكم سيرة تعليمه وجهاده وبطولته، فلا تجعلوا للظنون والشكوك سبيلاً إلى تحقير هذه القيم الأساسية الجوهرية في نهضتكم القومية الاجتماعية المباركة، بل آمنوا وثقوا أنه لو شاء الزعيم نوال مالٍ ووسائل بذخ وترف لنال من ذلك شيئاً كثيراً في الوطن وفي أوروبا وفي الأرجنتين. إن أموالاً كثيرة ووسائل بذخ وترف ومناصب عالية في الباطل وضعت عند قدمي وأنا في السجن وأنا خارجه وأنا في أوروبا وأنا في بيونس آيرس، ولو كانت نفسي عالقة بهذه الأمور لكان لي منها كل ما يمكن أن تشتهيه نفس محب للباطل.... افحصوا سجلات الدول من ألمانيا إلى إيطاليا إلى بريطانيا إلى فرنسا إلى روسيا إلى اليابان إلى غيرها، فإنكم تجدون قيوداً لأموال كثيرة أنفقت على دعاة وعملاء سوريين، ولكنكم باطلاً تبحثون عن اسم أنطون سعاده بين أسماء من تسلموا شيئاً من تلك الدول، فهل امتنع أنطون سعاده عن تناول شيء من الأموال الأجنبية لأنها لم تعرض عليه، وقد عرضت على من هم دونه بطبقات ومراحل عديدة؟...**» (الأعمال الكاملة ج 11 ص 43).

إن اتصال الزعيم بالمسؤولين الطليان والألمان هو إذاً أمرٌ شبه مؤكد، فلا يعقل أن يكون هؤلاء قد حاولوا شراءه دون أن يكونوا قد اتصلوا به ورأوه وباحثوه. أما المؤكد مئة بالمئة فهو أن اتصاله بهم كان اتصال زعيم صاحب «**تاريخ جهاد وبطولة وعظمة وارتفاع نحو المثل العليا الجميلة**» يمثل أمة حرة كانت «**هادية ومعلمة للأمم**» وليس اتصال العبيد «الذليلين في عظمة الباطل والحقيرين في ماديتهم الذليلة».

بعد كتابة هذه الفقرة عن وجود سعاده في أوروبا، تلقيت رسالة خاصة من الأمين إيلي عون، حيث أكد لي، بالدليل المادي، لقاء سعاده بكبار المسؤولين الألمان، قال: «... **أما بموضوع سعاده في ألمانيا فأزودك بالمعلومة التالية. بعد الانقلاب 61-62 وتبعثر محتويات بيت الزعيم، كنت ومجموعة من الأشبال وبعدها رفقاء ناشطين جداً وكنا نواظب على زيارة بيت الزعيم الذي تم ترميمه من قريبو وجاءت الأمينة ديانا وسكنت فيه هي والرفيقة راغده صيفاً. وكنا في تواصل يومي، وفي أواسط الستينيات جاءت ر. راغده بصندوق خشبي طوله 70سنتم وعرضه 40 وعلوه 50 سنتم على ما أذكر. وكان الصندوق مليئاً بالصور والوثائق الخاصة بعائلة الزعيم من صور الزعيم والأمينة الأولى فطلبت استعارته فأعارتني إياه وأبقيته في حوزتي مدة عشرة أيام أو أكثر قليلاً وقمت بالاطلاع على كل ما كان فيه. من جملة الصور كان هناك صور للزعيم مع جنرالات ألمان يشربون الشمبانيا في أحد البيوت وكانت البسمات تعلو الوجوه. لم أشاهد أية صوره للزعيم مع هتلر. أعدت الصندوق للرفيقة راغدة ولم أعد أعلم ما حلّ بالصندوق**»

سعاده سجيناً في البرازيل

مكوثه في روما وبرلين كان حجة طوّرها أعداء الحزب من أبناء عهد الذل وفقدان الوجدان القومي ممن لم يتعودوا إلا الانحناء أمام الأجنبي والخضوع له، ليتهموا سعاده بأنه يتعامل مع الفاشيين والنازيين ويعمل عندهم ولهم. لقد أدت هذه التهمة والوشاية المستندة إليها إلى سجن الزعيم في البرازيل أوائل نيسان 1939، وسجن أركان الحزب في الوطن أيضاً لأن زعيمهم «يتعامل مع الفاشيين والنازيين». في البرازيل خرج سعاده من السجن بعد شهر تقريباً بريئاً من التهمة، بعد حوار جرى بينه وبين المدعي العام الفدرالي بوساطة مدير الأمن العام المدني في سان باولو ألفريد أبو عسلي البرازيلي من أصل سوري.

المدعـي العام الفدرالي طلب من سـعاده ترجمـة مبادئ الحـزب إلى البرتغالية، وبعد اطلاعه عليها جرى حوار بينه وبين سعاده، حيث تبيّن لسعاده سعة وعمق ثقافة المدعي العام، فطوّر النقاش معه في أمور وقضايا تاريخية وأدبية. وتأثر الرجل بسعاده وانجذب إليـه، خاصة بعدما دهش بمدى اطلاعه ومعرفته بتاريخ البرازيل وآدابها وأدبائها، فلم يكتم لسـعاده تعجبه واسـتنكاره «كيف يوجـد رجال في بلادك لا يؤمنـون إيمانك ولا يتخذونك قائداً وزعيماً لهم، لقد قرأت من زمان تاريخ سـورية والشرق الأدنى ولكني الآن شـعرت بالحاجة الماسة لقراءة تاريخ سورية من جديد» (نواف حردان- سعاده في المهجر ج 2 ص 166).

رفض المسـؤول البرازيلي طلب القنصل الفرنسي في البرازيل تسـليم سعاده لفرنسا، مؤكداً له أنه حقق مع سعاده ولم يجد أي دليل يقنعه بأن له أية علاقة بالفاشيين والنازيين. وفي الوقت نفسه يؤكد لسعاده أنه لن يجري تسليمه لا لفرنسا ولا لأية دولة أخرى، ثم أفرج عنه في 30-4-1939.

يجب علينا هنا تدوين ما ذكره سـعاده نفسـه عن معاناته خلال سـجنه في البرازيل، يقول: «... **إذ كاد الأمر يقضي علي نهائياً إما بانحلال القوى ضمن السجن وإما بتسليمي إلى السلطة في سورية، فتكون الرحلة قد انتهت بأعظم نكبة في تاريخ الحركة. وقد تحول أمر خطأ خالد أديب فيما بعد إلى مسألة خيانة صريحة وإجرام ضد الحركة القومية لم يكن يخطر في بال**» (من رسالته إلى الرفيق إبراهيم طنوس في البرازيل بتاريخ 2-8-1940). وأيضاً رسالته من السجن إلى مدير الأمن العام المساعد في سان باولو، حيث يقول: «**لما كان توقيفـي قـد طال ولما لم تلاقِ طلباتي السـابقة للحصول عـلى إذن بمقابلتكم جواباً، جئت مرة أخرى أعرض لسيادتكم ما يلي:**

أولاً- كانت صحتي سيئة جداً قبل توقيفي وكنت قيد المعالجة الطبية بسبب ذلك.

ثانياً- حرمت بسبب توقيفي من المعالجة الطبية التي كنت بحاجة إليها.

ثالثاً- ازدادت صحتي سوءاً بسبب توقيفي، خاصة أن الشمس لا تدخل الغرفة التي أنا موقـوف فيها، والتهوية غير كافية.. فقلّـت قابليتي للأكل وضعفت تغذيتي.. وصرت أشعر بألم في رأسي وفي جهازي الهضمي بالإضافة لأوجاع أخرى تضاعفت وازدادت.

بناء عليه، جئت آمل من سيادتكم أن تنظروا باهتمام إلى ما عرضت، وتجدوا حلاً له كما ترون أنسب وأكثر فائدة. أشكركم سلفاً وتفضلوا بقبول جزيل احترامي » (الأعمال الكاملة 9 ص 84).

أما في الوطن، فإن التهمة ذاتها كانت قد أدت إلى سجن أركان الحزب جميعهم تقريباً، «لأن زعيمهم يتعامل مع الفاشيين والنازيين»، وأنه موجود في ألمانيا. وقد بادر سعاده بنفسه لمساعدة رفقائه المسجونين في الوطن، فاستحصل على وثيقة رسمية تثبت وجوده في الأرجنتين وليس في ألمانيا أو إيطاليا، وهي كناية عن شهادة من السفير الفرنسي في بوينس آيرس منحها لطالبها «مسيو أنطون سعاده» أنه قدم بوينس آيرس في 15 أيار 39 ولم يغادرها حتى تاريخه. وصلت الشهادة إلى قاضي التحقيق في بيروت فأسقطت التهمة ولكن بقي المتهمون الأبرياء في السجن، ما يدل أن التهمة كانت مجرد حجة ومبرر لاعتقالهم وأن أسباباً أخرى كانت وراء هذا الاعتقال.

عذاب سعاده في الأرجنتين

إن هذا العنوان يصلح ليكون اسماً لكتاب مستقل، لما يحتويه من تفاصيل كثيرة وحوادث فظيعة اجتازها سعاده كلها بقوة إرادته الخارقة وإيمانه العظيم بقضيته وقدسيتها، وبفضل فيض القوة النفسية التي يحملها والتي لولاها لما صمد هذا الصمود الأسطوري غير المسبوق.

أعتقد أن أحد الأمناء هو في صدد إعداد مؤلف مستقل خاص عن هذا الموضوع، نأمل أن يصدر قريباً. لن أذكر اسم هذا الأمين لأن لا حق لي بذلك، فهو قد باح لي بهذا الأمر حين طلبت منه مساعدة معينة احتجتها لكتابي الراهن الذي بين أيدينا الآن، وله وحده أن يعلن ما يفعله. إن ما سأكتبه تحت عنوان «عذاب سعاده في الأرجنتين» لن يكون كافياً مهما توغلت فيه، عسى أن يأتي الكتاب الموعود فيسد النقص فيما سأعرضه هنا، ويضيء على مسائل وجوانب أخرى قد أكون أغفلتها، ويتوسع أكثر في العناوين التي سأتطرق إليها.

أظلم سجن طويل عرفته

قبل أن نخوض في تفاصيل المعاناة والعذابات التي تحملها سعاده في الأرجنتين، دعونا نستعرض ما قاله هو نفسه عن ذلك، مما جاء في رسائل عديدة منه لرفقاء عديدين

في أميركا الشمالية والجنوبية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها. ففي رسالته لغسان تويني تاريخ 26-5-46 يقول له «**النزالة السورية في الأرجنتين كانت لي أظلم سجن طويل عرفته...**». أما للرفيق نجيب العسراوي فيقول: «**..فلقيت في الأرجنتين ما كان يصعب أن أتصور وجوده إلا في الجماعات البشرية المنحطة...**» (رسالة تاريخ 18-8-46). وللرفيق رفيق الحلبي ناموس منفذية الشاطئ الذهبي يقول: «**وسوريو الأرجنتين في انحطاط اجتماعي ومثالبي غريب. فجماعاتهم المترابطة بعض الترابط تجمعها الحزبيات الدينية وتفتك بها أمراض الجهل والتربية الفاسدة، وهم متحجرون في نفسياتهم وأخلاقهم لا يأخذهم تطور اجتماعي ولا تجدد روحي. الماديات الحقيرة تفتن عقولهم وتعمي بصائرهم.**» وأيضاً: «**...ولست أتكلم شيئاً في صدد قوميي الأرجنتين لأنهم صرعى أمراض نفوسهم، ومنهم من تعشش في قلوبهم أفاعي الخبائث والمنكرات، لا شعور سام يجلو بصائرهم ولا غرض نبيل يولد همة في نفوسهم. لقد آل الأمر بي بينهم إلى اعتماد التجارة لتحصيل رزقي والقيام بأود عائلتي وحفظ كرامتي من خساسة أفكارهم وانحطاط غاياتهم**» (إلى رفيق الحلبي 25-12-45).

سعاده يقول ذلك سنة 1945 و1946 أي في نهايات سجنه الطويل هناك، لكنه كان قد بدأ بمعاناته المريرة قبل ذلك بكثير، أي منذ وصوله إلى الأرجنتين (15-5-1939)، فها هو مثلاً في بداية سنة 41 يقول للرفيق إبراهيم طنوس: «**...إن جالية الأرجنتين أقل ثقافة وأكثر تفرقاً من جالية البرازيل، وقد يكون من كل جالية سورية أخرى، وهذا الانحطاط يظهر بصورة خاصة في العاصمة...**» (26-2-41). إلى أن يعبّر عن ضيقه بما يشبه اليأس بهذا القول للرفيق كامل عواد: «**...والظاهر أن هذا الجيل مصاب بلعنة لا براء له منها**» (27-9-41).

هذا باختصار شديد ما كانت عليه البيئة الاجتماعية والنفسية والثقافية للجالية السورية التي عمل معها سعاده مجبراً طيلة سبع سنوات، حتى وصل إلى المرض والجوع ولم يستسلم وبقي مصارعاً مكافحاً ومجالداً حتى الرمق الأخير، وبقي يشع ويضيء لمن حوله سبل الحياة العزيزة الجميلة، وبقي ينتج ثقافةً وأدباً وفكراً وفلسفةً واستمر يعلّم ويحشد ويقود، على هذا المنوال: «**...هذا ما قصدت لتنبيه الشعور إليه، إلى الواجب الذي ينتصب في هذا الوقت العصيب ليحاسب أبناء هذا الجيل على ما سيورثون**

أبناءهم. هذا ما يهمني أنا قبل كل شيء، قبل جسدي ومطاليبه القليلة، بل هذا الشيء- القضية العظيمة- الذي أحرق نفسي وجسدي لعلّ النور الذي يتولد من هذا الاحتراق يكفي لإضاءة سبيله» (من رسالة إلى عبود سعاده تاريخ 5-9-41).

معاناة سعاده من عدم تعاون وعدم تلبية معاونيه

إن طبيعة المعاكسات والعقبات التي لاقاها وواجهها سعاده في المغترب الأميركي الجنوبي أكثرها متعلق بمستوى ثقافة الجالية السورية هناك ودرجة استعدادها النفسي للاهتمام والانخراط في حركة نهضة قومية تطلب منهم وتعيدهم للاهتمام بمصير وطنهم الذي تركوه وهجروه وصاروا متطلعين بحماس للانتماء لوطن جديد حرّ ينالون فيه حقوقاً أساسية كانوا محرومين منها في وطنهم السوري الأصلي. لقد كانوا قد فقدوا وجدانهم القومي قبل هجرتهم، وكان ذلك سبباً رئيساً لهجرتهم. لذلك وجد سعاده نفسه كمن ينحت في مادة صماء. كان عليه أن يبني ويهذب ويعلم ويشرح كل شيء من الأول، وكان عليه أن يوقظ نفوساً شبه ميتة أذلها الفقر ومحقها الاستعباد فهاجرت ولم تعد تتطلع إلى الوراء.

فلنقرأه في رسالة كتبها من الأرجنتين للرفيق جورج بندقي في البرازيل، وكان قد أعياه عدم تلبيته لتعليماته لدرجة عدم إجابته على أسئلته المتكررة عن صدى ما يكتبه وينشره في جريدة سورية الجديدة، يقول: «**والآن ليخبرني أحد عندكم بنتيجة ما نشر، ويمكن نبش قبر أحد القوميين الأموات هناك ليقوم ويكتب إليّ شيئاً، وبعد ذلك يمكنه أن يعود إلى قبره بسلام**» (الأعمال الكاملة 9 ص 292).

لا نستغرب بعد ذلك أن يضطر سعاده لأن يلاحق بنفسه كل كبيرة وصغيرة من مهمات هي بطبيعتها وسهولتها من مسؤولية وعمل المسؤولين الحزبيين المحليين، وهذه بعض النماذج:

1- لقد بقي يطلب ويكرر الطلب من مديرية سان باولو في البرازيل أن ترسل له إلى الأرجنتين نسخاً من كتيب المبادئ، دون تلبية. يقول: «**طلبت عدة مرات إرسال نحو مئتي نسخة من شرح المبادئ في دفعات، كل واحدة نحو خمسين أو خمس وعشرين نسخة، وتلبية الطلب بسرعة أمر هام جداً. وقد حدث تأخير كبير حتى الآن فليطلب**

من جورج بندقي القيام بالأمر» (الأعمال الكاملة 9 ص 133).

2- تسعة أشهر مضت ولم تُرسل جريدة سورية الجديدة إلى مشتركين جدد سددوا اشتراكاتهم سلفاً. «**منذ نحو تسعة أشهر تقدمت لائحة من الشيخ نعمان ضو في ولاية سان خوان بأسماء مشتركين وسلمت إلى عفيف لوقا، وقال إنه أرسلها ولم تصل. فطلبت أنا نفسي من الشيخ نعمان إرسال لائحة أخرى فأرسلها منذ بضعة أشهر، ومنذ نحو شهرين سلمتها للرفيق أميل الذي أرسلها إليك ولم يأخذ نسخة عنها لتبقى عنده، فإذا فقدت نحتاج لإضاعة وقت في طلب لائحة ثالثة، وهذا عمل غير منظم، وحتى الآن لم تصل الجريدة إلى الذين طلبوها...**» (نفس المصدر ص 273).

3- يضطر إلى التدخل في ضبط حسابات مالية ويكتشف تلاعباً واختلافاً في الأرقام والحسابات فيخاطب المتورط ويقول له بلهجة فيها بعض السخرية المتألمة: «**...وبعد التفكير في هذا الاختلاف وأسبابه وكيفية الوصول إلى مخرج مقنع، تنبهت إلى عبارتك، إنك تعتقد أن كل شيء حدث بأمانة تامة...الخ، فرأيت أن اعتقادك هو الحل الحسابي الوحيد لهذه المغالطات.... وبعد أن قرأت تعليقك على الصورة الإجمالية للحساب خصوصاً قولك: (وهذا صورة ربما لا تكون كافية ولكنها تزيل بعض الشك) فأنا لم أتمكن من فهم عبارة (بعض الشك) تماماً، لأني لم أهتم للتحقيق في شك بل في حساب يجب أن يكون مضبوطاً بصرف النظر عن الشك أو اليقين...**» (نفس المصدر ص 134).

4- لقد أصدر سعاده جريدة «الزوبعة» في الأرجنتين بعد تمرد وعصيان جريدة «سورية الجديدة» في البرازيل وإصرارها على موالاة دول المحور في الحرب. سنتكلم عن هذه المسألة بعد قليل، لكن الآن نريد فقط تسجيل أن جريدة الزوبعة بقيت مدة طويلة لا تصل إلى المشتركين خارج الأرجنتين، فقام سعاده بنفسه وأجرى بحثاً وتفتيشاً وملاحقة مع إدارة البريد ليكتشف السبب، وهو أن المكلف بإرسالها كان يسرق من قيمة رسوم الإرسال البريدية، فصارت دائرة التوزيع في مركز البريد تهمل الأعداد وتتلفها (الأعمال الكاملة 10 ص 36).

هذا غيض من فيض أوردناه كنموذج عن القضايا الصغيرة التي كان سعاده يضطر أن يعالجها بنفسه وهو يعمل ويصارع في وسط بيئة اجتماعية منحطة الثقافة وموبوءة

الأخلاق والمناقب، وهو رغم ذلك لم يستسلم ولم يتراجع وبقي يبذر تعاليمه في تلك الأرض الصعبة العصية ويصنع رفقاء جدداً ويطرد آخرين وينشئ مديريات جديدة ويحل غيرها. حتى إنه قد حلّ مديرية توكومان في الأرجنتين وأعاد إنشاءها عدة مرات وبرفقاء جدد بعد سقوط من سبقهم. إن القول التالي لسعاده يعبّر بجلاء عن صراعه العنيف المرير وإصراره الأسطوري الذي لا ينكسر، يقول: «**...كانت المعركة في بيونس آيرس حامية الوطيس، وكانت ذات نارين، واحدة في الداخل وأخرى في الخارج. وبعد عراك مستمر مدة نحو عشرين يوماً تم الانتصار، فأطفئت النار الداخلية ونار الأعداء، وأضرمنا نارنا...**» (الأعمال الكاملة 10 ص482).

سعاده يكافح الجاسوسية

لقد ذكرنا في الفصل الأول عن آفة الخيانة والجاسوسية التي كان على سعاده أن يواجهها منذ اليوم الأول للتأسيس، وذكرنا لماذا قال قوله الشهير «اقضوا على الخيانة أينما وجدتموها». وقلنا في هذا الصدد إن من تسبب في اعتقال الزعيم على طريق ضهر البيدر وسجنه، السجن الثالث تاريخ 8 آذار 1937، كان الخائن محمد باشا المناصفي. لكن يجب أن نذكر هنا أن هذا الخائن لم يُكتشف حينها وبقيت هويته مجهولة إلى أن كشفه سعاده نفسه أوائل تموز 1938 وهو بعد في قبرص، أي بعد سنة وأربعة أشهر من وقوع الخيانة.

فلنقرأ سعاده يخبرنا بنفسه كيف توصل إلى اكتشافه.

في رسالته من قبرص إلى رئيس المجلس الأعلى فخري معلوف في بيروت، وتحت عنوان: السيد محمد باشا المناصفي، يبدي سعاده أول إشارات ريبته وشكّه بالمذكور، ولم يسمه الرفيق بل السيد، ويوصي رئيس المجلس بإبعاد هذا الشخص عن الدوائر المركزية ويقول: «يجب أن يظل تحت مراقبة مراقب فطن (الأعمال 9 ص 43). والحقيقة التي يذكرها سعاده أيضاً هي أن رئيس المكتب الأعلى المختص (م.أ.م) الرفيق وليم سابا كان أول من رصد شبهة جاسوسية المناصفي. وسعاده يوجّه من قبرص رسالة إلى سابا يلومه فيها على تقصيره بعدم إخبار الزعيم عن هذه الشبهة في حينها فوراً. ومما قاله له: «مع كل شكوكك فإنك لم تكن تتخذ الحيطة اللازمة لمنعه من الوقوف على

الإدخال السري، فكان الإدخال يجري في المكتب ويتعرض لمعرفته وملاحظته. كان يجب أن تذكر لي اجتماع المناصفي وأمين وفؤاد في القهوة حال حدوثه فهو حادث مهم في تفاصيله. ولست أدري كيف أعلل ولعك بالاحتفاظ بالتفاصيل لنفسك فكأنك لا تدرك أهمية وجوب إيصالها إليّ في الحال» (نفس المصدر ص 47).

وفي رسالة تالية إلى رئيس المجلس، وتحت باب «ملاحظات وتوجيهات» يثير سعاده مسألة جاسوسية المناصفي بهذا الشكل: «**إن ضربات كثيرة حلت بنا من جراء بلوغ غير المؤهلين إلى المراكز العالية في الحزب. ورفعت زنتوت وجورج حداد ويوسف شقير أمثلة بارزة في هذا الباب، والآن تظهر قضية محمد باشا المناصفي وقد كنت منذ البدء غير راض عن ارتقائه بهذه السرعة إلى مواضع الأسرار بناء على أنه «يكتب العربية جيداً ويشتغل كثيراً إذا أعطي شغلاً»** (حسب تبرير نعمة ثابت). **ولكن الأمين ثابت كان لا يرغب التخلي عنه... وكان من المصائب ألا يعرف رجال بلغوا أعلى مراتب الحزب مسؤولياتهم في هذه المرتبة وواجباتهم... فكل شخص لا نعرفه معرفة جيدة ولم نختبره من قبل يجب ألا يقبل في أي وظيفة مركزية أو هامة إلا بعد أن يعطي المكتب المختص موافقته**» (نفس المصدر ص 51).

لحد الآن، ومع وجود الشك والريبة من المناصفي، لم يكن سعاده قد اكتشف بعد أن هذا الشخص هو من وشى ودلّ قوى الشرطة اللبنانية على مكان وجود الزعيم فاعتقلته. لنعرف كيف توصل سعاده لاكتشاف هذه الخيانة بكل تفاصيلها، علينا أن نقرأ رسالته إلى «نصوح الخطيب»، أي إلى رئيس المجلس الأعلى الأمين فخري معلوف التي كتبها في قبرص بتاريخ 12-7-38، ففيها الرواية الكاملة. يبدأ سعاده رسالته بالقول: «كنت في اليومين الأخيرين كثير التفكير بكم وبالأمور الجارية في الوطن. وقد كنت أول أمس مساءً أتحدث مع شخص أجنبي تعرفت عليه في الفندق وقد وثقت به لدرجة أني أطلعته على مركزي. وجرّني الحديث إلى ذكر السجن وكيفية حدوث سجني الثالث، **وبغتةً تألق في فكري شهاب الحقيقة فارتفعت قبضتي ثم هوت على ساعد الكرسي وقلت لمحدثي: الآن اكتشفت الخائن!**» (نفس المصدر ص 55).

ثم شرع سعاده برواية تفاصيل ما جرى قبل الاعتقال التي استعادها في ذهنه وحللها بدقة حتى انجلت الحقيقة تماماً.

لمعرفة ماذا قرر سعاده بخصوص الخائن محمد باشا المناصفي، أنصح القراء بقراءة رسالة سعاده إلى نصوح الخطيب تاريخ 13-7-38، ففيها «الحلم» الذي رآه، وفي هذا الحلم حكاية الصراع بين الصلاح والشر والمصير الذي يجب أن يؤول إليه الشر... ويختم رسالته و»حلمه» بالقول لرئيس المجلس الأعلى: «**استفقت من حلمي وقد فكرت كثيراً في هذه الرؤية الغريبة وما هي علاقتها بالحوادث الجارية. فما رأيك وما رأي الثلاثة في هذه المسألة؟ ولماذا يجب أن أرى هذا الحلم الآن؟ وأنا أعتقد أن المسألة تافهة فولع سيجارة بهذه الورقة!**». لا يخفى على المطّلع الفطن أن عبارة سعاده الأخيرة تهدف إلى حماية رفقائه من أي أخطار أمنية محتملة، وأنه لم يحلم أبداً ولم يكن هناك حلم بل كان قراراً من سعاده أراد إيصاله لقيادة الحزب في بيروت بطريقة الإيحاء، للأسباب الأمنية عينها.

جميل الصفدي خائن ثانٍ في البرازيل

إذا كان الخائن محمد باشا المناصفي بقي يتجسس على سعاده وعلى الحزب ويقدم خدماته لمشغليه على مدى سنة وأربعة أشهر تقريباً، أي من 8 آذار1937 تاريخ الاعتقال الثالث حتى أوائل تموز 1938 تاريخ اكتشافه، فإن الخائن والجاسوس الثاني في البرازيل جميل الصفدي قد اكتشفه سعاده باكراً جداً، ولكن بقي سعاده طيلة أكثر من خمسة أشهر ونصف يكتب من الأرجنتين ويحذّر ويوصي ويأمر ويكرر الأمر للرفيق المسؤول في البرازيل كي يطرد الصفدي ويبعده، دون طائل!

في البرازيل تأخذ مسألة مكافحة الجاسوسية وجهاً مختلفاً عن الوجه الذي اتخذته في بيروت. في بيروت حصل تأخير كبير في اكتشاف الخائن، أما في البرازيل فقد تم الاكتشاف سريعاً ولكن حصل تأخير غير مبرر إطلاقاً في تنفيذ أوامر الزعيم بطرد الخائن وعزله.

بتاريخ 20-7-1939 يكتب سعاده من الأرجنتين إلى الرفيق المسؤول عن تحرير جريدة الحزب سورية الجديدة في سان باولو البرازيل ويقول له: «إني قررت فصل الرفيق جميل صفدي عن كل اتصال أو عمل في سورية الجديدة... وأوصيك أن تكون متحفظاً جداً تجاه هذا الشخص من غير أن تظهر له أنك متحفظ. ويجب اتخاذ الوسائل

اللازمة لمنعه عن الحوم حول المطبعة والاطلاع على سير الأعمال» (نفس المصدر ص 104). لكن سعاده احتاج لتكرار طلبه وأمره بإبعاد الصفدي وطرده سبع مرات في سبع رسائل على مدى خمسة أشهر قبل أن يُنفَذ الأمر. ففي 14-1-1940 يقول سعاده في رسالته للرفيق المسؤول جورج بلدي: «علمت أخيراً أنك نفذت ما طلبته منك في شأن الصفدي فسررت بهذه النتيجة».

أوراق الزعيم بحوزة الجاسوس جميل الصفدي

بعد انتهاء مسألة إبعاد الصفدي نشأت مسألة أخرى أخطر منها، هي أوراق الزعيم التي استخوذ عليها قبل إبعاده. وهذه الأوراق فيها واحدة بالغة الخطورة ويفترض أن تكون سرية ولا تقع في أيدي خائن وجاسوس. إنها اقتراح خطي من رئيس مجلس العمد نعمة ثابت بالقيام بعمل مسلح ضد قوات الحلفاء الآتية من فلسطين إلى بيروت، دعماً لقوات «فيشي» الفرنسية الموالية للألمان والتي كانت مسيطرة في بيروت ودمشق. هذه القضية سنتكلم عليها بتفصيل أكثر بعد قليل، أما الآن فلنبقَ مع أوراق الزعيم لدى جميل الصفدي.

يبدو أن الصفدي لم يستسلم لإبعاده، وبقي يحاول التقرب والبقاء في دائرة الحزب والزعيم والجريدة. ويبدو أن سعاده بواسطة الرفيق جورج بندقي كان قد حاول استعادة الأوراق والوثائق من الصفدي وأن هذا الأخير كان يماطل ويدعي أن الأوراق ضاعت أو فقدت. إلى أن «عثر» عليها وبدأ يساوم. نعرف ذلك من رسالة سعاده إلى جورج بندقي التي يخبره فيها استلامه رسالة طويلة من الصفدي، يقول سعاده في رسالته إلى بندقي: « يقول جميل صفدي في كتابه إلي إنه كان أرسل إلي يقول إن رزمة الأوراق قد وجدت، ويخبرني بكيفية العثور عليها، ولكن أنا لم أستلم منه كتاباً بهذا المعنى... ومهما يكن من أمر فإني لا أجيب جميل صفدي ولا أقبل النظر في مسألته حتى يكون قد أرسل الأوراق إليّ بواسطتك واطلاعك على عددها واحدة واحدة، وحتى أكون قد تسلمتها ووجدتها كاملة، ووجدت أهم الأوراق التي أريد الاحتفاظ بها. فعلى الصفدي ألا يلجأ إلى المداورة وأن يسلم هذه الأوراق في الحال... ومتى تسلمت الأوراق أصبح بإمكاني التساهل في أمر جميل وأخيه الدكتور وديع، وسماع ما يريد أن يلي به ليبرهن عن حسن نيته... أريد أن أعلم بسرعة إذا كان جميل صفدي مستعداً لتسليم الأوراق

في الحـال وبـدون أخذ ورد وقيـل وقال، إذ لا وقـت عندي لإضاعتـه» (إلى ج. بندقي 1-8-40 الأعمال الكاملة 9 ص 294).

بعد 25 يوماً من هذه الرسـالة، يعود سـعاده ويرسـل لجورج بندقي ويقول له: «... تابع مسألة الأوراق بتشديد للحصول عليها» (نفس المصدر ص 306).

لكـن يبدو أن سـعاده قد يئـس من جورج بندقـي، فكتب لوليـم بحليس بتاريخ 28-4-1941، أي بعـد ثمانية أشـهر كاملة، يقول فيها: «...إن جميل صفدي أرسـل إلي يعـترف بوجـود أوراق مكتبي عنده، وإنه لا يسـلمها إلا إذا سـلمته الكتب التي أرسـلها هو إلي. ثم قال إنه يسـلم الأوراق لمن يحمل اعتماداً رسـمياً مني مسجلاً عند كاتـب العـدل. وهو يريد أن يبقـي أوراقاً ثمينة، أو قد يكون باعها، ويقول إنه سـلّم كل شيء. فأنـا يهمنـي أن أحصل على كل مـا يمكن الحصول عليـه حتى ولو اقتضى الأمر إرسـال وكالة مسـجلة... وبـين الأوراق تقريران من المجلـس الأعلى وكتابان بالإنكليزية بخط رئيس مجلس العمد نعمة ثابت، وأحدهما هام جداً لاقتراحه القيام بثورة مسـلحة في الحال مـع وجود طريقة أمينة للحصول على السـلاح. إني أريد من يهتـم بهـذه القضية ويحصل على ما أمكن من الأوراق بـأي طريقة وبكل حيلة ممكنة» (الأعمال الكاملة 10 س 77).

وبعد ذلك، وبتاريخ 29-9-41، أي بعد خمسـة أشهر، يكتب سعاده لوليم بحليس ويسـتمر بطلب الحصول على الأوراق «التي سرقها جميل الصفدي» من مكتب الزعيم في البرازيل (نفس المصدر ص 175).

بعـد ذلك بأكثـر من شـهرين، أي في 9-12-41 يكتـب لوليم بحليـس ويقول له، كمنفـذ عـام، «عليكم ملاحقـة قضية هذه الأوراق حسـب التعليمات السـابقة، وبكل الوسـائل الممكنـة. وفي كل تقرير ربعـي عن أعمال منفذيتكم يجـب أن يكون محلّاً لبيان المساعي التي قمتم وتقومون بها لاسترجاع هذه الأوراق» (نفس المصدر ص 197).

بعد ذلك لم نعد نعثر في رسائل سعاده، أو في أي مرجع آخر، على أي أثر لهذه القضية التي أخذت من الوقت ما يقرب السنتين، ولم تنته...

لقد أوردنا هذه المسـائل هنا لنبين للقارئ طبيعة الظروف المستحيلة التي كان يعمل

سعاده ضمنها، والمستوى المتدني جداً من الأهلية والاستعداد للتلبية الذي كان عليه معاونو سعاده هناك في ذلك الوقت.

سعاده وجريدة سورية الجديدة

لسعاده قصص كثيرة مع صاحبي «الرأسمال المادي» لجريدة سورية الجديدة الأخوين بندقي. ليس فقط تمرد هذين «الرفيقين» على سياسة الزعيم تجاه أطراف الحرب العالمية الثانية التي كانت رحاها دائرة في ذلك الوقت، واتخاذ الجريدة سياسة موالية للمحور رغم تنبيهات وتحذيرات وتوجيهات وأوامر الزعيم المتكررة للوقوف على الحياد، بل أيضاً تدخلهما فيما يكتبه الزعيم نفسه ويرسله لينشر في الجريدة. فمثلاً الحلقتان الأولى والثانية من مقالات «جنون الخلود» لسعاده لم تنشرا في العددين 82 و83 من الجريدة، وسعاده يخشى أن تكون الحلقتان سرقتا بتلاعب بالبريد، فراجع دائرة البريد في بيونس آيرس وطلب منها مخابرة دائرة البريد في سان باولو ثم كلف المسؤول عن التحرير الرفيق جورج بندقي بفتح تحقيق في دائرة البريد في سان باولو للغرض نفسه. وتبين فيما بعد أن فؤاد وتوفيق بندقي هما اللذان منعا نشر مقالتي الزعيم. أما لماذا فعلا ذلك فسعاده يخبرنا عنه في رسالته إلى الرفيق إبراهيم طنوس تاريخ 21-9-40 يقول: «**إن فؤاد وتوفيق بندقي منعا نشر مقالات الزعيم لأنهما «لا يريدان أن تكون الجريدة ميداناً للمهاترات الشخصية»، وهذا منتهى الوقاحة. وهناك عبارة أخرى تفيد أنهما تاجران ولا يريدان أن يتعرضا للضرر. وهذا لهما وأعرفه عنهما، أما أن يعترضا كتاباتي ويقولان إنها مهاترات شخصية فجريمة فظيعة، فضلاً عن أنه جهالة وحماقة لا حد لهما، أفيعلمني هذان التاجران كيف تكون حروب المبادئ والدفاع عن الحركة القومية ورد كيد الكائدين وطرق المواضيع الهامة، والفرق بين مهاجمة نفسية عتيقة جامدة وبين المهاترات الشخصية؟...**» (نفس المصدر ص 324).

حتى إن بعض الرفقاء في البرازيل قد تأثروا بوجهة نظر البندقيين وأبدوا تبرمهم من مقالات الزعيم ومهاجمته للشاعر القروي، ما حدا بسعاده لمواجهة هذه «الرصانة الجوفاء والنظرية الخرقاء» مسفهاً إياها، حيث قال للرفيق جورج بندقي في إحدى رسائله: «**الجريدة الحزبية تدخل كل معركة حزبية، ولما كانت مهمتنا الأولى كشف القناع عن سِحن المشعوذين «الوطنيين» الحقيقية، فإننا لا نستطيع إنقاذ الشعب من**

شعوذاتهم بالسكوت عليها، لتحقيق رصانة جوفاء ونظرية خرقاء، وما هي النتيجة التي نتوخاها من إطباق جفوننا على القذى؟» (نفس المصدر 331).

وكان سعاده فور وصوله إلى البرازيل من أوروبا أسس جريدة سورية الجديدة كالتالي: تم عقد اتفاق شراكة بين الحزب من جهة والمواطنين الصديقين المتمولين فؤاد وتوفيق بندقي، قبل أن يصبحا رفيقين فيما بعد، على إنشاء جريدة سورية الجديدة وفق الشروط التالية:

أولاً: يضع فؤاد وتوفيق الرأسمال المادي ويتكفلان بتسديد كل اللوازم والمصاريف المادية الضرورية لصدور الجريدة.

ثانياً: يضع الحزب الرأسمال الروحي، أي كل ما يتعلق بشؤون التحرير وسياسة الجريدة واتجاهها الفكري على أن تكون معبرة عن القضية السورية القومية بإشراف الزعيم.

ثالثاً: لا يتحمل الحزب أي مسؤولية مادية، ولا يتدخل فؤاد وتوفيق بندقي في مسؤولية التحرير واتجاه الجريدة السياسي والفكري. ويتقاسم كل من أصحاب الرأسمال المادي والرأسمال الروحي الأرباح، متى صار للجريدة أرباح، 40 بالمئة للحزب و60 بالمئه لهما.

هكذا كان الاتفاق وشروطه، وقد أوضحه سعاده وأعاد شرحه في رسائل عديدة منه لرفقاء عديدين. إلى أن بدأ الأخوان بندقي التدخل فيما لا يخصهما والضغط على ابن عمهما الرفيق جورج بندقي الذي عيّنه سعاده مسؤولاً عن التحرير، وابتزازه في عمله ومعاشه ليخضع لتوجيهها بدلاً من توجيه الزعيم. وصارت الجريدة توالي دول المحور في الحرب «**وتنشر مقالات وكتباً مترجمة مأجورة من الإذاعة الألمانية**» (نفس المصدر ص 334)، و«**أفكاراً أجنبية معاكسة لاتجاه الحركة القومية**» (نفس المصدر ص 327).

إن الوقت والجهد الذي بذله سعاده في مواجهته لانحراف جريدة سورية الجديدة والحد من الأضرار المادية والمعنوية التي جلبتها على الحزب وقضيته القومية، كان وقتاً وجهداً ثميناً جداً لو صُرِف في مكانه الصحيح لأعطى نتائج باهرة كبيرة. لقد وصل الأمر بسعاده للتفكير بالحل الجذري الحاسم لوضع حد نهائي لهذا الوضع السيئ

المُضيّع للجهد والوقت، فأعلن أنـه «**يفضل أن تزول الجريدة ويـزول الحزب كله على أن يقوم أحدهما أو كلاهما على أساس الفوضى والامتيازات الشخصية غير المستحقة**»، «**فأنا جئت لأنشئ شيئاً جديداً لا لأسير حسب النظام والوضع القديم**» (ص 350).

سياسة الزعيم وموقفه تجاه أطراف الحرب

إن تمـرد جريـدة سـورية الجديدة الصـادرة في البرازيل على سياسـة الزعيم وموقف الحيـاد الذي اتخذه تجاه أطراف الحرب العالمية الثانية، بدأ باكراً قبيل اندلاع هذه الحرب في أول أيلول 1939. وأن أول إشارة لبدء هذه المعاناة من عدم الالتزام بسياسة الزعيم وتوجيهاته نقرأها في رسالته من الأرجنتين إلى الرفيق رشيد شكور محرر الجريدة المسؤول تاريـخ 29-5-1939، أي قبل بدء الحرب بثلاثة أشـهر، وتتضمن التوجيهات وطلب الالتزام بها، يقول: «...**لاحظت أن التعليق قد تجاوز الاعتدال في الاتجاه السياسي الذي نتجهـه. وهـذا التجاوز يحرج موقف المصـدر التوجيهي** (أي الزعيـم) **ويعرقل تخطيطه المقبل... أطلب منك أن تتقيد من الوجهة السياسية بما يلي:**

إن خطتنا في الحالة السياسية الحاضرة ليس الانتصار المطلق الأعمى لأحد الفريقين، بـل خطة الميـل المتحفظ الحافظ خط الرجعة. والحركة السـورية القوميـة تريد ألا ترتمي في أحضان أية قوة خارجية. وربح تأييدها في السياسـة الأنترنسـيونية يجب أن يكون له وزنـه وثمنه. وهذه المسـألة مختصة بالمصدر التوجيهي وأطلب منك التقيد الشـديد بهذا التوجيـه، يمكننـا إظهار جهنميـة الجانب الـذي نحاربه من غير أن نصبـغ على الجانب الآخر صفة الملائكة».

أربعة أشهر مرت على توجيهات الزعيم وبقيت الجريدة توالي سياسة الحور، والحرب قد اندلعت، فيعبر عن عدم رضاه ويهدد بقطع العلاقة معها في رسالة إلى الرفيق إبراهيم طنوس تاريخ 14-9-39 ويقول: «...**إني لست راضياً عن نهج سورية الجديدة الأخير، وإن اندفاعها في تيار سياسـة محور برلين- روما هو أبعد كثيراً من التسـاهل الذي يحسن بالحركـة إبداءه في هـذه الظروف... فإما أن تخضع الجريدة لجميـع توجيهاتي وإما أقطع العلاقة معها، لأن الجريدة للحركة لا الحركة للجريدة**».

وبقيت الجريدة على سياسـتها الشـاذة المخالفة لسياسـة الزعيم، بسـبب أن الرفيقين

فؤاد وتوفيق بندقي تجاوزا حقوقهما وصارا يصدران توجيهاتهما لرشيد شكور المخالفة لتوجيهات الزعيم وأن شكور كان ينفذ سياستهما بدل تنفيذ سياسة الزعيم. حينذاك أقدم الزعيم على إقالة شكور من مسؤوليته، أقام جورج بندقي مكانه، ثم أصدر تعليمات صارمة لمجلس إدارة الجريدة المؤلف من الرفيقين فؤاد بندقي والياس بخعازي بتاريخ 15-11-39 وهذه أبرزها: «**لا يكون للجريدة سياسة غير السياسة المقررة لها من المراجع الحزبية العليا وهي عمدة الإذاعة ومكتب الزعيم... إن سياسة الحزب السوري القومي هي سياسة قومية مستقلة غير مختلطة مع أية سياسة أجنبية... إن سياسة الحزب ليست فاشية. إن سياسة الحزب ليست نازية. إن سياسة الحزب ليست «ديموقراطية»** (أي ليست مع الحلفاء). **إن سياسة الحزب ليست شيوعية أو بلشفية. إن سياسة الحزب هي سياسة سورية قومية لا تخضع لغير المبدأ الثامن من مبادئه الأساسية القائل: مصلحة سورية فوق كل مصلحة... إن موقف الحزب يقرره الزعيم، ويحتمل أن يتبدل وفاقاً لمقتضيات الحالة السياسية، ودائماً تحت مبدأ مصلحة سورية فوق كل مصلحة... إن موقف الحزب السياسي الحالي من فرنسا هو الحملة عليها وعلى سياستها في سورية بدون إقفال كل باب، بل بقصد حملها على الاقتراب من الحزب. إن موقف الحزب السياسي الحالي من محور روما- برلين يقصد منه في الدرجة الأولى التأييد إلى حد محدود بقصد توليد ضغط كافٍ على فرنسا وبريطانيا يجعلهما تغيران موقفهما السلبي من سورية ونهضتها القومية، لا بقصد الثقة بسياسة المحور وإفناء فرنسا وبريطانيا**».

يبدو أن توجيهات الزعيم قد أخذت طريقها إلى التنفيذ، مع بعض الشذوذ أحياناً. فبعد ثمانية أشهر تقريباً على تعليماته الصارمة لمجلس إدارة الجريدة يعود ويبدي ملاحظات وتنبيهات للمحرر المسؤول الرفيق جورج بندقي. يقول له مثلاً في 22-7-40: «**...لا تنس أن سياسة الجريدة في نشر صور الجيش الألماني فقط وفتوحات الألمان، ليست منطبقة على تعليماتي وتوجيهاتي المرسلة إلى مجلس الإدارة، ومما لا شك فيه أن الكثير يعدّون ذلك دعاية لألمانيا**». وفي 9-9-40 يعلق على مقالة لعضو مجلس إدارة الجريدة ويقول: «**إني أجد فيه عبارات خطرة جداً كهذه:** «إنك لا تتيتم إذا خسرت سيدك المستعمر (يقصد فرنسا) ولكنك تصبح حراً سيداً لنفسك»، **فهذه العبارة هي دعاية للمنتصرين (الألمان) وقد تغرر بالسوريين فيتوهموا أن أنتصار ألمانيا وإيطاليا هو انتصار لهم، وهذا غير صحيح. إن انكسار فرنسا وبريطانيا هو كسر لأعداء السوريين، ولكن انتصار ألمانيا وإيطاليا لا**

يمكن حسبانه انتصاراً للقضية السورية».

في 6-10-40، والحرب قد مضى عليها سنة وشهران، يتبين أن الجريدة عادت ووقعت تحت تأثير المصالح المادية الشخصية للبندقيين. فها سعاده يكتب لنعمان ضو ويقول له: «... **أصحاب الرأسمال المادي قد خرجوا على التوجيهات الرسمية وهم الآن يتاجرون بالجريدة وينشرون مقالات وكتباً مترجمة مأجورة من الإذاعة الألمانية**»، ويخبره أنه استلم مقالته وحولها إلى جريدة الزوبعة الأرجنتينية بدل سورية الجديدة البرازيلية.

جريدة الزوبعة

عندما نقول إن سعاده لم يقل شيئاً إلا ونفذه، فإننا نقول الحقيقة الكاملة المجردة. لقد سبق وذكرنا كيف حل مديرية توكومان عدة مرات ثم أعاد إنشاء وتأسيس غيرها برفقاء جدد. وها هو الآن ينفذ تحذيره بشأن جريدة سورية الجديدة ويرفع يده عنها ويبادر فوراً إلى تأسيس جريدة غيرها في الأرجنتين هي جريدة الزوبعة. ذلك رغم أن الجالية في الأرجنتين هي أقل علماً وثقافة وأندر بالمؤهلات والإمكانات، وقد انتهى الأمر بسعاده إلى أن وصل يومه بنهاره والعمل وحده في التحرير والطباعة وصف الأحرف وثم التوضيب وتنظيم الاشتراكات وإرسال الجريدة وتوزيعها للمشتركين!

وكان سعاده قد عمّم على جميع الفروع الحزبية في أميركا الجنوبية والشمالية بأن جريدة سورية الجديدة لم تعد هي جريدة الحزب لأنها خرجت عن توجيهات الزعيم وسياسة الحزب، ويأمر الفروع والرفقاء بأن يرسلوا ما استحق من اشتراكات مالية للجريدة إليه هو بدلاً من إرسالها إلى سورية الجديدة ويوجههم لتحويل اشتراكهم منها إلى جريدة الزوبعة (الأعمال الكاملة 9 ص 337). يبدو أن هذا التدبير قد أصاب من البندقيين في المكان الذي يؤلمهما، فصرخا وتراجعا عن شذوذهما وأبديا استعدادهما للخضوع لإرادة الزعيم وشروطه (نفس المصدر ص 339). ومع أنهما حاولا المراوغة من جديد والمطالبة بتعويض خسارتهما المادية، (نفس المصدر ص 352)، فإن موقف الزعيم القوي، بالإضافة لنجاح جريدة الزوبعة وانتشارها، جعلهما يتخليان عن مطالبهما ويتخليان عن كل شيء للحزب. وهكذا أصبح للحزب جريدتان تصدران بالتوازي في البرازيل وفي الأرجنتين.

سعاده يستنزف قواه للحد الأقصى

مع زيادة الأعباء وندرة المعاونين، بل ومعاكسات المعاكسين، وبلوغه مرحلة الحاجة المادية وعدم الاستقرار المعاشي، وصل سعاده لحافة الانزواء «للحصول على بعض الاطمئنان وجمع شتات الأفكار والتذكارات التي أصبحت متفرقة بلا رابطة». يعبّر عن ذلك بمرارة وألم في رسالة طويلة إلى رئيس تحرير سورية الجديدة الرفيق وليم بحليس تاريخ 20–7–42 نقتطف منها ما يلي: «**هل يخطر في بال أحد أن الزعيم يجاهد منذ عقد كامل من السنين جهاداً متواصلاً مضنياً ابتلى جسمه خلاله ابتلاءً شديداً، وصار يجب أن نلتفت كل الالتفات إلى هذه الناحية الهامة ليبقى لنا الإشعاع الفكري والشعوري والقيادة الثابتة؟... كيف يمكن لجريدة صغيرة كالزوبعة تصدر مرتين في الشهر أن تحارب الأعداء وتشرح فلسفة الحركة القومية الاجتماعية وخططها وآمالها في وقت واحد وبقلم كاتب واحد تكاد تمزق نفسه تعنتات المتعنتين وسفسطات السفسطائيين... وليس سراً أنني أتمرمر وأتململ من حاجتي إلى النزول إلى مستوى أولئك السخفاء لمناقشة سخافاتهم، ولكني وجدت ذلك ضرورياً لحصول النتيجة التي توخيتها... وما الفائدة من كتابة بحث جليل لحفنة صغيرة من الناس في حين إلحاح الحاجة إلى تحريك جماعات كبيرة بسرعة؟... ألا يخطر في بالك أني أنا كاتب الزوبعة الوحيد، ما عدا مقالة لجبران مسوح، وأني أنا مديرها، وأني ناموس إدارتها فأدون أسماء المشتركين وأبحث عن أسماء مشتركين جدد. وأنا آخذ المقالات من منزلي البعيد نحو نصف ساعة عن مركز المدينة إلى المطبعة. وأنا أصلح المسودات. وأنا أكتب أسماء المشتركين على الآلة الكاتبة. وأنا أضبط حساب الورق وأجرة الرصف. وأنا آخذ إلى البريد الرسائل والرزم الخاصة بمشتركين جدد أو بأشخاص أرسل إليهم أشياء معينة. وأنا أطالع الصحف السورية والأجنبية وأقص ما يجب حفظه منها في سجلات مكتبي، وألخص أخبارها الهامة للزوبعة. ثم أدير الحركة وحدي، وهناك عدد من المنفذيات والمديريات لا بد لي من مخابرتها، وفي كل إدارة منها يوجد مشكل أو أكثر يحتاج حلاً. فأنا أكتب جميع الكتب والقرارات وأنسخ ما يجب نسخه منها بيدي. وأنا أقابل من شاء التعرف بي ومن يبغي الوقوف على أمر ومن يريد أن يفضي إليّ بشيء. هل خطر في بالك أو في بال أحد التفكير بهذا الشأن وفي ما آل إليه جسمي بعد كل ما مرّ عليّ من المحن القاسية، وهل يخطر لك أن تسأل: كيف يقدر هذا الرجل أن يحافظ، وهو في هذه**

الحالة، على شيء من قوة الذاكرة؟ وكيف يمكن أن ننتظر منه في كل عدد من الزوبعة بحثاً جديداً في فلسفة النهضة أو في خططها؟... وبعد فإني لم أقل كل ما يمكن قوله ولا جلّه. أتعرف أني بقيت مدة ولا أزال غير آمن استقراري المعيشي؟ أتدري أنه خطر لي عدة مرات أن أترك الكتابة وأن أنزوي مدة بقصد الحصول على بعض الاطمئنان وجمع شتات الأفكار التي أصبحت متفرقة بلا رابطة؟... أمّا أنا فقد قمت في العشر سنوات التي مضت بأكثر بكثير مما هو طبيعي القيام به. ووزعت قواي بلا شفقة ووجدت أنه عندما قاربت التلف لم يكن حولي أحد، حتى إذا استعدت شيئاً قليلاً جداً من قوتي الماضية، وهو القليل الذي اشتغل به الآن، عدت أسمع تلك النغمة الكريهة: هات! هات! إني أعرف واجبي وواجب الحركة القومية الاجتماعية وأعرف جيداً طبيعة هذا الجيل.... لم أكتب ما كتبت لألومك أنت ولا لألوم أحداً، وإنما لمحة من الداخل لعلها تفيد...» (الأعمال الكاملة 10 ص 291).

سعاده يعمل لتأمين معيشته وحفظ كرامته

لقد بقي سعاده على هذه الحالة من الإرهاق والحرمان حتى سنة 1944 حين وصل إلى حافة الجوع والتلف، فكتب لصديقه المقيم في ولاية سان خوان البعيدة، الشيخ نعمان ضو، قبل أن يصبح الرفيق نعمان ضو، وقال له: «**سأحتاج إلى تحويل بعض قواي ومجهودي إلى الأعمال الصناعية والتجارية التي كان يجب أن يكون الزعيم بغنى عنها لو كان هذا الجيل يعرف واجباته**» (الأعمال 10 ص 387).

وبالفعل فقد استدان سعاده مبلغاً من المال من ابن حميه الرفيق جورج المير ودخل في مشروع صناعي مع الرفيق إبراهيم الكردي الذي تبين لاحقاً أنه منافق مدّعي المعرفة بالصناعة، وقد تسبب في خسارة جزء من المبلغ المستدان. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وصل إلى محاولة المطرود الكردي غدر الزعيم ومهاجمته والاشتباك معه جسدياً، قبل أن يقيم الكردي دعوى قضائية ضد سعاده مدعياً أن له معه مالاً. طبعاً انتهت الدعوى القضائية بربح الزعيم لها، وقد عفا عن الكردي أمام المحكمة ولم يطالبه بتعويضات مستحقة.

بعد ذلك دخل سعاده في شراكة تجارية مع الرفيق جبران مسوح، وهذا الأخير سرق أموال المحل التجاري وصرفها على الخمر واللهو. ما اضطر سعاده لأن يتحمل وحده

أعباء إعادة إحياء محل تجاري مكسور، فعمل هو وزوجته الرفيقة جولييت المير في ظروف مادية وسكنية مدقعة، وظروف صحية صعبة وضغوط تأمين حاجات طفلتين وضغط تسديد الدين... وكله يهون أمام ضغط الألسن المنحطة الحقيرة التي تناولته في كرامته وصارت تريد محاسبته في شؤونه الشخصية.

لعل ما قاله سعاده في رسالته إلى الرفيق أنطون ضاحي تاريخ 2-3-46 ما يلقي ضوءاً على تلك الأحداث وظروفها. في تلك الرسالة يشع سعاده تعليماً وتثقيفاً وتهذيباً وتدريباً لرفقائه وتوجيهاً لهم ورفعاً لهم من حضيض المثالب إلى قمم الفضائل النفسية والأخلاقية، بالرغم من خيبته الكبيرة منهم وبالرغم من جراحاته العميقة وآلامه العظيمة. يقول فيها: «**...لا تجعلوا قضيتكم صغيرة لئلا تدلوا على أن نفوسكم صغيرة. لا تنزلوا قيمة نهضتكم ومؤسساتها إلى درك القضايا الصغيرة الحقيرة... إن لحزبكم تاريخه، وهو تاريخ جهاد وبطولة وعظمة وارتفاع نحو المثل العليا الجميلة. وإن لزعيمكم سيرة تعليمه وجهاده وبطولته، فلا تجعلوا للظنون سبيلاً إلى تحقير هذه القيم الأساسية الجوهرية في نهضتكم القومية الاجتماعية المباركة. بل آمنوا وثقوا أنه لو شاء الزعيم نوال مالٍ ووسائل بذخ وترف لنال من ذلك شيئاً كثيراً في الوطن وفي أوروبا وفي الأرجنتين. إن أموالاً كثيرة ومناصب عالية في الباطل وضعت عند قدمي وأنا في السجن وأنا خارجه ولو كانت نفسي عالقة بهذه الأمور لكان لي منها كل ما يمكن أن تشتهيه نفس محب الباطل... ارفعوا نفوسكم عن الدنايا من كل نوع، وعن جميع المسائل الحقيرة الشائنة لتكونوا جديرين بنعمة النهضة السورية القومية الاجتماعية وبالحياة المثالية الجميلة العزيزة التي تؤهلكم لها تعاليمها ومناقبها ونظرتها السامية إلى الحياة والاجتماع والكون... إنه ليحق لكم أن تشكّوا وتظنوا الظنون بمن هم من أهل الفساد والظنون، ولكنه عيب كبير وخطة منكرة أن تشكوا وتظنوا الظنون بمن هداكم إلى قوميتكم وجاء يعلمكم الحق والعدل والمناقب السامية والأخلاق الراسخة، برسولكم في القومية الاجتماعية ومحجتكم في اليقين بها، وقدوتكم في مكارمها، ومرجعكم في مسؤولياتكم وفي كل ما أشكل عليكم، وحصنكم ومعتصمكم كلما اشتدت عليكم الشدائد...**» (الأعمال الكاملة 11 ص 41).

وإن من يريد من الرفقاء اليوم، والقراء بشكل عام، أن يقرأ رائعة الأدب المتألم

المجروح لدرجة السخرية، مع سمو وعلو المقاصد والقيم النفسية الإنسانية المتفوقة، أنصحه الآن بقراءة قطعة من روح سعاده الموجودة في رسالته إلى الرفيق يعقوب ناصيف تاريخ 22-5-1945. (الأعمال الكاملة 10 ص 476).

موقف الزعيم السياسي من أطراف الحرب العالمية الثانية

لنترك الآن رحلتنا مع معاناة سعاده مع رفقائه ومعاونيه ومع الجالية السورية في المغترب الأميركي الجنوبي الفقيرة الثقافة الضعيفة المناقب وقليلة الاستعداد النفسي لتلبية نفير النهضة القومية الاجتماعية، ونأتي إلى موقفه السياسي العملي من الحدث الكبير المتمثل في الحرب العالمية الثانية الدائرة رحاها في ذلك الوقت.

في وقت كان يتسابق فيه السوريون للعمل خدمةً لمصالح أطراف الحرب، دون أن تكون لديهم قضية قومية- وطنية مستقلة يعملون لأجلها، وهو من النتائج الوبيلة لفقدان الوجدان القومي وفقدان الشعور بالشخصية الوطنية ومصالحها المستقلة، وفي وقت كان سعاده يعاني ما يعانيه من انقطاعه القسري عن مركز الحزب ومركز ثقله الرئيسي في الوطن وورطته في وسط جالية سورية في الأرجنتين قليلة الثقافة وضعيفة الارتباط بوطنها الأم ومصالحه، بالرغم من ذلك نرى سعاده يتعاطى مع أطراف الحرب تعاطياً نديّاً كرجل دولة سيدة قوية عندها جيشها وأساطيلها وعندها مصالحها وهي مستعدة أن تحميها بواسطة هذا الجيش وهذه الأساطيل!

من إسبانيا

لقد حاول سعاده بناء علاقة سياسية ودبلوماسية مع دولة إسبانيا، حيث كانت إسبانيا في موقف الحياد مع شيء من التعاطف مع دول المحور دون أن يأخذ هذا التعاطف شكل الدعم المادي أو السياسي. كانت إسبانيا خارجة لتوها موحدة ومعافاة من حربها الأهلية، وبمساعدة ودعم قوي وواضح من الألمان، ولم تكن مؤهلة بعد للانخراط في الحرب، فبقيت على الحياد. إن وضعية إسبانيا هذه جعلت سعاده يعمل على علاقة سياسية معها، وقد وصلت المحاولة لتبادل رسائل دبلوماسية والقرب من عقد مؤتمر للحزب السوري القومي في عاصمتها مدريد. لكن هذه المساعي تعطلت ولم نستطع معرفة الأسباب الحقيقية التي عطلتها، بسبب فقدان المراجع التي تتحدث

عن ذلك، ولكننا نستطيع القول إن عدم التلبية السريعة من معاوني سعاده، كما التصرف الفردي للبعض منهم دون مراجعته، لعبت دوراً سلبياً في ذلك أيضاً. يقول سعاده في رسالته بتاريخ 11-6-41 إلى الرفيق ساسين حنا ساسين، المكلف الأول في هذه العلاقة، مايلي: «**في خلال الأشهر الماضية تم الاتصال بيني وبين السيد أنريكي رافلس، ناموس الشرق الأدنى والأقطار العربية في وزارة الخارجية الإسبانية،... فقد وضعت جوابي على كتاب السيد رافلس من مقر راحتي** (التي أشار عليه بها الطبيب) **وأرسلته إلى بوينس آيرس ليضعوه بالبريد الجوي المسجل وقد وضع في البريد، لكن الظاهر أنه لم يصل (؟!). وإني سأرسل نسخة منه في البريد القادم إلى السيد رافلس وقد أرسل إليك نسخة منه لاطلاعك... أرى أنه يجب الاستمرار في العلاقات الجيدة مع الحكومة الإسبانية لأن هناك نقاطاً هامة يمكن حصول التعاون بيننا وبينها عليها، فإن أمكنك أن تبلغ السيد رافلس ذلك كان حسناً. اطلعت في عدد صدر مؤخراً في المكسيك من مجلة الفرع القومي هناك أن دوائر الإذاعة الإسبانية أرسلت إلى المجلة المذكورة مواد إذاعية للنشر. وقد تسرعت المجلة ونشرت رداً قاسي اللهجة رافضةً نشر شيء وكان الأفضل لو أن هذه الدوائر** (الإسبانية) **اتصلت بمرجع أعلى أولاً للتفاهم على التعاون في هذا السبيل. وإني أكلفك الاهتمام بذلك وإبلاغي ما هي مطاليب الحكومة الإسبانية وماذا يمكنها أن تفعل لنا مقابل ذلك**» (الأعمال الكاملة 10- ص 91).

يعود سعاده بعد شهرين ويكتب إلى وليم بحليس، في 6-8-41، ويفصح عن معلومات أوضح عن نتيجة الاتصال بالحكومة الإسبانية، كما بالحكومة الألمانية، يقول: «**وردني اليوم كتب من المنفذ العام** (نجيب العسراوي)**، وقد كتبت إليه الآن بالبريد الجوي وأفضيت له بمعلومات سياسية هامة، منها ما يتعلق بمخابرة الحكومة الإسبانية لي وعرضها عليّ أن يكون المؤتمر السوري القومي في إسبانيا، وقلت له أنه يحسن أن يطلعك والناموس العام على ما جاء في كتابي. وأطلعته أيضاً على أن حكومة ألمانيا قصدت الاتصال بي من زمان، ولكن الرفيق الذي كان الواسطة طلب، غلطاً، جعل المخابرة في الريو فكلفت أخي** (الرفيق إدوار) **السفر إلى الريو لمقابلة المكلف، فلم يكن هناك بل كان غائباً عنها، فترك له كتاباً ولم يحصل على جواب...**». رسالة سعاده المنوّه عنها فوق إلى المنفذ العسراوي مفقودة، ولكن سعاده كتب في نفس التاريخ رسالة أخرى إلى «الناموس العام» إبراهيم طنوس، وفيها معلومات إضافية عن نفس

الموضوع، يقول: «...**ومن أهم المعلومات أن الحكومة الإسبانية كانت قد أرسلت تعرض عليّ عقد المؤتمر في أية بقعة في بلادها. لكن بقيت مسألة النفقة لأعضاء المؤتمر، ونظراً لضعف الحركة وبطء الأعمال لم أتخذ أي تدبير عملي في هذا الصدد، والمخابرة لا تزال جارية. وقد ترسل الحكومة فتقدم تسهيلات النفقة للمدعوين. وأنا أعلم غرض الحكومة الإسبانية وأرى أنه يمكن استخدام غرضها**».

يبدو أن الاتصال بالحكومة الإسبانية بعد ذلك قد وصل إلى مرحلة متقدمة، فها هو سعاده يتقدم بشروط ويبحث في تفاصيل إجراءات دبلوماسية، ويقول للوسيط الرفيق ساسين حنا ساسين: «**في حال ذهابي أنا فإني سأطلب أن أحوز الصفة الدبلوماسية لجميع المراسلات التي تردني، والتي أرسلها إلى الخارج، فلا تمر على المراقبة ولا تتعرض للتأخير الذي يمكن أن يجلب أضراراً في هذه الظروف المستعجلة**» (الأعمال 10 ص 182).

إلى هنا وانقطعت المعلومات عن تطورات هذه المسألة. والأرجح أنها أحبطت لأن الإسبان كانوا، مثلهم مثل سائر الأوروبيين، يبحثون عن عملاء لهم وليس عمن يفاوضهم من الند للند ويضع شروطاً عليهم.

ومن الحكومة البريطانية

أن رسالة سعاده بتاريخ 6-7-41 إلى الرفيق يوسف الغريب، المكلف بمهمة التواصل مع بريطانيا، هي أول إشارة تعطينا معلومات عن هذا الموضوع. وفي هذه الرسالة، إلى جانب المعلومات، توجيهات ودروس سياسية وأهداف قومية، وهي من الرسائل السياسية فائقة الأهمية، يحسن قراءتها كلها إذا كان موضوعنا الرئيس هو سياسة الحزب تجاه أطراف الحرب العالمية الثانية. أما وأن موضوعنا هو موضوع مختلف، فإننا سنورد مقاطع قليلة فقط تكون كافية لتكوين صورة مختصرة عن تلك السياسة.

«**تسلمت رسالتك المتضمنة نص كتاب ناموس السفارة البريطانية إليك، وهذا الكتاب يعني أن الصلة قد وجدت أما ما يحتمل أن ينتج عنها فأمر له وقته... ولست أرى لزوماً أن تأخذك الشكوك والهواجس والتشاؤم والتفاؤل، ففي السياسة الأمور مرهونة بأوقاتها. وإذا راجعت في ذاكرتك عظم المطاليب واشتمالها على فلسطين وشرق**

الأردن اللتين لهما علاقة بوعد بلفور وعلاقة اليهود بالسياسة البريطانية، اتضح لك من غير كبير صعوبة أن المسألة تحتاج إلى درس وظروف ومناسبة... إنك صورت الحزب كأنه منحاز لجهة بريطانيا، ومقاوم لوصول ألمانيا إلى قناة السويس. فهذا التصوير لا ينطبق على موقف الحزب ولا تريد القيادة القومية جرّ الحزب إليه. ففي شؤون الحرب الحاضرة لا يزال موقف الحزب هو الحياد التام تجاه المتحاربين، واغتنام الفرص للمطالبة ومحاولة إعلان استقلال سورية وتشكيل حكومة قومية لها... لماذا يجب أن نعطي بريطانيا قبل أن نأخذ منها؟ وما فضلها علينا حتى نقاوم الألمان في سبيل نصرتها؟»

هكذا يضبط سعاده رفقاءه العاملين في السياسة، ينبّه يوسف الغريب على خطأ تأييد بريطانيا كما ينبه ويلوم ويعارض بشدة الرفقاء بندقي على خطأ تأييد ألمانيا. والسياسة التي يريدها هي سياسة الحياد التام ودفع أطراف الصراع إلى المبادرة والاستعداد لتأييد المطالب السورية بالاستقلال والسيادة أولاً. يقول ليوسف الغريب في رسالة تالية بتاريخ 12-7-41: «**إن الحركة السورية القومية لا تزال واقفة على الحياد تراقب نيات المتحاربين وإنها لا يمكنها الترحيب بتصريحات الحلفاء ولا بتصريحات المحور حتى يكون أحد الفريقين قد أعلن استعداده لمفاوضة الحركة السورية القومية والدخول في التفاصيل... وبعد فنحن لا يهمنا من يربح في هذه الحرب لكن يهمنا أن نكون نحن رابحين**».

يظهر أن الجانب البريطاني كان هو من يحاول الاتصال بالحزب، من البرازيل، ففي الوقت عينه حيث كان يوسف الغريب يتولى العلاقة «بناموس السفارة البريطانية» ويتلقى منه رسالة، كان ثمة اتصالات من القنصل البريطاني في سان باولو بالرفيق وليم بحليس بواسطة السيد إسكندر المر. فرسالة الزعيم إلى وليم بتاريخ 18-8-41 تشي بذلك فيقول سعاده فيها: «**إذا كان السيد إسكندر المر يرغب في أن يكون واسطة بينك وبين القنصل البريطاني، ومن ثم يكون هذا واسطة للاتصال بالسفارة البريطانية، فإن ذلك يكون حسناً. أما مهمتك فتكون:**

1- التأكيد للمفوضين البريطانيين أن الحركة السورية القومية هي حركة مستقلة وأنها الوحيدة التي لها قوة فاعلة من الداخل.

2- إن هـذه الحركـة تقبـل المخابرة مع الحكومـة البريطانية والمفاوضـة لوضع قضية السيادة السورية واستقلال سورية على قواعد ثابتة.

3- إن هناك مسائل كمسألة فلسطين ومشكلة الصهيونية، فالحركة السورية القومية لا ترفض البحث لإيجاد حل لهذه المسألة لا يناقض مبدأ السيادة السورية.

4- إن المخابرات يمكن أن تجري هنا، أي في أميركة، أو في سورية على أساس موحد من الطرفين بموجب أوراق اعتماد رسمية.

5- إنـك بكل سرور تقبل بنقـل كل ما يحب الجانب البريطـاني إبداءه إلى المختصين (أي إلى الزعيـم) والعمـل عـلى إيجـاد الاتصـال إذا كان الجانب البريطـاني يرغب في أن يكون في البرازيل».

نستطيع أن نتبين من هذه الرسـالة سـمو وعلو منزلة الزعيم في علاقاته السياسـية، فهـو يقبـل بالتفاوض على أسـاس موحد مـن الطرفين بموجب أوراق اعتماد رسـمية. وهو يرسـل مندوبين وممثلين من الحزب ولا يحتفظ لنفسـه بأسرار سياسـية عن رفقائه ولا يدخل في صفقات سياسية من ورائهم.

يبدو أن المفاوضات قد أخذت مجراها، والزعيم لم يدخل مباشرة وشخصياً فيها بعد، ويبدو أن السـيد إسـكندر المر لم يكن وسيطاً موثوقاً من الحزب، وأن خلافاً في وجهات النظـر قد قام بين الحزب والبريطانيين اتخذ فيه إسـكندر جانب البريطانيين. نتبين ذلك من رسـالة سـعاده إلى وليم بحليس بتاريخ 1-9-41، حيث يقول له: «**إن إسكندر المر لم يكن في الماضي مخلصاً في صداقته لوالدي، وهو يسـعى لمنفعته... ولكن إذا أراد السـيد أنيـس الـراسي القيام بعمـل جدي وإتيان خدمـة للتوفيق بين وجهة نظرنـا ووجهة نظر الحكومـة البريطانية، فيشرح للمفوضين غايتنا القومية ورغبتنا في عدم الوقوع تحت أي نير أجنبي، وإننا مستعدون للحرب في هذا السبيل، فيمكن اعتماده للعمل**».

ويبدو بعد ذلك أن المفاوضات وصلت إلى ضرورة الاتصال بالزعيم نفسه مع ممثلين عن الحكومة البريطانية في لندن، مما يقتضي سفر الزعيم إلى الوطن. نتبين ذلك من رسالة سـعاده إلى وليم بحليس بتاريخ 11-9-41 حيث يقول له: «**إني أكون مسـتعداً للسـفر**

في أيـة دقيقـة يتم فيها التفاهم بيني وبين المفوضـين البريطانيين، أو بين هؤلاء ومفوضي الحـزب في الوطـن، فـإذا كانت للبريطانيـين رغبة وأحبـوا أن تكون المخابـرة في الوطن فيمكنهـم أن يبـدؤوا هناك ويسـمحوا للمفوضـين القوميين بمخابرتي للعـودة في حالة حصول التفاهم. فالزعيم يعود إلى الوطن حسـب اتفاق يؤمن سـلامة وصوله وحريته. وبدون هذا الاتفاق فإني حر لأسافر ساعة أشاء وبالطرق الخاصة».

ومرة أخرى لم نستطع متابعة تطور العلاقة الدبلوماسية مع البريطانيين بسبب فقدان المراجع التي تتحدث عن ذلك. لكن مما لا شك فيه أن البريطانيين قد رأوا أنفسهم أمام حركة قومية سـيادية تفاوضهم بندّية «ومسـتعدة للحرب في سبيل ألا تقع تحت أي نير أجنبي»، بينما كانوا هم يبحثون عمن يعمل عندهم ويخدم مصالحهم. وقد وصل الأمر بهـم، كما سـنرى، إلى التآمر على سـعاده وقتله. إننا نجزم، وليس عندنـا ذرة واحدة من الشـك، أن البريطانيين كانوا يحاولون شراء سـعاده، وهو قد ذكر ذلك صراحة للرفيق أنطـون ضاحي تاريـخ 2-3-46 عندما قال له: «**إن أموالاً كثيرة ووسـائل بذخ وترف ومناصب عالية في الباطل وضعت عند قدمي وأنا في السجن وأنا خارجه وأنا في أوروبا وأنا في الأرجنتين... عشرات ألوف ومئات ألوف الفاسات الأرجنتينية عرضت عليّ من الجانبين المتحاربين وأنا في بيونس آيرس...**». فتاريخ البريطانيين الأستعماري وتآمرهم على الشـعوب والأمم هو تاريخ معروف وأسـلوبهم هو أسـلوب مشـهور. ولا حاجة للتذكير بسايكس بيكو وخطة تقطيع الوطن السوري وتمزيق وحدة الأمة السورية، ولا للتذكير بوعد بلفور الذي قال عنه سعاده منذ تاريخ 1-1-1925، وكان عمر سعاده لم يتجاوز 21 سنة: «**إنه وعد غير مبني على شيء من العدل الإنساني والحق الطبيعي، جاء طعنة من الوراء في ظهر الشعب السوري الذي قدّر أمانة سياسيي الحلفاء وسلامة نيتهم تقديراً انتهى بهذا الغدر الذي قلّما سُـمِع بمثله، وهو غدر صادر عن أعلى مقام سـياسي في أوروبـا بوقاحـة وصلابة جبـين يخجل عن إتيـان مثلها البرابرة فضـلاً عن المتمدنين الذين يفهمون الحقوق الإنسـانية**». إننا لا نسـتبعد أبداً أن تكون للمخابرات البريطانية عـمّال ويد في محاصرة سـعاده وإنهاكه وإفقاره في الأرجنتـين تمهيداً لمفاوضات إخضاعه وإغرائه وشرائه. لكن البريطانيين قد اصطدموا بصلابة هذا السوري الحر الذي كان قد

قال منذ إحدى وعشرين سنة: «**لا يخيف أصحاب الحركة الصهيونية التهويل من بعيد والجعجعة، بل الشيء الحقيقي الذي يخيفهم هو الموت. ولو وجد في سورية رجل فدائي يضحي بنفسه في سبيل وطنه ويقتل بلفور، لكانت تغيرت القضية السورية من الوجهة الصهيونية تغيراً مدهشاً**» (سورية تجاه بلفور 1-1-25).

إلى هنا نختتم سيرة سعاده وأعماله في مغتربه القسري، هذا المغترب الذي قال فيه إنه «**كان لي أظلم سجن طويل عرفته**». وأيضاً «..**فلقيت في الأرجنتين ما كان يصعب أن أتصور وجوده إلا في الجماعات البشرية المنحطة**...».

رغم كل شيء، فقد أنتج سعاده هناك دراسته الخالدة «الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية» على شكل سلسلة من 36 مقالة رداً على «حارضة» للشاعر القروي تثير الشقاق الديني وتوقظ النعرات الطائفية عن طريق المفاضلة بين دين ودين ومديح هذا وهجاء ذاك وتعميم الجهل بالدين وبالدنيا معاً. ويبقى «الإسلام في رسالتيه» البحث العلمي الوحيد في أصول الفكرة الدينية الواحدة في الإنجيل والقرآن، والتي لم يستطع غير سعاده إيضاحها وشرحها حتى يومنا هذا.

بالإضافة إلى ذلك، فقد ألف ونشر رائعته «الصراع الفكري في الأدب السوري»، أيضاً على شكل مقالات من 15 آب إلى كانون الأول سنة 42 في مجلة الزوبعة التي كان يصدرها في الأرجنتين، ثم جمعت في كتاب واحد.

إن ما أنتجه سعاده في مغتربه القسري يبقى حتى اليوم، بعد أكثر من سبعين سنة، تحفاً ثقافية وغذاءً وزاداً للفكر والروح ومعيناً للنظر في شؤوننا وأحوالنا اليوم وإلى أمد بعيد.

القسم الثاني: في الوطن

أول أيلول بعد هجوم هتلر على دنتزغ وبولونيا واندلاع الحرب، بدأت الاعتقالات فوراً ضد المسؤولين في الحزب، حيث السلطة الفرنسية المنتدبة كانت تتوقع ثورة من القوميين ضد الجيش الفرنسي المشغول عنهم (الحصاد المر، إبراهيم يموت ص 71). وكان الحزب يزيد من إعلامه ويوزع المناشير والملصقات يحض فيها الشعب على

الانتفاض على المستعمرين (ص 73)، وكان من الطبيعي أن يعمد هذا المستعمر إلى اتهام الحزب بأنه يتعاون مع أعدائه الألمان، أو على الأقل أن يخشى هذا التعاون، مع أن سعاده لم يكن غيابه قد مضى عليه إلا حوالي سنة وبضعة أشهر فقط وكانت سياسة الحزب الرسمية لا زالت هي تلك التي رسمها سعاده والقاضية بالحياد التام والحذر من الدعاية الأجنبية وخاصةً الألمانية والإيطالية (راجع الخطاب المنهاجي الأول) والتعاون فقط مع من يعترف بحق الشعب في الاستقلال والحرية.

وقد ظهر أن بعض القوميين التائقين للتحرر من الانتداب الفرنسي الإنكليزي على سورية رأوا في الحرب فرصة لإضعاف هاتين الدولتين وتعاطفوا مع أعدائهما- أي المحور، وقد ظهر ذلك من كتابات بعض المحررين في جريدة سورية الجديدة، ما دفع سعاده إلى تنبيههم وتوبيخهم وإعادة توجيههم لسياسة الحياد. ولا بد أنه قد ظهر الأمر ذاته في الوطن وأن تكون حملة الحزب في الوطن على المستعمر الفرنسي والإنكليزي قد اتخذت منحى يوحي وكأنها تتعاطف أو حتى تتعاون مع المحور. لكن سعاده موجود في المغترب وليس في الوطن، وإن سلطته لا يمكن عملياً، وفي ظروف الحرب وانقطاع الاتصالات، ممارستها على أركان الحزب في الوطن الذين لما يتحصنوا بعد في التشبث بمصلحة سورية فقط والتزام سياسة الحياد دون انفعال. لم يكن بوسع سعاده عملياً تنبيه أو توبيخ أو السيطرة على سياسات وتوجهات أركان الحزب في الوطن كما فعل مع بعض محرري سورية الجديدة في البرازيل. فماذا جرى للحزب في الوطن منذ بدء الحرب العالمية الثانية حتى نهايتها؟

سلسلة اعتقالات وسجون

لقد تعرض أركان الحزب في الوطن إلى سلسلة اعتقالات وسجون متلاحقة منذ اللحظة الأولى لاندلاع الحرب في أول أيلول 1939، وما قبلها أيضاً، يمكن تلخيص مراحلها إلى ثلاث: المرحلة الأولى كانت قصيرة بدأت بعد سفر سعاده وقبل بدء الحرب ودامت حوالي ثلاثة أشهر وانتهت بالإفراج عن المعتقلين بكفالات مالية وسندات إقامة دون محاكمة (مذكرات فريد الصباغ- الكتاب القومي العدد الخامس).

المرحلة الثانية بدأت مع بدء الحرب أول أيلول سنة 1939، حيث تعرض أركان الحزب للملاحقة والمطاردة واعتقل وسجن أكثرهم وتمكن البعض القليل منهم من التواري. نذكر من المسجونين نعمة ثابت وجورج عبد المسيح وعبدالله قبرصي. تمت محاكمتهم أمام المحكمة العسكرية الفرنسية بتاريخ 22-6-40 وكانت الأحكام عشر سنين حبس وعشر سنين منع إقامة (نفي) للمعتقلين، و15 سنة حبس و20 سنة منع إقامة للمتوارين. ومن المتوارين كان فريد الصباغ ومأمون أياس وجبران جريج وفخري معلوف وغيرهم. أما سعاده فقد حكم عليه 20 سنة حبس و20 سنة نفي. دامت هذه الحالة سنتين والمسجونون بقوا مسجونين والمتوارون بقوا متوارين، إلى أن بدأ هجوم قوات الحلفاء، الديغوليين والإنكليز، من فلسطين ضد قوات فيشي الموالية للألمان في لبنان والشام. وهنا بدأت المرحلة الثالثة وسنذكرها بعد قليل.

بداية التورط

إن سياسة أركان الحزب في الوطن بغياب الزعيم يبدو أنها كانت أحياناً منفعلة بالاضطهاد الذي لاقته من الفرنسيين والإنكليز، وصارت تقبل باتخاذ خطوات سياسية عملية للانعتاق من هذا الاضطهاد حتى ولو كانت هذه الخطوات هي الاتفاق مع حكومة فيشي الفرنسية- الألمانية الولاء وممثليها في بيروت. إن القوميين الاجتماعيين اليوم لم يكونوا يعرفون الكثير عن تفاصيل هذه القضية إلى أن اطلعنا على مذكرات الأمين فريد الصباغ مؤخراً. هذه المذكرات التي حملت كثيراً من التفاصيل المثيرة عن تلك المرحلة. يمّوت يقول إن اركان الحزب في الوطن خرجوا من السجن في 11 حزيران 1941 بسبب القصف الإنكليزي على بيروت الواقعة تحت سلطة حكومة فيشي، أي إن هذه الأخيرة لم تكن تريد تحمل مسؤولية وقوع ضحايا أبرياء في السجون جراء القصف الإنكليزي، وكأن جماعة فيشي همها حماية خصومها المحليين في بيروت من الناس والمساجين وليس حماية نفسها من أعدائها الإنكليز والديغوليين!! وبدهي أن هذا التبرير لإبراهيم يموت هو ضعيف جداً ولا يستطيع أن يصمد أمام رواية الأمين فريد الصباغ.

ماذا يقول فريد الصباغ؟

نقتطف من مذكرات فريد الصباغ المقطع التالي كما هو: «...وفي تلك الفترة حصل

هجـوم الجيوش البريطانيـة والديغولية على لبنان من فلسـطين، وأصبـح الجنرال دانتز محاصراً ولم يكن لديه إمدادات ورجال. عندها قرر الاستعانة بالحزب السوري القومي، وكان عنده مستشارون لبنانيون الأول هو الأستاذ ألبير أديب مدير إذاعة الشرق الأدنى والثاني هو خليل معتوق، فاستدعاهم وأطلعهم على الفشل الـذي وصل إليه وطلب منهم الاتصال بالمسـؤولين في الحزب المتوارين عن الأنظار والموجودين في السجن على السـواء للتفاوض معهـم لمنحهم العفو لقاء محاربة الجيوش القادمة من فلسـطين، وهو يقدم لهم السـلاح الموجود لديه في المسـتودعات. ونظراً لعلاقتي الجيدة بالأسـتاذ ألبير أديـب حضر لمنـزلي في ضهور الشـوير وطلب من والـدتي وزوجتي الاتصـال بي طالباً مقابلتـي لأمـر هام جـداً. وفي اليوم التـالي التقيته وعرض علي ما كلـف به وطلب مني الذهـاب معـه ومقابلة الجنرال دانتـز. وحصل الاتفاق وأوعز لمن يلزم تسـليمي كتاب حمل السلاح وتسـليمي أيضاً مستودعات الأسلحة في اليرزة، وإطلاق سراح المعتقلين وتعيينهـم قـادة في المناطق مع حمل السـلاح ومحاربـة مؤخرة الجيـوش الزاحفة. عندئذ صـدر العفو واسـتفدنا منه ولكن الشرط الـذي التزمنا به لم يتم (يقصـد محاربة مؤخرة الجيوش الزاحفة) لأن الوقت كان قصيراً وانهزمت الجيوش الألمانية.». وفي مكان آخر من المذكرات يقول فريد إن دانتز سـمح له بمقابلة الرفقاء المسـؤولين في السجن لأخذ الموافقة وإنه أخذ رسـالة موافقة من نعمة تابت. «وتم إخلاء سبيلهم ورفع الطلب عن المحكومـين المتواريـن وصدر عفو عن الجميع. عندئذ اسـتحضر لي الجنـرال دنتز عدداً من نسـخ إعطاء التصاريح وتم تعيين بعض المسـؤولين لقيادة القوات الحزبية وتسلموا رخص تعيينهم مع تسليحهم...».

فحسـب فريـد الصبـاغ، تم عقد صفقة مـع القوات الفرنسـية المواليـة للألمان أُخلي بموجبها سـبيل القوميين المسـجونين، مقابل أن يحمل هؤلاء السلاح من مخازن الجيش الفرنسي الموالي للألمان لمقاتلة القوات الإنكليزية والديغولية الآتية من فلسطين.

وماذا يقول عبد المسيح؟

أمـا روايـة عبد المسـيح فتختلـف كثيراً عـن رواية يمّـوت وتقترب مـن رواية فريد الصباغ، ولكن مع غموض كبير، مثل الكثير من روايات عبد المسيح، فهي تغفل وقائع وحقائق وتفاصيل مهمة. فماذا يقول عبد المسيح؟

«خرجنا من السجن مصممين على فعل شيء لنطبق مخططنا بإعلان الدولة السورية الموحدة والقتال لتسجيل هذه الحقيقة الواقعية بعمل شبه انتحاري. كان علينا أن نجمع ولو 300 قطعة سلاح لعملية من هذا النوع. وطُلِب إلى عبد المسيح- عميد الداخلية وقت ذاك وقائد القوات المحاربة المساعد لعميد التدريب مأمون أياس، طلب إليه وضع دراسة وخطة ففعل. وقعت الخطة والدراسة بيد الإنكليز، وجدوها في بيت نعمة ثابت... في الفترة القصيرة بين خروجنا ووصول جيوش ديغول والإنكليز، ونحن نعد الشباب لإعلان ما اتفقنا عليه، كان نعمة ومأمون يتصلان برجل اسمه خليل معتوق ادّعى القدرة على تسليحنا من ماله الكثير أو من الجيوش المنسحبة، وتبين فيما بعد أنه عميل إنكليزي. وزاد نعمة ومأمون على ذلك محاولة خبيثة في تجنيد الرفيق حسن الطويل لفكرتهما وهي مساندة الجيوش المنسحبة بدلاً من إعلان الدولة السورية... وأوقف نعمة كل نشاط دولي (يقصد إعلان الدولة السورية المستقلة) بحجج عديدة تبين فيما بعد أنها من صنع خارجي بواسطة كميل شمعون وأمثاله. وأعاد الإنكليز حاملي الصلاحيات الحزبية إلى معتقل المية ومية، وكان الحذر والتجربة قد علّمانا فلم يقع عبد المسيح في أيدي السلطات.... حال إلقاء القبض على أعضاء المجلسين وزجهم في المعتقل أعلن عبد المسيح أنه المسؤول الإداري الأول واتخذ لقب المسؤول الأول وتسلم صلاحيات المسجونين من مؤسستي السلطة التشريعية والتنفيذية. وبدأ العمل... وقدمت مذكرات للسلطات النافذة عسكرياً ومدنياً في قطاعنا في مركزها في بيروت...» (رسالة إلى منير حيدر ص 49)

في رواية عبد المسيح هذه نقص كبير، وفيها تناقض، كما فيها خوض في صراعات حزبية داخلية وتملص من مواقف معينة ووضعها على نعمة وأياس بتحريض من شمعون... فمثلاً هو لا يخبرنا شيئاً عن كيفية الخروج من السجن وسببه وثمنه، وهذا شيء مهم جداً، يحرص بدلاً من ذلك على إخبارنا عما فعلوه بعد الخروج، وأن الدراسة والخطة التي وضعها لإعلان الدولة السورية المستقلة قد ضبطها الإنكليز في منزل نعمة، دون إخبارنا شيئاً عن هذه الخطة وماذا كانت خطوطها العريضة وأهم مراحلها وكيف كانت تلحظ تأمين المال لشراء 300 قطعة سلاح وغير ذلك، علماً أنه كان موافقاً على تأمين السلاح من الجيوش المنسحبة دون إعلامنا إذا كان ذلك سيكون بالشراء بالمال أم بالمقايضة بمواقف سياسية وأمنية معينة أو بمهاجمتها وغنيمتها عنوة أو غير

ذلك. ويلوم نعمة على محاولة مساندة الجيوش المنسحبة بدل العمل لإعلان الاستقلال، وذلك بحجج من صنع شمعون المعروف بعلاقته مع الإنكليز، وهنا التناقض: شمعون الموالي للإنكليز يحرض نعمة على مساندة أعداء الإنكليز! (جيش فيشي المنسحب الموالي للألمان) وهذا غير قابل للتصديق، فشمعون يفترض أن يحرض نعمة على مساندة الجيوش الإنكليزية المهاجمة وليس على مساندة الجيوش الألمانية المنسحبة). لكن عبد المسيح يريد أن يعترف بأن الحزب ساعد أو حاول مساعدة قوات المحور، كما أكد فريد الصباغ، ولكنه يريد رفع اللوم عنه ليضعه على نعمة وشمعون رغم عدم منطقية هذا اللوم ورغم صعوبة تصديقه.

ولقد وقعنا على رواية ثانية لعبد المسيح، مشابهة للأولى، في «أيام قومية- الجزء الثاني» نشرتها عمدة الإذاعة سنة 2011، ولم تذكر تاريخ كتابتها. ففي الصفحة 74 و75 يقول إن نعمة ثابت عقد اتفاقاً مع الجنرال دانتز قائد قوات فيشي في بيروت، يقضي بمساندة قواته المنسحبة ومقاتلة الجيش الإنكليزي المهاجم الآتي من فلسطين، وإنهم خرجوا من السجن بناء على هذا الاتفاق. وأن عبد المسيح بعد الخروج من السجن قدم اقتراحاً مغايراً يقضي بقبول استلام السلاح من قوات فيشي لكن لمحاربة القوات المنسحبة والمهاجمة معاً، وإعلان الدولة القومية المستقلة. وفي هذه الرواية الثانية يتحدث عبد المسيح عن اقتراح جديد وليس عن خطة كلفه بها نعمة كما يذكر في الرواية الأولى. وفي هذه الرواية الثانية إعلان واضح بأنهم خرجوا من السجن على أساس الاتفاق بين نعمة ودانتز، وأنهم قبلوا السلاح من قوات فيشي.

وفي رواية عبد المسيح الأولى أمر ملفت، هو إفلاته من الاعتقال بعد وصول الإنكليز إلى بيروت، حيث إن «الحذر والتجربة علّمانا فلم يقع عبد المسيح في أيدي السلطات»، وفي الوقت نفسه فإنه رغم تواريه من قبضة السلطات الأجنبية يقدم المذكرات لهذه السلطات نفسها! أما مضمون هذه المذكرات فيكشف عنه في الصفحة 51 من رسالته إلى منير حيدر ويقول: « وكنا نحذّر في مذكراتنا من المخطط الروسي العتيق للوصول إلى المياه الدافئة، وكان كميل شمعون يضحك منا حين يقرأ مذكراتنا إلى سبيرز ممثل الحكومة الإنكليزية في بيروت (كيف وصلته؟ هل كان العم يرسلها للإنكليز بواسطة شمعون؟)، لذكرِنا ما يحتمل أن يحصل بعد الحرب إذا لم توحَّد سورية لتقوى في وجه

التيـار الروسي والشـيوعي ولتصد أطماع اليهـود عنا وعن العالم». إنه يحذّر الاسـتعمار الفرنسي والإنكليزي القابع فعلياً على أرضنا من الخطر الروسي والشيوعي المحتمل أن يقبع في المسـتقبل على أرضنا. وكأنه كان صديقهم فيحذرهم! هل ينبّه ويحذّر الإنسـان عـدوه أم صديقه؟ (سـنرى في الفصـل الخامس كيف يحذّر عبد المسـيح الأميركيين من الخطر الروسي الشيوعي ولا يحذّر الروس من الخطر الاستعماري الأميركي!).

المهـم في الأمـر أن روايَتَـي فريـد الصباغ وعبد المسـيح أقرب إلى الحقيقـة من رواية إبراهيم يمّوت، لأنهما تتقاطعان مع ما ذكره سـعاده نفسه من أن بين أوراقه التي سرقها جميـل صفـدي رسـالة بالإنكليزية من نعمـة ثابت يقترح فيهـا القيام بثورة مسـلحة في الحال، مع وجود طريقة أمينة لتأمين السلاح (الأعمال الكاملة 10 ص 77).

السياسات الانحرافية والنفعية طلباً للسلامة الشخصية

يـبدو أن أركان الحـزب وعلى رأسـهم نعمة ثابـت كانوا قد بدؤوا باتخاذ القرارات والسياسات الانحرافية عن سياسة الحزب وتوجيهات الزعيم منذ ذلك الوقت المبكر، طلباً للسلامة الشخصية.

لكن وجود القوميين خارج السجن لم يدم طويلاً، فالإنكليز والديغوليون قد عَلِموا بصفقـة الحـزب مع دانتز، وقـد يكون بوشـاية من خليل معتـوق مستشـار دانتز الذي تواصل مع فريد والذي يقول عنه عبد المسيح إنه عميل إنكليزي. فقد أعادت السلطات الإنكليزيـة والديغولية اعتقال القيـادات الحزبية تباعاً حوالي تشرين الأول 1941، قبله وبعده، وكانت هذه هي المرحلة الثالثة من الاعتقالات والسـجون، وقد اسـتمرت إلى ما بعد سـنة الاسـتقلال 1943. هذه المـرة أفلت العم من الاعتقال وبقـي متوارياً حتى نهايـة الحرب. ويجدر هنا أن نسـجل أنـه حدثت قرارات إفراج وإعـادة اعتقال متعددة ولأسـباب شـخصية وخاصة عديدة، فمثلاً تم الإفراج عن عبدالله سعاده في 19 كانون أول سـنة 1942 ليتابـع دراسـة الطـب في الجامعـة الأميركيـة في بـيروت. وكان قد تم الإفراج عن عجاج المهتار وحسـين منصور وعبد الرحمن بشـناتي من ضمن دفعة بلغت 14 رفيقاً، في 11 أيلول 1942، وجاء مكانهم إلى السجن دفعة كبرى أخرى منها عبدالله سعاده مجدداً ونهاد حنا (يمّوت ص 110 وما بعد).

ماذا جرى في سجن راشيا؟

بعد 4 كانون ثاني 1942 نقل كل من نعمة ثابت ومأمون أياس وزكريا لبابيدي وجبران جريج إلى سجن راشيا الوادي. وفي 11 تشرين ثاني 1943 دخل كل من بشارة الخوري ورياض الصلح وكميل شمعون وعادل عسيران وسليم تقلا وعبد الحميد كرامي إلى السجن نفسه، إثر معركة بشامون والصدام الدامي مع القوات الفرنسية واستشهاد الرفيق القومي سعيد فخر الدين. هؤلاء بقوا سجناء حوالي أسبوعين، أما أركان الحزب فبقوا يتنقلون من سجن إلى آخر لمدة جاوزت السنوات الثلاث. يروي جبران جريج (حقائق عن الاستقلال أيام راشيا)، ويؤيده إبراهيم يموت، كيف كان للسجناء القوميين في راشيا الفضل الكبير والأول في تقوية معنويات أعضاء «حكومة الاستقلال» ومدّهم بالمعلومات اليومية بواسطة شبكة الاتصال المنظمة مع الخارج التي للحزب يومذاك بقيادة عبد المسيح، عن انتفاضة هذا الخارج وعن المجابهة الشعبية والتصدي الشعبي العارم للقوات الفرنسية المنتدبة، ما ساعدهم على الصمود واتخاذ القرارات الشجاعة تجاه الفرنسيين. ولا نستبعد أبداً أن تكون بوادر صفقة سياسية قد أبرمت في ذلك الوقت، في السجن، اتفاق أو بداية اتفاق بين نعمة ثابت ونسيبه كميل شمعون وباقي أعضاء الحكومة في السجن، واستُكمِل خارج السجن فيما بعد، بأن تعمل الحكومة على الإفراج عن نعمة وصحبه وإشراكهم بنعم الحكم، عندما تستتب لها الأمور، لقاء وعود أعطاها نعمة بتطويع الحزب وجعله «لبنانياً». نحن الآن نرجح أن ذلك الاتفاق لم تكن تفاصيله قد استكملت بعد لأن الحكومة قد ماطلت كثيراً وطويلاً في الإفراج إلى أن وصلنا إلى أواخر 1943-44 حيث خرج القوميون من السجن ليس منة من أحد بل بعد تمرد وعصيان فوضع أكثرهم في الإقامة الجبرية يثبتون وجودهم مرة في الأسبوع أو في الشهر، كل في مركز إقامته.

رفقاء قياديون موظفون مع الجيش الإنكليزي

أن يكون أركان الحزب، أو من سيصبحون أركاناً بعد قليل، قد عانوا ما عانوه من الاضطهاد والسجون ودفعوا ما دفعوه من ضريبة الجهاد والصراع فاقةً وفقراً مدقعاً، فضلاً عن خسارة السنين الدراسية وجلّهم طلاب طب وفلسفة واختصاصات عالية، نقول أن يكون ذلك يبرر أخذ بعضهم فسحة راحة لترميم الأوضاع العائلية والشخصية

والمعيشية لكي يتمكنوا من استئناف واستمرار الجهاد بفعالية، فلا يمكن تبرير لجوئهم إلى العمل مع الجيش الإنكليزي، ولا يمكن تفسيره إلا قصوراً في فهم منزلة وقيمة وخطورة المسؤولية القيادية في حزب سعاده.

يقول إبراهيم يمّوت (ص 130) إنه في أوائل حزيران 1945 عمل خلال الصيف كله هو ونديم مقدسي وفوزي معلوف وخالد جنبلاط ولبيب زويا وغيرهم، «عملوا كعرفاء مع الجيش الإنكليزي الداخل إلى الشام ليوقف الصدامات الدموية الحاصلة بين القوات السورية الحديثة العهد والقوات الفرنسية التي كانت لا تزال في الشام وتأبى الجلاء عنها.» ونحن نعلم أن تلك الفترة كانت فترة الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي والتي أدت إلى الجلاء التام للاحتلال. إن أقل ما يعنيه هذا الأمر هو أن رفقاء من مستوى عمد ووكلاء عمد لم يكونوا عاملين وناشطين حزبياً في تلك الفترة بل كانوا عاملين كعرفاء مع الجيش الإنكليزي لقاء مرتب، وأن نعمة ثابت ومجموعته هم الذين وجهوا هؤلاء الرفقاء للعمل مع الجيش الإنكليزي لإبعادهم عن المركز وجعل المركز مسرحاً لاستفراد مجموعة الانحراف العقائدي والسياسي. لكن كيف يقبل هؤلاء الرفقاء العمل مع الجيش الإنكليزي الآتي لقمع ثورة السوريين ضد حليفه جيش الاحتلال الفرنسي، جيش الدولة المسؤولة عن وعد بلفور وعن سايكس بيكو. وكيف يثق الإنكليز وجيشهم بهؤلاء الرفقاء القوميين الاجتماعيين لولا ضمانة من علاقة صداقة مع قيادتهم في بيروت، وحتى من اتفاق معين قد عقد مع هذه القيادة؟

الانحراف يأخذ وجها نافراً

في 4 آب سنة 45 صدر تعميم عدد 12 عن عمدة الإذاعة في الحزب في بيروت، وكان العميد هو كريم عزقول، يمنع الهتاف الحزبي لسورية وسعاده ويبدله بهتاف جديد لا ذكر فيه لا لسورية ولا لسعاده. ثم وجّه نعمة ثابت، وكان قد عيّن نفسه رئيساً للمكتب السياسي بمنزلة عميد يحضر جلسات مجلس العمد بالإضافة لكونه رئيساً للمجلس الأعلى، أي رئيساً لكل شيء بالحزب، وجّه رسالة إلى القوميين الاجتماعيين لتبرير تعميم عميد الإذاعة والدفاع عنه، يقول في رسالته: « لا يجب أن يقف أي عائق في طريق إيصال الحزب إلى السلطة» (يمّوت ص 123)، أي لا يجب أن يقف حزب سعاده عائقاً أمام وصول حزب نعمة ثابت إلى السلطة. وكان هذا التصريح من نعمة

اعترافاً واضحاً وصريحاً بأن منع الهتاف لسورية وسعاده هو عائق اشترطت الحكومة إزالته لمساعدة حزب نعمة ثابت للوصول إلى السلطة.

وكان الحزب في 2 أيار سنة 44 قد حصل على رخصة رسمية من الحكومة اللبنانية للعمل بحرية في لبنان، ومضمون وشكل هذه الرخصة الصادرة عن وزير الداخلية كميل شمعون كان فاتحة التدابير العلنية النافرة التي اتخذتها قيادة نعمة ثابت وتبين لاحقاً أنها كانت ثمرة صفقات سياسية عقدها نعمة مع شمعون وسائر أعضاء الحكومة المسجونين معه في قلعة راشيا. كانت الرخصة باسم «الحزب القومي» وليس الحزب السوري القومي كما هو اسمه الحقيقي. كانت الرخصة هكذا:

علم وخبر رقم 614. اسم الجمعية: الحزب القومي. مركزها: بيروت. غايتها: استقلال لبنان. هيئة الإدارة: نعمة ثابت، ولسن مجدلاني، أسد الأشقر. الإمضاء: وزير الداخلية كميل شمعون.

وتوالت بعد ذلك التدابير «الضرورية» لوصول حزب نعمة إلى السلطة، برتبة نائب.

1- ألغي علم الزوبعة الذي يرمز إلى الفجر الذي ينبثق من أشد ساعات الليل حلكةً وإلى الحركة التي خرجت من الجمود، واستبدل برسمة لا معنى لها ولا ترمز لشيء، ومنع الهتاف الحزبي وذكر اسم سورية وسعاده.

2- أطلق العنان لعميد الثقافة فايز صايغ ليروّج لعقيدة نقيض لعقيدة سعاده القومية الاجتماعية، هي العقيدة الفردانية المأخوذة من الفيلسوفين الروسيين كركيغارد وبرديابيف.

3- ألقى نعمة خطاباً في بعقلين سنة 1944 تلا خلاله بيانه المشهور «الواقع اللبناني». فريد الصباغ في مذكراته يقول إن المير مجيد أرسلان حضره واستعرض الصفوف القومية الاجتماعية!

4- جهّز نعمة أوراقه الشخصية وغيّر مذهبه ليستطيع الترشح في الانتخابات البرلمانية على لائحة نسيبه كميل شمعون.

إن عقلية المساومة والمقايضة والتساهل في المبادئ الأساسية والعقيدة من أجل

مكاسب سياسية شخصية ونيل نصيب من السلطة، في مقعد نيابي أو وزارة ثانوية أو حتى وزير دون مصلحة، وهو كمن يقطف ثماراً لم تنضج بعد، هي عقلية ظلت مستترة وموجودة في ذهن أكثرية القياديين حتى بعد عودة سعاده وإعادته الحزب وعقيدته وسياسته إلى نصابها السليم، بل هي مستمرة حتى الآن بعد سبعين سنة من استشهاده، وسنعطي أمثلة تثبت ذلك في سياق فصول هذا البحث كلها. إن الوصول إلى السلطة هو شيء مقبول ومطلوب وليس فيه ما يوجب الرفض والاحتجاج والمحاربة، بل هو واجب وهدف حتمي للحركات التي تريد إنشاء نظام جديد، ولكن ليس قبل إنضاج الظروف وترسيخ العقيدة وجعلها مقبولة من أكثرية الشعب، وحتى قبل جعل العقيدة مقبولة من أكثرية الشعب عندما يكون ذلك متاحاً أو ضرورياً للاستفادة من قوة السلطة ووسائلها لتحقيق الإصلاح القومي الاجتماعي بفعالية وسرعة، ولكن ذلك لا يجب أبداً أن يكون على حساب عقيدة الحزب وقضيته وغايته وبالتنازل عنها أو التساهل فيها. المطلوب هو وصول الحركة إلى السلطة، بكامل مبادئها وسياستها وغايتها القومية الاجتماعية، وليس استبدال هذه الحركة بالسلطة كما كان يفعل نعمة ثابت.

أين كان عبد المسيح وماذا كان دوره؟

لم نكن لنبحث عن دور عبد المسيح في هذه الانحرافات لولا أنه يقدم نفسه، ويقدمه مريدوه، على أنه ضمانة عقائدية. فجورج عبد المسيح كان من أوائل الذين كتبوا ونشروا مذكراتهم، إذا لم يكن أولهم إطلاقاً، وهو قد روى الكثير وغطت رواياته جميع مراحل الصراع المرير الذي خاضه الحزب منذ تأسيسه سنة 1932. لكن المستغرب كثيراً هو خلوّ مذكرات عبد المسيح ورواياته من شرح واضح وكافٍ لحوادث الانحراف العقائدي والسياسي الذي قاده نعمة ثابت، وموقفه من هذا الانحراف في حينه. وهذا الاستغراب يبرره ويؤججه تقديم عبد المسيح لنفسه «كضمانة عقائدية» ضد الانحراف ابتداء من سنة 1954 تاريخ أول أزمة سلطة في الحزب إبان رئاسته له، مروراً بالانشقاق الحزبي سنة 1957 وما بعده. فقبل هذا التاريخ لم يكن لعبد المسيح أي كلام أو أي كتابات عن موضوع الانحراف العقائدي والسياسي غير الذي ارتكبه نعمة ثابت. لذلك فإن بحثنا عن موقف عبد المسيح من حوادث تغيير الهتاف وإبدال علم الزوبعة وفردانية فايز صايغ والواقع اللبناني لنعمة ثابت وديموقراطية يوسف الخال وغسان

تويني، هذا البحث نحن مجبرون أن نقوم به ونبحث عنه في كتابات وروايات غيره من رفقاء الرعيل الأول للحزب. كان علينا أن ننتظر حتى سنة 2006 لنعثر على ما قال العم إنه كان موقفه من انحرافات نعمة وصحبه، وذلك في رسالته- كتابه إلى منير حيدر صفحات 55 و56 و57، ثم إلى سنة 2011 عندما نشرت عمدة الإذاعة كتيب «أيام قومية الجزء الثاني».

في رسالته إلى منير يقول إنه كان ضد انحرافات نعمة التي كان يسميها تنازلات (صفحة 55). يقول: «لم نكن في حالة تسمح لنا بانتفاضة تطيح به» (نفس الصفحة). وأيضاً لأنه لم يكن «يتمتع بحرية التحرك» بسبب حكم الإعدام الذي صدر بحقه في حلب، وإن نعمة ورهطه يرون في عدم قدرة العم على التحرك ما يساعدهم للسيطرة على الاتجاه الفكري، وقد منعوا عبد المسيح من الكتابة في مجلة الحزب الداخلية (صفحة 56 و57). حتى إن العم يضع اللوم على «تنازلات نعمة ومواقفه المائعة»(ص 55) في جعل رياض الصلح يبتعد عنا بعدما كانت تقربه منا البطولات الأصيلة التي أبداها الرفقاء. (نفس الصفحة). وهذا يعني أن رياضاً هو رجل شهم وشريف يحب البطولة ويكره التنازلات، فهو يتقرب منا عندما يرى بطولاتنا ويبتعد عنا «مهزوزاً من المواقف المائعة يقبل بها الذين انحنوا أمام الضغط الفكري أمثال فايز صايغ والضغط السياسي أمثال نعمة ثابت». عبد المسيح ينسى أن الضغط السياسي الذي انحنى أمامه نعمة كان مصدره رياض الصلح وشمعون ورهطهما، فكيف لرياض أن يبتعد عنا بسبب هذا الضغط الصادر عنه هو نفسه! كما أن عبد المسيح يفتخر بأن «رياض الصلح صرح للذين حملا بطاقة عبد المسيح إليه وتوصيه بوجوب الإقدام على تعديل الدستور اللبناني علامة تمرس بالاستقلال وإنهاء الانتداب بعد أن تنكر الفرنسي لوعده بإنهائه من جهته هو، رياض الصلح أعلن أن بطاقة المسؤول السوري القومي الاجتماعي أعطته واحداً وخمسين بالمئة من التشجيع مقابل تسعة وأربعين بالمئة كونها من كل الشعب في لبنان ومسانديه في الخارج» (ص 54). ولا ينسى عبد المسيح، وهو يسرد لمنير حيدر قصة عدم القدرة على التحرك بسبب حكم الإعدام في حلب، أن يعتبر نفسه يومها، ورغم عدم قدرته على التحرك ورغم منعه من الكتابة في مجلة الحزب، إنه كان القيادة الفعلية للحزب المعبرة عن الإرادة القومية الاجتماعية.(نفس الصفحة).

من الواضح إذاً أن تطرق عبد المسيح لانحرافات نعمة العقائدية والسياسية لم يكن كافياً وشافياً في رسالته إلى منير. ولكن في «أيام قومية الجزء الثاني فإننا نجد معلومات إضافية كالتالي:

في الصفحة 107 يتحدث عن الفترة التي كان فيها نعمة في سجن راشيا ويقول: «...قررت أن أتخذ لنفسي حق مخالفة الدستور، للطوارئ، فأصدرت مرسوماً بتوسيع المجلس الأعلى وعينت فيه أشخاصاً كنت أرى فيهم ضمانة كافية للعقيدة تجاه الأعمال السياسية المحضة التي يريد نعمة أن يسير الحزب عليها لنيل مصالح ونفوذ مستعجل. ودعوت لمؤتمر حزبي في الشويفات دام 3 أيام حضره 175 مندوباً من جميع مناطق الحزب من الشام ولبنان... وفي اليوم الثالث والأخير من المؤتمر شوهد نعمة ثابت متجهاً إلى بيروت مما يدل أنه قد أخلي سبيله». يضيف عبد المسيح ويقول إنه استدعى نعمة إلى الشويفات فحضر المؤتمر وإن عبد المسيح أطلعه على أبحاث هذا المؤتمر (المجهولة!) ودعاه إلى ترؤس جلسة المجلس الأعلى ففعل، وكان هذا إقراراً منه بالوضع الراهن وعدم اعتراض على صلاحيات تعيين أعضاء جدد في المجلس. كما يقول عبد المسيح إن نعمة ثابت أخرجه الإنكليز ليقف بوجه عبد المسيح الذي لم يتنازل عن العقيدة (ص 107– 108). ويقول أيضاً إنه بعد خروج نعمة من السجن بدأت المفاوضات للإفراج عن القوميين الذين بقوا مسجونين، وإنه قد تم الإفراج عنهم «على أن يساند الحزب الفئة التي يرضى عنها الإنكليز من المتناحرين على السلطة والنفوذ، وعلى أن يتنازل عن عقيدته ويعمل لبنانياً» (ص 108– 109).

إن في الكلام الوارد أعلاه على لسان عبد المسيح ذكراً واضحاً عن قبول الحزب، بقيادة نعمة ووجود عبد المسيح في المجلس الأعلى، بالتنازل عن العقيدة والعمل لبنانياً فقط. والغريب في الأمر أن عبد المسيح يقول لنا في روايته إنه قد قبل بذلك ووافق عليه ولم يقلق على سير الأمور!! لا زلنا في الصفحة 109 حيث يقول: «هكذا تألف حزب جديد نال رخصة بالعمل سنة 1944... ومن المؤسف أن يكون قد أخذ رأيي في الأمر فوافقت مبدئياً... فاستغل نعمة تصريحي هذا لوضع أسس جديدة ونقوم بطلب الرخصة مع عبد الله قبرصي وأسد الأشقر دون الرجوع إلينا في مبدأ الطلب(؟)». ويضيف ويقول: «كان كل همي بعد خروج الرفقاء أن أبقى في مركز يخولني مراقبة

الأعمال، فكنت أكتفي بأن أحضر جلسات المجلس الأعلى... وبقيت في حالة من عدم القلق على سير الأمور إلى أن فاجأني نعمة ثابت في خطابه في بعقلين، الواقع اللبناني، ذلك الخطاب الذي تمت فيه ضربة الحزب التي بدأها باستعراض الأعضاء في مهرجان بعقلين وضرب التحية الرسمية للمير مجيد»(ص 109).

إن ما يعترف به عبد المسيح بأنه وافق مبدئياً واكتفى بحضور الجلسات ولم يقلق على سير الأمور، وإن كل همه كان أن يبقى في مركز يخوله مراقبة الأعمال، يبرهن لنا أنه لم يكن متصدياً لموضوع «التنازل عن العقيدة»، ولم يكن «القيادة الفعلية» حسب ما يذكر لمنير حيدر، ولم يكن «المسؤول الأول» حسبما يذكر في أكثر من مكان. إن الرفقاء يريدون من الأمين عبد المسيح ليس أن يخبرهم عن مغامراته الأمنية ومهاراته في التخفي وجَوْب البراري والغابات تحت المطر والمسير 19 ساعة متواصلة واضطراره لنقع رجليه في المياه الساخنة لكي يتمكن من خلع الحذاء بعد مسير الساعات الطوال في الجرود والثلوج ليل نهار، بل يريدون أن يعرفوا كيف أخذ الحزب رخصة من الحكومة اللبنانية تحت شروط التنازل عن العقيدة، وكيف قبل المسؤولون بهذه الشروط ولماذا كان عبد المسيح موافقاً وغير قلق على سير الأمور.

شهادات عن دور عبد المسيح في الانحرافات

هناك شهادات توثق تأييد العم لتدابير نعمة ثابت ليس فقط في «الواقع اللبناني» بل أيضاً في منع الهتاف لسورية وسعاده وتعنيف الرفقاء الذين لم يمتثلوا للمنع. فعصام المحايري مثلاً يقول إن العم لم يعترض على الانحراف العقائدي والسياسي لنعمة ثابت وفايز صايغ وغيرهم، وإنه كان على رأس لجنة تحقيق أرسلها نعمة ثابت إلى دمشق لمعالجة تمرد رفقاء الشام على «الواقع اللبناني» وتبريره ودعوتهم للعودة إلى النظام (من مقدمة عصام لكتاب الدكتور وديع بشور- سعاده ونهجه الفكري- بيسان للنشر والتوزيع). وعبد المسيح يذكر هذه المسألة في مذكراته التي نرجح أنه كتبها بعد عودة الزعيم وفضحه انحرافات نعمة وصحبه وطردهم من الحزب، وليس قبل ذلك، يقول: «وكان من جراء ذلك أن استفاق الرفقاء في المجلس الأعلى الذين هم من الداخل مثل الياس جرجي وخالد مورلي والدروبي من غفلتهم، وقاموا يدبرون أمر الانفصال عن المركز وأعلنوا فعلاً الانفصال وألّفوا

مجلساً أعلى كان على رأسه خالد مورلي» (أيام قومية 2 ص 111). ويسرد كيف جاء إلى دمشق واستجوب الرفقاء السبعة الذين أعلنوا الانفصال ويقول: «...وكان الحق لهم من الوجهة العقائدية ولكن الانفصال يزيد الهوة ويعطي نعمة مجالاً أوسع للبننة العقيدة... فأصدرت أمراً بإحالتهم إلى المجلس الأعلى واستدعيت أعضاء المجلس إلى دمشق وتمت محاكمة طالبي الانفصال وفصلوا من الحزب». وهنا يلفتنا قول عبد المسيح بأنه أصدر أمراً وبأنه استدعى أعضاء المجلس الأعلى إلى دمشق، بدل أن يقول إنه اقترح إحالتهم إلى المحاكمة وإنه اقترح على المجلس الأعلى الموقر بأن ينعقد لهذه الغاية في دمشق بسبب عدم إمكانية إجبار المتمردين للذهاب إلى بيروت. ذلك أن عبد المسيح كان يهمه كثيراً أن يكون المسؤول الأول الذي يأمر ويستدعي، ويبدو أن نعمة ثابت قد استغل هذه النزعة عند عبد المسيح فعينه «قائداً عاماً». إن عبد المسيح يخبرنا بنفسه كيف استلم «القيادة العامة للحزب» ويقول إنه في تلك المرحلة بالضبط بعد أن كانت علاقة الحزب مع كميل شمعون والمير مجيد أرسلان جيدة جداً غضب رياض الصلح الذي يريد أن يكون الحزب في أمره هو، فاستغل رياض ذهاب شمعون إلى أميركا لتمثيل لبنان في منظمة الأمم المتحدة وبدأ يهاجمنا... وكنا نعلم بعلاقة رياض بالشيوعيين فقلقنا «فطلب المجلس الأعلى مني أن أستلم القيادة العامة للحزب حتى إذا حصل ما يستدعي الاشتباك يكون على رأس الفئات شخص يثق به الأعضاء» (ص 111).

إننا اليوم إذ نقرأ أن المجلس الأعلى سلّم عبد المسيح «القيادة العامة للحزب» نتساءل عن معنى ذلك، حيث لا يوجد في الحزب ما يمكن أن نسميه قيادة عامة لها صلاحيات معينة دستورياً. ويخطر في بالنا أن يكون المقصود هو قيادة قوات الحزب المسلحة، لأن المسألة كانت قلقاً من اشتباكات مع رياض الصلح والشيوعيين. لكن عبد المسيح تحدث عن القيادة العامة للحزب، وليس القيادة العامة لقوات الحزب العسكرية. هكذا هو عبد المسيح، يرى نفسه «مسؤولاً أولاً» في الحزب وقد وردت هذه الصفة وهذا التعبير على لسانه مرات عديدة وفي مناسبات عديدة، ويستند في ذلك إلى اعتقاده بأن الرفقاء يثقون به أكثر من ثقتهم بغيره، فمثلما قال بأن تسليمه القيادة العامة للحزب كان لأنه في حال حصل ما يستدعي الاشتباك «يكون على رأس الفئات(؟) شخص يثق به الأعضاء»، فقد قال أيضاً بصدد فصل الرفقاء الدمشقيين الانفصاليين إن فصلهم «لم

يؤد لمشاكل لأن اقتراح فصلهم كان اقتراحه هو، والرفقاء يثقون به» (ص 114).

نعود إلى سياق هذا الموضوع الذي هو البحث إذا كان عبد المسيح قد تصدى للانحراف العقائدي لنعمة ثابت أم لا. لقد ذكرنا ما يقوله هو نفسه عن الموضوع، فلنر الآن ما يقوله غيره عنه. فعبدالله قبرصي، ورغم أنه اعتبر في مذكراته أن جورج عبد المسيح كان من الفريق «المتصلب» الذي عارض استحداثات نعمة وفريقه، لم يذكر شيئاً عن خطوات اعتراضية معينة لعبد المسيح. ويقول قبرصي أيضاً في مذكراته: «إن أحداً في المركز لم يطرح، بل لا يذكر أن تساؤلات فردية حدثت حول أفكار وطروحات فايز صايغ، ولم يصل للمجلس الأعلى أي اعتراض أو أية دراسة تشير إلى تناقض فايز مع فلسفتنا الاجتماعية أو حتى مع نظامنا. وكذلك بالنسبة إلى الواقع اللبناني الذي يشكل نوعاً من لبننة الحزب. لم يلفت نظر أحد سوى عميد الإذاعة آنذاك كريم عزقول، وقد كتب بعضهم (؟) إلى سعاده في الأرجنتين يلفته إلى الانحراف العقائدي في الخطاب الذي ألقاه نعمة ثابت في بعقلين». كان هذا ما قاله قبرصي، أما جبران جريج فيقول إنه هو وكريم عزقول عميد الإذاعة فقط اعترضا في مجلس العمد على بيان فايز صايغ (مع أنطون سعاده ج 4 ص 28)، وأن محمد يوسف حمود قد طرد بسبب معارضة الواقع اللبناني (نفس المصدر ص 32)، ولم يقل شيئاً عن عبد المسيح.

أما فريد الصباغ فيروي في مذكراته أن عبد المسيح كان متشدداً في منع الرفقاء من الهتاف لسورية وسعاده خاصة في مهرجان الإصلاح في ضهور الشوير (النسخة المطبوعة ص 39 و55) وأن تفصيل ذلك وارد في تقرير الأمين عجاج المهتار إلى سعاده عما حدث من انحرافات في غيابه. ويقول فريد أيضاً إنه لم يعارض إجراءات نعمة الانحرافية سوى ثلاثة هم فريد والياس جرجي وحسن الطويل، «فأعطونا تنبيهاً وإنذاراً نهائياً بأن التحية باسم سورية ممنوعة وإذا ثابرنا عليها فسنعاقب. تقدمت باستقالتي من مسؤولية منفذ عام المتن وعيّنوا مكاني مسعد حجل» (نفس المصدر صفحة 88).

وبعيداً عن الروايات المختلفة فإن وثيقة أصلية واحدة مكتوبة نجدها في كتاب الأمين جهاد العقل (أضواء ورموز ص 82) وهي صورة عن الصفحة 15 من نشرة عمدة الإذاعة تاريخ 20حزيران 45 فيها أن مجلسي الأعلى والعمد قد وافقا على شكل العلم الجديد، فعبد المسيح كان عضواً في مجلس العمد ويجب أن يكون وافق على العلم

الجديد، إذ إن لا إشارة أبداً على أن أحد العمد كان من المعارضين.

إن عبد المسيح نفسه أيضاً هذه المرة يخبرنا عن موافقته على تغيير علم الحزب، يقول في هذا الصدد: «أنيس فاخوري أفضى للزعيم بعد عودته أن نعمة ثابت جاء بأنيس إلى عضوية المجلس الأعلى لكي يصبح عدد الأصوات معه زائداً عن عدد الأصوات مع عبد المسيح. لكن ذلك لم يفد، لأن كل ما كانوا يقررونه سراً كان يسقط في الجلسات الرسمية حين نبين خطأه... أمر واحد نفذوا به هو تغيير شكل العلم. ولم نثر ضجة حول الشكل بل شددنا على تطبيق دستورنا والتمرس بعقيدتنا بكل دقة وإخلاص» (أيام قومية 2 ص 127). إن ما يلفت النظر هنا هو أن عبد المسيح بقوله هذا لم يكن يرى انحرافاً إلا في تغيير شكل العلم، لا الواقع اللبناني ولا التخلي عن المبادئ الأساسية ومنع الهتاف لسورية وسعاده، ولا الفلسفة الفردانية لفايز صايغ ولا الانحرافات السياسية، «أمر واحد نفذوا به هو تغيير شكل العلم».

عبد المسيح يدافع عن نعمة ثابت أمام الزعيم

ولم يخبرنا عبد المسيح شيئاً عن موقفه من حجب رسالة الزعيم الثانية إلى القوميين الاجتماعيين وقرار مجلسي الأعلى والعمد بمنع نشرها وإيصالها للقوميين الاجتماعيين. وأيضاً عن مسألة عودة الزعيم من مغتربه القسري وعرقلة المسؤولين الحزبيين لها وانقطاعهم عن مراسلة الزعيم، فلا تفاصيل أيضاً عنها ولا شيء عن مداولات المركزيين، وهو واحد منهم، حول هذه العودة وحول الحصول على جواز سفر للزعيم وما رافق ذلك من شروط ومماطلة وتمنع ومطالب سياسية، وكأن عبد المسيح لم يكن مسؤولاً أو معنياً حينذاك بهذه المواضيع الخطيرة ولم يكن له رأي فيها ولا دور. وإذا ما ذكر شيئاً عنها فباختصار شديد وغموض أشد. خذ هذه الفقرة التي تكاد تكون الوحيدة التي تكلم فيها عن هذه المسألة الخطيرة في تاريخ الحزب، ومنها يتبين أنه يتحدث عما حدث بعد عودة الزعيم أيضاً وليس قبل عودته فقط: «...في الحزب أيضاً تحرك داخلي. ما هي دوافعه؟ النظرة الفلسفية، التعاليم، الحدود؟ لا! إنها لا جازمة. راقبوا التأثيرات السياسية. بعض هؤلاء مجرورون بالبعض الآخر. ووراء الأمر يد... هذا (...) يأتي إلى مدير الأمن العام السيد (أ.أ) ويؤكد له أنه بإمكانه القبض على سعاده بثمانين دركياً فقط... ما أفظع الخيانة. وطرد

بعد طول أناة، وفتح الصدر الرحب، ومحاولة محو الماضي...» (من يوميات عبد المسيح ص 115). وأيضاً: «...تمنع عن إعطاء الزعيم كل ما يتوجب مدعياً أن الزعيم يجرب سياسة الميوعة التي ارتآها المثلث الوصولي السائر على رأس الحركة ولا يربطه بها شيء، قلنا ما عليه، وصول الزعيم يعيده إلى حالة الرجولة المتبلورة كما كان الزعيم سحبه من طفولة مرهفة. أما أن يكتب لمدير الأمن العام(...) أنه بثمانين جندياً يأتيهم بسعاده فأمر وصل إلى الخيانة». (نفس المصدر)

لم يقل لنا بوضوح من هو هذا المثلث ولماذا لم يقف هو بوجهه ويعطل «سياسة الميوعة»، ولماذا اكتفى بموقف «معليش» (ما عليه) واتكل على الزعيم وعودة الزعيم ليعيد نعمة ثابت إلى «حالة الرجولة المتبلورة». ورغم أن عبد المسيح كان يقول «معليش» ولا يواجه سياسة الميوعة لنعمة ثابت، يصر على أنه كان هو العقبة الوحيدة أمام الأعداء وأنه كان هو الحلقة الأقوى التي إذا ما قضي عليها قضي على الحزب. يقول في ذلك: «لماذا تقفون موقف العاجز؟ سألهم...(يقصد سألهم مدير الأمن العام) مع أنطون سعاده 12 بندقية فقط... رصاصة واحدة فاعلة في صدر عبد المسيح ويفرّ الباقون وتنتهي هذه المهزلة التي يعصى فيها شخص على حكومته». هذا من «يوميات عبد المسيح»، أما من «أيام قومية الجزء الثاني» فيقول لنا إنه قد هدد رياض الصلح، ويخبرنا أن نعمة ثابت اصطحبه لزيارة رياض للبحث في مسألة عودة الزعيم والحصول على جواز سفر له. يقول إن رياضاً مانع وقال إن حكومته لا تتمكن من تأمين سلامة الزعيم الذي إذا عاد فسيقتل. وأن عبد المسيح أجاب رياض على تهديده المبطن بأن قال له: «إن سلامة الزعيم هي شأن لنا نحن وإننا سنكون حرباً على حكومتكم إذا كان هذا ما تنوون». ويضيف: «كانت صرختنا في وجه رياض الصلح غير كافية» (ص 130).

أما العجب العجاب في عبد المسيح فهو أنه بالرغم من كل الصفات والاتهامات التي وصف بها نعمة، ومنها «الانحطاط» و»الأنانية» و»الفردية» و»التنازل عن العقيدة» و»التواطؤ مع الألمان والإنكليز»، فإنه قد دافع عنه أمام الزعيم بعد عودته، يقول: «كنت لا أترك سانحة إلا وأحدث الزعيم عن نعمة وطيبته التي عرفها فيه الزعيم، وإن ما صدر عنه لم يكن بقصد خيانة الزعيم والعقيدة بل كان نقصاً في الفهم وضعفاً في الإيمان»(ص 133). ولم يتأكد عبد المسيح من خيانة نعمة وصواب موقف

الزعيـم منـه إلا بعد ما أطلعه مدير الأمن العام في لبنـان إدوار أبو جودة على تقرير من نعمة يقترح إلقاء القبض على عبد المسيح فيستسـلم الباقون، ومن ثم إلقاء القبض على الزعيـم وإعادتـه منفيـاً إلى حيث يشـاء...». «...وأعطيت مدير الأمـن العام صورة لم يكـن يتخيلها عـن تصميم الرفقاء على الدفاع عن الزعيم حتـى آخر واحد منهم. قلت لـه أنـا معك الآن لماذا لا تلقي القبض عليّ وتجرب تنفيذ هذا الاقتراح فتسـبب بإحراق البلـد؟ وسـحبت مذكرة إلقاء القبض عـلى الزعيم وحوكم نعمة وطـرد مع الآخرين» (ص 124).

سعاده يداري ويحرص على النظام ووحدة الحزب

لقد توسعنا كثيراً في موضوع موقف عبد المسيح من انحرافات نعمة ثابت في حينها، ويجب أن نعود إلى سياق هذا البحث التاريخي ونرى كيف كان سعاده يتلقى أخبار هذا الانحراف وماذا كان موقفه منه وكيف عالجه.

سـعاده كان يتلقـى الأخبـار النـادرة التـي تأتيـه وهـو في الأرجنتين عن السـجون والاضطهادات التي تعرض لها أركان الحزب في الوطن، وكان يتابع ويلتقط كل شذرة مـن المعلومـات التي تأتي عن وضع الحـزب في الوطن وتوجهات وأعـمال قيادته، وقد عـبّر عـن حيرته تجاه تلك السياسـات والتوجهـات التي لم تكن ظاهـرة وواضحة تماماً بعد، وفي الوقت نفسـه كان شديد الحرص على اسـتيعاب ما يجري رغم ارتيابه الشديد منه، كان شـديد الحرص على اسـتمرار روحية النظام والانضبـاط الحزبي صوناً لوحدة الحزب ووحدة سياسـته ومسـيرته. لذلك فعندما صار الانحراف العقائدي والسياسي ظاهـراً بوضوح، وسـعاده لا يزال في الأرجنتين، عبّر عـن مرارته منه، ولكنه لم يفضحه كانحراف بل سـمّاه: «**الأساليب السياسـية الاختبارية الجديدة**» في محاولة لاستيعاب ما يمكـن اعتباره «أخطـاء»، ولم يقدم من المغترب على تدابير ردعيـة تعطل أفعال وتدابير وسياسات المركز في الوطن، وهو الذي يعلم أنه لو فعل ذلك فالتمرد على تدابيره سيقع لا محالة في غيابه. ودليلنا على ذلك هو رسـالته إلى معروف صعب الموجود في دمشق في 21 أيلول 1946 يقول له فيها: «**إن قلقي على مصير الأمة في التيارات السياسية الجديدة، وجزعـي على الحركـة القومية الاجتماعية وهـي تواجه هذه التيـارات بعدما أصابها من**

إرهاق وتضعضع قوى شديدان جداً ويصعب وصف مبلغهما بالكلام، ولكن تغلب النهضة السورية القومية الاجتماعية على الصعوبات العظيمة التي تعرضت لها يدل على متانة عقيدتها ورسوخها في النفوس وعلى أهليتها للبقاء والانتصار. إن فترة الحيرة والمرارة تجاه الأساليب السياسية الاختبارية الجديدة لن تطول كثيراً وسيعقبها عودة الحرارة والثقة والعزم مع الوضوح والصفاء».

ولسعاده رسائل عديدة لرفقائه في البرازيل والأرجنتين والمكسيك في فترة مشاهدته من مغتربه للانحرافات العقائدية والسياسية التي ترتكبها قيادات الحزب في الوطن، في هذه الرسائل اعتمد الزعيم على تغطية المرتكبين وتلطيف ما يرتكبونه حرصاً على هيبة مركزهم ومسؤوليتهم في الحزب وحرصاً على ما سمّاه «وحدة القيادة ووحدة السياسة»، أي وحدة الحزب، متحيناً الفرصة التي يتمكن فيها من العودة إلى الوطن لوضع الأمور كلها في نصابها الصحيح. حتى إنه تساهل كثيراً من أجل الحفاظ على وحدة الحزب ووحدة القيادة ووحدة السياسة، ها هو مثلاً يداري بلباقة وحكمة ويبرر للرفيق يعقوب ناصيف ما أقدم عليه المركز في بيروت من منع ذكر اسم سورية ويقول له: **«في صدد سؤالك هل يجوز ختم الكتب الموجهة إلى المركز بهتاف لتحيى سورية، أقول إني لا أرى مانعاً من ذلك. إن الرسائل الصادرة من بيروت لا تحمل هذه الخاتمة تجنباً للاصطدام مع أغراض الحكومة المحلية المؤيدة بالإرادات الأجنبية اصطداماً مباشراً. هذه الوقاية قضت بها الضرورة وهي ذات صفة مؤقتة...»**. أما غسان تويني الذي جاء إلى الولايات المتحدة الأميركية للدراسة، والذي يحمل تفويضاً من مركز الحزب في بيروت ومهمته الاتصال بالزعيم وإعطائه صورة صادقة عن وضع الحزب في الوطن ونقل وثائق سرية إليه. أما غسان هذا فيختلف وضعه عن وضع يعقوب ناصيف وسائر رفقاء أميركا الجنوبية، فهو على دراية بما يجري في الوطن ويحمل مهمة وتفويضاً مركزياً رسمياً، ومخاطبة الزعيم له ستأخذ شكلاً ومضموناً أكثر صراحة ووضوحاً دون مداراة. في رسالته الأولى إليه، من الأرجنتين إلى بوسطن- أميركا تاريخ 21-2-46، طلب منه أن يضمن تقريره: **«الحزب القومي والأسباب الموجبة لظهوره في لبنان في هذا الشكل،** (أي حذف كلمة السوري)، **والضمانات لاستمرار عمله وكيف قابلت جميع فروع الحزب هذا الحدث»**.

أزمة الاتصالات مع المركز رغم انتهاء الحرب

إن اتصال الزعيم مع غسان تويني، بالمراسلة، تأخذنا إلى أزمة الاتصالات مع المركز رغم انتهاء الحرب وانفراج أزمة الاتصالات في العالم. إن أول رسالة يذكر فيها الزعيم «انتهاء الحرب» كانت إلى وكيل منفذ منفذية الشاطئ الذهبي في إفريقيا تاريخ 20-12-45. يذكر ذلك هكذا: «**إن انتهاء الحرب وعودة المواصلات إلى مجاريها يقتضيان نتيجة حتمية: لمّ الشعث وجمع الصفوف وحشد القوى واستئناف الجهاد المنظم. وأهنئكم لأنكم كنتم أول العاملين عبر الحدود لنجدة الحركة في الوطن أيام محنة الحرب، ولأنكم أول العاملين على وصل ما انقطع بسبب تلك الحرب التي ابتسرت الأمور ابتساراً وعرقلت أعمالنا وأوقفت نمونا وعطلت الشيء الكثير من تجهيزاتنا**». ونحن نعلم أن الحرب كانت قد انتهت عملياً مع انتهاء العمليات العسكرية عند استسلام اليابان في 15 آب سنة 45، وكان الحلفاء قبل ذلك قد قبلوا استسلام ألمانيا في 8 أيار من العام نفسه، لكن المواصلات لم تعد إلى حالتها العادية تماماً إلا مع نهاية سنة 45 حيث كتب سعاده رسالته الأولى المشار إليها. والحقيقة أن أول رسالة تلقاها الزعيم مع إفريقيا كانت قبل أكثر من شهرين، أي في 12 تشرين الثاني.

ففي 20-12-45 لم يكن اتصال الزعيم مع المركز في بيروت قد حصل بعد، وإن كانت مراسلات سعاده مع منفذية الشاطئ الذهبي قد حصلت أواخر تشرين الثاني. وفي رسالة سعاده الأولى تلك يذكر مسألة عودته إلى الوطن كأولوية، وبما أن هذه العودة يتحتم بحثها وترتيبها مع المركز في بيروت، والمركز في بيروت تأخر في الاتصال بالزعيم، نجد سعاده يحث منفذية الشاطئ الذهبي للعب دور في ذلك، يقول: «**إن أمر عودتي إلى الوطن يتوقف على بحث هذه النقطة مع المجلس الأعلى وعلى التقارير التي ستردني من المجلس موضحة الحالة الراهنة هناك... بلغوا المجلس الأعلى اتصالكم بي وعنواني، وإذا استحسن المجلس أن يستر مخابراته لي بعنوان غير اسمي فيمكنه أن يكتب باسم زوجتي أو باسم ابن حماي... وليرسلوا لي جميع النشرات التي تصدر في الوطن من دوائر الحزب... إن عملنا يجب أن يستمر لأن أيماننا حقيقي ولأن قضيتنا حق**».

أما في رسالته إلى منفذية الشاطئ الذهبي بعد خمسة أيام فقط، يكرر سعاده الطلب منها أن تبلغ المجلس الأعلى عنوانه ويكرر طلبه الحصول على التقارير والأخبار

الحزبية، يقول: «**إني تائق جداً إلى رسالة مطولة من المجلس الأعلى في الوطن تشرح لي الحالة الحاضرة هناك لأتمكن من رسم خطة عملي المقبل فبلغوا المجلس عنواني... إن وصول تقرير مفصل من المجلس أمر ضروري جداً... أرجو أن أتسلم أخباراً جديدة منكم سريعاً...**».

سعاده يداري نعمة ثابت ويستوعبه

وكان على سعاده أن ينتظر شهرين تقريباً إلى أن أتى غسان تويني إلى الولايات المتحدة وأرسل رسالته الأولى إلى سعاده في 10 شباط 46 ومعها الوثائق والمنشورات الحزبية التي طلبها بواسطة منفذية الشاطئ الذهبي.

وكان أن قرأ سعاده الوثائق التي جلبها معه غسان، ومنها خطاب «الواقع اللبناني»، الذي ألقاه نعمة في مهرجان بعقلين، وتبينت له خطوط الانحرافات العقائدية والسياسية بشكل واضح. ثم استلم سعاده أول رسالة من نعمة ثابت تاريخ 28 -3-46، أي بعد انقطاع دام سبع سنوات ونصف منذ آخر رسالة بينه وبين المركز في أيلول 1938، وهي رسالته إلى فخري معلوف الذي كان لا يزال في الوطن رئيساً للمجلس الأعلى. رسالة نعمة ثابت الأولى إلى سعاده مفقودة، ولو تسنى لنا الاطلاع عليها لكان فهمُنا لجواب سعاده عليها أوفى وأكمل.

في رسالة سعاده الجوابية الأولى إلى نعمة تاريخ 20-4-46، ونعمة صار رئيساً لكل مؤسسات الحزب المركزية (المجلس الأعلى ومجلس العمد والمكتب السياسي) يتّبع سعاده معه سياسة المرونة والمداراة والاستيعاب في محاولة واضحة لربح الوقت وربح وحدة الحزب ووحدة صفوفه وربح قضية العودة إلى الوطن دون عراقيل. يقول سعاده في رسالته إلى نعمة: «**إن ما قرأته من الأخبار المقتضبة الواردة في بعض الصحف عن التحويرات الشكلية الظاهرية في مظهر الحزب، وما اطلعت عليه فيما بعد من النشرة الحزبية التي تسلمت أعداداً منها منذ بضعة أشهر، جعلتني أقدر العوامل الباعثة إليها. وقد سرني كثيراً خطابكم في صدد الرخصة التي نالها الحزب من الحكومة اللبنانية الحافظ المعنويات الحزبية والمنطبق كل الانطباق على تقاليد الحزب. وكل ما أريد أن أقوله الآن في هذا الصدد هو أني أوافق على اكتساب الرخصة الحكومية وإيجاد**

حالة من الاستقرار والاطمئنان تمكن الحزب من زيادة قوته الشعبية وإظهارها بحرية. تبقى هناك مسائل واعتبارات تقنية بالنسبة إلى عمل الحزب الواسع وغايته الأخيرة يجب تأجيل بحثها إلى فرصة أخرى، والأرجح حين عودتي... ولا يقل سروري بأن التدابير السياسية التي قررها المجلس الأعلى الموقر في هذه الظروف السياسية ذات الصفة الاستثنائية قد أظهرت ما في حزبنا الراسخ من المرونة السياسية التي تضاهي ما فيه من رسوخ في العقيدة وإيمان بتعاليمها وتمسك بغايتها الأخيرة» (الأعمال 11 ص83). هذا كل شيء عن القضية الفائقة الأهمية والخطورة التي من الواضح أن سعاده أراد تأجيل البحث فيها لحين عودته إلى الوطن، مع أن رسالة الزعيم هذه إلى نعمة امتدت لخمس صفحات تضمنت أخباراً أقل شأناً مثل صحة الزعيم وأحواله الخاصة وأحوال الجالية في الأرجنتين وأخبار زيارة «الكابتن منصور لحود للنزالة في الأرجنتين»، وغير ذلك من الأمور التي من الواضح أن سعاده أراد منها تطمين نعمة وجعله مرتاح البال من الزعيم ومتجاوباً معه في مسعى العودة إلى الوطن. فإن موضوع عودة سعاده لم يطرحه بشكل ضروري أو مستعجل، لكي يمرره بشكل سلس دون إحراجات ومخاوف يمكن أن تكون موجودة في ذهن نعمة، ومَن وراء نعمة، يبدأ سعاده بطرح الموضوع في نهاية رسالته هكذا: «**إذا كانت الحالة موافقة لعودة الزعيم فيوجد لهذه العودة وجهان....**». ونحن نعرف أن سعاده كان يترقب أقرب فرصة متاحة ليعود إلى الوطن، ويعتبر هذه العودة ضرورية ومستعجلة، حتى إنه في رسالته إلى إبراهيم طنوس في 19- 4- 46، أي قبل رسالته إلى نعمة بيوم واحد، قد حدد موعدها التقريبي «بعد نحو ستة أشهر» ويدعوه للنظر في إمكانية عودة رفقاء من البرازيل معه مثل طنوس نفسه، نجيب العسراوي، وليم بحليس، جورج بندقي وغيرهم، ويطلب منه الاتصال بهؤلاء في هذا الصدد وأن يوصيهم «بكتمان احتمال عودة الزعيم سريعاً» (نفس المصدر ص 80). الجدير ذكره هنا أن عودة الزعيم تأخرت نحو أربعة أشهر ونصف ثمينة عن الموعد الذي كان يرغب به، أضاعها المركز في بيروت الذي كان يعرقل هذه العودة.

قلنا إن رسالة نعمة إلى الزعيم مفقودة، ولكننا نعتقد أنها تضمنت خبر مباشرة المركز في بيروت للمعاملات اللازمة للعودة مع حكومة لبنان، مع ذكر تخوف الحكومة اللبنانية من تغير سياسة الحزب بعد عودة الزعيم. نعتقد ذلك ونستنتجه من قول سعاده لغسان تويني في رسالته الثالثة إليه في 26-5-46: «**أما المعاملات اللازمة من الوجهة**

القانونيـة فقد بدأت في الوطن بتقديم مذكرة للوزير الصديق إميل لحود بطلب إعطائي جواز سـفر للانتقـال بحرية والعودة إلى الوطن إذا شئت، والمذكرة مشـفوعة بالحجج النافية لتوهم خطر الزعيم على كيان لبنان أو اختلاف موقفه عن موقف الحزب المعلن، وإني أنتظر نتيجة هذه المحاولة».

لقد مر وقت طويل، حوالي خمسة أشهر، قبل أن تصل سعاده الرسالة الثانية من نعمة التي كتبها في 5 آب 46 لتنبئه عن نتيجة المسـاعي للحصول على جواز سـفر له، رغم أن سـعاده كان قد أرسـل عدة رسـائل إليه دون جواب. رغم ذلك فسـعاده قد اسـتمر في خطة مداراة نعمة وتطمينه ومسـايرته كي لا تتعرقل مساعي الحصول على جواز السفر أكثر مما تعرقلت، ولا شـك أبداً أن سـعاده كان يراهن على قدرته على ضبط نعمة حين عودته إلى الوطن، والتأثير عليه وإعادته إلى الولاء التام للعقيدة والنظام.

يسـتهل سـعاده رسـالته الثانية لنعمة بقوله: «**رفيقي الحبيب الأمين**»، ويقول له فيما يقول: «**ما كان يجب أن يقطع الاتصال بي من جهة المركز... فقد كان على المركز إخباري بتسلم رسائلي الأخيرة إليه... ولم يخطر في بالي أن الانقطاع يبقى كل هذه المدة اختياراً... إن الاتصال بالزعيم قد تأخر كثيراً من الأول وأظن أن الاتصال بمنفذية إفريقيا الغربية الذي ظل موجوداً كان يمكنه تأمين الاتصال بالزعيم. ولسـت أريد بهذه الملاحظة غير الإشـارة إلى الوقت الثمين الذي ضاع في مدة تقارب السـنتين، أو السـنة على الأقل كان يمكـن خلالهـا تهيئة جميـع الأمور**». ويحرص سـعاده على عـدم إثارة قضيـة الانحراف العقائـدي والسـياسي مـع نعمـة قبل العـودة ويقول لـه: «**إن جميـع القضايـا التنظيمية والإدارية والسياسـية ستجد تحليل الزعيم وتعليله لها وحلولها في الخطاب الذي يوجهه إلى المجلس الأعلى في أول جلسة يحضرها الزعيم بعد عودته وتكون مخصصة لسماع هذا الخطاب، وفي الخطاب الذي يلقيه الزعيم بعد عودته في اجتماع حزبي عام يعين خصيصاً لهذه الغاية أو يوجهه الزعيم إلى مجموع الحزب**».

كان سـعاده يتجنب إثارة هذه القضايا مع نعمة بالذات وحده، أما مع غيره فكان يبدي موقفه الصريح منها بوضوح. فهو مثلاً يقول لغسـان تويني في رسـالته الخامسة إليـه بتاريخ 4-8-46: «**يحسـن المحافظة على اسـم الحزب الأصلي: الحزب السـوري القومـي الاجتماعي وعلى وحدة العمل الظاهرة والباطنة**». وفي رسـالته السادسـة إليه

تاريخ 26–8–46 يقول: «**الضرورة السياسية تقضي بتعجيل عودتي فهناك أمور وحوادث تجري في الوطن لا تدعو لاطمئناني، وإني أخشى أن يكون الحزب مطمئناً أكثر من اللازم... ولست راضياً كل الرضى عن سياسة صدى النهضة الإذاعية**».

نصف انفراج

وأخيراً تسلّم سعاده كتاباً من نعمة في 16–8–46 يخبره فيه عن انفراج أزمة ممانعة الحكومة لعودة الزعيم، ويطلب منه العودة بسرعة. رسالة نعمة هذه مفقودة ولكن هذا ما قاله سعاده لمنفذ عام منفذية بيونس آيرس الرفيق محمد الشيخ.

لكن هذا الانفراج اقتصر على رفع التحفظات القانونية للعودة، حيث كان سعاده محكوماً 20 سنة سجن و20 سنة أخرى نفي من قبل المحكمة العسكرية الفرنسية بتاريخ 22–6–40. ولم يستطع المجلس الأعلى تأمين إصدار جواز سفر لسعاده من بيروت، علماً أن نعمة ثابت على علاقة سياسية جيدة مع حكومة لبنان، وعلى أساس هذه العلاقة نال رخصة «الحزب القومي». يظهر من ذلك إما أن نعمة لم يسع لتأمين جواز سفر أو أن علاقته بالحكومة كانت ذيلية تبعية وليست ندية، أو أن اتفاقاً سرياً ما عقد بينه وبين الحكومة على رمي الكرة إلى سعاده كي يتدبر أمره بجواز السفر من السفارات اللبنانية في الأرجنتين والبرازيل مع تعليمات مشددة من وزارة الخارجية إلى هذه السفارات كي تمتنع عن إصدار هذا الجواز. وهذا يفسر طلب نعمة من سعاده «العودة بسرعة» مع علمه باستحالة الحصول على الجواز.

يبدو أن سعاده كان مرتاباً جداً من نعمة ولم يكن يعول كثيراً على إمكانية الحصول على جواز السفر من بيروت، فبدأ فوراً بمجهود لتأمين ذلك بنفسه من الأرجنتين والبرازيل. ففي رسالته لرفيق الحلبي بتاريخ أول آب 46 يقول: «**الظاهر أن الحكومة اللبنانية تريد التطويل في عودة الزعيم وإقامة ما أمكن من عراقيل في وجهه إلى أن يمر وقت الانتخابات المقبلة على الأقل، ولا أمل أكثر بالحكومة الشامية، فعليّ الاعتماد على خططي وأعمالي ومجهود القوميين الاجتماعيين عبر الحدود**».

مكروا فمكرنا... والحرص على وحدة الحزب

وبالفعل بدأ سعاده بتنفيذ خطته، وبإزالة ما قد يعرقلها، ففي رسالته إلى منفذ عام

سان باولو تاريخ 4-9-46 يقول له في صدد كيفية استقبال عقيلة رئيس جمهورية لبنان الزائرة للبرازيل: «**اعملوا بموجب التعليمات الواردة من المركز**»، ويوجههم باستعمال اسم «الحزب القومي» وليس الحزب السوري القومي الاجتماعي، ويقول لهم إن الحزب القومي هو اختصار لاسم الحزب الكامل الحزب السوري القومي الاجتماعي، وإذا سألتكم عقيلة الرئيس هل بينكم سوريون، أي من الشام، «**فقولوا إن العمل في المهاجر له بعض خصائص وضعية وظروف خاصة، ونظراً لتاريخ الحزب وعقيدته وحداثة عهد الاتصال بالمركز ظل الحزب القومي يجمع الشاميين أيضاً، ولا مانع من ذلك ما دام أمر استقلال لبنان مقرراً ومؤيداً، وأنكم لا تحيدون عن أوامر المركز وتوجيهاته**».

وسعاده أيضاً يؤوّل ويشرح ويبرر لمدير مديرية ريو دي جانيرو الرفيق جورج الدده «التفاهم الجديد» بين الحزب والحكومة، هذا التفاهم الذي ألغى المبادئ الاساسية للحزب وألغى غاية الحزب وقضية الحزب كلها، وكان واضحاً وجلياً أن سعاده لا يريد من الرفقاء المرتابين المتسائلين أن يظنوا أن هناك أزمة إدارية وسياسية مع قيادة الحزب في الوطن، ويريدهم أن يحافظوا على دعائم النظام ودعائم الثقة بالقيادة الواحدة والسياسة الواحدة للحزب «**في هذا الطور الجديد من أطوار سياسة الحزب الواحدة**»، حسب تعبيره (إلى جورج دده 13-12-46).

سعاده يريد أن يعود إلى الوطن للإمساك بزمام الأمور وأعنّتها، ويريد الآن أن يزيل من درب العودة جميع العوائق والمطبات والعراقيل. هذه كانت معركته المباشرة المداهمة في ذلك الوقت، وفي هذه المعركة لا يريد لشظاياها أن تصيب وحدة الحزب ووحدة إدارته وسياسته أو أن تهز ثقة القوميين بوحدة حزبهم ووحدة إدارته وسياسته وسلطته.

سعاده يحرج نعمة ثم يفضح كذبه

بتاريخ 21-11-46 وعد سعاده نعمة بأنه سيرسل له بعد عشرين يوماً، ثم كل 15 يوماً أو حسب الحاجة، لكن سعاده لم يفعل بل أرسل بعد خمسين يوماً، أي في 10-1-47 رسالة، لا لنعمة بل لناموس مجلس العمد يستهلها كالتالي: «**منذ نحو 15 يوماً أرسلت في غلاف موجه إليكم كتاباً إلى رئيس مجلس العمد المحترم أجيب فيه على كتابكم المؤرخ في 13 كانون الأول الماضي الذي أبلغتموني فيه ما كلفكم المجلس**

الموقر نقله إلي، وقد وضعت الكتاب المذكور باسمكم أنتم في البريد الجوي المسجل وإلى صندوق البريد وأتمنى أن يكون وصل إليكم واطلع عليه المجلس الموقر»، ويختمها هكذا: «**هذا الكتاب أكلفكم تقديمه وقراءته لمجلس العمد الموقر**».

إن في هذا الاستهلال وهذا الختام تتكشف أمور ملفتة جداً ومعبرة جداً وهي: أن كتاب الزعيم الموجه منذ 15 يوماً إلى رئيس مجلس العمد، نعمة ثابت، هو كتاب مفقود ولا نعلم لماذا هو مفقود ولا نعلم مصيره أو مضمونه، وأن نعمة ثابت لم يطلع أحد من المسؤولين عليه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الزعيم وجّه كتابه المفقود ذاك إلى رئيس مجلس العمد رغم أن مضمونه هو جواب على كتاب ناموسه. إن الزعيم يريد بذلك من رئيس مجلس العمد أن يكتب هو نفسه للزعيم لا أن يكلف ناموسه بذلك. إن ثمة أسباباً محرجة لنعمة ثابت جعلته يمتنع عن مراسلة الزعيم بنفسه والاستعاضة عن ذلك بتكليف ناموس بالكتابة.

نعود إلى رسالة الزعيم الحالية التي نحن بصددها، أي تاريخ 10-1-47، فمنها نفهم أن مجلس العمد كان قد ألحّ على سعاده بسرعة العودة، لكن سعاده يتبرم من تأخر جواب وزارة الخارجية البرقي على برقية القنصلية الفرنسية التي وضعها الزعيم نفسه في دائرة برق ترانس راديو ودفع أجرتها وأجرة الجواب المنتظر من وزارة الخارجية اللبنانية. ثم يقول: «**والظاهر أن الوزارة اللبنانية الجديدة لا تشارك رغبة مجلس العمد في سرعة عودتي إلى الوطن... إن أهمال وزارة الخارجية الجواب على برقية القنصلية الفرنسية، رغم أنها قد أجابت على برقيات أخرى تالية متعلقة بأشخاص آخرين، وعلى الرغم من سؤال إدارة البرق ومراجعتها للوزارة في أمر الجواب، كما كلفتها أن تفعل، هو أمر يستحق الحملة على الوزارة كلها عموماً وعلى وزارة الخارجية خصوصاً**». ويذكر الزعيم في رسالته أيضاً أن موقف قنصل سان باولو السيد محمد فتح الله والوزير المفوض في الريو الأستاذ يوسف السودا هو موقف يتراوح بين السلبي والعدائي.

الزعيم يختتم الرسالة، لكنه يعود ويكتب سطرين كملحق لها. هذان السطران كأنهما رسالة كاملة مستقلة أكثر تعبيراً من رسائله كلها إلى المركز، يقول: **شركة البرق أثبتت لي أن برقيتي إلى الرئيس نعمة ثابت سُلِّمت إليه في بئر حسن في 14 كانون الأول، وفيها أخبره أن القنصلية ستبرق طالبة من الوزارة تفويضاً بإعطائي جواز سفر وتأشيرة**». هنا

نتساءل: لماذا احتاج الزعيم لشركة البرق لتثبت له أن برقيته إلى نعمة ثابت قد سلمت إليه في بئر حسن؟ ولماذا احتاج الزعيم أن يخبر ذلك لمجلس العمد ورئيسه وناموسه ويكلف هذا الأخير قراءة الرسالة للمجلس مجتمعاً؟ الجواب واضح ولا يحتاج لكثير عناء لاكتشافه: نعمة ثابت قد كذب على الزعيم وادّعى أنه لم يستلم برقيته، ونعمة ثابت متواطئ مع وزارة الخارجية اللبنانية في منع سعاده من الحصول على جواز سفر للعودة إلى الوطن. يتعزز ذلك أيضاً من قول الأمين المرحوم الياس جرجي قنيزح في مذكراته أنه في اجتماع رسمي لمجلس العمد أبدى فايز صايغ رأيه صراحةً وعارض عودة الزعيم، وأن نعمة ثابت برر رأي فايز ودافع عنه (أقوال ماثورة ص 90).

تفاصيل من فريد الصباغ

صرنا نعرف أن السلطات الحكومية كانت تماطل وتمانع وتعرقل عودة سعاده إلى وطنه، وصرنا نعرف أيضاً أن بعض أركان الحزب في بيروت لم يكونوا راغبين بهذه العودة، ولكن تفاصيل ذلك لم تكن واضحة كلها قبل نشر تقرير فريد الصباغ أواخر سنة 2017 في «الكتاب القومي»، وأيضاً الكشف عن وجود مذكراته، أي سبعين سنة بعد تلك الأحداث. ونحن إذ نعتمد شهادة فريد فلأنه شارك شخصياً في المساعي والتدابير التي أدت في النهاية لرفع الحظر عن عودة سعاده، ولأن سعاده نفسه وثق به فيما بعد وكلفه بملف المفاوضات مع الحكومة التي أدت إلى إلغاء مذكرة التوقيف، وعلى أثر ذلك منحه رتبة الأمانة لنجاحه في المهمات الدقيقة والصعبة التي كلفه بها. وفريد يروي الحدث ويذكر الأسماء والأدوار بكل تفصيل ووضوح. يقول في الصفحة 30- 31 من المخطوطة المطبوعة لمذكراته ما يلي: «...إن قرار الزعيم بالعودة كان مزعجاً جداً بالنسبة لقيادة الحزب وقد نزل على رؤوسهم نزول الصاعقة ولم يكن لديهم أي وسيلة للتهرب سوى التباطؤ والمماطلة وعدم الاتصال بالحكومة لأخذ موافقتها على دخول الزعيم إلى الوطن. ولكن الإلحاح المستمر الصادر عن الزعيم وقراره النهائي جاء في رسالته التي تاريخها أواخر شهر شباط 47 وعيّن الموعد وحجز الطائرة إلى القاهرة. وعندئذ ابتدأ المركز الاتصال بالدوائر المختصة في الحكومة لأخذ الموافقة بالدخول، لكن الطلب كان بشكل خجول جداً وكان بمثابة رفع عتب ليس إلا، إلى أن أتى وقت أصبحوا في حيرة من أمرهم. أطلعني نعمة على الأمر وكنت يومذاك منفذ عام المتن ومفتش في عمدة الداخلية

وكان موقفي العام غير مرضٍ عنه من قبل الإدارة الحزبية المركزية بالنسبة للانحراف الحاصل والتغييرات التي حصلت في حذف مبادئ الحزب الأساسية الثمانية والعمل على أساس المبادئ الإصلاحية الخمسة وحدها وتغيير الاسم وعلم الزوبعة، وقال لي: يا فريد إن الحكومة غير راغبة في رجوع الزعيم، حيث إنه سيعيد الحزب إلى مكانه الأصلي ويرجع كل شيء إلى أساسه، وهذا العمل سيتعب الدولة ونحن تقدمنا بطلب لوزارة الداخلية وأخذنا رخصة على أساس مبادئ معينة واعترفنا كلياً بالكيان اللبناني وفصلنا الحزب عن الأقسام الحزبية في الأقطار السورية الأخرى، فأخذنا جواباً من الدولة بعد مراجعات عدة بالرفض وعدم السماح له بالدخول إلى لبنان. فكان جوابي: يا حضرة الرئيس هذا الكلام غير مقبول لأن حضرة الزعيم لا يوجد أي إشكال على الإطلاق يمنع دخوله لبنان وليس عليه أي مشكلة لا عدلياً ولا سياسياً وسجله نظيف، فأرجوك أن تترك لي هذه القضية وأنا مسؤول عن تذليلها. عندها كلفني بالمراجعات لتذليل هذه العقبة». ويتابع فريد ويسرد الحدث بأسلوبه التطويلي المعروف ويقول ما معناه: فريد يتصل بغبريال المر وزير الأشغال، من منطقته الانتخابية، والمر يتصل ببشارة الخوري ورياض الصلح، حيث رفضا عودة الزعيم. المر يرتب لقاء لفريد مع وزير الخارجية هنري فرعون لأنه كاثوليكي مثل فريد، وفرعون التزم بالمساعدة شرط أن يترك الحزب له مقعد الكاثوليك الانتخابي في بيروت. فرعون يطرح الموضوع في اجتماع لمجلس الوزراء. الصلح والخوري يعارضان لكن الأكثرية وافقت على دخول الزعيم وهم فرعون والمر وأحمد الحسيني ومجيد أرسلان (مصالح انتخابية). في اليوم التالي صدر أمر لدوائر الأمن العام ومديره إدوار أبو جودة بعدم التعرض لسعاده عند دخوله الأراضي اللبنانية. حصل فريد على برقية مدير الأمن العام وسلمها إلى نعمة تابت وانتهت القضية.

كيف حصل الزعيم على جواز السفر؟

لقد ربح سعاده معركته المزدوجة: الحفاظ على تماسك القوميين خلف «وحدة الإدارة ووحدة السياسة في الحزب» والفوز بجواز سفر لبناني يمكنه من العودة إلى الوطن. أما كيف حصل ذلك فمما يوجزه للرفيق رفيق الحلبي في رسالة له كتبها سعاده من البرازيل في 9-2-47 يقول: «**كان الممثلون اللبنانيون يمانعون كلهم في إعطائي جواز سفر لبناني مختلقين أعذاراً متعددة ومقترحين مخابرة وزارة الخارجية بواسطة السفير في**

ريو دي جانيرو الأستاذ يوسف السودا الذي أظهر تعصباً شديداً وعداوة صريحة لعودة الزعيم إلى الوطن. ولكن الحركة القومية الاجتماعية قد تمكنت، بدقة نظامها وحيوية أعضاء منفذية سان باولو وسرعة تنفيذهم الأوامر، من تذليل جميع المعاكسات واجتياز جميع الصعوبات والعراقيل في هذا السبيل». وعن التفاصيل ليس لدينا وثائق مكتوبة تشرحها، كل ما لدينا من وثائق مكتوبة هي الخطة التي وضعها سعاده وكلف منفذ عام سان باولو بتنفيذ ما يخصه منها وهي: «**أطلب منكم أن تخابروا الصديق هكتور خلاط القنصل العام بصورة مكتومة وتدرسوا معه أفضل الطرق لسحب جواز سفر بدون ضجة ولا تطويل. السيد خلاط صديق وأخ للرفيق روبير خلاط القنصل اللبناني في الاسكندرية مصر حالياً...**» (إلى وليم بحليس 12-1-47). هذه كانت آخر وثيقة مكتوبة عن كيفية استحصال الزعيم على جواز السفر، وهي طبعاً غير كافية ولا تخبرنا كيف تم الأمر. لكن مرويات الرفقاء القدامى تقول إن القنصل الصديق هكتور خلاط أصدر جوازاً باسم أنطون مجاعص وأحاله إلى السفير الأستاذ يوسف السودا للتوقيع، وأن السودا وقعه غير عارف أن أنطون مجاعص هو نفسه أنطون سعاده!

غادر سعاده عاصمة البرازيل، ريو دي جانيرو آنذاك، في 15 شباط 1947 على متن شركة طيران «البانير» الأميركية، ووصل القاهرة في 18 شباط بدلاً من 17 شباط كما كان مقرراً. «... لم يكن أحد في المطار لأنهم لم يعرفوا في أي طائرة أنا قادم... وخرجت من المطار نحو الساعة 10 وكنت في المدينة نحو الساعة 11 حيث التقيت بالأمين الجزيل الاحترام نعمة ثابت والرفيق أسد الأشقر...» (إلى وليم بحليس من فندق شبرد القاهرة 20-2-1947).

في القاهرة

نعمة ثابت وأسد الأشقر إذا كانا في استقبال سعاده في القاهرة، ولكن لا بد من ذكر ما رواه فريد الصباغ من أن سعاده كان قد طلب من نعمة أن يأتي هو وفريد لاستقباله في القاهرة، وأن نعمة كذب على الزعيم وقال له إن فريد لم يرد أن يأتي لأنه مشغول في ترتيب أمن الاستقبال في بيروت، بينما الحقيقة هي أن نعمة لم يخبر فريد أبداً برغبة الزعيم وأن نعمة فضل اصطحاب أسد الأشقر بدلاً من فريد ليتعاونا على إقناع سعاده

بصوابية الخطوات التي استحدثوها وضرورة مراعاتها والالتزام بها في خطاب العودة في بيروت. ولما لم يستطيعا إقناع سعاده بذلك غضب أسد الأشقر وغادر إلى إفريقيا بدل العودة مع سعاده إلى بيروت. ذلك، يقول فريد، كان ما نقله سعاده إليه عندما التقاه في الغبيري في ذلك اليوم العظيم، عندما سأله عن سبب عدم ذهابه لملاقاته في القاهرة. أما عصام المحايري ففضل الذهاب إلى الاسكندرية في رحلة جامعية إلى استقبال سعاده في القاهرة، والزعيم يلومه على ذلك (بشير موصلي ص 124).

تغيّر نظرة القياديين إلى الزعيم

قبل أن نختم هذا الفصل، لا بد من قول شيء عن الأسباب الحقيقية لنجاح نعمة ثابت في سوق بقية القياديين المركزيين جميعهم تقريباً إلى سياسته ومساوماته وتنازلاته التي وصلت لحد عرقلة عودة سعاده ومحاولة إبعاده عن الحزب.

هناك رسالة قد بعث بها سعاده إلى القوميين الاجتماعيين من مغتربه القسري بتاريخ 10-1-47، أي بعد انتهاء الحرب بأكثر من سنة، وبعد قراءتها ومناقشتها في كل من مجلس العمد والمجلس الأعلى قرروا عدم نشرها!! ما اضطر سعاده إلى نشرها كلها بعد عودته فنشرت في 30 حزيران سنة 47، ثم عمد لذكرها وقراءة مقاطع منها في نهاية المحاضرة الأولى من المحاضرات العشر التي ألقاها مطلع سنة 1948.

تلك الرسالة احتوت ما لم يعد القياديون المركزيون يؤمنون به. احتوت جملة مواقف فلسفية وسياسية معاً مما كان يتعارض مع عقلية أركان الحزب بعد الحرب وتوجههم السياسي. تلك الرسالة يقول فيها سعاده: «**في كل هذه المدة الطويلة وبعد كل هذه المحن العظيمة لم يضعف إيماننا بل قوي- إيمانكم بي وإيماني بكم، آمنتم بي معلماً وهادياً للأمة والناس ومخططاً وبانياً للمجتمع الجديد وقائداً للقوات الجديدة الناهضة الزاحفة بالتعاليم والمثل العليا الجديدة إلى النصر، وآمنت بكم أمة مثالية معلمة وهادية للأمم بناءة للمجتمع الإنساني الجديد وقائدة لقوات التجدد الإنساني بروح التعاليم الجديدة التي تحملون حرارتها المحيية وضياءها المنير إلى الأمم جميعها، داعية الأمم إلى ترك عقيدة تفسير التطور الإنساني بالمبدأ الروحي وحده وعقيدة تفسيره بالمبدأ المادي وحده، والإقلاع عن اعتبار العالم بالضرورة عالم حرب مهلكة بين القوة الروحية والقوة المادية،**

وإلى التسليم معنا بأن أساس الارتقاء الإنساني هو أساس روحي مادي (مدرحي) وأن الإنسانية المتفوقة هي الإنسانية التي تدرك هذا الأساس وتشيد صرح مستقبلها عليه. إن العالم الذي أدرك الآن بعد الحرب العالمية الأخيرة، مبلغ الهلاك الذي جلبه عليه قيام الفلسفات الجزئية الخصوصية- الفلسفات الأنانية التي تريد أن تحيى بالتخريب- فلسفة الرأسمالية الخانقة وفلسفة الماركسية الجامحة التي انتهت في الأخير بالاتحاد مع صنوها المادية الرأسمالية بقصد نفي الروح من العالم، وفلسفة الروح الفاشية وصنوها الاشتراكية القومية المحتكرة الروح، الرامية إلى السيطرة به سيطرة مطلقة على أمم العالم وشؤونها، هذا العالم يحتاج اليوم إلى فلسفة جديدة تنقذه من تخبط هذه الفلسفات وضلالها. وهذه الفلسفة الجديدة التي يحتاج إليها العالم -فلسفة التفاعل الموحد الجامع القوى الإنسانية- هي الفلسفة التي تقدمها نهضتكم».

وإلى جانب النظرة الفلسفية الجديدة التي لم يكن القياديون المركزيون يأبهون لها أو يفهمونها ولم تكن تعني لهم شيئاً، فإن رسالة سعاده تضمنت أيضاً مواقف سياسية جذرية تتعارض تعارضاً قوياً وكبيراً مع سياساتهم التي كانت تجنح إلى المساومة لتعويض سنيّ السجن. تقول الرسالة مثلاً: «**إن حزبكم قد افتتح عهد البطولة الشعبية الواعية المؤمنة المنظمة في أمتكم، فإن عهدكم هو عهد البطولة فلا تتخلوا عن طريق البطولة ولا تركنوا إلى طريق المساومة الغرارة... إن قوتكم الحقيقية ليست في المتقربين إليكم في طور نموكم بعد زوال كابوس الاحتلال العسكري الأجنبي، بل في بطولتكم المثبتة في حوادث تاريخ حزبكم وفي عناصر رئيسية هي: صحة العقيدة وشدة الإيمان وصلابة الإرادة ومضاء العزيمة... احذروا من اختلاط السياسة والدبلوماسية وأغراضهما بعقيدتكم وإيمانكم وعناصر حيويتكم الأساسية لئلا تكون العاقبة وخيمة...**» (الأعمال الكاملة ج7 ص178).

إن في هذه الرسالة وفي موقف القيادة الحزبية في الوطن منها مفتاح فهم العلاقة المأزومة بين الزعيم في مغتربه القسري وبين أركان الحزب في الوطن جميعهم تقريباً سواء الذين كانوا في المعتقلات أم الذين كانوا متوارين ومتخفين.

أحد الرفقاء لفت نظري وقال لي إن القوميين عندما يقرؤون هذه الرسالة الآن

يظنـون أن نظـرة القياديـين آنـذاك إلى سـعاده كانت دوماً كـما ينظر الأعضـاء إليه الآن والتـي تكونـت لهم خاصـةً بعد استشـهاده ونتيجة لهذا الاستشـهاد، أي معلـماً وهادياً وزعيماً ومرجعاً وقدوة و...، وهذا مخالف لنظرة أركان الحزب لسعاده في سنيّ اغترابه القسري وفي السـنتين اللتين قضاهما في الوطن قبل استشهاده. كان أركان الحزب وقتها يعتقـدون أن العـالم بعـد الحرب لم يعـد يتقبل فكرة الزعامـة بمفهوم سـعاده لها كما هو وارد في رسـالته، أي «معلـماً وهادياً للأمة والناس»، وكان هـؤلاء الأركان ينظرون إلى أنفسـهم كمناضلين قضوا سـنين طويلة في السـجون والتشرد وقد آن الأوان ليصبحوا أبطال تحرير واستقلال للتعويض عن سنيّ السجن والتشرد تلك.

إن سـعاده كان ينظـر إلى كل المسـائل مـن زاويـة أنـه صاحـب رسـالة وهـو كان يستعجل العودة إلى الوطن ليعوض عن فترة غيابه وليكمل رسالته في شقيها السياسي والفلسـفي بينما أغلب القياديين كانوا قد تعبوا من سـنوات الاعتقال وكانوا ينظرون إلى المرحلة بخلاف سعاده وكأنها فترة استراحة واسترخاء بعد الحرب والاعتقالات والاضطهاد.

إن «البعـد المـكاني» بـين سـعاده في مغتربـه وأركان الحـزب في الوطن كان السـبب الرئيس في جنوح هؤلاء الأركان وتغير نظرتهم لسـعاده زعيماً. كان وجود سـعاده دائماً هـو مـا يفعل في معاونيـه ويعلمهـم ويحصنهم من الضعـف ويرفعهم إلى فهـم القضية بكامل خطورتها، وما إن يبتعد عنهم حتى يهبط مستوى ما يريده منهم وما هو ضروري لتنكـب أعبـاء ما تعاقدوا معه لتحقيقه. إن هذا البعد المكاني قد قال به لأول مرة فخري معلوف ووافقه سـعاده عليه، وهو ما أدى إلى خسـارة فخري نفسـه ثم خسـارة هشـام شرابي وبقية المعاونين الأركان الذين كان سعاده يتعهدهم ليبني الحزب معهم.

الفصل الثالث

تجديد الروح والحصاد الوفير
(من آذار 1947 إلى حزيران 1949)

جموع القوميين من جميع مناطق الوطن السوري تلاقي زعيمها في بيروت

سعاده الذي تعرض سنة 1932 للسخرية لأنه كان يحلم بلم أجزاء شعبه المتشظية والمسحوقة تحت ركام مئات السنين من الذل والعبودية وفقدان الشعور بالكيان والهوية والشخصية، سعاده هذا الذي «حمل ما حمل من أعدائه ومن أعوانه معاً» وذاق من العذاب والقهر ما لم يتحمله إنسان غيره في منفاه في الأرجنتين، سعاده هذا الذي «وقف نفسه على أمته السورية ووطنه سورية عاملاً لحياتها ورقيها»، لاقته جموع الشعب المكونة من مختلف الطوائف والمذاهب والمناطق والأصول والأعراق والمراتب الاجتماعية، والتي كانت قد تألفت جماعة واحدة وأمة واحدة وإرادة واحدة في ظل عقيدته ومبادئه وقضيته القومية الاجتماعية، لاقته وهي متعطشة متلهفة مشتاقة لرؤيته وسماع صوته والفوز برمقة عين منه.

وعاد سعاده إلى حضن شعبه متحدياً الجميع ومبتدئاً فصلاً جديداً من فصول ملحمته الصراعية التاريخية الخالدة.

أعداء سورية أم الحضارة والتمدن الإنسانيين ومعلمة وهادية الأمم عبر التاريخ، لا يريدون لنموذج النهضة القومية الاجتماعية أن يعم ويمتد فيها، لا يريدون للسوريين أن يستعيدوا وعيهم وإدراكهم لوحدة حياتهم ووحدة مصالحهم في هذه الحياة، لا يريدون لهم لا حرية ولا واجباً ولا نظاماً ولا قوة، يريدونهم أن يبقوا قطعاناً بشرية، ممنوع عليهم أن يرتقوا ليصبحوا أمة تامة واحدة، يريدون لهم أن يظلوا أسرى الحواجز الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحقوقية بين مختلف طوائفهم ومذاهبهم وأصولهم الجنسية والعرقية والسلالية والعشائرية ومراتبهم وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، يريدون أن يقتلوا الحزب الذي بدأ بإيقاظهم على حقيقتهم مجتمعاً واحداً وأخذ يشعل في نفوسهم ووجدانهم وعقلهم قيم الوطنية والسيادة والاستقلال والقومية. لكن أعداء سوريا أرادوا أمراً، وسعاده أراد أمراً... واحتدم صراع جديد.

لا بد هنا من الاستدراك والتنويه بأن توجه القوميين بكثافة من جميع مناطق الوطن السوري لاستقبال الزعيم في بيروت، لم يكن تحركاً ذاتياً عفوياً غير منسق، خاصةً في ظروف تلك الأيام الفقيرة بوسائل الاتصال والمواصلات. إن هذا الحشد والتنظيم كان

من عمل الإدارة الحزبية، خاصة عمدتي الداخلية والدفاع وعميديهما الأمينين إلياس جرجي وجورج عبد المسيح اللذين حافظا على الترابط التنظيمي والقدرة على توجيهه ضمن الولاء المطلق للزعيم، بل كان لجميع المركزيين «مصلحة» فيه، بمن فيهم من كانوا متآمرين لتأخير أو منع عودة الزعيم، فهم أرادوا أن يظهروا للزعيم يوم عودته بأنهم قاموا في غيابه بالعمل الذي كان ينتظره منهم، وهو انتشار الحزب وجاهزية واستعداد صفوفه وتلبيتها عند الطلب. أما الحقيقة الكاملة فهي أن العمل الرئيس والكبير كان هو عمل المنفذين العامين في المناطق أكثر منه عمل الإدارة الحزبية المركزية. وهذه الحقيقة جاهر بها وشهد عليها بوضوح عبدالله قبرصي كما مرّ معنا وكما سنرى بعد قليل.

مذكرة التوقيف والمعركة المزدوجة

السلطة أرادت إبعاد سعاده عن الحزب ليتسنى لها ترويض هذا الحزب، وهذا ما تم لها في غياب سعاده. لكن سعاده قد عاد عنوة ضد إرادة السلطة التي كانت تتكل على نعمة ثابت في استيعابه. ومنذ اليوم الأول لوصوله وبعد الكلمات الأولى والخطاب الأول تبين لهذه السلطة أن سعاده عصي على الترويض والاستيعاب، فأستعاضت عن منع العودة بأن منعته من حرية العمل وأصدرت بحقه مذكرة توقيف. كانت الحكومة تراهن على إبعاد سعاده عن الحزب وتقريب نعمة بديلاً منه. الحكومة ضربت ضربتها بإصدار مذكرة التوقيف، وسعاده رد ضربة الحكومة بطرد نعمة من الحزب بعد استنفاذ جميع محاولات إصلاحه واستعادته، قاضياً بذلك على أي إمكانية لأن تنصبه الحكومة في قيادة الحزب من جديد في ظل إبعاد سعاده بالاعتقال أو التواري أوحتى بالقتل. فتاريخ طرد نعمة هو في 13-8-47 أي قبل سحب مذكرة التوقيف في تشرين الأول 47. (طرد تويني والخال ونويهض جاء متأخراً حتى 21 تشرين الثاني، وطرد فايز صايغ أتى بعده).

ثابت كان متضامناً متكافلاً مع الحكومة ضد سعاده، وهذا يفسر عدم اقتناعه بكل حجج سعاده لإقناعه ولإعادته إلى جادة الحزب وسلطة الزعيم. فكان نعمة يسكت في مواجهته لسعاده وكأنه اقتنع ثم يعلن عدم اقتناعه للرفقاء بعيداً عن سعاده. وكل ذلك لأن نعمة لا يستطيع مواجهة قوة حجة سعاده وقوة الحق الذي ينطق به، ولكنه كان مقتنعاً بأن الحكومة ستتغلب على الزعيم وستبعده عن الحزب. كان نعمة يثق بقوة الحكومة ولا يثق بقوة الحزب، هكذا كان نسيبه كميل شمعون قد أقنعه خلال السجن

المشترك في راشيا، ووعده بالصعود والاشتراك في الحكم وكان قد بدأ في اتخاذ التدابير والاستعدادات للترشح للانتخابات فغيّر مذهبه ليستطيع الترشح في لائحة مشتركة مع شمعون. كان نعمة قد فقد إيمانه بالقضية القومية بسبب بعده المكاني عن سعاده وخسارته لرعاية سعاده وتعهده له روحياً وسياسياً، ومن يفقد الإيمان يفقد الثقة بالانتصار. نعمة لم يكن يستطيع مجادلة سعاده ومحاججته عندما كان سعاده يشرح له ويحاول استعادته وإعادته إلى الانضباط تحت سلطة وقيادة الزعيم. كان نعمة مسكوناً بإغراء السلطة التي وعده بها شمعون ويثق بهذه السلطة وقوتها ولا يثق بغيرها. وهذا ما يفسر قول نعمة لعبدالله قبرصي عندما كان الزعيم يلقي خطابه من شرفة بيت مأمون أياس في الغبيري: «قل لجورجيت (زوجة قبرصي) أن تهيّئ لك فرشة جديدة لأننا ذاهبون إلى السجن، هذا الخطاب هو إعلان حرب ستجيب الدولة عليه بإعلان حرب» (قبرصي ج 2 ص 148)، وهو الذي كان متفقاً مع الحكومة التي يثق بها، على إبعاد سعاده عن الحزب.

كان على سعاده أن يخوض معركة مزدوجة داخلية وخارجية، والمعارك الداخلية هي دائماً أصعب من المعارك الخارجية. لقد رفض الخضوع لمذكرات التوقيف التعسفية واعتصم في جبل لبنان بحماية القوميين طيلة سبعة أشهر، حيث انتصر في معركته انتصاراً باهراً بتراجع الحكومة واستعادة سعاده حرية العمل والنشاط الحزبي العلني.

أما في معركته الداخلية، فبقي سعاده يصارع في هذا الميدان حتى استشهاده في 8 تموز 1949 حين لم يكن للحزب لا مجلس أعلى ولا مجلس عمد. الصراع الخارجي مع الحكومة ومع من هم وراء الحكومة هو صراع متوقع ودائم وطبيعي ومطلوب ومرغوب ويقول عنه سعاده: «نحن نبحث عن القتال ولا يبحث القتال عنا أبداً. أما الصراع الداخلي والمعركة الداخلية فشيء غير طبيعي وغير متوقع وغير مطلوب وغير مرغوب، وأن حصوله كان مفروضاً فرضاً على الحزب وأغلبه كان من تأثير ونتائج المعارك الخارجية. إن عدم استتباب الأوضاع الحزبية الداخلية كان هو نقطة الضعف الرئيسية عند سعاده وكان هو السبب الأهم في تسهيل اغتياله.

بعض أوجه المعركة الداخلية

إن أكثر ما كان يتعب ويرهق في إعداد هذا الكتاب- البحث ليس هو الوقت

والجهد المصروف عليه وعدم سهولة جمع المعلومات والوثائق وترتيبها وبناء العلاقة بينها واستخراج الحقيقة منها، أو أقرب ما يكون إلى الحقيقة، بل هو موضوع البحث بحد ذاته الذي يتطلب التركيز على العوامل الحزبية الداخلية لاستشهاد سعاده، أي على ما هو سلبي وسيئ ومؤسف وغير مريح.

عند عودة سعاده إلى الوطن وجد أمامه في الحزب ظاهرتين مختلفتين ومتناقضتين: قيادة متخلية عن مسؤوليتها ومرتكبة انحرافات إدارية وسياسية وعقائدية، يقابلها انتشار واسع للحزب وإقبال شعبي في كل المناطق وكل الطوائف وكل الفئات الاجتماعية، حتى إنه يصح القول إن انتشار الحزب الواسع كان بالرغم من قيادته وليس بفضلها. وقد وصف سعاده هذا الواقع وصفاً دقيقاً في المحاضرة الأولى من المحاضرات العشر تاريخ 7 كانون الثاني 48 عندما تحدث عن «الانتشار الأفقي» للحزب وقال إنه «أخذ التدابير للقضاء على الفوضى والانحرافات التي كانت آخذة في التفشي وتهديد مستقبل هذه النهضة القائمة بالإيمان وآلام ألوف العاملين بإيمان وإخلاص. فلا بد من الاعتراف بأنه كان في الدوائر العليا تفسخ في الأفكار والروحية وفي النظر إلى الحركة ومراميها».

لقد وجد مجلساً أعلى غير عامل وغير قائم بواجبه في صيانة العقيدة والنظام، فبوجوده تم الانحراف العقائدي والتحول إلى «الواقع اللبناني»، وبوجوده تغير اسم الحزب وعلمه وشعاره حتى إنه مُنع الهتاف باسم سورية وسعاده. فضلاً عن ذلك فإن سعاده اعتبره مجلساً لا شرعياً بسبب تضمنه أعضاء لا يحق لهم عضويته لأنهم غير مؤهلين وغير حاملين رتبة الأمانة، مثل فايز صايغ وعبدالله محسن وأسد الأشقر وعبدالله سعاده.

وقد وجد أيضاً مجلس عمد رئيسه متورط بصفقات سياسية مع خصوم الحزب لإقصاء سعاده وإبعاده عن قيادته، وقد وصف ما فعله نعمة ثابت «بأخبث مؤامرة وخيانة تعرض لها الحزب منذ نشأته إلى اليوم». ووجد عمداً غير قائمين على عمداتهم باستثناء العميدين الأمينين جورج عبد المسيح والياس جرجي، ولكن هذين العميدين لم يقفا الموقف الفاعل ضد الانحراف الفكري والسياسي والنظامي الذي مرره نعمة ثابت في ظل وجودهما وعضويتهما في المجلس، ولم نسمع أو نقرأ لهما أو لغيرهما أنهما

فعلا شيئاً في مواجهته. لقد قيل إن عبد المسيح كان يراسل الزعيم في مغتربه ويضعه في تفاصيل الخروج العقائدي والنظامي والسياسي، ولكن ليس موجوداً بين أيدينا شيء من تلك المراسلات المزعومة أو أي ذكر لها من سعاده أو حتى من عبد المسيح نفسه، فضلاً من غيرهما. ليس لدينا إلا رسالة واحدة من عجاج المهتار فند فيها وقائع الانحرافات سلّمها إلى سعاده بعد عودته سنة 47. أما القبرصي الذي يقول في مذكراته إنهم لم يكونوا يعلمون أن الخطوات والتدابير التي اتخذوها بقيادة نعمة ثابت كانت خطوات وتدابير انحرافية، فقد شارك نعمة وتعاون معه للحصول على رخصة «الحزب القومي» بصفته رئيساً صورياً للمجلس الأعلى حسب العلم والخبر الذي على أساسه تم نيل الرخصة، وفي طلب الرخصة أن رئيس المجلس الأعلى يمثل الحزب لدى الحكومة ويكون مسؤولاً عنه أمامها (بشير موصلي ص 142).

معاونون لا يعاونون

من محضر جلسة لمجلس العمد بحضور سعاده تاريخ 14 آب 1948 أي عشرة أشهر بعد سحب مذكرة التوقيف، وفي منتصف الفترة الزمنية التي دامت سنتين وربع السنة بين عودته إلى الوطن في أول آذار 47 وقتله في 8 تموز 49. وهذا المحضر سجله إبراهيم يمّوت، حيث كان وكيلاً لعميد المالية وسمح له بحضور الجلسة في ذلك الوقت، يقول لهم سعاده: «**هناك ركود عام في تفكير المسؤولين، فليس من قضية تثار في جلسات المجلس إلا القضايا التي يثيرها الزعيم. إن الزعيم يجب أن تصله الخلاصات فقط وعلى المجالس والإدارات حل القضايا ومعالجتها والاهتمام بها. إن الناس الذين حولنا يقولون إنه ليس في الحزب من شخص مفكر عامل سوى الزعيم، وإنه في حال غياب الزعيم تنشل حركة الحزب. إن هذه الحالة لا تعطي الحزب القوة والثقة الجدير بهما. إن الزعيم لا يريد أن يرى نفسه المفكر الوحيد في الحزب وأن يقال إن الحزب لا يساوي شيئاً بدونه.**»

هذا الكلام يلخص واقع عدم وجود إمكانات وكفاءات تواكب سعاده وتسير جنبه وتساعده وتقوم بأعباء قضية خطيرة يجب أن تستحوذ على جهود كبيرة وعقول قوية ونشاط استثنائي. هذا الكلام المكثف لسعاده يلخص كيف كان الزعيم وحده يهتم بكل شيء كبير وصغير، من مسؤوليته ومن مسؤولية غيره. كان عليه أن يجابه الانحراف العقائدي والسياسي الذي تفشى بالحزب في غيابه، وعليه بالتالي أن يعيد

شرح عقيدته وأسسها العلمية والفلسفية، وعليه أن يعيد تنظيم الحزب داخلياً ومعالجة الميعان والتفسخ والتراخي النظامي والإداري والمناقبي والروحي، وعليه أن يخوض المعارك السياسية ويجابه مضايقات ومعاكسات السلطات الحكومية وضغطها الكبير على الحزب، وعليه أن يهتم بإعداد الحزب لمواجهة الخطر اليهودي الصهيوني الذي استولى على فلسطين والمتحالف مع الدول الأجنبية التي تتخذ من الحكومات المحلية ركائز لها وتستعملها لمحاربة الحركة القومية الاجتماعية ومنعها من تحريك الشعب وإيقاظه لفهم وحدة حياته ومصالحه ومصيره وإنقاذه من مهاوي الانقسامات الطائفية والمذهبية والعرقية وكل الأوهام التي أقعدته عن طلب سيادته وحريته.

في هذا الجو كان يعمل سعاده، في وقت لم يكن له ضمانة من تأمين معاش يقوم بأود عائلته وبيته، وقد عانى ما عاناه من عوز وفقر وحاجة كانت تزيد من الضغوط المادية والنفسية عليه. ورغم ذلك كله فقد أنجز سعاده خلال سنتين وأربعة أشهر من أول آذار 47 إلى 8 تموز 49 عملاً كبيراً جداً وتصدى لجميع المهمات التي ذكرناها فوق بنجاح كبير، وانتصر على جميع الصعوبات الهائلة التي وجدها في طريقه، حتى لم يبق لأعدائه من حيلة لوقفه ووقف حركته إلا... قتله.

إن فصول مؤامرة قتل سعاده قد بدأت فعلياً منذ ذلك الوقت. وإذا كان قتله قد تأخر تنفيذه إلى حزيران- تموز 49 فلأن خطة القتل اقتضت مراقبة ورصد سعاده والحزب للاستفادة من كل تفصيل يتعلق بهما. وأكثر ما استفاد منه أعداء سعاده في تنفيذهم لخطة قتله كانت الأوضاع الحزبية الداخلية وقصور الأجهزة الحزبية الإدارية وعدم أهليتها وأهلية القائمين عليها لمواكبة سعاده والسير معه في نهضته وثورته المحاطة بالأعداء من الداخل والخارج.

سعاده يحسم داخل الحزب

لقد خاض سعاده معركته الداخلية الأصعب لإعادة تنظيم صفوف الحزب وإلغاء التدابير «الشاذة» إدارياً وسياسياً وتطهير الحزب من الانحراف والمنحرفين.

لقد حلّ المجلس الأعلى خلال جلسته تاريخ 4-4-47، أي بعد شهر واحد من

العودة إلى الوطن. أما مجلس العمد فكان لا يزال باقياً حتى 7-5-49 تاريخ آخر رسالة من الزعيم إلى «عميد الداخلية» الأمين الياس جرجي قنيزح. وكان قبول استقالة جورج عبد المسيح قد تم في 20-8-47، أي بعد أقل من ستة أشهر من عودة الزعيم وقبل إلغاء مذكرة التوقيف. سنتكلم عن هذه الاستقالة وقبولها بعد قليل، تحت عنوان مستقل، أما الآن فلنتابع سعاده ونرى كيف عالج مسألة عميد الإذاعة والثقافة فايز صايغ.

فايز بقي عميداً على الأقل حتى 4-12-47، أي أكثر من ثمانية أشهر بعد عودة الزعيم، وبقي سعاده يتعهده ويهتم به ويتمسك به وبإمكانية إعادة ربحه للقضية حتى آخر فرصة من الفرص الكثيرة التي أعطاه إياها. وفي كل هذه المدة كان تأثير المذهب الفردي «الكيكاردي» ظاهراً فيه ومتمكناً منه حتى في الشؤون العملية ورغم وجود الزعيم قربه وتوجيهه له. مثلاً:

في رسالة الزعيم إلى فايز بصفته عميداً للإذاعة تاريخ 21-8-47 يلفته لخطأ أن يتولى العميد هو بنفسه وحده «تقرير المصلحة القومية» (الأعمال 11 ص 317).

في رسالة الزعيم إلى فايز بصفته عميداً للإذاعة تاريخ 29-7-47 يقول له: «آسف لأنه لم تجر أية مذاكرة معي في صدد جلسة المحكمة التي عينت للنظر في قضية الرفيق أسد الأشقر.

رغم ذلك استعمل الزعيم معه المرونة والتساهل ومنحه ثقة وكلفه بترؤس وفد ذي مهمتين سياسيتين في جبل حوران. وكان في رسالته له في 9-7-47 قد وافق على جميع المشاريع الإذاعية التي اقترحها العميد فايز، وأضاف الزعيم إليها نقاطاً لخصها كالتالي:

1- الروح الهجومية التي هي من طبيعة حركتنا...

2- كمال النظامية الفاهمة أهمية النظام. قد تهدمت كثيراً النظامية والسلوكية القومية الاجتماعية في المدة الماضية حتى أصبح ظاهراً وجود ميل إلى الميعان والاستهتار عند الأعضاء وفقد هيبة الإدارة والمسؤولية.

3- روح البطولة التي أشرت إليها في رسالتي من الأرجنتين.

4- الإيمان بالرسالة والثقة الكلية التي هي أساس حركتنا ونهضتنا.

«فرغبتي إليكم هي في التشديد على هذه النقاط الجوهرية الأساسية بلا تقييد بأية شروط فكرية فردية من طبيعة التفكير الفردي».

هكذا كان سعاده يتعهد فايز بالتوجيه والتعليم ويمنحه ثقة ويتمسك به، إلى أن وصل الأمر من شذوذ فايز إلى تقرير الزعيم عقد جلسة لمجلس العمد للطلب منه تحديد موقفه من العقيدة القومية الاجتماعية بوضوح. ويلخص سعاده هذا الموضوع في رسالة منه إلى رفيق الحلبي بتاريخ 19-11-47 يقول فيها:

«إن الرفيق فايز صايغ يذيع بالأكثر لتعاليم كاتب فلسفي روسي يدعى بردياييف، ولصاحب نظرة فلسفية- دينية- شخصية يدعى كاركيكارد، وليس لتعاليم أنطون سعاده. وهذه التعاليم على ما فيها من ألوان فكرية جديدة يحسن اطلاع الفكر السوري عليها للاطلاع، هي مخالفة لتعاليمنا القومية الاجتماعية التي تقول إن المجتمع- الأمة وخيره ومثله العليا هي غاية النهضة والغاية الأخيرة للاجتماع. فتلك التعاليم الغريبة التي ينقلها صايغ عن بردياييف وكركيكارد تقول بالعكس: «الشخصية الفردية ونموها هي غاية المجتمع. المجتمع عدد من البشر ليس إلا. الشخصية الفردية لا يمكن أن تكون واسطة لشيء» وهذا التعليم يجعل المجتمع واسطة للشخصية لا الشخصية واسطة للمجتمع. فالرفيق فايز لا يريد التبشير بتعاليم سعاده بل بتعاليم بردياييف. وهذه النظرة خطرة جداً على العقيدة والقضية القومية الاجتماعية. ولم أكن قد وقفت عليها واهتممت لها إلا مؤخراً حين ابتدأت الحكومة اللبنانية تتراجع تحت ضغط قوة الحزب، والآن ستصبح هذه المسألة موضوع نظر وبحث في مجلس العمد، إذ سأطلب من الرفيق صايغ تعيين موقفه من العقيدة القومية الاجتماعية» (الأعمال 11- ص 333).

يظهر أن مجلس العمد قد عُقد وقضية فايز صايغ قد طُرِحت فيه وأن فايز أصر على شذوذه الفكري. نتبين ذلك من رسالة سعاده إلى منفذ عام القدس الرفيق جورج جورج، وفايز من القدس أيضاً، تاريخ7-12-47 يقول سعاده فيها: «...وقد طلبت من الرفيق فايز التوقف عن بث مثل تلك التعاليم الفاسدة الهدامة للقومية ولعقيدتنا القومية الاجتماعية، فتظاهر أولاً بالقبول، ثم لجأ إلى الانقلاب النظامي سراً وأخذ يثير

مسائل حاول أن يستر بها حقيقة موقفه وقد صدرت تعليمات باعتباره موقوفاً عن ممارسة حقوق العضوية ومسألته الآن تدرس للبت النهائي. فليكن ذلك معلوماً عندك وعند الرفقاء المخلصين» (نفس المصدر ص 336).

كما يظهر ذلك من رسالة الزعيم إلى رفيق الحلبي- منفذية الشاطئ الذهبي تاريخ 8-12-47 التي يخبره فيها عن عقد جلسة مجلس العمد في 4-12-47 وإقالة فايز من مسؤوليته وطرده من الحزب. ويقول سعاده في هذه الرسالة: «إن حادث السيد صايغ هو آخر حوادث تنظيف الدوائر العليا في الحزب من الانحرافات والالتواءات العقائدية والمسلكية التي حدثت في غياب الزعيم». وكان الزعيم قبل ذلك قد طرد غسان تويني ويوسف الخال لأسباب مشابهة.

سعاده يجتمع بكل من بشارة الخوري وكميل شمعون

في تاريخ الحزب قرأنا عن اجتماع الزعيم برياض الصلح في صوفر في ثلاثينيات القرن الماضي، ولكن اجتماعه ببشارة الخوري سنة 1947 فلم يحك عنه إلا في مذكرات فريد صباغ. فريد يروي قصة ذلك الاجتماع كما يروي أيضاً قصة اجتماع الزعيم مع كميل شمعون (ص 62و63و64 من النسخة المطبوعة). الاجتماع مع الخوري كان سرياً وقد حصل في بيت نجل الرئيس، خليل الخوري، وهذا الأخير كان متعاطفاً مع الحزب. موضوع الاجتماع يستطيع أي منا أن يتوقعه: بشارة الخوري يبدي إعجابه بعقيدة الحزب الاجتماعية، أي المبادئ الإصلاحية، وبنظام الحزب وروحية الثبات والانضباط والعطاء والتضحية لدى الأعضاء ويعرض على سعاده أعلى المناصب في الدولة اللبنانية ليعمل على التنظيم والإصلاح الإداري على شرط أن يتخلى الزعيم عن مبادئه القومية السورية ويعمل على أساس الكيان اللبناني فقط. جواب الزعيم استغرق ساعة من الشرح عن صوابية المبادئ الأساسية وضرورة التمسك بها وانتصارها في المجتمع وعدم جواز مقايضتها بالمناصب أو أي شيء آخر، بشارة الخوري أجاب بأن ما سمعه صحيح ولا يمكن دحضه ولكنه صعب ويلزمه وقت طويل لا قبل لنا به. والنتيجة كانت بقاء كل على موقفه.

أما الاجتماع مع شمعون فكان يفترض أن يكون سرياً حسب الاتفاق ولكن شمعون سرّبه إلى صاحب جريدة الرواد الأستاذ بشارة مارون الذي نشر الخبر في اليوم التالي وادّعى أن شمعون نال تأييد الحزب له في الانتخابات الرئاسية، ما اضطر عمدة الإذاعة لتكذيب الخبر. أما مضمون الاجتماع الحقيقي فكان شبيهاً بمضمون الاجتماع مع بشارة الخوري، وأن شمعون قال للزعيم إن عقيدته صحيحة ولكن يلزمها وقت طويل جداً نكون نحن قد متنا قبل تحقيقها ولا يفيدنا تحقيقها شيئاً في حياتنا اليوم. ويجدر بنا هنا أن نذكر أن شمعون كان وزيراً للداخلية وهو الذي كان يحرك القوى الأمنية لمطاردة سعاده ومداهمة أماكن وجوده وهو صاحب الشعار المشهور «نريد أنطون سعاده حياً أو ميتاً»، كما كان خصماً قوياً للشيخ بشارة الخوري وينافسه على رئاسة الجمهورية. وأن الحزب كان قد أيد الشيخ سليم، شقيق بشارة، في انتخابات سنة 1947 ضد كميل شمعون. (الحزب تحول للتحالف مع شمعون بعد استشهاد سعاده وتوقيع بشارة الخوري على قرار الإعدام).

هكذا كان سعاده لا يوفر جهداً لتحييد مصادر الخطر على الحزب وحرية عمله ونشاطه في صميم الشعب واتقاء شرور خصومه أصحاب السلطة الذين بيدهم أدوات المنع والقمع. أما هؤلاء فكان كل همهم استمرارهم في مراكزهم على رأس السلطة والاستفادة منها حتى ولو اقتضى ذلك قتل سعاده وقتل عقيدته وقتل قضيته «لأنه يلزمها وقت طويل ونكون نحن قد متنا ولا نستفيد منها بشيء». يجب أن نذكر في هذا المجال أن سعاده كان قد وضع نصاً للتعهد بالعمل على تحقيق وتنفيذ مبادئ الحزب الإصلاحية يجب أن يوقعه كل طالب لدعم الحزب في انتخابات 1947، ليحصل على هذا الدعم. ويقول فريد الصباغ الذي كان مرافقاً للزعيم في كل تحركاته ومقابلاته طيلة فترة المطاردة، أن الشيخ سليم والشيخ خليل الخوري، شقيق ونجل رئيس الجمهورية، قد وقعا على هذا التعهد.

أزمة عبد المسيح

في غمرة المعركة المزدوجة التي كان سعاده يخوضها ضد أعدائه الخارجيين وضد عوامل الانحراف العقائدي والسياسي داخل الحزب، وقبل سحب مذكرة التوقيف،

نشأت ما سمّاها جبران جريج «أزمة عبد المسيح»، هذه الأزمة التي انتهت بقبول الزعيم للاستقالة المتكررة له من عمدة الدفاع. يحدثنا جبران عن جلسة للزعيم مع عبد المسيح دامت من سبع إلى ثماني ساعات (مع أنطون سعاده ج 4 ص 159)، ونحن إذ نطالع ذلك نتساءل: هل إن موضوع استقالة عبد المسيح كان بكل بساطة كما رواه هو أن سعاده سمح له بأخذ فرصة لترميم وضعه المالي والصحي، أم أنه كانت هناك فعلاً أزمة سميت بأزمة عبد المسيح؟ وكيف لعبد المسيح الذي يروي لنا في يومياته تفاصيل مملة عن أبي طنوس والشيخ بديع والمعلم حنا، كيف له ألا يذكر شيئاً عن جلسة دامت سبع أو ثماني ساعات مع سعاده؟! إننا نعتقد بقوة أن سعاده لم يصرف ثماني ساعات متواصلة مع عبد المسيح لمجرد البحث في استقالته، بل نميل للاعتقاد بأن سعاده كان يبحث مع عميد الدفاع المستقيل عن أسباب وحيثيات وتفاصيل انهيار النظام العسكري الذي كان قد أنشأه في الحزب قبل سفره عام 38، وكان سعاده يعوّل على هذا النظام كنواة فعلية للجيش السوري. ففي رسائله إلى نصوح الخطيب (فخري معلوف) في بداية سفره نجد ونتبين كم كان سعاده يهتم ويعوّل على التنظيم والاستعداد العسكري في الحزب، خذ هذه الفقرة، كمثل، من رسالته إلى فخري معلوف بتاريخ 2-7-38، وهو بعد في قبرص، يقول: «**في كتاب سابق إلى نصوح أشرت بوجوب متابعة العمل في هذه الناحية بكل نشاط، بنشاط أكثر كثيراً من السابق، وإني مسرور لأن المجلس الأعلى شعر أيضاً بأهمية هذه الناحية واتخذ التدابير التي رآها عملية ومفيدة. وبناء عليه أشير بتولّي جمال باشا الغزي قيادة التدريب العام، فيكون العاملون تابعين له وهو يصدر إليهم تعليماته، وأعيّن منير الملاذي رئيس أركانه للتدريب العام. ويلحق بهذه الدائرة صلاح الشيشكلي، فيكون عليهم درس مناطق الحزب وتعيين برنامج التدريب والتشكيلات. ويجب أن يعلم بذلك «العدد المجهول» في المكتب المختص، ويكون على رئيس المكتب التنفيذي وليم سابا ولهذا المكتب الاتصال بالقائم بالأعمال في الشام الذي زارني برفقته في بيت مري وإبلاغه أن يحذّر حلبي وأن يبلغ جميع التابعين إليه ذلك، وأن يبلغ جميع رجال هذا الفرع أن يكونوا مستعدين للعمل فالساعة قريبة...**»

ويقول في رسالة أخرى بتاريخ 9-7-38: «**بلغوا سلامي إلى قيادة التدريب وأركانها وقولوا لهم إني أعلق عليهم أملاً كبيراً وأنتظر منهم نتائج طيبة**». ويتحدث في أخرى بتاريخ 16-7-38 ويقول: «**...وفي هذا الصدد أذكر خطة مثلثة الأضلاع كنت قد**

ذكرتها للأمين جورج عبد المسيح قبيل سفري، فهذه يجب الاهتمام بها من قِبله وقِبل رئيس الدائرة التنفيذية في المكتب المختص، والشخص الآخر الذي حدثته عنه». نعتقد أن سعاده كان بعد عودته يبحث مع عبد المسيح في هذا الموضوع وكان يريد معرفة ما حدث في غيابه وموانع استمرار خطته.

على كل حال فإن نص قبول استقالة عبد المسيح الذي كتبه الزعيم يفصح لنا بوضوح عن أزمة حقيقية معه. فهذا النص إذ يقول: «...**إن النتائج التي أدتها عمدة التدريب بقيادتكم تشهد لكم في جملة الشواهد الجليلة بتفانيكم لمصلحة القضية القومية الاجتماعية المقدسة ولنظام حزبنا العظيم القائم بها. لا أريد أن أزيد على ما تنطق به هذه الأعمال، ولكنني أضيف هذه العبارة البسيطة: ستكونون دائماً الجندي الملبي نداء الواجب القومي الاجتماعي والأمين العامل على صيانة القضية القومية الاجتماعية المقدسة ومثلها العليا**» يضيف في نهايته: «**كما أني لا أشك بأنكم ستقدمون للعميد خلفكم كل مؤازرة ومعونة لتسيير أعمال العمدة على ما تقتضيه مصلحة الحركة القومية الاجتماعية**». (الأعمال ج 3 تاريخ 20-8-47).

إن هذا النص يبدو كرسالة وداعية لعزيز سيغيب لوقت طويل، فيها عرفان وتقدير وثناء، كأن عبد المسيح سيغادر في إجازة طويلة أو سيعتكف أو سيرتاح، ويظهر تقدير الزعيم للأعمال الجليلة التي قدمها ويطلب منه، بالطريقة المهذبة اللطيفة التي اشتهر بها سعاده، مؤازرة ومساعدة العميد الجديد. إن هذا النص يذكرنا بنص قبول استقالة هشام شرابي، حيث كان هشام بصدد مغادرة الوطن إلى أميركا للدراسة، يقول سعاده في قبول استقالة هشام: «**إن الأمانة الكلية للأعمال التي اشتركت في القيام بها في مكتب الزعيم والخدمات الجليلة التي أديتها للقضية السورية القومية الاجتماعية المقدسة بواسطة عملك ناموساً في هذا المكتب وبقيامك بتنشيط العمل القومي الاجتماعي في فلسطين، كلها أصبحت مقرونة بنتائج المعركة العنيفة المعقدة التي خاضها الحزب بعيد عودتي وانتهت بانتصاره انتصاراً فاصلاً وبالانطلاق الحزبي الجديد نحو انتصارات جديدة. إن قبولي استقالتك يرافقه ثقتي بأن القضية المقدسة التي تربطنا والحياة الجديدة التي تجمعنا ستستمران فاعلتين على البعد كما على القرب. واثق أيضاً بأنك حيثما كنت ستكون ممثلاً ممتازاً للعقيدة القومية الاجتماعية وللسوري القومي الاجتماعي في إيمانه**

وسلوكيته ومناقبه ومناضلاً شديداً في سبيل تحقيق الهدف الأسمى الذي نتجه إليه بكل فكرنا وكل شعورنا» (نفس المصدر). إن هاتين الرسالتين تتشابهان وتكادان تكونان متطابقتين من حيث طابع الوداع الذي يطبع صيغتهما ولغتهما، مع فارق أنه في الأولى يخاطب أميناً وفي الثانية رفيقاً.

ومما يؤيد وجود أزمة اسمها أزمة عبد المسيح، في ذلك الوقت، هو كلام عبد المسيح نفسه حين يخبرنا عن سبب عدم ذهابه مع سعاده في جولته إلى المناطق السورية الداخلية سنة 48.

يرتبك عبد المسيح عندما يروي سبب عدم مرافقته للزعيم في جولته، يقول: «عرفت أن الزعيم ترك بيروت إلى دمشق»، يعني أنه لم يكن يعرف سلفاً موعد بدء الرحلة، عرف بترك الزعيم بيروت بعد أن ترك الزعيم بيروت. يتابع: «ليس لي منه أية كلمة عند الأمينة الأولى... ويحزن قلبي، هل ألحق به؟ لو شاء أن أكون معه لطلب مني ذلك... رددها مرات، حضّر نفسك للذهاب معي...»، يعني أن عبد المسيح يقول لنا إن الزعيم طلب منه أن يحضر نفسه لمرافقته، وعبد المسيح نفسه يقول لنا في الوقت نفسه أن الزعيم لم يطلب منه أن يرافقه (لو شاء أن أكون معه لطلب مني ذلك)، لكن عبد المسيح يحسم المسألة ويختمها بقوله: «ما كان يسره أن تمتد عطلتي للعمل للترميم الشخصي» (من يوميات جورج عبد المسيح).

إذاً هناك أزمة فعلية اسمها أزمة عبد المسيح وأن الزعيم لم يكن مسروراً منها. وما يؤكد أن استقالة عبد المسيح كانت بسبب أزمة معينة وليست بسبب مجرد عطلة للعمل للترميم الشخصي، هو عدم أخذه عطلة فعلية بل واستمراره في العمل للحزب وفي الدائرة القريبة والمحيطة بالزعيم. فعبد المسيح هو الذي دوّن محاضرات الزعيم العشر كلها، وهو عمل رائع وشاق ويتطلب جهداً كبيراً، وهو كان مستعداً أيضاً لمرافقة الزعيم في جولته إلى مناطق الشام الشمالية والغربية، وكل ذلك كان بُعيد عطلته المفترضة للترميم الشخصي. لم تكن هناك عطلة بل كان هناك أزمة، لكن ما هي هذه الأزمة؟

أين هو عبد المسيح في تفكير وتقدير سعاده؟

مع أنه لا مكان للاعتقادات الشخصية في بحث تاريخي يريد الوصول إلى الحقيقة، أريد أن أسجل اعتقادي أن عبد المسيح استقال من عمدة الدفاع لأن سعاده لم يلبِّ

رغبته في تولي رئاسة مجلس العمد. أن رغبة عبد المسيح في أن يكون «المسؤول الأول»، حسب تعبيره، قد ظهرت في مروياته أكثر من مرة. أما عن عدم تلبية الزعيم لرغبة عبد المسيح وطموحه فيعود لتقدير الزعيم نفسه لمؤهلاته الإدارية والسياسية بالتحديد إذا كانت كافية ليكون رئيساً لمجلس العمد أم لا. إن رأي سعاده بإخلاص وتفاني عبد المسيح قد عبّر عنه بصراحة ووضوح في كتاب قبول استقالته من عمدة الدفاع، ففي هذا الكتاب يذكر سعاده **جملة الشواهد الجليلة بتفاني عبد المسيح لمصلحة القضية القومية الاجتماعية المقدسة ولنظام حزبنا العظيم القائم بها**. وفي رسالة أخرى يصف للقوميين الاجتماعيين في الأرجنتين الجهاد الكبير والأعمال والتضحيات التي يقوم بها عبد المسيح في الوطن وفي أصعب الظروف وأقساها. أما نوع مؤهلات عبد المسيح فهي شيء آخر لا علاقة له بالإخلاص والتفاني. يقول سعاده لغسان تويني في رسالته الرابعة له تاريخ 9-7-46: «**إن من الأشخاص من هم مؤهلون للمسائل العقائدية فقط، وتحوّلهم إلى السياسة يصيّرهم سياسيين ولا ينتج أعمالاً سياسية باهرة أو مجدية. وإن منهم من لا يصلح لغير الإدارة أو النظام أو الجندية، فيجب ألا نحمّلهم أعباء قضايا لا يحسنون معالجتها ويمكن أن يرتكبوا فيها أغلاطاً كبيرة كما حدث في الماضي. ويجب أن يكون هنالك رجال مؤهلون للمسائل السياسية يكلفون القيام بها وهؤلاء كانوا قلائل في الماضي ولا يزالون قلائل الآن**».

ويقول سعاده أيضاً في رسالته: «**ولا تزال مشكلة الجهاز الشخصي لإدارة الحزب وسياسته غير محلولة، وفي هذا الظرف يسقط شخص كان مفيداً جداً بإخلاصه وإدراكه هو فخري معلوف. وأنت بعد أن عملت مدة أتيت أميركانياً للتخصص العلمي، والرفيق أسد الأشقر سيعمل أعمالاً خصوصية في مصر، والرفيق كريم عزقول ابتعد بداعي السفر. وقد كنت مسروراً جداً بظهور الرفيق عزقول وظهورك وظهور الرفيق فايز وحلمي وفوزي معلوف ويوسف صايغ في ميدان العمل**». فسعاده في مجال الجهاز الشخصي لإدارة الحزب ذكر ثمانية رفقاء لا يوجد بينهم اسم جورج عبد المسيح. وكان في الرسالة ذاتها قد قال «**إن الحزب كان يفتقر إلى عدد من الأشخاص مخلصين ومؤهلين**» وعندما ذكر سعاده اسم جورج عبد المسيح بين من كانوا معاونين له، مخلصين ومؤهلين، ذكره كما يلي: «**الأمين الجزيل الاحترام نعمة ثابت والرفيق الموقف فخري معلوف كانا أكثر الرفقاء اطلاعاً على خطط الزعيم وأفكاره، ويأتي بعدهما الأمناء الجزيلو الاحترام**

جورج عبد المسيح ومأمون أياس وعبدالله قبرصي، والرفقاء رجا خولي ويوسف صايغ وجبران جريج ورشدي معلوف وغيرهم». فعبد المسيح لم يكن «أولاً» في هذا المجال.

وإذا عدنا لخطاب سعاده في أول آذار سنة 1938 فيخبرنا أن أول مجلس أعلى شكّله قبيل سجنه الثاني قد تألف من صلاح لبكي ونعمة ثابت ومأمون أياس وفوزي بردويل ويوسف بحمدوني، ولم يكن عبد المسيح واحداً منهم رغم أنه انتمى إلى الحزب واعتنق عقيدته وعمل لقضيته قبلهم. فعبد المسيح، هذا الذي كان «**دائماً الجندي الملبي نداء الواجب القومي الاجتماعي والأمين العامل على صيانة القضية القومية الاجتماعية المقدسة ومثلها العليا**»، حسب وصف سعاده له، لم يكن من الذين يعتبرهم سعاده مؤهلين للمسؤولية الأولى.

حتى إن عبد المسيح نفسه يقول لنا إن الزعيم قبل استشهاده كان يرغب بأن يتولى الأمين عبدالله سعاده الشؤون السياسية في الحزب، وأن يتولى عبد المسيح الشؤون الإدارية، وأن عبد المسيح عندما انتقل إلى دمشق بعد استشهاد الزعيم، قد استدعى عبدالله سعاده إلى دمشق للبحث معه في تنفيذ إرادة الزعيم تلك (أيام قومية الجزء الخامس ص 10). فعبد المسيح بالنسبة لسعاده، وبشهادة عبد المسيح نفسه، لا يصلح للمسؤولية السياسية، بينما رئاسة مجلس العمد هي مسؤولية أولى تتطلب مهارات ومؤهلات للعمل السياسي إلى جانب الإداري. وعلى كل حال فإن هذه المعلومات التي يخبرنا إياها عبد المسيح تتعارض مع زعمه أن الزعيم قد عيّنه رئيساً لمجلس وكلاء العمد قبل أن يستشهد بقليل. وهذه المسألة سنتوسع فيها في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

سعاده يربح المعركة العقائدية / المحاضرات العشر

سنة 48 كانت السنة الأكثر نمواً وانتشاراً للحزب والأكثر حرية في النشاط والعمل والأكثر وضوحاً وتعمقاً في العقيدة وفهم المبادئ، إنها سنة المحاضرات العشر، وهي أيضاً سنة الجولة إلى مناطق الداخل في الشام وحمص وحماة وحلب فضلاً عن اللاذقية وطرطوس، حيث كانت جموع الشعب تنتظره لتنهل من عطائه وإشعاعه، فهو كان يزرع الرفقاء والمديريات زرعاً في كل مكان يحل فيه وفي كل منطقة يزورها، وكان للحزب امتداده وانتشاره الواسع الكبير في جميع المناطق وفي جميع الأوساط والطبقات

الاجتماعية والطوائف والمذاهب والأقليات والأكثريات حسب تسمية عهد ما قبل النهضة القومية الاجتماعية.

إذا كان شرح مبادئ الحزب في السجن الثاني في مدة لا تتجاوز 42 ساعة أعظم عمل قام به في حياته في أقصر وقت، كما قال لسلمى صائغ سنة 6391 (الأعمال الكاملة 9 ص 81)، فإن المحاضرات العشر التي ألقاها ابتداء من أول سنة 84 هي أعظم عمل إعلامي يقوم به سعاده إطلاقاً. شرح التعاليم هو كناية عن كتيب صغير احتوى شرحاً مختصراً ومكثفاً للمبادئ الأساسية الثمانية والمبادئ الإصلاحية الخمسة. أما المحاضرات العشر فكانت تحفة إعلامية وثقافية وعقائدية شرح فيها المبادئ وغاية الحزب بوضوح وتفصيل وعمق وسهولة معاً. كانت شروحه تلامس وجدان وعقل المواطنين العاديين محدودي العلم والثقافة كما أهل العلم والثقافة والفكر والاختصاص في الوقت نفسه.

لأول مرة يسمع المثقفون والمفكرون عبارة «نظام الفكر»، ولأول مرة يتكلم قائد حزب سياسي عملي على دور الفلسفة في معالجة الأمور (علينا أن نفهم فلسفة الحركة لندرك كيف يمكن أن نعالج الأمور). لأول مرة يقف الناس أمام رجل يدلهم من أين يجب الابتداء في التفكير الاجتماعي الاقتصادي السياسي (السؤال الفلسفي: من نحن؟)، ولأول مرة يفهم الشعب معنى كلمات مبادئ ونهضة وحق وصراع وحرية. المحاضرات العشر هي تحفة فكرية حققها سعاده من فيض علمه وإشعاع فلسفته ونظرته للحياة والكون والفن. وإن قراء المحاضرات العشر اليوم هم مدينون لجورج عبد المسيح على عمله القريب من الإعجاز الذي أداه حين سجل كلام سعاده مباشرة وهو يجري سريعاً على لسانه منهمراً ومتدفقاً دون توقف. إن جورج عبد المسيح برهن بذلك أنه كان من أكثر الذين يدركون قيمة سعاده وأهمية ما يقوله ووجوب تدوينه للتاريخ كشأن تعليمي للأجيال المقبلة.

إن إنشاء المحاضرات العشر قد حسم المعركة ضد الانحراف العقائدي، وإن انتشارها لاحقاً أدى إلى نمو سريع للحزب في كل الأوساط نمواً أقلق خصوم سعاده الداخليين وأعداءه الخارجيين، وجعلهم يدركون أنهم أمام حركة قوية نامية مصممة مهاجمة ستدك صروح عروشهم من أساسها، في وقت هم عاجزون عن مقارعتها،

فصاروا مستعدين لفعل أي شيء لوقفها وإنقاذ أنفسهم منها حتى ولو كان هذا الشيء هو التآمر والقتل.

خصوم سعاده الداخليون لم يستطيعوا مجاراة غزارة علمه وتفوق عقيدته وقوة نظامه، الحزب يهدد حصونهم وهي تنهار أمامهم ويصل إلى قواعدهم الشعبية ويأخذ منها، فتألبوا عليه واتفقوا على محاربته. فالطائفيون والإقطاعيون لا يأخذون من قواعد بعضهم البعض بل بالعكس إنهم في بثهم العداوة الطائفية أنما يمدون بعضهم البعض بالقوة، «فالعداوة هي أكسجين الحزبية الدينية» يقول سعاده. وحده سعاده فسّر عداواتهم الطائفية التي تتحول سريعاً إلى تحالف ضد الحركة القومية الاجتماعية، فقال إن العداوة والفتنة هي أكسجين الحزبيات الدينية الذي يمدها بالحياة والانتعاش. ولهذا السبب عينه كان من السهل أن تجتمع المنظمتان الطائفيتان، الكتائب المارونية والنجادة الإسلامية السنية، على ما بينهما من عداوة وصراع طائفي، وتتحالفان سنة 9491 ضد الحركة القومية الاجتماعية التي وقفت بينهما سنة 7391 وحالت دون امتداد الفتنة الطائفية التي كانا يوقدانها في ذلك الوقت.

الإقطاع الأنترنسيوني

أما الأعداء الخارجيون فقد رأوا في حركة سعاده وعقيدته ونظامه أمراً خطيراً جديداً لم يروا مثله ومثل خطورته طيلة عقود من سيطرتهم الاستعمارية. لم يتعودوا إلا على مدّاحين للأجنبي مرتزقين من وجوده في بلادهم ومرتهنين لإرادته وضعفاء فاقدي الثقة بإمكانات الأمة وأهليتها للاستقلال والسيادة والحرية، وإذا ما لقوا مقاومة فاختلاجات ابتدائية وتململات محدودة سرعان ما كانوا يستوعبونها بالإغراء أو يقمعونها بالقوة. أما أن ينبري سعاده ويؤسس حركة قومية ذات عقيدة وأساس علمي وينشئ نظاماً متيناً ويتقدم به ليخاطب الغرب والشرق بلغة واحدة هي لغة السيادة القومية والحق القومي ويعلن «إن الحق القومي لا يكون حقاً في معترك الأمم ألا بمقدار ما تدعمه من قوة الأمة. وإن القوة هي القول الفصل في إثبات الحق القومي أو إنكاره»، أن ينبري سعاده ويعلن ذلك، فهو ما جعله في مواجهة المستعمرين وجهاً لوجه لأول مرة منذ عقود طويلة وقرون أطول.

لأول مـرة يوجد من يصرخ في وجه العالم ويقول: «ليس لجمعية الأمم المتحدة كلها أن تفرض على الأمة السـورية مقررات تنزع سـيادة الأمة السـورية عـن وطنها وحقها في أرضهـا. إن جمعية الأمم المتحدة هي جمعية الأمـم التي انتصرت مصالحها في الحرب العالمية الثانية ومن والاها. إنها لم تنشأ بإرادة عالمية في ظروف من تساوي الحقوق في ما بين أمم العالم. إن هذه الجمعية لا تملك حق تقرير مصير الأمة السورية ولا تقرير مصير جزئها الجنوبي فلسطين» (من رسالته إلى الأمة السورية تاريخ 2 تشرين الثاني 47).

أن يجرؤ سـعاده ويقول ذلك للأقوياء المنتصريـن في الحرب، ثم يجرؤ ويتحدى الغرب والـشرق، عـلى تناقـض مصالحهـا، ويضـع نفسـه وأمتـه في مواجهة مـا سـمّاه «الإقطاع الأنترنسـيوني» (قالها في ندائه إلى منتجي الأمة بمناسـبة عيد العـمال أول أيار 49)، ويعتبر المادية الماركسية الجامحة صنواً للمادية الرأسمالية الخانقة المسيطرة، ويرفض نزعتهما للسيطرة عـلى العـالم، أن يجـرؤ على القـول إن العالم يحتـاج اليوم إلى فلسـفة جديدة تنقـذه من تخبط الفلسفات الجزئية وضلالها... (من رسالته المرسلة من الأرجنتين في 10 كانون الثاني 47). فإن ذلك ما جعل العالم المسـيطر بالقوة العسـكرية، يضع سـعاده وحزبه على رأس قائمة أعدائه الذين يجب إنهاؤهم بالقتل.

لكي يفهم القارئ اليوم لماذا كان سعاده يخاطب الشرق والغرب بلغة واحدة، والظروف السياسية العالمية اليوم قد تغيرت كثيراً، يجب أن يعرف أن الشرق والغرب في ذلك الوقت عملا معاً على زرع إسرائيل في فلسطين ومدها بالقوة، وكانا معاً ينكران على أمتنا حقها في الوحدة والسـيادة والحرية. كان الاتحاد السـوفياتي لا يزال أسير النظرة الماركسية التقليدية التي تعتبر الكلام عن حقوق قومية وسيادة قومية يجب أن تُنتزع بالقوة، كان يعتبره كلاماً خارج التاريخ وخارج العصر ولا يمكن تأييده أبداً. كان شعار الشيوعيين في العالم: «خبز وسـلم وحرية»، وهذا الشـعار أرادوا تطبيقه علينا وحدنا في وقت كانوا يدعمون احتلال اليهود الصهيونيين لفلسـطين بالقوة. أما الشـيوعيون السـوريون فكانوا صدى للسياسـة الشيوعية السوفياتية المؤيدة لتقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية.

لا يتسـع هذا البحث لقراءات في نماذج الإعلام الشـيوعي آنذاك، ولكننا سـنكتفي بهـذا التصريح الذي صدر عن وزير خارجية الاتحاد السـوفياتي خلال اجتماع في الأمم المتحـدة سـنة 1951، قـال: «إن الاتحاد السـوفياتي يؤيـد بلاد الشرق الأدنـى في أمانيها

القومية السلمية، متبعاً نحو شعوبها سياسة سلمية يجابه بها سياسة الاستعمار الغربي العدوانية» (الجيل الجديد 25-11-51). هكذا كانت نظرة الاتحاد السوفياتي وموقفه من صراع وكفاح أمتنا السورية للحفاظ على حقوقها القومية، أي حقوقها بأرضها ومواردها مصدر حياتها. وهذا التصريح في أوائل الخمسينيات كان يعتبر تحولاً كبيراً في موقف السوفيات في الأربعينيات من الحركات القومية، فهو صار في الخمسينيات يؤيد «الأماني القومية» التي كان يعتبرها في السابق رجعية، ولكنه بقي ينظر إلى استقلال الشعوب وحقوق الشعوب وسيادتها على موارد حياتها في أرض وطنها، أي حقوقها القومية، كأنها مجرد أمانٍ ونزعات عاطفية روحية. وقد بقي الشيوعيون في وهم إمكانية مجابهة سياسة الاستعمار الغربي العدوانية، بالسياسة السلمية! ذلك بالرغم من أن الروس الشيوعيين كانوا لتوهم خارجين منتصرين على ألمانيا بفضل سياسة القوة التي استعملتها اليقظة القومية الروسية في الحرب، وليس بفضل السياسة السلمية.

هذا بالضبط ما حدا بسعاده يومها للكلام عن الصهيونية «وامتداداتها الأنترنسيونية، دون أن يستثني الشرق من هذه الامتدادات ونفوذها، وهذا ما حداه للكلام على الإقطاع الأنترنسيوني ولاتهام الحركات الشيوعية السورية والعربية بأنها تخدم المصالح القومية الروسية في بلادنا (نداء سعاده إلى منتجي الأمة 1 أيار 49).

ومن هو سعاده هذا الذي يقارع الشرق والغرب ويتصدى لسياساتهم في بلادنا؟! إن سعاده هذا يجب التخلص منه...

وللاستعمار والصهيونية عيون يقظة في كل مكان، فهم ينفذون مشروعهم التاريخي الكبير وقد جندوا له كل ما يستطيعون من قوة. إن عيونهم قد رصدت امتداد الحركة السورية القومية الاجتماعية التي يقودها سعاده وانتشار فروعها من حلب حتى فلسطين، ورأوا كيف «تمتد روح الحزب السوري القومي الاجتماعي في جسم الأمة وتنظم جماعاتها»، فسعاده يجب قتله.

قرار قتل سعاده

إن من يريد فهم الأسباب الحقيقية والمقدمات التي أدت إلى استشهاد سعاده يجب عليه قبل كل شيء رصد حركته وأعماله وأقواله سنة على الأقل قبل الاستشهاد. يجب

مثلاً أن نقرأ المحاضرات العشر، ويجب أيضاً أن نقرأ سلسلة خطاباته، ويجب بشكل خاص أن نقرأ سلسلة المقالات التي كتبها، خلال عدة أشهر قبل استشهاده، في جريدتي كل شيء والجيل الجديد وهي: العروبة أفلست، الحزبية الدينية لعنة الأمة، آن للشباب أن يدرك، لائحة العقاقير لا تصنع طبيباً، مشكلة الحرية لا تحل إلا بالحرية، دور الغول انتهى، حق الصراع هو حق التقدم، الأمة تريد نهضة لا حلة، لا مفر من النجاح، اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض، صناعة العقائد المزيفة، مجموع أشخاص يساوي قضايا شخصية، نداء إلى منتجي الأمة وبنّائي مجدها، خلاص الأمة في وعيها الاجتماعي، سلاح أنترنسيوني لم يستعمل بعد.

لا شك أن أعداء سعاده قد قرؤوه جيداً وعرفوا أنه قائد خطير من طراز عالمي فريد لا يمكن احتواؤه وترويضه. ففي مقالة «حق الصراع هو حق التقدم» مثلاً يشرح سعاده ماذا تعني الوحدة الإنسانية والسلام العالمي التي كان المنتصرون في الحرب العالمية يرفعونها غطاء لاقتسام العالم. شرح ماذا تعني الأنترنسيونية الشيوعية والعالمية الأميركية، ومنظمة الأمم المتحدة ومؤسستها الثقافية الأونيسكو، ويذكّر بما قاله منذ سنة 37: «ليس أسهل من تنازل بعض الأمم عن حقوقها في الحياة من أجل إقامة سلام دائم في العالم، وسورية القومية الاجتماعية ترفض أن تكون من هذا البعض» وزاد فقال: «إن أمتنا تكاد تختنق من خمول السلام وسلام الخمول، إننا لا نريد الاعتداء على أحد ولكننا نأبى أن نكون طعاماً لأمم أخرى. إننا نريد حقوقنا كاملة ونريد مساواتنا مع المصارعين لنشترك في إقامة السلام الذي نرضى به. إن حركتنا هي حركة صراع وتقدم وإنها ليست مستعدة للتنازل بل للانتصار. إن حق الصراع هو حق التقدم فلسنا بمتنازلين عن هذا الحق للذين يبشروننا بالسلام ويعدون للحرب».

أي نوع من الرجال القادة هو سعاده! كيف يجرؤ على مخاطبة العالم ودول العالم المنتصرة في الحرب بهذه القوة والإرادة والمعرفة وصحة النظر والندية والتصميم وعدم التنازل! يجب أن يموت.

كيف لهذا القائد السوري أن يوقظ سورية معلمة الأمم ويستحضرها من بطون التاريخ ويشهرها بوجه روما القرن العشرين وهي على هذا العتو تضرب وتدمر مدناً كاملة بقنبلة واحدة؟! إنه يجب أن يقتل.

تدريب عسكري للمسؤولين المركزيين

بالإضافة إلى حملة سعاده الإعلامية وتعبئته النفسية للقوميين الاجتماعيين، ومع قرار تقسيم فلسطين، دعا سعاده القوميين إلى الالتحاق بفرقهم النظامية كما حددها نظامه العسكري، جرائد وزمراً. وبدأ التدريب لمجموع القوميين في مناطقهم، أي مديرياتهم ومنفذياتهم، كما بدأ برنامج تدريب عسكري للقياديين المركزيين لتخريجهم ضباطاً. فكان ذلك دليلاً واضحاً على أن سعاده يريد مسؤولين محاربين مدربين ولا يريد مسؤولين مرفهين مترفعين متعالين عن الصراع العنيف الدامي في المعارك التي تنتظرهم. هؤلاء خضع من هو مؤهل منهم لدورات تدريبية قاسية تولاها العقيد زهران يمين والنقيب جوزيف نبهان. منهم جورج عبد المسيح وعبدالله محسن وجبران جريج واسكندر شاوي وإنعام رعد وفارس معلولي وإدغار عبود وخالد جنبلاط وخليل أبو عجرم وفكتور أسعد وغيرهم.

مكتب «مام»

كان سعاده قد أعاد إحياء مكتب «مام» أي المكتب الأعلى المختص، حوالي أول صيف 1947، أي عدة أشهر بعد عودة الزعيم إلى الوطن وعدة أشهر قبل سحب مذكرة التوقيف، وهو كان قد أنشئ قبل سفر سعاده سنة 1938 وتوقف بعد سفره. وهو مكتب استخباري مختص بجمع المعلومات السياسية والأمنية في الوطن كما المعلومات الإدارية ومكافحة التجسس داخل الحزب. وعين إبراهيم يمّوت رئيساً لهذا المكتب، والرفقاء وليم سابا وولسن مجدلاني موظفين فيه. ولنا من رسالتين في 13-9-47 من سعاده إلى كل من يمّوت وسابا، ما يفيد أن هؤلاء الرفقاء لا يقومون بواجب مسؤوليتهم كما ينبغي وأن سعاده يلفت نظر يمّوت وسابا لإهمالهما ويطلب منهما «أخذ العلم بوجوب اتصالهما الدوري بالزعيم دورياً لا أقل من مرة في الأسبوع وأن يكون هذا الاتصال حتمياً وأكيداً بصرف النظر عما إذا كان هناك معلومات جديدة أو لم يكن». أما ولسن مجدلاني فقد أرسل له سعاده رسالة تنبيه لإخلاله وتخلفه مرتين عن موعد مقابلته للزعيم. (الأعمال الكاملة ج 11 ص 327-329)- هذه الرسائل الثلاث تفيدنا كم كان معاونو سعاده مهملين وغير مدركين لخطورة العمل الذي أناطه سعاده بهم ولخطورة الأوضاع الأمنية والسياسية التي اقتضت إنشاء هذا المكتب.

مجلس العمد لا يعمل

هذا الإهمال وعدم الشعور بالمسؤولية وخطورتهما كانا حالة تشمل أيضاً المجالس العليا التشريعية والتنفيذية، وقد شرحنا فوق كيف أن سعاده عانى الأمرين من ندرة وجود مؤهلين للمسؤوليات القيادية المركزية. لقد أقال وقبل استقالة وعيّن عمداً جدداً وبدّل ونبّه ولام ووجّه وعلّم ودرّب وساعد وعمل كل شيء يمكن عمله لتجنيد فريق مؤهل للأعمال والمسؤوليات القيادية المركزية، وبقيت هذه القضية متعثرة ربما بسبب الفارق الواسع بين مؤهلات سعاده نفسه وبين مؤهلات المحيطين به، أو بسبب خطورة القضية وثقل الأعباء التي تتطلبها والتي كانت تفوق مستوى الوعي العام والاستعداد العام في ذلك الوقت. على كل حال فهذه قضية مستقلة جديرة ببحثها وحدها بشكل مستقل. لكن هنا يجب أن نذكرها لمعرفة نقاط الضعف التي شكلت أهم أسباب مأساة الحركة القومية الاجتماعية. وسعاده يوجز ذلك في رسالة «إلى رئيس وأعضاء مجلس العمد» صدرت عن مكتب الزعيم في 26-3-48 يفتتحها بالقول: «قد مضى إلى اليوم نحو ثلاثة أشهر على انقطاع مجلس العمد عن الاجتماع وعقد الجلسات المتتابعة والمتواصلة للنظر في المسائل والقضايا الإدارية العارضة وفي الموازنة والبيانات المالية وفي التوافق الشكلي والعملي لتنفيذ سياسة الزعيم، كما هو منصوص في الدستور». ويختمها بالقول: «إن الإدارة الحزبية المركزية، بصرف النظر عن النقص العددي في الأشخاص القائمين عليها، هي في حالة تفكك ولا نظامية في أعمالها. وأن استمرار مجلس العمد والعمدات في الحالة المذكورة سيورث الحزب نتائج وخيمة في الإدارة والنظام والمعنويات والسياسة».

أما في 24-7- 48، أي بعد أربعة أشهر، فكان الوضع الإداري في المركز لما يتحسن بعد، فوجّه الزعيم إلى المسؤولين المركزيين مذكرة- إنذار هذا نصها: «من مدة طويلة لاحظت باستغراب شديد أن بعض المسؤولين المركزيين يتصرفون أثناء قيامهم بوظائفهم تصرفاً يفقدهم كل هيبة شخصية ويخرق هيبة المسؤولية وحرمة النظام، ومن مزايا هذا التصرف:

1- المزاح والاسترسال في النكت والحوادث الطريفة في المكتب المركزي، وحتى في جلسات مجلس العمد، من قبل بعض العمد، ولم يحترم في هذه الحالات حتى وجود الزعيم نفسه.

2- التسرع والحدة والاستشاطة في معالجة بعض القضايا وتصريف بعض الأمور وفي الحديث مع المراجعين.

3- في خرق الدوام وفي السماح في المكتب لرفقاء وأصدقاء، بالمزاح وتلاوة الأحاديث المسلية في أوقات الدوام.

وقد سبق لي أن وجهت ملاحظات لبعض العمد في أكثر من جلسة من جلسات مجلس العمد وفي مواقف أخرى في صدد التصرف الغريب الشاذ المشار إليه. ويؤسفني أن أقول إن العمد وغيرهم من المسؤولين الذين أبديت لهم ملاحظاتي ودعوتهم إلى السلوكية النظامية، لم يأخذوا بعين الاعتبار إلا مؤقتاً في الدقيقة التي قيلت فيها فعادوا فيما بعد إلى الاستهتار والتهدل.

إني مضطر، بالنظر لما تولده السلوكية السيئة المذكورة من أضرار نفسية ونظامية في صفوف القوميين الاجتماعيين، إلى إرسال هذه المذكرة- الإنذار إليهم، متمنياً أن تعطي النتيجة المطلوبة». (انتهى كلام الزعيم).

هكذا كان مستوى معاوني سعاده في الشعور بالمسؤولية وفي التعاطي مع القضية التي تتطلب أقصى درجات الجدية والعمل، وهكذا سيواجهون بعد سنة خطة ومؤامرة قتل سعاده والقضاء على الحزب.

اشتداد الضغوط ودخول المرحلة الحرجة

رغم كل ذلك وكل هذا الوضع الإداري المتأزم، يستمر سعاده في حربه وصراعه متعدد الجبهات، ويستمر نمو الحزب شعبياً ويزداد قوة وانتشاراً، حتى صار يستقطب من كان يعتبرهم المتزعمون الطائفيون والإقطاعيون أتباعاً لهم ورعايا عندهم، صار القوة الشعبية الأولى في بيروت وانزرعت مديريات الحزب في جميع المناطق إطلاقاً. وهذا ما أرعب هؤلاء المتزعمين الذين صاروا مستعدين لفعل أي شيء لوقف هذا الرجل الاستثنائي حتى لو كان هذا الشيء هو القتل.

في أول آذار 49 كان احتفال في بيت الرفيق بشير فاخوري وكانت كلمة الزعيم آية في السهولة والتعبير والبلاغة في نفس الوقت، «...**من كان يظن في هذه البلاد أنه**

يمكن أن يتكلم عدد كبير من طوائف متعددة كانت إلى هذه الساعة أمماً مستقلة بينهم السني والشيعي والماروني والأورثوذكسي والدرزي ناطقين بلسان واحد ومعبرين عن حقيقة واحدة هي حقيقة الأمة السورية، نحن اليوم لا نقدم للناس نظريات في الحياة، نحن نقدم لهم أمة حية تتحرك، تتكلم، تتعاطى تفعل تحتك بالكون حولها، ومع ذلك لا يصدقون. نقول لهم الطوائف أصبحت كياناً قومياً واحداً تعالوا المسوهم وانظروا إليهم واشعروا بوجودهم، لكن يقولون لا نصدق...» وكم كان هذا الكلام يدخل في وجدان الشعب بسهولة ويحرك فيه أصالته وحقيقته الجميلة الواحدة، كم كان هذا الكلام يعبر عن حاجة هذا الشعب لمن يقوده باتجاه واحد نحو هدف واحد هو هدف تأمين مصالحه الواحدة في حياته الواحدة في وطنه الواحد، بعيداً عن مراوغة السياسيين وكلامهم الفئوي التحريضي الذي لا يحرك إلا غرائز ونعرات اكتوى الشعب من نتائجها الوبيلة.

وفي بيت هاني بلطجي في بيروت «**...نشأنا نبحث عن القتال ولا يبحث القتال عنا أبداً، نشأنا وفي نشأتنا عز هو كل معنى وجودنا... نحن حاربنا ونحارب الاستعباد الداخلي الذي يتخذ من الإقطاعية والرأسمالية الفردية والتكالب على المنافع واسطة وشكلاً، الاستعباد الداخلي الذي كان حليفاً للاستعباد الخارجي والذي لولاه لما فقدنا كيليكيا والاسكندرون وفلسطين... وصفوف العز أصبحت معروفة وصفوف الذل أصبحت معروفة، إن مرجل النهضة يغلي ويزمجر فالويل ثم الويل لمن يقف في طريقها...**».

أما في بيت اسكندر شاوي في الأشرفية وفي آخر خطاب لسعاده بمناسبة أول آذار قبل استشهاده يقول: «**إن كل ما فينا هو من الأمة وكل ما فينا هو للأمة، حتى الدماء التي تجري في عروقنا عينها ليست ملكاً لنا، إنها وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها. نحن حركة صراع ولذلك نحن حركة قتال، صراع بالمبادئ التي نحمل وقتال بالدماء الحارة التي تجري في عروقنا... لم يتسلط اليهود على جنوبي بلادنا ويستولوا على مدن وقرى لنا إلا بفضل يهودنا الحقيرين في ماديتهم الحقيرين في عيشهم الذليلين في عظمة الباطل. إن الصراع بيننا وبين اليهود لا يمكن أن يكون فقط في فلسطين بل في كل مكان، حيث يوجد يهود قد باعوا هذا الوطن وهذه الأمة بفضة من اليهود. إن مصيبتنا بيهودنا الداخليين أعظم من بلائنا باليهود الأجانب...**».

ومتى عرفنا أن هذه الاحتفالات أقيمت عنوة رغم المنع التعسفي من قبل الحكومة التي أرسلت قوى الأمن لمحاصرة المحتفلين ومنع احتفالهم ومنع سعاده من الكلام، عرفنا أن كلام سعاده كان جواباً على تحدي الحكومة للحزب وتقييد نشاطه والحد من نموه وانتشاره، وكان سعاده يرى الانسجام التام الذي لم يكن مصادفة، بين الضغط الداخلي للحكومة ضد الحزب وضغط التمدد اليهودي الصهيوني المدعوم من الغرب الاستعماري للسيطرة على فلسطين. كان هناك سباق حثيث بين تقدم الحركة القومية الاجتماعية وسيرها السريع نحو الانتصار في صميم الشعب وبين تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين معتمدة على التفسخ الاجتماعي وضعف الوجدان القومي وغياب وعي الشعب لوحدة حياته ووحدة مصالحه ومصيره في وطنه الواحد. كان كلام سعاده واضحاً جداً وموجهاً إلى الجميع بمن فيهم رياض الصلح خاصة، وفيه وصف ونعت لرياض الصلح ومن مثله بيهود الداخل الحقيرين في ماديتهم، الحقيرين في عيشهم، الذليلين في عظمة الباطل، وإن قول سعاده عن اليهود (الداخليين) الذين باعوا هذا الوطن وهذه الأمة بفضة من اليهود، ينطبق بشكل خاص على رياض الصلح الذي كان قد باع أراضيَ واسعة يملكها في شمال فلسطين لليهود.

الحركة تمتد في الساحل والداخل

لم تكن لغة سعاده في الشام تختلف عن لغته في لبنان، وهذا طبيعي لأن الشعب واحد وأمراضه الاجتماعية واحدة، والحكومتان في لبنان والشام كلتاهما تشكلان ركائز للنفوذ الأجنبي في جميع مفاصل السياسات الحكومية على كل الأصعدة. ففي اللاذقية أعطي سعاده في خطابه صورة عن الصراع المزدوج الذي تخوضه الحركة القومية الاجتماعية ضد التخلف الداخلي والعدو الخارجي معاً، وفي ذلك الخطاب نجد الفقرات الخالدة التي لا يزال يرددها القوميون حتى الآن كالآيات «**...نفتخر بأننا حاربنا بشيء أساسي، بوعينا لحقيقتنا وإيماننا بهذه الحقيقة وبهذا الوعي وهذا الإيمان ظللنا ثابتين وانهزم الأجنبي. إن لنا نفوساً لا يمكن أن تذوب وتفنى، قد تسقط أجسادنا أما نفوسنا فقد فرضت حقيقتها على هذا الوجود ولا يمكن أن تزول. نحن حزب قتال قبل كل شيء، ومن حيث إننا حزب قتال نحن حزب تفكير في القتال وحزب روية في القتال نملك أعصابنا فلا يستفزنا مستفز ساعة يشاء بل نسير إلى القتال بإرادتنا**

ونختار المعركة بإرادتنا لا بإرادة من يفرضها علينا. لذلك هان علينا هذا الصبر الطويل في جهادنا، ولذلك اخترنا أن نقاتل بآلامنا حين رأينا أن الضرورة تقضي بأن نحارب بآلامنا، لكننا لم نختر الآلام عن جبن بل عن شجاعة وجرأة وقوة. وإذا كنا قد اخترنا الحرب بالآلام مرة فلا يعني ذلك أننا سنبقى على الحرب بالآلام بل نحن نستطيع أن نحارب بغير الآلام... لو قضوا على مئات وألوف منا لما تمكنوا من القضاء على الحقيقة التي تخلد بها نفوسنا ولما تمكنوا من القضاء على بقية منا تقيم الحق وتزهق الباطل فيكون انتصارنا أكيداً في حياتنا وبعد موتنا...».

إننا نعتقد جازمين اليوم ونحن نقرأ ونطلع على حركة سعاده وتحضيراته أن أعداءه قد أدركوا أنهم أمام قائد قومي من طراز فريد وممتاز يشق طريقه سريعاً ليصبح عائقاً صلباً قوياً بوجههم، قد أدركوا استحالة وقفه ووقف حركته إلا بقتله...

كانت خطابات سعاده استجابة لتحدي الحكومة لحرية التعبير ولحرية الشعب ولحقه في التعبير عن إرادته، ولذلك كانت عبارات الحرب والقتال والصراع إعلاناً بأن الحركة القومية الاجتماعية مستعدة للحرب... و»أن مرجل النهضة يغلي ويزمجر فالويل ثم الويل لمن يقف في طريقها»... وكأن الحرب قد أعلنت فعلاً، وكأن سعاده قد شعر بما يحضر له ولحزبه من قبل الحكومة بإيعاز وإيحاء صريح من الحركة الصهيونية وداعميها. بل إننا نرجح ذلك بقوة لأن سعاده يقرأ الأحداث قبل وقوعها ويرى الخطر قبل وصوله. ألم يقل لهشام شرابي في رسالته إليه تاريخ 22-6-48 «**إني رأيت كارثة فلسطين من زمان، آتية. وقد أعلنت وقوعها في رسالتي إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السورية في 2 نوفمبر تشرين الثاني 47. وعندما كنت أسمع بالراديو نتيجة جلسة جمعية منظمة الأمم المتحدة التي أقر فيها التقسيم، كنت كأني أسمع حادثاً مضى- رواية تمثل للمرة الثانية لا الأولى أمام ناظري. إن ما يجري الآن هو ماضٍ يعاد تمثيله أمامي وإن أشد ألمي هو أن لا أكون في حالة تمكنني من إنقاذ القضية التي كان ولا يزال ممكناً إنقاذها**». لذلك فإننا نكاد نجزم بأن سعاده كان متوقعاً أن يتعرض الحزب لضربة قوية من أعدائه الداخليين والخارجيين. إن الذي لم يكن يتوقعه أو يعرفه سعاده هو فقط توقيت هذه الضربة.

لقد سبقوه

هنا سؤال كبير يطرح نفسه بقوة وإلحاح وهو: كيف لسعاده أن يتحدى أعداءه جميعهم ويعلن التعبئة والاستعداد للحرب والقتال بهذا الوضوح وهذه العلنية، وهو الذي يعلم أن للحرب والقتال «بالدماء الحارة التي تجري في عروقنا» شروطاً وحاجات مادية وروحية يجب أن تكون مؤمنة قبل إعلان الحرب وإعلان الاستعداد لها، وأقل هذه الشروط والحاجات هي المال والسلاح. إن الشروط الروحية كان نصفها فقط مؤمناً، وهو الاستعداد النفسي لأعضاء الحزب وشدة إيمانهم وقوة إرادتهم وصلابة ومضاء عزيمتهم، أما النصف الثاني فكان يعاني من قصور كبير في الجهوزية الإدارية الداخلية للحزب ونقص خطير في الجهاز القيادي، حيث لا مجلس أعلى ولا مجلس عمد ولا مسؤولين مؤهلين، ولنا من رسالته إلى رئيس وأعضاء مجلس العمد في 26-3-48 خير دليل. أما الشروط والحاجات المادية من مال وسلاح فحدّث ولا حرج، كان الحزب يقاسي الأمرين من الشح المالي بل من الديون التي ترزح تحتها خزينته، وكان سلاحه نادر الوجود لا يتعدى ما لدى أي عائلة من العائلات السياسية في البلاد من قطع سلاح فردية قليلة أغلبها قديم. فكيف له أن يتحدى الجميع بهذه الجرأة وهذه العلنية؟!

إن الجواب هو أن برنامج سعاده كان بحاجة إلى بعض الوقت، فمع الوقت كان سيستطيع الوصول إلى اللحظة التي يمكنه فيها إعلان الحرب.

قلنا إن سعاده كان في سباق حثيث مع أعدائه، لقد أراد تجهيز الحزب للمعركة الحتمية القادمة وأول ما عمله في هذا الصدد هو حلّ مجلس العمد غير المنتج وغير المؤهل لمواجهة ما هو آت، وقد بدأ بالبحث عن العناصر الشابة المؤهلة فشكل مجلساً من وكلاء عمد لتدريبهم وتأهيلهم ليصير للحزب مجلس عمد مكتملاً، أي سلطة تنفيذية تستطيع القيام بدورها، وهذا كان يحتاج إلى وقت. وقلنا سابقاً إنه كان قد بدأ يعد الحزب عسكرياً، في مخيمات التدريب العسكري للرفقاء والمسؤولين معاً، وهذا أيضاً لم يكن قد انتهى بعد وكان بحاجة إلى وقت. إن أعداء سعاده الذين كانوا يرصدون حركته واستعداداته قد سبقوه وحرموه من الوقت الثمين الذي كان يحتاجه.

انقلاب حسني الزعيم

لا نبالغ إذا قلنا إن انقلاب حسني الزعيم في 30 آذار 49 كان الحدث الأكبر في سورية بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك بسبب كونه فاتحة سلسلة أحداث وتحولات كبرى نتجت عنه وانطلقت منه. لقد كان هذا الانقلاب بداية تنفيذ خطة الغرب بقيادة أميركا لوضع اليد على سورية بعد جلاء الجيش الفرنسي عن دمشق قبل سنة (18 نيسان 46)، ولا ننسى أن هذا الجيش انسحب مهزوماً ذليلاً تحت وطأة المقاومة الشعبية العارمة ضده التي بدأت فور انتهاء الحرب وتصاعدت يوم ضرب الفرنسيون دمشق في 29 أيار سنة 45. وكان لا بد من خطة بديلة يعتمدها الغرب لاستمرار سيطرته وتحكمه في حياة ومصالح ومصير السوريين. إن أسلوب الاحتلال بالواسطة الذي اتبعته أميركا كان قد بدأ منذ ذلك الوقت، حيث كانت قد تعلمت أميركا من دروس خيبة وهزيمة الجيش الفرنسي في سورية، فالنفوذ الأجنبي والسياسة الأجنبية والمصالح الأجنبية صارت تنفذ بواسطة أهل البلد أنفسهم: حكومات ولدت بعد الحرب مدينة للمنتصرين في هذه الحرب وهؤلاء لهم الفضل في تنصيبها، جيوش أسسها الغرب والغرب سلّحها ودربها وزرع قادتها ويعرف تفاصيل أحوالها وتركيبها وحجمها وهو الذي كان يتحكم بعقيدتها القتالية حتى بعد جلاء جيوشه المحتلة مباشرة من البلاد، أحزاب ومؤسسات سياسية ومدنية ودينية منخورة بأصحاب الثقافة الغربية فاقدي الوجدان القومي السوري والثقة بإمكانيات الأمة السورية وقوتها. في هذه الأجواء سمع السوريون على الراديو البلاغ رقم واحد من إذاعة دمشق في 30 آذار 49 يعلن عن استلام الجيش للسلطة واعتقال رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم وهما من أركان الكتلة الوطنية التي كانت موالية للغرب والتي استنفد الغرب كل ما كانت تستطيع هذه الكتلة تقديمه له. البلاغات الأولى كان فيها نفس قومي وكأن قوميين اجتماعيين وضعوها أو اشتركوا في وضعها. إن مستوى ثقافة قائد الانقلاب وشخصيته الانتهازية وتاريخه في الجيش لم تكن في مستوى بلاغة وتقدمية هذه البلاغات. رغم ذلك فإن الانقلاب لقي ترحيباً شعبياً بسبب لهجة البيانات وأيضاً بسبب فشل الكتلة الوطنية على كل صعيد (أمل لا يغيب ص 127)، وليس بفضل معرفة الشعب بقائد الانقلاب وخصاله وأخلاقه وأهدافه الحقيقية (راجع الملحق السابع في نهاية هذا الكتاب).

ولا نبالغ إذا قلنا إن خطة قتل سعاده بدأ تنفيذها مع بداية انقلاب حسني الزعيم. وما اللهجة القومية لبلاغات الانقلاب إلا محرضاً لتقرب القوميين منه وشراء ثقتهم به، ويشهد سامي خوري ويقول: «رحب الحزب السوري القومي الاجتماعي (يقصد منفذية دمشق) مع كثيرين غيره بالحكم الجديد واستبشر به خيراً...»(ص 127).

شعار السيادة اللبنانية بوجه الشام فقط

بعد أسابيع من الانقلاب، النقيب «السوري» أكرم طبارة يطارد ويقتل «اللبناني» كامل الحسين العميل بشكل مفضوح للعدو الإسرائيلي، داخل الأراضي اللبنانية. السلطات اللبنانية استطاعت اعتقال النقيب طبارة على الحدود وكأنها كانت عارفة بالحادثة أنها ستقع قبل وقوعها وأنها كانت تنتظر هناك(!). الحكومة اللبنانية تسجن طبارة، وفوراً تنشأ أزمة سياسية بين الحكومتين استعملت فيها الحكومة اللبنانية مفهوم «السيادة الوطنية اللبنانية» كسلاح في صراعها السياسي مع الحكومة السورية. لقد غابت مسألة عمالة كامل الحسين للعدو الإسرائيلي وغاب مبرر النقيب طبارة وحكومته بأنه كان يطارد عميلاً، ولم تحضر وتستفق إلا اعتبارات السيادة اللبنانية «المنتهكة» من قبل السوريين وأن سورياً قتل لبنانياً على أرض لبنانية. إن هذا المفهوم المزور والمشبوه لمعنى السيادة الوطنية في لبنان والذي لا يستفيق إلا بوجه السوريين الشاميين لا يزال سائداً في أوساط الحركات السياسية اللبنانية المتعاطفة مع الغرب. وكان من الطبيعي أن ينبري الحزب ويكلف لجنة من الحقوقيين القوميين لوضع مطالعة قانونية- مذكرة عن الحادثة ليبني الحزب موقفه عليها، ومن الطبيعي أن تأتي هذه المطالعة مؤيدة لمطاردة العملاء وأن حدود سايكس بيكو لا يجب أن تحول دون مطاردة العملاء وأن السيادة الوطنية يجب أن تثار بوجه العدو الحقيقي إسرائيل وليس بين لبناني وشامي سوري.

حسني لا يعرف شيئاً عن الحزب لكن يريد التقرب من الزعيم

الدكتور صبري القباني يطلع حسني، وهو صديقه، على مذكرة الحزب في مسألة النقيب طبارة ويشيد بالحزب وزعيمه وأهدافه، ويسمع من حسني تعليقاً سلبياً جداً عن الحزب ولا يعرف عن القوميين سوى أنهم متهوسون يشتغلون لحساب الملك عبدالله «لا يمكن الاستفادة منهم بشيء» (مذكرات صبري القباني- سعاده والحزب

القومي ص 165). وهذا يؤكد أن لهجة بلاغات الانقلاب القومية لا علاقة لحسني بها وأن غيره قد وضعها وليس هو. هنا يدخل سامي خوري ويقول إن حسني حاول الاتصال بسعاده بعد يومين من الانقلاب (أمل لا يغيب ص 128)، وإذا صح ذلك يكون قباني يجهل محاولة الاتصال تلك. وتقول مصادر مختلفة من الحزب، وصبري قباني أيضاً يذكر ذلك في مذكراته صفحة 165، بأن منفذية دمشق حاولت عدة مرات الاتصال بحسني لتحديد موعد لإجراء مقابلة بينه وبين سعاده بمساعدة بعض العسكريين المقربين من الحزب (من هم؟) والذين اشتركوا في الانقلاب، ولكن هذه المحاولات لم تنجح. كل ذلك وإننا لم نصل بعد لحادثة الجميزة ليل 9- 10 حزيران وإن تلك المحاولات جرت قبل تلك الحادثة.

رأي سعاده الحقيقي بالانقلاب

في مقالة «الأمة تريد نهضة لا حلة» نشرها في الجيل الجديد تاريخ 16-4-49، أي أسبوعين بعد الانقلاب، نقرأ موقف سعاده الحقيقي ورأيه بالانقلاب وأسلوب الانقلابات بشكل عام، يقول: «...الأمة السورية عريقة في الثقافة والتمدن، أمة خصبة النفس، متحركة العقل، أمة شديدة الإحساس بالقضايا العميقة في الحياة. لذلك كانت نهضتها أمراً يختص بصميم طبيعتها ومواهبها المؤهلة لفاعلية عظيمة. فالأمور المفروضة فرضاً بدون تأسيس صحيح في نفسية الأمة لا يمكن أن توصلها إلى غايتها العظمى... الأمة السورية لا تقبل بأقل من نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن. إن الأمة تمر اليوم في طفرة تأليف الأحزاب وتصور الإصلاح في أشكال وأشكال، والحلم بالانقلابات والاهتمام بالانقلابات، خصوصاً بعد حصول الانقلاب في الشام. إن هذه الطفرة هي طفرة خطرة لأنها ناشئة في غالب الأحيان من صميم النفسيات المريضة والقضايا الرجعية والخصوصية. إن الولع بالانقلابات الانتقامية والسعي لحل مشاكل الاستياء الخصوصي والغايات الخصوصية لا يمكن أن يكون حاجة قومية. إن حاجة الأمة هي إلى عقيدة ومبادئ تنشئ جيلاً جديداً ونظاماً جديداً وجمالاً جديداً. إن حاجة الأمة هي إلى حركة تسير بها في طريق البطولة والعز والمجد».

هذا ما كانه الموقف المبدئي الثابت، ونلاحظ بوضوح أنه كان موقفاً سلبياً من الانقلاب ولكنه صيغ بطريقة لبقة بعيدة عن الحرب والصدام والرفض المباشر. أما

الموقف السياسي من الانقلاب فكان سعاده قد صاغه قبل ثلاثة أيام من موقفه المبدئي، أي في 13-4-49. وكان موقفاً من نوع آخر تقتضيه ضرورة الحذر والترقب وفحص الأشخاص وغاياتهم ونواياهم، إلى جانب حفظ أمن الحزب وسلامته وحرية العمل له. يبدي سعاده موقفه السياسي هذا في صيغة مقابلة صحفية مع جريدة الحزب «الجيل الجديد» ويقول بلغة دبلوماسية ولغة من لم يتأكد بعد من خلفية الانقلاب والاتجاه الذي سيسلكه: «إن الحزب القومي الاجتماعي يعمل للإصلاح في الشعب الذي هو مصدر كل إصلاح حقيقي... وإذا نشأت حركة انقلابية كالتي حدثت في دمشق وأخذت اتجاهاً إصلاحياً قومياً اجتماعياً فالحزب يرحب بها... إننا نتمنى للانقلاب الذي حدث في دمشق أن يكون خلواً من العناصر غير سليمة النية... فتجد النهضة القومية الاجتماعية فيه ما يمكنها من متابعة عملها البنائي وإصلاحها الشعبي». وعن سؤال حول رأي الحزب من موقف حكومة الانقلاب من المفاوضة مع العدو للوصول إلى هدنة ثابتة ومن مناورات اليهود، أجاب: «...إننا نهنئ الحكومة الانقلابية والجيش تهنئة حارة للموقف الجازم على الحدود في وجه الغرور اليهودي. إن الأمة السورية تقدر بنهضتها القومية الاجتماعية أن تضرب الغرور اليهودي وتسحقه».

كان واضحاً أن سعاده لم يكن ينظر إلى الانقلاب وصاحبه كصنعة أميركية صهيونية. كان فقط مرتاباً من خلفية الانقلاب والاتجاه الذي سيسلكه، ولم يكن واضحاً له بعد من هي القوى والأطراف التي دفعت إليه وأمنت له فرصة النجاح. لا سعاده ولا غيره كان قد وصل إلى معرفة كل خفايا خطة «الفوضى الخلاقة» التي برهن تسلسل الأحداث وسلسلة الانقلابات في الشام أن هذه السياسة بدأت فعلياً سنة 49 وليس سنة 2000 عندما أعلنت رسمياً وصراحة على لسان إدارة الرئيس الأميركي بوش.

معالجة الحمى بقشور البطيخ

سعاده كان مسكوناً بهاجس توحيد القوى السورية وحشدها لصيانة حقوقها ومصالحها، وكان يرى في أي خطوة تقارب أملاً جميلاً وإشارة خير يريد أن يقويها وينميها كفرصة يمكن استثمارها والبناء عليها. لذلك نراه قد تعلق بحدث زيارة نوري السعيد إلى حسني الزعيم في دمشق، وأرادها أو تخيّلها أن تكون بداية إدراك الحكومات لحاجة شعوبها، حتى إنه رأى فيها تطوراً خطيراً ستكون له نتائجه بعيدة المدى في المسائل

الأنترنسيونية المهمة. فلنقرأه في مقالة «الدول السورية تستفيق تاريخ 21-4-49 أي بعد الانقلاب بـ 22 يوماً وقبل استشهاده بأقل من ثلاثة أشهر يقول: «أخيراً وبعد نكبات كيليكيا والاسكندرون وفلسطين أخذت الدول السورية تستفيق إلى ما أعلنته الحركة القومية الاجتماعية من وحدة الحياة ووحدة المصير وإلى وجوب توثيق الروابط فيما بينها أولاً. ما كاد الانقلاب يحدث في الشام حتى جرت محاولة لتوثيق الروابط بينها وبين النهرين، فزار رئيس وزارة العراق (نوري السعيد) من بضعة أيام دمشق واجتمع بأركان حكومة الانقلاب السورية ووضعت في هذا الاجتماع قواعد التفاهم بين الدولتين السوريتين التي يقال إنها تتمدد إلى لبنان. تدل هذه الخطوة على أن الحكومات قد بدأت تقترب من حاجات شعوبها وأن سياسة الدولة في هذه الحكومات قد ابتدأت تدخل في تطور خطير ستكون له نتائجه البعيدة تجاه المسائل الأنترنسيونية الهامة».

يا ترى هل كان سعاده حالماً يعول على سراب وعلى ما سمّاهم هو نفسه في مقالتيه السابقتين «الأمة تريد نهضة لا حلة، والمبادئ القومية الاجتماعية هي وحدها طريق الإنقاذ»، حاكمين يحل محلهم حاكمون آخرون يقومون على أساس القضايا الفاسدة عينها وهو أشبه شيء بمعالجة الحمى بقشور البطيخ؟ أم أن سعاده كان يسلف حسني كلاماً حلواً تمهيداً للمقابلة المقبلة بينهما؟ (عقدت في 27 أيار).

هل هذه كانت نقطة ضعف سعاده بأنه يثق بمن ليس جديراً بالثقة ويعول عليه، أم أنه لم يكن مخدوعاً ومغشوشاً أبداً لا بنوري ولا بحسني بل كان يثق بقدرته على استيعاب هذا الأخير ويحتويه عندما سيقابله بعد قليل؟

لكن سعاده يعود في مقالته «خلاص الأمة في وعيها الاجتماعي» تاريخ 13-5-49، أي قبل مقابلته مع حسني، ويقول: «الخلاص لا يبحث عنه في الحكومات بل في الشعب»، وأيضاً: «لكن موقف مصر ونصائح بعض الدول الكبرى كانت على ما يظهر أقوى مما أمكن الحكومة الانقلابية احتماله. وإن قضايا الدول السورية الخصوصية لا تزال متقلبة بعوامل الرجعة والإرادات الأجنبية المتداخلة في كل شأن من شؤونها السياسية». ويضيف بأن «مصر وصحافتها قد حاربت قائد الانقلاب بمجرد ظهور اتجاهه نحو التقارب بين الشام والعراق، إلى أن طار حسني الزعيم إلى مصر وتفاهم مع الساسة المصريين» (الأعمال الكاملة ج 8 ص 365).

ذروة التحدي في خطاب برج البراجنة

في هـذا الوقت بالذات، وقبل مقابلته الأولى مـع قائد الانقلاب بوقت قصير، يعلن سعاده موقفاً تاريخياً بارزاً كما يلي:

«إني أعلـن محق تلك الدولة الغريبة ليـس بقفزة خيالية وهمية بل بما يعده الحزب من بنـاء عقائدي وحربي يجعل من سـورية قوة حربية عظيمة تعـرف أن انتصار المصالح في صراع الحيـاة يقـرر بالقوة بعد أن يقرر بالحق... إن محق تلـك الدولة الجديدة المصطنعة هـو عمليـة نعرف جيداً مداهـا، لأن وراء الدولة اليهودية الجديـدة مطامع دول أجنبية كبـيرة تعمل وتسـاعد وتبذل المال وتمد الدولة الجديدة بالأسـاطيل والأسـلحة لتثبيت وجودها».

«إن الدولـة اليهوديـة تخـرّج اليوم ضباطاً عسـكريين، وإن الدولة السـورية القومية الاجتماعيـة التي أعلنتها سـنة 1935 تخرّج هي أيضاً بدورها ضباطاً عسـكريين. ومتى ابتدأت جيوش الدولة الجديدة الغريبة تتحرك بغية تحقيق مطامعها الأثيمة والاسـتيلاء على بقية أرض الأبناء والأحفاد ابتدأت جيوشـنا تتحرك لتطهير أرض الآباء والأجداد ومـيراث الأبناء والأحفاد من نجاسـة تلـك الدولة الغريبة! هـذا ليس الجواب الأخير نعطيه لأن الجواب الأخير سـيكون في سـاحة الحرب متى قررت القيادة القومية إعلان الحرب» (من خطاب برج البراجنة في 31-5-49 أي بعد مقابلة حسني بأربعة أيام).

كانت تلك أول مرة يعلن فيها سعاده أن الحزب يخرّج ضباطاً عسكريين، وكانت هذه أول مرة يعلن فيها أن القيادة القومية هي بحاجة لبعض الوقت قبل أن تعلن الحرب.

هذا الإعلان من سـعاده، وبهذه اللهجة والنبرة والصيغة العالية الاحترافية القيادية المتفوقـة، قـد فهمـه العـدو جيداً. لقـد كان الصخـب والضجيـج عظيماً في الأوسـاط السياسـية والشـعبية خارج الحزب. كانت المظاهر صاخبة كبيرة ولكنها كانت عشوائية غـير منظمة وغير قائمة على قضية صحيحة واضحة، كانت مبنية على أسـاس من ولاء ديني لا يشمل جميع قوى الأمة وغير صالح لقيادة عمل قومي منظم يستطيع الانتصار. أمـا سـعاده فقد أدرك أعداؤه بسرعـة أنه قوة نوعية جديدة تنمو وتكبر وتشـكل خطراً حقيقياً، فتحركوا بسرعة لتطويقه والقضاء عليه.

إن سعاده كان قد توقع عجز وبالتالي فشل وانهزام كل التحركات الاعتباطية الصاخبة التـي كانت تقودها «لجنة الإنقـاذ وجيش الإنقاذ». ها هو يـسرد، في نفس الخطاب، ما كان يحدث ويقول: «عندما ابتدأت معارك العقلية السقيمة ضد قيام الدولة اليهودية في الجنوب أرسلت منفذية حيفا في الحزب إلى المركز تطلب جواباً يعين موقف الحزب من الاتجاه الحربي القائم. فكان جواب الحزب أن المركز لا يثق يالقيادات التي تسير القوات السـورية إلى الحرب، ولا يثق بالقضايا التي تسير فيها تلك القوات، والحزب يعرف أن الصفوف الأمامية التي تسـيرها تلـك القيادات العاجزة وقضاياها المائتة سـتنهار لأنها صفوف غير مؤسسـة في حقيقة قضية قومية صحيحة. إن حقيقة قضية فلسـطين هي في عقيدة أمة حية وإرادة قومية فاعلة تريد الانتصار. إننا كنا نعلم علم اليقين أن الصفوف الأمامية المقسمة غير الجديرة بالانتصار والسائرة إلى المجابهة بلا قضية واحدة ولا إيمان واحـد، سـتنكسر وتخذل في المعركة. ولذلـك كان جوابنا لمنفذية حيفا أننا سنسـتمر في مهمتنـا الرئيسـة تجاه هـذا الخطر، وهي: بناء الصفـوف الخلفية التالية التي سـتتقدم إلى مجابهـة العـدو بنظامها المتين وعقيدتهـا القومية الاجتماعية الصحيحـة النظامية، بعد أن تسـقط الأمامية. والنهضة القومية الاجتماعية تتقدم اليوم في صفوف جديرة بالانتصار لأن في صفوفنـا إرادة أمة حية لا أمم في طوائـف ودول في حكومات قزمية غير جديرة بالاضطلاع بمسؤولية تقرير المصير القومي».

هذه كانت مقدمات وأجواء ما كان يعمله سعاده ويقوم به، وكان في سباق مع الوقت الـذي لم يمهله، وهـي المقدمات والأجواء التي عجلت في وضع خطة قتله للقضاء على أي فرصة أو عمل يحاول الوقوف في وجه قيام الدولة اليهودية وتثبيتها.

والمهـم كثـيراً أن نعرف أن ما كان يعمله سـعاده ويقوم به كان، مع حاجته إلى الوقت، بحاجـة إلى فريـق كبير من القياديين العارفـين الفاهمين المؤهلين، ولم يكـن بحاجة أبداً لما كان يثـيره أعوانه من قضايا ومشـاكل فئوية تلهيه وتشـده إلى الوراء وتشـغله بمشـاكلها وتصرفـه عـن البناء الـذي كان يعدّه. ولتوضيـح ما نعنيه ولإلقاء الضـوء على نوع تفكير هؤلاء الأعوان وعلى مستوى اسـتعدادهم النفسي ومسـتوى مؤهلاتهم، يمكن الرجوع إلى رسالته إلى رئيس وأعضاء مجلس العمد التي نوّهنا عنها فوق تحت عنوان «مجلس عمد لا يعمل»، وأيضاً إلى مذكرته إلى المسؤولين المركزيين التي نشرناها تحت نفس العنوان.

إننا اليوم إذ نستعرض هذا التاريخ بعد سبعين سنة من حدوثه يحق لنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت سعاده يقوم بعمل ثوري مسلح في وقت لم يحن بعد، وفي ظروف غير مؤاتية. كيف لسعاده أن يعلن ثورة مسلحة انطلاقاً من بيئة أمنية وسياسية خارج الحزب مراوغة ومريبة وغير بريئة إذا لم نقل خطرة وسيئة بل معادية له بالكامل، ومن بيئة حزبية داخلية أقل ما يقال فيها إنها فقيرة في الإمكانيات والمؤهلات القيادية لدى المعاونين وفاقدة كلياً للمحفزات والاستعداد النفسي والعملي وعاجزة عن مواكبة قائدها وتنفيذ خططه وبرنامجه؟! وذلك بالرغم من أن سعاده كان مشهوراً بحسن قراءته للتاريخ وحسن تقييمه للأحداث واتجاهاتها وللأشخاص ومستوى وأنواع مؤهلاتهم. فها هو يقرأ أحداث فلسطين وتطور قضيتها، وهي من أصعب وأعقد القضايا في التاريخ القديم والحديث من حيث تعدد وتشابك عواملها المادية والروحية ومن حيث التقاء وتحالف الاعتقادات الدينية اليهودية بالشعب المختار وأرض الميعاد مع المصالح المادية الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية للدول الاستعمارية الغربية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى والثانية، ويقول إن محق الدولة اليهودية الجديدة هي عملية نعرف جيداً مداها... وعندما انهزمت الجيوش العربية في فلسطين وصدر قرار التقسيم وأنشئت الدولة اليهودية قال إن ذلك بالنسبة له كان مشهداً كأنه رآه من قبل...

إن سعاده هذا، على هذا المستوى من الرؤية التاريخية ومن فهم التاريخ وعلى هذا المستوى من المسؤولية القيادية «لنهضة هزت قروناً»، ومن زعامة في الفكر والعلم والإدارة والقيادة، كيف يقدم على ثورة مسلحة تدل كل الدلائل والإمكانات المحيطة أنها ستفشل وتنتهي بمأساة؟!

إن الجواب الوحيد المقبول والتفسير الوحيد المعقول هو: لا، إن سعاده لم يكن بصدد القيام بثورة مسلحة في ذلك الوقت أبداً. كان يبني الحزب ويعد العدة، نعم، ولكن لم يكن قد وصل إلى المرحلة التي يعلن فيها الحرب.

المقابلة الأولى

نعود إلى السياق التاريخي لهذا البحث. يقول قباني إنه تمكن أخيراً من إقناع حسني بمقابلة سعاده وإن الموعد تحدد الساعة الثامنة من صباح الجمعة 27 أيار 49. (أسبوعان

قبل حادثة الجميزة). أما نحن فنعتقد أن حسني هو الذي بادر وعيّن الموعد وأبلغه إلى قباني وكلفه بترتيب اللقاء بعد أن حصل حسني على الضوء الأخضر من أعلى... أما قباني فطبيعي أن يدّعي أنه هو من أقنع حسني، مثله مثل كل الذين يعطون لأنفسهم أدواراً أكبر منهم. وقباني يقول إن سعاده وصل إلى دمشق الرابعة فجر ذلك اليوم (مذكرات صبري قباني ص 167)، ويتابع روايته ويقول إنه أراد أن يتأكد من استمرار حسني بمقابلة سعاده والتزامه بالموعد المحدد، ذلك لمعرفته بطباع حسني وتقلبه وعدم التزامه بوعوده ومواعيده، فذهب إلى بيت حسني الساعة 30, 7 صباحاً فوجده يستعد للتوجه إلى الجبهة مهملاً موعده مع سعاده دون اعتذار أو حتى علم وخبر بتعذر اللقاء. فما كان من صبري إلا أن أصرّ على حسني شارحاً له أهمية سعاده وحزبه وأهمية اللقاء به وضرورة إعطائه الأهمية القصوى لأنه من المتوقع أن ينجم عنه نتائج حاسمة وتاريخية. فأعاد حسني تحديد الموعد الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه. إلى الآن رأينا كيف أنه لا منفذية دمشق ولا العسكريين القوميين الذين اشتركوا بالانقلاب نجحوا في ترتيب لقاء بين الرجلين، وسنوضح السبب بعد قليل، أما قباني فإنه لم يسعَ وينجح فقط في ترتيب اللقاء بمتابعة وإصرار، كما يقول، بل قام أيضاً بما يشبه التحذير والتنبيه بالإفصاح عن حقيقة رعونة حسني وطباعه السيئة ومستوى ثقافته المتدني. قال قباني لسعاده: «إن رجل الانقلاب فريد من نوعه، غريب في أطواره، فالوطنية والقومية والعقائد والمبادئ كلمات لن تجد طريقها إلى قلبه، ولا تغرّنك البلاغات والإذاعات فهي من وضع أكرم الحوراني وشاكر العاص وعلي بوظو. سيقطع عليك الحديث مراراً ليحطم تسلسل أفكارك. ستستمع إليه أكثر مما سيستمع إليك. لذلك أرى أن تتسلح بالصبر ورحابة الصدر أكثر مما هو مشهور عنك. ولنجاح مهمتك أرجو أن تستمع إلى جعجعاته وتبجحاته مهما طالت وأن تظهر له في أول اجتماع مدى قوتك وقوة حزبك، فهو لا يدين إلا بدين القوة ولا يحترم إلا ذي المظهر القوي» (ص 170). لا شك عندنا أن سعاده كان عارفاً بشخصية رجل الانقلاب، ليس فقط مما أوضحه له قباني وحذّره منه بل قبل ذلك أيضاً من مصادر مختلفة، من جبران جريج وغيره (مع أنطون سعاده ج 4 ص 150)، ومن العقيد قيصر يمّين (انظر الملحق رقم 7)، وإن موقف سعاده المتحفظ من الانقلاب ومن أهداف الانقلاب منذ يومه الأول دليل على ذلك. فسعاده كان مرتاباً ويراقب ولم

يكـن مطمئناً ولم تكف اللهجـة القومية للبلاغات الأولى للانقـلاب في تطمينه، وهو قـد لفت نظـر عبدالله قبرصي الـذي أحرج الزعيـم في احتفال عـام في حدث بيروت ودعاه علناً ليلقي كلمة ويعلن موقفه وموقف الحزب من الانقلاب، وقال له: «**إنكم أخطأتـم بإبداء رأي في حادث سـياسي خطير بدون سـابق دراسـة ومداولة وموافقة، خصوصاً وأنتم تقومون بوظيفة رئيس الشـعبة السياسية اللبنانية. إنكم أخطأتم خطأً أشد بتوجيهي نحو موضوع الحادث السياسي المذكور لأتكلم فيه مع أني كنت أفضل التحفظ في هذا الموقف**» (رسالة إلى قبرصي في 3-4-49).

(عبـد المسـيح يقول إن رجـال الأمن الذيـن اندسـوا في احتفال الحدث هـم الذين حرضـوا قـبرصي ليطرح سـؤالاً علنياً على الزعيم عـن رأيه بانقلاب حسـني (بدأ جمراً وانتهى رماداً ص 181).

رغـم ذلـك فإننا نعرف أن سـعاده كان يريد ويحـرص على مقابلة حسـني، فمنفذية دمشـق لا تبادر من تلقاء نفسـها وتسـعى لترتيب مقابلة بين حسـني وسـعاده دون أن يكـون سـعاده نفسـه هو من أوعز لهـا بذلك. ولا بد أيضاً أن سـعاده يعـرف بأن رجلاً هـذه صفاته وهـذه طباعه وهو على هذا المسـتوى المتـدني أدبياً وعلميـاً وثقافياً، ويقود انقلاباً عسـكرياً ناجحـاً، مع ما يتطلبه هـذا النجاح من مخابـرات ومعلومات وتخطيط وتنفيذ وقيادة، لا بد من أن تكون وراءه قوى تحركه وتوفر له سـبل النجاح، ولا بد أن يكون هذا الانقلاب موظفاً لخدمة أهداف القوى التي خططت له من الأساس. ولا بد لسـعاده أيضـا أن يعرف أن القوى الأجنبية لا تختار عملاءهـا وعمالها من النخبة المثقفة التـي تتحلى بحد أدنى من الإخـلاص والأخلاق والوطنية، بل مـن أصحاب الرعونة والمسـتوى المتدني أخلاقياً ووطنياً (انظر الوثيقة التي تثبت الشـذوذ الأخلاقي لحسـني الزعيـم، في بـاب الملاحـق في نهاية هـذا الكتاب). أيضـاً، إن ما تبين من فشـل منفذية دمشـق في تحقيق رغبة سـعاده في لقاء حسني رغم وجود عسـكريين قوميين اجتماعيين أو أصدقـاء مقربـين من الحزب في الفريق الذي نفذ الانقلاب واشـترك في وضع بياناته وبلاغاته التي تحمل شـيئاً من مفاهيم الحزب وأهدافه وغايته، إن هذا الفشـل يعبر إما عن تهرّب ومماطلة حسـني الذي لم يتلقَّ الضوء الأخضر بعد من مرجعه الأعلى بسـبب عدم نضوج الظروف والوقت حسـب الخطة الموضوعة سـلفاً، وإما عن ضعف إمساك

«مكتب م.أ.م» بالجهاز العسكري المفترض أن يكون عاملاً بتوجيه منه، وهذا يعني بدوره تدني أو انعدام تقدير هؤلاء العسكريين أنفسهم لخطورة شخصية مثل شخصية حسني الزعيم وحقيقة ارتباطاته المشبوهة، فتورطوا معه وعملوا تحت قيادته لخدمة أهداف يدرون أو لا يدرون من هم أصحابها الحقيقيون. عصام المحايري بصفته منفذ عام دمشق آنذاك يذكر بعض أسماء هؤلاء العسكريين القوميين، هكذا: «أن تكون السلطة العسكرية الجديدة سلطة يشارك فيها عناصر بارزة عرف عنها تعاطفها وتأييدها للحزب السوري القومي الاجتماعي، فبعضها كانت السلطات الفرنسية العسكرية لاحقته واضطهدته بدعوى انتمائه إلى الحزب، كما أن بعضها كان ممن قاد عمليات الثورة بالتعاون مع الحزب ضد الحكم العسكري الفرنسي عام 45 مثل أديب وصلاح الشيشكلي والعقيد طلاس والعقيد حبي والعقيد شلاش وغيرهم...» (أنا عصام المحايري أشهد- صباح الخير 4-7-87 ص 25).

وهذه حلقة من الحلقات العديدة التي تشكل سلسلة العوامل الحزبية الداخلية التي تجمعت وساعدت في خسارة الحزب لزعيمه، وكانت في نظرنا أسوأ فصول تاريخ استشهاد سعاده.

مناورة حسني ومضمون المقابلة الأولى

قبل أن نتطرق إلى ما دار في اللقاء من ناحية مضمون المواضيع التي طرحت ونوقشت لا بد من الوقوف والتمعن ملياً بما حدث من مغادرة حسني لبعض الوقت وعودته، يقول قباني: «وعند الساعة الثامنة كان سعاده وبعض مرافقيه والدكتور قباني يجلسون في غرفة الاستقبال في منزل حسني الزعيم. دخل حسني عليهم فعرّفه د.قباني على سعاده ومرافقيه. وفيما هم مجتمعون جاء مدير الشرطة العسكرية المقدم إبراهيم الحسيني فخرج حسني من الاجتماع وعاد ليعلن أنه قد زجّ في السجن جميع أعضاء حزب البعث العربي وعلى رأسهم ميشيل عفلق. لم يعلق أحد من الموجودين في غرفة الاستقبال بكلمة على هذا الحادث... بعد ذلك تكلم سعاده...»

إن خروج حسني مع إبراهيم الحسيني وعودته بعد قليل تجعلنا نتساءل عن الغرض من الخروج كما عن الغرض من إعلانه للحضور أنه زجّ جميع أعضاء حزب البعث في

السجن بمن فيهم ميشيل عفلق. كما يجعلنا نتذكر أنه تخلف عن اللقاء في الثامنة صباحاً دون اعتذار ثم عين موعداً آخر الثامنة مساء. إن أسباباً كثيرة تجعلنا نعتقد أن تغيير اللقاء من الصباح إلى المساء لم يكن لأن حسني نسي أو أهمل أو أنه لم يكن مهتماً باللقاء، لا، إن حسني الزعيم كان مهتماً كثيراً باللقاء وكان يريده ويطلبه، إنه جزء من مهمته وما هو مطلوب منه أن يفعله، وهناك معلومات مؤكدة عن مبادرة حسني الزعيم بطلب لقاء سعاده في اليوم التالي للانقلاب وكان وسيطه العقيد توفيق بشور الذي استعان بنجيب بولس لإبلاغ سعاده. يروي ذلك بالتفصيل والأسماء والشهود حنا توفيق بشور (من ذاكرة أبي- ذكريات العقيد توفيق بشور صفحة 137- 140). لكن حسني لم يتابع الاتصال.

عودة إلى لقاء 27 أيار، إننا نعتقد جازمين أن تأجيل اللقاء من الصباح إلى المساء كان بسبب انتظار حسني خبر معين أو تعليمات معينة من جهات أعلى منه لم تكن قد أتت بعد، وإن دخول إبراهيم الحسيني وخروج حسني معه كان لتبليغه الخبر أو التعليمات التي وصلت متأخرة في تلك اللحظة، وما إعلان خبر زج عفلق وأعضاء حزبه في السجن إلا تبريراً للخروج والعودة ولإرضاء سعاده ومرافقيه اعتقاداً من حسني أنهم سيرتاحون لهذا الإعلان، أو حتى ليظهر لهم بأسه وسطوته ويجعلهم يتحسسون رؤوسهم هم أيضاً. إن أسباباً كثيرة تجعلنا نعتقد بأن اللقاء كله كان مخططاً له أن يتم بهذا الشكل، وإن فشل مساعي منفذية دمشق لترتيبه وتحديد موعده ثم نجاح قباني في ذلك إن هو إلا بسبب أن اللقاء لم يكن قد حان موعده بعد حسب الخطة الموضوعة له من قبل أجهزة المخابرات الغربية والصهيونية. وقد قلنا إن سعاده منذ اليوم الأول للانقلاب كان مرتاباً منه ولم ينفعل ولم يتخذ موقفاً جازماً نهائياً منه، لكن سعاده ما كان يفوت فرصة إلا ويحاول أن يستفيد منها لخدمة القضية القومية ولم يكن إلا مبادراً يبحث عن الفرص في كل مكان. وربما هذه الميزة عند سعاده هي ما أدركها أعداؤه واستفادوا منها ليعطوه فرصة أو ليزينوا له فرصة أو إمكانية فرصة معينة كي يقدم ويبادر.

مضمون اللقاء الأول وروايتا قباني وقدورة

هذا عن المناورة، أما عن المضمون فقباني في مذكراته يقول إن سعاده اعتبر اللقاء موفقاً كل التوفيق، بل إن قباني ينقل عن سعاده أنه تم الاتفاق على نقاط وبنود ومراحل

متقدمة جداً، لكننا نحن لا نعتقد أبداً أن ما نقله قباني عن لسان سعاده كان صحيحاً. إن ما زعم قباني أنه تم الاتفاق عليه يتطلب أكثر بكثير من لقاء دام حوالي ساعة واحدة من الوقت، خصص جزء منه للتعارف والخروج ثم الدخول. لا بد أن قباني قد استرسل كثيراً وتكلم عن طموحه وتمنيه وتصوره هو وليس عن حقيقة ما حصل فعلياً في اللقاء. يقول قباني إن الرجلين قد اتفقا على أن سورية الطبيعية الجغرافية هي وحدة لا تتجزأ وليس من المعقول أن تخشى الدجاجة (لبنان) من القمحة (الشام) إذا ما تساندا واتحدا، إذ إن الشام هي السوق الحقيقية للبنان والتي تقدم إليه كل ما يحتاجه من مواد أو غذاء. وللوصول إلى هذا الهدف، يتابع قباني، تعهد سعاده بتهيئة الأذهان داخل لبنان وتعهد حسني في المقابل بدعم الحزب دولياً. وقبل الطرفان بقاء لبنان جمهورية حتى يتم تحقيق الأسس الحيوية الهامة وهي توحيد التمثيل الخارجي وتوحيد الدفاع العسكري واعتبار البلدين دورة اقتصادية واحدة. هذا ما يزعمه قباني أو يتمناه، إنه تم الاتفاق عليه خلال اللقاء، وهذا ما لا يمكن برأينا أن يتم في هذا الوقت القصير من اللقاء الأول بين رجل علم ومعرفة وقضية ورجل أرعن قليل الثقافة فقير المعرفة.

لم يتكلم قباني أبداً عن مسألة تحريض حسني لسعاده على الثورة ضد حكومة لبنان واستعداده لمدّ سعاده بالمال والسلاح والرجال، فهذا الموضوع لم يحن أوانه بعد وحادث الجميزة لم يحدث بعد وضربة الحكومة اللبنانية للحزب لم تبدأ بعد، فنحن بعد على مسافة أسبوعين من ذلك، وقباني لم يكن في تلك الأجواء، وسعاده لم يشأ أن يخبر قباني عن فحوى وتفاصيل الاجتماع. أما أديب قدورة فعنده خبر آخر. يقول قدورة إن سعاده كان قد طلب منه مرافقته إلى دمشق للاجتماع مع حسني الزعيم، وقد رافقهما أيضاً من دمشق عصام المحايري ومعروف صعب اللذان بقيا في الصالون ولم يدخلا غرفة الاجتماع مع سعاده وأديب. قدورة يقول كشاهد عيان إن حسني تحدث عن ضرورة قيام انقلاب في لبنان ليتوافق مع الحكم الجديد في الشام، ولكن سعاده رد بأن الحل في لبنان لا يكون بتغيير عهود وسياسيين بل بنهوض الشعب بواسطة المبادئ القومية الاجتماعية التي تعرّفه على نفسه وعلى مصالحه...الخ كما اقترح على حسني أن يتعرف أكثر على الحزب ومبادئه تمهيداً لاجتماع آخر نبحث فيه كيف نوحد المجتمع السوري كله (حقائق ومواقف ص 61). إن ما رواه أديب قدورة هو الصحيح، فأديب كان شاهد عيان أما قباني فكان ينقل تصوراته ليس إلا.

تحريض مزدوج من حكومتي دمشق وبيروت لسعاده كي يقوم بانقلاب مسلح في لبنان

بين أيدينا أكثر من مرجع واحد يحكي عن انقلاب مسلح للحزب القومي ضد حكومة لبنان سنة 48- 49. تبدأ القصة من دسّ ضباط من الجيش اللبناني وانتمائهم إلى الحزب، في «شعبة السلك»، وعملهم ودفعهم باتجاه التزيين لسعاده أن الانقلاب العسكري ممكن وأن حظوظ نجاحه كبيرة جداً. فها هو جبران جريج يخبرنا بما يشبه المباهاة ويقول: «ولإعطاء فكرة عن قوة هؤلاء الضباط في شعبة السلك فإني أسمح لنفسي بأن أعلن أن عددهم يتجاوز العشرات من مختلف الرتب...» (مع أنطون سعاده ج 4 ص 87). ويروي جريج عن قصة الانقلاب ما يلي: «بدأ الزعيم يدرس فكرة الانقلاب التي اقترحها عليه بعض الضباط الأعضاء في شعبة السلك التي أرأسها، خصوصاً من قبل الرفيق معين حمود الذي كان يلح ويلح كثيراً... كانت الخطوة الأولى أن أمرني بدعوة بعض الضباط للتعارف ففعلت ولكن كانت دهشتهم كبيرة عندما التقوا في دار الزعيم وبينهم رئيس الشعبة الثانية الحسواني». (سنعرف بعد قليل أن الحسواني كان عميلاً مدسوساً في الحزب). يتابع جبران: «والتقى في إحدى القرى القريبة من بنت جبيل بأديب الشيشكلي الذي كان على رأس فرقة من المتطوعين للدفاع عن فلسطين ضد اليهود يعاونه في القيادة شقيقه الرفيق صلاح وأكرم الحوراني... واستدعى الحسواني وسأله بصراحة كلية وثقة تامة فيه: ماذا يكون موقف قائد الجيش في حال القيام بانقلاب ونجاحه؟ فكان جواب الحسواني: يؤدي التحية ويطيع الشرعية الجديدة، (لاحظ رغبة الحسواني بتسهيل الأمر على الزعيم وتحريضه). يتابع جريج ويروي كيف ولماذا رفض سعاده مشروع الانقلاب المعروض عليه وينقل كلام سعاده التالي: «قلبت الموضوع من كل جوانبه وبقطع النظر عن إمكانات النجاح أو الفشل، توصلت إلى قناعة أخيرة أنه لا يجوز أن يسجل التاريخ أن الحزب طعن الجيش اللبناني الرابض على الحدود لمحاربة العدو اليهودي طعنة في الظهر». هذا ما قاله الزعيم لجبران كونه مسؤولاً عن السلك، أي عن الرفقاء العسكريين في الجيش اللبناني، أما ما قاله لهؤلاء بالضبط فيرويه جبران كالتالي: «ناقش الزعيم الضباط القوميين في هذا الأمر الخطر طيلة الليل وكان يجابههم بالرفض والحجج العسكرية والروح القومية وأخيراً أمهلهم قائلاً لهم: سأعطيكم الجواب النهائي غداً بعد أن أدرس الموضوع من كل

نواحيه العسكرية والسياسية والقومية. وفي اليوم التالي حضروا في الموعد المضروب وكان اعتقاد الضباط أنهم تمكنوا من إقناع الزعيم بالانقلاب، ولكنه واجههم وقال لهم: «إني لا أود أن يسجل التاريخ أنني طعنت الجيش اللبناني في ظهره عندما كان يواجه العدو. نحن القوميين الاجتماعيين مع الجيش اللبناني في مواجهة العدو»» (نفس المصدر ص 88).

أما عبد المسيح فيشرح مطولاً عن التقارير المدفوعة والمفبركة والمرفوعة من المخاتير وعمال المخابرات والأمن العام وكلها تتحدث عن حركة تسلح وأعمال أمنية مشبوهة يقوم بها الحزب في القرى والمناطق والمدن (أيام قومية ج 4 ص 17 إلى 20)، ويقول: «تميزت هذه الفترة من حياتنا الحزبية بإدخال عدد من الأشخاص في صفوف الحزب، دسّهم الملاك الرسمي في الدولة ليكونوا شهوداً عندما تقع الواقعة...).

كما يتحدث عبد المسيح عن تحريض حسني الزعيم لسعاده للقيام بانقلاب مسلح ضد حكومة لبنان، وإن كان العم يضع هذا التحريض في خانة استعمال الحزب والتهديد به تجاه حكومة لبنان لابتزازها وتخويفها ودفعها للتنازل في خلافها مع حكومة الشام. هكذا كان تصور وتحليل عبد المسيح وجبران وغيرهما من أعوان سعاده المحيطين به، وهو تصور وتحليل بسيط لا يرى أبعد من قضايا الخلافات بين حسني ورياض. أما الحقيقة والوقائع التي ظهرت لاحقاً فقد كانت غير ذلك تماماً، لقد كانت خطة صهيونية- إنكليزية- فرنسية- أميركية لتوريط سعاده وإمساكه بالجرم المشهود تبريراً للتخلص منه ومن الحزب. أما حكومات لبنان والشام فكانت أدوات طيعة أدوارها مرسومة ووظائفها محددة وهي قد نفذتها بكل دقة «وإخلاص».

وهذا مثل آخر عن التحليل البسيط للأحداث الذي كان متداولاً بين المحيطين بسعاده في ذلك الوقت: «إن القائد حسني الزعيم رأى أن يجتمع إلى الزعيم بعد أن رأى موقفنا الموضوعي القانوني البعيد عن الطائفية (يقصد الموقف من قضية مقتل كامل الحسين)، فكانت مخابرات تمت على أثرها المقابلة الأولى...» (جورج عبد المسيح- أيام قومية ج4 ص 28)، وكأن حسني الزعيم بعيد عن الطائفية ويهمه البعد عن الطائفية. وعاد العم فوراً في الفقرة الثانية ليقول: «لم يكن حسني مخلصاً في عمله هذا، لقد تبين من

الزيـارة– المقابلة الأولى أنه يريد أن يلعب ورقة الحزب ضد حكومة لبنان...» ويكمل: «لقـد عـرض حسـني في الحديـث إلى ضرورة قيام الحـزب القومي بانقلاب مسـلح في لبنـان... فبـيّن لـه الزعيم صعوبة الأمـر لأن الحزب مـع قوته ومتانـة تنظيمه لا يملك سـلاحاً للقيام بهذا العمل، فعرض حسني أن يقدم هو السلاح للحزب، عرض تقديم سلاح لثلاثة آلاف محارب» (ص 29). «أما بشأن السلاح والانقلاب فقد أعلن الزعيم أنه سـيعطي الجواب في حينه على أن يصار إلى اجتماعات أخرى ومقابلات تدرس فيها الأمور بصورة أوضح توصل إلى النتائج بأقل التضحيات وآمن السـبل». وهنا نلاحظ أن عبد المسيح لم يفهم موقف سعاده على حقيقته وهو الحذر والتحفظ وعدم الانسياق مـع التحريـض، بل فهمه وفسّره بشـكل مختلف فقال: «وكان قصد سـعاده أن ينال ثقة حسـني لتوجيه الحكومة في دمشـق توجيهـاً قومياً اجتماعيـاً» (ص 29)، (أديب قدورة كان حاضراً مع سـعاده في الاجتماع مع حسـني وقد روى الوقائع بشكل أكثر وضوحاً وتفصيلاً). كما نلاحظ أيضاً أن حسني يحاول خداع سعاده ويحرضه على رياض الصلح في وقت كان حسني ورياض قد التقيا في دمشق وكان لقاؤهما إيجابياً نتج عنه وعد حسني لرياض بالإفراج عن شكري القوتلي. وهذه الواقعة رواها الأمين أديب قدورة، وأديب هو صهر القوتلي، وقال إنه رأى رياض الصلح في دمشـق، ثم التقى أديب برياض، بناء عـلى طلب الأخير، في بيت أديب في شـارع محمد الحـوت في بيروت، حيث بادر رياض لتطمين أديب أن المساعي مع حسني نجحت وسيتم الإفراج عن القوتلي...الخ (أديب قـدورة حقائق ومواقف ص 107). ويقول أديب إنه أخبر سـعاده عن اجتماعه برياض ونقـل لـه وقائع ما دار بينهـما. وهذا يعني أن سـعاده كان على علم تام باتصال حسـني ورياض وبالدور التحريضي الذي يلعبه حسني معه.

وإني أجرؤ هنا وأبدي اعتقادي بأن الزعيم نفسـه، ورغم معرفته بحقيقة نوايا حسـني التحريضيـة، لم يكـن يحسـب أو يتوقع أن يكون ما يحـدث هو جزء أو مقدمـة من مؤامرة لقتلـه، وأن تكـون مؤامرة قتله قد أخذت هـذا المدى وهذا الحجم وهـذه الأبعاد. لم يكن سـعاده يتصرف حاسباً حساب القتل بل حساب الاعتقال فقط، وكان حتى 30 حزيران، على الأقل، يفكر «بانتهاء هذه الملاحقات» (رسالته إلى الأمينة الأولى في 30 حزيران 49).

تحضيرات الحكومة اللبنانية

عادل أرسلان وزير الخارجية في الحكومة السورية هو لبناني ويحمل الجنسية اللبنانية، كان له دور كبير في تسوية الخلافات بين الحكومتين التي نشأت مع تولي حسني الزعيم مقاليد السلطة في دمشق ووقوف رياض الصلح موقفاً سلبياً منه ومن سلطته بسبب العلاقة السلبية بين الرجلين. وعادل كان له دوره الكبير أيضاً في حفلة المصالحة الطائفية التي رعاها رياض الصلح بين حزبي النجادة والكتائب الطائفيين، فقد شارك عادل أرسلان وخطب في تلك الحفلة (ذكريات الأمير عادل أرسلان صفحة 57).

من المؤرخين من يعتقد أن عادل أرسلان قد نقل «اتفاق» حسني مع سعاده إلى رياض الصلح في 2 حزيران 49 أي بعد لقاء 27 أيار بأسبوع، وأن ذلك أدى إلى ردة فعل رياض، فدعا مجلس الأمن اللبناني إلى الانعقاد في اجتماع مستعجل، وكان مؤلفاً من رياض كرئيس للوزراء وقائد الجيش وقائد الدرك ومدير الأمن العام، وأن هذا المجلس وضع سعاده تحت مراقبة شديدة وقرر مداهمة القوميين والقضاء على الحزب واعتقال سعاده وكبار المسؤولين الحزبيين، (قباني 177). لكن الحقيقة الكاملة هي غير ذلك لأن قرار تصفية سعاده والقضاء على الحزب هي قضية أكبر بكثير من رياض الصلح وردة فعل رياض الصلح على لقاء 27 أيار. إن قرار تصفية سعاده والقضاء على الحزب قد اتخذ قبل ذلك الوقت بكثير، ورياض لم يكن إلا صاحب دور محدد ومعين، ولغيره دور محدد ومعين، وليس من الضرورة أن يكون رياض عارفاً بكل مراحل هذه الخطة وأدوار غيره فيها. إن لقاء 27 أيار لم يكن إلا محطة أو حلقة واحدة من سلسلة حلقات متصلة ومرتبة في سياق خطة القتل. حتى إن رياض نفسه كان دوره قد بدأ قبل حدوث الانقلاب في الشام. أما بعد الانقلاب فرياض قد نزل سريعاً عند رغبة الحكومة البريطانية ولم يطل به الوقت حتى اعترفت حكومته بالانقلاب في 23 نيسان، أي قبل لقاء سعاده بحسني الزعيم في 27 أيار بأكثر من شهر. وقد ذكرنا فوق أن رياضاً كان قد قام بزيارة دمشق واجتمع بحسني الزعيم (هذه الزيارة ذكرها أديب قدورة وشهد عليها في كتابه حقائق ومواقف)، وعندما عاد إلى بيروت أعلن أنه سيقوم بزيارة إلى القاهرة وبغداد لتقريب وجهات النظر تمهيداً للمصالحة بينهما وبين حسني الزعيم (وثائق السفارة البريطانية- مطانيوس يوسف ص 674- 675)

إن دور رياض الصلح وحكومته في قتل سعاده كان قد بدأ قبل لقاء سعاده بحسني في 27 أيار، بل كان قد بدأ قبل انقلاب حسني الزعيم في 30 آذار. كان قد بدأ قبل آذار، وقد بينّا كيف شهد هذا الشهر تضييقاً شديداً من الحكومة ضد الحزب ومنع إقامة حفلات الأول من آذار والتدخل مع صاحب قاعة أوتيل النورماندي في الأشرفية لإلغاء الحجز في آخر لحظة، ثم تطويق بيت الرفقاء فؤاد واسكندر الشاوي الذي انتقلت الحفلة إليه...الخ.

الفصل الرابع

المطاردة والتوريط والاستشهاد
(من 9 حزيران إلى 8 تموز 1949)

نظرية المؤامرة

هل للمؤامرة نظرية؟ وما هي نظرية المؤامرة؟

لا نعرف من كتب لأول مرة عبارة «نظرية المؤامرة» ومن اخترع للمؤامرة نظرية، لكننا نعرف أن كثيرين يردّون أي حدث مكروه أو أية أزمة أو مشكلة إلى مؤامرة منظمة ومخططة ومدبرة تديرها أطراف متسترة. وبذلك ينفون ويستبعدون العوامل الذاتية الداخلية ويضعون اللوم كله على الآخرين، على أصحاب المؤامرة. هذا باختصار شديد ما أصبحنا نسميه اليوم بنظرية المؤامرة. ومثل جميع النظريات، هناك من يبالغ في الأخذ بنظرية المؤامرة لدرجة الهوس فيرد كل أمر أو مسألة أو قضية إلى المؤامرة ونظريتها: فإذا رسب في الامتحان يضع اللوم على مؤامرة مدبرة لإسقاطه، وإذا تعثر أو فشل مشروعه التجاري لا بد أن تكون المؤامرة وراء هذا التعثر، وإذا فسخت الخطوبة أو وقع الطلاق فيجب أن يكون للمؤامرة الدور الخفي في وقوع ذلك.

وفي المقابل هناك من يبالغ أيضاً في استبعاد ونفي أي احتمال لوجود مؤامرة من أي نوع، في أية قضية كبيرة أو صغيرة، لدرجة الخوف من «تهمة» الوقوع في نظرية المؤامرة. وهكذا صارت نظرية المؤامرة عند البعض تهمة يحاذرون التعرض لها، فيتغاضون عن المؤامرة الحقيقية التي قد تكون قد رسمت فعلاً ونفذت عملياً، كي لا نقول عنهم إنهم وقعوا في فخ نظرية المؤامرة. ولا يجب أن نستبعد هنا أن يكون مدبرو المؤامرات، أو مدبرو مؤامرة معينة، قد بثوا هم أنفسهم دعاية تقول إن نظرية المؤامرة هي حجة ضعيفة يستعملها الفاشلون والضعفاء لتبرير فشلهم وضعفهم، وكل ذلك من أجل إشاحة النظر عن المؤامرة الحقيقية وعدم أخذها بالحسبان.

مهما يكن من أمر، فإنه من الصواب فحص الأمور جيداً ودرس الاحتمالات جميعها والتشدد في اعتماد الحقائق والوقائع في كل أمر وقضية، فإذا وجد دليل على وجود مؤامرة يجب أن نقدم هذا الدليل ونبني عليه، وإذا لم يكن هناك دليل فيجب البحث عن عوامل وأسباب أخرى في غير نظرية المؤامرة. نحن الآن في هذا الفصل بصدد دراسة وتأريخ الأحداث المتسارعة طيلة أقل من شهر واحد ما بين حادث إحراق مكاتب ومطبعة الحزب- الجيل الجديد في الجميزة في بيروت ليل 90- 10 حزيران، وحدث إعدام سعاده

رمياً بالرصاص فجر 8 تموز 1949، فهل حدث ذلك في سياق مؤامرة خارجية أم أن الأسباب والعوامل كانت داخلية فقط تتعلق بعلاقة الحزب الصدامية مع الحكومة اللبنانية وأن الحزب كان يمكن له أن يسوي هذه العلاقة ويتفادى ما حصل له ولزعيمه؟ أعتقد أننا قد أجبنا على هذا السؤال في الفصول الثلاثة الأولى كلها وقلنا وبرهنا بالشواهد والوقائع والأسماء والتفاصيل بأن مؤامرة فعلية قد خطط لها ووضعت مراحلها ونفذت وأدت إلى قتل سعاده، ولكننا قلنا أيضاً إن للعوامل والأسباب الحزبية الداخلية دوراً مسهلاً، وإن الحزب لم يكن مؤهلاً ومبنياً بما يكفي للدفاع عن نفسه وعن زعيمه. وهذا الفصل سيقدم لنا براهين إضافية أكثر وضوحاً وإقناعاً بأن ما ذهبنا إليه كان صحيحاً.

سعاده والمؤامرة

إن كل تصريحات سعاده وبياناته وأقواله منذ حادثة الجميزة وحتى القبض عليه ومحاكمته لم نجد فيها كلمة «مؤامرة» واحدة. إن ست وثائق مكتوبة تركها سعاده من 9 حزيران إلى 6 تموز هي على التوالي: مقالة هشيم الطائفية يحترق في الجميزة تاريخ 11 حزيران، وبيان الزعيم إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السورية تاريخ 16 حزيران 49، ثم تصريحين إلى جريدة العلم بتاريخ 21 حزيران و27 حزيران، ثم رسالة خاصة منه إلى الأمينة الأولى تاريخ 30 حزيران (الرسالة التي نسي الياس جرجي أن يسلمها إليها قبل اعتقالها في اللاذقية فسلمها إياها بعد استشهاد الزعيم)، وأخيراً بلاغ قيادة الثورة القومية الاجتماعية الأولى عن الثورة وأسبابها وأهدافها تاريخ 4 تموز 49. في هذه الوثائق الست لا نقع على فكرة المؤامرة أو على كلمة المؤامرة أبداً. سعاده تكلم في هذه الوثائق عن «حملة» الحكومة وليس عن مؤامرة الحكومة، كما أنه حتى ذلك الوقت كان يحصر الجهة التي تحمل عليه وعلى الحزب بالحكومة دون أن يتطرق إلى أية جهة تقف وراء الحكومة وتدفعها إلى شن حملتها. لم يشر قط إلى دور الدول الأجنبية أو إلى دور اليهود الصهيونيين ودولتهم إسرائيل. كما أنه في ذلك الوقت كان يتكلم عن محاولة الحكومة لأسره واعتقاله ولم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى مسألة القضاء عليه وقتله. كان يتطلع إلى انتهاء المعركة مع الحكومة، ففي رسالته إلى الأمينة الأولى في 30 حزيران يقول لها في نهايتها: «ملاحظة: المال يجب أن يصرف في تكميل البناء بعد انتهاء المعركة»، ما

يعني أنه لم يكن يفكر في مؤامرة مخططة لقتله والقضاء عليه وعلى الحزب.

حتى إننا نلحظ تطوراً في موقف سعاده من خلال قراءة البيانين، بيان 16 حزيران وبيان 4 تموز، في الأول يقف موقفاً دفاعياً، يفند ادعاءات الحكومة واتهاماتها للحزب ويصف حملتها عليه بأنها «مهاجمة رعناء طائشة» كما يصف ضربتها «بضربة الخائف وكل الأغلاط التي يمليها الخوف»، ويتكلم عن «الموقف السلمي» للحزب، ولا يعلن أية ردة فعل عنفية إلا بشكل تصويري كاريكاتوري غير جاد، كأن يعرض على الحكومة «أن تسلم إليّ ربع كمية السلاح الذي تملكه وتختار يوماً ومكاناً لمعركة واحدة فاصلة...».

بينما في البيان الثاني فيعلن الثورة على الاضطهاد والإرهاب والطغيان لأنه «لم يبد ما يدل على أن حملة الحكومة ستقف عند حد»، ويعلن سبعة عشر هدفاً للثورة، أولها «إسقاط الحكومة وحل المجلس النيابي واعتبار مقرراته التشريعية في السياسة الداخلية باطلة». هكذا نستطيع التأكيد على أمرين هامين اثنين هما:

أولاً، أن سعاده بقي 24 يوماً في موقف دفاعي ولم يعلن ثورة مسلحة إلا في اليوم الخامس والعشرين، أي في 4 تموز قبل القبض عليه وإعدامه بثلاثة أيام. وثانياً، أن سعاده لم يتحدث إلا عن طغيان الحكومة واضطهادها وإرهابها للحزب وطغيانها على الشعب «طغياناً نادر المثيل»، ومحاولتها أسره واعتقاله، ولم يتحدث إطلاقاً على مؤامرة أجنبية للقضاء عليه كلياً وقتله.

إن سعاده لم يتحدث عن «مؤامرة» إلا بعد محاكمته الصورية ولفظ الحكم بالإعدام. ننقل عن الأمين مصطفى عبد الساتر قوله (أيام وقضية ص 107- 108): «...تعرفت إلى ميشال أبو شقرا، رئيس قلم المحكمة العسكرية. عاملني بكل لطف واحترام وأطلعني على قلم حبر كان يحمله وقال لي إن سعاده استعاره منه ليلة إعدامه ليخط بواسطته آخر كلمات كتبها. أعتقد أن تلك الكلمات هي ما سمح له بتدوينه تعليقاً على محاكمته الصورية وعلى إعدامه، بعد أن منع عليه مقابلة الصحافيين للإدلاء بتصريح صحافي. فسجل على محضر تنفيذ الحكم «**إنني أعتبر أن الحكومة اللبنانية قامت بمؤامرة واسعة ضدي وضد حزبي، ولكنني أنظر إلى الذين تآمروا عليّ وإلى الذين حكموا عليّ بالإعدام وإلى الذين سيعدمونني، نظرة ازدراء. أنا أموت وأما حزبي فباق**».

هل تأخر سعاده وأساء تقدير الموقف وأخطأ في تقييمه له كل هذا الوقت قبل القبض عليه ومحاكمته؟ جوابنا هو نعم، لأن تطورات الحدث والمعلومات التي انكشفت لاحقاً، وبالدليل القاطع، قد كشفت حجم المؤامرة الكبيرة ومدبريها ومنفذيها من أصغرهم إلى أكبرهم، وهذا ما سنراه واضحاً جلياً في هذا الفصل.

ملخص توثيق ناجي جرجي زيدان

إن كون هذا الكتاب يتعلق أساساً بالعوامل والأسباب الحزبية الداخلية لاستشهاد سعاده يجعلنا لا نتوقع أن نجد توسعاً وتفصيلاً في العوامل الخارجية، فهذه كُتب عنها الكثير، ولكننا لا بد من ذكر بعضها مما هو ضروري لاكتمال صورة الموضوع الذي نحن بصدده. رأيت أن أستفيد من شريط مختصر لوقائع المساعي الأميركية الإسرائيلية المباشرة مع حسني الزعيم، لدفع سعاده لإعلان ثورته المسلحة والتحكم بها وبفشلها كي يتم الإيقاع به وقتله بذريعتها، والتي وثقها وأوردها الأستاذ ناجي جرجي زيدان (عن مجلة «سوريتي» الإلكترونية- إصدار 5 آذار 2013- نقلت عن عرب تلغراف) كما يلي:

* في 24 شباط 49: توقيع الهدنة بين مصر وإسرائيل.

* 15 آذار 49: النواب السوريون يرفضون الهدنة مع إسرائيل وإذا كان لا بد من الانسحاب من المستعمرات التي احتلها الجيش السوري في 10 حزيران و19 تموز في حرب 1948(مشمار هايردين وبلدة الجاعونة الفلسطينية) فيفضلون الانسحاب من دون اتفاق هدنة (عن مذكرات عادل أرسلان).

* 23 آذار 49: توقيع اتفاق الهدنة بين لبنان وإسرائيل.

* 30 آذار 49: انقلاب حسني الزعيم في الشام والإطاحة بحكومة شكري القوتلي.

* 3 نيسان 49: توقيع الهدنة بين الأردن وإسرائيل.

* 5 نيسان 49: بدء مفاوضات الهدنة بين سورية وإسرائيل. ترأس الوفد السوري العقيد فوزي سلو (الذي سيصبح المعاون الرئيس لأديب الشيشكلي سنة 52) والمقدم محمد ناصر (الذي قتله أديب الشيشكلي سنة 52) والنقيب عفيف البزري وصلاح

الطرزي من وزارة الخارجية.

❋ 16 نيسان 49: حسني الزعيم يقترح سلماً منفرداً مع إسرائيل في مقابل نصف بحيرة طبريا (مذكرات بن غوريون).

❋ 30 نيسان 49: تم الاتفاق أن يجتمع رؤوفين شيلواح ويغئيل يادين من وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى حسني الزعيم ومستشاريه. أما موشي شاريت وزير الخارجية فكان مستعداً للقاء حسني في سورية في موعد لاحق (بن غوريون)

❋ 7 أيار 49: مندوب الولايات المتحدة في إسرائيل جيمس ماكدونلد قال لـ «بن غوريون» إن حسني ومندوب الولايات المتحدة في دمشق جيمس كيلي يضغطان على وزارة الخارجية الأميركية لحث بن غوريون كي يوافق على لقاء حسني الزعيم مباشرة. ورد بن غوريون: «إذا تعهد حسني الزعيم مسبقاً بالجلاء عن الأراضي التي احتلها الجيش السوري في 10 حزيران و19 تموز 48 أي مشمار هايردين وتل العزيزات والانسحاب إلى الحدود الدولية لعام 1923، فإني مستعد للاجتماع به (مذكرات بن غوريون).

❋ 9 أيار 49: عندما علم وزير الخارجية الأميركي دين أتشيسون بما تفوّه به بن غوريون في 7 أيار لم يصدق، وطلب من المبعوث الأميركي في إسرائيل أن يبلغ بن غوريون أن يتراجع عن شروطه ويحثه أن يقبل الاجتماع بحسني لأن اقتراح هذا الأخير فرصة لا تعوض. (من وزارة الخارجية إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن- وثائق الولايات المتحدة ص 990).

❋ 25 أيار 49: استدعى حسني الزعيم مدير مكتبه الدكتور صبري القباني وطلب منه أن يرتب لقاء مع أنطون سعاده.

❋ 27 أيار 49: عقد اللقاء الأول بين سعاده وحسني الزعيم.

❋ 31 أيار 49: حسني يخبر وزير خارجيته عادل أرسلان، قبل الظهر، بأنه لم يعد له خيار إلا القبول بالاجتماع مع موشى شاريت بسبب الضغوط العالمية عليه. في المساء الوزير الأميركي كيلي يفشي سراً لعادل أرسلان بأن حسني هو الذي يطلب ويرغب

بالاجتماع ببن غوريون وليست الضغوط العالمية كما يدعي حسني (مذكرات عادل أرسلان).

❋ 1 حزيران 49: رسالة من أبا أيبان المقيم في واشنطن إلى وزير الخارجية الإسرائيلي موشي شاريت تقول إن لقاء حسني الزعيم مع بن غوريون سيؤدي إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وسورية (وثائق إسرائيل- المجلد 3- ص 594).

❋ 2 حزيران 49: رد موشى شاريت على رسالة أبا أيبان وقال له إن بن غوريون يعارض الاجتماع بحسني الزعيم (نفس المصدر ص 595).

❋ 5 حزيران 49: أعلن موشى شاريت لـ(أبا أيبان) استعداده للذهاب إلى سورية والاجتماع بحسني الزعيم للبحث في موضوعين، هما اتفاق الهدنة والسلام. وحسني يرفض المقابلة على أساس اتفاق الهدنة والسلام ويريد أن تكون المقابلة مقابل نصف بحيرة طبريا والسلام (نفس المصدر ص 596)

❋ 9 حزيران 49: حادث الجميزة في بيروت.

❋ 14 حزيران 49: وصل سعاده إلى دمشق. وبعد أن تأكد الإسرائيليون أن سعاده وصل إلى دمشق قرر موشى شاريت الالتقاء مع حسني الزعيم في اليوم التالي، أي في 15 حزيران. (هنا يقول جرجي زيدان إن حسني عرف صباح 15 حزيران بقدوم سعاده وإنه حدد له موعداً بواسطة قباني في اليوم نفسه الثامنة مساء. بينما الحقيقة حسب ما رواها قباني هي أن حسني عرف بقدوم سعاده فوراً أي في 14 حزيران). يتابع جرجي زيدان ويقول: **وصل حسني الزعيم إلى فندق بلودان الكبير الساعة العاشرة قبل الظهر وحضر سراً هذا الاجتماع وزير الخارجية الإسرائيلي موشى شاريت لمناقشة أمور عدة بينها كيفية دفع أنطون سعاده على إشعال الثورة المسلحة في لبنان بهدف القضاء عليه وعلى حزبه في مقابل أن تتخلى إسرائيل عن نصف بحيرة طبرية لسورية وتقيم معها سلاماً كاملاً** (مقابلة مع ضابط المخابرات السوري سامي جمعة الذي شهد الاجتماع- جريدة المحرر العدد 200 تاريخ 10 تموز 1999). يتابع جرجي زيدان ويقول: «التقى حسني الزعيم سعاده الساعة العاشرة مساءً بدل الثامنة فأكرمه وأهداه مسدساً وطمأنه أنه يضع في تصرفه كل ما يحتاج من سلاح ومال إذا أقدم على القيام بثورة ضد الحكم

اللبناني. ويذكر وزير الخارجية السوري عادل أرسلان في مذكراته أن حسني هو من حرض أنطون سعاده على القيام بثورته المسلحة».

❋ 9 تموز 1949: كتب بن غوريون في مذكراته أنه بعد إعدام سعاده تبين أن حسني الزعيم مهتم فعلاً بالسلام معنا.

❋ 20 تموز 49: وقّعت سورية اتفاق الهدنة مع إسرائيل الساعة الخامسة بعد الظهر في خيمة نصبت في منطقة الحرام بين مستعمرة مشمار هايردين وبلدة الجاعونة الفلسطينية، لكن حسني الزعيم لم يحصل على نصف بحيرة طبريا.

❋ 21 آب 49: وكالة تاس السوفياتية تقول: كان انقلاب حسني الزعيم في 30 أيار 1949 مؤامرة دبرتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية بالتعاون مع السفارة الفرنسية في دمشق.

هنا انتهى ملخص توثيق جرجي زيدان.

وثائق السفارة البريطانية في بيروت

لقد استطاع الباحث القومي جان داية الحصول على صور النسخ الأصلية للتقارير الشهرية التي كانت ترفعها بعثة وزارة الخارجية البريطانية في بيروت إلى حكومتها في لندن، في الفترة قبل وبعد اغتيال سعاده سنة 1949. وقد نشر الرفيق الدكتور مطانيوس يوسف مقاطع هامة جداً من هذه التقارير، بعد تعريبها، في كتابه «أنطون سعاده والنظام اللبناني» (ص 681 وما بعد). وقد تكرم عليّ جان داية وأعطاني صوراً عن النسخ الأصلية باللغة الإنكليزية لتقريري حزيران وأيلول، وقد نشرتهما في باب الملاحق والوثائق في نهاية هذا الكتاب.

من قراءة هذه الوثائق كلها يتبين لنا بوضوح كيف كانت بريطانيا تملي على حكومة لبنان ماذا يجب على هذه الحكومة أن تفعله. إملاءات وأوامر بصيغة نصائح، وتهديدات بصيغة تخوّف من قلاقل واضطرابات. في هذه الوثائق نصوص تقارير رفعها السفير البريطاني، بصفة وزير صاحبة الجلالة، إلى حكومته يفيدها ما تم إنجازه وكيف أن أرادتها أو توصياتها أو أوامرها قد أخذت مجرى التنفيذ من قبل حكومة لبنان. فرئيس

الجمهورية، حسب تقرير وزير صاحبة الجلالة، قد نفذ «رغبة» الوزير وقابل بعض أقطاب المعارضة وحسّن العلاقات معها. ورئيس الوزراء رياض الصلح قد فعل الشيء نفسه مع بعض الأقطاب الآخرين. حتى إن رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة يستنجدان بالسفارة البريطانية لمساعدتهما على معالجة الضغوط التي تمارسها عليهما المعارضة السياسية اللبنانية آنذاك. كما أنهما يبحثان مع السفارة البريطانية في ملف قانون الانتخابات إذا كان يجب أن يعتمد المحافظة أم القضاء كدائرة انتخابية (مطانيوس يوسف ص 676).

والجدير ذكره هنا في هذا الصدد أن حكومة لبنان التي كانت «متعلقة» بسيادة لبنان واستقلال لبنان ورافعة لهذا الشعار بوجه سعاده متهمة إياه بالتفريط باستقلال لبنان وسيادته، لمجرد قوله وعمله للوحدة السورية القومية، هذه الحكومة كانت تتوسل السفارة البريطانية وتدخِلها في تفاصيل الشؤون السيادية اللبنانية ضاربة عرض الحائط بالاستقلال والسيادة. فالاستقلال والسيادة ليسا عند الحكومة إلا مجرد شعار صالح لاستعماله فقط ضد الوحدة القومية السورية وضد العاملين لها.

وفي التقارير مثلاً:

رياض الصلح لا يزال يماطل في الاعتراف بحسني الزعيم. وأيضاً: رياض مستعد لتعاون أوثق مع الهاشميين. وأيضاً: في 18 نيسان السفير- الوزير البريطاني «يقنع» رئيس الجمهورية ليبادر مع رئيس حكومته رياض الصلح بإبلاغ الحكومة البريطانية أنهما مستعدان للقبول بمشروع الهلال الخصيب بزعامة العراق. وأيضاً: «وثق رياض الصلح علاقته بالوطنيين السوريين (يقصد المؤيدين للمحور العراقي التركي الذي ترعاه بريطانيا) وسعى للاتصال بنوري باشا السعيد رئيس وزراء بغداد». وأخيراً: حصل اعتراف حكومة لبنان بانقلاب حسني الزعيم، في 23 نيسان إثر زيارة قام بها رياض الصلح لدمشق واجتماعه بحسني الزعيم، وأعلن رياض بك أنه سيقوم بزيارة القاهرة وبغداد لتقريب وجهات النظر تمهيداً للمصالحة بينهما. (نفس المصدر ص 672 إلى 675).

وثائق السفارة الأميركية

كما أورد الدكتور مطانيوس يوسف في كتابه مقاطع من تقارير السفارة الأميركية

في بيروت (حصل عليها من أرشيف الخارجية الأميركية الموجود في الجامعة اللبنانية الفرع الأول، هامش ص 673). ويجدر هنا لفت نظر القارئ إلى أن وزارة الخارجية الأميركية، وعبر سفارتها في بيروت، منعت نشر أية وثيقة ما بين 13 حزيران إلى 6 تموز. أما تقرير 6 تموز المرفوع من البعثة الأميركية في بيروت إلى وزارة الخارجية الأميركية فقد تحدث عن «اعتقال سعاده عند دخوله لبنان» وأنه سيحاكم في محكمة عسكرية وأن الحكم سيصدر في اليوم نفسه. هكذا «تنبأت» السفارة الأميركية بالأحداث ومراحلها قبل وقوعها فعلياً، فسعاده اعتقل مساءً في دمشق بعد تقرير السفارة الذي تحدث عن اعتقاله في لبنان، ناهيك عن «نبوءة» المحاكمة العسكرية وصدور الحكم في اليوم نفسه!!

عودة إلى وثائق السفارة البريطانية

نحن في سنة 1949 والتنافس البريطاني- الأميركي على النفوذ عندنا على أشده، وهو تنافس بين الإمبراطورية الإنكليزية المتخمة والمتعبة من تخمتها، والإمبراطورية الأميركية الناشئة القوية والغنية التي تزداد قوة وغنى والطامحة لتحل محل الإمبراطورية الإنكليزية في كل مكان في العالم.. إلا أن هذا التنافس لم يأخذ طابع الصدام والتناقض بل كان أشبه ما يكون بالانتقال السلس والسلمي للسيطرة على العالم. وكان سعاده قد كتب حينذاك ما يشير إلى هذا الموضوع (مقال لسعاده في جريدة الزوبعة في الأرجنتين بعنوان- ناحية من الحرب السياسية بعد الحرب 15-5-44،الأعمال الكاملة ص 43).

إذا عدنا إلى تقرير السفارة البريطانية لشهر حزيران 49، نجد أيضاً ما يشير إلى هذا الأمر كالتالي: «زار السير وليم سترانغ (بريطاني) بيروت من 9 إلى 12 حزيران وقابل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الخارجية، وكذلك زار السيد سام كوبر (أميركي) مساعد معهد الشرق الأوسط في وزارة الخارجية. الصحف اللبنانية لم تصدق أنها مصادفة وحسبت ذلك تنافساً أميركياً بريطانياً» (مطانيوس يوسف ص 681).

إن تقرير حزيران 1949 يتضمن معلومات عن تفاصيل كبيرة وصغيرة في الحياة السياسية اللبنانية، ونكتفي هنا بعرض ما له علاقة بموضوعنا عن تاريخ استشهاد سعاده. التقرير يتكلم عن زيارة الصلح إلى السفير البريطاني وشكواه بأن حسني

الزعيم يؤيد الزعيم سعاده بقوة. فيقلل السفير من أهمية هذا الأمر ويطمئن رياض ويتوقع نهاية قريبة لسعاده، ويقول له إن هذه العلاقة بين حسني وسعاده هي علاقة ستنتهي قريباً إلى الفشل.

إنه لواضح تماماً أن رياضاً كان مجرد أداة غير عارف بخفايا التخطيط والبرنامج الإنكليزي، وأن السفير اكتفى بتطمين رياض بالقول له ألا يقلق من علاقة حسني وسعاده وأن نهاية الأخير قريبة. فبالنسبة للإنكليز الأمور تحت السيطرة، وما على الأدوات إلا الانضباط والانصياع، وكل واحد يجب أن يقوم بدوره، والهدف الرئيسي هو الإيقاع بسعاده وقتله.

تقرير شهر أيلول يذكر دوراً لعبد المسيح

في تقرير شهر أيلول يلفت نظرنا قول السفير ما يلي: «جورج عبد المسيح المفترض زعيماً جديداً ما زال متوارياً. أسد الأشقر وعبد الله قبرصي سلّما نفسيهما. كمال جنبلاط المعارض استفاد كثيراً من الأسلوب التعسفي غير المألوف الذي حوكم به سعاده...».

دعك من أسد الأشقر وعبد الله قبرصي وجنبلاط الآن، فأدوارهم ليست رئيسة، لكن ماذا تعني عبارة السفير عن عبد المسيح إنه «مفترض زعيماً جديداً»؟ كيف «تنبأ» السفير عن عبد المسيح الذي لا يزال متوارياً ومتخفياً أنه سيصبح العم، أي الوصي عندما يغيب الأب الأصيل؟ نحن نعرف أن عبد المسيح انتقل إلى دمشق في 13 أيلول وبقي متخفياً هناك فترة قصيرة قبل أن يصبح «مسؤولاً أولاً»، ثم رئيساً لمجلس المفوضين، ثم رئيساً للحزب رسمياً سنة 1951، فكيف للسفير أن يستبق المراحل ويتوقع لعبد المسيح أن يصبح «زعيماً جديداً» حسب تعبيره؟ هل إن دور ووظيفة عبد المسيح في الحزب بعد استشهاد سعاده كانت أيضاً مدبرة ومخططاً لها سلفاً؟

إن هذا التساؤل لا يعني أبداً أن عبد المسيح كان عارفاً أو موافقاً أو متفقاً مع الإنكليز على دوره الذي سيلعبه قريباً. ليس معنى ذلك أن عبد المسيح كان عارفاً ومتورطاً ومشتركاً بما يخططه الإنكليز أو ما يريدونه أن يحدث. بل يعني أن الإنكليز كانوا يفترضون ويتوقعون دور زعامة لعبد المسيح، وسيسهلون ذلك كما سنرى بعد

قليل. (النص الإنكليزي لتقرير شهر أيلول الذي يذكر عبد المسيح موجود في باب الوثائق في آخر الكتاب).

كيف تعامل الحزب مع خطة تصفيته وقتل زعيمه؟

سبعون سنة مرت ولا زالت أسرار وتفاصيل كثيرة غير واضحة وغير محسومة، لا زالت موضع تأويلات وتخمينات وترجيحات وشكوك وأخذ ورد كبيرين. وأهم تلك الأسرار والتفاصيل وأكثرها غموضاً وعرضة للتأويل هي مسألة السبب الذي دفع سعاده للذهاب إلى المقابلة الأخيرة مع حسني الزعيم مساء 6 تموز رغم التحذيرات المتكررة من أكثر من جهة واحدة وأكثر من مرة واحدة بأن حسني هذا سيخونه وسيقبض عليه ويسلّمه لعدوه، فضلاً عن وقائع فشل الموجة الأولى والرئيسة من المواجهة المسلحة مع الحكومة اللبنانية وثبوت ووضوح حقيقة تواطؤ السلطات الشامية ومساهمتها في هذا الفشل، وأن اعتراض واعتقال القوة القومية الاجتماعية بقيادة الرفيق زيد الأطرش قبل وصولها لاحتلال قلعة راشيا لم يكن الدليل الوحيد بل كان دليلاً واحداً وبرهاناً واحداً وحقيقة واحدة من عدة دلائل وبراهين وحقائق كلها تشي بانكشاف ظهر الثورة لخيانة صريحة فصيحة محققة، وعدم إمكانية الاستمرار والانتصار فيها.

هذه الدراسة التاريخية ستجيب على هذا السؤال الكبير وعلى غيره معتمدة منهجاً مختلفاً عن كل ما سبقه وتناول هذا الموضوع وسأل هذا السؤال. كما أن هذا البحث وهذا الدرس والتحليل قد قادني كما قاد غيري قبلي للاستنتاج بأن سعاده كان ضحية خدعة كبرى وخطة وضعتها غرفة مخابرات إنكليزية- أميركية- صهيونية وألّفت لها فريق عمل تنفيذياً رئسه الملحق العسكري الأميركي في السفارة الأميركية في دمشق، المستر ميد، تقضي بالاستفادة من شجاعة سعاده وروح المبادرة والإقدام لديه ودفعه دفعاً مخططاً ومبرمجاً للقيام بالثورة المسلحة ضد السلطة اللبنانية. وقد وفرت له هذه المخابرات كل الأسباب والمبررات للقيام بها، كما كل التحضيرات والاحتياطات لتفشيلها. والأهم من هذا كله أن هذه المخابرات اعتمدت على أدوات وعمال من داخل الحزب دفعت في نفس الاتجاه، عن معرفة وقصد أو عن غير معرفة وغير قصد، وكل ذلك كان لسبب جوهري هو ضرورة توفير مبررات «قانونية» للقتل وضبط سعاده «بالجرم المشهود» فلا يصبح قتله دافعاً وسبباً لثورة شعبية حقيقية يوماً ما، مسلحة أو غير مسلحة، أكان

هذا اليوم قريباً أو بعيداً. كما أن السيطرة على الحزب وترويضه، وحتى الاستفادة منه، كانت في صلب هذه الخطة وهذا البرنامج. إن السيطرة على الحزب والاستفادة منه بعد القتل وتسهيل هذه السيطرة وهذه الاستفادة اقتضت دفع سعاده ليقوم بثورة مسلحة من دمشق تحديداً، وحصراً، ضد الحكومة اللبنانية. لذلك فهم لم يكونوا يريدون قتله في المطبعة في ليل 9– 10 حزيران ولا كانوا يريدون اعتقاله لا في بيته ولا في مكان تواريه في بيروت طيلة أربعة أيام كان خلالها تحت أنظارهم ومرماهم وهو لا يدري. وهم قد «حافظوا على حياته» حتى وصوله إلى دمشق، وهم الذين سهلوا له الوصول إلى دمشق، أيضاً دون أن يدري. لقد كانوا ينتظرون وقوع أول ضحية وأول قتيل من قوى الأمن اللبنانية على يد رجال سعاده وقد حصل لهم ذلك في حارة حريك في مقتل العسكري نسيب النمر، وافتعلوا ذلك في سرحمول، عندما قتلوا النقيب توفيق شمعون برصاصة من الخلف، احتياطاً لئلا يحجم سعاده ولا يعلن الثورة من دمشق.

في هذا الفصل سنستعرض الأحداث من 9 حزيران حتى 8 تموز ونقدم الدلائل والبراهين المادية والمنطقية على ما قلناه فوق، أما المرحلة الثانية من خطة القتل، أي كيفية السيطرة على الحزب والاستفادة منه بعد القتل، فسيكون هو موضوع الفصل الخامس الأخير.

في هذا الفصل سنبيّن أن الخطة التي رسمت لقتل سعاده والتخلص منه ما كان لها أن تنجح وتحقق غرضها لولا أنها استفادت واعتمدت على أسباب وعوامل حزبية داخلية كانت تشكل نقطة الضعف الحقيقية لسعاده. باختصار نقول إن الحزب وأجهزته وأركانه ومسؤوليه ليس فقط لم يستطيعوا حماية سعاده والحفاظ عليه بل أكثر من ذلك نقول إنه قد وجد في الحزب من أراد التخلص من سعاده، ووجد من استفاد من غيابه، ووجد أيضاً من لم يشعر بالخسارة من هذا الغياب. ومن الطبيعي أن يكون أعداء الحزب وأعداء سعاده الخارجيون قد رأوا هؤلاء، أو حتى ساهموا في زرعهم أو تجنيدهم وحمايتهم داخل الحزب، ومن الطبيعي أن يلحظوا لهم أدواراً ومهمات. هذا الموضوع ذكره غيري، صرح به البعض ولمّح إليه البعض الآخر وورد في ذهن الكثيرين، وكل ذلك دون وجود وثائق مادية أو شهود عيان. لكن الوثائق المادية وشهود العيان ليست هي الوسيلة الوحيدة والبرهان الوحيد لإثبات شبهة معينة،

فهناك وسائل أخرى لذلك، خاصة عندما نعرف أن أول ما يحرص عليه المتهمون هو إخفاء وإزالة أي أثر مادي يدل عليهم.

إن الجديد الذي سيورده هذا الكتاب هو درس أعمال عدد من القياديين في الحزب من الذين لعبوا أدواراً رئيسة أدت إلى نتائج فظيعة في تاريخ الحزب، وإلقاء الضوء على مواقفهم ومحاولة فهمها، مع مقدار من **الانحياز ضدهم** كي ندفعهم أو بالأحرى كي ندفع مريديهم، لكي يدافعوا عنهم، فيرى الدارس والقارئ ويقارن فإما يدينهم وإما يدين من انحاز ضدهم. وأنا من جهتي أقبل بإدانتي وأرضى بها إذا اتجهت الإدانة نحوي. حسبي أن أكون لمست هذا «الطابو» وحركته لعل في تحريكه فائدة.

الاعتقاد الخاطئ والحقيقة الصادمة

هناك اعتقاد راسخ عند القوميين، أن سعاده كان معرضاً للقتل في الجميزة أو معرضاً للاعتقال في بيته بعد خروجه من الجميزة وأن السلطة كانت تلاحقه لتعتقله وأنه قد استطاع أن يفلت منها واستطاع أن يجتاز الحدود ويصل إلى دمشق...الخ. لكنني بعد درس الحوادث كلها وفهم علاقتها ببعضها وبالنتيجة التي آلت اليها، وبعد تحليل الأحداث وكيف تطورت، تكونت عندي قناعة يقينية بأن هذا الاعتقاد هو خاطئ ويجب تغييره، وأن الحقيقة هي غير ذلك كلياً.

لقد كنت أظن شخصياً، وأنا في المراحل الأولى من إعداد هذا الكتاب، أنني أول شخص يرى أن خطة قتل سعاده كانت تقضي بإخراجه «سالماً» من لبنان بعد حادثة الجميزة، وتسهيل خروجه ودفعه دفعاً، بواسطة حسني الزعيم أو غيره، لإعلان ثورة مسلحة من دمشق تحديداً، وليس من لبنان، توفيراً لمبررات «قانونية» للقتل تسهل على واضعي خطة القتل من السيطرة على الحزب بعد غياب زعيمه ومنع هذا الحزب من لململة أوضاعه والسير باتجاه تحقيق غايته من جديد. إلى أن وجدت في مذكرات بشير موصلي ما يتفق مع تحليلي واستنتاجي. إلا أن الفرق هو خلو مذكرات موصلي من أي برهان أو دليل، واقتصارها على طرح الفكرة دون إثباتها، أما أنا فقد استطعت أن أقدم سلسلة وقائع وقرائن مادية تثبت ما ذهبت إليه.

ماذا عند بشير موصلي؟

يقول بشير موصلي ما يلي: «...في الحقيقة فإن من يعيد قراءة الأحداث كما سجلناها سابقاً يجد أن الثورة فرضت عليه بتخطيط ذكي ومحكم. فالحكومة كان بإمكانها أن تلقي القبض على سعاده لحظة خروجه من الجريدة أو لحظة وصوله إلى بيته، وعندها لن يكون لديها أي مبرر لمحاكمته وإعدامه. فعمدت إلى استفزازه بضرب الحزب بما لا يترك مجالاً ولا خياراً له إلا الرد. فأعطته الفرصة الكافية ليتوارى وليتخذ بعض الإجراءات ضدها... ولا شك أن عيونها راقبت مغادرته... ولم تشدد الإجراءات لاعتقاله في ذلك اليوم وما تلاه متيحة له فرصة المغادرة حتى تتاح له إمكانية الرد على إجراءاتها الظالمة... خطورة حادث الجميزة أنه بالفعل كان فخاً محكم الإعداد سيدفع بعدد كبير من أعضاء الحزب وقادته إلى الالتفاف حول زعيمهم لحمايته كرد فعل أولي. هكذا فعلوا وأخذوا يتجمعون في حديقة البيت طوال ساعتين والسلطة ساكنة حتى اعتقلتهم بأسهل الطرق. ونتج عن اعتقالهم ضياع الفرصة لوضع أي خطة حزبية معاكسة. ولذلك استنتجت أن السلطة اللبنانية أعطت سعاده الوقت الكافي للمغادرة متيحة له الفرصة للتواري والرد على إجراءاتها ومن ثم اتخاذ الرد ذريعة للقضاء عليه...» (بشير موصلي ص 274 و276). هذا ما يقوله بشير موصلي، وفيه ثغرة واضحة وهي: الحكومة تريده أن يرد، وفي الوقت نفسه الحكومة اعتقلت القوميين الذين تجمعوا ونتج عن اعتقالهم ضياع فرصة الرد! وهذه الثغرة لما كانت لتوجد لو أكمل بشير وقال إن السلطة كانت تريد لسعاده أن يغادر إلى دمشق ليعلن الثورة والرد من هناك.

وماذا عند سامي جمعة؟

إن ما فكر به بشير موصلي وما توصلت إليه أنا، وسأثبته بالبرهان، تؤيده أيضاً المعلومات التي كشفت مؤخراً عن أن الملحق العسكري الأميركي في دمشق، الميجر ميد، كان هو القائد الحقيقي لتنفيذ مؤامرة القتل في كل مراحلها في لبنان والشام. ولكشف ذلك كان علينا أن ننتظر نصف قرن من الزمن، أي إلى سنة 2000 عندما أصدر رجل المخابرات السوري سامي جمعة كتابه «أوراق من دفتر الوطن». إن جزءاً خطيراً من خطة قتل سعاده قد كشفه سامي جمعة وهو ضابط المخابرات الذي لعب دوراً مهماً في أحداث كبرى في الشام كان شاهداً عليها ومشتركاً فيها مباشرة،

وقد كشف عنها في مؤلفه «أوراق من دفتر الوطن». إن سامي جمعة كشف ما كشفه، بخصوص تسليم سعاده وإعدامه، من موقعه الحيادي ولم يكن له مصلحة لا في إخفاء أشياء ولا في تضخيم غيرها. صحيح أن سامي جمعة لعب دوراً سيئاً جداً ضد القوميين الاجتماعيين بعد اغتيال المالكي، لكن ذلك لا يعني أننا يجب أن نهمل كل ما يقوله ويتعلّق بالحزب بحجة أنه معاد للحزب. إن سامي جمعة كشف بوضوح وتفصيل أن خطة قتل سعاده رسمها الأميركيون بالتعاون مع الإنكليز والفرنسيين، وعندما نقول الفرنسيين والإنكليز والأميركيين، خاصة الأميركيين، نقول اليهود حيث نعرف مدى تغلغل اليهود وتأثيرهم في توجيه السياسة الأميركية في ما خص قضايا بلادنا نحن. يقول سامي جمعة ما يلي:

«يعتقد الكثيرون حتى الآن أن استقبال حسني الزعيم لأنطون سعاده في سورية ودعمه له كان لمواجهة لبنان بشخص رياض الصلح أو رداً على الموقف العدائي الذي وقفه الصلح ضد حسني الزعيم وانقلابه، أو محاولة من حسني للضغط على الصلح لتغيير موقفه في قضية النقيب أكرم طبارة المعتقل آنذاك في لبنان بسبب قيامه بقتل كامل الحسين. كل ذلك غير حقيقي ولا يمت للواقع بصلة، إذ إنه كان بإمكان الفرنسيين الذين شاركوا أميركا في إنجاح انقلاب حسني الزعيم أن يوعزوا لأصدقائهم من موارنة لبنان للضغط على بشارة الخوري ورياض الصلح لتغيير موقفهم من حسني الزعيم وانقلابه. والواقع أن الأميركيين وضعوا سيناريو مأساة الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه أنطون سعاده ولم يطلعوا حسني الزعيم إلا على ذلك الجزء اليسير من السيناريو ليرضي طموحه وعنجهيته. وقد كان هذا السيناريو مؤلفاً من ثلاثة أجزاء هي: 1- استقبال سعاده وإيواؤه في سورية. 2- دفع حسني الزعيم لتحريض سعاده على إشعال الثورة المسلحة في لبنان شرط أن تكون هذه الثورة محكومة بالفشل والإخفاق. 3- تسليم سعاده للسلطات اللبنانية لإعدامه.

هذا السيناريو وضعه الميجر ميد وطلب من حسني الزعيم تنفيذ البند الأول منه دون إطلاعه على البندين الثاني والثالث. فرح حسني الزعيم بذلك لأنه اعتقد أنه سوف يكسب تأييد حزب منظم وله وجود مؤثر على الساحة السياسية، وكان صادقاً بفرحه ومخلصاً بنواياه ونفذ البند الأول (هكذا يعتقد سامي جمعة). وعندما حان تنفيذ

البندين الباقين شرح الميجر ميد لحسني الزعيم الأسباب التي توجب القضاء على الحزب السوري القومي وزعيمه وعزا ذلك لمتطلبات التوازن في المنطقة وللمصالح الحيوية للولايات المتحدة الأميركية وطلب منه تنفيذ البندين الباقين، فأذعن حسني الزعيم وباشر التنفيذ صاغراً.» (سامي جمعة ص 75). إن ما قاله سامي جمعة يكسب مصداقيته من كون جمعة مسؤولاً استخبارياً في الجيش السوري في تلك المرحلة وقد شهد وشارك في الكثير من العمليات السرية كما ذكرنا فوق، وأيضاً مما ذكره مايلز كوبلاند أحد رجالات المخابرات الأميركية، تحت إمرة الميجر ميد، في كتابه «اللاعب واللعبة» (1996 دار الحمراء صفحة 78- 80)، الذي أفاض في كيفية توظيف حسني الزعيم واستعماله، حتى إن كوبلاند يقول إنه طاف بحسني الزعيم على جميع المراكز الحكومية التي يجب أن يحتلها الجيش يوم الانقلاب (ص 90).

ماذا حدث في ليل 9 - 10 حزيران؟

لن نعود لرواية حادث الجميزة لحظة بلحظة، فهذه صارت مكررة مرات كثيرة، بل سنقف فقط عند الأمور التي تساعد في كشف خطة ما سمّيناه «المطاردة والتوريط». أول ما يلفتنا هنا أن سعاده أتى إلى المطبعة رأساً بعد اجتماعه مع وزير الداخلية جبرائيل المر في فندق النورماندي في الأشرفية. جبرائيل المر ابن بتغرين جارة الشوير، وهو الخصم الإقطاعي التقليدي الدائم للحزب حتى إنه ضاق في عينه فوز مختار قومي اجتماعي في انتخابات مختارية قرية صغيرة لا يتجاوز عدد ناخبيها مئة وخمسين ناخباً هي زرعون جارة الشوير، ووظف وزارة الداخلية وأجهزتها لتخريب نتيجة الانتخاب وإعادة إجرائه من جديد. لا يوجد بين أيدينا أي مرجع أو إشارة عن هذا الاجتماع وموضوعه ونتيجته وسبب حصوله، لا شيء غير أن سعاده أتى إلى المطبعة عائداً من اجتماع مع وزير الداخلية جبرائيل المر. نحن نعتقد أن المر هو من دعا سعاده إلى الاجتماع معه وهو من حدد توقيته مباشرة قبل حفلة الكتائب وكان الهدف منه رصد حركة سعاده وتطمينه بأن الأمن ممسوك وأن السلطة لن تسمح بحصول أي استفزاز أو تجاوز من قبل المحتفلين قبالة مطبعة ومكاتب جريدة الجيل الجديد. ذلك لأن سعاده كانت قد وصلته أنباء تحضير الكتائب لحفلتها الاستفزازية في منطقة شهدت توتراً جراء تحولها شعبياً لصالح الحزب في انتخابات المختارين وأوفد عبد الله قبرصي كي يلفت مدير الشرطة

القاضي السابق ناصر رعد إلى محاذير اجتماع حزبي دعت إليه الكتائب في مقهى الجميزة. ويقول قبرصي (قبرصي يتذكر ج 1) إنه أجتمع مع رعد وعرض عليه الخطر والمحاذير. فالحكومة إذاً كانت تريد أن تطمئن سعاده وتريده أن يذهب، كعادته، إلى المطبعة وتريد أن تتأكد من ذهابه لأن ذهابه جزء أساس من الخطة الموضوعة لاستفزاز الحزب وجرّه لعمل عنفي يكون ذريعة لحملة الاعتقالات والملاحقات. وكان المر نفسه قد نقل لفريد الصباغ في9 حزيران، نهار الحادثة، خبر اجتماع مجلس الأمن برئاسة رياض واتخاذ قرار ملاحقة الحزب اعتباراً من 12 حزيران، وليس 9 حزيران، وقال له خذوا احتياطاتكم ولا تقعوا في الفخ (فريد صباغ، مخطوطة مذكراته المطبوعة ص 80 و82)، أي إن المر تقصد أن يخدع سعاده ويعطيه يومَيْ اطمئنان ليضمن ذهابه إلى المطبعة في 9 حزيران. وما يعزز ترجيح تآمر المر هو موقفه الرافض للعفو خلال اجتماع السياسيين الأرثوذكس مع بشارة الخوري ليل 7–8 تموز قبيل تصديق هذا الأخير قرار الإعدام.

سلة القنابل ورامز البستاني وعبد المسيح

إن كل الروايات التي يكون لعبد المسيح ذكر فيها هي روايات متناقضة ومثيرة، لدرجة الدهشة. فمثلاً تتعدد الروايات وتختلف حول إخفاء عبد المسيح لسلة قنابل تحت طاولته جلبها له ميشال فضول، وإبقائها هناك قبل تركه المطبعة ودون إعلام أحد بها، أو أنه تلقى معلومات خطيرة من المواطن رامز البستاني ذي الخلفية الكتائبية، أيضاً بواسطة ميشال فضول صاحب المطبعة، عن نية الكتائب افتعال مشكلة وقتل سعاده، وإن عبد المسيح لم يبلغ أحداً بهذه المعلومات، ما يوحي بأنه متآمر هو نفسه ومشترك في قتل سعاده. إننا نرى أن هذه الروايات لا يمكن الركون إليها، خاصة رواية رامز البستاني، لأنها محكومة بولاء الرواة مع أو ضد عبد المسيح، وخاصة أن هذه الرواية قيلت بعد الانقسام الحزبي سنة 1957 وليس قبله، ونقلها ميشال فضول ونفاها يوسف روحانا. فضول يروي ما يضع عبد المسيح في شبهة التآمر، بينما روحانا يروي ما ينزه عبد المسيح عن أي شبهة. أما رواية سلة القنابل فهي شأن آخر مختلف، لأن هناك إشارتين بخصوصها منذ اليوم الأول لحادثة الجميزة. فهناك إشارة سريعة لجبران جريج أنه رأى سلة قنابل في مخفر الجميزة عندما زاره مع عبدالله قبرصي ليل 9 حزيران (مع أنطون سعاده ج 4 ص 165)، وعبد الله قبرصي أيضاً روى أن أحد القضاة الكورانيين

دلـه على سـلة القنابل وقال لـه إنها صودرت مـن المطبعة. هذا بالإضافـة إلى ما ورد في مقالة سـعاده «هشـيم الطائفية» بتاريخ 11 حزيران أن القوى الأمنية الحكومية وجدت سلة فيها قنابل يدوية، هكذا: (...ودخل رجال الأمن المطبعة وفتشوها فلم يعثروا على سـلاح قط ولكنهم وجدوا في مكان في المطبعة سلة فيها قنابل يدوية يظهر أنها وضعت عمداً من قبل المعتدين، لإلقاء الشبهة على الرفقاء الذين كانوا في المطبعة، لأن القنابل لم تكن ممسوسة من قبل القوميين الاجتماعيين ولم توجد مع أحد منهم قنبلة ولا استعملوا قنبلة أو أي سـلاح ناري، ولو كانوا استعملوا قنبلة ما لكفت واحدة فقط للفتك بكثير من ذلك الجمع المندفع بغباوة نادرة المثيل إلا بين الطائفيين). إن مسألة سلّة القنابل هي مسـألة خطيرة جداً، وهي تكتسـب خطورتها من كون وجود القنابل في مكتب الجريدة كان مقصـوداً منه اسـتدراج القوميين لاسـتعمالها وإيقاع قتلى مـن خصومهم، ما يعطي مبرراً قوياً وكافياً للحكومة لملاحقة الحزب. الغريب جداً أن عبد المسـيح يتجاهل هذه المسألة كلياً، رغم خطورتها، فهو لم يذكر شيئاً في مذكراته أو أحاديثه عن مسألة القنابل، وكأنها لا قيمة لها. يمكن للبعض اعتبار هذه المسـائل مختلقة كلياً لمجرد أن عبد المسـيح لم يذكر عنها شـيئاً، لكن البعض الآخر يعتبر أن عدم ذكر عبد المسـيح لها هو بالضبط ما يثير التساؤل، فعبد المسيح في مذكراته وأحاديثه يتجاهل كلياً أموراً وأحداثاً على درجة كبيرة من الأهمية مما يعزز الاشـتباه والريبة. فمثلاً عبد المسـيح لا يذكر شيئاً عن جلسته مع سـعاده التي دامت 8 أو 9 سـاعات سـنة 47 فيما سمي «أزمة عبد المسيح» وأدت إلى قبول استقالته من عمدة الدفاع (مع أنطون سعاده ج 4 ص 159). وعبد المسيح لم يذكر شـيئاً كافياً ومقنعاً عن دوره في انحرافات نعمة ثابت في حينها، كما أنه لم يذكر شـيئاً أبداً عن وقائع قرار عدم تبليغ رسالة سعاده الثانية إلى القوميين الاجتماعيين، ولم يذكر شيئاً كافياً عن مضمون الرسائل التي استلمها من سعاده بواسطة الرفيق الجدع في سرحمول، وكل هذه المسائل على درجة كبيرة من الأهمية في تاريخ الحزب. والأكثر أهمية هو مصير رفـات الزعيم التي اسـتلمها عبد المسـيح ودفنهـا في غرفته في بيت مري، فهذه المسـألة كان على عبد المسـيح أن يوضحها ويفرج عن حقائقها للتاريخ. إن هذه الأمور مجتمعة تدفعنـا للتوقـف عند كل مـا يثار عن عبد المسـيح وطرح كل ما يتعلق بـه، فتاريخ عبد المسيح في الحزب هو جزء على قدر كبير من الأهمية في تاريخ الحزب.

مغادرة عبد المسيح وندمه الغريب على المغادرة قبل أن يغادر

إن مسألة سحب أو انسحاب عبد المسيح من المطبعة باكراً يوم 9 حزيران، على غير عادته، تختلف كثيراً عن مسألتي سلة القنابل ورامز البستاني، إنها حقيقة مؤكدة رواها عبد المسيح نفسه في مذكراته وأحاديثه وبررها بما يثير عند البعض تساؤلات جديرة بأن نتوقف عندها كما يلي: مرة يقول إنه ذهب إلى الفريكة لكي لا يموت أحد المعلمين ومدير المدرسة غائب، ومرة يقول إنه ذهب ليراقب أمور المدرسة لأن التلاميذ يشكون من إهمال الأستاذ جورج مصروعة وغياب أستاذ الرياضيات ومرض أستاذ الإنكليزي وخطورة مرضه. في المرة الأولى يقول: «إن معلم اللغة الإنكليزية، مستر تشارلي، أصيب بعارض مرضيٍّ قاسٍ جعله يودّع المعلمين والعمال ليفارقهم إلى الأبدية، فبعثوا من يأتي بي إلى المدرسة فلا يموت الإنكليزي ومدير المدرسة غائب» (بدأ جمراً. ص 211).

أما المرة الثانية فيقول: «...فقد جاء إلى مكتب التحرير تلميذان من مدرسة الفريكة التي كنت أديرها هذه السنة المدرسية، وأخبراني أن المعلم الإنكليزي مريض وحالته خطرة وأن الأستاذ جورج مصروعة يهملهم، وهم في صف التحصيل النهائي، وأن معلم الرياضيات لم يعد كما وعد. فاضطررت أن أعود إلى المدرسة لأراقب الأمور بعد أن تركتها تماماً مدة شهرين كنت خلالها منهمكاً في أعمال الجريدة. ولكني كتبت أمامهما في المفكرة التي كانت في جيبي: أنا ذاهب معكما ولكني أشعر أنني سأندم على تركي المطبعة هذه الليلة، وقد ندمت فعلاً. كنت أعرف أن الكتائبيين يعدون عدتهم لحفلة في المقهى المقابل لمدخل المطبعة، وكنت أعرف أن هؤلاء قد تهددوا وتوعدوا. وقد جاء لي من قال إنهم اتصلوا ببعض الأعضاء القوميين في المحلة وهددوا بأنهم سيقومون بأمر ما إذا تحرش القوميون بهم. والقوميون لا يتحرشون، وهذا ما جعل هذه التهديدات عديمة القيمة بنظري... ومع هذا كنت أشعر أني سأندم، وذلك لخوفي أن يقوم الزعيم بزيارته المعتادة إلى المطبعة تلك الليلة وأن يجرؤ الكتائبيون على التحرش بالحرس فتقع الواقعة التي لا نرغب فيها. ولكن وصل تلك الساعة الرفيق عبد الرحمن بشناتي ليأخذ بعض أعداد الجريدة لمكتب الزعيم، وقال لي إن الزعيم لن يأتي تلك الليلة لأنه ينتظر مقابلة شخص ما عند الساعة السابعة، فاطمأنيت نوعاً ما» (أيام قومية ج 4 ص 36- 37).

وكان قد قال صفحة 35: «ومن الضروري هنا أن ندوّن أن الزعيم ذهب لتفقد المطبعة في الجميزة يوم الحادث وهو لا يعلم أن الكتائبيين يقيمون تجاه المطبعة في مقهى عام احتفالاً بعد ردة رجل لزيارة حضرة الزعيم في يوم الأحد الذي سبق لآل الشامي في الجميزة- المنطقة التي يريدها الكتائبيون مسيحية صافية لتوازن البسطة المحمدية الصافية».

إن ارتباك عبد المسيح في روايته هذه نقرأه ونلاحظه في أكثر من تفصيل: بالنسبة لعبد المسيح سعاده لم يكن يعرف، أما عبد المسيح فيعرف أن مخاطر جدية تتهدد الزعيم بسلامته. ألم يكن ما يعرفه عبد المسيح، وما باح به وأفصح عنه، كافياً لكي يبلغ الزعيم عنه؟ ما الذي منع عبد المسيح من إعلام الزعيم بالمخاطر والمحاذير وهي مخاطر ومحاذير حقيقية مادية ملموسة وليست تخميناً واحتمالات يمكن أن تصح أو لا تصح؟ وهل ما قاله الرفيق عبد الرحمن بشناتي له كافٍ لاطمئنانه؟ وهل أخلاق القوميين وعدم احتمال أن يتحرشوا هم بالكتائبيين كافياً لمنع الكتائبيين من التحرش؟

وعندما أيقظه الرفيقان فريد الصباغ وإدغار عبود الساعة 30, 2 بعد منتصف الليل يقول: «وحالما وقع نظري عليهما عرفت أن حادثاً وقع في المطبعة، فسألت عن سلامة الزعيم واطمأنيت إلى ذلك» (ص 37). وكأن عبد المسيح ينتظر خبر وقوع الواقعة، إذ إن هاجس تعرض الزعيم لحادث خطير هو هاجس كان مسيطراً كلياً على خاطره. ورغم ذلك غادر المطبعة ولم يبلغ الزعيم عن هاجسه ومعلوماته، وكان يستطيع فعل ذلك بسهولة تلفونياً أو على الأقل بواسطة الرفيق عبد الرحمن بشناتي، ولكنه لم يفعل. إن عبد المسيح كان قد اتهم الياس جرجي وعيسى سلامة وعبدالله محسن ومعروف صعب بالخيانة لأنهم بنظره تهاونوا بإبلاغ الزعيم عن نية حسني الزعيم بتسليمه إلى السلطات اللبنانية، واتهاماته لهم غير مبنية على حقائق أكيدة، فهل يحق لنا نحن أن نتهمه نفس الاتهام، واتهامنا أقوى لأنه مبني على اعتراف صريح وفصيح منه؟

نعود إلى رواية عبد المسيح. إن هاجسه كان متمكناً منه ومهيمناً عليه وعلى عقله حتى إنه يقول إنه ترك المطبعة مع علمه أنه سيندم! كلنا يندم على أخطاء نرتكبها في حياتنا ولكن ندمنا يحدث بعد وقوع الضرر وليس قبله، أي حيث لا ينفع الندم، فالندم لا ينفع بعد وقوع الضرر بل ينفع قبل وقوعه. أن نتوقع الندم على فعل شيء لم نفعله

بعـد، يكـون ذلك من حسـن حظنا ويكـون فرصة لنا لتفـادي ضرر نعرف أنه سـيقع. أما عبد المسـيح فقد شـعر بالندم قبل وقوع الضرر وكان يمكنه أن يسـتفيد من شـعوره ويتفادى الضرر، لكنه لم يفعل!

الفهم السطحي للأحداث

قـد يكـون تقييم عبد المسـيح للأمـور تقييماً خاطئاً وقتهـا، قد يكون متعباً يومها أو منصرفاً بكليته لشؤون المدرسة في الفريكة ولم يعد قادراً على التفكير بأي شيء آخر، قد يكـون وقد يكون... لكن هل يجوز لكل هذه المبررات أن تصرف عبد المسـيح وتأخذه بعيـداً عـما يتعلق بسـلامة الزعيم؟! على كل حال فـإن عدم نقل عبد المسيح معلوماته للزعيـم لم يعرّض الزعيم للخطر، فالزعيم كان عارفاً بكل شيء وقد أوفد قبرصي لعند مدير الشرطة القاضي ناصر رعد، كما رأينا فوق.

لا يجـب أن نتوقـع مـن عبد المسـيح أن يكون في ذلك الوقـت متنبهاً لـكل العوامل المتداخلـة داخلياً وخارجيـاً. لا يجب أن نتوقع منه، أو من غيره من معاوني سـعاده، أن يحسـب حسـاباً للعوامل الخارجية الأجنبيـة وتدخلاتها المبـاشرة في تفاصيل الأحداث ومجرياتهـا، فمـن هذه الناحية كان عبد المسـيح مسـكوناً بالعداء للشـيوعية واليهودية، وأحيانـاً كان يدمـج بينهما ولا يرى مصدراً للعداء يأتي إلينـا إلا منهما. لم يكن يقيم وزناً لتهديدات الكتائبيين «بأنهم سـيقومون بأمر مـا إذا تحرش القوميون بهم، والقوميون لا يتحرشون، وهذا ما جعل هذه التهديدات عديمة القيمة بنظري». حتى إنه كان يرى أن عداء رياض الصلح لنا وحقده علينا يكمن في شيوعيته وكونه مرتبطاً مع السوفيات. كما يعتـبر أن الحكومة اللبنانية هي التي حرضت أميركا ضد الحزب وأقنعتها أن مصلحتها هـي بمحاربتنا فاقتنع الأميركيون وسـاندوا حكومة لبنان علينـا. إنه يقول: «وقد ألقى المتحكمـون في روع أمـيركا أن ربحنا لا يترك مجالاً ليد مسـتثمرة في البلاد، فسـاندوهم في ضرورة إبادتنـا» (أيام قوميـة ج 4 ص 30). وأيضاً: «وحقد رياض الصلح هو كونه مرتبطـاً ارتباطاً أكيداً مع السـوفيات منذ عـام 35» (ص 14). وكان في الصفحة 12 قد تكلم عن «شيوعية رياض الصلح».

وعبد المسـيح لم يكن وحده يرى الأمور هكذا، بل إن مجمل أعوان سـعاده كانوا في

نفس المستوى من الفهم السطحي لما يجري حولهم، وكان سعاده قد أعيته عملية رفعهم وتأهيلهم إلى أن اضطر إلى حل مجلس العمد أواخر شهر أيار وتولي وحده تدبير وإدارة الأعمال السياسية والإعلامية وخوض معركة الدفاع عن الحزب في أصعب الأوقات وأخطرها.

في هذه الظروف الحزبية الداخلية المأزومة بدأت خطة ضرب الحزب وملاحقة الزعيم، فما حدث في الجميزة كان حادثاً موقوتاً ومخططاً له في ظروف مؤاتية ومختارة، لقد أريد منه أن يبادر القوميون هناك إلى إطلاق النار واستعمال القنابل وإيقاع قتلى وجرحى بدعوى الدفاع عن الزعيم وإخراجه من دائرة النار، ويكون ذلك مبرراً للحملة المهيئة سلفاً لضرب الحزب وبدء مرحلة المطاردة والتوريط.

الدور المرسوم للحكومة اللبنانية

يعتقد البعض أن الحكومة اللبنانية قد اتخذت قرار قتل سعاده في جلسة مجلس الوزراء تاريخ 6 حزيران 49، أي قبل حادث الجميزة بثلاثة أيام (التاريخ كما يشتهيه أهل الفقيد، بدر الحاج ص 30)، وأن سعاده قد علم بذلك عن طريق تسريب هذا القرار بواسطة وزير الداخلية آنذاك جبرايل المر وإبلاغه للأمين فريد الصباغ ليوصله إلى سعاده. لنا عودة إلى هذه المسألة بعد قليل، لكنني الآن أريد أن أخالف بدر الحاج في نقطتين هما:

1- إن قرار القتل لم يتخذ في تلك الجلسة، بل إن الحكومة اللبنانية كانت أصغر وأضعف وأعجز من أن تتخذ هي قرار القتل. إن قرار القتل اتخذ في الدوائر الصهيونية بعد فراغ سعاده من إلقاء محاضراته العشر، وتعاونت المخابرات الأميركية والفرنسية والإنكليزية على رسم خطته وتنفيذه. وما الحكومة اللبنانية ألا واسطة وأداة واحدة من وسائط وأدوات أخرى. ففي جلسة 6 حزيران كانت الأوامر قد صدرت للحكومة بتنفيذ حصتها الموكولة لها لا أكثر ولا أقل. وهناك حصة أخرى منوط تنفيذها بحسني الزعيم، وغيره أيضاً.

ثم إن الوزير المر لم يسرّب لسعاده قرار الحكومة بقتله، وكأن المر يساعد سعاده ويريد تحذيره حباً به، بل إن المر لعب دوراً مشبوهاً بإيهام سعاده أن الحكومة تريد اعتقاله، لا

قتله، وسنرى الغرض من هذا الإيهام بعد قليل.

2- إن مهمة الحكومة اللبنانية ما بين 6 حزيران و6 تموز، تاريخ إعلان الثورة المسلحة وبدء الاحتكاك المسلح وتسليم سعاده، هي مهمة المطاردة والتوريط وليس القتل بعد. وسنصل إلى تفصيل ذلك فيما يلي.

كيف خرج سعاده من دائرة النار؟

قلنا فيما سبق إن حادث الجميزة كان موقوتاً في ظروف مؤاتية ومختارة، وقد أريد منه أن يبادر القوميون هناك إلى إطلاق النار واستعمال القنابل التي كانت تحت طاولة عبد المسيح وإيقاع قتلى وجرحى من الكتائبيين بدعوى الدفاع عن الزعيم وإخراجه من دائرة النار، فيكون ذلك مبرراً للحملة المهيئة سلفاً لضرب الحزب وبدء مرحلة «المطاردة والتوريط».

لكن سعاده لم يحتج لمعركة مسلحة تخرجه من دائرة الخطر، فقوة شخصيته وشجاعته كانت كافية ليخرج هادئاً محاطاً بزمرة من القوميين تؤدي له التحية الرسمية وسط جموع الكتائبيين المحتشدين المذهولين المشدوهين الذين لم يعاودوا الهرج والمرج إلا بعد ابتعاده. نعم إن سعاده كان شجاعاً جداً ولكن ليست شجاعته وهيبته هي التي منعت الكتائبيين من إطلاق النار عليه وقتله، فالكتائبيون لم يكونوا مكلفين بذلك، فضلاً عن أن وزير الداخلية جبرايل المر لا بد أنه طمأن سعاده وتكفل بحمايته عند مقابلته قبيل وصوله إلى المطبعة. ثم إن إطلاق النار بدأ بعد ابتعاد الزعيم وليس قبل ابتعاده. حتى إننا نذهب إلى الاستنتاج أن الكتائبيين كانوا مكلفين بعدم إطلاق النار قبل ابتعاده. إن قتل سعاده لم يكن مخططاً له أن يتم في ذلك الوقت. لو أن القتل كان مقرراً هناك فإن شجاعة سعاده وهيبته لم تكن لتكفي لردع واحد أو اثنين من الكتائبيين أو حتى من رجال الأمن مكلفين بإطلاق النار عليه من وراء الجموع، وكان من السهل إحاطة مصدر إطلاق النار بالغموض والادعاء أن نار القوميين هي التي أصابت الزعيم وقتلته.

كان سعاده قد وصل إلى بيته عندما بدأ الكتائبيون بإطلاق النار، وقد تلفن له الرفقاء يسألون عما يجب أن يفعلوه وقد بدأ إطلاق النار عليهم وهم غير مسلحين ولا يمكنهم مقاومة النار بأيديهم، فأشار عليهم بالاتصال بالمخفر القريب، لكن لم يطل الوقت قبل

أن يسقطوا جرحى ويتم اقتحام المطبعة وإحراقها. إن الزعيم في تلك الليلة لم يكن في وارد التواري بسرعة ولم تكن بعد قد توفرت له دلائل حملة مطاردة وملاحقة ستبدأ فوراً من قبل السلطات، حتى إنه كان يهم بالذهاب لعيادة رفقائه الجرحى في المشفى (مذكرات عبدالله قبرصي)، أي إنه كان لديه النية والوقت لذلك، وغير صحيح ما يعتقده الكثيرون أنه غادر وتوارى بسرعة تفادياً للاعتقال، لقد أعطى عدة توجيهات وأوفد عدة رسل في عدة مهمات وأجرى عدة اتصالات وتلقى غيرها، وكل ذلك قبل أن يقرر المغادرة والتواري بعد منتصف الليل.

لماذا إذاً غادر الزعيم بيته؟

ما يلفت هنا هو انتظار الحكومة حوالي أربع ساعات إلى أن تجمع عدد كبير من أركان الحزب ومنفذيه العامين ونخبة أعضائه العاملين، وإلى أن غادر الزعيم منزله، قبل أن تداهم هذا المنزل بعد منتصف الليل وتعتقل جميع من في محيطه ومن فيه ما عدا الأمينة الأولى وبناتها (مذكرات الأمينة الأولى ص147). نحن تبعاً لذلك لا نعتقد أن الزعيم قد «أفلت» من قبضة القوى الأمنية الحكومية بل نجزم بأن هذه القوى هي التي أفلتته وأعطته وقتاً كافياً للإفلات، فهي لا تريده معتقلاً الآن بل تريد فقط اعتقال أكبر عدد من معاونيه. إن سعاده لم يقرر المغادرة والتواري إلا متأخراً بعد منتصف الليل بعدما تلقى عدة إشارات وإنذارات كاذبة بأن السلطات في طريقها إلى اعتقاله. كما نعتقد أن سعاده بعد تواريه لم يكن قد تكوّن عنده التصور الكامل لحقيقة مقاصد الحكومة وخطتها ومداها، لم يكن يحسب إلا حساب الاعتقال وضرورة الإفلات منه ولم يكن القتل قد ورد في حسابه.

من مراجعة مختلف المرويات عن هذه المرحلة القصيرة نستطيع إبراز الأمور التالية:

تضاربت الروايات حول إذا كان الزعيم قد قرر القيام برد مسلح أو لم يقرر القيام برد مسلح ضد حزب الكتائب، جبران جريج يقول إن سعاده قرر ذلك وأوعز للمسؤولين الذين توافدوا إلى منزله في رأس بيروت أو الذين استدعاهم هو بأن يتولوا الرد على غدر الكتائبيين وتواطؤ قوى الأمن. نحن لا نعتقد ذلك فلا بد أن جبران جريج التبس عليه الأمر في هذه المسألة. جبران يقول إن سعاده أرسله وعبدالله قبرصي لاستطلاع بيت

الكتائب في الصيفي ومنطقة الجميزة ومخفرها، لكن قبرصي يقول إن سعاده أرسلهما إلى المخفر ليأخذا إذناً لـه لتفقد الجرحى في المشفى. وإذا كان إبراهيم يمّوت ومحي الدين كريدية وأحمد حكيم وضعوا خطة هجوم على القصر الجمهوري واستطلعوه، كما يروي إبراهيم، فهذا من واجبهم كعسكريين ولم يقل إبراهيم يمّوت إن سعاده كلفهم به. هم توجهوا إلى مخفر الجميزة وبيت الكتائب بعد منتصف الليل وعادوا لعرض خطتهم على الزعيم ولكنهم كانوا قد تأخروا وكان الزعيم قد غادر وكان بيته قد طُوّق (مع أنطون سعاده ج 4 ص 166). أما أن الرد لم يحصل في اليوم التالي فلأن الحكومة كانت أسرع وكانت استعداداتها منجزة ولديها خطة استباقية جاهزة، فضلاً عن ارتباك رجال الحزب المفترض أنهم سيتولون الرد والذين ما لبثوا أن حوصروا في بيت الزعيم وتم اعتقالهم جميعهم في وقت قصير دون مقاومة بعد مغادرة الزعيم. إن سعاده لم يقرر الرد المسلح ولم يكلف أحداً به، فهو كلف جبران وقدورة بتفريق القوميين المتجمعين وأوصى القياديين منهم بالتواري وعدم المبيت في بيوتهم. وعن وجود بيار الجميل وجوزيف شادر والياس ربابي في مخفر الجميزة في ساعة متأخرة من الليل فلم يكن لأنهم كانوا يخضعون للتحقيق وأن «التحقيق كان آخذاً مجراه القانوني» حسب ظن جبران جريج (ص 165)، فالتحقيق لا يتم في آخر الليل، بل كان وجودهم هناك لأنهم توقعوا رداً عنيفاً من القوميين فأرادوا التأكد والاطمئنان إلى سهر وجهوزية قوى الأمن الحكومية للتعامل مع الرد المتوقع، والمطلوب، وحماية بيت الكتائب المركزي القريب في الصيفي، وكان لا يزال اسمه «الباز نافال» أي القاعدة البحرية التي كانت للفرنسيين. إن الرد العنفي من قبل القوميين هو ما كانت تريده وتنتظره الحكومة ليكون مبرراً لها للبدء في حملتها، إن الحكومة أعطت القوميين فرصة طويلة للرد الذي كانت ترغبه، وعندما لم يحصل هذا الرد انتظرت إلى ما بعد منتصف الليل إلى أن غادر الزعيم واعتقلت كل من كان متواجداً حول بيته.

الاختراق الأمني

لقد كان الحزب مخترقاً أمنياً ومكشوفاً تماماً لأعدائه، لقد كان على رأس القوة الأمنية الحكومية التي حاصرت بيت الزعيم واعتقلت أركان الحزب جميعهم، قائد منطقة بيروت العسكرية جميل الحسامي وهو كان حتى تلك اللحظة محسوباً في الحزب كعضو

قومي اجتماعي سري! المسؤولون في الحزب كانوا يتهاونون أكثر من اللزوم في موضوع قبول عضوية أفراد وضباط الجيش اللبناني في الحزب. المسؤول عن «السلك» كما كانوا يسمونه، أي عن الأعضاء العسكريين السريين، كان جبران جريج لفترة طويلة ثم أبدله سعاده بالرفيق فؤاد محلي وعيّن مصطفى عز الدين ناموساً له (مع أ. سعاده ج 4 ص 159)، لكن إبداله جاء متأخراً وكان الحزب أصبح يعج بالأعضاء المدسوسين. فجميل الحسامي مثلاً كان واحداً منهم ولم يكشفه جبران إلا عندما جاء على رأس القوة الأمنية التي طوقت بيت الزعيم واعتقلت من فيه. يقول جبران (ص 169): «...أجبته بصوت فيه الكثير من الحدة وأنا العارف بأنه سوري قومي اجتماعي تابع لشعبة السلك: كيف تجرؤ بالمجيء إلى بيت زعيمك لمداهمته واعتقال من فيه؟». ويبدو أن سعاده كان متنبهاً لهذه الناحية وكان قد أنشأ جهازاً لضبطها هو مكتب «م.أ.م» أي المكتب الأمني المختص، ولم يقم هذا الجهاز بعمله كما يجب، ما استدعى متابعة سعاده نفسه فأرسل ثلاث رسائل تنبيه للرفقاء الثلاثة الذين كانوا على رأس هذا الجهاز، إبراهيم يمّوت ووليم سابا وولسن مجدلاني (الأعمال الكاملة ج 11 ص 327 و28و 29). وقد أشرنا في مكان آخر من هذا البحث إلى أن سعاده كان يعاني من ندرة المؤهلين للمسؤولية ولم يكن قد انتهى بعد من تطهير الحزب من اختراقات السلطة في فترة غيابه واغترابه القسري. إنه كان قد حلّ مجلس العمد والمجلس الأعلى وكان يبحث عن العناصر المؤهلة، بل كان يبنيها ويهيئها ويتعهدها بصبر ومثابرة وثبات. لكن هذا البناء وهذا التعهد لم يكن قد اكتمل وأثمر بعد.

خطة المطاردة والتوريط

لقد قلنا فوق إن الحكومة اللبنانية لم تكن مهمتها القبض على سعاده في بيته، لأن الهدف كان قتله وليس اعتقاله، والقتل يحتاج إلى سبب كافٍ لإقناع العالم والرأي العام، فكان لا بد من مطاردته واستفزازه لتوريطه بها تستطيع الحكومة أن تأخذه عليه ويكون كافياً كذريعة للقتل فيما بعد. منذ ليلة 9- 10 حزيران إلى ما بعدها خلال اشتداد حملة الاعتقالات ضد القوميين في جميع مناطق لبنان، لم تكن التهمة الموجهة إلى سعاده والحزب سوى أنه كان يعد لانقلاب وأنه يتصل باليهود. هذه التهمة هي صالحة كذريعة للمطاردة وليس للقتل. فهذه التهمة بحاجة لإثبات والإثبات بحاجة لمحاكمة ومرافعة، وفي هذا المجال كانت الحكومة تعرف أنها ستكون هي الخاسرة ويكون سعاده

هو الرابح. ذلك أن الحكومة تعرف ورئيسها يعرف ومن وراءهما يعرف أن الذي يتصل باليهود ويتعامل معهم هو رئيس الحكومة نفسه وليس سعاده، وأن الحكومة تعرف ومن وراءها أيضاً يعرف أنهم لا يستطيعون إثبات تهمة الإعداد لانقلاب على حزب لا مال ولا سلاح ولا خطط عنده للانقلاب. لذلك فالحكومة ومن وراءها كانوا يطبخون تهمة أخرى وكانوا يحضّرون لوازمها، كانوا يريدون توريط سعاده بعمل مسلح يقوم هو به وكانوا ينتظرون سقوط أول قتيل من القوى الأمنية الحكومية. إن اعتقال سعاده في بيته أو في مكان تواريه كان سيسقط من يدهم ذريعة القتل. سنورد فيما يلي دلائلنا وبراهيننا على أن الحكومة تركت سعاده يتوارى بل دفعته دفعاً للتواري، ثم دفعته دفعاً لمغادرة بيروت ولبنان والذهاب إلى دمشق، وحتى أنها سهّلت له ذلك دون أن يدري وأوقعته في دائرة القطب الثاني لخطة القتل، نعني حسني الزعيم.

الدلائل الأربعة

1- الدليل الأول: عبدالله قبرصي وجبران جريج وفريد الصباغ وإدمون طوبيا.

قبرصي يروي في مذكراته قصة ذهابه مع جبران جريج إلى مخفر الجميزة للحصول على إذن للزعيم لمقابلة الجرحى وتفقدهم في المشفى، بناء على طلب الزعيم نفسه، ويقول إنه تكلم هناك مع المدعي العام أسعد بدوي... «وقبل أن يجيبني ناداه من بعيد المفوض عصام حلواني قائلاً: أرى أن ترسل قوة إلى رأس بيروت. ولما رآني حلواني سكت وهرول ليكلم المدعي العام. قلت في نفسي إن القوة هذه ضدنا لا معنا، إذ لو كانت معنا لاستمر المفوض العام في حديثه العالي والصارخ». إن قبرصي كان يجب أن يعرف أن إرسال قوة إلى رأس بيروت لا يتم عبر تعليمات من المفوض العام إلى المدعي العام من بعيد وفي «حديث عالٍ وصارخ»، حسب قبرصي، بل يتم اتخاذه وتبليغه خطياً في قيادة بيروت العسكرية وليس في مخفر الجميزة. وكان على قبرصي أن يعرف أن المفوض العام يحاول إيهامه بأن سعاده يواجه خطر الاعتقال، ويريده أن ينقل لسعاده ويحذره من خطر الاعتقال، علّ سعاده يترك منزله ويتوارى.

أما جريج فيروي ما يلي: «استاذنت الزعيم بالاتصال بالرفيق حسواني رئيس الشعبة الثانية العسكرية فسمح لي أن لا أغيب طويلاً لأن الوقت ضيق مجاله. ذهبت

بمفردي فوجدته يفتش عن وسيلة للاتصال بي فلديه معلومات هامة. دُعي إلى القصر الجمهوري الذي كان يشهد انعقاد مجلس الوزراء فرأى رياض الصلح يعربد ويحرض، هو المحور لكل شيء، وزير الداخلية جبرايل المر أصفر الوجه يقاوم لكن بضعف متناهٍ. رئيس الجمهورية شاهد زور، موافقته صامتة. قال لي: جئت في وقتك. سيداهمون منزل الزعيم والأوامر في طريقها إلى قيادة بيروت العسكرية لتطويق منطقة رأس بيروت، بالله عليك اذهب فلا وقت للانتظار» (من الجعبة ج 2 ص 167). ويضيف جبران إنه نقل هذه التحذيرات إلى الزعيم الذي اقتنع بضرورة مغادرة المنزل قبل فوات الأوان. إنه من السهل جداً رؤية الخداع الذي اعتمده الحسواني، هذا «الرفيق السري» المزروع في الحزب من قبل رؤسائه العسكريين. كيف لرئيس الشعبة الثانية أن يُستدعى لداخل مجلس الوزراء ويسمع كل ما رواه لجبران عن مواقف كل من رياض والخوري والمر، كأنه كان حاضراً للجلسة كلها، وكيف لجبران أن يصدق هذه المسرحية.

العميد الركن المتقاعد فرنسوا جنادري نقل لمطانيوس يوسف في حديث أجراه معه سنة 1994 بأن إيلي حسواني كرئيس للشعبة الثانية في الجيش وجبرايل المر كوزير للداخلية كانا حاضرين اجتماع المجلس الأعلى للدفاع الذي انعقد برئاسة الصلح في أوائل حزيران والذي دام سبع ساعات طوال الليل واتخذ فيه قرار حلّ الحزب وتوقيف جميع المسؤولين فيه، وتنفيذ هذا القرار 11 حزيران. فلو كان الحسواني مخلصاً لكان عمد إلى تبليغ هذ القرار إلى الحزب في حينه. إن الملازم حسواني كان مكلفاً بنقل أخبار نية اعتقال سعاده إلى جبران لكي ينقلها جبران إلى سعاده لكي يغادر سعاده منزله ويتوارى. وهذا السيناريو يتقاطع مع ما ذكرناه عن رواية فريد الصباغ بأن جبرايل المر استدعاه وكلّفه بنقل تحذير لسعاده كي «يدبر حاله» قبل أن يتم اعتقاله، وأيضاً ما نقله فريد صباغ عن لسان إدمون طوبيا من أن بشارة الخوري أوعز له ليخرج الزعيم من منزله قبل اعتقاله. إن جاسوسية إيلي حسواني تأكدت أيضاً في شهادة العميد فرنسوا جنادري أمام الرفيق الدكتور مطانيوس يوسف إبراهيم سنة 1994 حيث يقول إن الحسواني كان ضمن الفريق العسكري اللبناني الذي استلم سعاده من الأمن العام الشامي، وإن الحسواني نفسه هو من أخبر جنادري عن تفاصيل محاولة قتل سعاده على الطريق (مطانيوس يوسف ص 650). كما أن كاتب المحكمة الأستاذ إبراهيم بري قال: «التفتُّ إلى رئيس الشعبة الثانية الملازم أول حسواني أسأله: هل إذا حكم الزعيم

بالإعدام سينفذ الحكم حالاً أو يأخذ وقتاً تستلزمه الشكليات القانونية؟ رد الملازم حسواني: لا، سينفذ به الحكم حالاً». إن كل ذلك يعني بلا ريب أن الحكومة تريد لسعاده أن يتوارى وأنها لا تريد اعتقاله لأن اعتقاله لم يحن وقته بعد.

2- الدليل الثاني: التفتيش المتكرر لبيت سعاده.

استمر تفتيش بيت سعاده كل ليلة، بحثاً عنه، طيلة أيام تواريه قبل انتقاله إلى دمشق، مع أن الحكومة تعرف أن سعاده ليس في البيت، وذلك لنقل رسائل له من الحكومة وإيهامه أنها جادة في البحث عنه لاعتقاله. واستمرار مرابطة قوى الأمن حول بيت الزعيم للغرض نفسه. بالإضافة إلى أن الرفيق جوزيف حداد كان «يستطيع» التسلل والدخول كل يوم إلى بيت الزعيم، رغم كل الحصار والتفتيش اليومي، لينقل أخبار البيت إلى الزعيم وتعليمات الزعيم إلى الأمينة الأولى، فلا بد للرفيق جوزيف أن يخبر الزعيم أن الجيش مستمر بالمراقبة الشديدة وتفتيش البيت بحثاً عنه، وهذا بالضبط ما تريد الحكومة للزعيم أن يعرفه. طبعاً الرفيق جوزيف، كما الزعيم والأمينة الأولى كانوا يظنون أن قوى الأمن لا تعرف «بتسلل» أحد واختراقه الطوق ودخول بيت الزعيم، ولا يدرون أن هذه القوى هي التي كانت تتعمد أن «لا ترى» جوزيف حداد يدخل بيت الزعيم.

بالإضافة إلى ذلك فقد عرضت الحكومة جائزة عشرة آلاف ليرة لمن يرشد إلى مكان وجود سعاده وتسهيل القبض عليه، وأطلقت إشاعات تقول إن الجيش سيطلق النار عليه فور رؤيته. كل هذه المعلومات ووقائعها وتفاصيلها ذكرتها الأمينة الأولى في مذكراتها على الصفحات 149 حتى 151 وهذه الوقائع تعني أن الحكومة كانت تريد للزعيم أن يعتقد أنها تريد إلقاء القبض عليه، ما يدفعه إلى التواري بعيداً... إلى دمشق. وعندما انتقل الزعيم إلى دمشق، ولم يكن خبر انتقاله قد ذاع بعد، توقف التفتيش الليلي وخفّ الطوق عن البيت واستطاع الرفيق فؤاد زحلان أن يذهب إلى بيت الزعيم ويخبر الأمينة الأولى أن الزعيم أصبح في الشام (ص 156). ودليلنا أن انتقال الزعيم إلى دمشق لم يكن قد شاع بعد هو أن بيان 16 حزيران الذي أصدره سعاده من دمشق وقعه وكأنه صادر من بيروت. لقد وقعه هكذا: بيروت في 16-6-1949.

3- الدليل الثالث: مقابلة واعتراف فريد شهاب.

في 12 تموز 1980، وفي ذكرى استشهاد سعاده الواحد والثلاثين، نشرت جريدة الحزب صباح الخير- البناء (العدد 256) مقابلة مطولة مع فريد شهاب الذي كان المدير العام للأمن العام اللبناني، والذي لعب دوراً رئيساً في ملاحقة سعاده واعتقاله منذ سنة 1935 إلى سنة 1949 (يمكن قراءتها كاملة في كتاب الأمين أحمد اصفهاني «سعاده والحزب في أوراق فريد شهاب» ص 174 إلى 184). في هذه المقابلة يقول شهاب إنه كان مكلفاً من الحكومة باعتقال سعاده بعيد حادثة الجميزة وإنه كان يراقبه من منزل مقابل للمكان الذي كان سعاده فيه، وإنه امتنع عن اعتقاله! الحوار الصحافي مع شهاب أجرته الصحافية «عزة» ولا ندري لماذا لم تسأله عزة عن المكان المعين الذي كان فيه سعاده منظوراً ومراقباً من شهاب، ولماذا لم تتوقف وتطلب المزيد من التفاصيل حول هذه النقطة بالذات وعن السبب الوجيه الذي حدا بشهاب للامتناع عن اعتقال سعاده هذه المرة، في وقت أن شهاب نفسه استفاض خلال المقابلة بالقول إنه كان نظامياً ودقيقاً في تنفيذ أوامر رؤسائه في كل الظروف. «إن واجبي كان الأهم» يقول، «إني ما تعودت إلا أن أكون مسؤولاً عن كافة القرارات التي أكلف بتنفيذها» (نفس المصدر). يظهر أن عزة كانت مهتمة كثيراً بمديح فريد شهاب وهي التي قدمت للمقابلة بإضفاء صفات الصدق والنزاهة لضيفها ولإخلاصه لوطنه ولوظيفته لدرجة أنها أغفلت أو نسيت التوقف عند التفاصيل المهمة والخطيرة. ونحن لا نستبعد أبداً أن يكون فريد شهاب هو الذي طلب هذه المقابلة الصحفية، بل أن يكون قد اشتراها ودفع ثمنها ليحمي نفسه من القوميين سنة 1980 حيث كان القوميون في ذلك الوقت أقوياء عسكرياً والدولة ضعيفة وشبه غائبة، وكان فريد يريد حماية نفسه من عقدة الذنب التي تلاحقه من جراء دوره في استشهاد سعاده كما في كل مراحل الاعتقالات التي طالته وطالت أركان الحزب. كان القوميون قد أوقفوا سامي الخطيب على إحدى نقاطهم الأمنية دون أن ينتظروا أمراً من قيادتهم السياسية، هذه القيادة السياسية التي لم تستطع الاستفادة من اعتقال سامي الخطيب بل كانت مضطرة للإفراج عنه فوراً لأن الخطيب كان محمياً ممن «يمونون» على سياسة قيادة الحزب. لا شيء كان يضمن لفريد شهاب أن يحصل معه أسوأ مما حصل مع سامي الخطيب، فبادر شهاب إلى التقرّب والتملّق وشراء المقابلة الصحفية المشار إليها. إن المقابلة الصحافية كلها كانت ليقول شهاب إن

الحكومة كلفته باعتقال سعاده وإنه هو لم ينفذ أمر الحكومة ولم يعتقل سعاده رغم أنه كان يعرف مكانه ويراقبه. لقد قال:

«وكانت الأوامر المعطاة لي باعتقاله، لكنني لم أنفذها ولم أعتقل الزعيم وقتها لأنني كنت مقتنعاً بأن اعتقاله ليس لمصلحة لبنان». هكذا بلع فريد كل أقواله السابقة بأن واجبه هو الأهم وأنه ما تعود إلا أن يكون مسؤولاً عن القرارات التي يكون مكلفاً بتنفيذها، وقال إنه لم ينفذ الأوامر هذه المرة. إنه لمن السهل اكتشاف الكذب في حديث فريد شهاب خلال المقابلة، ولنا من شهادة نمر الصيداني (سامي خوري ص 169) التي تفضح كذب فريد شهاب حول مسألة اغتيال سعاده على الطريق من دمشق إلى بيروت، خير دليل. إن رواية فريد شهاب في مقابلته الصحفية، وأكاذيبه خلالها، تشير بوضوح إلى واحد من الاحتمالين التاليين اللذين لا بديل لهما: إما أنه كان مكلفاً من الحكومة بمراقبة سعاده وإبقائه تحت النظر وعدم اعتقاله، وهذا هو الأرجح، وإما أنه كان مكلفاً من الحكومة باعتقاله فعلاً ولكن من هم وراء الحكومة لا يريدون اعتقاله بل يريدونه أن يتورط بردة فعل دموية تبرر اعتقاله وإعدامه، وأن فريد شهاب كان يأتمر بأوامر الذين هم وراء الحكومة وليس بأوامر الحكومة.

أما عن شهادة نمر الصيداني التي أخذها منه الرفيق إليان شما سنة 2002 وسجلها على شريط مدمج ونشرها في جريدة الديار تاريخ 27 أيار 2000، فملخصها أن نمر كان شخصياً بصفته موظفاً في الأمن العام يقود سيارة مديره فريد شهاب، وفي المنطقة بين الجديدة والمصنع أعطى فريد أمراً للصيداني بإطلاق النار على سعاده وقتله. الصيداني ينتفض ويقول إنه رجل مسلم مؤمن بالله الذي يحرم قتل نفس بريئة، وفريد شهاب يكرر عليه بشدة أمر إطلاق النار على سعاده ويهدده ويقول له إن هذا أمر رسمي وعليه تنفيذه وإلا اعتُبر متمرداً.... وهذه الشهادة لخصها أيضاً أنطون بطرس في كتابه (قصة محاكمة أنطون سعاده وإعدامه ص 87- 88). المهم في الأمر هنا هو أن فريد شهاب كان يكذب في روايته لجريدة صباح الخير البناء. وهناك شاهد آخر على كذب شهاب هو العميد الركن فرنسوا جنادري الذي روى لمطانيوس يوسف أن «فريد شهاب ترجل من سيارة الجيب وطلب من الضابط حبيب بريدي رئيس الشرطة العسكرية بأن ينفذ أمر قتل سعاده وأن المكان هو مكان مثالي، 3 كلم قبل شتورة لجهة الحدود،

وأن بريدي غضب ورفض أمر قتل سعاده (مطانيوس يوسف ص 650). أما اختلاف الأسماء من نمر صيداني إلى حبيب بريدي فيمكن تفسيره بأن فريد طلب من الثاني قرب شتورة بعدما كان قد طلب من الأول قرب المصنع. إن رواية جنادري، الذي يقول إن إيلي حسواني نقلها إليه كشاهد عيان، هي رواية تكتسب مصداقيتها من أنه لم يكن هو متورطاً فيها بأي شكل من الأشكال وليس بحاجة لمراضاة القوميين، وهو قد روى روايته سنة 1994 حيث لم يكن الحزب مسلحاً ومقاتلاً كما كان سنة 1980 عندما أدلى فريد شهاب بحديثه، بل كان الحزب منخرطاً في الحياة السياسية اللبنانية وله وزير في الحكومة.

4- الدليل الرابع: الأسئلة الثلاثة.

سليم سعدو سالم كان واحداً من الرفقاء المقاتلين (ناظر تدريب منفذية دمشق) الأسرى الذين كانوا في الحملة العسكرية الرئيسة بقيادة الشهيد الصدر عساف كرم، وقد استشهد عساف على بعد مترين من سليم. يروي سليم ماذا حدث في المحكمة العسكرية ويقول: «كنا ستة قوميين، رجا المسالمي وعبد الهادي حماد ومحمد شلبي وسليم سعدو سالم، أما الآخران فقد يلتبس الأمر عليّ اليوم بين إميل رفول وإدمون كركور وأومير توما.... ثلاثة أسئلة فقط، هل هذا أنطون سعاده؟ هل هو من وزع عليكم السلاح؟ هل خطب فيكم؟.. هذه الأسئلة الثلاثة ولا شيء أو كلمة غيرها، وترتفع يد أحد الجالسين وراء المنصة فيقتاد الجنود من اعتبرته المحكمة شاهداً إلى الخلف قليلاً ليتقدم رفيق آخر، وهكذا... الأسئلة الثلاثة نفسها. كانت الأسئلة مصوغة بحيث يكون الجواب عليها بكلمة نعم» (سليم سعدو سالم يعرف ويعترف ص 72). إذاً لا أسئلة عن انقلاب أو اتصال مع اليهود أو التعامل مع دولة أجنبية، والانقلاب والتعامل مع اليهود ومع دول أجنبية كانت هي عناوين الاتهامات ضد الحزب التي ساقتها الحكومية اللبنانية بعيد حادثة الجميزة وكانت هي ما بررت الحكومة بها حملتها ضد الحزب، فكيف اختفت هذه العناوين في المحكمة، وكيف ولماذا اقتصر التحقيق والاستجواب على هذه الأسئلة الثلاثة فقط والتي لا علاقة لها أبداً بعناوين الحملة الحكومية التي بررت بها ملاحقة الحزب؟ الجواب هو أن الحكومة قد وجدت أخيراً ما كانت تطلبه وتسعى إليه: ثورة مسلحة يقوم بها الحزب ضد الحكومة. ولو أن الحكومة

كانت قد قبضت على سعاده في بيروت قبل إعلانه الثورة المسلحة لما كان لها عذر ومبرر بقتل سعاده، فالاتهامات الأولى كان من السهل على سعاده دحضها ولم تكن كافية لقتله، كانت كافية فقط للملاحقة والمطاردة والتوريط. أما وأن الحكومة، ومن وراءها، يريدون القتل وليس مجرد الاعتقال، فقد تفادوا اعتقال سعاده في لبنان أو حتى قتله في لبنان بانتظار أن يبدأ هو من الشام بعمل مسلح ضد لبنان ويمسكونه بهذا «الجرم المشهود».

سعاده يختار بين العصيان في جبل لبنان أو الثورة من الشام

من المهم جداً تقصي الأسباب والعوامل الحزبية الداخلية التي أدت إلى اختيار سعاده الانتقال إلى الشام وإعلان الثورة من هناك بدل العصيان والاعتصام في جبل لبنان كما في سنة 47. هناك روايتان عن هذا الموضوع سنعتمدهما معاً، الأولى للأمين (المطرود) المرحوم فريد الصباغ والثانية لعبد المسيح، والروايتان تتقاطعان في مكان وتتعارضان في مكان آخر. لدى فريد الصباغ وثيقتان اثنتان، أهمهما هي مذكراته المؤلفة من حوالي 93 صفحة، حصلتُ عليها مطبوعة، أي ليست النسخة الأصلية بخط اليد، لا حق لي بنشرها لكن سأستعين بفقرات منها فقط، مهما كانت هذه الفقرات طويلة ومسهبة، لأن أولاد المرحوم فريد وورثته لم يقرروا بعد نشرها وهم وحدهم أصحاب الحق الحصري في ذلك. أما الوثيقة الثانية فهي رسالته- شكواه الموجهة إلى المجلس الأعلى أوائل الخمسينيات من القرن الماضي يشكو فيها من طرده من الحزب بضغط من عبد المسيح قبل أن توجَّه إليه أية تهمة وقبل أن يتم استجوابه أو يعطى فرصة للدفاع عن نفسه، يعني أن طرده غير قانوني وغير عادل. وهذه حصل عليها الرفيق طه غدار ونشرها في «الكتاب القومي» العدد الخامس، ونجدها أيضاً في باب الوثائق في هذا الكتاب. نحن نعلم أن فريد هو من الشوير بلدة سعاده وكان من أوائل الرفقاء الذين رافقوا سعاده وعملوا معه ولازموه وقد منحه الزعيم رتبة الأمانة بعد عودته من الأرجنتين سنة 47 بعد نجاحه بمسؤولية العلاقة السياسية كضابط اتصال مع رجال الحكومة اللبنانية، ما أدى لإلغاء مذكرة التوقيف بحق سعاده حينذاك.

يروي لنا فريد الصباغ في مذكراته ويؤكد أن سعاده كلفه نهار 9 حزيران، بعد تحذير المر، بأن يذهب إلى الشوير ويتخذ التدابير الضرورية لتهيئة كل متطلبات الاعتصام

والعصيان في نفس المكان الذي اعتصم فيه الزعيم أيام مذكرة الاستجواب ثم التوقيف سنة 1947، وقال له: «سأكون عندكم هذه الليلة» (مذكرات فريد الصباغ ص 82).

إزاء ذلك يصبح علينا أن نفتش عما وعمن دفع سعاده لتغيير خطته والذهاب إلى دمشق بدل الاعتصام في الشوير. إن بقاء سعاده في لبنان كان سيمكّنه ربما من العصيان في الجبال كما حدث سنة 47، لوقت محدود فقط، لأن الظروف سنة 1949 قد تغيرت عن ظروف سنة 1947 لصالح الحكومة بسبب وقوع نخبة القوميين المسؤولين والمنفذين العامين في الأسر. هكذا أصبح خيار الانتقال إلى دمشق وارداً بقوة، خاصة مع تلقي سعاده لأنباء استعداد حاكم الشام لاستقبال الزعيم ومدّه بالمال والسلاح وحتى بالرجال. وفي هذا المجال يبرز دور الضباط القوميين في الجيش السوري الذين يقول عنهم الأمين مصطفى عبد الساتر: «ضباط قوميين اجتماعيين كانوا ناقمين على السلطات الرجعية التي انهزمت في فلسطين سنة 48، وقفوا مع حسني الزعيم خلال وبعد انقلابه موقف المؤيد، وهم الذين كانوا صلة الوصل بين سعاده وحسني، وهم شجعوا سعاده للانتقال إلى دمشق والتحالف معه للقيام بثورة مسلحة في لبنان» (أيام وقضية ص 136). أما جريدة كل شيء فكانت أوضح من مصطفى عبد الساتر وكتبت بتاريخ 19-8-49 تقول: «جاءه في الجبل أربعة من ضباط شرطة الجيش السوري وقد أرسلهم حسني الزعيم داعياً سعاده إلى زيارته وعارضاً عليه كل مساعدة، فوعد سعاده بدرس الأمر، وفي اليوم التالي عاد الضباط الأربعة يحملون إلى سعاده إصرار حسني الزعيم على دعوته إلى دمشق فلم ير عندئذ بداً من تلبية الدعوة على أن يعود بعد ذلك إلى لبنان».

عندما نتكلم على «ضباط قوميين اجتماعيين» وعلى «ضباط أرسلهم حسني الزعيم»، يجب أن نفكر رأساً بأديب الشيشكلي. أديب الشيشكلي كان حسني قد عيّنه مديراً للأمن العام، وهو الضابط الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً فيما بعد، فيجب أن يكون هو على رأس الضباط الذين أرسلهم حسني الزعيم مرتين خلال يومين متتاليين، بل إن أديب الشيشكلي سيلعب دوراً خطيراً جداً ستتعرّف عليه في سياق هذا البحث بعد قليل.

ولا بد أن سعاده قد اتصل بمنفذية دمشق وسمع عن استعدادات الرفقاء هناك

وتحفزهم لاستقبال سعاده وحمايته، بل ولتحفزهم للثورة. إذاً كل المعطيات الخارجية والحزبية الداخلية على السواء كانت تدفع بسعاده للانتقال إلى دمشق. رغم ذلك فمن المفيد تتبع أدوار جميع الأشخاص والقوى التي عملت على تفضيل خيار الانتقال إلى دمشق وإعلان الثورة المسلحة من هناك لأن هذا الخيار هو ما كان يطلبه ويخطط له واضعو خطة قتل سعاده.

كيف أفلت عبد المسيح من الاعتقال ليل 9 - 10 حزيران؟

لقد ذكرنا كيف برر عبد المسيح مغادرته مطبعة الجيل الجديد باكراً وغيابه عن حادثة الجميزة، يبقى أن نذكر كيف نجا من الاعتقال في تلك الليلة رغم أنه يقول إن الحكومة «أرسلت المخابرات التلفونية وأرسلت المراسيل ليلاً إلى جميع الجهات للقبض على المتنفذين المسؤولين في الحزب وأعطيت لوائح بأسمائهم في كل منطقة» (أيام قومية ج 4 ص 31). لقد كان عبد المسيح نائماً في الفريكة ولم يعلم بالحادثة إلا في الساعة 30 ,2 فجراً عندما أيقظه فريد الصباغ وإدغار عبود (نفس المصدر ص 37)، أي بعد خمس أو ست ساعات من حدوثها، أي إنه لم يكن محتاطاً لأي احتمال للقبض عليه. ألم يكن هذا الوقت الطويل كافياً لرجال الأمن للقبض عليه وهم لا بد يعرفون مكانه ويعرفون كيف تم سحبه من المطبعة باكراً؟ يقول عبد المسيح في مكان آخر إن رجال الأمن الحكومي داهمت بيته لاعتقاله لكن الرفقاء كانوا أسرع وقد سبقوا الحكومة بإنذاره فتوارى! لا بد أنه كان يقصد يوماً آخرَ غير 9 حزيران لأنه لم يذهب إلى بيته في تلك الليلة بل إلى الفريكة! ولا بد أن القوى الحكومية كانت تعرف ذلك.

لا يجب أن يظن أحد هنا أننا نقصد التشكيك بأحد مناضلي الحزب الكبار الذي شهد سعاده نفسه على تفانيه وإخلاصه. فإذا كانت السلطات الأمنية اللبنانية لم تعتقله، وإذا كانت المخابرات الإنكليزية قد سحبته بحيلة من المطبعة ليل 9–10 حزيران، ورصدت له دوراً بعد استشهاد سعاده، فإن ذلك لا يعني مطلقاً أنه هو لعب دوراً مشبوهاً باختياره ووعيه ومعرفته. فالزعيم نفسه قلنا إنه توارى كي لا يقع في الأسر ولم يكن يعلم أن الحكومة تريده أن يتوارى وأنها لا تريد أسره. الزعيم تصرف بعد حادثة الجميزة كما كانت الحكومة تريده أن يتصرف، ولا يعني ذلك أن الزعيم كان ينفذ عارفاً ومختاراً ما تريده الحكومة له أن ينفذه.

سعاده يستدعي عبد المسيح وهذا لا يستجيب

الحقيقة أن سعاده استدعى عبد المسيح مرتين وليس مرة واحدة. المرة الأولى يرويها فريد الصباغ في مذكراته وننقلها، مع استدراكنا وشكّنا بصحة بعض التفاصيل كما يلي: يقول إنه ليل 9– 10 حزيران بينما كان في منزله في ضهور الشوير ينتظر سعاده بعد أن هيأ مكان الاعتصام حسب ما كلفه به نهاراً، وبعد منتصف الليل يصل إدغار عبود ويقول له: «إن الزعيم بقي في بيروت وهو يدعوكم لمقابلته أنت والأمين جورج، وأخبرني ما حصل وقال: هذا المساء طلبني الزعيم وقال لي يجب أن تصل بي إلى ضهور الشوير، ونحن في الطريق وعند وصولنا إلى الجميزة طلب مني أن أنتظره بعض الوقت ليذهب إلى المطبعة لإعطائهم بعض التعليمات لنشرها في الجريدة». هذا كان كلام فريد الصباغ، لكن هذا الكلام يتعارض مع ما رواه يوسف سلامة من أنه هو الذي أوصل سعاده إلى المطبعة مع هشام شرابي ولم يذكر إدغار عبود بتاتاً، فربما لم يكن فريد دقيقاً في نقل أو في فهم أو في تذكّر ما رواه له إدغار. يتابع فريد روايته ويقول إنهما ذهبا في سيارة إدغار إلى الفريكة وأخبرا عبد المسيح بما حصل وأبلغاه استدعاء الزعيم له. توجه الثلاثة باتجاه بيروت، «وعندما وصلنا بالقرب من جل الديب قال جورج إن دخولنا إلى المدينة خطر وسيقبض علينا. أجبته إن الزعيم يستدعينا فما العمل. أجابني إذاً أنت المسؤول، وتابعنا سيرنا». عندما وصلوا إلى بيروت قرب بيت جبران جريج شاهدوا شاحنات عسكرية وعلى متنها قوميون استطاعوا أن يميزوا منهم أديب قدورة وجبران جريج وغيرهم. أسرعوا ودخلوا إلى أرض بور تخص الثري الكبير سليم صعب واختبؤوا هناك إلى أن مرت القافلة العسكرية حتى آخر سيارة. فريد يريد أن يتابع إلى بيت الزعيم لكن جورج فضل أن ينتظر في البورة وقال: «أنا سأبقى هنا بانتظارك فيما لو حصل اعتقال يصير على أحدنا وليس على كلينا». ذهب فريد وإدغار وحدهما والساعة قاربت الرابعة صباحاً، وعندما لم يستطيعا الوصول والدخول إلى بيت الزعيم بسبب تطويقه عسكرياً عادا إلى حيث جورج وذهب الجميع إلى جل الديب إلى بيت الرفيق ملحم ماضي أبو جودة وكلفوا زوجته الرفيقة ليندا كي تذهب إلى بيت الزعيم وتقابل الأمينة الأولى وتأتي بالأخبار. وعند رجوع ليندا التقت بإسكندر شاوي ووصل كلاهما إلى جل الديب، وقالت إن الأمينة الأولى أفادتها بأن الزعيم يريد فريد وجورج وعليكم الذهاب لعند إدمون طوبيا وهو يوصلكم إلى مقر الزعيم، لأن إدمون هو

مـن أخرجه من بيته. (يجب أن نذكر هنا أن يوسـف سـلامة يقول إن سـعاده خرج من بيته بسـيارة يوسـف برفقة حارسه علي عوض ومنير الحسـيني وفؤاد الشاوي ولم يذكر إدمون طوبيا أبداً، لكن قدورة وجريج يؤكدان أن الزعيم غادر بيته بسيارة عبد الحفيظ علامة وليس بسـيارة يوسـف سلامة، فربما كان هناك سـيارتان ركب سعاده في واحدة وإدمون في الأخرى، فيكون هذا سـبب عدم ذكر سـلامة لاسم طوبيا. وما يعزز وجود إدمون هو أن سـعاده نفسـه ذكر في مقالة «هشـيم الطائفية يلتهب في الجميزة» أنه تلقى من رئيس الجمهورية تحذيراً بواسطة أحد الأشخاص بأنه سيتم القبض عليه ويجب أن يتوارى، وهذا الشـخص هو إدمون طوبيا، ما يعني أن إدمون رأى سـعاده في بيته ونقل لـه تحذيـر رئيس الجمهورية، ولا بد أن يكون قد غادر معـه). نتابع رواية فريد الصباغ: توجه إدغار وفريد وجورج وإسـكندر من جـل الديب باتجاه بيت إدمون في الأشرفية، وعندمـا وصلـوا إلى الجديدة عند مفرق القبارية طلب جورج الوقوف ونزل وقال: «أنا لا أدخل المدينة مرة ثانية. أنا سـأذهب لمنزل شـقيقتي في القبارية وأنتظر منكم الجواب ماذا يريد مني الزعيم». في الأشرفية كرر لهم طوبيا أن الزعيم يريد فريد وجورج. ذهبوا معـاً، مـن دون جورج طبعـاً، وفي الطريق طوبيا يخبر فريد عن قصة اجتماعه مع بشـارة الخـوري في لعبة بريدج مسـاء البارحة 9 حزيران في منزل صهـره خليل فضول وورود مخابرة هاتفية من رياض الصلح لبشـارة يدعوه فيها لاجتماع طارئ لمجلس الوزراء... وأن بشـارة قال لإدمون «**اذهـب لعند الزعيم وأخرجه من المنزل قبـل أن يتم اعتقاله**». عندما وصلوا إلى مقر الزعيم في بيت الرفيق منير الحسيني قرب سجن الرمل... الزعيم يقـول لفريد إن إدمون سـيخبره بـكل ما حصل وجرى ويكلف الاثنـان بمقابلة خليل وسليم الخوري، نجل وشقيق بشارة الخوري، لمعرفة ما يجري ويعودان لإخباره بنتيجة اتصالهما.... خليل وسليم أفادا أن القضية كلها مع رياض الصلح ومجلس الأمن الذي يرأسه. في اليوم التالي كان الزعيم قد ترك منزل الحسيني وكان فريد قد صعد إلى ضهور الشوير ينتظر الزعيم هناك حسب الاتفاق معه، والتاريخ هو 11 حزيران.... وانقطعت الأخبـار عـن فريد. في 15 حزيران يصل إلى الشـوير الرفيق فـؤاد زحلان الذي أوصل سـعاده إلى دمشـق «وقابلني في مـكان بعيد عن الأنظـار لأنني كنت ملاحقـاً وقال لي: **أرسـلني حـضرة الزعيم لأطلـب منك متابعـة المراجعات والاتصـالات برجال الحكم والتفاهـم معهـم وإتمام هذه المهمـة التي هي من اختصاصك حتـى وإذا أمكن الاتصال**

برياض الصلح لإنهاء هذه الملاحقات». وبعدما أبدى فريد تكدره من ذهاب الزعيم إلى دمشق لأن ذلك خطأ وأن المكان هنا آمن ولا خطر عليه، يقول: «وبناء لطلب الزعيم ابتدأت بالاتصالات المطلوبة».

لكن ماذا يقول عبد المسيح؟

هذه كانت رواية فريد الصباغ أوردناها باختصار شديد مع الحفاظ على تسلسلها وعلى معلوماتها الأساسية. في هذه الرواية يلفتنا كثيراً ثلاث معلومات هي: أولاً، تكرار محاولة السلطات اللبنانية دفع الزعيم لإخلاء منزله والتواري. ثانياً، إصرار فريد على أن الزعيم كان ينوي الاعتصام في ضهور الشوير وليس الذهاب إلى دمشق وأنه كان يسعى لمعالجة الأزمة مع السلطة «لإنهاء هذه الملاحقات» ولم يكن في وارد الثورة المسلحة (حتى إن فريد يقول في صفحة 86 من مذكراته بأن ذهاب الزعيم لمقابلة حسني الزعيم في 27 أيار كان الهدف الأول منه طلب الكف عن ملاحقة الحزب في الشام، حيث كان حسني قد حلّ الأحزاب السورية وبدأ بملاحقتها، وفريد يروي ذلك نقلاً عمّا زعم أن سعاده قاله له وأنه كان لصيقاً بسعاده يراه ويحدثه يومياً). ثالثاً، تخلف عبد المسيح عن تلبية طلب الزعيم لمقابلته وتفضيله البقاء بعيداً بحجة تجنب خطر الوقوع في الاعتقال. الآن لنرَ ماذا يقول عبد المسيح عن هذه المسألة بالذات ونقارن روايته مع رواية فريد، ولا ننسى أن علاقة عبد المسيح بفريد كانت سلبية جداً ولا بد من التحفظ في قراءة رواياتهما عندما تكون هذه الروايات تتعلق بهما معاً. رواية عبد المسيح نقرأها في «أيام قومية- الجزء الرابع».

تتطابق رواية عبد المسيح مع رواية الصباغ من الفريكة إلى بيروت عندما رأوا السيارات العسكرية تحمل الرفقاء الأسرى. هنا بدأ الاختلاف في الروايتين، فريد يقول إن العم رفض مواصلة التقدم باتجاه بيت الزعيم تفادياً للاعتقال وقال له «أنا سأنتظرك هنا فيما لو حصل اعتقال يصير على أحدنا وليس على كلينا»، وفريد وإدغار تركاه في «البورة» وذهبا صوب بيت الزعيم ولكنهما لم يستطيعا الدخول بسبب الطوق العسكري حوله فعادا وحملا عبد المسيح مجدداً، وذهب الجميع باتجاه جل الديب إلى بيت الرفيق ملحم ماضي. أما عبد المسيح فلم يذكر شيئاً عن ترك فريد وإدغار له في البورة وثم عودتهما، بل قال إن الجميع توجهوا إلى الزلقا (قبل جل الديب من جهة بيروت).

الاختلاف الثاني هو: فريد يروي بالتفصيل أنهم من بيت الرفيق ملحم ماضي أرسلوا زوجته الرفيقة ليندا (بسيارة إدغار عبود!) إلى بيت الزعيم لتجلب الخبر اليقين وأن هذه ذهبت وقابلت الأمينة الأولى ثم عادت وحملت معها على الطريق الرفيق إسكندر شاوي وأفادت بما أخبرتها الأمينة الأولى بأن الزعيم بخير وهو متوارٍ ويريد فريد وجورج أن يذهبا إليه، وأنها هي لا تعرف مكانه وما عليهم إلا الذهاب لعند إدمون طوبيا ليدلّهم عليه لأن إدمون هو الذي أخرجه من البيت. أما رواية عبد المسيح فلا تذكر شيئاً من ذلك إلا قوله: «وعاد إدغار عبود (من الزلقا إلى بيروت) بسيارته ومعه من سيستطلع الخبر (الرفيقة ليندا!) وعاد المخبر حوالي الساعة التاسعة ليقول لي إن الواقعة وقعت بين الحزب والحكومة لأن التهمة أعلنت وهي إعداد انقلاب مسلح لقلب الحكم». وهنا بدأ الخلاف الكبير الثالث بين الروايتين، وهو:

فريد يريد تلبية رغبة الزعيم والذهاب لبيت إدمون في الأشرفية ليستدل منه على مقر الزعيم، فيذهب الجميع صوب الأشرفية بسيارة إدغار، لكن عبد المسيح يستوقفهم في منطقة الجديدة عند مفرق القبارية وينزل من السيارة ويرفض مرافقتهما إلى بيت إدمون ويقول لفريد: أنا لا أدخل المدينة مرة ثانية وسأذهب لمنزل شقيقتي في القبارية وأنتظر منكم الجواب ماذا يريد مني الزعيم. بينما عبد المسيح في روايته لا يذكر شيئاً عن انتقال الجميع (هو وفريد وإسكندر وإدغار) وتوجههم صوب الأشرفية، بل يقول: «ذهب الأمين فريد ليقابل وزير الداخلية ليتأكد على أن يعود إليّ ليطلعني على محل إقامة الزعيم، إلى القبارية حيث أنتظره في حرج هناك».

فريد يكمل روايته بأنه ذهب وإدغار وشاوي إلى بيت إدمون ومن ثم إلى مقر الزعيم... الخ، بينما عبد المسيح فيختتم روايته بالقول: «ولم أعد أرى الأمين فريد حتى الساعة (أي تاريخ كتابة روايته أواسط 1955) وهو الآن كما علمت يسعى سعياً مشبوهاً. فقد عاد إلى صديقه المطرود نجيب الصايغ» (جميع أقوال عبد المسيح بين أهلّة منقولة من كتيب «أيام قومية» الجزء الرابع صفحة 38).

تعليقنا هو التالي: تبدو لنا رواية فريد أكثر واقعية وأقرب إلى التصديق، رغم حذرنا من كلامه عن عبد المسيح لمعرفتنا بوجود خصومة شديدة بينهما وصلت لنقطة الطرد من الحزب، السبب هو أن عبد المسيح كان متناقضاً في روايته وغير منطقي عندما يقول إن

فريد ذهب ليقابل وزير الداخلية ليتأكد على أن يعود إليّ ليطلعني على مكان إقامة الزعيم. فكيف لفريد أن يأتي بمعلومات من وزير الداخلية عن مكان إقامة الزعيم؟! كيف لعبد المسيح ألا يبادر ويذهب هو بنفسه ويتحدى المخاطر الأمنية ليصل إلى مقر الزعيم الذي استدعاه، كيف لعبد المسيح أن يتكل على فريد الصباغ ويقبل أن يكون فريد الصباغ أشجع منه وأكثر حرصاً على اللقاء بالزعيم؟ وأخيراً كيف لعبد المسيح أن يعمل على طرد فريد من الحزب وهو لم يره منذ ذلك الوقت، أي لم يسائله ولم يحقق معه قبل طرده؟!

الزعيم يستدعي عبد المسيح مرة ثانية

المرة الثانية التي استدعى فيها سعاده عبد المسيح كانت في 13 حزيران بعد وصوله إلى عاليه، فقد أوفد سعاده الرفيق جوزيف حداد ونسيب أبو سلمان إلى بيت مري (أو إلى بشامون؟) لإحضار جورج عبد المسيح. ففي رسالة خاصة من جوزيف حداد إلى أنطوان بطرس (كتاب بطرس، قصة محاكمة أنطون سعاده وإعدامه ص 49) يقول حداد: «...كما أوفد فيما بعد جوزيف ونسيب بسيارة يوسف قائد بيه إلى بيت مري لإحضار عبد المسيح...». إن ما دار من نقاش بين سعاده وعبد المسيح في عاليه هو على قدر كبير من الأهمية وفيه أشياء مثيرة ودراماتيكية حدثنا عنها عبد المسيح ولم نقع على أي مصدر آخر غيره يتحدث عنها، ما عدا شذرات وتلميحات وأقاويل غير موثقة تتحدث عن أن عبد المسيح، وخلافاً لروايته بأنه كان ضد ذهاب الزعيم إلى الشام وإعلان الثورة من هناك، كان هو من دفع باتجاه الثورة وأصر عليها. فالأمينة الأولى تقول إنه وصلتها معلومات بأن «عبد المسيح هو الذي شدد على الزعيم بضرورة القيام بالثورة وهدد بالسير بها وحده... وكانت النتيجة أنه فرّ وترك رفقاءه الذين لم يكونوا أكثر من 12 شخصاً هم الذين هدد بالسير معهم لوحده» (مذكرات الأمينة الأولى ص 235). وكانت الأمينة الأولى قالت أيضاً إن الزعيم أخبرها في 2 تموز عندما قابلته في دمشق: «لقد رأيت أن تتأجل هذه العملية وكتبت لرفقائي في لبنان أخبرهم عن الوعود التي أعطيت والحنث بها فأجابوا إنهم ليسوا مستعدين للتراجع عن الثورة وإذا أردت تأجيلها فهم سيمشون لوحدهم، كيف أترك رفقائي يتحملون هذه المسؤولية، لا بد أن أتحملها أنا» (ص 160). لكن عبد المسيح يروي وقائع اجتماعه مع سعاده في عاليه بما يخالف معلومات الأمينة الأولى كثيراً.

سنستعرض ما رواه عبد المسيح وما قاله لنا عن وقائع ذلك الاجتماع، كما يلي:

- «أطلعني على قراره الانتقال إلى دمشق بعد مخابرات بينه وبين الحاكم هناك بواسطة أشخاص سمّاهم ولم تكن لي ثقة بهم» (أيام قومية ج 4 ص 81). أي إنه يعرفهم ولا يثق بهم ولكن لم يسمّهم ويا ليته فعل وسمّاهم لأن ذلك على قدر كبير من الأهمية فمعرفتهم تساعدنا على معرفة من كان يدفع باتجاه إعلان الثورة المسلحة.

- «أبديت رأيي لحضرة الزعيم وهو يلخَص بأني أشك بنيّات حسني الزعيم وأني أخشى أن يستخدم القضية لمساومات مع حكومة لبنان...». لم يقل لنا لماذا كان يشك بنيّات حسني الزعيم في ذلك الوقت وحسني لم يبدر منه بعد أي موقف أو عمل سلبي تجاه الحزب. وهو في مكان آخر يقول العكس ويعبّر عن فرحه بالانقلاب مما ينبهه عليه سعاده ويفرمل من فرحه، يقول: «كنا نحن أيضاً من المغشوشين بما حصل في دمشق لقد فرحنا لسماع الخبر ولقراءة البيانات الرسمية يوم الانقلاب. وأذكر أنني ذهبت لزيارة حضرة الزعيم وأخذ رأيه في الأمر فوجدته يكتب مقالاً لجريدة كل شيء وكان جوابه لي: «علينا أولاً أن ننتظر النتائج ولا يجوز أن نصرح برأي لا يستند إلى أساس متين»، وكان ملخص رأيه أن الحركة التي حصلت في دمشق لا تدعمها قوة فكرية منظمة لذلك لن يكون لها النتائج الشعبية الكبرى التي يمكن أن يتوهمها الإنسان لأول وهلة. فالزعيم من الأول لم يكن «مغشوشا»، مثل عبد المسيح، بحسني الزعيم. ويخبرنا عبد المسيح أيضاً في مكان آخر عن حقيقة رأي سعاده بحسني، يقول: وقال لي الزعيم «إن هذا الرجل خطر جداً، فهو طموح أرعن لا يرضى بالنصح ولا يقدر الأمور أبداً» (أيام قومية ج 4 ص 51). فكيف ولماذا انقلبت الأمور وصار الزعيم يثق بحسني وعبد المسيح لا يثق؟ هذه كانت ملاحظة أولى نسجلها على رواية عبد المسيح عن لقائه بالزعيم في عاليه.

- «انقطع الزعيم عن الحديث معي وأخذ يقرأ في كتاب... وذهب إلى غرفة ثانية. ونمنا تلك الليلة في عاليه. وفي اليوم التالي لم يظهر الزعيم رغبة في التحدث إليّ بهذا الموضوع ولا بغيره، وبقينا هكذا حتى قرب وقت الغداء».

تعليقنا: يظهر جلياً أن بين سعاده وعبد المسيح أكثر بكثير من مجرد خلاف بالرأي.

إن سعاده لم يكن أبداً يضيق بالخلاف بالرأي مع أحد. إن إبداء سعاده عدم رغبته في الكلام مع عبد المسيح، «لا في هذا الموضوع ولا في غيره»، معناه أن عبد المسيح قد عصي أوامر معينة لسعاده وتمرد عليه، وليس معناه مجرد خلاف بالرأي إذا كان يحسن الذهاب إلى دمشق أم لا، أو إذا كان يجب القيام بثورة أم لا. وحتى لو كان الموضوع هو مجرد خلاف بالرأي، فعبد المسيح يضع نفسه هنا محاوراً نداً للزعيم، بل أوسع منه أفقاً وأبعد نظراً.

- يقول عبد المسيح: «فأصغى الزعيم هذه المرة... وكنت أشعر أنه سيعود عن فكرته ويبقى في لبنان، وبدأنا نبحث عن خطة أمنية لبقائه في لبنان... لكن المساومات كانت أقوى، وثقة الزعيم برجولة حسني عادت ففازت... وهكذا خسرت الجولة معه».

تعليقنا: عن أية مساومة يتكلم عبد المسيح؟ هل كان الزعيم يساوم؟ وعلى ماذا؟ ثم إن عبد المسيح يدّعي أن الزعيم يثق برجولة حسني، ونحن قد رأينا ما هو رأي الزعيم بحسني الخطر والأرعن، فكيف يثق برجولته كما يدعي عبد المسيح؟ وهنا يتكلم عن موضوع الذهاب أو عدم الذهاب إلى دمشق ويقول إن الزعيم يريد الذهاب وإنه هو لا يريد للزعيم أن يذهب! هل معقول أن الزعيم يثق بالخطِر والأرعن ويريد الذهاب لحِماه، وأن عبد المسيح المغشوش بحسني والفرح بانقلابه يَحذَر منه ولا يثق به ولا يريد للزعيم أن يذهب لعنده؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

- يقول عبد المسيح: «وقد قال لي صباح اليوم التالي عندما رأى استيائي الظاهر وخوفي من الذهاب إلى دمشق: إذا بقينا هنا سيجتمع الرفقاء حولي بشكل يشكل خطراً ويؤكد حصول اصطدام بيننا وبين الحكومة». عبد المسيح: «فليكن، فإذا شاءت الحكومة أن تركب رأسها بهذا المقدار نحارب حتى نفنى وتكون النتيجة بالنسبة لنا كما ستكون حتماً في دمشق».

تعليقنا: كيف عرف عبد المسيح أن النتيجة في دمشق ستكون فناء لنا؟ هل عبد المسيح يقرأ المستقبل وسعاده لا يرى إلا يومه؟ أم أن عبد المسيح قد صاغ هذا الحوار لاحقاً بعد اتضاح الكارثة التي حلّت بالحزب في دمشق وأدت إلى استشهاد سعاده؟ أيضاً، ما يقوله عبد المسيح يعني أن الزعيم لم يكن يريد الصدام المسلح مع الحكومة

(...يشكل خطراً ويؤكد حصول اصطدام بيننا وبين الحكومة) وأن عبد المسيح، على العكس من الزعيم، يدفع باتجاه هذا الصدام (فليكن...).

هنا نتذكر ما نقلته الأمينة الأولى عن الزعيم أنه قال لها «أنا أردت تأجيل العملية لكن الرفقاء في لبنان مصممون عليها».

– يقول عبد المسيح: «أجاب الزعيم: إذا كان لا بد من إكمال تعاليمي بالدم فإني أفضّل أن يكون دمي الفداء عن الذين ستهرق دماؤهم في اشتباك مع الحكومة» (ص 83).

تعليقنا: هنا لدينا نقطتان للتعليق، الأولى أن تعاليم سعاده كان قد أكملها منذ سنة 1932 ووضعها في كتاب التعاليم، وليس معقولاً أن يعود ويتكلم عن إكمال تعاليمه. عبد المسيح كان في مكان آخر اعتبر التعاليم كاملة وأن سعاده سيختمها بدمه، والفرق بين القولين كبير جداً وهو الفرق بين أن تكون كاملة أو تكون بحاجة لإكمال.

أما النقطة الثانية فهي تفضيل سعاده أن يكون دمه الفداء عن دم الرفقاء وحرصه على عدم إهراق دم الرفقاء في اشتباك مع الحكومة، بينما عبد المسيح يفضل الاشتباك مع الحكومة والمحاربة «حتى نفنى». فعبد المسيح بقوله هذا يؤكد رواية الأمينة الأولى التي نقلت عن الزعيم قوله إن الرفقاء في لبنان مصرون على الثورة.

– يقول عبد المسيح: وكان الاتفاق إذا أحسّ أن الحكومة في دمشق ستحاول أن تتخذ من قضيتنا مجالاً للمساومة، يعود إلى لبنان عن طريق البقاع ونلتقي في البقاع الغربي ويكون هناك قرارنا الأخير. (ص 83).

تعليقنا: إن عبد المسيح يضع نفسه نداً للزعيم ويشاركه القرار. يتفق معه أنه إذا... يعود إلى لبنان ونلتقي ونقرر.

وعندما يغادر الزعيم إلى دمشق يعود عبد المسيح وينزعج من قلة أخذ الزعيم برأيه، فيقول أمام فؤاد زحلان: «إنني أشعر أن الزعيم أصبح قليل الأخذ برأيي وهو ما يزعجني كثيراً.» (ص 84)

من هذا العرض لوقائع اللقاء بين الزعيم وعبد المسيح في عاليه، حسب رواية

الأخـير، يتبين لنـا أن الموضوع تمحور على مسـألتين: الأولى هي الانتقال إلى دمشـق أو البقاء في لبنان. والثانية هي الصدام المسلح مع الحكومة أم لا.

في المسـألة الأولى يظهـر أن الزعيـم أراد الانتقال إلى دمشـق وكانت الأسـباب كلها تدفع للانتقال إلى دمشق وهي وقوع نخبة الرفقاء اللبنانيين العاملين الفاعلين في الأسر وصعوبـة الاعتصـام والاحتـماء في ضهور الشـوير كما في سـنة 47، في مقابـل بقاء قوة الحزب في الشـام سـليمة، بالإضافة لإبداء حسني استعداداً لاسـتضافة الزعيم وحمايته ومسـاعدته. ونعتقـد أن سـعاده أراد اصطحـاب عبد المسـيح معه إلى دمشـق وأن هذا الأخير تمنع وأصر على البقاء في لبنان، ما جعل الزعيم يعرض عنه ولا يرغب في الكلام معه. لا يوجد سبب آخر يجعل الزعيم يعرض عن عبد المسيح ويبتعد عنه وعن الكلام معه إلا هذا السـبب: عصيان عبد المسـيح وتمرده على أوامر الزعيم. وهذه المسألة تفتح باباً آخر للتسـاؤل، كذلك هي السـبب الحقيقي لتمنع عبد المسيح من مرافقة الزعيم إلى دمشق، وهي ما سنراه في الفصل التالي عندما نصل إلى انتقال العم نفسه إلى دمشق.

أما في المسألة الثانية، فكان واضحاً جداً أن سعاده لا يريد صداماً مسلحاً مع حكومة لبنان (أفضل أن يكون دمي الفداء عن الذين سـتهرق دماؤهم في اشتباك مع الحكومة) وأن عبد المسيح لا يأبه لخطر هذا الاشتباك الدموي (فليكن...).

إن ما يعزز اسـتنتاجنا بأن سعاده لا يريد الصدام المسلح وأنه يفكر بالعودة إلى لبنان لحل المشكل مع الحكومة بالمفاوضات، هو اثنان: الأول عندما قبل دعوة حسني الزعيم بواسطة الضباط الأربعة مرفقاً قبوله بعبارة «على أن يعود بعد ذلك إلى لبنان» (راجع ما ذكرناه قبل ثلاث صفحات عن مجلة كل شيء 19-8-49). والثاني ما نقله فؤاد زحلان مـن الزعيـم إلى فريد الصباغ يكلفه بمتابعة مسـاعيه واتصالاته لإنهـاء الملاحقات وإذا أمكن الاتصال برياض الصلح.

وإن ما يعزز اسـتنتاجنا بأن عبد المسـيح يريد الصدام المسـلح مع الحكومة هو قوله، عندما غادر الزعيم إلى دمشـق ومشـى هو باتجاه بشـامون، ما يلي: «انتظـرت فؤاد زمناً كافيـاً للعـودة، تأخر، ثم لحق بي في مدخل سـوق الغرب ليطمئنـني إلى وصول الزعيم سـالماً إلى دمشق. والتحقت بالغرفة المعدة في أحراج بشامون- سرحمول، وأكثر من مرة

انتقلـت ليلاً إلى بيت مري لكي أتأكد من سـير الإعداد وفق خطتنا المرسـومة...» (بدأ جمراً. ص 242). فعبد المسـيح هنا يتكلم عن خطة مرسـومة وغرفة معدة قبل أن يقرر سعاده صداماً مسلحاً، بل بالرغم من أن سعاده لم يكن يريد الصدام المسلح. وقد يكون هـذا سـبب ابتعاد الزعيـم في عاليه عن عبد المسـيح وعدم رغبته بالـكلام معه: مباشرة عبد المسيح بالإعداد للصدام المسلح مع الحكومة وفق خطة مرسومة دون علم الزعيم وخلافـاً لإرادتـه بعـدم الصدام. وهـذا الأمر أيضاً يعـزز مرة أخـرى مصداقية الأمينة الأولى عندمـا تنقـل عـن الزعيم أنه قال لها إنـه هو لا يريد الثورة المسـلحة لكن الرفقاء مصرون عليها.

قبـل أن نختم رواية عبد المسـيح عن لقائه بسـعاده في عاليه لا بد مـن ذكر متى عيّن الزعيم جورج عبد المسـيح قائداً لقوات الحـزب في الجبل. مرة يقول إن التعيين تم قبل مغـادرة الزعيم عاليه إلى دمشـق (نشرة عمدة الإذاعة عـدد 4 أيار 1996)، مما يتعارض مـع مـا رواه منذ قليل (أيام قومية ج 4 ص 83) هو نفسـه من أن الزعيم لا يريد صداماً مـع الحكومـة. ومرة يقول إن التعيين تبلغه في كتاب من سـعاده بعد وصوله إلى دمشـق فيه «مرسوم تعييني قائداً عاماً لقوات الحزب في منطقة جبل لبنان ومشرفاً على سير الأعمال في بقيـة المناطـق، وفيه تعيينات لمسؤوليات ولقيـادة مناطق الحزب الأخـرى في الجمهورية اللبنانيـة مـا عدا البقاع»، ويعـبّر عن عدم رضاه من هـذا الكتاب وهذا المرسـوم ويقول إن «الكتاب كان فشلاً لآمالي لأنه أولاً أكد بقاء الزعيم في دمشق وثانياً كان يأمر بتسليم القيادة لأفـراد لم تكن لهم خبرة بالمناطق ولا بالأعمال العامة» (أيام قومية ج4 ص 85). أخيراً لا بد من ملاحظة فقدان مرسوم تعيين عبد المسيح قائداً لقوات الحزب في الجبل، فعبد المسيح لم ينـشره للتاريخ مثلما فعل نـواف حردان الذي نشر أمر تقليده رتبة نائب في الميليشـيا وتعيينه قائداً عسـكرياً للقوميين الاجتماعيـين في منطقة مرجعيون بتاريخ 16-6-49. لو حفظ عبد المسـيح مرسـوم تعيينه ونشَره لكنا على الأقل عرفنا تاريخ التعيين وعرفنا إذا كان تم في عاليه 13-6-49 أو في دمشق بعد هذا التاريخ.

في الشام حسني مستعجل وسعاده متحفظ وأديب الشيشكلي متآمر

فور وصول سـعاده إلى دمشـق في 14 حزيران طلب حسني الزعيم أن يقابله وحدد له موعداً السـاعة 8 مسـاء 15 حزيران في مبنى الأركان العامة (قباني ص 180). وهذه

السرعة في عقد هذا اللقاء، الذي يعتبر الثاني بين الرجلين، تعني لنا أن حسني كان منتظراً قدوم سعاده إلى دمشق، حتى إنه كان قد وجّه له دعوة للقدوم (ما كتبته جريدة كل شيء بتاريخ 19-8-49 عن الضباط الأربعة الذين أوفدهم حسني مرتين)، ونستنتج ذلك أيضاً من صيغة الخبر الذي أورده سامي خوري عن لسان الأمير عادل أرسلان هكذا: «عندما علم عادل أرسلان **بقرار حسني الزعيم دعوة سعاده إلى سورية** انتقد هذا الرأي وقال له إنه يحرج موقفه» (سامي خوري ص 134)... «إذ إننا اتفقنا منذ أيام معدودة مع الحكومة اللبنانية على جميع المسائل المعلقة فلا يجوز أن تنقض الاتفاق على هذا الشكل فنخلق أزمة جديدة لا لزوم لها» (عن كتاب ذكريات عادل أرسلان ص 44). هكذا صرنا نعرف أن دعوة حسني لسعاده للقدوم إلى دمشق كانت واحدة من الأسباب التي جعلت سعاده يبدل رأيه ويتخلى عن العصيان في جبل لبنان. إن تحديد موعد المقابلة مع سعاده في الثامنة مساء 15 حزيران، ومع موشى شاريت صباح 15 منه (كما يذكر ناجي جرجي زيدان)، لا بد أنه جاء بالتنسيق بين حسني وشاريت بإشراف الميجر ميد وذلك بعد رصدهم لوصول سعاده إلى دمشق في اليوم السابق. لو علم سعاده باجتماع حسني مع شاريت، والذي عرف به أديب الشيشكلي كما سيخبرنا سامي جمعة بعد نصف قرن (تفاصيله في الصفحة التالية)، لعاد سعاده حتماً إلى جبل لبنان واعتصم فيه حسب خطته الأولى، أو لكانوا اعتقلوه في طريق عودته إلى جبل لبنان وفقدوا مبرر قتله.

لو لم يكن أديب الشيشكلي متآمراً وجزءاً من فريق الإيقاع بسعاده لكان على الأقل أبلغ سعاده عن اجتماع بلودان بين حسني وشاريت الذي تم مرتين يفصلهما أربعة أيام. إن تطور الأحداث بعد استشهاد سعاده ودور الشيشكلي فيها حتى سنة 1955 ستبين لنا فصولاً أخرى كثيرة من الدور المريب لأديب الشيشكلي الذي رسمه له الأميركيون وأداه هو بنجاح، وستكشف لنا العمى السياسي الذي كان مخيماً على الحزب آنذاك، وسوف نستعرض كل ذلك فيما يأتي من هذا الكتاب.

نعود الآن إلى مضمون اللقاء، فقباني ينقل عن سعاده، ولا ندري كم هو دقيق فيما نقله، ما يلي: «لقد شعرت أنه قد أنزلني من نفسه منزلة الصديق والأخ فأخذ يدي وعاهدني على الوفاء والمضي في المعاونة إلى أقصى حدود التعاون وقدم لي مسدسه

الخـاص عربوناً للصداقة وقال إن البلاد العربية تشـكو مـن الميوعة والتفكك وليس لها غيري وغيرك. أنا هنا في سورية وأنت في لبنان» ويقول قباني أيضاً إن حسني طلب من سـعاده أن يهيّئ رداً على الاتهامات الموجهة إليه وأن حسـني مستعد لنشره في الصحف والإذاعات، فأجابه سعاده إنه سيفكر في ذلك. كما عرض على سعاده أن يحيطه بحرس سري خشية وقوع اعتداء عليه، فاعتذر سعاده إذ إنه لم يجد مبرراً لذلك وأفهمه أن هذا الأمر منوط برجال منفذية دمشق. (نقله سامي خوري ص 137) وفي مراجع أخرى أن حسني عرض على سعاده مالاً وسلاحاً ورجالاً وأن سعاده اعتذر وطلب فقط تسهيل تحرك القوميين في الشام.

إنه لواضح كل الوضوح مما نقله قباني حماسة حسني وتحريضه ورغبته الشديدة في أن يصدر سـعاده بياناً يريد أن يأخذه حسـني على سعاده تصريحاً خطياً، والتصريح الخطي يصعب الرجوع عنه. يريد أن يمسـكه ويلزمه بتصريحه ويقدمه لأسـياده الذين كلفوه، شـهادة عـلى نجاحـه في مهمته. وواضح أيضاً تحفظ سـعاده وعدم تسرعـه، وربما ريبته من حماسـة وكرم حسـني، يظهر ذلك من عبارات: سـوف أفكر في ذلك، ولم يجد مبرراً لذلك...الخ.

في اليوم التالي، أي في 16 حزيران أصدر سـعاده بياناً مطولاً وسـلّمه لقباني لكي ينشره ويذيعه على نطاق واسع حسب وعد حسني. ويبدو أن البيان لم يرضِ حسني ومـن وراءه لأنه لم يتضمن إعلان ثورة مسـلحة كما هو مطلـوب، فلم يتمكن قباني مـن نشره ولم يسـاعده في ذلك حسـني. لقد سـلّمه إلى فرع الوكالـة العربية للأنباء في دمشـق كـي توزعه هـذه على الصحـف والإذاعـات لكنـه أُهمل ولم يُـوزع، ولم يتمكن قباني من نشره إلا في جريدة العلم الدمشـقية. قلنا إنه بيان مطول (نجده في الأعمال الكاملة ج 8 ص 383) يبدو فيه بوضوح تجنب سعاده إعلان ثورة مسلحة ويستعيض عن هذا الإعلان بعرض أقرب ما يكون إلى العرض الكاريكاتوري غير الواقعـي للحكومـة اللبنانية. يقول: «**في هذه الحرب التـي أعلنتها الحكومة اللبنانية دائسة أقدس مبادئ الحياة القومية، أتقدم بعرض واحد عليها هو: أن تسلّم إليّ ربع كمية السـلاح الـذي تملكه الحكومة برسـم الجيش فقط، وأن تبيـح الحرية للضباط والجنـود أن يختـاروا محاربة الحـزب القومي الاجتماعـي أو عدم محاربتـه، وأن تختار**

يوماً ومكاناً لمعركة واحدة فاصلة بين قوة الحزب القومي الاجتماعي وقوة الحكومة وحلفائها الطائفيين. إني أقدّم للحكومة اللبنانية هذه الفرصة الوحيدة لإظهار قوّتها وبطشها ومقدرتها على سحق الحزب القومي الاجتماعي. وإذا تواضعت الحكومة وقبلت النظر في عرضي هذا الحائز جميع شروط الأفضلية للحكومة، أو قبلت نصحي المخلص لها، فإني أنصحها بقبول العرض فوراً وتعيين وكلائها للاتفاق مع وكلائي على مكان المنازلة وزمانها.» واضح أنه لا يمكن اعتبار هذا الكلام كلاماً جاداً ومسؤولاً، إنه يعني تحدياً أدبياً رمزياً أكثر منه تحدياً عسكرياً، إنه برهان واضح أن سعاده حتى ذلك الوقت كان يتجنب إعلان الثورة المسلحة.

إن عدم وفاء حسني بالمساعدة على نشر البيان على نطاق واسع ليس هو البرهان الوحيد على عدم رضاه عنه وعن خلوّه من إعلان الثورة المسلحة، بل إن برهاناً ثانياً أكثر وضوحاً تمثل في إقدام القوى الأمنية على مصادرته من المطبعة قبل توزيعه، ولم ترجعه إلا بعد جهد. يقول في ذلك نواف حردان الذي شهد على هذه الواقعة التي حدثت في 16 حزيران ما يلي: «... ودخل تلك اللحظة الرفيق عصام المحايري وأسرّ للزعيم أن رجال الأمن الشامي صادروا من المطبعة بيان الثورة الذي كان قد وضعه فيها الرفيق يوسف اليازجي لتطبعه، فقطب الزعيم حاجبيه وأوعز لعصام أن يتصل بالعقيد الشيشكلي ويطلب منه أن يعمل على استعادة البيان» (على دروب النهضة ص 255). يقول حردان إن البيان المصادر هو بيان الثورة، ولكن لا بد أن يكون نواف التبس عليه الأمر بعد نصف قرن عندما كتب مذكراته. في 16 حزيران لم يكن بيان الثورة قد كتب بعد، بل كان ما صودر من المطبعة هو البيان الذي لم يتضمن إعلان ثورة، إنه «بيان الزعيم إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السورية» (الأعمال الكاملة 8 ص 383)، ويقول حردان إن مصطفى سليمان أعطاه في الحال نسخة، من بيان قديم، فقرأها وتضمنت في نهايتها «لقد كان الانتداب الفرنسي صاحب الفضل في إزاحة الستار عن نشوء الحركة...». لا بد أن حردان قد قرأ مسودة البيان نفسه الذي صودر من المطبعة، فلا بيان قديم غيره يتضمن هذه العبارة التي قرأها.

ربما يتساءل المطالع هنا ويقول: ولماذا كان سعاده يتردد في إعلان ثورة مسلحة ولماذا لم يضمّن بيانه هذا الإعلان الصريح المطلوب من قِبَل حسني، في وقت كان قد باشر

فعلياً في الإعداد لها وقد أرسل إلى عبد المسيح قرار تعيينه قائداً لقوات الحزب في جبل لبنان وعين غيره قواداً لبقية المناطق؟ (أيام قومية ج 4 ص 85). الجواب هو أن سعاده كان يستعد فعلاً ولكن لم تكن الوسائل المادية قد تأمنت بعد ووعود التسليح لم تُنفذ بعد. إن سعاده لم يكن متأكداً بعد من صدق نوايا حسني بل كان مرتاباً منه.

سعاده يقع بين براثن ومخالب اليهود

يقول قباني إنه في نفس يوم صدور البيان الذي لم يتضمن إعلان ثورة مسلحة، أبلغ حسني الزعيم قباني أنه أوعز إلى المقدم إبراهيم الحسيني رئيس الشرطة العسكرية لتقديم المساعدات اللازمة لسعاده، وطلب من قباني الاتصال بالحسيني وجمعه مع سعاده. وعندما علم سعاده بذلك استغرب هذا الأمر لأن حسني كان قد اتفق مع سعاده خلال اللقاء أن اجتماعاً لاحقاً سيتم عقده معه هو بنفسه بحضور الدكتور قباني وليس مع أي شخص آخر. يقول قباني هنا إنه طمأن سعاده وقال له إن تكليف المقدم الحسيني هو دليل على أن حسني وضع وعوده بالمساعدة موضع التنفيذ، لأن الحسيني هو الشخص الوحيد من بين العسكريين الذي يأتمنه حسني على أسراره ودخائله ويعتمد عليه ويثق به ثقة عمياء.

إن ما قاله قباني عن علاقة حسني بالحسيني تجعلنا نتذكر ما رواه عنهما سامي جمعة في كتابه «من دفتر الوطن» (ص 65 وما بعد) وعن علاقتهما باليهود والاجتماع مع وزير الخارجية الإسرائيلي مرتين في بلودان، تجعلنا نتأكد أكثر أن سعاده قد وقع فعلاً بين براثن ومخالب اليهود دون أن يدري.

سامي جمعة وحسني الزعيم وابراهيم الحسيني وموشى شاريت والعقيد حبي وأديب الشيشكلي

سامي جمعة هو ضابط مخابرات سوري لعب دوراً مخابراتياً مهماً جداً منذ انقلاب حسني الزعيم إلى حين اختفاء الجمهورية العربية المتحدة ووقوع الانفصال بين سورية ومصر أواخر شهر أيلول 1961، أي اثنتي عشرة سنة متواصلة.

يروي جمعة قصة اجتماع حسني الزعيم مع موشى شاريت وزير الخارجية الإسرائيلي، وسنوجزه كما يلي:

** العقيد سعيد حبي يكلّف سامي جمعة بالسهر على أمن وسلامة حسني الزعيم عندما يتواجد في فندق بلودان، وهذا الفندق هو «المكان الذي يفضل حسني قضاء فصل الصيف فيه، حيث كان يعقد أكثر اجتماعاته، وكان إبراهيم الحسيني لا يفارقه، وأكثر اجتماعاته كانت مع الأمير عادل أرسلان وصلاح الطرزي مدير عام وزارة الخارجية والميجر ميد الملحق العسكري في السفارة الأميركية» (أوراق من دفتر الوطن ص 65).

** «سارت أموري في بلودان بشكل روتيني إلى أن جاء ذلك اليوم في بدايات شهر حزيران الذي لا يمكن أن أنساه ما حييت... عندما انتصف النهار اتصل العنصر المكلف بمراقبة المدخل الخارجي للفندق معلناً وصول المقدم إبراهيم الحسيني، فخرجت إلى باب الفندق وشاهدت سيارة الفورد بوكس التي كانت تقل الحسيني وبجواره على المقعد الخلفي ضابط يرتدي زي ضباط الجيش السوري لم أستطع التعرف عليه، لاحظت أن الحسيني يتعامل مع ذلك الضابط الذي يحمل رتبة مقدم باحترام شديد، حيث كان يتأخر عنه الحسيني احتراماً بأكثر من خطوة، وهذا الشيء لم يكن معروفاً عنه فلم يكن الحسيني يهاب أحداً في الجيش السوري مهما علت رتبته، وذلك بسبب قربه الشديد من حسني الزعيم... كنت أعرف كل ضباط الجيش بالاسم والصورة ولم يكن ذلك المقدم المجهول الذي يرافقه الحسيني ممن أعرفهم، إضافة إلى أن البزة العسكرية تبدو مترهلة عليه كما أن خطواته لم تكن تمت للخطوة العسكرية بصلة».

** يعرف جمعة أن ذلك «المقدم» المجهول ما هو إلا وزير الخارجية الإسرائيلي موشى شاريت. عرف ذلك من مقارنة الصورة التي انطبعت عنه في رأسه مع صورة موشى شاريت التي أراه إياها العقيد حبّي على مجلة أميركية كانت في درج مكتبه. العقيد حبّي كان بمثابة «الأب الروحي» لسامي جمعة، فأخبره بقصة الاجتماع في بلودان. «فابتسم العقيد حبي بمرارة وقال كمن يحدث نفسه: كنا نعرف تحركاتهم ولكن لم نتوقع أن تبلغ بهم الوقاحة أن يأتوا به إلى هنا، ثم التفت إليّ قائلاً: عتّم على الموضوع وإياك أن تخبر أحداً بما يجري، كما طلب مني إعلامه هاتفياً إذا ما تكررت الزيارة».

** «بعد أربعة أيام تكررت الزيارة وجاء الحسيني ومعه موشي شرتوك مرتدياً الزي العسكري نفسه، فسارعت واتصلت بالعقيد سعيد حبي من خارج الفندق

وعـدت مسرعاً لمتابعة ما يجري، وبعد ثلاثة أرباع السـاعة جاء أحد العناصر المنتشرين حـول الفندق وأخبرني أنه رأى أحد العمال يتسـكع في الحديقـة المقابلة للبناء، خرجت لأستطلع الموقف فوجدت عاملاً يرتدي ثياباً مرقعة ويتلفح بحطة بيضاء، يجمع أوراق الأشـجار الصفراء المتسـاقطة ويضعها داخل قفة يحملها بيده، وعندما اقتربت منه أكثر رفـع رأسـه ونظر إليّ فإذا بـه العقيد حبّي، ودون أي تردد قفلـت راجعاً وقلت للعنصر دعه وشأنه إنه من عمال الفندق وهو يقوم بعمله الموكل إليه».

** في مسـاء اليوم نفسـه قابل سـامي جمعة العقيد حبي الذي قال له: لقد شاهدت كل شيء، إنه موشى شرتوك (أوراق من دفتر الوطن ص 65 وما بعد).

وما دخل أديب الشيشكلي؟

وماذا عن دور أديب الشيشكلي في هذه القصة؟ فلنتابع:

يقول جمعة إنه لم تمض عدة أيام حتى شكل العقيد حبي وفداً من رفاقه الضباط كان في عدادهـم على مـا أذكر المقدمون عزيز عبـد الكريم ومحمود بنيان وأديب الشيشـكلي (وكان مديـراً للشرطة والأمن العام) وذهبوا جميعاً وواجهوا حسـني الزعيم بما علموه حـول عزمه إبرام معاهدة صلح مـع إسرائيل، فنهرهم قائلاً: هذه سياسـة عليا للدولة وأنتم كعسكريين محظور عليكم التدخل في مثل هذه الأمور، ثم صرفهم شبه مطرودين بعد أن قال لهم: انصرفوا لأنني أريد أن... أدخل الحمام.

«وفي صباح اليوم التالي صدرت أوامر بنقل أكثر هؤلاء الضباط من المراكز القيادية التي كانوا يشـغلونها إلى مراكـز أخرى غير مؤثرة، وكان على رأس المنقولين العقيد سـعيد حبي الذي نقل من رئاسة الشعبة الثانية إلى ملحق عسكري في واشنطن وتم تعيين المقدم إبراهيم الحسـيني بديلاً عنه في رئاسـة الشـعبة الثانية مع احتفاظه بمنصبه الأساسي رئيساً للشرطة العسكرية، وبذلك احتل الحسيني أقوى مركزين في الجيش» (نفس المصدر ص 69). وهذه المعلومـات وردت أيضـاً في مذكرات أكرم الحوراني (صفحة 960) ممـا يعزز صحتها لأنها وردت في مصدرين اثنين. دعونا الآن نلاحظ ما يلي:

أولاً، لا بـد أن يكون العقيد سـعيد حبي قـد أخبر الضباط، الذين واجهوا حسـني وعادوا شـبه مطرودين، بواقعة اجتماع حسـني مع شـاريت وطريقـة «احتفاء» إبراهيم

الحسيني به واحترامه الشديد له. وإذا لم يكن أخبرهم قبل المواجهة فبعدها عندما عادوا شبه مطرودين، أو في اليوم التالي عند صدور قرارات عزلهم من مناصبهم ونقلهم إلى مناصب أقل أهمية.

ثانياً، إن أديب الشيشكلي لم يتم عزله من مديرية الشرطة والأمن العام، بدليل حضوره لاحقاً اجتماع شتورا بهذه الصفة.

ثالثاً، لا بد أن يكون أديب قد أخذ جانب حسني ونقل لحسني كل ما كان يدور في ذهن رفقائه الضباط وعلى رأسهم سعيد حبي، بدليل سرعة عزل هؤلاء الضباط في اليوم التالي والإبقاء على أديب.

رابعاً، سامي جمعة لم يذكر تاريخ هذه الواقعة بالضبط، ولكن من مراجعتها يتبين لنا أن وقائعها حدثت كلها قبل 15 حزيران تاريخ اجتماع سعاده مع حسني، أو على الأكثر قبل 24 حزيران تاريخ اجتماع شتورة، وفي الحالتين كان يستطيع أديب الشيشكلي، لو كان قومياً مخلصاً ونزيهاً، أن يخبر سعاده بوقائعها ولكان سعاده تصرف بناء على هذه الوقائع والمعلومات الخطيرة غير ما تصرف وهو لا يعلمها.

كيف تصرف سعاده؟

يبدو أن سعاده الذي لم يعلم بواقعة اجتماع حسني مع موشى شاريت، لم يكن يرفض مبدأ إعلان الثورة المسلحة إذا توفرت شروطها، لكنه كان مرتاباً من حماسة حسني الزائدة وأراد أن يتأكد من تنفيذ وعوده ومن وصول السلاح وتسهيل حركة القوميين قبل إعلان الثورة، وهذا هو سبب قبوله بالاجتماع مع إبراهيم الحسيني بدلاً من اجتماعه بحسني مباشرة حسب الاتفاق بينهما، وهذا هو سبب اللهجة العنيفة لبيان 16 حزيران وفي الوقت نفسه عدم تضمنه إعلان الثورة المسلحة بشكل صريح، فسعاده لا يعلن ثورة مسلحة قبل تأمين وصول السلاح. لذلك، يقول قباني، اجتمع سعاده مع إبراهيم الحسيني عدة مرات منفردين، أي إن سعاده كان مستمراً بمحاولة تأمين الشروط المادية للثورة المزمع القيام بها. أما حسني فكان مشغولاً بالتحضير للاستفتاء على رئاسته للجمهورية. وأما محسن البرازي المعادي لسعاده علناً، وهو عديل رياض الصلح، فكان يقوم بعدة زيارات إلى لبنان (قباني ص 189– 190). ولا بد أن سعاده قد

وصلتـه أخبار زيارات البرازي إلى لبنان ووصلته أخبار التفاهم بين الحكومتين اللبنانية والشامية وأصبح عليه أن يحسب الأمور جيداً.

أمـا عـن الأسـباب التي جعلت حسـني ينعطـف لصالـح الحكومـة اللبنانية فليس صحيحـاً أبـداً أنـه فضل واختـار وقرر ما يناسـب اسـتتباب حكمه واسـتقراره، ليس صحيحـاً أن هذا النوع من الحـكام المدينين بوصولهم للقوى الأجنبية أنهم يسـتطيعون الاختيار والمفاضلة بشـكل مسـتقل، بـل الصحيح أن قرارهم ليـس بيدهم وأنهم مجرد عـمال وأدوات للأجنبـي وخدام له. إن خطة الإيقاع بسـعاده وقتله تقتضي دفعه للثورة المسـلحة وإغراءه بإمكان نجاحها، كما تقتضي أيضاً التهيئة السرية لكل وسائل إفشالها، وقـد لعـب كل من رياض وحسـني دوره المرسـوم كما أعطيَ لـه تمامـاً، أكان في الدفع للثـورة المسـلحة ووعود الدعم والتسـليح، أو في الإخـلال بالوعود وبـدء المضايقات والمعاكسـات. ولا بد أنه قد وصل لسـعاده خبر اجتماع شـتورة الـذي أذاعته الصحف والذي عقد بتاريخ 24 حزيران وحضره كل من حسني الزعيم ومحسن البرازي وبشارة الخوري ورياض الصلح بالإضافة إلى مديري الأمن العام في الشام ولبنان كل من أديب الشيشكلي وفريد شهاب، «وتجلى فيه روح الود والإخاء» حسبما ورد في البيان الختامي. (عن النهار 25- 6-49 نقله أنطون بطرس ص 60).

في لبنان

لندع الآن سـعاده والقوميين في الشـام يسـيرون وسـط حقل من الألغام ويحاولون شراء السـلاح من مصادر أخرى وتهيئة أسباب الثورة المسـلحة في ظروف غير مؤاتية وغير مشجعة بتاتاً، وننتقل إلى لبنان.

في سرحمول معركة – لا معركة في سرحمول

لقد روى عبد المسـيح واقعة سرحمول عدة مرات في عدة أوقات وفي عدة أشـكال، كتابـة ومحاضرة ومقابلة شـخصية، وفي كل مـرة نقع على اختلاف في الروايـة، وأحياناً تناقض. مرة كانوا تسعة رجال واحد منهم فقط يجيد استعمال السلاح، ومرة كانوا اثني عـشر. مرة كان هناك نقـص في الرجال وصعوبة في اسـتنفارهم وتجنيدهم والتحاقهم، ومرة كان هناك فائض اضطره لصرف عدد منهم. مرة كان هناك شحّ في السلاح، ومرة

كان هناك فائض تسليحي اضطرهم لأن يحمل كل منهم قطعتين. مرة خاضوا معركة بطولية ندر مثيلها، قطعة سلاح واحدة صالحة كانت تنتقل من موقع لآخر وتشاغل جيشاً كثير العدد لمدة خمس ساعات، ومرة كانوا متوارين في الأحراش ولم يطلقوا النار أبداً، بل إطلاق النار اقتصر على القوات التي حاصرتهم، وهذا ما يرويه عبد المسيح شخصياً للرفيق الدكتور مطانيوس يوسف سنة 1994، قال: «لم نطلق على توفيق شمعون ولا على سواه الرصاص، سلاحنا ما كان يودي، لم نر أحداً لنطلق عليه النار... وقعنا في كمين، قبضوا على رفقائي وهربت تحت جنح الظلام» (مطانيوس يوسف ص 590). نستطيع الاطلاع على وصف واقعة سرحمول وكيف تطور هذا الوصف واختلف وتغير وتناقض، في يوميات العم (ص 280 وما بعدها)، ثم في «أيام قومية الجزء الخامس، ثم في محاضرات المخيم القومي الاجتماعي، وأخيراً في المقابلة الشخصية الحصرية التي أجراها معه سنة 1994 الرفيق الدكتور مطانيوس يوسف إبراهيم. لكن الثابت الوحيد في كل روايات العم، ما عدا روايته لمطانيوس يوسف، هو أنها كانت بطولية خارقة غير عادية، حتى إنه وصفها في يومياته «بالشهادة الثانية لروح التضحية المستمدة من صميم نفسية الأمة السورية» (هكذا افتتح إحدى مقالات يومياته سنة 1950). فالشهادة الأولى هي شهادة سعاده وتضحيته بنفسه لحماية رفقائه وحماية الحزب، والشهادة الثانية هي ما جرى في سرحمول. يستغرب الرفقاء كيف يصف عبد المسيح واقعة سرحمول بالقول إنها الشهادة الثانية في وقت أنه انسحب ولم يستشهد هناك، ولكن مهلاً، العم لا يقصد شهادته هو بل شهادة الرفقاء الذين كانوا معه والذين افتدوه بأنفسهم واختاروا ألا ينسحبوا معه كي لا يكشفوا انسحابه للعدو فيقع شهيداً أو أسيراً!

واضح أن في الشهادة الأولى ضحى الزعيم بنفسه لفداء رفقائه، أما في الشهادة الثانية فقد ضحى الرفقاء بأنفسهم لفداء عبد المسيح. يا لها من مفارقة ويا له من فرق عظيم. لن نطيل كثيراً في تبيان فساد هذه المقارنة، بل فساد هذه الرواية كلها، إن قصة الانسحاب من سرحمول كتبها عبد المسيح في الصفحات 280 إلى 283 في يومياته، وأيضاً في أماكن أخرى عديدة، فالذي يهمه الاطلاع على تناقضات روايته ومعرفة كيفية تبريره وإخراجه لانسحابه وحده وتركه رفقائه طعماً لنيران العدو وغنيمة في قبضته يمكنه الرجوع إليها هناك. لكن لا بد من إعطاء مثل: «...ويظهر أن الرفيق فداء

والرفيق خليل الطويل بعد انسحابي ارتأيا أن الاستسلام أضمن لحياتهما ولحياة الباقين. كان خليل قد سألني: شو حكم عملنا في المحكمة؟ فأجبته: الإعدام أو السجن المؤبد. فقال: نحن لم نطلق النار فلا يمكن أن يعدمونا. وأظن أن هذه الفكرة هي التي منعتهم من الانسحاب» (أيام قومية ج 5 ص 92). أما تحت عنوان «بطولة رائعة» فيكتب: «صرح الرفقاء الذين نجوا من الإعدام للرفقاء في السجن أن عدم لحاقهم بي كان لأنهم آثروا أن يواجهوا مصيرهم على أن يلحقوا بي كما أمرتهم، وذلك لأنهم خشوا أن يكون في انسحابنا جملة ما يوقعنا جميعاً». إنه لواضح تماماً، حسب رواية عبد المسيح هذه، أن من كان معه في سرحمول لم يوافقوه بالانسحاب معاً لأنهم «خشوا أن يكون في انسحابنا جملة ما يوقعنا جميعاً». لقد خشوا الوقوع جميعاً ولم تكن خشيتهم عليه وحده ولم يكن قرارهم التضحية بأنفسهم لإنقاذه. ومع ذلك فعبد المسيح يريدنا أن نعتقد ما يريده هو حيث قال: «لقد فضلوا أن يموتوا لينجو قائدهم» (ص 93).

لكن هناك رواية أخرى من رفيق اشترك في واقعة سرحمول، أي هناك شاهد عيان هو الأمين يوسف قائد بيه، روى ما يخالف رواية عبد المسيح تماماً فقال: «فؤاد قائد بيه وجورج عبد المسيح استطاعا الخروج من الطوق **بعد** أن قبضوا علينا فأهملوا الملاحقة...» (من حديث يوسف قائد بيه مع مطانيوس يوسف- ص 591). هذه هي قصة «الشهادة الثانية لروح التضحية المستمدة من صميم النفسية السورية» حسب ما رواها عبد المسيح.

لكننا نلاحظ أن العم قدم «معركة» سرحمول التي اشترك فيها هو على معركة البقاع التي اشترك فيها غيره، أي الشهيد عساف كرم، فلقب تلك بالشهادة الثانية في حين هذه صارت الشهادة الثالثة أو ما بعد. مع أن التراتبية العسكرية تحتم العكس، فالرفيق الشهيد عساف كان القائد العام للثورة بينما عبد المسيح كان «قائداً عاماً لقوات الحزب في منطقة جبل لبنان»، ثم قائد منطقة الغرب فقط (حسب ما يقول لنا ص 85) تحت إمرة القائد العسكري العام، فضلاً عن أن عساف هو شهيد أما عبد المسيح فهو منسحب. يستدرك العم في الصفحة 283 من يومياته ويقول: «أطلت في الكتابة عن سرحمول ليس لأنها تستحق أكثر من معركة البقاع، فالمعركتان أظهرتا من روعة الفداء والبطولة ما نفاخر به جميعاً ونعتز ولكن لم أتمكن من جمع معلومات عن معركة البقاع

أكثر مما جمعت». لا نعتقد أن هذا الاستدراك يكفي لتبرير تخصيص سرحمول بوصف الشهادة الثانية بعد شهادة الزعيم، فما دام لم يتمكن من جمع معلومات كافية عن معركة البقاع فإنه لا يصح أن يقدم «معركة» سرحمول عليها.

ماذا كانت مهمة وخطة وبرنامج عبد المسيح في الثورة؟

دعنا من تفاصيل رواية الانسحاب وحيداً وقرار رفقائه افتداؤه بأنفسهم كي لا ينكشف ويقع أسيراً أو شهيداً، ولنلتفت إلى الأمور التي تفيدنا في كتابة تاريخ استشهاد سعاده. ففي هذا الصدد نلاحظ أن العم لم يخبرنا شيئاً عن المهمة العسكرية التي كان مكلفاً بها من قيادة الثورة ولا عن خطته لتنفيذ هذه المهمة وكم كانت تحتاج من مقاتلين وسلاح ومال، ولماذا كانت المعركة في سرحمول وليس في أي مكان آخر، وما قيمة سرحمول العسكرية وما محلها في برنامجه العسكري. ولم يخبرنا مثلاً عن وجهته التالية في حال انتصاره في سرحمول. كل هذه الأسئلة وغيرها هي أهم بكثير من استرساله في وصف كيفية تطويق الجيش والدرك لرفقاء موقعة سرحمول وكيف أن بندقية واحدة فقط كانت صالحة للاستعمال استطاعت أن تشاغل أعداداً كبيرة من الجيش والدرك لمدة خمس ساعات. إن ما رواه عبد المسيح ليس هو ما نحتاج لمعرفته، إن ما نحتاج لمعرفته هو الجواب على الأسئلة التي طرحناها فوق، وأيضاً لماذا لم يستطع تجنيد أكثر من تسعة رجال منهم ثلاثة فقط متمرسون في القتال، هم العم والشهيدان ملاعب وموفق، وهل يكفي ذكر ضغوط مجيد أرسلان على أهالي الرفقاء الدروز لتبرير العجز عن استنفار وتجنيد رفقاء أربع أو خمس منفذيات للحزب في جبل لبنان، وكيف يقدم على قيادة عمليات الجبل بتسعة رجال أكثر من نصفهم لا يجيد القتال ويخوضون معركة ببندقية واحدة صالحة للاستعمال؟

عبد المسيح يلوم الزعيم ويحمّله مسؤولية الفشل

عن كتاب تعيينه «قائداً عاماً لقوات الحزب في جبل لبنان، ومشرفاً على سير الأعمال في باقي المناطق» (ص 85) هذا الكتاب الذي أرسله إليه سعاده في نفس يوم وصوله إلى دمشق، و»الذي كان فيه أيضاً تعيينات لمسؤوليات ولقيادة مناطق الحزب الأخرى في الجمهورية اللبنانية ما عدا البقاع» يقول: «الكتاب كان فشلاً لآمالي لأنه أولاً أكد

بقاء الزعيم في دمشق، وثانياً كان يأمر بتسليم القيادة لأفراد لم يكن لهم خبرة بالمناطق ولا بالأعمال العامة. كان قد استند الزعيم إلى المعلومات العسكرية التي تلقاها من هؤلاء». ويضيف في الصفحة التالية ويقول: «وبعد أن كنت أتصل بالمناطق حسب الأمر الأول، إذا بالأوامر تتوالى بتعيين قادة ويحصر عملي في منطقة الغرب فقط. وجميع الذين عينوا: إميل رعد وفؤاد خوري ووديع الأشقر وإسكندر شاوي لم يكن لهم معرفة بالمناطق ولا بالأعمال التدريبية والإدارية الحزبية. كل ما استند إليه الزعيم كان.....» وهنا انقطع كلام العم بسبب تلف الورق الذي كتب عليه. لكن ما كتبه كافٍ ليقول لنا إن القرارات والأوامر الخاطئة التي كان الزعيم يصدرها كانت من أسباب الفشل.

واقعة سرحمول جرت في 6 تموز، وفي 8 تموز كان العم في العبادية «يعد العدة لجمع ما تيسر من سلاح ورفقاء لمتابعة العمل المسلح» (رد عمدة الإذاعة على مذكرات الأمينة الأولى ص 96). فبعد كل الأعذار التي ساقها لتبرير عدم القدرة على حشد قوة قومية مسلحة كبيرة تستطيع القيام بأعمال ثورة، وهي تبريرات غير منطقية وغير مفهومة، وبعد فقد الرجال الذين كانوا معه في سرحمول ووقوعهم في الأسر، وبعد الاعتراف أنهم في سرحمول لم يكونوا هجوميين بل متوارين مدافعين، يقول إنه في العبادية كان يعد العدة لمتابعة العمل المسلح! فعن أي عمل مسلح كان يتكلم؟!

ما هو مضمون رسائل سعاده إلى عبد المسيح؟

عبد المسيح يخبرنا أنه تلقى رسالتين من سعاده، هكذا: «وفي رسالتيه الأخيرتين اللتين حملهما الشهيد أديب الجدع إلى سرحمول ووصل بهما في ساعة كان الطوق يحكم حولنا، جاء ما يدل على استياء الزعيم الشديد. لقد كتب: لو كنت في الصين أتكلم العربية لفهموني ولو كنت أتكلم الصينية هنا لوجدت من يفهم. إن الذين يتصلون بي بعيدون عن فهم أفكار الزعيم وخطته. وكان في رسالة أنه سيعود إلى لبنان قريباً، فالأمر في دمشق يسير نحو الأسوأ. وفي رسالته أنه استمزج آراء بعض من حوله بشأن سلامته فكان رد الأمين معروف صعب «شو بيقول الناس إذا ترك الزعيم المعركة.»» (أيام قومية ج5 ص 17). إن هاتين الرسالتين ليستا متوفرتين اليوم، وعبد المسيح كان، رحمه الله، وسامحه، مطالباً بالإفراج عنهما لكنه لم يفعل، ولا ندري إذا كان قد أضاعهما. هناك من «يظن» أنه أخفاهما لأن فيهما ما يخالف روايته عن لقاء عاليه. مهما يكن من أمر فإن ما

قاله عبد المسيح فوق عن جزء من مضمونهما يبين أن سعاده يفكر بالتخلي عن خطة الثورة المسلحة وبالعودة إلى لبنان، وهذا وحده يخالف ما رواه عبد المسيح سابقاً من أن سعاده قال له في عاليه: «لقد أتممت لكم رسالتي وسأختمها بدمي».

فهل يمكن أن يكون في إحدى هاتين الرسالتين طلب من الزعيم لرأي عبد المسيح، كقائد لقطاع الجبل، بجدوى المضي بالثورة المسلحة أم لا؟ وهل لهذه الرسائل المجهولة المضمون والمحتوى علاقة بما قاله سعاده للأمينة الأولى عندما قابلته بتاريخ 2 تموز في منزل نجيب الشويري في دمشق: «**لقد رأيت أن تؤجل هذه العملية وكتبت لرفقائي في لبنان أخبرهم عن الوعود التي أعطيت والحنث بهذه الوعود فأجابوا أنهم ليسوا مستعدين للتراجع عن الثورة وإذا أردت تأجيلها فهم سيمشون وحدهم... كيف أترك رفقائي يتحملون هذه المسؤولية وحدهم فلا بد أن أتحملها أنا» (مذكرات الأمينة الأولى ص 109)**. صحيح أنه لا يمكننا اليوم تأكيد هذه العلاقة وهذا المضمون والمحتوى للرسالتين، لأنه مبني على تخمين واستنتاج وليس على وقائع ثابتة، ولكننا نستطيع التأكيد أن سعاده إذا كان يريد أخذ رأي أحد في لبنان في موضوع الثورة المسلحة فهو سيأخذ رأي عبد المسيح أولاً قبل أي شخص آخر. وتقول الأمينة الأولى في مذكراتها إن عبد المسيح اعترف لها عام 1955 بأنه هو من قال للزعيم هذا الكلام، وكان قد قال لها أيضاً إنه أكد للزعيم أن أكثر من سبعين مقاتلاً قومياً يستطيع تجنيدهم للسير خلفه (نفس المصدر ص 110)، وما يعزز هذه المعلومات هو أن عبد المسيح قد اجتهد كثيراً في مذكراته وعلى مدى صفحات عديدة لتبرير عدم تلبية الرفقاء، وكأنه يبرر عدم وفائه بوعده لسعاده، إذا كان الوعد قد حدث فعلاً، حتى إنه وضع اللوم على الضغوط التي مارسها مجيد أرسلان عليهم وعلى أهلهم (أيام قومية ج 4 ص 52). وإذا أخذنا بمذكرات الأمينة الأولى وصح قولها بأن عبد المسيح هو الذي أجاب وقال لسعاده إنهم في لبنان غير مستعدين للتراجع عن الثورة، فإن كل «الأقاويل والإشاعات» عن أن عبد المسيح أكد لسعاده في عاليه قبل توجهه إلى دمشق بأنه يستطيع تجنيد وقيادة ما لا يقل عن سبعين رفيقاً مقاتلاً مسلحاً في جبل لبنان وحده، تصبح أقاويل وإشاعات صحيحة، ويكون عبد المسيح واحداً من الذين شجعوا ودفعوا سعاده للانتقال إلى دمشق وإعلان الثورة من هناك، وتكون رواية عبد المسيح بأنه خالف سعاده وعارضه في موضوع الانتقال إلى دمشق هي رواية غير صحيحة. مهما يكن من أمر فإن عدم

إفصاح عبد المسيح عن محتوى ومضمون الرسالتين بشكل كامل لا يمكن فهمه ولا يمكن تبريره بسهولة. وجد من يقول إن عبد المسيح لو كان يخشى الإفصاح عن مضمون الرسالتين لما أفصح عن وجودهما أصلاً، لكن الرسول الذي سلّمه الرسائل، أو غيره، كان يستطيع أن يشهد على ذلك.

في دمشق مجدداً

المقابلة الثالثة

طلب سعاده من قباني أن يسعى لتهيئة مقابلة ثالثة مع حسني، لكن قباني لم يوافق لأن حسني قد تبدل وصار شخصاً آخر. وعندما فاز حسني في الاستفتاء بتاريخ 26 حزيران وصار رئيساً للجمهورية أصدر مرسوماً كلّف بموجبه محسن البرازي بتشكيل الوزارة، وقد أشرنا فوق أن البرازي معادٍ لسعاده علناً. هنا طلب سعاده من قباني العمل على تأمين مقابلة مع حسني لتهنئته بمناسبة فوزه، وكان قباني قد ابتعد عن حسني بسبب دخول البرازي وتبدل حسني والتصاقه بحلقة البرازي وعسيران، فحاول قباني أن يعتذر من سعاده. لكن سعاده أقنعه بعد نقاش طويل بضرورة القيام بهذه المحاولة. عندها فاتح قباني حسني برغبة سعاده في زيارته، تجهم وجهه وقال: لا إياك أن يحضر أو يظهر للملأ، فاللبنانيون جادون في طلبه وأنا أنكر وجوده في سورية وعيونهم كثيرة ولا أريد أن أثير أزمة جديدة. وكان في هذه الأثناء أن إبراهيم الحسيني قد أبلغ الأمين معروف صعب أن أمر مساعدة الحزب أُرجئ تنفيذه عملياً في الوقت الحاضر بسبب تأخر الهدنة مع اليهود. (هذه كانت رواية سامي خوري- أمل لا يغيب ص 138).

قبل أن نكمل استعراض مجرى ما حدث بعد ذلك يجدر بنا ملاحظة الأمور التالية:

لماذا لم يستفد سعاده من الضباط القوميين الذين اشتركوا مع حسني في الانقلاب ولم يحرّكهم، بل اكتفى بتوسيط قباني رغم أن قباني يزعم أن علاقته كانت قد تراجعت مع حسني؟

ماذا كانت خطة حسني وحكومته لضمان استمرار سير سعاده في الثورة المسلحة؟ إن عدم تنفيذ المساعدة والتهرب منها وحتى التهرب من مقابلته معناه إمكانية إحجام سعاده عن إعلان الثورة التي قلنا إن حسني يريدها وحكومة لبنان تريدها ومدبري

خطة القتل الذين هم وراء حسني وحكومة لبنان يريدونها؟ ماذا كانت ضمانتهم أن سعاده سيكمل ويعطيهم الحجة التي ينتظرونها لقتله؟ وهذا السؤال يقود لسؤال آخر هو: ما الذي دفع سعاده للاستمرار في الإعداد للثورة وهو العارف ليس فقط بأنه فقد دعماً كبيراً وُعِد به منذ اليوم الأول لوصوله إلى الشام، وربما قبل ذلك، بل أيضاً صار عليه أن يتعامل مع مضايقات ومعاكسات ممن كان يفترض أنهم داعموه ومساعدوه؟ (أخبار المضايقات والمعاكسات كثيرة ويومية مثل اعتقال مسؤولي منفذية اللاذقية وحجز الأمينة الأولى ومصادرة سلاح اشتراه القوميون من الأردن...الخ).

إن الجواب على هذه الأسئلة لم يرد على ألسنة أحد من رواة تلك المرحلة إطلاقاً، ولكننا نجزم بأنه كان للشيشكلي الدور الرئيس في هذه المسألة، مما نستطيع استنتاجه بعد استقراء تطور الأحداث وتسارعها خلال عشرة أيام باقية فقط قبل الاستشهاد.

فمن ناحية أطراف المؤامرة، كانوا ممسكين بحركة الحزب وواضعين جميع معاوني سعاده تحت النظر أو تحت الإقامة الجبرية، مثل الأمينين فؤاد شواف وأديب عازار وعيسى سلامة وعبد القادر تحوف وعبد الرزاق منصور وفكتور عرنوق وأديب الضيعة وإبراهيم حلاق من مناطق اللاذقية وطرطوس (مرويات الرفيق جميل مخلوف ص67). وحتى الأمينة الأولى فقد وضعت تحت الإقامة الجبرية تحت حراسة قوى الأمن في فندق بردى في دمشق، مع استمرار الوعود وعدم قطعها بالمرة. فمثلاً قد صادروا السلاح المشترى من الأردن لكنهم وعدوا بالإفراج عنه فور الحاجة إليه عند إعلان الثورة، وكل ذلك بعنوان وحجة وجود تيارين في حلقة حسني، تيار مع وتيار ضد، بالإضافة لتطمينات ضباط قوميين (لا بد أنه أديب الشيشكلي) في الجيش (هذا ما قاله معروف صعب للأمينة الأولى في مكان إقامتها الإجباري، بشهادة بشير موصلي ص 298). يخبرنا جميل مخلوف عن «أفضال» الشيشكلي عند اعتقال رفقاء اللاذقية وطرطوس قائلاً: «وصلنا مساءً إلى دمشق فاقتادونا إلى إدارة الشرطة والأمن العام فكان بانتظارنا مديرها أديب الشيشكلي الذي أفهمنا أننا يفترض أن نكون في السجن لكن بواسطته تقرر أن نكون في الإقامة الجبرية في دمشق. وكنا كل يوم نتواجد في مركز الأمن العام لإثبات وجودنا» (نفس المصدر). ويخبرنا سامي خوري أيضاً عن ازدواجية موقف الحكومة السورية من الحزب عندما يقول: «ابتدأ القوميون الاجتماعيون يشترون

الأسلحة والذخيرة من جميع المناطق السورية، ورغم أن بعض سيارات الدرك شاركت في نقل هذه الأسلحة فإن عدداً من القوميين اعتقل في بعض المناطق السورية وخاصة في اللاذقية...».

فرضية أم حقيقة؟

هنا نصل إلى «الفرضية» التي تداولها بعض القوميين المتابعين لهذه القضية الذين يذهبون مذهب أنه مقابل ارتياب سعاده من حسني، كان يوجد في القصر الجمهوري مَن (؟؟؟) يطمئنه ويؤكد له أن الدعم محسوم وسيصل في الوقت المناسب. حتى إن هذا البعض يؤكد أنه كان لسعاده رجُل أو أكثر في القصر الجمهوري يمدّه سرّياً بالمعلومات المطَمئِنة، وهذا الرجُل- الرفيق لم يكن يعرفه أو يعرف دوره لا قباني ولا العقيد بشّور. وإذا صحت هذه «الفرضية» نكون أمام احتمالين اثنين هما: إمّا أن هذا الرجل هو نفسه كان قد تعرّض للتضليل من واضعي خطة الإيقاع بسعاده، وأنه قد اعتُقِل في 6 تموز قبل أن يتسنى له أن يوصِل لسعاده خبر مؤامرة تسليمه ووصول الضباط اللبنانيين لتسلّمه. وإما أنه واحد من عمّال وعملاء الميجر ميد الذين خانوا سعاده واشتركوا في التآمر عليه ولعب دور «العميل المزدوج»، من جهة يزود سعاده بالمعلومات المطمئنة المضللة ومن جهة أخرى يؤدي مهمات في خدمة الميجر ميد، وهذا الاحتمال الأخير إذا صحّ لا يقودنا إلّا إلى أديب الشيشكلي لأن أديب كان يشغل منصب مدير الأمن العام ويفترض أن يكون مجمع الأسرار الأمنية في الدولة، وهل يُعقل أن الأميركيين الذين جاؤوا بحسني الزعيم وأنجحوا انقلابه وأوصلوه إلى رئاسة الجمهورية، يقبلون بأن يكون مدير الأمن العام موالياً لسعاده وليس موالياً لهم؟

صحيح أن «الفرضية» تبقى فرضية ولا يمكن اعتبارها معلومات أبداً، رغم ذلك فقد ذكرناها حرصاً على عدم تفويت ذكر أي احتمال من الاحتمالات، ولأن كل الشبهات تقود إلى دور مريب وخطير لأديب الشيشكلي. فعلى الأقل هي تفسّر لنا لماذا لم يكترث سعاده بكل تحذيرات الدكتور قباني والعقيد بشور، خاصةً تحذيرات وتوسلات العقيد بشور، بأن حسني سيخون سعاده وسيسلمه للحكومة اللبنانية (سيأتي ذكرها بعد قليل).

لماذا استمر سعاده في الإعداد للثورة المسلحة؟

إن سعاده قد استمر في السير قدماً في الإعداد للثورة المسلحة من دمشق رغم بعض الإشارات عن أنه فكر بإعادة النظر وتغيير الخطة والانتقال لجهة أخرى، وعندنا شهادة بخط سعاده نفسه تشير إلى ذلك صراحة، وهي رسالته إلى الأمينة الأولى تاريخ 30 حزيران التي تضمنت الاستمرار في الثورة مع احتمال تغيير خطتها ومكان انطلاقها. يقول في رسالته: «...**إن الحالة تغيرت في الأيام الأخيرة عن القاعدة التي كانت عليها في الأيام الأولى لوصولي إلى حيث أنا. فبعد أن أعطيَت لي وعود بالمساعدة وابتدأت المفاوضة على مقدارها وكيفيتها توقفت المساعي وتغير الاتجاه وحصلت المضايقة التي رأيت بعض فصولها الأخيرة. ولذلك أصبح من اللازم أن أحسب حسابات دقيقة وأن أشرف بنفسي على التدابير الأخيرة وأن أتهيأ للانتقال السريع حالما أشعر أنه لا أمان عليّ حيث أنا. الوجهة التي سأسلكها تتوقف على سير بعض الأعمال، وعلى الرغم من كل ذلك كنت هممت بالمسير هذا الصباح إلى اللاذقية وجاءت السيارة باكراً ثم صرفتها لأن الموقف قد يتغير في الأربع وعشرين ساعة القادمة ولست على يقين من الإمكانات في اللاذقية. كان يجب أن يعود الأمين الياس جرجي قبل أول أمس ثم تلفن يقول إنه يعود أول أمس ولكنه إلى الآن لم يعد وهو مطلوب ووافقت الحكومة الشامية على اعتقاله فيجب أن يتوارى... خطتنا لم تتغير على الرغم من تغير الظروف ونكول الذين أعطوا مواعيد ولكننا سنحتاط. قد أبقى هنا إلى مساء الأحد ثم قد استمر أو قد انتقل**».

إذاً سعاده كان في ترقب وتفكير في أكثر من احتمال واحد (لأن الأمور قد تتغير في الأربع وعشرين ساعة القادمة...)، ولكن ماهي المواقف التي تغيرت وما الذي دفعه لقرار البقاء في دمشق والمضي في الإعداد للثورة منها رغم كل العوامل السلبية التي صارت واضحة، بل رغم كل المخاطر لدرجة انكشاف حركة الحزب التحشيدية والتسليحية وما يرتب على هذا الانكشاف من مصير الفشل ونتائجه الرهيبة؟ هل هي «الفرضية» التي تكلمنا عنها آنفاً؟

كان سعاده في ضيق شديد ومأزق كبير، ورغم ذلك أكمل واستمر! لماذا؟ تقول الأمينة الأولى في مذكراتها إنها عندما رأت سعاده لوقت قصير في دمشق 2 تموز سألته إذا كان هناك أمل في نجاح الثورة مئة بالمئة فقال لها: ولا خمسين بالمئة... لكنهم مصرون

عليها». نحن اليوم لا يمكننا أن نبني على ما قالت الأمينة الأولى أن سعاده قال لها، فالعبارة غير المكتوبة تختلف عن الوثيقة المكتوبة وقد تكون غير دقيقة، فضلاً عن أن سعاده هو الزعيم ولا يمكن أن يتخذ مواقف تاريخية خطيرة تحت ضغط معاونيه ويقول «لكنهم مصرون...».

من جهته يروي سامي خوري ما شاهده وسمعه من سعاده في ذلك الوقت ما يلي: «...فهو أسد حُبس في قفص أو جبار كُبلت أطرافه يحاول عبثاً الإفلات من طوقه. كان يضرب الحائط بقبضته اليمنى ثم يمسك حافة الباب بيده اليسرى ويضربه بقبضته الأخرى مرات متوالية قائلاً: غير ممكن أن تستمر الحال على ما هي عليه. وسأل عبلة: أليس بإمكانك أن تجمعي من بعض السيدات مبلغاً من المال يساعدنا على الخروج من هذا المأزق بشراء مئة قطعة سلاح؟ أجبته أنا إن هذا صعب جداً بين نساء دمشق. وأكدت عبلة قولي... لم يقبل هذا الجواب وأخذ يحاول أن يقنع عبلة أن مثل هذا الأمر سهل جداً، فأجابته: سيدات دمشق غير ما تظن. بدا سعاده وكأنه إنسان فشل في تحقيق أمر خطير جداً فأخذ يجرِّب كل ما يمكن أن يجرَّب حتى لو كان مستحيل المنال.» (ص 140) ويسهب سامي خوري في سرد انفعالات سعاده وقوله «إن هذه المعركة هي معركة حياة أو موت بالنسبة للحزب...». إذا صح ما يقوله سامي خوري الذي أصدر كتابه، وبالتالي سجل شهادته، سنة 2007 وهو يروي ما شاهد وسمع سنة 1949، أي قبل 56 سنة، ولا ندري كم هي دقيقة وقوية ذاكرة سامي، فإن سعاده كان في حرج وضيق ومأزق كبير، وأكبر منه إصراره على المضي في الثورة المسلحة رغم كل شيء!

هذا ليس سعاده

إن أول إشارات الخيبة والفشل الصادرة عن سعاده نفسه كانت في حديثه إلى جريدة العلم الدمشقية تاريخ 27-6-49. في هذا الحديث نستطيع أن نتبين بوضوح أن الزعيم قد وصل إلى حافة الخيبة والانكسار في مسعى الثورة والاستعداد للقتال بالسلاح، ورغم ذلك فهو مستمر بالسير بها! في هذا الحديث يضطر الزعيم لمجاملة حسني، بل لمديحه وإصباغ الصفات الحميدة عليه، في وقت أن الزعيم يعرف تماماً حقارة شخصية حسني وأخلاقه المنحطة وأساليبه الدنيئة وقد خبرها بنفسه في مقابلتين معه فضلاً عن التقارير والمعلومات التي وصلته عنه (انظر الملحق السابع في نهاية هذا الكتاب). إنه نذير شؤم

أن يضطر الزعيم للإشادة بعدوه اللئيم. وكأن سعاده ليس هو سعاده. هذا هو الكأس الأكثر مرارة الذي تجرعه الزعيم، أكثر مرارة بكثير من ركوعه أمام عمود الإعدام. أن يضطر الزعيم للإشادة بحسني ويوجه له «التحية الخالصة» ويصف انقلابه «بالحركة المباركة» وأنها كانت «انتصاراً عظيماً للمبادئ التي تكون محور اهتمامنا» ثم يختم ويقول: «إني أتمنى للقائد الظافر النجاح في عهد الاستقرار والبناء الجديد»، معناه واحد من اثنين لا ثالث لهما: إمّا أنه إشارة واضحة أن السبل كلها قد سُدّت بوجه الزعيم ولم يعد يفكر كيف سينتصر في هذه المواجهة، بل كيف سيضع حداً للقضاء على الحزب وكيف سيحمي الرفقاء «ويقيهم بصدره» وهو القائل: «...وإذا كنتم ضعفاء وقيتكم بصدري». وإما أن رَجُل سعاده في القصر الجمهوري طلب منه هذه الإشادة بحسني الزعيم لقاء وعد معيّن أو ثمن كبير سيكسبه من ورائها. ولا يوجد غير أديب الشيشكلي من يلعب هذا الدور ويطلب هذا الطلب. وهذا يذكرنا برسالة الإشادة بأكرم الحوراني التي كتبها سعاده تلبية لطلب جبران جريج بعد انتخاب الحوراني نائباً عن حماة (رسالة تاريخ 21-9-46). بعد ذلك بقليل وعندما تبين لسعاده أن الحوراني لم يكن جديراً بالتقدير الذي صبغه عليه، غضب سعاده من جبران جريج ولامه لوماً شديداً (الأعمال الكاملة ج 11 ص 239).

مهما يكن من أمر فإن من يقرأ مقالات سعاده وخطاباته منذ أواخر 48 حتى أوائل 49، خاصة خطاب اللاذقية ومقالة «الأمة تريد نهضة لا حلة»، ثم يقرأ ما يقوله عن حسني لجريدة العلم تاريخ 27-6-49، يدرك رأساً أن سعاده قد أقر بالخيبة والفشل والانكسار لدرجة اضطراره للإشادة بخصمه اللئيم. كأن سعاده ليس هو سعاده نفسه.

هذا هو سعاده

لكي نتمكن من فهم الرجال الاستثنائيين في التاريخ وفهم تاريخهم وأعمالهم، يجب أن نأخذ بمنهجهم هم أنفسهم وننظر إليهم من خلاله فقط. يجب أن نتمثلهم ونستعمل أسلوبهم ونتبع طريقتهم في مقاربة الأمور المتعلقة بهم. أمامنا الآن سعاده وقضيته وفلسفته ونظرته إلى الحياة أمامنا تاريخه وأعماله وخططه وأسلوبه وطريقته في معالجة الأمور، نظرياً وعملياً، وأمامنا قبل كل شيء، وأهم من كل شيء، عقيدته

ومبادئـه والقواعد الفكريـة التي انطلق منها وينطلق دائماً منهـا للتصرف حيال كل أمر كبير أو صغير. يجب علينا فهم كل ذلك لنعرف كيف ولماذا خطا سعاده هذه الخطوة أو تلـك، ومن بين تلك الخطوات خطوة الذهـاب إلى الموت المحقق في وقت هو قادر على التـواري وكانت الفرصة متاحـة له ليتوارى ويكمل جهاده بطريقـة أخرى ومن مكان آخر. يجب إذاً درس شـخصية سعاده ومواقفه السابقة وتاريخ جهاده وملحمة صراعه ومواجهته للظروف التي عاكسته في جميع مراحل حياته من طفولته إلى لحظة استشهاده، وكيف أجاب واستجاب لهذه الظروف. يجب فهم ذلك كله من أجل فهمه وفهم موقفه الأخير وأسـبابه ودوافعه. إن جميع القوميين الاجتماعيين اليوم، جميعهم إطلاقاً، ورغم إيمانهـم به «معلماً وهادياً للأمة والناس» وليس فقـط إيمانهم بعقيدته وقضيته بل إيمانهم به نفسـه وتأييدهم له في كل قراراته وتشريعاته حسب ما ينص عليه قسمهم والتزامهم الكامـل وانتماؤهـم التام، نقول إن جميع القوميين الاجتماعيـين إطلاقاً يقولون اليوم: يا ليتـه لم يذهـب إلى الموت، بل يا ليته هرب!! أي إنهـم لا يوافقونه على قراره الذهاب إلى الموت وكانوا يريدونه حياً طليقاً ليكمل تعليمهم وإعدادهم ويكمل إعطاءهم ما عنده وما يختزنه عقله من علم وفلسفة وما تكتنزه نفسه من حق وخير وجمال.... لكن سعاده لا يمكنه أن يكون إلا نفسه. إن سعاده وما يعنيه من شخصية وعقيدة وقضية لا يمكننا أن نتوقع منه أن يتصرف غير ما تصرف. إن القوميين في تمنيهم، لو لم يذهب سـعاده إلى الموت، هم مخطئون كثيراً. نحن نعتقد أن سـعاده كان قد شعِر أنه إذا لم يذهب ويتحدى الموت لكان سينتهي ويُنهي الحزب وقضيته وكأنه لم يكن. لقد كان سعاده يعبّرعن تجدد خصائص النفسـية السـورية الصراعية عـبر التاريخ التي شرحها وأضـاء جوانبها قولاً وعملاً ومراراً. لا نبالغ أبداً إذا قلنا إن صراع سعاده الملحمي هو فصل آخر من فصول تاريخ الصراع بين الخير والشر في هذه البلاد المقدسة المعبّر عنه منذ صراع أنليل وأنكيدو ومردوك وأدونيس وعشـتار والبعل والخضر ويسوع ومار جرجس... وإن موت جميع القـادة- الآلهة في هذا الـصراع لم يعنِ مطلقاً نهاية الصراع بل تجدده واندلاعه من جديد في فصول متلاحقة ومتواصلة من الانبعاث. إن فلسفة «القيامة» عند اليسوعية، كما أن قصة الفينيق، هي التعبير عن هذا الانبعاث والتجدد والاستمرار.

سعاده يحارب حتى الرمق الأخير

ثـم إن سـعاده قد قال صراحـةً وأوضح وأفصح عن سـبب عـدم تراجعه رغم كل المعلومات والتحذيرات والدلائل على خيانة حسـني الزعيم. فهشـام شرابي مثلاً ينقل عن سـعاده قوله له: «الأفضل أن يقضى علينا ونحن نحارب على أن نحافظ على وجود لا حيـاة ولا كرامـة فيه». إن سـعاده يفصح في قوله هذا عن سـبب ومغزى اسـتمراره بالثـورة، وهـو كلام ذو معنـى كبير قال مثله لإليـاس جرجي (هل تقبل مـن قائد إبان ثـورة يدعو إليها ويتسـابق لتلبيته القوميون الاجتماعيون لمواجهة الشـهادة أن ينصرف همه إلى إنقاذ نفسـه والتخلي عنهم؟)، وسـامي خوري (هذه المعركة هي معركة حياة أو موت ص 140)، وقباني (لنمت بشرف إذا لم يكن سـوى الموت لنا مخرج مما نحن فيه- مذكراته ص 196)، ومصطفى سليمان الذي عرض على سعاده مرات عدة أن يرافقه إلى الأردن ومنـه إلى قريتـه في الضفة الغربية حيث لا يمكن أن يعرف بوجوده أحد، ولكن سـعاده كان يرفض هذه الفكرة باسـتمرار قائلاً إن سـلامة سـعاده الجسدية ليست هي الهدف وأن ما يقوم به سـوف يؤثر على الحزب لأجيال مقبلة وإذا ترك سـاحة المعركة في هذا الوقت فإن الحزب سـوف ينتهي (من مقابلة شـخصية لسامي خوري مع مصطفى سليمان أوردها سامي في كتابه ص 159، وأيضاً مذكرات مصطفى (ص 29).

أمـا قوله لعبد المسـيح في عاليـه: «فليكن دمي الفداء» فيختلف كثيراً عما قاله لهشـام وجرجـي وخوري ومصطفى. ففي عاليه كان سـعاده يخطط للانتصار والحياة ولم يكن قد وصل إلى مفترق الحياة والموت. «فليكن دمي الفداء»، إذا صح أن سـعاده قالها لعبد المسيح، لم تعنِ في عاليه أنه وصل إلى لحظة الاختيار الحاسمة بين الحياة والموت بل عنت أنـه مصمم عـلى المواجهة تصميماً لا رجعة عنه حتى النصر، وإذا تطلب هذا النصر دمنا فسـنبذله حتى ولو كان هذا الدم هو دم سـعاده نفسه، وأن سعاده لم يستثن نفسه عندما قال إن الدماء التي تجري في عروقنا عينها ليسـت ملكاً لنا بل هي وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها. وقد أكد سعاده أنه ذاهب للانتصار وليس للموت، في بيان 16 حزيران حيث قال: «**كان الاحتلال الفرنسي صاحب الفضل في إزاحة السـتار عن نشوء الحركة السورية القومية الاجتماعية، وستكون الحكومة اللبنانية صاحبة الفضل عن انتصار هذه الحركـة الانتصار الكامل**». فسـعاده كان ذاهباً لخوض معركة يسـتهدف منها الانتصار

ولم يكن ذاهباً لأنه أكمل رسالته ويريد أن يختمها بدمه. إننا نشك كثيراً في أن سعاده قد قال لعبد المسيح في عاليه: «لقد أتممت لكم رسالتي وسأختمها بدمي»، أو أنه قال له «إن موتي شرط لانتصار قضيتي»، وسنشرح ذلك بعد قليل.

مجلس قيادة!

البعيد عن تلك الأجواء ربما يتساءل اليوم لماذا لم يكن سعاده يضع معاونيه اللصيقين يوماً بيوم فيما كان يفكر به ويتخذه من خطوات، بل لماذا لم يكن يخطط معهم ويتداول معهم ويشركهم باتخاذ القرارات، إن كل الثورات في العالم كله يكون عندها مجلس قيادة أو ما شابهه يساعد ويعاون القائد الأول في كل شيء، فلماذا لم يكن عند سعاده شيء مماثل؟. أصبحنا اليوم نعرف أن سبب ذلك هو أن سعاده كان قد تحقق من أن موتاً وأمواتاً يحيطون به ويحاصرونه من كل جانب، داخلياً وخارجياً، وأن القريبين منه، منهم، كانوا أيضاً أمواتاً لا يحيون اللحظة التي كان هو فيها فماذا سيستفيد من مناقشة خياراته معهم؟ إنه لا وقت لديه لمناقشتهم وهو قد تعب من عجزهم عن فهم اللحظة التاريخية الحرجة آنذاك وكان متألماً جداً من قصورهم عن مواكبته لدرجة أن عصام مثلاً كان في 6 تموز «متواعداً مع صبحي فرحات للسهر» (مقابلة خاصة لأنطوان بطرس مع صبحي ص 84) ومعروف صعب كان مشغولاً في خبريات علاقة سعاده بفايزة معلوف أنتيبا (اتهامات عبد المسيح) والياس جرجي كان مشغولاً بين طرابلس واللاذقية بتحضير أوراق سعاده الشخصية لأنه «قدّر» تقديراً أن سعاده بحاجة إليها عندما يقرر الهرب!. ولا ننسى أن سعاده كان قد حلّ مجلس العمد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع قبل حادث الجميزة بسبب عدم أهلية أعضائه في ظروف عادية تقريباً، فكم بالحري في ظروف معركة مصيرية فاصلة؟ لم يكن لدى سعاده وقت ليصرفه في مناقشة هؤلاء، لقد درس خياراته جميعها درساً جيداً وتأمل فيها ملياً، وعندما اتخذ قراره إنما اتخذه وحده بناء على هذا الدرس وذلك التأمل.

6 تموز كان يوم تقييم سعاده لكل هذه المواجهة التي بدأت في 2 آذار 47 وأصبحت اليوم في 6 تموز 49 تتطلب اتخاذ القرار التاريخي الكبير... وقد اتخذه.

ويا للمفارقة، أين هو سعاده وبماذا يفكر، وأين هم أعوانه وبماذا يفكرون. مثلاً،

عبدالله محسـن يأتي لبيت معروف ويطلب مقابلة الزعيـم ليخبره معلومات وصلته بأن حسني سيخونه ويسلمه إلى حكومة لبنان، وعبد الله كان يظن أن سعاده لا يعلم ذلك، أمـا معروف فلم يدع عبد الله محسـن يرى سـعاده لأن سـعاده قال لمعـروف إنه لا يريد الآن رؤيـة أحد. معروف لم يفهم معنى قول سـعاده هـذا على حقيقته التي هي أنه يفكر ويراجـع تطورات الأحـداث ويتأمل ويقيم ويـدرس الموقف والقـرار الصعب الكبير الذي سيتخذه، وأنه غير راغب ولا وقت لديه لمراجعات حول مسائل صغيرة وسخيفة اعتاد أعوانه على إلهائه بها. معروف لا يتجاوب مع عبد الله وعبد الله يزعل ويغادر دون إعطاء معلوماته لمعروف... هكذا كان مستوى فهم المعاونين لتلك اللحظات التاريخية وهكذا كانت علاقاتهم بعضهم ببعض وهكذا كان نوع اهتماماتهم ومستوى تفكيرهم. حتى إن العم الذي سيحدثنا عن تلك المرحلة «حديث العارف» كان يعتقد، لمحدودية فهمه ووعيه السـياسي، أن تسـليم سعاده مسؤول عنه صعب ومحسن، وكأن العم يعتبر سعاده أنه كان غافلاً عما يحيط به ولا ينقصه إلا صعب كي يسمح لمحسن بالدخول وإلا محسن ليخبره بخطر خيانة حسني.

صرنـا نفهم الآن لماذا لم يحدّث سـعاده معاونيه ويخبرهم ويشرح لهم قراره وأسـبابه وأهدافه، ولماذا لم يسـتشرهم أو على الأقل لم يعطهم تعليمات ماذا عليهم أن يفعلوا بعد خروجـه إلى موعـده مع مصيره الـذي كان يراه واضحـاً جلياً أمام عينيـه وناظريه، بل مصيره الذي اختاره هو بإرادته. إن سـعاده كان يعرف أن أعوانه لم يكونوا أهلاً لشيء. سـعاده لم يشرح قراره لرفقائه المحيطين به، وأسـباب وأهداف ذهابه للمقابلة الأخيرة، لأنه لم يكن يثق بأنهم سيفهمون كلامه وشرحه بشكل سليم ولا أنهم سينقلونه للتاريخ بشـكل صحيح، لقـد ترك للتاريـخ وللأجيال أن تفسّر هي قراره وخطوتـه. لقد كان وحده، وبقي وحده، وما زال...

تبييض أوجه

لكي لا تبقى إشارتنا لدنو مستوى معاوني سعاده والمحيطين به وعدم ارتقائهم لمستوى اللحظـة التاريخية الحاسـمة وخطورتهـا، يكفي الاطلاع على نوع الانشـغالات والقضايا الصغيرة والاتهامات المتبادلة التي كانوا يوجهونها بعضهم إلى بعض. فالأمينة الأولى مثلاً تنقل لنا في مذكراتها (ص 181 و182) نماذج عن حوارات الرفقاء المسؤولين آنذاك:

لماذا معروف صعب لم يخبر الأمناء عن الموعد مع حسني ولماذا أنكر معروف على عبدالله محسن موعد المقابلة وأوهمه أنها ألغيت؟

- الشيشكلي يدعي أمام عبلة خوري أنه حذّر معروف من حسني.

- عبلة تقول إن أديل صعب منعتها من تبليغ الزعيم حديث هام من فارس خوري.

- صبحي يقول إن رجال الأمن كانوا مختبئين تحت الدرج في بيت صعب وقبضوا عليه فوراً بعد ذهاب الزعيم للمقابلة.

إن كل تلك الأخبار لا شك أنه مبالغ فيها كثيراً وأغلبها تبييض وجه مع الأمينة الأولى، خاصة بعد معرفتهم باستيائها من بيت صعب بسبب عدم موافقتهم لانتقالها لعندهم قبيل استشهاد الزعيم. فسعاده لم يكن مسجوناً في بيت معروف صعب وهو قد ذهب مع فرحات بسيارته لمدة طويلة ومن كان يود الكلام معه كان متاحاً له الكلام.

حتى إن عمر أبو زلام قال للأمينة الأولى إنه طلب من معروف مبلغاً من المال طالما أن أديل كانت الخازنة أثناء الحوادث وبقي المال معها، وإن الأمينة الأولى في الدير تحتاج إلى المال ويجب أن نأخذ لها مبلغ 500 ليرة من الخزينة لتصرف على أولادها، فرفض معروف ولكن عمر ألحّ فأجابه معروف: مثلها مثل غيرها... (نفس المصدر ص 182). واضح تبييض الوجه أمام الأمينة الأولى، فمعروف صعب لا مصلحة له في حجب المال عن الأمينة الأولى، والرفيقة أديل صعب كانت قد حازت على ثقة الزعيم فعينها خازناً عاماً، والأمينة الأولى قالت إنها رفضت تسلم أي مبلغ من المال من القوميين عندما كانت في الدير (مذكرت الأمينة الأولى ص 182).

الاختيار بين الموت والموت

إن سعاده كان قد أخبر هشاماً عن الخيارات التي اتخذها وعن الأسباب التي أملت عليه اتخاذها. لقد قال له بصراحة ووضوح بأنه سيقضى علينا في الحالتين: سيقضى علينا إذا حاربنا واستمرينا في الثورة، وكل الدلائل تشير إلى هذه النتيجة التي كان يراها سعاده بوضوح تام، وسيقضى علينا إذا نحن استسلمنا وتراجعنا وصرنا وجوداً لا حياة ولا كرامة فيه. أولم يقل سعاده في أحد خطاباته إننا جماعة لا تبيع الشرف بالسلامة ولا

الكرامة بتجنب الأخطار؟ أولم يقل سعاده في اللاذقية: «نحن جماعة لم تفضل، لا أنا شخصياً ولا أحد من هذه الأمة الناشئة كلها (أي الحزب) يوماً أن تترك عقيدتها وإيمانها وأخلاقها لتنقذ جسداً بالياً لا قيمة له»؟ ألم يقل «إذا كان لا بد من الموت فلنمت أحراراً أعزاء لا عبيداً أذلاء»؟ لقد عرف عن سعاده أنه كان يمارس ما يقول ويحيا قضيته بكل روحه ووجدانه وينفذ هو أولاً ما يدعو رفقاءه أن ينفذوه.

إن كل هذه الشهادات التي قدمناها أجمعت على أن سعاده كان يرى بوضوح تام أنه هو شخصياً وأن الحزب كله قد تعرض لمؤامرة كبرى ستقضي عليه لا محالة: ستقضي عليه إن تراجع وستقضي عليه إن أقدم، فاختار «أن يقضى علينا ونحن نحارب على أن نحافظ على وجود لا حياة ولا كرامة فيه». هذا هو الجواب على السؤال الكبير الذي لم ينفك يلح ويلح ويطرح نفسه في وجدان القوميين الاجتماعيين الذين «لم يقبلوا» أن يذهب سعاده إلى الموت ولم يستوعبوا لماذا تركهم يتامى وعراة منه ومن تعليمه وإشعاعه وقيادته. هذا هو الجواب نكرره: «إذا كان لا بد من الموت فلنمت محاربين أعزاء لا مستسلمين أذلاء... وإذا كان لابد من القضاء علينا فالأفضل أن يقضى علينا ونحن نحارب على أن نحافظ على وجود لا حياة ولا كرامة فيه». كأن سعاده يعيد تمثيل تاريخ أدونيس أو البعل أو مار جرجس أو الخضر أو يسوع، ويعيد تمثيل فلسفة النظرة السورية إلى معنى البطولة الاجتماعية والتضحية الفردية في سبيل حياة المجموع، أي ما نسميه بالفداء. إن التاريخ السوري كله هو تاريخ فداء و»قيامة» وتجدد وانبعاث، وهذا التاريخ يشهد موت جميع القادة- الآلهة استشهاداً في صراع مع الشر، ويشهد في كل مرة انبعاثاً للحياة والفضيلة واستئنافاً للصراع من جديد. سعاده الذي كان قدوة في كل شيء أراد من فعل الفداء الذي أقدم عليه أن يكون قدوة لأجيال أمته ومثالاً وحافزاً لها لاستمرار الصراع والانتصار. هو الذي أقسم بشرفه وحقيقته ومعتقده قائلاً: «إني أقف نفسي على أمتي السورية» وجد أن الأمة السورية تطلب دمه الآن فكيف لا يلبي؟ كيف لسعاده أن يجعل من يوسف العظمة رمزاً للبطولة ويجعل منه ومن بطولته معيناً تستمد منه النهضة السورية القومية الاجتماعية روحها (المبدأ الأساسي السابع)، دون أن يقتدي به وهو زعيم هذه النهضة وقائدها وقدوتها؟ لو أن سعاده اختار التواري هذه المرة، ورفقاؤه وأركانه في السجون، وحزبه يتعرض للتنكيل والتصفية، لسقطت الزعامة عنه وسقطت كل مقولاته عن الصراع ومعناه وعن «حب الموت متى كان

المـوت طريقاً إلى الحياة»، وصار مثله مثل ميشـيل عفلق الذي اشـترى الإفراج عنه من السجن برسالة استعطاف وولاء مذلة لحسني الزعيم.

قليلـون هم مـن يفهمون ويقـدرون قيمة المواقـف التاريخية ونتائجهـا. لقد أصاب سـعاده هدفه من قراره بالمواجهة حتى الموت: لقد مات هو ولكن بموته استشـهاداً قد أحيى الحزب وأحيى القضية التي قام عليها الحزب. إن استشـهاد سعاده مقتحماً الموت اقتحامـاً قـد أعطى الحزب وقضيته قوة عظيمة لن تخمد أبـداً، وهذه القوة الروحية هي بالضبط ما اشـتعل في نفوس القوميين والسـوريين بشـكل عام وجعل الحزب يسـتمر متسـلحاً بقوة واندفاع لا يمكن وقفه. إن سعاده في موقفه وقراره الكبير قد أمدّ الحزب بـزاد الحيـاة والنمو لسـنين طويلة لّمـا تنتهي بعد، وهو بذلـك قد نفّذ قسَـمَه «**أنا أنطون سـعاده أقسـم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أني أقف نفسي على أمتي السورية ووطني سورية**» وكان قدوة عند استشهاده كما كان قدوة في حياته. إن النمو الكبير الذي حققه الحـزب في تاريخه كان في الفترة التي أعقبت استشـهاد سـعاده، ومـا كان ينقص الحزب إلا شيء واحـد فقـط وهو قيادة تشـبه سـعاده في الصدق والإخـلاص للقضية وحدها والعمل لها وحدها.

سـعاده أعطى العقيـدة والمبادئ وأعطى النظام والمنهج وشـق الطريق وقدّم القدوة والنمـوذج، وبذل حياته ودمه وسـلّم إرثاً ضخماً للأجيـال والتاريخ، وما على الأجيال والتاريخ إلا أن تتلقى هذا الإرث: فإما أن تعبث به وتهدره وإما أن تحمله وتسـير به إلى الأمام.

نعم كان يعلم

سـعاده لم يكـن يقود ثورة لقلب الحكـم في لبنان، بل كان يقود ثـورة مقاومة للظلم بهدف وقفه. سـعاده كان يعرف تماماً أنه لا يستطيع بإمكانيات الحزب المادية المتواضعة أن يتغلـب عـلى الدولة وحكومتهـا وقواها الأمنيـة المستعدة والمبادرة والمهيأة مسـبقاً والمدفوعـة من قـوى خارجية، فضلاً عن انكشـاف ظهر الحزب وتعرضـه للخيانة من حكومة الشـام. سـعاده يعـرف أن الثورة الأخـيرة الفاصلة لم يحن وقتهـا بعد، ولذلك سـمّى ثورته الراهنـة بالثورة الأولى. إن مـن لا يرى ذلك ويظن أن سـعاده كان بصدد

ثورة مسلحة فاصلة لقلب الحكم في لبنان، فكأنه يقول إن سعاده كان رجلاً غبياً مغفلاً بسيطاً لا يفقه ولا يفهم الظروف السياسية وموازين القوى العسكرية ولا يعرف ما يجري حوله.

إن سعاده اختار أن يذهب إلى المواجهة التي قد تكلفه حياته ودمه وتقضي مادياً على الحزب، على يقين أن الحزب سينهض بعد حين، لأن دون ذلك كان موتاً مادياً ومعنوياً للحزب لا تقوم له بعده قيامة.

يوميات القرار الصعب

لعله من المفيد إعادة مراجعة ما حدث يوماً بيوم من 1 إلى 8 تموز، لكي نقارن بين عالمين: العالم الذي كان يحيا فيه سعاده، والعالم الذي كان يعيش فيه معاونوه ومن حوله.

في 30 حزيران كان سعاده قد كتب رسالة إلى الأمينة الأولى وفيها أنه مصمم على المواجهة رغم وضوح النكوص بالوعود، أي الخيانة، ويدرس احتمالات الانتقال للاستمرار في المواجهة من مكان آخر.

1- 1 تموز: كان سعاده في سباق مع الوقت، الرفقاء في لبنان تبلغوا أن موعد انطلاق العمليات هو 2 تموز، وعلى أساسه سوف يتحركون وتأجيله سيخلق تضارباً بالتوقيت وإرباكاً ومشاكلَ. ويخبرنا بشير موصلي ذلك وأن العمليات تأخرت للرابع من تموز بسبب تأخر وتلكؤ السلطات السورية في تسليم السلاح. وشهادة بشير صحيحة، إذ كان هو مسؤولاً عن تعهد المقاتلين المتطوعين وتجميعهم وتأمين حاجاتهم، كما كانت مهمته التواجد في مناطق العمليات عند انطلاقها بصفة مفوض مراقبة حسب تعليمات الزعيم ومساعدة الرفيق الصدر عساف كرم إدارياً بما يمكن ونقل الأخبار إلى الزعيم عن مجريات الأحداث.

2- 2 تموز: يشهد صبري قباني ويقول: «...وفي يوم السبت 2 تموز طلبني سعاده ليقول لي: إن الحالة التي وصلنا إليها سيئة بسبب إخلال صاحبك بوعوده لنا. إننا نخوض معركة حياة أو موت. لأن بقاءنا مكتوفي الأيدي تجاه التدابير المتخذة في لبنان لَمَحْوِنا معناه القضاء علينا. ولنمت بشرف إذا لم يكن سوى الموت لنا مخرجاً مما نحن فيه. ها أنذا أعلنت الثورة اعتماداً على وعد لي بالمساعدة ويصعب علي جداً رؤية رجال

الحزب في لبنان يعانون العذاب والقتل والتشريد وأنا لا أستطيع دفع الأذى عنهم. فأرجو أن تتصل للمرة الأخيرة بصاحبك لعرض الحالة عليه وإفهامه أنه لولا اعتمادنا على وعده لنا لاعتمدنا في حربنا مع الحكومة منهجاً آخرَ. أنا أعلم أنك استقلت من عملك وأنك قاطعته ولم تعد لك صلة به... ولكن هناك أرواح تزهق وقليل من العون يقلب الوضع...». ويتابع قباني ويقول إنه عرض الأمر أولاً على آمر المكتب الثاني العقيد إبراهيم الحسيني لأخذ مشورته وإن الحسيني قال له: لا تكلف نفسك ولا تقابله فلن تجدي المقابلة نفعاً، لقد أصدر رئيس الحكومة أوامره بالأمس إلى الشرطة بمراقبة جميع أفراد الحزب في دمشق والسعي للتعرف على مقر سعاده، وإن قصة مساعدته أصبحت في ذمة التاريخ. ولا بد أن قباني نقل هذا الخبر إلى سعاده، وسعاده لم يصدر بيان الثورة بعد.

3- 3 تموز: الجاسوس المقدم الحسيني ينفذ أوامر حسني، أو لنقل أوامر المستر ميد، ويسلّم الحزب كمية كبيرة من الأسلحة سُحبت من مستودعات المصادرات التي كان مقرراً إتلافها، وأغلب تلك الأسلحة وذخائرها غير صالحة للاستعمال (سامي جمعة ص 75). ونعتقد أن هذا ما دفع بسعاده أخيراً إلى إصدار بيان الثورة.

وإبراهيم الحسيني نفسه يتصل بالسيدين سامي الصلح ومنيب الصلح ويطلعهما على النقاط التي سوف يستخدمها القوميون للعبور إلى لبنان، لكي ينقلا هذه المعلومات لابن عمهما رياض (نفس المصدر). هكذا يقول سامي جمعة، ولكن لا بد هنا من توقع أن تكون هذه المعلومات قد وصلت إلى لبنان عن طريق آخر غير الحسيني وغير سامي ومنيب الصلح. كما يجدر بنا أن نذكر أن سامي الصلح كان يتظاهر بمعارضته لرياض وكان يحضر احتفالات الحزب التي كانت تقام عنوة بعد أن يكون رياض الصلح قد منع إقامتها.

4- 4 تموز: استمرار الإعداد وتوزيع المهام والاستعداد للانطلاق رغم كل الظروف المعاكسة، وإصدار بيان الثورة.

5- 5 تموز فجراً انطلق المقاتلون القوميون ووجدوا أن الجيش اللبناني كان بانتظارهم من حيث أتوا فقتل من قتل واعتقل من اعتقل وفشلت الثورة.

6- 6 تموز: سعاده الذي تلقى الأخبار السيئة يقابل فارس الخوري الذي ينصحه بمغادرة دمشق لكن سعاده لا يأخذ بالنصيحة أبداً (سامي الخوري).

وفي مساء اليوم نفسه، كان موعد المقابلة الثالثة مع حسني. في الليل الجميع بالانتظار لأن سعاده لم يعط تعليمات قبل مغادرته، لم يواعد أحداً ولم يكلف أحداً بشيء ولم يخبر أحداً عن خطته وقصده من الذهاب إلى اللقاء مع حسني رغم كل المخاطر والمحاذير والتحذيرات. الكل ينتظر تعليمات الزعيم وتدابيره وقراراته وأوامره، ولا أحد يبادر أو يشارك أو يشعر بمسؤولية أو يمارس مسؤولية دون إيعاز وأمر وتوجيه من الزعيم. لا أحد فكر أن يستوقف الزعيم ويسأله ويقترح عليه تدابير احتياطية وطرح شروط معينة مثل مرافق دائم أو أكثر يذهب معه إلى القصر الجمهوري، أو ضابط اتصال أو مثل ذلك، لكي يبقى سعاده تحت النظر، وخاصة أن المخاوف والتحذيرات كانت قد حصلت ووصلت وعرف بها الجميع، أقلها وضع الأمينة الأولى في الإقامة الجبرية وزجها غصباً عن إرادتها في فندق بردى، ما اضطرها لتدبير خطة هروبها مع الرفيق بشير موصلي إلى بيته مساء 6 تموز (بشير ص 299).

7- 7 تموز: لا أحد يعرف شيئاً عما حدث للزعيم مساء البارحة. الكل ينتظر أن يتصل به الزعيم ويعطيه أوامر وتعليمات. لا اجتماع طوارئ للمفترض أنهم معاونون، ولا مسعى ولا اتصال مع القصر الجمهوري. لم يتعود أحد أن يبادر من تلقاء نفسه، الكل ينتظر الزعيم لتلقي الأوامر منه. حتى إنه لم يتصل أحد «بالرفيق» أديب الشيشكلي مدير الأمن العام ليسأله عما جرى للزعيم. حتى إن الأمين جورج بلدي كان مشغولاً بمرافقة أحد رجال الأمن للبحث عن الأمينة الأولى الضائعة المفترض أن تكون تحت الإقامة الجبرية، حتى إذا ما وجداها عند بشير تم نقلها، غصباً عنها، إلى دير سيدة صيدنايا وهي لا تعلم ما حل بالزعيم (بشير ص 301).

8- الجمعة 8 تموز: حسبما قاله بشير موصلي، «لم يتصل بنا النوم أبداً، جافيناه وجافانا، الإعلام لم يكن متطوراً فأنت في الليل نادراً ما تأتيك الأنباء. وبدأنا نزرع الشوارع مع الفجر بانتظار الصحف. طلعت الصحف كلها صباح 8 تموز وهي تحمل صورة الزعيم في مواقف متعددة وقد أجمعت أنه لم يتغير مطلقاً وظل محافظاً على هدوئه ورزانته حتى... إطلاق الرصاصات...» (بشير ص 303).

لماذا تزامن التوقيتان: معركة مشغرة وتسليم سعاده؟

لقد صار واضحاً أن كل خطط وتدابير ومواقيت فعاليات الثورة المسلحة كانت مكشوفة تماماً للحكومة الشامية، وبالتالي لحكومة بيروت. كانت القوى الأمنية اللبنانية تنتظر الموجة الرئيسة من المقاتلين القوميين بقيادة عساف كرم في مشغرة ظهيرة 6 تموز، وفي نفس التاريخ بعد وقوع هذه القوة في الكمين المنصوب لها في مشغرة واستشهاد قائدها، تبلغ سعاده عن موعد اللقاء الأخير مع حسني الزعيم مساء اليوم ذاته. كان توقيت وصول الوفد الأمني اللبناني إلى الشام لاستلام سعاده مخفوراً، معقوداً بشكل مسبق على إيقاع القضاء على عساف كرم وأسر مجموعته وإعلان فشل الثورة. كانت الحكومتان الشامية واللبنانية تنسقان معاً وتنتظران معاً موعد بدء إطلاق الرصاصة الأولى. كانتا تستطيعان إجراء تسليم وتسلم سعاده قبل 6 تموز، فاتفاقهما حصل قبل 6 تموز وسعاده طلب اللقاء بحسني قبل 6 تموز، فما الذي جعل توقيت الصفقة يكون بالضبط في 6 تموز؟ الجواب هو أن المشهد المخطط له لم يكتمل قبل 6 تموز، فالحكومة اللبنانية كانت تنتظر لحظة بدء العمليات العسكرية لتستطيع امتلاك التهمة التي ستوجهها إلى سعاده، هذه التهمة التي كانت تنتظرها منذ حادثة الجميزة في ليل 9- 10 حزيران. حتى إن توقيت حصار مجموعة سرحمول كان أيضاً في 6 تموز بعد أن كانت هذه المجموعة تتنقل بين بشامون وعين عنوب وسرحمول تحت أنظار الجيش طيلة أسبوع أو أكثر دون أن يبادر الجيش لمهاجمتها والقضاء عليها، فالقضاء عليها قبل بدء سعاده ثورته المسلحة من دمشق قد يدفعه لإعادة حساباته ووقف العمل المسلح الذي كانت الحكومة تريده وتنتظره بفارغ الصبر. ولما كان وقوع ضحايا من الجيش برصاص القوميين هو أمر مطلوب، ولما لم يقع ضحايا من الجيش في مشغرة، فقد تم قتل النقيب شمعون في سرحمول برصاصة من الخلف...!

سعاده لم يفاجأ بالإعدام وسار إليه هادئاً

لقد قيل الكثير إن سعاده خدع مساء 6 تموز قبل ذهابه إلى مقابلة حسني الزعيم، وإنه لم يتبلغ التحذيرات والمعلومات الأكيدة بأن حسني سيسلمه، حتى إن عبد المسيح اعتبر أكثر من مرة وفي أكثر من مكان أن «تهاون» معروف صعب وعبدالله محسن وإلياس جرجي وعدم إبلاغهم سعاده للمعلومات والتحذيرات هو «جريمة» أدت إلى كارثة

اغتيال الزعيم. حتى إن عبد المسيح ذهب في أوهامه لدرجة قوله إن إبراهيم الحسيني هو الذي لمّح إلى معروف صعب عن نية تسليم سعاده (بدأ جمراً. ص 236- 237)، وكأن إبراهيم الحسيني، حريص على سلامة الزعيم أو أنه يحتاج للتلميح لمعروف صعب كي يبادر معروف صعب ويخبر الزعيم. ألم يفكر عبد المسيح أن الحسيني كان يمكنه هو نقل التحذير مباشرة إلى سعاده لأنه هو أخذه بسيارته إلى القصر الجمهوري؟! لكننا اليوم أصبحنا نعلم يقيناً أن هذا الكثير الذي قيل ليس صحيحاً أبداً. فسعاده لم يكن بحاجة لمن يحذره وهو الذي عاين وخبر وتعاطى ولمس وتحقق من الخيانة التي ذرت قرنها باكراً منذ اليوم التالي للقاء الثاني في 16 حزيران. فضلاً عن أن كل المعلومات التي استجدت بعد ذلك التاريخ، وكل التحذيرات من خيانة حسني، كانت قد وصلته مباشرة وأهمها تلك التي وصلت من العقيد توفيق بشور شخصياً (من ذاكرة أبي ص 97). وللذين لا يزالون يظنون أن سعاده لم يكن يعرف أو أنه لم يتبلغ أو لم تصله معلومات خيانة حسني، نثبت فيما يلي هذا المشهد: «لم يرفض سعاده عرض مصطفى سليمان فقط بل إنه لم يأخذ أيضاً بنصيحة فارس الخوري ونصيحة العقيد توفيق بشور الضابط في الجيش السوري الموثوق من سعاده والمقرب من حسني الزعيم على مرتين متواليتين. الأولى حين اجتمع العقيد بشور مع سعاده منفرداً في منزل نجيب شويري وبعد الاجتماع خرج بشور وقال لمرافق سعاده نجيب بولس: «اقنع سعاده أن يغادر البلاد فإن الخيانة قد أخرجت أنيابها السامة». ونقل نجيب بولس ذلك لسعاده فلم يكترث للتحذير الذي سمعه. بعد ذلك طلب سعاده الاجتماع بالعقيد بشور فحدد موعداً في منزل أهل زوجة العقيد وهو منزل الدكتور أنسطاس شاهين. ذهب سعاده إلى هذا الموعد مع كل من نجيب بولس الوسيط الدائم مع العقيد بشور وصبحي فرحات وبشير موصلي. دخل سعاده مع العقيد بشور إلى غرفة الاستقبال وبقي الآخرون ينتظرون في الخارج. وعند خروج سعاده برفقة العقيد بشور كان الأخير دامع العينين وقال بصوت متهدج: «أقنعوه بالهرب حرام تركه يموت. الخيانة وقعت» (الدكتور حنا بشور- من ذاكرة أبي صفحة 141، نقلها سامي خوري ص 160).

سعاده ذهب مساء 6 تموز إلى القصر الجمهوري في دمشق متوقعاً مصيره ولم يتفاجأ بشيء، ذهب منفذاً قراره الذي اتخذه بعد تفكير كثير وتقييم عميق للموقف، ذهب مطمئناً واثقاً من خطوته أنها صحيحة ستوصله إلى موته هو ولكن إلى حياة قضيته

وعقيدتـه وأمتـه، أليس هو من قـال «إننا نحب الموت متى كان المـوت طريقاً للحياة»؟ وهـذا الاطمئنـان وهـذه الثقة هما ما يفسر هدوء سـعاده وعدم ارتباكـه وعدم تعثره أو تلعثمه أو تردده في أية لحظة منذ أن قبض عليه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. حتى إنه كان في المحكمة والزنزانة وحقل الرماية وعلى عمود الإعدام يوزع كلمات الشكر بابتسـامة وبمنتهى الهدوء والتهذيب.

هل تعرض سعاده للخداع؟

إن صـورة الزعيـم والبطـل والقـدوة والمثـال، صـورة الإمكانيـة العليـا وصاحب المؤهلات الكبرى التي كانت لسعاده بنظر أتباعه والتي بفضلها أرادوه وتبعوه وساروا معـه وخلفـه حتى الموت، وهي صورة حقيقية وواقعية لا شـك فيهـا، إن هذه الصورة يصعـب معهـا على القوميين أن يعترفوا بسـهولة، إن سـعاده قـد أخطأ أو أنه قد أسـاء التقديـر أو تعرض للخداع أو ما شـابه. لكن بلى، إن سـعاده قد تعـرض للخداع فعلاً، أليس سـعاده إنساناً فرداً؟ ألا ينطبق على سـعاده ما ينطبق على الأفراد الإنسانيين؟ نعم إن سـعاده قـد تعرض للخـداع، ولا نقصد هنا مسـألة علمه أو عدم علمه بنية حسـني لتسليمه خلال لقاء 6 تموز، فهذا تفصيل صغير، بل نقصد خطة الإيقاع به من أولها إلى آخرها.

نعم، إن سـعاده قد ترك بيته ليلة 9–10 حزيران ليتفادى الاعتقال لأنه لم يكن محيطاً بكل أبعاد الخطة التي حيكت ضده وضد حزبه وتفاصيلها ومراحلها وأهدافها الأخيرة. لقـد تـرك بيته لتفـادي الاعتقال دون أن يدري أنهـم لم يكونوا يريدون لـه الاعتقال بل يريدون له القتل، وإن الاعتقال قبل إعلان الثورة المسـلحة يمنعهم من القتل ويفقدهم حجتهم للقتل. إن سـعاده قال في بيان 16 حزيران إن السـلطة فشـلت في أسر الزعيم، قـال ذلك لأنـه كان يظن أن أحد أهداف حملة الحكومة هـو أسر الزعيم، غير مدرك أن الخطة كانت تقتضي عدم أسر الزعيم بل إفساح المجال له للانتقال إلى الشام.

إن سـعاده قد عبّر عن ارتياحه وثقته بالنجاح بعد المقابلة الثانية مع حسـني الزعيم، أي الأولى بعـد حادثـة الجميزة، لأنه لم يكن محيطاً بكل مراحل الخطة التي كانت تقتضي دفعـه دفعاً للقيام بعمل مسـلح ضد الحكومة اللبنانية، أكان حسـني صادقاً مع سـعاده

في وعد مساعدته ثم تعرض لضغوط أجبرته على الحنث بوعده كما يظن البعض، مثل سامي جمعة، أو كان حسني مخادعاً وضالعاً في خطة القتل منذ البداية كما يرجح البعض الآخر، ونحن منهم، فالذي صار واضحاً أن سعاده كان مرتاحاً لأنه كان قد تعرض للخداع.

مقارنة

لا، إن تاريخ الحزب ليس هو تاريخ أعوان سعاده فقط، إنه تاريخ هذه الاستجابة القوية وهذا الإيمان المطلق وهذا الاستعداد الكامل لدى أعضاء الحزب لبذل ماهم ودمهم وحياتهم كلها لما آمنوا أنه حق. سنقدم الأن مقارنة بسيطة بين إيمان وولاء واستعداد الأعضاء الكامل لبذل كل شيء من أجل قضية تساوي وجودهم كله، وبين مسؤولين ومعاونين لسعاده لا يتحملون مسؤولياتهم ويلقون كل شيء عليه، حتى إن أحدهم يرفض إيواء الأمينة الأولى في بيته لأن بيته ضيق ولا يسع!

يروي لنا بشير موصلي كشاهد عيان ومشترك بالحدث ويقول: «يطلع منفذ عام دمشق عصام المحايري سعاده على وضع المنفذية واستعداداتها قائلاً: تمكنا خلال عشرة أيام من جمع خمسين ألف ليرة سورية، وهو مبلغ كبير جداً في ذلك الوقت يمكّن من شراء 12 شقة سكنية على الأقل أو ما لا يقل عن خمسين سيارة، خصوصاً وأن القوميين أكثرهم من الموظفين. وما من ريب أن اندفاع الرفقاء وعطاءاتهم مما يستحق الفخار. بعضهم باع مصاغ عائلته وتبرع بقيمتها. بعضهم كانوا يعملون في كي الثياب في سوق الخجا على مكاوٍ كبيرة بالأرجل كان يتم تحميتها على بابور كاز، هؤلاء باعوا مكاويهم وقدموا ثمنها تبرعاً. الرفيق الدكتور راتب حراكي، وكان تخرج منذ عامين من جامعة دمشق وعمل طبيباً في الأرياف الفقيرة جاء ومعه ثماني ليرات ذهبية هي حصيلة عمله وأصر على تقديمها، متمنياً أن يشترك في العملية العسكرية، وقد احتاج الأمر إلى أن يستدعيه الزعيم ويبلغه عدم الحاجة إليه لإقناعه بعدم المشاركة لعدم إلمامه باستعمال السلاح....الخ (بشير موصلي ص 250).

وأمام الموت وجهاً لوجه يتألق أديب الجدع ومعروف موفق ومحمد الشلبي وعبد الحفيظ علامة ومحمد الزعبي وعباس حماد، هؤلاء لن ينسى كل من حضر تنفيذ حكم

الإعدام بهم، من لحظة مغادرتهم حبس الرمل حتى لحظة اختراق الرصاص أجسادهم، تلك الروح العالية لشباب يواجهون الموت وكأنهم ذاهبون إلى حفلة عرس أو إلى نزهة مدرسية. يضحكون لا تفارقهم روح الدعابة والمرح، يعطون للعالم أمثولة في اللقاء مع الموت من أجل قضية، أمثولة لكل مؤمن بحق أمته في الحياة. فعباس حماد وكانت قد فاتته إجراءات أداء قسم الانتماء إلى الحزب رسمياً، طلب من محمد شلبي: «بصفتك مديراً لمديرية نبوخذ نصر في دمشق أرجو أن تسمح لي بأداء القسم الدستوري الآن لأني أريد أن أموت سورياً قومياً اجتماعياً كاملاً، فأقابل الموت مطمئن الضمير وأعَد في المستقبل في عداد الشهداء القوميين الاجتماعيين.». عباس يؤدي القسم. والرفقاء الستة يتسابقون إلى اختيار خشبات الإعدام الست. آخرهم كان أديب الجدع وبقيت له الخشبة الأولى، وقف وخاطب رفيقه محمد الشلبي وقال له: أنا مطرحي هنا مكانك يا حضرة المدير، أنت المدير ومطرحك أمام الخشبة الأولى... ويتحرك السلاح بأيدي الجنود، وما إن سمع المدير محمد الشلبي صوت الضابط يعطي أمر إطلاق النار حتى ارتفع صوته للمرة الأخيرة مدوياً كالزئير: لتحيى سورية. فأجابه الرفقاء الخمسة بصوت واحد مجلجل كهزيم الرعد: ليحيى سعاده.

وسقط الرفقاء الستة دفعة واحدة متجهة وجوههم نحو الأرض، أرض بلادهم التي أحبوها حتى الموت (نواف حردان- نقله بشير موصلي ص 360-363).

سبب سرعة المحاكمة وتجاوز أصولها وشروطها القانونية

لن ندخل الآن في تفاصيل ودقائق ما حدث عند تسليم سعاده في القصر الجمهوري في دمشق ولا على الطريق إلى بيروت ولا في المحكمة ولا في الزنزانة ولا في مكان الإعدام، فكل هذه التفاصيل كتب عنها الكثير وتكرارها الآن ليس هو الغرض من هذا البحث. لكننا سنتوقف عند مأساوية وصورية وسرعة هذه المحاكمة وسببه. يصعب على أي باحث في وقائع محاكمة سعاده أن يسميها «محاكمة». إنها أقرب ما يكون لمسرحية رديئة احتوت بعض طقوس وشكليات المحاكمة. أن يلقى القبض على «المجرم» وتوجه إليه التهم ويتم التحقيق معه ويساق إلى المحكمة وتوجه الأسئلة ويقدم الادعاء مطالعته ويدلي المتهم بدفاعه وهو لم ينم ولم يأكل منذ 36 ساعة وتتم المذاكرة ويصدر الحكم ويصدق وتنعقد لجنة العفو وتناقش الحكم وتصدر قرارها ويصل القرار إلى رئيس الجمهورية ويبرم الحكم

ويبلغ إلى المتهم ويعين موعد تنفيذ الإعدام وتتخذ سرية الإعدام تدابيرها واستعداداتها ولوازمها وينفذ حكم الإعدام بالمحكوم الذي لم يُسمح بإعطائه ورقة وقلماً ولم يسمح له برؤية زوجته وبناته... أن يتم كل ذلك خلال أقل من 36 ساعة (من مساء 6 تموز إلى فجر 8 تموز)، يعني أن الحكومة خائفة ومربكة وواقعة تحت ضغوط عظيمة قطعت عليها أنفاسها وصوابها وجردتها من كل ما يسمى عدالة أو له علاقة بشيء اسمه دولة قانون. وهل من شك بعد في أن الحكومة كانت تنفذ دورها المرسوم لها من قوى دولية عالمية أكبر منها بكثير؟ إن ارتكابات الحكومتين الشامية واللبنانية وتصرفهما الذي يشبه تصرف عصابات القتل مرده إلى اضطرارهما لطاعة أوامر أتت من فوقهما طاعة العبيد للأسياد. أكثر من ذلك، فقد سجلت السوابق التالية:

– لجنة العفو ترفض الإعدام بأكثرية 3 من 5 فيتم فوراً زيادة عددها بأشخاص من خارجها (أنطوان بطرس ص 120) مما يدل أن قرار الإعدام متخذ سلفاً قبل المحاكمة من قبل سلطات الأسياد.

– عمود الإعدام حضر قبل قرار لجنة العفو (بطرس ص 119) مما يدل أن قرار الإعدام متخذ سلفاً قبل المحاكمة من قبل سلطات الأسياد (مذكرات شوقي خيرالله ص 222).

– الكاهن استُدعي قبل قرار المحكمة، مما يدل أن قرار الإعدام متخذ سلفاً قبل المحاكمة من قبل سلطات الأسياد. (أنطوان بطرس ص 123).

إن ما بيناه آنفاً يبرهن أن قرار قتل سعاده كان متخذاً سلفاً من الجهات الأجنبية وأن الحكومتين الشامية واللبنانية كانتا الأدوات المحلية التي أدت كل منهما دورها المرسوم لها. لكن يبقى السؤال يلح: لماذا هذه السرعة وهذا الارتباك وهذا الجنون؟ ألم يكن باستطاعة الحكومة اللبنانية وسلطتها القضائية أن تأخذ وقتها وتتخذ إجراءات محاكمة حسب الحد الأدنى من الأصول القانونية وتتفادى الوقوع في هذه المهزلة والفضيحة؟ هل كان من الضرورة الأمنية أن تتم المصادقة على حكم الإعدام بعد منتصف الليل؟ الجواب هو أن الحكومة اللبنانية كانت تحت ضغط شديد من قوى أجنبية ألزمتها بتنفيذ قتل سعاده قبل 8 تموز، وهي أرادت قتله على الطريق من دمشق إلى شتورة ليل

6 تموز، وكانت الحكومة لا تزال خائفة من هبوط قوميين من خلف الغيوم يحطون على الأرض ويهاجمونها ويعطلون عليها «واجباتها» بقتل سعاده في الوقت المحدد لها. الحكومة اللبنانية نفسها التي اعتقلت أركان الحزب كلهم واعتقلت أيضاً جميع المنفذين العامين والرفقاء الفاعلين، وكانت نشرت الجيش كله وقوى الأمن كلها واتخذت جميع الاحتياطات الأمنية لحماية إجراءات القتل، الحكومة اللبنانية هذه كانت لا تزال خائفة من بروز ما يعطل عليها عملية القتل.

هل كان يمكن إنقاذ سعاده؟

لقد وصف سعاده تصرف الحكومة اللبنانية بملاحقة الضحية والتنكيل بها، بعد حادثة الجميزة، فقال في بيان 16 حزيران: «إن الحكومة اللبنانية قد ضربت الحزب ضربة الخائف بكل الزخم الذي يدفعه الخوف وبكل الأغلاط التي يمليها الخوف». هذا القول كان بعد يومين من وصول سعاده إلى دمشق وبعد أسبوع واحد من حادث الجميزة، ويمكننا الآن وصف تصرف الحكومة بعد القبض على سعاده وقتله بأن نستعمل نفس العبارات: إن الحكومة اللبنانية قد قبضت على سعاده وحاكمته وقتلته بكل الزخم الذي يدفعه الخوف وبكل الأغلاط التي يمليها الخوف. هذا الخوف الظاهر في تصرفات الحكومة يجعلنا نفكر بالفرضية التالية: لو كان تسنى لسعاده أن يبني الحزب على القواعد والأسس التي وضعها له في دستوره وتسنى له أن يقوده دون انقطاع ودون «اغتراب قسري» ودون اضطراره للانشغال بمكافحة الانحرافات الداخلية وإعادة البناء عدة مرات، أو حتى لو كان القوميون الاجتماعيون المسؤولون يدركون المسؤولية العظيمة الملقاة عليهم ويدركون الحاجة والضرورة القصوى للدفاع على زعيمهم وحمايته والحفاظ عليه، لكان ممكناً لهم في الشام أن يحذروا حسني الزعيم ويهددونه بالقتل إن هو غدر بسعاده. كان يمكنهم فعل ذلك بواسطة الضباط القوميين في الجيش، ومنهم قريب من حسني، أو بواسطة غيرهم، وها هو نذير فنصة عديل حسني الزعيم ومستشاره الصحفي وفي كتابه «أيام حسني الزعيم (ص 76) يقول «كان لسعاده قاعدة لا بأس بها في الجيش السوري»، ويقول ممدوح رحمون السياسي السوري القومي العربي الذي لعب دوراً بارزاً في السنين التي تلت، يقول في حديث خاص مع أنطوان بطرس إن أكثر من نصف ضباط الجيش آنذاك كانوا قوميين سوريين

(بطرس ص 58). ولكان ممكناً للقوميين في لبنان أن يفعلوا نفس الشيء مع رياض الصلح وبشارة الخوري في أي وقت من 9 حزيران وصاعداً. نحن نعتقد أن الخوف الذي طبع تصرفات الحكومة كان سيدفعها بكل تأكيد لإعادة حساباتها فيما لو بادر القوميون واستعملوا التحذير والتهديد. صحيح أن حالة الحزب التي كانت سنة 1949 كان يعتريها سلبيات كثيرة وما حلّ مجلس العمد منتصف أيار إلا مؤشر واحد فقط على ذلك، فضلاً عن وجود أركان الحزب كلهم تقريباً في السجن، لكن الحزب كان لا يزال محتفظاً بعناصر قوة قادرة على فعل الكثير لو توفر لها التنظيم والقيادة. والدليل على ذلك محاولتان للاقتصاص من رياض الصلح جرتا في عاليه وفشلتا لأسباب فقدان التنظيم والقيادة (جريج ص 176) ونحن نتكلم هنا عن مرحلة ما قبل الاستشهاد، أمّا محاولة قتل رياض التي قام بها البطل توفيق رافع حمدان فكانت بعده.

فسعاده كان ضحية مؤامرة خارجية استندت إلى سلبيات الأوضاع الحزبية الداخلية واستفادت منها. إن من كان يجب أن يلعب دوراً رئيساً في إنقاذ سعاده هو جورج عبد المسيح لثلاثة أسباب، أولاً لأنه الأمين ذو الخبرة الأمنية والعسكرية كونه عميداً للدفاع لفترة طويلة وهو قد زعم أن سعاده عينه رئيساً لمجلس العمد قبيل حادث الجميزة بقليل، أي إنه كان «المسؤول الأول» حسب تعبيره، وثانياً لأنه كان طليقاً أفلت من الاعتقال مع من اعتُقل بعد حادثة الجميزة، وثالثاً لأنه كان قائد القوات القومية في جبل لبنان. لكن عبد المسيح كان في حالة عمى أمني ولم يكن يعلم أن سعاده قد تم اعتقاله في دمشق وتم تسليمه إلى السلطات اللبنانية وتمت محاكمته وأعدم. إن قائد القوات القومية في جبل لبنان لم يراقب طريق دمشق بيروت ولم يكلف أحداً بمراقبتها، ولم ينشئ خلية جمع معلومات عن تحركات وأعمال الحكومة وأجهزتها الأمنية، ولم يقم بأي تدبير لجعل الحكومة تشعر بأن الحزب لا زال موجوداً وقادراً على حماية زعيمه، لقد تمكن فقط من جمع 12 رفيقاً بقوا أسبوعاً كاملاً يدورون ويتنقلون بالخفاء وبالعلن بين بشامون وعين عنوب وقد حوصروا في سرحمول واعتُقِلوا جميعهم دون معركة، ما عداه. ورغم ذلك فإن عبد المسيح يسمي ما حدث في سرحمول بالشهادة الثانية بعد شهادة سعاده الأولى. إن عبد المسيح بصفته قائداً كان يجدر به أن يكون خارج الطوق لكي يتمكن من إدارة فعاليات الثورة وما كان يجب أن يدخل نفسه في طوق سرحمول طيلة أسبوع كامل.

كيف عرف عبد المسيح باستشهاد سعاده؟

جورج عبد المسيح قائد القوات القومية في منطقة الجبل لم يعرف أن سعاده اعتُقل وحوكم ونفذ فيه الإعدام إلا عندما رأى صورته في الجريدة التي جلبها الرفيق شكيب النجار إلى بلدة العبادية صباح 8 تموز (رد عمدة الإذاعة على مذكرات الأمينة الأولى ص 92). إن كل تحضيرات الحكومة «لاستقبال» سعاده ليل 6- 7 تموز وسوقه من المصنع إلى ثكنة الفياضية ثم إلى ثكنة الدرك السيار ثم إلى المحكمة، وكل إجراءات المحاكمة والاستنفار والحراسة واستدعاء المحامي لحود والكاهن برباري وغير ذلك من مظاهر استنفار الحكومة لتنفيذ قتل سعاده، إن كل ذلك كان خافياً عن عيون عبد المسيح وعلمه أو عيون رفقائه الذين كان يفترض به أن يكون قد نظمهم، بصفته قائد قطاع جبل لبنان، وكلفهم وزرعهم عيوناً للحزب في كل مكان. لكن عبد المسيح لم يكن قد عمل شيئاً من ذلك ولم يعرف شيئاً عما حدث للزعيم إلا عند رؤية صورته في قفص الاتهام. وهنا أيضاً تبرز لنا فرادة عبد المسيح، فأما هو شخص بطل متفوق استثنائي كامل الصفات الممتازة، بنظر مريديه، وأما هو مشبوه مريب مجمع مساوئ ومثالب، في نظر خصومه. إن قول عبد المسيح إنه بمجرد رؤيته صورة سعاده في قفص الاتهام عرف أنه قد استشهد، قد حدا بالبعض لأن يتهمه بأنه كان عارفاً بمصير الزعيم وأنه ينتظر هذا المصير وأنه كان مستعجلاً لذلك فعرف به بمجرد رؤيته لصورة سعاده في قفص الاتهام، (إن الصورة في قفص الاتهام لا تكفي للاستنتاج أنه أعدم) وأنه كان يحضر نفسه أو تحضره جهة ما لاستلام الحزب بعد سعاده، وما ادعاؤه بأن سعاده قال له في عاليه «لقد أتممت لكم رسالتي وسوف أختمها بدمي» إلا دليل أنه كان يعتبر دور سعاده قد انتهى وجاء الدور له هو. وحجة هذا البعض هي أن رسالة سعاده لم تكن قد انتهت، فلا مؤسسات الحزب كانت مكتملة ولا مراسيمه الدستورية التي تتعلق بانتقال السلطة كانت مكتملة ولا المؤلفات التي وعد أنه سيعدّها كانت قد ظهرت بعد، حتى إن حملة تطهير الحزب من الانحراف العقائدي والسياسي لم تكن قد اكتملت بعد، وإن الحزب كان بحاجة لزعيمه الذي لم يكد يتجاوز 45 سنة من العمر، أي إنه في عز عطائه وإشعاعه الفكري والفلسفي والقيادي والكفاحي، ولم يكن قد قاد الحزب سوى ثلث عمر الحزب الذي امتد من 1932 إلى 1949. فكيف يمكن تصديق أن سعاده قد قال لعبد المسيح إنه قد أتم رسالته وسوف يختمها بدمه؟! إن سعاده لا يمكن أن يقول ذلك

لأحد. وإن عبد المسيح زرع هذا الاعتقاد لكي «يقبل» القوميون ويهدؤوا تمهيداً له كي يرث سعاده في قيادة الحزب. حتى إن هؤلاء يذهبون للقول بأن المخابرات الإنكليزية التي رتبت سحبه من مطبعة الجميزة هي التي رتبت سحبه من طوق سرحمول وهي التي سوّقت اسمه كخليفة لسعاده وهي التي سهلت دخوله إلى دمشق. إننا هنا لا نريد أن نوحي بأننا نؤيد هذه الاتهامات والظنون والشكوك، أو لا نؤيدها، بل نريد أن نورد كل ما يطرح من احتمالات وفرضيات، مع تأكيدنا أن التاريخ لا يمكن فهمه بناء على احتمالات وفرضيات بل على حقائق ووقائع. الاتهامات والافتراضات بحق عبد المسيح ليست وقائع وليست حقائق، قد تكون أحقاداً، ولكن سحبه من المطبعة وسحبه أو انسحابه من طوق سرحمول وتسويق اسمه باكراً كخليفة لسعاده من قبل السفارة الإنكليزية في بيروت ومن قبل الملك عبدالله في الأردن، وسنورد ذلك بالتفصيل في الفصل التالي، هي حقائق ووقائع.

أين كان شوقي خيرالله؟

شوقي خيرالله هو واحد من الضباط القوميين الاجتماعيين في الجيش اللبناني، كان قومياً اجتماعياً قبل أنتسابه إلى الجيش وكان وكيلاً لعميد الثقافة فايز صايغ وبحكم مسؤوليته كان يشترك في إصدار النشرات الإذاعية والثقافية التي يشرف عليها العميد. لم يتطرق شوقي، على حد علمنا، في ما كتب من مذكرات وألف من كتب عن كيفية دخوله «السهل» إلى الجيش في وقت كان سورياً قومياً اجتماعياً مسؤولاً ومعروفاً. جورج عبد المسيح لم يوفر شوقي من اتهاماته القاسية، وهي كبقية اتهامات عبد المسيح للكثير من القوميين الاجتماعيين المسؤولين، لا تستند إلى وقائع أكيدة وملموسة. مثلاً يقول عبد المسيح عن شوقي ما يلي: «...كان من الذين لازموا دار الزعيم في المدة الأخيرة حتى الأسبوع الأخير قبل الحوادث. وقد دلتني التحقيقات أنه حالما قررت حكومة الصلح تصفية الحزب، بدأ يعلن ما لا يقل عن الشتائم ضد الزعيم. فقد رفع لبيب زويا تقريراً قبيل حوادث الجميزة إلى الزعيم فيه حديث لشوقي قال فيه: ألا يزال أنطون يضحك عليكم؟ اتركوه أفضل لكم. وحين سأله لبيب عمن يقصد بأنطون أجاب: هذا الذي تقولون عنه الزعيم، وتحداه أن يرفع تقريراً بهذا الأمر لأنطون هذا. وكان هذا التحدي مقصوداً لكي يجد شوقي مبرراً لما كان قد أوكل إليه فنفذه حانثاً

بيمينه. كان شوقي خيرالله مكلفاً بقيادة مفرزة الحراسة في المحكمة وفي سجن الرمل». ويقول عبد المسيح أيضاً عن شوقي إنه «ادعى أنه فكر أن يستخدم رشيشه ويقتل الجميع ومن جملتهم الزعيم، ولكنهم نقلوه قبل أن يقرر تنفيذ الفكرة» (أيام قومية ج 5 ص 33– 34).

لكن ما قاله عبد المسيح عن شوقي، وشوقي يستحق الطرد إذا كان ما قاله عنه عبد المسيح صحيحاً، لم يمنع عبد المسيح من الاحتفاء بشوقي حين يلجأ شوقي إلى حزب عبد المسيح، فيقف خطيباً في احتفالاته! إنه الصراع على الأسماء الرنانة في دوامة الصراع على حزب سعاده والصراع على السلطة فيه.

أما شوقي نفسه فيخبرنا بأن سريته العسكرية «استنفرت إلى بشامون– سر حمول دون مشاركة فعلية في اشتباك جورج عبد المسيح والعصابات القومية... وقد حسُن للنقيب وديع المعلوف أن يوشوش أني قد ساعدت عبد المسيح على اختراق الطوق بالرغم من كوني رئيس فصيلة في سرية المعلوف البعيدة كيلومترات عن منطقة العصابات والقتال» (مذكرات شوقي خيرالله ص 222). ولم يذكر إذا كان قائداً لمفرزة الحراسة في المحكمة ولكنه يروي بعض وقائع 7 تموز خارج وداخل المحكمة ويقول: «...عرفت أن الملازم أول جنادري مكلف من قبل القيادة بأن يحضر باقة زهور للإعدام بحسب التقاليد الموروثة عن الجيش الفرنسي. ثم عرفت أنهم قبل انتهاء المحاكمة قد حفروا قبراً في مقبرة مار الياس بطينا وحضروا صندوق خشب. هذا فيما المحاكمة الصورية جارية وإميل لحود يناقش الزعيم في مواد الدفاع، والملازم أول الياس رزق الله يكلف بالدفاع فيتحمس أثناء دفاعه ويبرز الحجج فيسكته رئيس المحكمة لعدم جدوى كل هذا الجهد...» (نفس المصدر)، مما يدل أن شوقي كان فعلاً هناك أو قريباً من هناك.

أما عن قيادته مفرزة سجن الرمل بعد المحكمة فيقول لنا شوقي: «في نصف الليل نقلوا سريتنا إلى ما بين سجن الرمل والمطار القديم في بير حسن. وقد سمعت صوت النار... ومع رشقة الرصاص من مفرزة الإعدام تعالى صوت المؤذن، الله أكبر الله أكبر، من مأذنة قرب حبس الرمل» (نفس المصدر ص 223)، مما يعني أنه فعلاً كان هناك.

إلى أين ذهب شوقي بعد الإعدام مباشرة

بعد الإعدام مباشرة، أي فجر 8 تموز، لم يقل لنا شوقي إلى أين ذهب، لكن غسان تويني، الذي كان سعاده قد طرده من الحزب، وكان لا يزال مطروداً أنذاك، سيقول أين كان شوقي. شوقي يخبرنا أنه ليلة كتابة افتتاحية غسان تويني «المجرم الشهيد» كان عنده في مكتبه في جريدة النهار وأن هذه الافتتاحية قرأها شوقي قبل طباعتها ونشرِها وهي لم تعجبه ولا يدري لماذا سجن غسان بسببها (نفس المصدر ص 241). ونحن نعرف أن هذه الافتتاحية كتبها غسان ليل 8–9 تموز لتظهر في الجريدة صباح 9 تموز. وهذا يعني أن شوقي كان عند غسان ليل 8–9 تموز. لكن غسان الذي لم ينف حضور شوقي لمكاتب النهار في ذلك الوقت، روى أن شوقي كان عنده ليل 7–8 تموز أيضاً، أي بعد الإعدام مباشرة! يقول غسان تويني:

«في تلك الليلة الرهيبة من تموز، كنت لا أزال ساهراً في مكاتب الجريدة مع جبران حايك وبعض المحررين القلقين مثلنا، فإذا بضابط شاب يدخل علينا ببزته العسكرية المغبرة المعفّرة وقبعته الحديدية على رأسه، ويروي لنا واقفاً تفاصيل تنفيذ الإعدام وكل ما رافقه... وفي اليوم التالي كتبت مقالاً افتتاحياً أقول فيه إن الناس لا يعرفون ما إذا كان سعاده قد أُعدم أم قُتل، وإذا كان الذي جرى محاكمة أم مؤامرة...» (من محاضرة غسان تويني في قاعة عصام فارس 20 أيار 2004 بدعوة من مؤسسة سعاده للثقافة).

كيف ترك شوقي سريته بهذه السرعة وخف إلى مكاتب «النهار» في هذا الوقت قبل طلوع الضوء فجر 8 تموز؟ هل أخذ مأذونية في هذا الوقت الحرج الاستثنائي، أم أنه كان مكلفاً من رؤسائه العسكريين بنقل وقائع المحاكمة والإعدام قبل صدور الجريدة، فذهب بسرعة حتى قبل تبديل ثيابه العسكرية وقبعته الحديدية؟ سنجيب على ذلك بعد قليل عندما نتكلم عن دور غسان تويني اللاحق في الحزب.

قبل أن يقتسموا حزبه، اقتسموا أشلاءه وثيابه

لم يكن لرفات سعاده مصير أفضل من مصير حزبه. إن أضعف الإيمان هو أن تحفظ الرفات بما يليق بحصانة الميت، فكم بالحري وهي رفات من كان «معلماً وهادياً للأمة والناس» ومؤسساً وزعيماً لقضية أقسم الألوف من أبناء سورية إنها قضية تساوي

وجودهم كله، «من أجلها نقف معاً أو نسقط معاً»...لقد عبث قادة الحزب برفاته وحجبوها حتى عن عائلته، أي عن زوجته وبناته، فضلاً عن رفقائه، وذلك بعد أن اقتسموا أجزاء وبقايا منها مثل بقايا شعره وأسنانه وسترته وعامود إعدامه وحبل وثاقه... وأضاعوها! أما كامل رفاته الباقي فأخفاه عبد المسيح ولا زال مخفياً.

بالنسبة لأجزاء الرفات وبقاياها، عبدالله قبرصي في حديث خاص مع أنطوان بطرس أجراه معه في سنة 2002 يقول إنه «احتفظ لنفسه بقطعة خشب واحدة بحدود 15 سنتيمتراً وجزء من خصلة شعره، لا تزال الخصلة بعهدته، أما الخشبة ففقدت عندما أحرق مكتبه خلال الحرب في لبنان» (بطرس ص 141). وإدوار توتنجي أخذ نيبان، أنياب عدد 2، مرصوصين ذهباً وحفظهم معه (بطرس ص 144). وشوقي خيرالله أخذ قطعة صغيرة من كتفه الأيمن وعمود الإعدام وحبل وثاقه، العامود قرر تقطيعه وحرقه، أما حبل الوثاق المضمخ بالدم وقطعة الكتف فأضاعها خلال حرب السنتين في لبنان. وكل هذه «المقتنيات» من جسد سعاده أخذها من أخذها بقرار كيفي فردي منه دون الرجوع إلى مؤسسة الحزب أو إلى عائلة سعاده صاحبة الحق فيها. وكان عبدالله قبرصي أيضاً قد قال «إن الشعر وسنّ الذهب وقطعة السترة وخشبة التابوت وقطعة الحبل أخذتها ووضعتها في صندوق وختمتها بالشمع الأحمر وأرسلتها إلى الأمينة الأولى» (بطرس ص 141). وهذا الصندوق أيضاً كاد يضيع خلال حوادث الاضطهادات سنة 1955 في الشام، ولا نعرف مصيره اليوم.

عبد المسيح يخفي رفات سعاده

أما بالنسبة لكامل الرفات الباقي فنجد شرحاً مفصلاً موثقاً عنه في كتاب أنطوان بطرس ص 142 و143، فالرفات الآن مجهول المكان والمصير. عبد المسيح أدلى بثلاثة أحاديث في هذا الموضوع لمجلة الشراع عام 87 ثم لجريدة الديار 19-3-93 (ورد في نشرة عمدة الإذاعة عدد حزيران 93) وأخيراً لمجلة الشرق الأوسط في 15-11-98، بالإضافة إلى حديثين أجراهما معه أنطوان بطرس في منزله في بيت مري سنة 94 و95. أحاديث خمسة ثلاثة منها منشورة في الصحف لم يكشف عبد المسيح خلالها عن المكان الذي يضم الرفات. ففي حديثه لمجلة الشراع يقول عبد المسيح إن كريمة سعاده الصغرى أليسار زارته يوماً وطالبته بالرفات، فأجابها بأن الرفات هو ملك الأمة وليس

ملك الأفراد، ولم يدلها عليه. ثم أدلت صفية كريمة سعاده الكبرى بحديث مطول إلى ملحق النهار تموز 92 أكدت فيه ما قاله عبد المسيح لمجلة الشراع وعبّرت عن مرارة العائلة حيال عدم معرفتها بمكان رفات سعاده. وفي حديثه لجريدة الديار مع الصحافي اسكندر شاهين يقر عبد المسيح أن رفات سعاده تم نقلها بإيعاز منه إلى غرفته في بيت مري، وأنه بعد عودته من دمشق أعاد وضع الرفات بصندوق حديدي ونقله إلى مكان آخر لم يفصح عنه. وفي حديثه للشرق الأوسط يتراجع عمّا قاله في حديث جريدة الديار وينفي أنه نقل الرفات إلى غرفته في بيت مري ولم يوضح أي شيء آخر. أما في حديثه الخاص مع أنطوان بطرس أكد عبد المسيح أن الرفات في عهدته وأرشده إلى الغرفة التي وُضِع فيها قبل إخراجه منها خوفاً من التلف بسبب تسرب المياه، ولكنه لم يفصح عن المكان الأخير للرفات.

الفصل الخامس

السيطرة على الحزب بعد استشهاد الزعيم
كوارث وانشقاقات وصراع على السلطة

مقدمة الفصل الخامس

كان مـن المفترض أن ينتهي هـذا الكتاب مع نهاية الفصل الرابع، وأن يكون الفصل الخامـس هـذا عنوانـاً للكتاب الثـاني. لكن بعد تردد قـررت دمج الكتابـين وأن يكون عنـوان هـذا الفصل جزءاً مـن هذا الكتـاب الواحد. والسـبب هو العلاقـة القوية بين مرحلـة استشـهاد سـعاده من جهة ومـا حدث بعدها مـن جهة أخـرى، وصعوبة فهم أحداث هذا الفصل دون قراءة الفصول السـابقة. وبالإضافة إلى ذلك فإن أحداث هذا الفصل تلقي ضوءاً جديداً على الأحداث التي سـبقته والأسباب الحزبية الداخلية التي أدت إلى تسهيل استشهاد سعاده.

هـذا مـن جهة، ومن جهة أخرى فإن خطة قتل سـعاده قد تضمنت في جزء أسـاسي منهـا كيفيـة السـيطرة على الحـزب من بعـده، وهذا شيء يجـب أن نتوقعه ونحسـب له حسـاباً. إن الذين تآمروا على سـعاده وخططوا لقتله لم يفعلوا ذلك ويقضوا عليه مجرداً مـن حزبه وقضيته ومن الحركة الشـعبية العامة التي أطلقها وصـارت تياراً قوياً جداً لا زال حتى اليوم يتحرك بدفع من وهج سعاده نفسه وحده رغم غيابه منذ سبعين سنة.

لقد حاول أعداء سعاده كثيراً ومراراً أن يوقفوه عن الاستمرار ببناء وتطوير الحزب. حاولوا أن يسـتوعبوه هو بعيداً عن الحزب كما حاولوا أن يسـتوعبوا الحزب بعيداً عنه. لقد فشـلوا في استيعاب سعاده فشلاً ذريعاً محققاً، فهل فشلوا في استيعاب الحزب بعيداً عنه أم نجحوا؟

إن الهـدف الرئيـس كان التخلـص مـن الحزب والقضيـة والحركة التـي تفعل إدارة وثقافة وسياسـة وحرباً، وإن قتل سـعاده قد تقرر عندما استحال الفصل بينه وبين هذه الحركة لاستفرادها وإيقافها. إن قتله كان يهدف لإطفاء الحزب أو تدجينه أو ترويضه، ولو لم ينشـئ سعاده حزباً وحركة على النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن، أي على الفلسـفة الجديدة والعقيدة الجديدة التي أتى بها، لو أنه اكتفى بكونه رجل فكر وفلسفة فقـط، لمـا كان ذلك يعنـي لأعداء الأمة السـورية شـيئاً. فالحزب وقضيتـه وحركته هو هدف الأعداء الرئيس، وإن قتل سـعاده وإبقاء الحـزب وقضيته وحركته، على القواعد التي أسسها سعاده، لم يكن ليفيدهم بشيء.

كثيرون ممن يؤمنون بسعاده وقضيته وهم منخرطون في حركته وصراعه لتحقيق هذه القضية، يقولون اليوم: يا ليته لم يؤسس حزباً، وكان منهم الكاتب القومي الدكتور علي حمية صاحب مجلة «اتجاه» الذي كتب مقالة في مجلته بعنوان «ياليته لم يؤسس حزباً». الدكتور حمية كان يقصد أن الحزب قد أخذ من سعاده كل وقته ولم يبق له متسع ومجال للتأليف ولشرح فلسفته الجديدة، وإنه لو لم يؤلف الحزب ويقوده لكان استطاع التفرغ لعطاءاته الفكرية والفلسفية دون خطر قتله والقضاء عليه، هذا الخطر الذي لازمه طيلة حياته بعد تأليفه للحزب.

إن قتل سعاده كان إذاً بهدف حرمان الحزب منه، والحزب دون سعاده كان هو الهدف التالي، بل الهدف الرئيس، فكيف تعامل القتلة مع هذا الهدف، وكيف تصرف أركان الحزب بعد سعاده وكيف تعاملوا مع هذا الهدف؟

إن أول ما كان يجب أن يحسبه من أراد إحياء الحزب وإحياء قضيته بعد استشهاد الزعيم، هو حساب الأهداف المقبلة لأعداء هذا الحزب وهذه القضية الذين استطاعوا القضاء على الزعيم وقتله. الذين قتلوا سعاده سيعملون حتماً على محاصرة الحزب والسيطرة عليه واستيعابه، ثم استعماله، ذلك لأن قتل الحزب مستحيل فهو قد انزرع في صميم الشعب ومن المستحيل قتله، وسعاده قد قال وهو يموت: «أنا أموت أما حزبي فباق». فأعداء الحزب وأعداء القضية السورية القومية الاجتماعية الذين قتلوا سعاده سيعملون على محاصرة الحزب واستيعابه وترويضه والسيطرة عليه، وحتى على الاستفادة منه، ابتداء من تكوين قيادته المقبلة وانتهاء بضبط عمله وتوجيه سياسته والاستفادة منها. فهل كان قياديو الحزب بعد 8 تموز 1949 على هذا المستوى من التنبه أو على مستوى وأهلية قادرة على رؤية هذه القضية وحسبانها الحساب الصحيح؟

بدء مرحلة استيعاب الحزب والسيطرة عليه

انتقال عبد المسيح إلى دمشق

قبل الكلام عن كيفية انتقال عبد المسيح إلى دمشق وصيرورته رئيساً للحزب بعد استشهاد سعاده، لا بد لنا من ملاحظة أن سعاده قبل استشهاده لم يعطِ عبد المسيح أية مسؤولية مركزية سياسية في الحزب، وذلك بعد قبول استقالته من عمدة الدفاع

سنة 47، أي حوالي سنتين، رغم بقائه عاملاً ونشيطاً في الحزب وقرب الزعيم. وعبد المسيح نفسه يفيدنا أنه، بالإضافة لعمله محرراً في جريدة الجيل الجديد، يومياً، «أنا على رأس فرقة حراس بيت الزعيم» (اليوميات ص 165) و«لقد فرض عليّ الزعيم إدارة مدرسة الفريكة» (اليوميات ص 162).

وأن أول ما يجب ملاحظته هنا هو أن عبد المسيح قد تطلع ونوى وقرر الانتقال إلى دمشق لقيادة الحزب من هناك بعد استشهاد الزعيم، **قبل** مقتل حسني الزعيم ومحسن البرازي. نتبين ذلك من رواية عبد المسيح نفسه حيث يقول: «على أثر شفاء جرحي البسيط الذي داويته بما أرسِل لي لمداواة أذني، بدأ الإلحاح مني بوجوب تأمين رفيق يعرف الطريق إلى الشام، فالعمل في لبنان كان ضرباً من المجازفة التي لا يمكن أن تثمر» (أيام قومية ج 5 ص 5)، وهذا الكلام كان قبل مقتل حسني ومحسن. وبعد ذلك يقول: «كانت الصحف اللبنانية والشامية تأتيني يومياً تقريباً فأتصفحها، وبرهنت لي الصحف أن **الحكومتين** تهتمان اهتماماً خاصاً بشخصي... وزاد شعوري بالمسؤولية حين بدأت أخبار المحاكمات، وما حصل في دمشق، تصلني». وهذا أيضاً كان قبل مقتل حسني ومحسن، فالحكومتان تتعقبانه وليس الحكومة اللبنانية وحدها، حكومة حسني الزعيم وحكومة رياض الصلح، فلو كان حسني الزعيم قد قتل لما كانت حكومة سامي الحناوي لتتعقبه ولما قال إن الحكومتين تهتمان اهتماماً خاصاً بشأنه. وبعد ذلك يقول: «عاد الرسول نجيب جمال الدين رشيد من دمشق مرة أخرى، ولكنه كان يحمل هذه المرة كدسة من الصحف تعلن مقتل حسني الزعيم والبرازي...» (نفس المصدر). هذه الرواية تبين بوضوح أن عبد المسيح كان يخطط للانتقال إلى دمشق قبل مقتل حسني الزعيم، وكان يعتمد رسولاً هو الرفيق نجيب جمال الدين رشيد ليستكشف الأحوال ويستطلع الإمكانيات وأن هذا الرسول عاد «هذه المرة» يحمل أخبار مقتل حسني، ما يعني أنه في المرات السابقة لم يكن حسني قد قتل بعد..

السؤال الكبير هنا هو: كيف كان سيقدم هو على ما رفضه لسعاده؟ كيف كان سينتقل إلى دمشق مع وجود حسني الزعيم ومع انكشاف خيانة حسني ونواياه السيئة والخطيرة، في وقت كان العم يأبى على الزعيم أن ينتقل إلى دمشق بحجة عدم الوثوق بنوايا حسني التي لم تكن مكشوفة بعد؟ (راجع رواية العم للقائه بسعاده في عاليه بعد حادث الجميزة).

صحيح أن ما رواه عبد المسيح آنفاً كان من ضمن رواية طويلة ركزت أكثر ما ركزت على ورود أخبار مشجعة ومحفزة للانتقال **بعد مقتل حسني** وليس قبل مقتله. «أتت الأخبار من دمشق ومن منطقة اللاذقية مشجعة، على تركيز العمل والامتداد من الجمهورية الشامية إلى لبنان وباقي الدويلات السورية... إن أخبار دمشق (عن مقتل حسني ومحسن) حفزتني للذهاب» (أيام قومية ج5 ص6). لكن رغم ذلك كان سهلاً ملاحظة عزم عبد المسيح على الانتقال إلى دمشق قبل مقتل محسن وحسني.

والأمر الثاني الذي يجب ملاحظته هو دور الشيشكلي في انتقال عبد المسيح إلى دمشق أكان من حيث التشجيع عليه والعمل له أو من حيث المساعدة في تنفيذه. يقول عبد المسيح في ذلك: «...وكان أديب الشيشكلي قد وصل إلى نفس الاقتناع، فانتقلت بطريقة فذة» (من رسالة إلى رفيق مغترب- رد عمدة الإذاعة ص 333).

عبد المسيح يستغرق كثيراً في سرد عملية انتقاله في السيارة من «الغار المعلق» في بيت مري إلى دمشق في 13 أيلول 1949، واجتيازه حواجز الجيش اللبناني بنجاح، «وكنت أجلس وحدي في صدر السيارة، ما أوقفتنا الدورية، وربما كانت تنتظر أن أمر بقافلة من السيارات أو أنهم ما كانوا بمهمة التفتيش عني». لكن العم لم يقل لنا لماذا قرر المخاطرة والمرور بسيارة بدل التسلل مشياً على الأقدام في الظلام كما فعل عندما غادر عاليه وقت ذهاب الزعيم إلى دمشق، خاصة أنه كان قد شفي من جرح بسيط في أذنه (أيام قومية ج 5 ص 5) وأصبح قادراً على المشي (ص 6)، وخاصةً أيضاً أنه كان مصراً على وجوب تأمين رفيق ليدلّه على الطريق عبر البقاع إلى الداخل. لماذا لم يتسلل في الليل مشياً أقله إلى شتورة، حيث موعده مع أديب الشيشكلي الذي سينقله بسيارته إلى دمشق حسب الوعد (ص 7). وأيضاً لم يقل لنا، وهذا من الأهمية القصوى، ماذا كانت خطته لو أن الدورية أوقفت سيارته بين بيت مري وشتورة وتحققت من هويته، وهو روى ما جرى مع دورية واحدة فقط علماً أنه يذكر في أماكن أخرى عديدة أن الطريق من الغار المعلق إلى شتورة كانت مليئة بالحواجز الأمنية. العم يقول لنا إنه ذاهب إلى دمشق ليقود الحزب من هناك على أساس الزعم أن سعاده كان قد عيّنه في «المسؤولية الأولى» قبل أن يستشهد، أي رئيس مجلس وكلاء العمد، وأن مهمة من هذا النوع والحجم والخطورة من البدهي أن تقتضي الحرص الشديد على ضمان الانتقال بنجاح وأخذ جميع

الاحتياطـات لعدم الوقوع في الاعتقـال على الطريق (وحكم الإعدام على كتفيه). فماذا كانت خطة العم في هذا الصدد كي لا يقع في الاعتقال وتتعطل المهمة الكبرى التي هو بصدد القيام بها؟ إنه لا يقول لنا شيئاً سوى: «استقر رأيي أن أذهب بالسيارة وليكن ما يكون».

والعم لم يقل لنا لماذا تجاوز موعده مع أديب الشيشكلي ولم ينتظره في شتورة حسب الموعد. بل قال إنه ثاني يوم وصوله إلى دمشق أتى أديب وأكد أنه أتى حسب الموعد إلى شتورة وصعد إلى ضهر البيدر ولكنه عاد لتأخرنا عن الموعد ما جعله يظن أننا أجلنا المجيء (ص 9).

إن من يقرأ هذه الروايات اليوم يتساءل: وما هي أهمية هذه الأمور؟ أليست هي تفاصيل ثانوية تجاه أمور أهم وأكبر بكثير، مثل كيفية إعادة لمّ الرفقاء وإعادة لمّ الحزب وإعادة بنائه وتقويته وجعله يتجاوز نكبة استشهاد الزعيم؟ لماذا سرد تفاصيل الانتقال أكان في السيارة أم مشياً على الأقدام، أكان العم انتظر أديب في شتورة أم لم ينتظره؟ الجواب هو: لو لم تكن لها أهمية معينة وغرض معين لما رواها العم. لقد بدت وكأن العم يبرر سهولة انتقاله إلى دمشق، في مواجهة ظنون وشبهات من خصومه وأعدائه بأنه انتقل تنفيذاً لخطة موضوعة مسبقاً من أطراف خارجية سهلت له الانتقال، وبالتعاون مع أديب الشيشكلي بالذات لكي يتولى هو وليس غيره قيادة الحزب بعد استشهاد سعاده. فهذه الرواية كتبها عبد المسيح بعد 27 حزيران 55 (ص 5)، أي بعد ظهور هذه الظنون وهذه الشبهات.

إن هذه الظنون لم تبدأ عند رواية الانتقال الآمن والسهل من الغار المعلق إلى دمشق، بل بدأت منذ الاستقالة المتكررة من عمدة الدفاع و«أزمة عبد المسيح»، كما يسميها جبران جريج، سنة 47 مروراً بدور العم، أو قل تحييده وإبعاده عن حادثة المطبعة في الجميزة ليل 9-10 حزيران، ومروراً أيضاً بما رواه فريد الصباغ حول امتناع العم من تلبية استدعاء سعاده له إلى بيت منير الحسيني في بيروت ثاني يوم الحادثة، واستدعائه مرة ثانية من بشامون إلى عاليه بواسطة الرفيق يوسف حداد و«خلافه» مع سعاده وأعراض سعاده عنه وعدم رغبته في التحدث إليه، إلى المضمون المجهول للرسالتين اللتين وجههما سعاده له من دمشق مع أديب الجدع قبيل إعلان الثورة.

هـذه المحطـات التاريخية نعرضها في هذا الكتاب كما وصلـت لنا من وثائق مكتوبة، خاصـة بقلم العم نفسـه، وليـس من أقاويل وتصـورات من غير ضوابـط وغير وثائق أكيدة. وفي هذا العرض جهدت ألا يكون لي رأي فيها، أو أن أحتفظ برأيي فيها لنفسي، مـن أجل الحفاظ قدر الإمكان على موضوعية هذا التاريخ وعدم خلطه بآراء سـلبية أو إيجابيـة. أقـول «قدر الإمكان» لأنه يصعب كثيراً على الباحث في التاريخ أن يحيد نفسـه ومخزون وعيه وفكره واعتقاداته السابقة من أن تؤثر أو تتدخل في الوقائع التاريخية.

وإن ما يجب تسـجيله هنا الآن هو أن أديب الشيشـكلي كان الحاضر الأول في مشهد انتقال عبد المسـيح إلى دمشـق، منـذ التفكير في هـذا الانتقال إلى كيفية تنفيـذه وإلى يوم الوصول. وفي يوم الوصول أخذ أديب يتدخل و«يشـور» ويوزع نصائحه كمن يشرف عـلى عمـل ما: «في مسـاء ذلك اليوم أتـى أديـب... وكان أديب يـدور في حديثه حول ثلاث نقاط: الأولى مسألة خيانة معروف صعب التي ما أعطى عنها إلا ما قاله لمعروف ومـا عـرف أن إبراهيم الحسـيني قاله لمعروف ولعبدالله محسـن من وجـوب الحيطة من حسـني الزعيـم واتجاهاته، وأن الزعيم خرج من بيت معـروف صعب ولم يعد ولم يهتم معروف بأمره حتى إأنه ما كلف نفسـه أن يسـأل أو أن ينقل الخبر لأحد. والنقطة الثانية التي أثارها أديب هي وجوب الحيطة في العمل في دمشـق لأن الأوضاع السياسـية غير مسـتقرة. الثالثة هي السـعي لتقريبنا إلى أكرم الحوراني، وكان أكرم مثل غيره من محترفي السياسـة وقد رأوا في مقتل الزعيم متسـعاً لهم للوصول إلى ضم الحزب إلى قيادتهم وفي اتجاهاتهم السياسية...» (أيام ق. ج 5 ص 9)

والأمر الثاني الذي يجب تسجيله أيضاً هو أن الأمناء بدؤوا منذ اليوم الأول بتداول الشـكاوى من بعضهم البعض. نذكر من ذلك الشريط السريع التالي: العم قصد لحظة وصولـه إلى دمشـق الذهاب إلى مـكان إقامة الأمينـة الأولى في بيت نجيب الشـويري. الأمينـة الأولى لم ترحـب بالعم ليلة وصولـه وأبقته منتظراً خارجـاً وطلبت تأمين مبيته في مكان آخر، والعم كان غاضباً وغير مرتب المنظر. العم ينتقل إلى بيت الرفيق جورج بلـدي ويجتمـع هناك بالرفقاء والأمنـاء الذين لم يكن مضى بضعة أيـام على عودتهم من لجوئهم إلى عمان. منذ الوصول وقبل النوم بدأت شكاوى الأمناء من بعضهم البعض، جرجي يشكو محسن وعصام وصعب والأخير متهم بأنه سلم الزعيم عن سابق قصد،

ومحسن كان يأبى العمل مع معروف، والشيشكلي يتكلم عن خيانة معروف، و...الخ. (نفس المصدر).

الملفت والنافر في الأمر هو أن الشيشكلي، ورغم أنه لا يحمل أية مسؤولية في الحزب، يتدخل في كل شيء ولا يتورع عن اتهام أمين في الحزب بالخيانة، ويحاول وضع عبد المسيح تحت رحمة حمايته ورعايته منذ اليوم الأول بحجة «وجوب الحيطة في العمل في دمشق لأن الأوضاع السياسية غير مستقرة».

إقامة عبد المسيح في بيت الأمينة الأولى

إن إصرار عبد المسيح على السكن في بيت الأمينة الأولى لا تبرره كل الحجج التي ساقها من مثل أن ذلك يساعده على التخفي ويزيل شبهة وجوده في الشام أو أنه المكان الوحيد الذي يستطيع العمل فيه أو أن الحزب هو الذي اتخذ قرار سكنه هناك. إن مذكرات الأمينة الأولى فيها الكثير عن تبرمها وانزعاجها من سكن عبد المسيح في بيتها وافتقادها للجو العائلي المستقل وحرية تربية بناتها دون تدخل أحد. إن عبد المسيح في مذكراته يتحدث عن انزعاج الرفقاء الذين حل في بيوتهم بسبب إقامته عندهم أياماً قليلة قبل انتقاله إلى بيت الأمينة الأولى (أيام قومية ج 5 ص 16)، فكم كان حرياً أن يتوقع أو يلاحظ انزعاج الأمينة الأولى من الأمر نفسه، بل إن انزعاجها يجب أن يحسب له حساباً أكبر من انزعاج بقية الرفقاء، فهي أرملة سعاده وأم لثلاث بنات أطفال ووجود العم في بيتها وما سيؤدي إليه من تحول البيت إلى مركز للحزب والرفقاء سيحرمها من حياة عائلية خاصة مستقرة. لا ندري لماذا لم يأخذ العم هذه المسألة كأولوية.

ثم إن عبد المسيح مرة يقول إن الرفيقة إملي هي من «أقنع» الأمينة الأولى للقبول (نفس المصدر ص 17)، ومرة أخرى يقول إن الأمينة الأولى كانت تلاحظ ما يلاقي من تعب في تنقله المتخفي وإن عاطفة الأمومة الدافقة دفعتها فألحت عليه وجوب سكنه في إحدى غرف البيت وإنه هو استجاب لذلك (رد عمدة الإذاعة 335). إن سكن عبد المسيح في بيت الأمينة الأولى بالإضافة لاتخاذه لقب «العم»، أي شقيق الوالد، بدا للكثير من الرفقاء وغير الرفقاء أنه أراد أن يكون رديفاً أو بديلاً أو تعويضاً أو لصيقاً أو شبيهاً أو وريثاً للزعيم. وكأن العم يريد أن يكون القطب الثاني بعد القطب الأول

سعاده، وأن سعيه في وقت مبكر لاكتساب صلاحيات استثنائية في الحزب قد عزز هذا الاعتقاد.

إن اعتبـار عمدة الإذاعة في تنظيم الانتفاضة أن اختيار مسـكن عبد المسـيح في بيت الأمينة الأولى لم يكن قرار جورج عبد المسـيح بل كان قراراً حزبياً (ص 63)، هو مما لا يمكـن الأخذ به. فالقرار هو قـرار العم وليس قرار الحزب، فالحزب لم يتخذ قراراً بهذا الموضـوع، لم يكن للحزب لا مجلس أعـلى ولا مجلس عمد ولا رئيس ولا عميد ولا أي سلطة دستورية يمكن أن تجتمع وتناقش وتتخذ قراراً.

هالة عبد المسيح

يخبرنا سـامي خوري كيف قام عبدالله محسـن بتقديمه لعبد المسـيح في دمشـق لأول مـرة، يقول: «...جاءني عبدالله محسـن وقال لي إنه يريـد أن يراني لأمر هام جداً في منزل الأمينـة الأولى... دخلت منزل الأمينة الأولى في الموعد المحدد فوجدت عبدالله محسـن في انتظـاري. بـادرني بالقول إنه سـوف يطلعني عـلى أمر سري جداً وإن عليّ أن أقسـم بـشرفي وحقيقتـي ومعتقدي أن لا أعلِم أحداً بما سـوف أطلع عليه. أديت هذا القسـم مـردداً بعـد عبدالله محسـن كلماته واحدة واحدة ثـم دخلت إلى غرفـة داخلية في المنزل. بعد لحظات قليلة أزيح سـتار يفصل تلك الغرفة عن المنطقة التي تقع فيها غرفة الطعام والمطبخ وخرج من وراء السـتار شـخص أعرفه من الصور وكان جورج عبد المسـيح. أعلمني عبدالله محسـن أن جورج عبد المسـيح يدعى العم وأن هذا هو الاسم الذي عليّ أن أستخدمه للإشارة إليه...» (أمل لا يغيب ص 174).

لقد احتاج سامي أن يؤدي قسماً جديداً بحقيقته وشرفه ومعتقده لكي يرى ويتعرف على العم. لم يكن يكفي قسم الانتماء الذي ينص على «أن أحفظ أسراره ولا أبوح بها... ولا تحت أي نوع من أنواع الضغط». هكذا كانت الهالة التي أحاط العم نفسـه بها، ولا نشـك أن كثيرين غير سـامي قد خضعوا لهـذه «المعمودية»، إذا جـاز التعبير، لكي يروا ويتعرفوا على العم في دمشق.

ويروي عبد المسيح كيف بدأ عمله من لحظة وصوله إلى دمشق، ومثل كل الروايات التي يرويها، نادراً ما يذكر أسـماء واضحة، وغالباً ما تكون روايته متقطعة تتطلب منك

جهداً وإعادة قراءة عدة مرات لمحاولة فهم ماذا يقصد وكيف تسلسلت الأمور. وهذا نموذج منها في الصفحات 171 حتى 174 من يومياته:

«لماذا اكتفى الرفيق (م.ش) بمجرد رؤيتي في هذه الغرفة الجانبية في عيادة الدكتور (ف.). قيل لي إنه كالحركة الدائمة يترك رفيقاً ليمسك بآخر... إنه غير مطمئن إلى ما يلاحظ حوله... لماذا ذهب الزعيم مع من ذهب. من أي مكان إلى أين؟ من المسؤول؟ من يعمل؟ من حمل رسالتي عبد المسيح؟ هل هما منا؟ أين هو؟ أسئلة ما تفرد بها، لكن حلقات التساؤل تكثر! ذهب حسني الزعيم فلماذا لا ننطلق... أو لماذا ننطلق بهذه الوسيلة وليس تلك... العمل في بداية التنظيم مجدداً».

تعليقنا: هذا هو أسلوب عبد المسيح غير الواضح، يطرح أسئلة غير ذات قيمة تاريخية فيشتت انتباهنا وتركيزنا عن المهم وعما نريد معرفته، (لماذا اكتفى م.ش بمجرد رؤيتي في هذه الغرفة الجانبية...)، ما معنى هذا التساؤل وأين هي أهميته؟ لا ندري.

النص: «وجاؤوا به ليحدث الدكتور (ف.) على حدة... فتح ف. الباب له ليدخل... دخل... فتح عينيه، انفرج فكاه... عادت إليه نظاميته التي اشتُهر بها. تحيى سورية حضرة الأمين...»

تعليقنا: من هم الذين جاؤوا به؟ وهل ضروري أن نذكر أن ف. فتح الباب له ليدخل وأن م.ش. دخل بعد فتح الباب؟ وهل مقياس نظاميته هي تحيته لعبد المسيح (تحيى سورية حضرة الأمين) وعبد المسيح لم يكن يحمل أية مسؤولية حزبية ويعتبر نفسه آنذاك «المسؤول الأول» وتجب تحيته إذا أراد أحد الرفقاء التعبير عن نظاميته!!

النص: «قلت، رفيق (ش.) ليس الوقت وقت تحدث إليك الآن! اذهب فوراً واعمل... لم يكن قد أخذ وضع الاستراحة بعد... لم يؤمر بذلك... أدى التحية واستدار وذهب... وأغلق الباب...»

تعليقنا: عبد المسيح يضع نفسه في هالة ورهبة «المسؤول الأول» بعد سعاده، ولا وقت للتحدث إلى (ش.) وهذا الأخير بقي منتصباً متأهباً ولم يأخذ وضع الاستراحة لأن عبد المسيح لم يأمره بالاستراحة، فقط أدى التحية واستدار وذهب، ولم ينس أن يغلق الباب وهذا شيء مهم جداً في رواية عبد المسيح (وأغلق الباب).

النص: «إنه قدوة وسيعمل... وبدأ منذ ذهابه يقبل الأوامر دون تساؤل. حتى الاتهامات أصبح يطالب أصحابها بإطباق الشفاه دونها... أقتل الأسلحة هو اللسان... سيف يمتشقه الثرثار ويطعن به صدره...»

تعليقنا: هنا بدأ عبد المسيح، وهو لا يحمل أية مسؤولية حزبية، يصدر الأوامر و(ش) ينفذها دون تساؤل. وعند عبد المسيح ممنوع التساؤل عن الاتهامات، وممنوع إيضاح الموقف وجلاء ما التبس على الرفقاء، هؤلاء الرفقاء الذين كانوا يتساءلون حتى الاتهامات. أما عن ماهية الاتهامات، اتهام من لمن، فعبد المسيح لا يذكر شيئاً عنها إلى أن وصلنا إلى سنة 1954 فبدأ هو يكيلها يميناً ويساراً حتى لم يسلم أحد من حصته منها على لسانه.

النص: «...كل قول أو عمل يعطي الرفيق (أ.ش) سبباً جديداً للإصرار على وجوب وضع دراسة مسهبة مفصلة وافية عن مغزى إعطاء الزعيم دمه...! ليكن الموت موت الزعيم أمثولتنا الكبرى يا رفيقي... إني أقول لك لأنني أحس الجريمة في دمي حين أفكر ولو للحظة واحدة بأن أكتب أو أسمح بنشر دراسة عن مغزى موت سعاده. أتركها للأيام، أتركها لسير الحركة، أتركها لفعل دم سعاده في أجيال هذه الأمة!

تعليقنا: عبد المسيح يحرّم على الرفقاء كل قول أو عمل أو حتى تفكير بوضع دراسة مسهبة مفصلة لتوضيح الموقف وتوضيح سبب استشهاد سعاده بهذه الكيفية وهذه السرعة، بل إن عبد المسيح يعتبرها جريمة (أحس الجريمة في دمي) أن نفكر ولو لحظة واحدة بذلك، ويعتبرها جريمة أن يكتب أو يسمح بكتابة ونشر دراسة عن مغزى موت سعاده! لماذا؟

هل صحيح أن موت سعاده كان شرطاً لانتصار قضيته؟ وهل قال سعاده ذلك؟

النص: «ماذا قصد الزعيم بقوله «إن موتي شرط لانتصار قضيتي...؟»

تعليقنا: إن صاحب هذا القول المنسوب إلى سعاده، هو عبد المسيح. وعبد المسيح أسنده ونسبه إلى سعاده واستعمله كأنه شيء محسوم وكأن سعاده قاله بكل تأكيد قبل استشهاده. «ماذا قصد الزعيم بقوله إن موتي شرط لانتصار قضيتي» يوحي وكأن الأمر مفروغ منه تماماً: الزعيم قد قال ذلك، كما أن الزعيم قد قال سورية للسوريين والسوريون أمة تامة.

نحن إذا جردنا هذا القول (إن موتي شرط لانتصار قضيتي) من لمعة سمو القضية وسمو الموت من أجل انتصار القضية، أي إذا جردنا هذا القول من المعاني التي تمس النفس والوجدان، وإذا فكرنا قليلاً وبشكل مجرد عن الإثارة العاطفية والوجدانية لتلامذة سعاده المؤمنين به معلماً وهادياً للأمة والناس، وإذا وضعنا هذا القول ومعناه أمام العقل والتحليل والنقد، فماذا نرى؟

إننا نرى أمرين اثنين: أولاً، لا دليل ولا سند ولا إثبات على أن سعاده قد قال ذلك. ثانياً، من غير الصحيح أن موت سعاده هو شرط لانتصار قضيته. إن موت سعاده ليس شرطاً للانتصار، بل بالعكس فإن حياته وتعليمه وتوجيهه وقيادته وبناءه وقدوته وإنتاجه هو شرط ضروري، مع أنه غير كافٍ، لانتصار قضيته. نقول غير كافٍ لأن شرطاً آخرَ يجب أن يتوفر وهو تجاوب الأمة واستعدادها لفهمه ووعيه وإدراكه وأخذها بنظامه. إن موت سعاده ليس ولم يكن شرطاً للانتصار بل كان فاجعة وأعظم نكبة أصابت القضية التي لا تزال متعثرة ومتهالكة حتى اليوم بعد 70 سنة من موته، ولا أمل بقيامها وانتصارها إذا استمر القوميون الاجتماعيون بترديد الشعارات ترديداً ببغائياً دون وعي وفهم وإدراك.

إن عبد المسيح هو من اخترع هذا القول وكأنه يريد أن يقنعنا بأن سعاده كان يجب أن يموت وأننا يجب أن نقبل موته و«نسكت» عمن قتله، بل إننا ربما يجب أن نشكر الذي قتله لأن الذي قتله نفذ شرط الانتصار! تماماً كما نجح اليهود بزرع وهم عند اليسوعيين (المسيحيين) بأن صلب يسوع هو «مكتوب» وهو مشيئة الله، وأن من قتل يسوع كان ينفذ إرادة الله وتخطيطه. وكل من يلوم أو يدلل على اليهود أنهم قتلة هو كمن يلومهم لأنهم نفذوا إرادة الله، وأن قول يسوع لهم إنهم قتلة الأنبياء والرسل هو قول الذي يتنبأ بالدور الرباني الذي رسمه الله لهم ليقتلوا يسوع «ويتمموا ما جاء في الكتب»، وليس قول الذي يعنفهم ويتهمهم بالدور الإجرامي الذي أدوه سابقاً ويؤدونه لاحقاً!

«إن موتي شرط لانتصار قضيتي» هي عبارة رددها عبد المسيح أكثر من مرة وفي أكثر من مكان، وهكذا وضع عبد المسيح بها جواباً على الأسئلة التي حرّم على (أ.ش) وعلى القوميين طرحها والتي اعتبر أن مجرد التفكير بها ولو للحظة واحدة هو جريمة، جوابه كان: «إن موتي شرط لانتصار قضيتي». ألا تريدون للقضية أن تنتصر؟ إن موت

سعاده هو شرط للانتصار وها هو هذا الشرط قد تحقق، فإلى العمل وكفى طرح أسئلة واتهامات. وكان يجب ذكر المكان الذي كتب منه عبد المسيح هذا الجواب، إنه الغار المعلق. كان يجب ذكر الغار المعلق ليكتمل الإخراج بإضافة غار معلق والإيحاء بالغرابة والرهبة والسر الذي يخفى عن الصغار ولا يعطى إلا للكبار!

انحياز

نعيد التذكير بما قلناه في مقدمة هذا الكتاب، فنحن، كاتب هذا البحث وقارئوه معاً، قد نكون من محبي عبد المسيح وقد لا نكون، ولكننا سننحاز هنا ضده لأن خطتنا هي الانحياز ضده واتهامه من أجل استجلاب أجوبة على أسئلة ما كان عبد المسيح يجيب عليها، رحمه الله، ومن أجل استدراج محبي عبد المسيح ومريديه للجواب عنه وتسديد كل الأسئلة والتساؤلات التي تتعلق به وبدوره في الحزب منذ 1932 إلى 1999 يوم وفاته. وهو قد لعب دوراً محورياً ورئيساً في جميع مراحل تاريخ الحزب وليس أقلها خطوة انشقاق الحزب سنة 1957. ولن نذهب في انحيازنا مذهب من يرمي الاتهامات عشوائياً ودون أدلة، بل نورد ما قاله عبد المسيح نفسه ونحاول أن نفهم ونفسر ما قاله آخذين أسوأ الاحتمالات بعين الاعتبار ومسقطين كل تحفظ في هذا المجال.

هل استشهاد سعاده كان رائعاً؟

هل قول عبد المسيح عن استشهاد سعاده إنه «الاستشهاد الرائع»، وهل اعتبار عبد المسيح أن موت سعاده هو شرط يجب أن يتم لكي يتحقق الانتصار، كان تعبيراً عن شعور داخلي عنده بالرضى والقبول؟ هل تصبح اتهامات الأمينة الأولى، وغيرها، بأن عبد المسيح حرّض سعاده على الثورة المسلحة ووعده بالقدرة على تجنيد الرفقاء وقيادتهم لاحتلال الجبل، صحيحة؟ وهل هذا كان سبب اجتهاد عبد المسيح لتبرير عدم القدرة على حشد الرفقاء في الجبل قبيل «معركة» سرحمول؟ وهل هي صدفة أن يكون تحريض عبد المسيح لسعاده مترافقاً ومتناغماً ومطابقاً لتحريض حسني الزعيم واستفزاز الحكومة اللبنانية؟ هل كان عبد المسيح ينتظر تنفيذ «الشرط» وتتميمه؟ هل كان موعوداً بقيادة الحزب بعد سعاده؟ هل لعب دوراً مرسوماً سلفاً؟

إن عبد المسيح يتحدث مطولاً عن اتهامات وتحقيقات و»اعترافات كاملة» في يومياته

(ص 176 و177) دون أن يفصح عنها وعن أصحابها، وهو كان قادراً على ذلك كونه كان رئيساً للحزب والمسؤول الأول فيه من 49 حتى 56. وإن عبد المسيح كان يكيل اتهامات الخيانة والتهاون الذي يقرب من الخيانة لأكثر من أمين واحد ممن عملوا معه ثم خاصموه، فهل كان ذلك دفاعاً هجومياً منه رفعاً للشبهة من أن تتجه إليه؟ ما معنى أن تتهم شخصاً تهماً خطيرة وأنت قادر على محاكمته، ولا تحاكمه؟

رأي عبد المسيح بحسني الزعيم

قلنا سابقاً إن عبد المسيح لم يكن في حياة سعاده رجل عقيدة أو سياسة بل كان جندياً مخلصاً ونشيطاً ومتفانياً مؤمناً بسعاده ويتلقى تعليمه وأقواله وعباراته ويؤولها أحياناً ويستعملها في غير مكانها الصحيح. «ساعتان في بيروت في مكتب الحزب، ساعة عند الزعيم، ساعة في ضهور الشوير لإكمال مشروع يخططه الزعيم (قرية الفنانين)، والعمل مستمر في بضع ورش مقاولات، وتقرر أن أدير مدرسة الفريكة في عامها المدرسي المقبل» (اليوميات ص 146). هذا وحده كافٍ ليدلنا على مبلغ نشاط وتفاني الرجل وإخلاصه. لقد أفردت ملحقاً خاصاً في آخر هذا الكتاب لعبد المسيح العقائدي، أما هنا فلنر هذا المثل عن كيف كان يستعمل كلمات وعبارات سعاده في غير مكانها الصحيح: في الصفحات 178 و179 من يومياته لا يقبل من الدكتور قباني أن يقول إن حسني الزعيم هو طاغ، بالمعنى القبيح لكلمة طغيان، وحجته أن ليس كل طغيان قبيحاً، ودليله أن سعاده قال إنه لا بأس أن نكون طغاة على المفاسد، يقول عبد المسيح إن «حسني كان طاغياً على ما ظنه فساداً وإن ما وعد به الشعب كان ما تطالب به الحركة السورية القومية الاجتماعية». ويقول أيضاً إن كل علّته هو مرض الفردية الكامن فيه، فلا خيانة ولا عمالة ولا تآمر على سعاده مع الأميركيين والملك فاروق، فقط مرض الفردية. مسكين حسني الزعيم «لم يتمرس في صراع الحياة لقتل سوء الأنانية»، وأيضاً: «**لم يكن حسني الزعيم طاغية**. كان مريضاً ضعيفاً ركبته عقدة النقص» (ص 179)، والمريض الضعيف يستدعي العطف وليس الإعدام.

ألا يحق لنا أن نتساءل عن السبب الذي دفع عبد المسيح للتصدي لاتهام حسني بالطغيان؟ هل كان عبد المسيح مضطراً للدفاع عن حسني الذي خان سعاده وخان شرفه العسكري وسلم سعاده إلى أعدائه بعد أن وعده بحمايته ومساعدته؟! وهل

الخيانــة هي مجرد مرض الفردية و«عدم التمرس في صراع الحياة لقتل سـوء الأنانية»؟! وهـل يتفق رأيه هذا بحسـني مع رأيه في عاليه حيث يقول إنـه خالف الزعيم في تقييمه وتقديره وإنه «لا يثق بحسني الزعيم ونواياه» ولم يكن يريد لسعاده أن يذهب إلى دمشق لهـذا السـبب؟ أي رأي هو الصحيح، عدم ثقته بحسـني لدرجة خوفه على سـعاده منه ومـن غـدره، أم أن كل علة حسـني هي فقط مرض الفردية الموجـود في أغلبية الناس؟ هل نحن نشـكك في رواية عبد المسـيح عن مضمون اجتماعه مع الزعيم في عاليه أم أن عبد المسيح يدفعنا دفعاً لهذا الشك؟

حسني الزعيم طاغية – لا، حسني الزعيم ليس طاغياً

لكن عبد المسـيح في مقالة أخرى من يومياته (المقالة الخامسة) نشرها في حزيران 1950 يصـف انتقال الزعيم بعـد حادث الجميزة إلى دمشـق ويقول: «...ولذلـك نقل ميدان العـراك إلى جـزء آخر من أجزاء هذا الوطن ليحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه آملاً أن يوجه الطاغية الآخر إلى ما فيه خير الأمة وعزة الوطن، ولكن المفاسد الطامية وقعود صفوفنا عـن التقدم إلى المـوت ولو عزلاء ترك الطاغيـة الذي مات على أيـدي المتلاعبين الذين أشركوه في مؤامراتهم ليسكتوا عن مؤامراتهم على سلامة أعز أجزاء الوطن».

هكذا يخبط عبد المسـيح ويقول الشيء وعكسـه في الوقت نفسـه وبخصوص نفس الشخص. «ما كان حسني الزعيم طاغية... كان مريضاً ضعيفاً ركبته عقدة النقص...»، ثـم بلى إنه «الطاغيـة الذي مات في أيـدي المتلاعبين الذين أشركـوه في مؤامراتهم...». هكذا صار رأي عبد المسـيح في انتقال سـعاده إلى دمشـق، فبعـد أن كان معارضاً عنيفاً لهـذا الانتقال بداعي عدم الثقة بنوايا حسـني الزعيم، صار ينظـر إلى هذا الانتقال نظرة إيجابية: «الزعيم ذهب إلى دمشق آملاً أن يوجه الطاغية الآخر إلى ما فيه خير الأمة وعزة الوطن». هكذا فهم عبد المسيح حركة الزعيم من بيروت إلى دمشق، أو بالأحرى هكذا يريدنـا أن نفهمها، وهكذا فهم خطة المطاردة والتوريط التي رسـمها اليهود ومخابراتهم ومخابـرات الـدول الغربية المتآمـرة معهم ونفذها عـمال لهم يمكن أن يكـون واحد من هـؤلاء العـمال أو أكثـر موجـوداً في داخل الحزب ولعـب دوراً مهماً في تحريض سـعاده ووعـده بالقـدرة على تجنيـد الرفقاء المقاتلين وتسـليحهم من مخازن العـدو، حتى إذا ما تبين لسعاده أن هذه الوعود كانت كاذبة لم يعد باستطاعته الهروب والتخلي عن الرفقاء

وتركهم لمصيرهم فاندفع هو ليفدي الجميع ويحافظ على الرفقاء وينقذهم من محرقة محققة.

محاكمة القوميين في لبنان

لقد ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب أن خطة قتل سعاده تضمنت كيفية السيطرة على الحزب بعد القتل، وأن تفاصيل ومراحل خطة القتل تلك قد رسمت لكي تراعي وتوفر الوسائل لهذه السيطرة. لعل أول خطوة من خطوات الاستيعاب والسيطرة كانت في كيفية محاكمة القوميين «اللبنانيين» المعتقلين.

«جرت للقوميين المعتقلين محاكمات صورية (يقصد سريعة) وحكم على أكثرهم بأحكام تتراوح بين البراءة والسنتين مع وقف التنفيذ، فأفرج عن أكثرهم على دفعات متلاحقة» (الحصاد المر ص217)، فإبراهيم يمّوت مثلاً حكم عليه سجن سنة مع وقف التنفيذ وخرج بعد ثلاثة أشهر من بدء التوقيف. وفي مذكرات فريد الصباغ أن بعض القوميين حكم عليهم بين سنة وسنة ونصف سجن فعلي وأنهم لم يخرجوا إلا بعد عفو رئاسي من بشارة الخوري، حصل الخوري والصلح في مقابِلهِ على تعهد من القوميين المعفى عنهم بأنهم لا يتعرضون بالأذى لبشارة ورياض. أما يمّوت فيقول إن الأحكام هذه كانت بسبب سياسة الاسترضاء للقوميين قررت الحكومة انتهاجها بعد غياب سعاده لعلها بذلك تحد من النقمة عليها وتمهد لاستمالتهم أو تدجينهم والسيطرة على حزبهم، ويمّوت بذلك كان ينقل الأجواء التي سادت يومها في بيروت وهو البيروتي من عائلة بيروتية كبيرة وقديمة ولأهله وعائلته علاقات قريبة من رياض الصلح ومن سياسته، ويظهر أن سياسة التدجين قد فعلت فعلها مع يمّوت بالذات الذي اشترك مع وفد من عائلته، «بعد إلحاح العائلة» في زيارة رياض الصلح «لشكره»! ويبرر يمّوت قبوله بزيارة الشكر هذه قائلاً: «وبعد إلحاح وافقت على الزيارة على أن تترك لي حرية التصرف» (ص 218). ومن يقرأ عبارة «حرية التصرف» ليمّوت يظن أنه كان سيطلق الرصاص على الصلح ويقول له: خذها من يد سعاده أيها الخائن الحقير.

وإذا عرفنا أن إبراهيم يمّوت كان رئيس جهاز الاستخبارات الحزبية حين استشهاد سعاده، وأنه اعتقل بسهولة مع الدفعة الأولى من المعتقلين أمام بيت الزعيم ليل 9–10

حزيـران، أي إنه كان من «الأركان» والحلقة اللصيقـة بالزعيم، عرفنا كم كان الأركان المعاونون لسـعاده يعاونون سـعاده فعلاً! عرفنا كم كانوا على دراية بما يجري وبخطورة ما يجري وبالدور المفترض أن يؤدوه.

حتى لا نظلم إبراهيم يمّوت

ليس الهدف من هذا الاسـتعراض التشـهير بأحد أو التقليل من جهاده، إن الأسـماء التي نذكرها هنا ليست مقصودة بذاتها بل المقصود هو الإضاءة على الأسباب والعوامل الحزبية الداخلية لاستشـهاد سعاده، بغض النظر عن الأشخاص وأسمائهم. فلإبراهيم يمّوت جهاده الذي يوجب علينا احترامه وتقديره، وإذا كنا نذكره في مواقف ضعيفة فلا يقلل هذا من قيمة المواقف الأخرى القوية التي اتخذها في أماكن أخرى ومجالات أخرى في الحزب، فلكل فرد شـخصيته وإمكانيته ودوره. وها هو يمّوت نفسـه يوافقنا ويعبرّ أصـدق تعبـير عن حالة القصور لدى مسـؤولي الحزب وتخلفهم عـن مواكبة زعيمهم، ولا يسـتثني نفسه، فلنقرأه في الصفحات 230 و231 من كتابه الحصاد المر يقول: «.... كان سـعاده يحـارب على أكثـر من جبهة وكانـت اتكالية الكثيرين من مسـؤولي الحزب كبـيرة، فقد ظن هؤلاء أنهم يـؤدون نصيبهم من الجهاد إذا هم اسـتمعوا إلى شروحات سعاده وملاحظاته وتمتعوا برفاهية الفكر الواضح والمنطق الساحر ورددوا عباراته دون التعمـق بهـا. وفي الواقع اكتفـى أكثرهم بذلك تاركين لسـعاده اتخاذ القـرارات والقيام بالأعـمال الحزبية الصعبة والمرهقة. ولم يكن هدف سـعاده مـن وراء محاضراته التثقيفية أن يكثر عدد المسـتمعين المعجبين والمسحورين بشخصيته وشـمولية اطلاعه وإنما كان يهـدف بالدرجـة الأولى إلى حفز الهمم وتزويد النفوس بزاد المعرفة وعناصر الشـجاعة ليتحمل المسـؤولون والأعضاء معه المسؤوليات الفعلية لا الكلامية وليتهيؤوا ليكونوا نـواة دولة قومية وطيدة... كانت الاسـتجابة إلى مراميه ضئيلة ومتقطعة وغير كافية... لذلك ظهر أكثر هؤلاء المسؤولين على حقيقتهم العارية عند الصدمة الكبيرة عام 49... كان في إمـكان جهـود سـعاده أن تعطـي ثمارها لو طـال عليها الزمن، لكـن المتربصين بالحـزب في الخارج والداخل قطعوا عليه الطريق قبـل أن يكتمل بناؤه ويقوى... ومن أسـباب مأساة عام 1949 أن بعض المسـؤولين الذين نجوا من حركة التطهير العقائدية والمسـلكية التي أجراها سـعاده وأبقوا رؤوسـهم منخفضة، ريثما تمر العاصفة، ظلوا في

مركـز المسـؤولية، فلا هم تجرؤوا على نـشر انحرافاتهم ولا هم أرادوا الانسـحاب من العمـل الحزبي الذي يؤمـن لهم الوجاهة والظهـور، فكانوا يعطلـون العمل بوجودهم المترهـل، فضـلاً عن الـضرر المتعمد أو غـير المتعمد، لا فرق، الـذي كان يحدثه البعض بوشوشاتهم ومقاومتهم الخفية للزعيم.»

نعود إلى موضوع هذه الفقرة عن بدء مرحلة استيعاب الحزب والسيطرة عليه بعد الاستشـهاد، ونقول إن سياسة الاسـترضاء ومحاولة استيعاب الحزب والسيطرة عليه لم تقتصر على الجهات التي قتلت سعاده، بل تعدتها إلى جهات حاولت الحصول على حصة مـن الحزب وأعضائه واكتسـابهم كأنهم أيتام. فمثلاً كمال جنبـلاط حاول حثيثاً ومراراً وتكراراً اكتسـاب الأعضاء القوميين الدروز واكتساب سياسة الحزب كله ليستفيد منه كغنيمة سـهلة بعد غياب الزعيم، وعندما فشـل شـنّ حملة هجاء سـخيفة وحقودة على سعاده وعقيدته مليئة بالتفسيرات السطحية والشاذة مما لا يستحق الرد عليها.

رياض الصلح يطلب الصلح

مـن ضمـن خطة اسـتيعاب الحـزب، وحاجته «لمصالحـة» الحزب بعـد القضاء على الزعيم، قام رياض الصلح بمسـاع ومبادرات عديدة في هذا السبيل. ففي تقرير مرفوع لمدير الأمن العام فريد شهاب من أحد عملائه نقرأ ما يلي: «رياض بك الصلح وحبيب أبو شـهلا ذهبوا إلى شـتورة منذ بضعة أيام. وكان حبيب أبو شـهلا وعد رياض بك أنه سيزيل «سوء التفاهم» بين الحزب القومي السوري وبين رياض بك. وقد أرسل حبيب بطلب عصام المحايري إلى شتورة لكي يتناولوا معه الطعام. وحضر عصام وحينما وجد رياض بك الصلح مع حبيب أبي شـهلا، سـلم على حبيب وعلى رياض بك. ولما فاتحه حبيـب بخصوص الصلح بين رياض بك وبين الحزب أجاب عصام بأنه لا يتمكن من هذا العمل لأنه لا يأمر الحزب، وقفل عصام راجعاً إلى دمشـق ولم يجلس معهم سـوى بضـع دقائـق». هذا التقرير غـير مؤرخ لكن الأمـين أحمد أصفهاني يعتقـد أنه وضع في النصف الثاني من 1949 (أنطون سعاده والحزب في أوراق فريد شهاب صفحة 61).

هل قبل عبد المسـيح مالاً لعائلات الشـهداء من رياض الصلح؟

يـورد الأمين أحمـد أصفهاني في كتابـه تقريراً مرفوعاً لفريد شـهاب مـن أحد عملائه

يعتقد أنه وضع في شهر آب 51 حسب السياق الذي ورد فيه، وكان عبد المسيح قد صار رئيساً دستورياً للحزب، يقول: «عطفاً على تقرير سابق يتعلق بالأشخاص الذين كانوا يسافرون من بيروت من قبل المرحوم رياض الصلح للاتصال بالحزب القومي الاجتماعي لتبرير موقف رياض الصلح من قضية إعدام أنطون سعاده، فإن الشخص الذي عرض دفعات مالية على الحزب للعفو عن رياض الصلح هو الأستاذ يوسف عطية صحفي كان يعمل في جريدة الأستاذ نخلة (الشعب) وقد قبض بعض القوميين في لبنان عدة مبالغ من المال وقعوا إيصالاً بها استلمه السيد يوسف عطية، وكان الإيصال محرراً على الشكل التالي: «وصلني من مقام رئاسة الوزراء اللبنانية مبلغ (كذا) على سبيل المساعدة الأدبية». وعندما ذهب يوسف عطية إلى دمشق عارضاً هذه البضاعة اشترط الحزب القومي دفع 10 آلاف ليرة لبنانية لأهل كل قومي اجتماعي من القوميين الستة الذين أُعدموا في تموز 1949، كما اشترطوا إطلاق سراح جميع القوميين المسجونين وإعادة الرخصة إلى الحزب القومي في لبنان. ويوسف عطية كان يسكن بمحلة اليسوعية بالقرب من المدرسة. له زوجة تدعى إستر عطية وهي مولّدة قانونية».(ص 81).

واضح أن هذا التقرير كتب بعيد مقتل رياض الصلح، وأن رياضاً كان يسعى قبل مقتله ليعفو الحزب عنه لقاء مال يدفعه.

وواضح أيضاً أن بعض المال قد دُفع فعلاً، وأن قيادة الحزب في دمشق كانت تتفاوض مع رسول رياض الصلح وتضع شروطها، ومن هذه الشروط مقدار المبلغ والعفو عن المساجين الذين بقوا في السجن وإعادة الرخصة للعمل الحزبي في لبنان. وبدهي أن تكون هذه المفاوضات قد توقفت مع مقتل الصلح.

دور غسان تويني المشبوه

تعتقد الغالبية العظمى من القوميين الاجتماعيين أن غسان تويني سجن بسبب كتابته افتتاحية في جريدته النهار ظهرت صباح 9 تموز بعنوان «سعاده المجرم الشهيد»، وأنه على أثر ذلك عاد سورياً قومياً اجتماعياً بعدما كان مطروداً من الحزب، وأن الحزب رشحه للانتخابات النيابية سنة 1951 وأنجحه وثم مثل الحزب في «الجبهة الوطنية

الاشـتراكية» المعارضة التي أجبرت بشارة الخوري على الاستقالة من رئاسة الجمهورية وانتخاب كميل شمعون رئيساً.

لكـن الحقيقـة هي غير ذلك تمامـاً. الحقيقة هي أن هذه المسـألة هـي حلقة من خطة السـيطرة على الحزب واسـتيعابه والاسـتفادة منه، وهي جزء من خطة قتل سعاده التي وضعتهـا المخابرات الغربيـة الصهيونية ونفذتها بإشراف الميجر ميد الملحق العسـكري الأميركي في السفارة الأميركية في دمشق، كما مر معنا، وهذه مطالعتنا كما يلي:

على جاري خطتنا التي اتبعناها في هذا البحث، سـوف نسـتند فيما نورده من معلومات ونثبته من حقائق ووقائع، على شواهد وأقوال واعترافات من المعنيين أنفسهم، قبل غيرهم. تعالوا نسـمع ما يقوله غسـان تويني نفسه في محاضرته تاريخ 20 أيار سنة 2004 التي ألقاها في قاعة عصام فارس في الجامعة الأميركية في بيروت بدعوة من مؤسسة سعاده الثقافية.

أولاً: إن الافتتاحية التي سـجن بذريعتها لم تكن من الناحية القانونية تشـكل سـبباً للسـجن ولم يكن فيها ما يحرج الحكومة أو يسـبب لها إزعاجاً. أقصى مافيها كان عبارة: «النـاس لا يعرفـون مـا إذا كان أنطون سـعاده قد أعـدم أم قتـل، وإذا كان الذي جرى محاكمـة أم مؤامـرة». وقد قال وكتب لاحقاً أكثر من صحافي واحد غير تويني ما يشـبه ذلـك، ولكـن لم يسـجن أحد غيره. يقـول غسـان في محاضرته: «ولما كنـت قد وصفت المحاكمة بالمؤامرة فقد أصدر القضاء العسـكري مذكرة بتوقيفي وسـوقي إلى المحكمة الفورية موقوفاً. وهكذا كان ووجدت نفسي بعد أربع وعشرين ساعة من محاكمة سعاده في القفص إياه أمام المحكمة إياها... ووجدت نفسي مساءً في القاووش نفسه الذي كان يستضيف بعض المسؤولين الحزبيين».

نحن نعتقد أن وضع غسـان في نفس القاووش مع أركان الحزب المسـجونين لم يكن صدفـة أبداً، بـل كان مقصـوداً ومخططاً بعناية. لقـد بقي معهم شـهرين وعشرين يوماً كانت كافية للاتفاق على سلسـلة تدابير سياسية ومهمات سيتولاها غسان بعد خروجه من السجن «رفيقاً سرياً».

ثانيـاً: تويني عاد إلى الحزب حاملاً معه كل تحفظاته الفكرية والأسـباب التي حدت بسعاده لطرده من الحزب، وحاملاً معه أيضاً وجهة النظر الحكومية بأن الحزب كان يعد

لانقلاب عليها فسبقته وأحبطت محاولته. يقول مثلاً عن خلاصة الحوارات والتفاهمات التي دارت بينه وبين القياديين الحزبيين الذين حل بينهم في السجن ما يلي:

*- «الحزب بعد الزعيم، وبعد الاختبار الانقلابي الذي فشل سيكون غيره بوجوده».

*- «...الانطلاقة لا يمكن أن تكون استمراراً لمحاولة الانقلاب بل على القيادة الجديدة العتيدة من داخل السجن وخارجه أن ترسم خططاً جديدة... يفترض التحرر من عقدة تهديد استقلالية لبنان التي ارتسمت حولها علامات استفهام كبيرة نتيجة اتصال الانقلاب القومي بالانقلابات السورية التي خان أبطالها سعاده فسلموه إلى الإعدام».

*- «بالنسبة إلى وضعي الشخصي بل قضيتي الثقافية مع الزعيم، سقطت كل التحفظات التي أدت إلى انسحابي فطردي، لجهة التخوف من الجنوح إلى التوتاليتارية التي كانت ستقيد الأعضاء بالنظرة السعادية الشاملة إلى الحياة والكون». من الواضح هنا أن تحفظات غسان قد سقطت بفعل غياب سعاده بالاستشهاد وليس بفعل سقوطها من ذهن غسان. غسان لا يزال على تحفظاته لكن سعاده قد غاب ولم يعد يستطيع «تقييد الأعضاء بالنظرة السعادية الشاملة إلى الحياة والكون».

إن غسان تويني قد أعادوه إلى الحزب كما هو، أي كما كان عندما طرده سعاده، وإن هذه الإعادة تقررت خارج الحوارات والنقاشات مع المسؤولين المسجونين، وقبلها. ومن قررها هو الذي أرسل تويني إلى السجن وبالضبط إلى القاووش نفسه مع المسؤولين الحزبيين.

ثالثاً: يقول غسان إنه بعد جلسة القسَم في السجن، التي أعادته رفيقاً إلى الحزب، «سرعان ما أدركت أنه حصيلة مشاورة سرية ما، قد جرت مع من كان من القياديين خارج السجن، يقضي بتكليفي شفهياً، إنما رسمياً، بالقيام فور خروجي بمشاورات مكثفة مع المسؤولين الطليقين حول السياسة التي ينبغي علينا اتباعها في لبنان، على أن أصبح المفوض المكلف بتنفيذ هذه السياسة بالتنسيق مع المسؤول الإداري الأمين حسن الطويل حمادة ومع جورج عبد المسيح المتولي رئاسة الحزب في دمشق».

هكـذا إذاً، انتهـت الجلسـة بقـرار كان حصيلة مشـاورات سرية مـع قياديين خارج السـجن «يقضي بتكليفي...»، وكأن الذين كانوا خارج السـجن قد رتبوا سـلفاً مسألة سجنه ووضعه في قاووش من سيعيده إلى الحزب، وقد رسموا السياسة التي سيعهدون بها إليـه بعـد خروجه مـن السـجن. فسـجنه إذاً كان جزءاً مـن الصفقة وليس بسـبب الافتتاحيـة- الذريعـة. إننا نجزم أن قرار إعادة غسـان تويـني إلى الحزب كان جزءاً من خطـة السـيطرة على الحزب بعـد قتل الزعيم، وهـذا الجزء كان متفاهماً عليه مسـبقاً مع القياديين داخل وخارج السـجن. ويجب ألا نسـتبعد أبداً أن يكون تنصيب جورج عبد المسيح على رأس الحزب في دمشق هو أيضاً جزءاً من هذه الصفقة.

أريـد أن أسـتدرك هنـا وأقـول إنه ليس مـن الـضروري أن يكون مسـؤولو الحزب متآمريـن ومتورطين بصفقات، بل يكفي أن يكونوا ضعفاء سـهلي الانقياد مغفلين يتم التلاعب بهم تحت سـتار أن مكاسب سياسية سـيجنيها الحزب من وراء هذا التدبير أو ذاك. فإبراهيـم يمّوت مثلاً يعتـبر مقال تويني صدر «عن روح عفوية طيبة»، ولا غرابة في هذا الاعتبار فيمّوت، رئيس جهاز الاسـتخبارات، روحه هو أيضاً عفوية وطيبة ولم يكـن يدري ما يـدور حوله ولم يكن يتمتـع بحس أمني أو رؤية تمكنـه من إدراك وفهم الأحداث واتجاهها.

هذه هي السياسة الحزبية التي ينبغي علينا اتباعها

يقـول تويني في محاضرته: «تلقفتني المعارضة اللبنانية فور خروجي من السـجن... فقـررت، بعد اتصالات حزبية مكثفة بعيدة عن الأضواء، أن ألتصق بالحليف الطبيعي لنا وهو كمال جنبلاط، على صعوبة مخالفته،...».

قـررتُ أم قـرروا؟ مـن قرر؟ طبعاً ليـس تويني هو الذي قـرر، ولا قيادة الحزب الواقعية في الشـام هي من قرر، فعبد المسـيح لم يذكر شيئاً إطلاقاً في مذكراته وفي كل ما كتبه في مرحلة ما بعد 8 تموز، أي شيء عن سياسـة الحزب في لبنان أوعن غسـان تويني ودوره وما زعم أنه كُلف به من قيادة الحزب. وإن عبد المسـيح لا يذكر كمال جنبلاط إلا في مسألة «إقناعه» بصحة العقيدة والمواعيد والجلسات الحوارية الطويلة في العقيدة التي عقدها معه في دمشق، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها جنبلاط وتويني

معاً هي عندما قال له غسان ألا يجادل جنبلاط في العقيدة ويجب حصر النقاش معه في السياسة فقط.

إن الذي قرر سياسة الحزب بالالتصاق بكمال جنبلاط، عندما كان جنبلاط وشمعون حلفاء معارضين لبشارة الخوري، هو نفسه من قرر سياسة الحزب بترك جنبلاط والالتصاق بكميل شمعون عندما صار شمعون رئيساً للجمهورية. وهو نفسه الذي قرر الالتصاق بأديب الشيشكلي في الشام. إنه نفسه الذي لا زال يقرر سياسة الحزب منذ استشهاد سعاده، وهو حتماً ليس قيادة الحزب.

ليس فقط سياسة الحزب، بل تركيب قيادة الحزب كلها كانت بيد من نفذوا خطة قتل الزعيم والسيطرة على حزبه من بعده. ها هو تويني يقول لنا إنه أعيد إلى الحزب «في صفوف المسؤولية» حصيلة ونتيجة «مشاورات سرية ما... مع المسؤولين الطليقين... ومع جورج عبد المسيح المتولي رئاسة الحزب في دمشق». وإذا انتبهنا أن تويني أجرى حواراته في القاووش مع المسؤولين المسجونين ما بين 9 تموز و30 أيلول (شهران وعشرون يوماً هي مدة سجنه)، وأن عبد المسيح انتقل إلى دمشق في 13 أيلول، نستطيع بكل سهولة أن نعرف بأن «التنسيق مع عبد المسيح» وكل هذه الحوارات والمشاورات السرية التي تأخذ وقتاً أكثر بكثير من الفترة بين 13 أيلول وآخر أيلول، أي فترة «تولي عبد المسيح رئاسة الحزب في دمشق، قد تمت قبل انتقال عبد المسيح إلى دمشق. بل إن انتقال عبد المسيح إلى دمشق كان هو نفسه أيضاً جزءاً من هذه الخطة، وأن واضعي هذا البرنامج كله كانوا عارفين بانتقال عبد المسيح إلى دمشق وأنه سيصبح رئيساً للحزب، تماماً كما كانوا عارفين أن غسان تويني سيعود إلى الحزب وسيصبح مكلفاً بسياسته في لبنان.

إن الحزب خلال تموز وآب وأيلول لم يكن في وضع وظرف يمكنه معه من تقرير شيء من هذا القبيل. إن من قرر هي الجهة التي وضعت خطة قتل سعاده، وفي جزء منها كيفية تركيب قيادة الحزب من بعده، لاستيعابه والسيطرة عليه والاستفادة منه.

تحصين العملاء

ويحرص تويني في محاضرته على إخبارنا أنه لوحق واضطهد أكثر من مرة وسيق إلى القضاء، مرة لأنه نشر تصريحاً في جريدته لعصام المحايري من دمشق، ومرة ثانية

نسي أن يخبرنا السبب الذي من أجله أقامت الحكومة دعوى جديدة ضده وأصدرت مذكرة إحضار بحقه عشية إعلان نتائج الانتخابات التي فاز فيها، ويقول إن خطة الحكومة كانت أن يجري توقيفه قبل تمتعه بالحصانة النيابية فتسقط هكذا نيابته...الخ. يذكر ذلك غسان تويني كمن يقول لنا: أرأيتم أنني كنت مناضلاً معرضاً للملاحقة! لكن الناس العاديين اليوم أصبحوا يعرفون أنه لا يخلو الأمر أحياناً من إنشاء قضايا أشبه بمرسحيات لتحصين العملاء من تهم العمالة وإبعاد الشبهة عنهم، أو حتى من شد أذنيهم لتنبيههم من أخطاء تكتيكية يمكن أن يكونوا ارتكبوها. والناس أصبحت من الخبرة أنها تعرف بأساليب القوى الأجنبية التي تتحكم في مجرى الأمور السياسية في لبنان، وهي قوى أميركية صهيونية، وإن هذه القوى المتحكمة لا تعتبر الحكومات التابعة لها شريكاً كاملاً في هذا التحكم، وتترك لهذه الحكومات هامشاً من قرارات وتدابير قد تصيب شظاياها بعض أدوات السياسة الأميركية الصهيونية نفسها في البلاد.

خذوا هذه الحادثة الطريفة يرويها النائب غسان تويني، يقول: «أمضيت السهرة في مكتبي في «النهار» والمدينة كانت مضربة تجاوباً مع بيان المعارضة الذي لم يخرج عنه إلا حزب الكتائب. سمعت سيارة مسرعة في الشارع تتوقف بضجيج لا يخفى أنه عسكري، فقلت لنفسي: ها هي شرطة الجيش، وقد صرت معتاداً عليها. وإذ بباب مكتبي ينفتح فجأة ويدخل... الضابط ذاته الذي جاء، فجر 8 تموز، يصف لي إعدام الزعيم (يقصد شوقي خيرالله). لا تحية ولا من يسألون (يقصد ولا من يحيون). خوذته على رأسه وسلاحه الفردي على جانبه: بتأمر تقوم تفلّ، جايي الأوامر باعتقالك. جواب ساخر: وحضرتك جايي تنفذ؟ جواب: يللا عجل روح خبر شركاءك واطلعوا شي مطرح على الجبل. وانصرف. توجهت إلى بيت كميل شمعون الذي كان نائماً. أيقظته. أجاب: يا ليت بيوقفونا، بتخلص الحكاية أسرع. وعاد إلى فراشه. وعدت إلى مكتبي أنتظر مطمئناً إلى حدسه، الرئيس لن يأمر باعتقالنا والجيش لن يأتمر. وبالفعل ما هي إلا ساعة حتى حضر مدير الشركة فابتسم وقال: ما عندك راديو؟ فتاح الأخبار. وكانت النشرة تذيع نبأ استقالة الرئيس وتعيين حكومة انتقالية برئاسة العماد الأمير فؤاد شهاب...

هكذا اتخذت غرفة التحكم الأجنبية قرارها، وهكذا نفذه المعنيون بحذافيره بكل طاعة وانضباط: هذا يذهب وهذا يأتي، فذهب هذا وأتى ذاك.

ملاحظة: كيف عرف شوقي بأوامر اعتقال غسان، وشوقي هو ضابط في الجيش وليس في الأمن الداخلي أو الأمن العام المفترض أن يكون مولجاً بهكذا اعتقالات، ومن أرسل شوقي خيرالله ليقول لغسان «جايي الأوامر باعتقالك»؟ ولماذا شوقي؟

العم يطرد اثنين

لقد ذكرنا شيئاً عن العلاقة السلبية بين عبد المسيح والأمين فريد الصباغ وكيف كان كل منهما ينتقد الآخر. وعندما صار عبد المسيح رئيساً عَمَد إلى طرد فريد من الحزب بتهريبة غريبة عجيبة أين منها تهريبة طرد عبد المسيح نفسه سنة 57. صحيح أن الطرد هو من صلاحية المجلس الأعلى وليس رئيس الحزب ولكن للرئيس الدور الأول في ذلك. لم نكن لنقف عند طرد فريد لو لم يكن لهذا الطرد علاقة بموضوع هذا الكتاب وبإلقاء الضوء على المستوى المتدني من تعاطي من يفترض فيهم أن يكونوا رجال دولة في قضايا العدل والقانون والحقوق الشخصية والعامة. بين أيدينا عدة وثائق تتعلق بطرد فريد الصباغ أهمها مرافعته، إذا جاز التعبير، ودفاعه عن نفسه في تقرير كبير من عشرين صفحة رفعه إلى المجلس الأعلى سنة 1953، (سنورده كله في نهاية الكتاب في باب الملاحق) هذا الدفاع الذي حرم منه ومن حقه فيه وحقه في محاكمة علنية قبل أن يطرد. إن قرار طرد فريد كان «لخيانته سعاده» و«تسليم سعاده»، هكذا فقط دون ذكر الدليل والحيثيات، ودون محاكمة بالمرة في تنكر فاضح وتجاوز صريح لنظام الحزب ولتراث سعاده وتجاربه وقدوته في هذه الأمور. سعاده كان يبذل جهداً كبيراً ووقتاً ثميناً في محاولة إصلاح ومعالجة الذين طردهم وكان يعطيهم أكثر من فرصة للإدلاء بما عندهم ولم يكن يلجأ إلى طردهم قبل الوصول معهم لطريق مسدود وقبل اعترافهم بارتكاباتهم والإصرار عليها. وقبل استشهاده كان سعاده قد ترك مرسوماً بإنشاء «المحكمة المركزية للحزب السوري القومي الاجتماعي»، وكان منذ 1-4-1943 في مقالته «اليمين» قد أوصى وقال: «في الحزب شرع يضمن لكل فرد حقه في النظام والعمل والرأي، ولكل فرد يحسب نفسه مظلوماً في أمر أن يطلب المحاكمة العلنية لأغلاطه فيكون أميناً على أن قضيته لا يبت فيها بالخفاء وبطرق لا يقرها المجموع».

حتى إن لسعاده توجيهات خطية صريحة بتحييد من له علاقة بشكوى معينة، حتى ولو كان مسؤولاً حزبياً، عن التدخل في التحقيق بهذه الشكوى. وذلك حدث مع منفذ

عام المكسيك الأمين عساف أبو مراد وشكواه من عضو منفذيته الرفيق رفول العجي. يقول الزعيم: «**وبما أن المنفذ العام له دخل في المسألة، فإني أقرر تأليف لجنة تحقيق من ناموس المنفذية وناظر الإذاعة وأحد الأعضاء ينتخبه اجتماع عام لمديرية أو مديريات المدينة، فتستنطق السيد رفول وتأخذ إفادات الرفقاء الذين سمعوه وإفادة كل عضو عنده ما يدلي به في المسألة، وتضع ضبطاً بذلك وترفعه إليّ بدون اطلاع المنفذ العام...**» (رسالة إلى منفذ المكسيك في 4-8-41).

إن موضوع طرد فريد الصباغ قد أثار مواضيع خطيرة تتعلق بعبد المسيح وطريقته في التعامل مع معارضيه في الحزب. لسنا هنا بصدد الدفاع عن فريد أو عن الذين طردوه بل إن دورنا هو إلقاء الضوء على مسالة تدني الاهلية الأخلاقية والأدارية والنظامية التي كان عليها أركان الحزب كلهم يوم استشهد سعاده، لعل ذلك يساعدنا في التعرّف على جزء من العوامل والأسباب الحزبية الداخلية لهذا الاستشهاد. إن قضية مثل قضية «خيانة سعاده أو تسليم سعاده» التي اتهم بها فريد الصباغ كان يجب أن يتم البت فيها في «المحكمة المركزية للحزب السوري القومي الاجتماعي» التي أنشأها الزعيم، وكان يجب ألّا يتدخل في تحقيقاتها عبد المسيح كونه على علاقة خصومة مع فريد، ولنا من قضية رفول العجي خير مثل. لكن الذي حصل هو أن فريد ليس فقط كان ضحية وقوع ملف قضيته بيد خصمه عبد المسيح، بل وأكثر من ذلك، لقد تم طرده دون محاكمة بالمرة ودون إعطائه فرصة للإدلاء بأقواله.

بين أوراق فريد شهاب التي نشرها الأمين أحمد أصفهاني (ص 130) قرار للمجلس الأعلى في جلسة انعقدت على مدى ثلاثة أيام، من 7 إلى 9 كانون الثاني سنة 1955، وهذا القرار عممته رئاسة الحزب في 15 كانون الثاني. القرار هو **تعميم قرار طرد سابق** للأمين فريد الصباغ كان قد اتخذ سنة 1950 في أول جلسة للمجلس الأعلى الذي تشكل بعد استشهاد الزعيم، أي منذ خمس سنوات، وبُلّغ في حينه للمطرود ولم يعمم على القوميين لأسباب تتعلق «بسلامة الحزب»! وكان المجلس الأعلى في فترة من الفترات سمح لرئاسة الحزب بتبليغ الطرد للرفقاء الذين تقدّر الرئاسة أنهم كانوا على اتصال بالمطرود، ثم سمحت الرئاسة لنفسها بتعميم الطرد على أعضاء منفذية المتن الشمالي فقط دون غيرها من المنفذيات الأخرى.

نلاحـظ هنا أنه للمرة الأولى في تاريخ الحـزب يقرر المجلس الأعلى طرد عضو أمين ويقرر عدم تعميم القرار ويكتمه مدة خمس سـنوات، لأسـباب تتعلق بسـلامة الحركة. لكن سـمح المجلس لرئيس الحزب تبليغ رفقاء يقدّر أنهم كانوا على اتصال بالمطرود أو كان المطرود على اتصال بهم. ثم إن الرئيس نفسه، وخلافاً لقرار المجلس، سمح لنفسه بتعميم الطرد على رفقاء منفذية المتن الشـمالي دون غيرها. إنه لمن البدهي أن الطرد كان قـد عـمّ وانتشر منذ اليوم الأول لاتخـاذه، وفي ظل قرار المجلس الأعـلى بعدم التعميم، ذلـك لأن الرفقـاء المحددين الذيـن تبلغـوا وحدهم قرار الطـرد لا يمكـن أن يكتموا ويخفـوا ويسـتروا قراراً من هذا النـوع، وإذا كتموا فإن المطرود نفسـه لا أحد يكفل أنه سـيكتم الأمـر. كما أنه لا أحد يكفل أن رفقاء المتـن أو بعضهم أو أحدهم لن يفشي أمر الطرد لباقي الرفقاء في باقي المنفذيات.

كل ذلـك يعني بـما لا يدع مجالاً للشـك أن طرد فريد الصبـاغ كان فضيحة من أوله لآخره وكان تخبيصاً في النظام والإدارة وحقوق الأعضاء، وكان يشـكل قضية إشكالية وخلافيـة وملتبسـة مـا بـين الرئيـس والمجلس الأعـلى. ذلك حـدث في حـزب النظام والمؤسسـات والعدالة والحقوق الفردية والعامة، «لأسـباب تتعلق بسـلامة الحركة»!، وأي سـلامة للحركـة بخـرق النظام وإلغـاء حقوق الأعضـاء بمحاكمة علنيـة عادلة، وإلغاء حقهم المقدس بالدفاع عن أنفسهم؟

أما كيف أقدم فريد الصباغ على خيانة سـعاده وما هي الدلائل والإثباتات والوقائع فلا ذكر لها أبداً في قرار الطرد، وفريد كما قلنا قدم دفاعه في تقرير طويل رفعه للمجلس الأعلى سنة 1953، أي بعد طرده بثلاث سنوات، ويمكن الاطلاع عليه في باب الملاحق في نهاية هذا الكتاب.

سابقة إدارية غير منطقية

الطرد الثاني طال الرفيق عادل حسـن: لقد قـرر المجلس الأعلى في 9 كانون الثاني 55 طرد عادل حسـن منفذ عام الشوف المقال، ثم خفض العقوبة إلى الفصل سنتين، في سـابقة فريـدة وغير منطقية حدثت مـرة واحدة في تاريخ الحـزب، إذ عندما يطرد

شخص لا يعقل أن تخفض العقوبة لأن الطرد هو العقوبة القصوى للمخالفة القصوى، وإذا كان ثمة أسباب تخفيفية فيعني أن المخالفة ليست قصوى وبالتالي لا يجوز الطرد. حدث ذلك لأن عبد المسيح أراد الطرد والمجلس الأعلى لم يجد أسباباً كافية للطرد، وحيث إن عقوبة الطرد هي من صلاحية المجلس الأعلى وليست من صلاحية الرئيس فقد لجأ المجلس لمراعاة العم وعدم مواجهته ومعارضته فأقر الطرد مع تخفيض العقوبة للفصل سنتين. هذه القضية لم تكتسب الأهمية الكافية لإثارتها في هذا الكتاب لولا أنها تدل على صراع صلاحيات وإرادات بين الرئيس والمجلس الأعلى. وإن الرئيس لم يكتف بتعميم قرار المجلس الأعلى بطرد عادل حسن وثم تخفيض عقوبته في نفس القرار، بل عمد الرئيس إلى إخبار القوميين أنه هو كان يريد الطرد، ولا ندري ما الحكمة أو الضرورة لجعل القوميين يطّلعون على هذا الاختلاف في الرأي بين الرئيس والمجلس.

والقصة كانت دعوتين، واحدة من عادل ضد حسن الطويل والثانية من حسن الطويل ضد عادل. في الأولى عين عبدالله قبرصي محققاً وقدّم قراره الظني، وفي الثانية عيّن كامل أبو كامل محققاً ورفع قراره الظني (الحصاد المر ص545). المخرَج كان تسوية على حساب العدالة ونظام الحزب ودستور سعاده القاضي بتسليم هذا النوع من القضايا إلى محكمة حزبية مستقلة أنشأها بمرسوم هي «المحكمة المركزية للحزب السوري القومي الاجتماعي»، فلا عبد المسيح ولا المجلس الأعلى احتكم إلى سعاده وتشريعه بل عمد كلاهما إلى الشد كل واحد في اتجاه، والأخطر من ذلك أنهم كانوا يحتمون بالقوميين الاجتماعيين ويضعونهم في أجواء صراعاتهم الفئوية.

والأنكى من ذلك أن لا أحد يتعلم ويكتسب لتحسين الأداء والممارسة، لأنه لا أحد يدرس تاريخ الحزب ليستفيد منه ومن أحداثه ووقائعه وتجاربه، وأن النهج الفردي والكيدي المناقض لمعنى المؤسسات والغرض من نشوئها هو نهج استمر في جميع مراحل تاريخ الحزب بعد استشهاد الزعيم، وهو مستمر اليوم وهو ظاهر للعيان، أي لكل من له عيون تقشع وآذان تسمع، كما يقول المثل.

إن استمرار الحزب شيء واستمرار قضيته شيء آخر. إن استمرار وجود أعضاء مؤمنين وأبطال مستعدين لبذل الروح والدم في هذا الحزب هو بعامل صحة ومصداقية

القضية الأساس التي نشأ وقام عليها، وبفضل قدوة سعاده، وليس بفضل أي شيء آخر. إن قضية الحزب هي بالضبط ما يستمر في وجدان القوميين الاجتماعيين وهي ما يحركهم ويبقيهم حاضرين فاعلين، وليس الحزب الحالي ولا نظامه الحالي ولا نهجه الحالي ولا اجهزته الحالية هي ما يحفزهم للبقاء والحضور والفعل. ذلك معناه أن استمرار دخول رفقاء جدد إلى هذا الحزب اليوم هو بفضل وهج قدوة سعاده وقوة وصحة عقيدته وليس بفضل «إنجازات» وأعمال وسياسات القيادات الحالية. إنه بالرغم منها وليس بفضلها.

نشوء الأزمات والتسويات

لقد اتخذ الصراع على السلطة بداية لها طابع الاصطدام بين نهجين وعقليتين، بين عبد المسيح ومن والاه من جهة وبين القياديين الآخرين المعارضين له ولنهجه من جهة أخرى. هذا الاصطدام اتخذ أشكالاً مختلفة منذ اللحظة الأولى لتولي عبد المسيح للسلطة عملياً، وقبل صيرورته رئيساً دستورياً للحزب سنة 1951. عبد المسيح ومن والاه يعتبرون أن له الفضل في مسك الحزب وإبقائه واقفاً على رجليه بعد استشهاد سعاده بينما الآخرون هربوا وضعفوا واستكانوا ولم يعودوا للعمل إلا بعد أن رأوا الحزب بقيادة العم يعود إلى قوته ونفوذه فاستقووا وعادوا. والآخرون لا يرون أن العم وحده هو الذي أمسك بناصية الحزب وأطلقه بعد استشهاد سعاده، بل إن للجميع دوراً في ذلك، وإن انقلاب سامي الحناوي على حسني الزعيم وقيام فضل الله أبو منصور بإعدام الخائنين حسني ومحسن كان له الفضل الأول في تشجيع العم على المجيء إلى دمشق بعد أن كان مختبئاً في «الغار المعلق» في بيت مري، وإن تعاطف أهل الشام مع الحزب واستنكارهم لخيانة حسني هو الذي مهّد لنهوض الحزب من فاجعته، وإن جميع الرفقاء العاديين والقياديين معاً قد أيدوا عبد المسيح وشجعوه للقدوم إلى دمشق وقبلوا بتسلمه قيادة الحزب عملياً بعد الذي سمعوه عن بلائه البطولي في معركة سرحمول، قبل أن يتبين لهم أن سرحمول كانت مجرد روايات مبالغ فيها كثيراً وقبل أن تبين لهم أن قيادة عبد المسيح للحزب كانت ضيقة الأفق متسلطة متصلبة أبعدت عنه غالبية الذين أيدوه وتعاونوا معه في البداية.

نحن لنا «رأي» في هذا الموضوع، مجرد رأي لم نكن نريد تسجيله هنا الآن لعدم استكمال البحث عما يسنده، وهو أن خطة السيطرة على الحزب بعد قتل الزعيم قد

لحظت ضرورة انتقال المركز إلى دمشق. وأن عبد المسيح نفسه قد «أُوحيَ له»، بواسطة أديب الشيشكلي وغيره، أن المجال صار متاحاً للانتقال إلى دمشق. وتقول الأمينة الأولى في مذكراتها إن الشيشكلي كان «يرحب ويسهل لجوء القوميين من لبنان إلى الشام بعد استشهاد سعاده» (ص 179).، وتقول أيضاً إن العم أرسل ابنة أخته إلى دمشق ورأت استمرار الحركة القومية الاجتماعية ونقلت إليه أن أديب مستعد لتسهيل لجوء القوميين إلى الشام (ص 183). على كل حال نفضل الآن أن نترك هذا الموضوع إلى بحث آخر ووقت آخر.

قالوا في عبد المسيح

لن نخوض كثيراً في تفاصيل السجالات المتبادلة بين عبد المسيح وخصومه داخل الحزب كي لا نطيل فيما هو ليس جوهرياً وضرورياً لهذا البحث، مع أنه لا شك عندنا بأن في الجانبين، مثل كل السجالات والمجادلات، مقداراً معيناً من الصحة والصواب. سنكتفي بشواهد من تأييد لعبد المسيح من قبل قياديين عملوا معه وأصبحوا من أشد خصومه فيما بعد، لنبرهن أن الجميع تقريباً، ما عدا معروف صعب، كان مؤيداً لتسلم عبد المسيح زمام القيادة من دمشق. فها هو إنعام رعد، كمثل واحد، يقول عنه ما يلي: «... من الإنصاف القول إن عبد المسيح كان يتمتع بهالة بطولية وتاريخية لاسيما وأنه كان آتياً من صميم المعارك وساحات النضال، ولئن أوّل البعض فراره وتخليه عن الرفقاء، فإن في مثل هذه التأويلات الكثير من التجني. فقد استطاع جورج عبد المسيح، وهو الأمين الوحيد الذي شارك في الثورة القومية الاجتماعية الأولى وقاتل ببندقيته، أن يشكل بعد وصوله إلى دمشق رافعة مركزية لاستعادة القيادة، لاسيما أن تاريخه النضالي الطويل وأحكام الإعدام العديدة التي أنزلت به، وتمكنه من تجنبها، سواء خلال الحرب العالمية الثانية أم في الثورة القومية الاجتماعية، حيث حكم بالإعدام غيابياً، هذه الحالة كوّنت حوله هالة استطاع أن يوظفها لمصلحة القيادة. أعاد عبد المسيح تنظيم الحزب وأعاد إلى حد كبير الثقة بالقوميين الاجتماعيين بعد استشهاد الزعيم. والحقيقة أن الحزب في الشام كان بحاجة إلى مثل هذا الدرس وهذه التجربة» (الكلمات الأخيرة، 2002، ص 65). ونجد مثل ذلك على لسان هشام شرابي ومصطفى عبد الساتر وعبدالله قبرصي وغيرهم.

كيف صار عبد المسيح رئيساً بعد أن زعم أنه كان مسؤولاً أولاً مرتين؟

نعـود قليلاً إلى فترة الغياب القسري للزعيم وانـدلاع الحرب العالمية الثانية، قلنا إنه عقـب انـدلاع الحرب مباشرة أقدمت سـلطة الانتـداب في لبنان على اعتقـال القيادات الحزبية وزجّهم جميعاً في السـجن، وعبد المسـيح معهم، لأنها كانت تتوقع أن يسـتغلوا انشـغالها بالحـرب فيثـوروا عليها. ورأينا كيف ولمـاذا تم الإفراج عنهـم من قبل قوات فيشي الموالية للألمان قبيل استسلام هذه القوات وحلول القوات الديغولية والإنكليزية مكانهـا في بـيروت، وإعادة اعتقال وسـجن القياديـين القوميين مرة ثانيـة. في هذه المرة الثانية أفلت عبد المسـيح من الاعتقال وقال لنا إنه أصبح «المسـؤول الأول» في الحزب، ولم يقـل لنـا كيـف صار مسـؤولاً أولاً، بقـرار دسـتوري خطي من المجلـس الأعلى أم بتكليـف شـفهي من الرئيس السـجين نعمة ثابـت أم غير ذلك. ونحـن لم نعثر على أي شـاهد آخر أو أي مرجع موثق يؤيد رواية صيرورة العم مسـؤولاً أولاً، أو لا يؤيدها. كما أن عبد المسـيح لم يقل لنا كيف عاد وسـلّم المسـؤولية الأولى لنعمة ثابت بعد خروج هذا الأخير من السجن، هل كانت المسؤولية الأولى وديعة عند عبد المسيح لحين خروج نعمة من السـجن أم أنهـا كانت قراراً تطلب قراراً آخر عند خـروج نعمة؟ وكيف اتخذ هـذا القرار الآخـر ومن هي السـلطة التي اتخذته؟ إننـا نرجح ترجيحاً أن عبد المسـيح صـار مسـؤولاً أولاً عملياً وواقعياً بمبادرة منه دون قرار رسـمي، وهـذا شيء ممتاز أن يقول المرء: الأمر لي، عندما يحصل فراغ في السـلطة. لكن سـعاده كان قد توقع حصول هذا الفراغ نتيجة تعرض الحزب للملاحقة وخطر الاعتقال وأصدر مرسـوم الطوارئ الذي يحدد كيفية انبثاق السـلطة في هكذا حالات. فلماذا لم يتم تنفيذ هذا المرسـوم؟ إن عبد المسيح لم يقل لنا لماذا لم ينفذ مرسوم الطوارئ ذاك ولم يذكر الموانع التي حالت دون ذلك، وكان أفضل لنا بكثير، نحن الذين لم نكن قد ولدنا بعد في تلك الفترة، أن نسمع من عبد المسيح تفاصيل أكثر عن تلك المرحلة من تاريخ الحزب.

أما في المرة الثانية وبعد استشـهاد الزعيم فعبد المسيح يشرح لنا بنفسه ويزعم أنه صار المسـؤول الأول. يقـول: «..بـدأت بالتمـرس بالصلاحيـات الدسـتورية كرئيس إداري لأنني كنت معيناً رئيسـاً لمجلس وكلاء العمد وعين الزعيم لمعاونتـي وكلاء عمد لتبقى صلاحيـات العمدات مجتمعة في رئاسـة المجلس وكان من الـوكلاء الرفيق المرحوم فؤاد

سليم النجار ولبيب زويا يمق وهشام شرابي والياس جرجي، وجميعهم يصعب الاتصال بهم. بقيت بضعة أسابيع في الغار المعلق أقوم بالتوجيه الإداري والإذاعي والسياسي...»، وهذه الجملة جاءت في السياق التالي: «...يوم استشهاد المعلم ليل السابع- الثامن من تموز كان ثاني يوم معركة سرحمول وكنت أعد العدة في العبادية لجمع ما تيسر من سلاح ورفقاء لمتابعة العمل المسلح. جاء الرسول الذي بعثت به إلى بيروت بجريدة «الحياة» البيروتية وفيها صور الزعيم في قفص الاتهام محاطاً بشلة من الجنود، الرفيق شكيب النجار حامل الجريدة يسأل: هل سبق لك أن رأيت هذه الصورة المنشورة هنا؟ وحالما وقع نظري على الصور أيقنت أن الزعيم قد وقانا بجسده وأتم رسالته بدمه. وتصورت وقع النبأ على الرفقاء وهم في حالة حرب مصيرية وقد سقط قائدهم جسداً. فكتبت البيان الأول فوراً: لقد أتممت لكم رسالتي وختمتها بدمي. وثاني بيان: أنا أموت أما حزبي فباق. وتتالت الرسالات للرفقاء توزع في طول البلاد وعرضها. بدأت بالتمرس بالصلاحيات الدستورية كرئيس إداري لأنني كنت معيناً رئيساً لمجلس وكلاء العمد وعين الزعيم لمعاونتي...الخ» (رسالة إلى منير حيدر ص92 وأيضاً رد عمدة الإذاعة ص 96). وعبد المسيح يذكر ذلك أيضاً في مكان آخر ويقول: «في أيار 49 صدر مرسوم الزعيم بحل مجلس العمد وتعيين رئيس مجلس عمد ومجلس وكلاء عمد وعين جورج عبد المسيح رئيساً لمجلس العمد له صلاحية العمدات. وعين وكلاء عمد خوّلهم صلاحيات مجلسية وعين هشام وكيل عميد الثقافة وفؤاد نجار وكيلاً لعميد الداخلية ولبيب زويا للإذاعة وسليم خوري للدفاع وفؤاد خوري للمالية. وتبلغت المرسوم لكي أبلغه للعمد الذين أعفوا وكان منهم الياس جرجي وأديب قدورة وسواهما من الذين تركوا العمل الإداري للزعيم في كل الشؤون فلم يبق له الوقت اللازم لاستكمال الجزء الثاني من كتاب نشوء الأمة السورية والكتابة المنهجية في فلسفة النظرة القومية الاجتماعية وقد هيأ لها بمقال نظرة سعاده إلى الإنسان» (بدأ جمراً. ص 186).

إذا كنا من مريدي عبد المسيح ومؤيديه فلا بد لنا من أن نفخر ونعتز بهذا القائد الفذ الذي لا يكل ولا يمل من الجهاد والصراع والذي بدأ فوراً ومن اللحظة الأولى لمعرفته باستشهاد المعلم بالعمل على تعبئة الرفقاء وشحذ هممهم لمتابعة الصراع، زادهم الإيمان العظيم بالرسالة العظيمة التي أكملها لهم المعلم وختمها بدمه. أما إذا كنا من الباحثين عن الحقيقة ودارسي الحدث بكل مقدماته ووقائعه ونتائجه دون أن يكون لدينا موقف

مسبق من هذا الشخص أو ذاك لا سلباً ولا إيجاباً، فإننا لا بد لنا من أن نطرح جملة أسئلة وتساؤلات منطقية لإرضاء عقولنا المنطقية، كالتالي:

إن أول ما يلفتنا في هذه الرواية هو قدرة عبد المسيح على المعرفة اليقينية بأن الزعيم قد استشهد من مجرد رؤيته لصورته في قفص الاتهام في المحكمة العسكرية، أي قبل قراءة الخبر أو عنوان الخبر في الجريدة. حتى إن الرفيق شكيب النجار حامل الجريدة لم يهرول ولم يولول ولم يصِح ولم يقل إن الزعيم قد استشهد، بل بادر بكل برودة وهدوء وسأل العم إذا كان قد رأى هذه الصور قبلاً. وثاني شيء يلفتنا هو أن العم بدأ منذ تلك اللحظة بالتمرس «بالصلاحيات الدستورية كرئيس إداري» لأنه كان معيناً رئيساً لمجلس وكلاء العمد... وهنا تبدأ أسئلتنا التالية:

متى بالضبط عين الزعيم عبد المسيح رئيساً لمجلس وكلاء العمد؟ لماذا لم يعمد عبد المسيح إلى نشر مرسوم الزعيم، رقمه وتاريخه، وأسماء الرفقاء الوكلاء كلهم. هل أضاع عبد المسيح ذلك القرار المزعوم كما أضاع الياس جرجي قرار الزعيم الذي أعطاه إياه لتعميمه والقاضي بتجريد ثمانية أمناء من رتبتهم، حسب زعم عبد المسيح الذي علّل ضياع أو إخفاء مرسوم التجريد بأن اسم جرجي كان بين المجردين من رتبتهم؟ (رسالة إلى منير ص 66). هل نستطيع لوم عبد المسيح على إضاعته مرسوم التعيين كما لام هو جرجي على إضاعته مرسوم التجريد؟ وهل نستطيع الظن بالعم كما ظن العم بالياس جرجي؟ ولماذا لم يعرف أحد بمرسوم التعيين ولم يذكره أحد إلا عبد المسيح وحده؟ ولماذا لم يسلمه الزعيم إلى الياس جرجي لتعميمه مثل ما سلّمه مرسوم التجريد لتعميمه؟ ولماذا بدأ عبد المسيح بالتمرس بالصلاحيات الدستورية الجديدة كرئيس إداري فور استشهاد الزعيم وليس قبل ذلك، أي ابتداء من تاريخ التعيين؟ ونحن نعرف أن الزعيم في دمشق قبل استشهاده كان قد عينّ عصام المحايري والياس جرجي وعبدالله محسن ومعروف صعب وكلاء عمد للإذاعة والداخلية والتدريب والمالية على التوالي، مما يختلف عن الأسماء التي ذكرها عبد المسيح أن أصحابها كانوا وكلاء الإذاعة والداخلية والتدريب والمالية عندما زعم أنه تعينّ رئيساً لمجلس الوكلاء المؤلف منهم. ثم إن عبد المسيح لم يقل لنا ما هي الصلاحيات الدستورية للرئيس الإداري وهل تختلف عن الصلاحيات الدستورية لرئيس مجلس العمد؟ وطالما هو رئيس إداري

فقط، فلماذا يقوم بالتوجيه الإداري والإذاعي والسياسي معاً، وليس بالتوجيه الإداري فقط، عندما بقي عدة أسابيع في الغار المعلق؟ وهل في الدستور شيء اسمه رئيس إداري كي تكون له صلاحيات دستورية؟ من أين أتى عبد المسيح بهذه التسمية وهذه الوظيفة الجديدة غير الموجودة في الدستور ومن أين اخترع لها صلاحيات دستورية؟

ثم لماذا لم يقدم عبد المسيح نفسه للرفقاء والأمناء في الشام عندما وصلها في 14 أيلول كرئيس لمجلس وكلاء العمد حسب المرسوم القرار المزعوم، ولماذا يقول لنا عبد المسيح نفسه في مكان آخر من مذكراته إنه مارس مسؤولية رئيس الحزب في دمشق كرئيس لمجلس المفوضين (مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة... ص 98) ولم يقل لنا إنه مارسها كرئيس إداري أو كرئيس لمجلس وكلاء العمد معين دستورياً؟ هذه أكثر من عشرة أسئلة لا جواب منطقياً عليها، إلا أنه وجد من الرفقاء من يقول إن عبد المسيح هو الذي اخترع قصة تعيينه هذه وأنه كان منتظراً استشهاد الزعيم في ذلك الوقت وأنه تأكد منه فور رؤيته صورته في قفص الاتهام، وأن عبد المسيح الذي سحبته المخابرات الإنكليزية من المطبعة يوم حادثة الجميزة، والذي استطاع وحده الانسحاب من طوق سرحمول، كان يستعد لترؤس الحزب بعد غياب الزعيم وقد انتحل صفة رئيس مجلس وكلاء العمد لهذا الغرض.

نحن لا يمكننا اعتبار هذا القول كواقع أو كحقيقة تاريخية لأنه مجرد قول واتهام وتأويل وتفسير قد يكون خاطئاً، ولكننا نستطيع القول بكل تأكيد إن عبد المسيح كان مرتبكاً جداً وضعيف الحجة كثيراً في زعمه تعيينه رئيساً لمجلس وكلاء العمد من قبل سعاده قبل استشهاده، كما أننا نستطيع القول، والإثبات، أن اسمه طُرح مرتين كرئيس للحزب بعد استشهاد الزعيم مباشرة، وقبل وصوله إلى دمشق، من قبل أطراف خارجية لا تضمر للحزب غير العداء!

تسميته من أطراف خارجية مرتين

لقد ذكرنا قبل الآن أن المخابرات الإنكليزية هي التي سحبت عبد المسيح من المطبعة يوم حادثة الجميزة، والدليل هو ما قاله عبد المسيح نفسه للرفيق الدكتور مطانيوس يوسف سنة 1994 في حديث خاص معه، قال: «... فيما كنت في مطبعة الحزب في

الجميزة أكتب مقالاً للجريدة، الجيل الجديد، إذ دخل علي شخص وأبلغني ضرورة الانتقال إلى الفريكة، لأن معلم اللغة الإنكليزية، وهو إنكليزي، في حالة خطرة جداً. صعدت إلى الفريكة ولما شاهدني المعلم الإنكليزي تَرَوْحَن ولم يعد به شيء. فقلت له إنك بخير! فقال: لو لم تأتِ كانت الكريزة ستقتلني... وعرفت وقتها أن هذا المعلم من الانتليجنس - المخابرات الإنكليزية. وكانوا يعرفون ما يخطط لنا، فزعم ما زعم ليخلصني من تلك المكيدة.» (يوسف ص 589).

ونلاحظ أن عبد المسيح كان لسنة 1994، أي بعد 45 سنة بعد استشهاد سعاده، لا يزال يعتقد أن الإنكليز «كانوا يعرفون ما يخطط لنا» أي إنهم ليسوا هم من يخطط لنا بل غيرهم، وإن العميل الإنكليزي «أراد أن يخلصني من تلك المكيدة» أي إن كل ما يهم هذا العميل هو سلامة عبد المسيح ليس إلا. نذكر هذه الواقعة هنا لأن لها علاقة بما سنورده تالياً عن تسمية عبد المسيح لرئاسة الحزب من أطراف خارجية مرتين قبل قدومه إلى دمشق.

المرة الأولى يذكرها المرحوم بشير موصلي في كتابه «55 عاماً على خطا سعاده» من شهادة خطية لعصام المحايري كتبها تلبية لطلب بشير، وهي كما يلي: «... وغادرنا دمشق إلى درعا (ليل 7-8 تموز هو وصعب ومحسن ثم لحقهم جرجي) ونمنا هناك. وفي أخبار السابعة صباحاً من يوم الجمعة 8 تموز أذاع الراديو خبر إعدام الزعيم. وهكذا تابعنا إلى عمان. وهناك تم لقاء لنا مع الأمير عبد الله... وفي عمان تداولنا في شؤوننا الحزبية بعد غياب الزعيم وكنا لا نزال وكلاء عمد قام الزعيم بتعييننا في دمشق بعدما كان قد حلّ مجلس العمد، وكان المجلس الأعلى قد حُلّ قبل حادثة الجميزة. كنت وكيلاً لعمدة المالية ومحسن وكيلاً لعمدة التدريب وصعب وكيلاً لعمدة الإذاعة والياس جرجي وكيلاً لعمدة الداخلية. استقر رأينا على تولي جورج عبد المسيح رئاسة الحزب ما عدا معروف الذي كان معارضاً بشدة، واعتبرت وقتها معارضته ناشئة عن ترشيح نفسه للرئاسة، وكنت أنا ممتعضاً منه بشدة بسبب حديث معين أبداه لنا ونحن في السيارة في طريقنا من دمشق إلى درعا. عدت أنا من عمان بعد أسبوعين... وبعد أسابيع قليلة حدث الانقلاب المنتظر فاتصلنا بعبد المسيح وأحضرناه بسيارة أديب الشيشكلي من لبنان وتسلم رئاسة الحزب فور وصوله.» (بشير ص 318).

من شهادة عصام المحايري هذه تتولد عدة تساؤلات هي: من نسّق الرحلة إلى عمان ومقابلة الأمير عبد الله بهذه السرعة؟ وماذا كان مضمون الحديث مع الأمير عبد الله وماذا كانت «التعليمات» التي تلقوها منه؟ ألم يكن ملفتاً أن من هربوا إلى عمان خوفاً من اعتقالهم في الشام أهملوا البحث عن مصيرهم كأشخاص مطاردين وعن وسائل حمايتهم وبادروا فوراً إلى البحث عمن يجب أن يخلف سعاده في قيادة الحزب؟ وكيف استقر رأيهم بسهولة وسرعة قياسية على تولي عبد المسيح رئاسة الحزب؟ ألا يوجد علاقة بين مقابلتهم للأمير عبد الله وبين استقرار رأيهم على تولي عبد المسيح لرئاسة الحزب؟ وهل من علاقة بين تسميتهم لعبد المسيح لقيادة الحزب من عند الأمير عبد الله الموالي للإنكليز وبين سحب جورج عبد المسيح من المطبعة بواسطة عميل المخابرات الإنكليزية مدرس اللغة الإنكليزية في مدرسة الفريكة؟

تحضرنا هنا مدافعة عبد المسيح بقوة عن الأمير- الملك عبد الله ضد انتقادات هشام شرابي له. يسرد عبد المسيح رواية هشام عن همجية تصرف الشرطة في عمان واحتقارها للشعب ومعاملتها له مثل الكلاب كي تفتح الطريق للملك عبد الله لدخول المسجد القديم في وادي عمان. عبد المسيح يكذّب هشاماً ويعتبر روايته أنها من اختلاق اليهود والمتهودين الذين يهمهم تقديم صورة مزورة عن ملك وشعب، ويقول إنها تعبر عن «الحقد على الملك عبد الله» (بدأ جمراً. ص 245). فهل لهذه المدافعة عن الملك عبد الله علاقة بتسمية عصام ومحسن وجرجي لعبد المسيح رئيساً من عند الأمير- الملك في عمان؟

أما المرة الثانية فكانت في تقرير شهر أيلول سنة 1949 الصادر عن البعثة الدبلوماسية البريطانية في بيروت الموجه إلى وزارة الخارجية البريطانية في لندن. (تجدون صورة عنه في آخر الكتاب). يقول التقرير: «**القائد الجديد المفترض للحزب جورج عبد المسيح لا** زال متوارياً، والأرجح أنه في سورية، لكن استسلم قائدين أصغر منه هما أسد الأشقر وعبدالله قبرصي». الإنكليز كانوا إذاً يتوقعون أن يصبح عبد المسيح رئيساً للحزب بعد سعاده. لا نستطيع الجزم كيف ولماذا كان الإنكليز يتصورون العم رئيساً للحزب، هل هم خططوا لهذا الموضوع منذ أن وضعت خطة قتل سعاده قبيل حادثة الجميزة وما اقتضته هذه الخطة من سحب عبد المسيح من المطبعة، وأوصلوا كلمة السر إلى الملك

عبـدالله لينقلهـا إلى عصام ورهطه في عمان، أو هم توقعوا ذلك لِما كانوا يعرفونه من قوة حضور عبد المسـيح في الحزب في كل مراحل نشـاط الحزب منذ تأسيسـه، خاصة وأن عبد المسيح كان الطليق الوحيد الذي لم يعتقل مع من اعتقل من قياديي الحزب في لبنان بعيد حادثة الجميزة. أم أن الإنكليز قد عرفوا باسـتعداد عبد المسيح للانتقال إلى دمشق من العميل المستتر أديب الشيشكلي الذي كان يتواصل مع عبد المسيح لنقله إلى دمشق. (رسالة إلى منير ص 93).

في دمشق

مـن جهته، يروي عبدالله سـعاده (أوراق قومية صفحة 46) ويقـول إن الأمناء كان عددهـم 17 سـبعة عـشر أميناً، (يمّـوت يقول إنهم كانـوا 22، والعم يقـول إنهم 19)، اثنـا عـشر منهـم منحهم سـعاده الرتبة قبل سـنة 1938 وخمسـة بعد عودتـه من مغتربه القسري وهـم الياس جرجي وعبدالله سـعاده وأديـب قدورة وحسـن الطويل وفريد صباغ، اجتمع الأمناء السـبعة عشر وتوافقوا على اعتبار أنفسـهم يمثلون السلطة العليا وأصدروا المرسـوم الثامن، وتشكل منهم المجلس الأعلى الجديد. لكن عبدالله لا يذكر تاريخ اجتماعهم وتاريخ إصدارهم للمرسـوم الثامن وتاريـخ انتخاب المجلس الأعلى الجديـد وتاريخ قيام هـذا المجلس بانتخاب جورج عبد المسـيح رئيسـاً للحزب. نحن إذا طالعنا نص المرسـوم الثامن في الدسـتور فسـنرى أن من وضعه هو المجلس الأعلى الجديد برئاسـة الأمين فؤاد أبو عجرم بتاريخ 16 تشرين الثاني سـنة 1951 بينما عبدالله يقول إن من وضعه هم الأمناء السـبعة عشر. ومن الممكن أن يكون الأمناء قد وضعوه ثـم تبنـاه المجلس الأعلى (قبرصي يقول إن عبد المسـيح هو الذي وضعـه وإن المجلس وافـق عليـه وعبد المسـيح يقول نفس الـشيء). لا يوجد اليوم في الحـزب مرجع يمكن الاسـتناد إليه لمعرفة تفاصيل عملية انبثاق السـلطة بعد استشهاد الزعيم، وتواريخ هذه العملية وأسماء المشتركين فيها. لكننا نستنتج استنتاجاً ونرجح ترجيحاً أن يكون الأمناء قد توافقوا على مضمون المرسـوم الثامن ثم انتخبوا المجلس الأعلى الذي بدوره اجتمع وأصدر هذا المرسـوم، أي إن المجلس الأعلى تم انتخابه قبل صدور المرسـوم رسـمياً، حيـث لم تكن توجد سـلطة رسـمية يمكنها أن تصدر مراسـيم قبـل أن يصبح المجلس الأعـلى موجوداً. تبقى مسـألة التواريـخ وأوقات حصول هذه العمليـة، لا نعرف منها

إلا تاريخ صدور المرسوم الثامن رسمياً وهو 16 – 11 – 51. أما التواريخ الأخرى وخاصة تاريخ انتخاب جورج عبد المسيح رئيساً للحزب فتبقى مجهولة، وإن كنا نعرف أنه تمت قريباً جداً من هذا التاريخ الوحيد المعروف.

الفضل لعبد المسيح أم لسامي خوري؟

لا بأس هنا من ذكر التنافس بين عبد المسيح وسامي خوري، فكل منهما يزعم أنه هو من أطلق العمل العقائدي وشحذ همم الرفقاء وقوّى معنوياتهم وله الفضل في اكتساب الرأي العام السوري عامة والدمشقي خاصة. لقد ذكرنا آنفاً رواية عبد المسيح: «... فكتبت البيان الأول فوراً: لقد أتممت لكم رسالتي وختمتها بدمي. وثاني بيان: أنا أموت أما حزبي فباق. وتتالت الرسالات للرفقاء توزع في طول البلاد وعرضها...»، أما سامي خوري فيستفيض في الحديث عن أعماله هو في هذا المجال قبل قدوم عبد المسيح إلى الشام، مما يوحي بقوة أن الفضل كان له هو في إطلاق تيار التأييد للحزب في البلاد. فمثلاً يقول سامي: «...في تلك الفترة الصاخبة أدلى رياض الصلح بتصريح اعتبر فيه أن الحزب قد انتهى بمقتل سعاده، فكتبت مقالة تحت عنوان «رسالة إلى رياض الصلح»... أرسلت هذه المقالة إلى مجلة الدنيا ووقعتها بحرف س، فنشرتها في صدر صفحاتها وأوعزت إلى موزعيها أن يفتحوا ذلك العدد من المجلة على هذه الرسالة عندما يعلقونها للبيع. اختفى هذا العدد من السوق بعد اليوم الأول من صدوره وجاءني عدد من القوميين الذين انتقلوا من مركز بيروت إلى دمشق وبينهم فارس معلولي يسألونني فيما إذا كنت أنا الذي كتبت المقال بتوقيع س، فلم أنكر ذلك فأصروا علي أن أكتب باستمرار لأنه ليس لدينا في الحزب من يكتب بمثل هذا الأسلوب من الوضوح في المعنى والجمال في التعبير.» (ص 174). ويستمر سامي ويروي كيف قابل عبد المسيح للمرة الأولى ثم يقول: «أخذ العم يحدثني عن مستقبل الحزب وأنه قرأ الرسالة إلى رياض الصلح وأن إمكانياتي الكتابية يجب أن تنصب على العقيدة... انطباعي الأول عن عبد المسيح لم يكن على سوية ما كنت أسمع عنه، لأن حديثه لم يزد شيئاً على الأفكار نفسها التي كنت أبشر بها بين أعضاء الحزب منذ استشهاد سعاده».
وسامي يروي الكثير عن فضله في العمل الثقافي وتفاصيل إنجازاته فيه على الصفحات من 180 إلى 187، لكن أطرف ما يرويه هو ما يلي (ص 187): «قمت بتشكيل حلقة

ثقافيـة قوامهـا عدد قليل من الأعضـاء المتميزين ثقافياً وبينهم حسـني حداد وأدونيس ونذير عظمة ورجا يازجي وياسـين عبد الرحيم وبشـير موصلي ونزار محايري وغيرهم من طلاب الجامعة السـورية... كان جميع المسـؤولين الحزبيين في المركز يعرفون بوجود هـذه الحلقة ومواعيد ومـكان اجتماعاتها ولكن أحداً منهم لم يجـرب أن يفرض وجوده عليهـا إلا جـورج عبد المسـيح رئيس الحزب الذي سـألني مـرات عديدة فيـما إذا كان بإمكانـه أن يحضر هذه الجلسـات. كنـت أتملص من القبـول بصورة لبقة طالبـاً منه أن يـترك هؤلاء الشـباب يعبرون عـن آرائهم بحرية دون وجل أو قيد. وفي مسـاء يوم من الأيام فوجئت بوجوده وقابلته دون أي كلام فقال: جئت لأحضر الاجتماع. أبديت له عدداً من الأعذار التي تحول دون حضوره فقال لي في النهاية: يعني ما بدك ياني أحضر؟ فقلـت له بحزم: كلا. بدا عليـه الامتعاض فالتف بعباءته وأدار وجهه وانصرف». هذه الروايـة تعطينـا فكرة عـن ثلاثة أمور مهمة هي: أولاً سـوء فهم للنظـام من قبل وكيل عميـد الثقافة (سـامي خوري) لأنه يفـترض أن يعرف أنه تحت سـلطة رئيس الحزب، وكان الرئيـس هو نفسـه عميـد الثقافة، ومعاونـاً لـه وأن للرئيس الحـق بالإشراف على أعمال العمد ومنها عمدته. ثانياً وجود حالة من التذمر من تدخل عبد المسيح فيما يعتبره «المثقفون» أنهم أعرف منه فيه، بينما عبد المسـيح كان يعتبر نفسـه «رئيسـاً للفهم» في كل شيء. وثالثاً عجز عبد المسـيح عن فرض شـخصيته وهيبته وسـلطته على العمد، وهذه المسألة أخذت بعداً خطيراً فيما بعد وسنتحدث عنها لاحقاً. والجدير ذكره الآن أن تلك الحلقة الثقافية كانت منتجة، وقد نتج عنها كتاب حسـني حداد «الموسـيقى السـورية» وهو كتاب فلسفي عن الموسيقى السورية ومقارنتها مع الموسيقى الغربية والشرقية. ثم قصيدة «قالت الأرض» وملحمة «دليلة» لأدونيس، ودراسـة لهشام شرابي في «الفلسفة القوميـة الاجتماعيـة»، وبحـث لسـامي «في الأمة»، وقصائـد متعددة لنذيـر وأدونيس وبحث لياسـين عن الفيروسـات وكونها تشـكل حلقة الوصل بين المركبـات الكيماوية العضوية والكائنات الحية...الخ (ص 186).

عبد المسيح يظلم هشام شرابي

إن ذكرنـا لدراسـة هشـام شرابي عـن الفلسـفة القوميـة الاجتماعية ينقلنـا إلى الهجوم الساحق الماحق الذي شنّه عبد المسيح عليه في ردّه على كتابه «الجمر والرماد» سنة 1978.

في ردّه يشن عبد المسيح حملة تقريع وتشنيع وصلت إلى درجة رميه بتهمة الخيانة العظمى، وأن هشاماً عميل أميركي وأجير يهودي فضلاً عن أنه جبان منهزم هارب...الخ

نحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن هشام شرابي الذي نعرف أنه مثل الكثيرين غيره يضعفون ويضعف إيمانهم بقدر ما يضعف ويقل اتصالهم بالحزب وبقدر ما يزيد اختلاطهم واحتكاكهم بالأفكار الأخرى المخالفة لأفكار الحزب. إن عامل «البعد المكاني» الذي أثاره لأول مرة فخري معلوف، ووافقه عليه سعاده وعلى تأثيره السلبي، كان له تأثير كبير على هشام. فتحت تأثير هذا العامل انتهى هشام في أميركا ليبرالياً فردياً و"ديموقراطياً" على الطريقة الأميركية، ثم عروبياً تقليدياً على طريقة العروبيين الوهميين، وصار أخيراً ماركسياً على طريقته الخاصة، ولكنه سنة 54 لم يكن عميلاً أميركياً وعبد المسيح نفسه لم يصدق آنذاك أن هشام عميل أميركي، ولنا من كتابات هشام سنة 57 و58 ما يثبت أنه كان لا يزال قومياً اجتماعياً قوي الإيمان بالعقيدة والقضية وحتمية انتصارها. وما يهمنا في هذا الموضوع أيضاً ليس هشام إذا كان جباناً وهارباً أم لا، فالرجل هو نفسه يعترف بأنه أصيب أكثر من مرة بالهلع والخوف الشديد ولم يدّع الشجاعة والبطولة. بل يهمنا أن نبين أسلوب عبد المسيح بتشنيع خصومه حين يصبحون خصوماً، وبالعمل والتعاون معهم والدفاع عنهم وعدم تصديق شيء قبيح قد يتهمون به قبل أن يخاصموه أو يقفوا منه موقفاً سلبياً. فهشام هو عميل متهود بعد أن انتقد جورج عبد المسيح، وهشام نفسه كان الرفيق الذي يعامله «بمحبة ورفق» ويدافع عنه قبل ذلك.

يقول العم: «عمل هشام عام 1954، ولم أكن أصدق عنه في ذلك الوقت، بتوجيه الاستخبارات الأميركية لجعل الحزب كله مؤسسة تابعة لمكتب الاستخبارات الأميركية ويكون هو المستفيد من هذه الخدمة لأسياده الأميركان» (بدأ جمراً. ص 204). لم يكن العم يصدق وقتذاك، أي منذ سنة 54، أن هشاماً كان عميلاً عند أسياده الأميركان، وبقي يعامله برفق ومحبة، أما بعد صدور «الجمر والرماد» لهشام واحتوائه نقداً لعبد المسيح، مهما كان هذا النقد صحيحاً أو غير صحيح، يعود ويصدق ما لم يصدقه سنة 54، ويصبح هشام خائناً لسورية وسعاده وعميلاً وأجيراً يهودياً، «ويدخل في من عناهم الزعيم بأنهم يهود الداخل» (بدأ جمراً. ص 203).

كل ذلك وهشام في نقده للعم لم يشتم ولم يستعمل كلمة نابية أو اتهامية، بل وجه نقداً وانتقاداً لعبد المسيح وسياسته الحزبية التي، حسب هشام، كانت أتعس وأشد وقعاً على الحزب، كما وجه نقداً لكتابات العم التي كانت «تحمل أفكاراً ناقصة غامضة غريبة أربكت القراء وأدت إلى بلبلة فكرية واسعة في صفوف الحزب». وأيضاً «كانت أفكاره غامضة وطريقة تعبيره صعبة وملتوية» (الجمر والرماد ص 200).

والطريف في عبد المسيح أنه في رده على هشام حول الأفكار الناقصة والغامضة وطريقة تعبيره الصعبة والملتوية، يعترف ويقر بها ويقول إنها أمر مستمر، ويعزوه لعدم قدرة القراء أن يفهموا ما يكتب بالشأن الاقتصادي «لأن هذا الشأن هو أساسي في مجمل شؤون الحياة الدقيقة التركيب على هذه السوية من الرقي البشري» (بدأ جمراً ص 202).

وعبد المسيح يظلم هشاماً كثيراً ويجافي الحقيقة التاريخية وتاريخ الحزب عندما يقول: «أمضى هشام سنة في دمشق لم يكتب حرفاً للجريدة مع إلحاحنا عليه...» (ص 204). ولم يذكر شيئاً عن مساهمة هشام الكبرى في الكتابة لجريدة الجيل الجديد سنتي 50- 51 إلى حين توقفها، ولغيرها أيضاً حتى سنة 1958، مما يوحي بأن هشاماً لم يكتب أبداً. لكن الحقيقة هي أن هشاماً كان يكتب في جريدة الحزب الجيل الجديد ابتداءً من العدد الأول سنة 1950 موضوعين هما: حياتنا الجديدة وسعاده حي بيننا، وأن هذا الموضوع الأخير كتب فيه اثنتي عشرة حلقة.

بين يدي مقالة قيمة جداً للباحث القومي الكبير جان داية في «صباح الخير» تاريخ 2-9-78، وهي مقالة نقدية راقية موجهة لهشام بعنوان: ما حاول هشام شرابي طمسه في الجمر والرماد، سعاده حي بيننا. وجان يضمّن مقالته صورة عن صدر الصفحة الأولى من الجيل الجديد، وأيضاً صورة عن صدر مقالة هشام «سعاده حي بيننا، دراسة تمهيدية في قيم الحياة الجديدة ومثلها. بقلم هـ.ش». كما يورد داية فقرات من كتابات هشام الحزبية التي استمرت حتى عام 1958، ومنها بحث يحمل عنوان «فلسفة جديدة» نشر في مجلة المجلة السنة الثانية العدد السنوي الممتاز 57- 58. وفي هذا البحث يتكلم هشام عن كتابات سعاده ويرى فيها «ومضات كاسحة من النور تظهر بقوة البرق طريق المناقب ومعنى القيم في الصراع من أجل الحياة الجديدة»، ويقول إن كلمات سعاده «من

شأنها أن تحرك في الأعماق تياراً هائلاً يحمل إلى النفس كل معاني قيم الصبر والقوة والبطولة والعز والكرامة والتضحية والمحبة، وتخلق في الروح العزم وفي الإرادة النشوة وفي العقل الوعي»...الخ. إن هذا يبرهن أن هشاماً كان حتى سنة 1958 لا زال مؤمناً بالعقيدة القومية الاجتماعية وبمنشئها الزعيم، بينما عبد المسيح يقول إنه كان عميلاً أميركياً وأجيراً يهودياً منذ سنة 1954.

إن حقيقة مساهمة هشام شرابي في الكتابة الحزبية في جريدة الجيل الجديد في الشام، وفي غيرها، وتجاهل عبد المسيح لهذه الحقيقة واقتصاره من هذه الناحية على القول إن هشاماً أمضى سنة 54 في دمشق لم يكتب حرفاً للجريدة مع إلحاحنا عليه، وكأن هشام لم يكتب أبداً، بالإضافة إلى نفي عبد المسيح أن يكون وديع الأشقر قد عمل رئيساً للتحرير في الجيل الجديد البيروتية (بدأ جمراً. ص 185)، ثم عودته للإقرار بأن وديع كان فعلاً رئيساً للتحرير (ص 210)، إن ذلك يجعلنا نميل إلى تصديق هشام فيما يرويه لنا عن عبد المسيح وليس العكس. يقول هشام إن جورج عبد المسيح قال للرفيق حنا دميان بعد إلحاح هذا الأخير عليه لشرح الفلسفة المدرحية، قال له: «أنتظر هشام عندما يأتي من أميركا فيشرحها لكم». وما يعزز صحة قول هشام وتلميحه إلى عجز عبد المسيح عن شرح المدرحية هو تخبط العم وتناقضه وارتباكه فيما كتبه عن المدرحية، وهو ما سنبحثه في الملحق من هذا الكتاب.

انتقال السلطة حسب دستور سعاده، وخطأ وخطيئة المرسوم الثامن

نعود إلى السياق التاريخي لهذا البحث ونكمل في موضوع انتقال السلطة بعد استشهاد الزعيم. أن تفاصيل إجراءات عملية انتقال السلطات المركزية، دستورياً، من حيث المهل والآلية والطريقة، نراها في المراسيم الدستورية وليس في صلب مواد الدستور. الدستور يعين المبدأ فقط، أما المرسوم الدستوري فيعين الكيفية. يوجد استثناء وحيد في دستور سعاده يعالج حدثاً فريداً استثنائياً يحدث مرة واحدة فقط وهو حدث «حيلولة أي مانع طبيعي دائم دون ممارسة الزعيم سلطاته»، أي الموت، فهذا الحدث موجود الكلام عنه وعن إجراءاته (مهلة 15 يوماً) في صلب مواد الدستور وليس في المراسيم الدستورية كما يُفترض بسبب ذكر مهلة 15 يوماً، نجده في المادة الدستورية رقم 11. (المواد 11 و12 و13 من دستور سعاده هي المواد الانتقالية التي تتكلم عن

انتقال السلطة عند غياب الزعيم الدائم)، لو لم يكن هذا الحدث فريداً واستثنائياً لكانت تفاصيل إجراءاته موجودة في المراسيم وليس في صلب مواد الدستور. هذا هو الفرق بين المواد الدستورية والمراسيم الدستورية، المواد الدستورية تعيّن المبدأ، ثم المراسيم الدستورية تعيّن المهل والإجراءات والكيفية. لا بأس هنا من إثبات نص المواد 11 و12 و13 من الدستور، من أجل أن يكون ما سنشرحه جلياً وواضحاً.

مادة 11: يجتمع المجلس الأعلى بناء على دعوة من رئيسه في مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ حيلولة أي مانع طبيعي دائم دون ممارسة الزعيم سلطاته، لانتخاب خلف له.

مادة 12: يكون للرئيس المنتخب السلطة التنفيذية فقط وتحصر السلطة التشريعية من دستورية وغير دستورية بالمجلس الأعلى.

مادة 13: إن مدة ولاية الرئيس المنتخب وطريقة انتخابه وطريقة انتقاء أعضاء المجلس الأعلى ونظامه الداخلي (الإجراءات) تُحدد فيما بعد بمرسوم يصدره الزعيم على حدة ويكون له صفة المراسيم الدستورية.

إن سعاده قد استشهد قبل أن يصدر المرسوم الدستوري الموعود في المادة 13، وكان على تلاميذه الأمناء من بعده أن يتولوا هم صياغة هذا المرسوم ليصدره أول مجلس أعلى جديد. لقد تم ذلك بتاريخ 16 تشرين الثاني من سنة 1951، أي بعد أكثر من سنتين وأربعة أشهر من غياب الزعيم بالاستشهاد، وصدر المرسوم الثامن.

برأيي أن مضمون هذا المرسوم كان الخطأ التاريخي الكبير الذي برهن أن تلامذة سعاده كانوا فاشلين في فهم دستور معلمهم فهماً صحيحاً، وكانوا مقصرين في إدراك نظرته إلى الديموقراطية بشكل عام وإلى عملية انتقال السلطات بشكل خاص. وإذ أتوقف عند هذا الموضوع وأبدي رأيي ومطالعتي فيه، رغم وعدي في المقدمة العامة لهذا الكتاب أنني سأبتعد عن الآراء الشخصية قدر المستطاع، فلأن له علاقة قوية في نشوء حالة الصراع على السلطة التي طبعت القيادات الحزبية منذ ذلك الوقت حتى اليوم، وإني أعتقد أن عدم فهم الخطيئة التي تضمنها المرسوم الثامن لا يساعد أبداً على فهم أسباب وكيفية الصراع على السلطة الذي هيمن على قيادات الحزب ورافقها منذ استشهاد الزعيم. إن «الخطيئة الأصلية» التي تضمنها المرسوم الثامن لا زالت تراكم

أخطاءً وتعمل فساداً في الحزب وقياداته حتى اليوم. وهذه مطالعتي:

إن الخطأ الكبير الأول يتمثل في أن تلامذة سعاده الذين أصدروا المرسوم الدستوري عدد 8 اعتبروا أن الأمناء، أي حاملي رتبة الأمانة، هم مصدر السلطات، أي الهيئة التي يجب أن تنتخِب، وحدها، أعضاء السلطة التشريعية. والخطأ الكبير الثاني يتمثل في أن السلطة التشريعية، أي المجلس الأعلى، هي التي تمنح رتب الأمانة للأشخاص الذين سينتخبونها! ولا ندري كيف توصل هؤلاء، وكان عددهم حوالي 19 فرداً، إلى هذا الاستنتاج الغريب عن دستور سعاده وعقيدته وكامل نظرته إلى هذا الموضوع الخطير. فمصدر السلطة بدل أن يكون مجموع أعضاء الحزب كلهم، أي الشعب حسب المعنى الجوهري للديموقراطية الذي أوضحه وأكده سعاده في كتابه العلمي نشوء الأمم وفي العديد من مقالاته ورسائله وشروحه، بدل من ذلك صارت فئة قليلة في الحزب تعتبر نفسها أنها هي وحدها مصدر السلطات. والأسوأ من ذلك أن السلطة صارت هي من يعين من سينتخبها، أي إن المجلس الأعلى هو الذي يمنح رتب الأمانة.

المسألة واضحة وجلية في دستور سعاده الأصلي وفي عقيدته القومية- الاجتماعية ونظرته إلى الحياة والإنسان والمجتمع. فبالنسبة لسعاده، المؤهلون من بين الناس، أي الحاملون صفات ممتازة من العلم والمعرفة والإيمان والالتزام الكامل بمصلحة الأمة والوطن تحت كل الظروف السهلة والصعبة، أي الأمناء حسب نص دستور سعاده ونص مرسوم منح رتبة الأمانة وشروطها، هم فقط من يحق لهم أن يتولوا السلطة العليا في الدولة- الحزب. وليس في دستور سعاده أبداً، إطلاقاً، بتاتاً ما يمكن أن يستنتج منه أن هؤلاء الأمناء هم وحدهم من يجب أن يحصر فيهم حق انتخاب السلطة التشريعية. ولتوضيح هذه المسألة يجب التمييز بين الفكرتين الرئيستين التاليتين: 1- من يجب أن ينتخِب أصحاب السلطة، أي من هم مصدر السلطة. 2- من هم المؤهلون الذين يجب أن يتولوا السلطة ويكونوا أصحاب السلطة المُنتخَبين. أو بكلمتين مختصرتين: من ينتخِب ومن يُنتَخَب.

مصدر السلطة (من يَنتخِب)

يجب أن يكون محسوماً نهائياً وقطعياً أن الشعب دائماً وأبداً هو مصدر السلطات كلها. هذه هي الديموقراطية وهذا هو معناها دون أدنى تحفظ. ويجب أن يكون محسوماً

نهائياً وقطعياً أن سعاده هو أبو الديموقراطية وأمها، ودون أدنى تحفظ. إن سعاده هو الذي علّم وشرح كيف أن القومية هي ديموقراطية وكيف أن الديموقراطية هي قومية، وهو صاحب مقولة «مبدأي القومية والديموقراطية المتجانسين» (نشوء الأمم، الفصل السادس- نشوء الدولة وتطورها)، وهو القائل إن الاتجاه الديموقراطي في نظام الحزب صريح ولا ينكره عقل صحيح. نعتقد أن الالتباس الذي وقع فيه تلامذة سعاده في هذا الموضوع ابتدأ من فهمهم الناقص الضعيف السطحي للمادة الدستورية الرابعة من دستور سعاده الأصلي التي تقول إن الزعيم هو مصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية. لقد فهموا من هذه المادة أن سعاده هو مصدر السلطات وليس الشعب- أعضاء الحزب هم مصدرها، وبالتالي فإن الأمناء الذين عيّنهم سعاده يجب أن يكونوا مصدر السلطات بعد سعاده وليس الشعب- أعضاء الحزب هم مصدرها. بينما الحقيقة التي أوضحها سعاده نفسه مرات عديدة وفي أوقات وأماكن مختلفة، هي غير ذلك تماماً. إن سعاده لم يقل أبداً، وإن نص المادة الدستورية الرابعة لا ينص أبداً، أن الزعيم هو مصدر السلطات، هكذا وبشكل مطلق ودائم. إن النص هو: الزعيم هو مصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية، وليس الزعيم هو مصدر السلطات. وما الفرق؟ الفرق كبير جداً. إن الذي منع سعاده من أن يقول وينص في المادة الرابعة بأن الزعيم هو مصدر السلطات، هو أن سعاده قومي واجتماعي وديموقراطي يعرف أن الشعب هو مصدر السلطات دائماً وأبداً وهو حريص على ذلك حرصه على مبادئه القومية والاجتماعية والديموقراطية، أي حرصه على «مبدأي القومية والديموقراطية المتجانسين». أما في مرحلة التأسيس للحزب، كما في كل مرحلة تأسيس للأحزاب والدول في العالم كله فلا يمكن عملياً وإجرائياً أن يكون الشعب كله مهيّأً ومنخرطاً في عملية التأسيس. لا بد من شخص واحد أو مجموعة قليلة من الأشخاص، حسب ما يتفق أن يوجد، أن تتولى هي عملية التأسيس وتعين هي قيادة الدولة- الحزب في أول عهد نشوئها (أي أن تكون هي مصدر السلطة المؤقت) إلى أن تستكمل عملية التأسيس وتعود الأمور إلى نصابها الصحيح والطبيعي. والنصاب الصحيح والطبيعي هو أن يكون الشعب كله هو مصدر السلطة في الدولة. لذلك كان نص دستور سعاده في مادته الرابعة أن الزعيم هو مصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية، ولم يكن النص أن الزعيم هو مصدر السلطات. واضح أن النص الأول هو معين ومحدد ومحصور ومؤقت، وأن النص الثاني هو مطلق ودائم.

الاستبداد الديموقراطي والدكتاتورية الديموقراطية

يجب أن نلاحظ ونتنبه لأمرين اثنين هما:

أولاً، إن السبب الوجيه الذي اقتضى أن يكون سعاده هو وحده مصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية هو لأن سعاده كان هو المؤسس وحده. وطبيعي أن يكون المؤسس هو من يتولى سلطة التأسيس والقيادة طيلة مرحلة التأسيس، أي أن يكون هو مصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية حيث التأسيس يتطلب تشريعاً وتنفيذاً. إن امتياز الزعامة ومصدر السلطتين التي لسعاده كمؤسس لا تنتقل لغيره بعد وفاته، لأنه هو وحده ولا غيره كان مؤسس القضية كلها، أي العقيدة والنظام وغاية الحزب. إن نص المادة الرابعة لا يعطي امتيازات لا لأفراد ولا لمجموعة محددة معينة من الأعضاء، أمناء أو غير أمناء، لتكون مصدراً للسلطة بعده، أي بعد نهاية مرحلة التأسيس.

ثانياً، حتى في عهد زعامته وامتلاكه صفة وامتياز مصدر السلطتين، كان سعاده محتاجاً لموافقة وتأييد جميع أعضاء الحزب وهو قد طلب هذه الموافقة وهذا التأييد مرتين، مرة في مقدمة الدستور ومرة في نص يمين الانتماء للحزب. إن تأييد الزعيم المطلق في كل تشريعاته وإدارته الدستورية من قبل الأعضاء جميعهم هو قاعدة تأسس عليها الحزب موجودة في نص مقدمة الدستور حيث نقرأ: «على أن يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في الحزب يدافعون عن قضيته **ويؤيدون الزعيم تأييداً مطلقاً في كل تشريعاته وإدارته الدستورية**». أما في تأدية القسم الحزبي فإن كل رفيق جديد يقسم بحقيقته وشرفه ومعتقده ويعلن ويقول: «**وأؤيد زعيمه وسلطته**» ثم يوقع بخط يده ما يعلن وما يقول. وهذا يعني أن سلطة الزعيم وصفته مصدراً للسلطتين هما أمران مستمدان من قبول وتأييد الأعضاء جميعهم ومشروطة بهذا القبول وهذا التأييد. هذا يعني أن سلطة الزعامة هي سلطة، مع كونها مطلقة، ديموقراطية وأن الأعضاء هم المصدر المبدئي الأساسي الدائم لهذه السلطة. وذلك منذ اليوم الأول لبدء التأسيس، وحتى في ظل كون المؤسس هو مصدر السلطتين عملياً ومؤقتاً. وهذا هو السبب الذي جعل سعاده ينص على هذا التأييد في مقدمة الدستور وفي قسم اليمين.

سعاده يوضح بنفسه هذه المسألة ويتكلم على «**الاستبداد الديموقراطي**» وعلى «**الدكتاتورية الديموقراطية**» ويميز بين الطغيان وبين الدكتاتورية الحائزة على تأييد

الشعب وثقته (مقالة النيابة والاستبداد- الأعمال الكاملة 3 ص 208) حيث يقول أيضاً: «**لا يجوز أن يقوم الحكم المطلق إلا على أساس الثقة المطلقة**». يقول الرفيق جان داية في كتابه «محاكمة أنطون سعاده» إن بلاغ رئاسة مجلس العمد الذي صودر مع أوراق جورج حداد تاريخ 24 حزيران 1936 يشرح أن صلاحيات الزعامة المطلقة هي بموجب ثقة وإرادة ومبايعة جميع القوميين الاجتماعيين (ص 22). بالإضافة إلى ذلك، فإن صلاحيات الزعامة قد تمت مناقشتها وإقرارها قبل تكريسها في الدستور في 21 تشرين الثاني سنة 1934، حيث كان عبد المسيح وجميل صوايا معترضين بشدة على منح سعاده صلاحيات الزعامة المطلقة وحاولا الانسحاب من الجلسة التي خصصت لإعطاء «القائد العام» صلاحيات مطلقة، ويقول عبد الله قبرصي إن فؤاد حداد حال دون انسحابهما، قبل أن يقتنع عبد المسيح وصوايا بعد مناقشة سعاده لهما (عبدالله قبرصي يتذكر ج 1 ص 49. أيضا ذكرها جان داية في كتابه محاكمة أنطون سعاده ص 120). وهكذا فإن كل انتقادات خصوم الحزب وهجاءهم لسعاده بأنه كان دكتاتوراً مستبداً مغتصباً حقوق الأعضاء الديموقراطية هي انتقادات فارغة وسخيفة لا قيمة لها.

النتيجة من كل هذا البيان هي أن مصدر السلطة الثابت والدائم هو الشعب، أي الأعضاء كلهم، وليس فئة مختارة منه مهما كانت مؤهلاتها. فالأمناء ليسوا ولا يجب أن يكونوا مصدر السلطات وينتخبوا وحدهم السلطة التشريعية، وإلا نصبح في سلطة أرستوقراطية وليس ديموقراطية. إن ما ارتكبه واضعو المرسوم الدستوري الثامن في حصر حق انتخاب السلطة المركزية التشريعية بالأمناء هو مخالف لروح الديموقراطية القومية وليس له أي سند أو أية حجة من دستور سعاده. لا شيء في دستور سعاده أو في أعماله وقدوته وتاريخ إدارته للحزب ما يمكن الاستنتاج منه أن الأمناء وحدهم هم مصدر السلطة في الحزب بعد استشهاد الزعيم. إن هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه 19 أميناً سنة 1951 كان هو السبب في انحراف دور هذه الكتلة، التي اصطبغ تاريخها بعد استشهاد سعاده بالانقسامات والمناكفات والتكتلات والصراعات الداخلية التي أنهكت الحزب ومزقته وهجّرت أعضاءه وجرّت عليه مصائب ونكبات متكررة ولا زالت تمارس عبثها حتى اليوم بعد سبعين سنة من استشهاد سعاده. وكأن القوميين الاجتماعيين لا يدرسون عقيدتهم ولا يقرؤون، كأنهم لم يقرؤوا ويطلعوا على مطالعة سعاده المعمقة وتحليله ودرسه نشوء الدولة وتطورها في كتابه الفريد «نشوء الأمم».

الاستثنائي المؤقت صار دائماً.

حتى إن هؤلاء الأمناء التسعة عشر قد أساؤوا سنة 1951 قراءة المادة 11 من دستور سعاده وفهمها مع أنها قصيرة ومختصرة وواضحة. هذه المادة تنص على أن يجتمع المجلس الأعلى بناء على دعوة من رئيسه في مدة خمسة عشر يوماً من حيلولة أي مانع طبيعي دائم دون ممارسة الزعيم سلطاته، لانتخاب خلف له. لقد أساؤوا قراءتها وفهمها واعتبروا أن القاعدة الثابتة هي أن المجلس الأعلى هو من يجب، دائماً، أن ينتخب رئيس الحزب، رغم أن هذه المادة هي مادة انتقالية صالحة لمرة واحدة فقط وتنفذ مرة واحدة فقط عند حدوث ما يحدث مرة واحدة فقط في التاريخ هو موت سعاده. إنها وضعت لتعالج حالة فريدة استثنائية ولم تكن قاعدة ثابتة دائمة تطبق في ظروف عادية. فلا شيء في دستور سعاده يمنع، بل كل ما في دستور سعاده يوجب، أن يكون القوميون الاجتماعيون كلهم هم مصدر السلطات الذين ينتخبون السلطة التشريعية، أي المجلس الأعلى، وهذا المجلس بدوره يمكن له أن ينتخب رئيس الحزب، أو أن الأعضاء كلهم ينتخبونه مباشرة، حسبما يتفق أن يوجد في المرسوم الموعود الذي استشهد سعاده قبل أن يصدره. ففي الظروف العادية لا شيء في دستور سعاده يمنع أن يجتمع القوميون الاجتماعيون كلهم في جميع مديرياتهم ومناطقهم لانتخاب رئيس الحزب أو لانتخاب أعضاء المجلس الأعلى ثم يعمد هؤلاء إلى انتخاب الرئيس. لو كانت المادة الحادية عشرة صالحة للتطبيق أكثر من مرة واحدة لما أوجد سعاده المادة الثالثة عشرة التي تنص على «أن طريقة انتخاب الرئيس وطريقة انتقاء أعضاء المجلس الأعلى تحدد فيما بعد بمرسوم مستقل يصدره الزعيم على حدة».

حسناً فعل الأمناء التسعة عشر حين اجتمعوا وجعلوا من أنفسهم سلطة ومصدراً للسلطة وانتخبوا مجلساً أعلى جديداً اجتمع بدوره وانتخب رئيساً للحزب. حسناً فعلوا ذلك لأن ذلك كان الشيء الوحيد الممكن عملياً في ظروف استثنائية فريدة حيث لم يكن يوجد مجلس أعلى في الحزب كي يجتمع وينتخب رئيساً حسب المادة 11 من دستور سعاده. فسعاده كان قد حلّ المجلس الأعلى قبل استشهاده. لم يكن ممكناً تطبيق المادة 11 لأن هذه المادة تفترض وجود مجلس أعلى. إن ما فعله الأمناء سنة 1951 كان أشبه بتأسيس جديد للسلطة يجوز معه اعتبار الأمناء أنفسهم مصدراً للسلطة في وقت

كان يتعذر اجتماع الأعضاء كلهم. أما أن يعمد هؤلاء الأمناء إلى جعل ما فعلوه قاعدة ثابتة يضعون لها نصوصاً دستورية لتطبق دائماً في الظروف العادية فهو بالضبط الخطأ الذي كلف الحزب كثيراً جداً من استقراره واستقرار قيادته، وعرّضه لأن يستهلك نفسه ويهلك نفسه بنفسه حتى الانشقاق. القاعدة الثابتة كان يجب أن تكون في اجتماع الأعضاء جميعهم في مديرياتهم ومنفذياتهم في الوطن وعبر الحدود، واشتراكهم جميعهم في اختيار وانتخاب قياداتهم. ذلك انسجاماً مع دستور سعاده الديموقراطي الذي اعتمد على تأييد الأعضاء جميعهم لسلطته واعتبرهم بذلك مصدراً أساسياً وثابتاً للسلطات حتى في عهد زعامته وصفته مصدراً للسلطتين كما شرحنا آنفاً.

عذر أقبح من ذنب

كان في أوساط القوميين، وخاصة الأمناء منهم، ميل جامح لمنع وتحريم قيام القوميين الاجتماعيين بانتخاب المجلس الأعلى والرئيس، بل والانتخاب بشكل عام، استناداً إلى قراءات خاطئة لنصوص من سعاده سنذكرها فيما يلي:

أولاً: قول سعاده بأن الحق لا يكون عددياً، لا الكثرة ولا القلة تقرر الحق، وأن مسألة الحق ليست مسألة عددية بل مسألة إنسانية مجتمعية... (راجع مقالة المجموع والمجتمع 1-12-47 وأيضاً مقالة الحق والحرية 1-1-48). لكن مسألة الحق والباطل لا علاقة لها أبداً بمسألة الديموقراطية وانبثاق السلطة ومصدر السلطة. إن سعاده في مقالته الخالدة «الحق والحرية» والتي يقول فيها إن الحق انتصار في معركة إنسانية تجري ضمن المجتمع، وإن الباطل هو انخذال في هذه المعركة، ولولا انتصار الحق وانخذال الباطل لما عُرِف ما هو الحق وما هو الباطل... إن سعاده في هذه المقالة كان يتكلم على القيم الإنسانية الاجتماعية وعن مسألة تختلف كلياً عن موضوع الديموقراطية ومصدر السلطة. إن الانتخابات لا علاقة لها بالحق والباطل، الانتخابات ليست لتقرير الحق والباطل، بل هي لتقرير من هو الأكثر قبولاً وتأييداً من الشعب. إن من ينجح في انتخابات عامة لا يعني أنه على حق، وإن من يرسب هو على باطل. بل يعني أن من ينجح هو الأكثر قبولاً وتأييداً من الشعب، والخاسر هو أقل قبولاً وتأييداً من الشعب، ولا علاقة لهذا الأمر بالحق والباطل. إنه لخطأ كبير أن نُدغِم مسألة الحق والباطل بمسألة الانتخابات، وهذا الخطأ قد وقع به الكثيرون، وأنا منهم لعهد قريب، والسبب

هو أن فهمنا لم يكن كافياً لمعنى «مصدر السلطة».

ثانياً: نظرة سعاده إلى الإنسان تقول بأن الإنسان الكامل الحقيقي هو المجتمع وليس الفرد، أما الفرد فهو مجرد إمكانية إنسانية، وأن الأفراد يختلفون ويتفاوتون في مؤهلاتهم ومستوى علمهم ومعرفتهم وثقافتهم. يتحجج معارضو الانتخابات بذلك ليقولوا بأنه ليس من العدل أن يكون صوت الفرد البسيط قليل المعرفة يساوي صوت العالم المثقف العميق الإدراك، وبالتالي إن الانتخابات التي تساوي في الأصوات لن تكون عادلة. لكن هذه الحجة هي فاسدة لأنه ليس صحيحاً أن أصوات الأفراد البسطاء الكثيرة ستصب لصالح الرابح في الانتخابات وأن أصوات أصحاب المعرفة القليلي العدد ستصب لصالح المرشح الخاسر. إن الرابح والخاسر كليهما سينالان نصيباً من أصوات البسطاء كما من أصوات غيرهم، وسيتساويان في هذا النصيب.

نعم إن الأفراد يختلفون ويتفاوتون في المؤهلات ولكنهم يتساوون في حق إبداء الرأي، هذا الحق الذي كفله لهم الدستور. إن حق التصويت لا يميز بين فرد وفرد. هذه هي الديموقراطية، ولا علاقة لنظرة سعاده إلى الإنسان بها. في دستور سعاده في مادته الثامنة الحق نفسه في إبداء الرأي لكل الرفقاء دون تمييز، ودون فرق بين بسيط ضعيف الإمكانية وبين متعلم كبير الأهلية، والدستور لا يقول إن رأي هذا مقبول ورأي ذاك مرفوض لأن هذا خبير وذاك بسيط. إن الديموقراطية لا تميز في حقوق الأفراد.

ثالثاً: في رسالة سعاده إلى الرفيق جميل شوحي تاريخ 12-8-42 يقول له: «... **فنظام المديريات التي تضم عامة الأفراد لا يسمح بحصول التشويش والفوضى. ليس هناك انتخابات تقسم الأعضاء إلى فرق متزاحمة متخاصمة...**» (الأعمال الكاملة 10 ص 314). يتحجج البعض بهذا القول لسعاده ويستنتجون أنه «ليس هناك انتخابات تقسم الأعضاء إلى فرق متزاحمة متخاصمة»، وهؤلاء مرة أخرى يسيئون قراءة سعاده وفهمه. إن سعاده كان في هذه الرسالة يدرب رفيقاً جديداً على النظام كان عيّنه مديراً لمديرية سانتياغو التشيلي، وكان يجيبه على رأيه بأن تتخذ قرارات المديرية بالانتخاب. إن سعاده كان يقول لهذا الرفيق إن قرارات المديرية في اجتماعاتها الدورية الأسبوعية لا يجوز أن تُتخَذ بالانتخاب بل هي من صلاحية المدير بعد التشاور مع أعضاء هيئة المديرية. إن قول سعاده لا يعني أن الانتخاب ممنوع ومحرم، بل يعني أنه لا يجوز في

كل اجتماع ولكل موضوع، ولكنه واجب الحصول كل سنة مرة لانتخاب لجنة المديرية الاستشارية حسب نص المرسوم الدستوري عدد 4.

إن إساءة قراءة سعاده ليست عذراً لمخالفة نظامه الديموقراطي وجعله أرستقراطياً. إن إساءة قراءة سعاده ليست عذراً بل ذنباً، إنه أقبح من ذنب.

إن أغلب القوميين يقرؤون سعاده قراءة عاطفية حماسية منبهرة ببلاغته وقوة بيانه وحجته، ويأخذهم ذلك أحياناً بعيداً عن تلقي زبدة أفكاره وحقيقة أغراضه. ذلك رغم أن سعاده قد دلّ قرّاءه وعلّمهم كيفية قراءته وقراءة كل النصوص التاريخية، لقد أوضح لهم المنهج الصحيح في قراءة وفهم المفكرين والفلاسفة والمصلحين، أوضح لهم ذلك عندما قال لهم كيف يجب أن يفهموا الآيات القرآنية والمسيحية وكيف يجب أن يستخرجوا المعنى الصحيح لها، قال: «**إن الاستدلال على معنى الآيات، مسيحية كانت أم إسلامية، بصورة استبدادية ومن غير الرجوع إلى موضِع الآية وموضوعها والحالة أو الحادث الذي نزلت فيه، هو أمر كثيراً ما يفضي إلى غير أو عكس المقصود من الآيات الدينية التي منها ما هو مطلق ومنها ما هو مقيد، فيجب فهم كل ذلك بدقة لإصابة المعنى الحقيقي والغرض المقصود من الآيات.**» **(الإسلام في رسالتيه- الحلقة 24).**

لكن يظهر أن القوميين الاجتماعيين لم يتعلموا جيداً لا معنى القومية الاجتماعية ذاتها التي لا يمكن أن تكون إلا ديموقراطية، ولا معنى وسبب هذه الأزمات المتلاحقة المستمرة التي ترافق القيادات المركزية من جراء حصر مصدر السلطة في الأمناء، أي حصر حق انتخاب السلطة بهم، بعد أن يتم منح رتب الكثير منهم خارج الشروط الواضحة المحددة في الدستور، ولغايات الصراع على السلطة بعيداً عن الغاية الحقيقية وبعيداً عن الدور الحقيقي المنوط دستورياً بهم الذي هو «انتدابهم للأعمال التي تتطلب صفات ممتازة»، ومن هذه الأعمال عمل تولّي السلطة.

رابعاً: هناك حجة أخرى لمعارضي مبدأ الانتخابات العامة وهي أن مجموع أعضاء الحزب ليسوا كلهم قادرين ومؤهلين لدراسة برامج المرشحين وخططتهم وفهمها، أو دراسة وفهم ظروف الأمة والحزب وحاجتها، هذه البرامج والخطط والحاجات التي على أساسها وأساس معرفتها فقط يجب أن يتم الانتخاب، وبالتالي لا ضمانة بحسن

الاختيـار عندما يشـترك الأعضاء كلهم في الانتخاب. أما الأمنـاء فهم أقدر على معرفة وفهـم الخطـط والبرامج والحاجـات، وبالتالي هم وليـس غيرهم من يجـب أن ينتخِب لكـي يكـون الاختيار سـليماً. هذه الحجة تسـقط بمجـرد معرفتنا أنه مهـما كانت نتيجة الانتخابـات العامـة فإنه لـن يصل إلى مركز القيادة والسـلطة سـوى المؤهلين الحائزين عـلى شروط رتبـة الأمانة. إن ضمانتنا في وصول المؤهلين دون غيرهم هي في حصر حق الترشـح للانتخابـات، بالأمناء دون غيرهم، وليس في حصر حـق الانتخاب الذي هو حـق واحـد للجميع. تماماً مثل حق إبـداء الرأي، إنه حق واحـد للجميع. هذه القضية هي محلولة في النظام القومي الاجتماعي. لقد حلّها سـعاده في النظام المركزي التسلسلي حسب الرتب والوظائف، أي حسب المواهب والمؤهلات وحصر حق الترشح للمراكز العليا بأصحاب المؤهلات العليا، أي أصحاب الرتب العليا. إن أمماً عديدة تحاول اليوم تقليد سـعاده وإيجاد شروط للأهلية لتضيفها إلى الانتخاب بالأكثرية، ولنا من التجربة الإيرانيـة الحالية (مجلس صيانة الدسـتور) مثال واضح على ذلك. لكن سـعاده كان قد سـبق الإيرانيين خمسـين سـنة عندما وضع «شرط الأهلية» والحصول على رتبة الأمانة قبل الترشح إلى انتخابات المجلس الأعلى.

يبقى أن نحسـن قراءة قول سـعاده التالي في كتابه العلمي «نشوء الأمم»: «**إن العقل السوري لم يكن يميل إلى تخيلات فاسدة من الوجهة العملية. ولذلك فهو قد اكتفى من التجربة الإغريقية للحكم الشـعبي، بواسـطة الشعب أجمع، بالمشـاهدة. إنه خيال بديع في نظر غيري، وخيال سـخيف في رأيي، أن يكـون كل فرد من أفراد المدينة المعترف بهم شريـكاً فعلياً في إدارة الدولة. إن المدينة السـورية ظلت محافظة على الفرق بين السياسـة والاجتـماع واضحـاً. وهذا الفـرق هو ما مكّـن الدولة مـن اضطراد تقدمهـا**» (الفصل السادس- في الدولة التاريخية). إن سعاده يسخّف اشتراك الشعب كله في إدارة الدولة، وليس في الحق في اختيار الإدارة عن طريق الانتخاب. إن الاشـتراك في الإدارة هو غير الاشـتراك في اختيار الإدارة وحصول الإدارة على تأييد الشـعب عن طريق الانتخاب. إن إساءة قراءة سعاده في قوله السالف أدى بالبعض منّا لتأويله على غير حقيقته، والظن أن عامة الشـعب، كونها الاجتماع، لا يجب أن تنتخب رجال الإدارة، كونهم السياسـة. إن هذا التأويل هو غريب كلياً عن المعنى الحقيقي لقول سـعاده. فسعاده يرفض تدخل كل الأفراد في الإدارة نفسها ولا يرفض حق كل الأفراد في انتخاب رجال الإدارة.

خامساً: الحجة الأخيرة لرفض الانتخابات العامة، التي سنوردها هنا، هي حجة الوقوع في مبدأ الديموقراطية التمثيلية التي انقلب عليها سعاده وأوجد الديموقراطية التعبيرية بدلاً منها. هذه الحجة تسقط أيضاً عندما نعرف أن الانتخابات العامة لا تكون دائماً تمثيلية. لا يجوز المساواة بين الانتخابات وبين الديموقراطية التمثيلية. الانتخابات العامة يمكن أن تكون تمثيلية ويمكن ألا تكون.

الانتخابات تكون تمثيلية عندما يكون في المجتمع فئات مختلفة تتنازعها مصالح مختلفة، أي عندما لا يكون المجتمع شاعراً بوحدة مصالحه ووحدة حياته كما يفترض بالمجتمع القومي- الحزب أن يكون. الانتخابات التمثيلية هي أن تنتخب كل فئة من سيمثلونها ويمثلون مصالحها، وتكون السلطة حينذاك هي أيضاً مؤلفة من كتل مختلفة ومتنافسة كل كتلة تمثل مصالح الذين انتخبوها. تكون السلطة وانقساماتها نسخة عن المجتمع وانقساماته، تكون مثله وعلى صورته ومثاله، وتكون بالتالي عاجزة عن التعبير عن أية إرادة عامة لأية مصلحة عامة.

أما في المجتمع القومي- الحزب فلا يوجد مصالح مختلفة وانقسامات فئوية على أساس هذه المصالح المختلفة، بل يوجد مجتمع موحد متضامن خلف مصلحة واحدة موحدة هي مصلحة تحقيق مبادئ الحزب وغايته. وبالتالي فالانتخابات العامة في الحزب لن تكون انتخابات تمثيلية بل تكون انتخابات ديموقراطية تعبيرية تأتي برجال سلطة أمناء مؤهلين للتعبير عن الإرادة العامة الواحدة للقوميين الاجتماعيين، أي مؤهلين لتحقيق وتنفيذ هذه الإرادة الواحدة وتأمين المصلحة الواحدة التي كانت وراءها.

إن لسعاده كلاماً واضحاً وصريحاً حول شروط الانتخابات، يمكن قراءتها في مقالته «تشبيه» كتبها بتاريخ 24-10-37، يقول: «**التصويت الموقوت هو أحد الحقوق الأساسية التي يمارس الشعب بواسطتها سيادته في الدولة البرلمانية الانتخابية. وهذا الحق هو في الحقيقة تكميلي لحق طويل عريض يبدأ في الحريات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الحر المتضامن. وبدون هذه الحريات الأساسية يكون التصويت تشبيهاً لممارسة السيادة. وإن من ضروريات ممارسة السيادة بواسطة التصويت الشعبي العام أن يكون المجتمع حاصلاً على تربية قومية صحيحة توجه الفرد نحو النظر في مصلحة المجموع دائماً...**». إن التصويت الشعبي العام في الحزب هو إذاً أحد الحقوق الأساسية

للأعضاء، لأنهم في الحزب هم «مجتمع حر متضامن، وهم حاصلون على تربية قومية صحيحة توجههم نحو مصلحة المجموع دائماً».

في أصحاب السلطة، أي في المؤهلين لاستلام السلطة (من يُنتخَب). الأمناء هم المؤهلون لممارسة السلطة وليس ليكونوا مصدرها. إن الغاية من وضع المرسوم عدد 7، وهو آخر مراسيم سعاده الدستورية، الخاص بمنح رتبة الأمانة لمستحقيها، هي غاية لا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بمسألة مصدر السلطات. إن عدم فهم الغاية الحقيقية من تكوين جسم الأمناء قد أدى إلى تجميد الرتبة حيناً وإلغائها حيناً آخر والتساهل المفرط في شروط منحها أغلب الأحيان. إن الغاية الحقيقية من وجود أمناء على الشروط الصارمة المنصوص عليها في الدستور قد أوضحها سعاده وكتبها في المادة الخامسة من مرسوم إنشاء الرتبة وهي: «...وينتدبون للأعمال التي تقتضي صفات ممتازة». هي غاية تكوين جسم ذي صفات ممتازة مؤهل للعمل في قيادة الحزب- الدولة، فنظام الحزب هو نظام مركزي تسلسلي حسب الرتب والوظائف. إن وجود أمناء هو ضروري لتكوين جهاز قيادي يستطيع تنفيذ وتحقيق إرادة جميع القوميين العامة التي هي تحديداً تحقيق وتنفيذ مبادئه وتحقيق غايته، وهذا هو بالضبط ما نعنيه «بالتعبير عن الإرادة العامة». بوجود الأمناء في قيادة الحزب المركزية العليا تتأمن الصفة التعبيرية في ديموقراطية سعاده الجديدة التي سمّاها «الديموقراطية التعبيرية» وقال عنها «إنها انقلاب جديد تجيء به الفلسفة القومية الاجتماعية» (خطاب سانتياغو 1940). إن الأمناء وُجدوا ليس لحصر حق الانتخاب بهم بل لحصر حق تولي السلطة العليا بهم. ليس لينتخِبوا وحدهم بل ليُنتخَبوا وحدهم، أي ليتم انتخاب السلطة منهم وحدهم، لأنهم وحدهم مؤهلون وقادرون على التعبير عن الإرادة العامة، أي تنفيذها وتحقيقها، بما يحملونه من صفات ممتازة لا يحملها غيرهم.

في الديموقراطيات التمثيلية التي انتقدها سعاده وانقلب عليها، هناك شرط وحيد لتولي السلطة هو شرط انتخابها بالأكثرية، ولا يوجد في الديموقراطية التمثيلية شرط آخر غير شرط الانتخاب بالأكثرية. أما في الديموقراطية التعبيرية الجديدة التي جاء بها سعاده فيوجد شرطان لا شرط واحد. الشرط الأول هو شرط الانتخاب بالأكثرية كما في كل الديموقراطيات، أي أن تكون القيادة التي ستتولى السلطة مقبولة من أكثرية

الشعب وحائزة على ثقته وتأييده، مما يؤمن الصفة الديموقراطية. أما الشرط الثاني فهو أن يكون القائد صاحب السلطة مؤهلاً لتولي هذه السلطة، أي يمتلك المؤهلات التي تمكنه من ممارسة السلطة، وهذا بالضبط ما يؤمن الصفة التعبيرية. فالتعبير هنا يعني الإنجاز والفعل والتحقيق والقدرة عليه ولا يعني الإنابة عن الغير في التعبير عن رأي الغير. التعبير في الديموقراطية التعبيرية هو التعبير عن الإرادة وليس التعبير عن الرأي، والتعبير عن الإرادة يعني تنفيذها وتحقيقها وتأمين المصلحة التي وراءها، فالإرادة هي بنت المصلحة ولا إرادة دون مصلحة. أما الرأي والتعبير عن الرأي فهو شيء مختلف. «**إن الإرادة الواحدة الدائمة لا تكون إلا وليدة المصلحة الواحدة الدائمة**» (خطاب أول آذار-الأعمال الكاملة 3 ص 182).

والتعبير عن الإرادة، أي تحقيقها، هو شيء صعب يتطلب مؤهلات وإمكانات وصفات ممتازة، وهو يختلف كثيراً عن مجرد التعبير عن الرأي الذي هو بمتناول الجميع وباستطاعة الجميع. إن تمثيل الإرادة العامة لا يتضمن تحقيقها وتحقيق المصالح التي كانت وراءها، التمثيل شيء ساكن غير فاعل. أما التعبير عن الإرادة العامة فهو فعل وتحقيق وإنجاز. لذلك يقول سعاده «بالتعبير عن الإرادة العامة بدلاً من تمثيل الإرادة العامة» (خطاب سانتياغو سنة 1940) ويقول إن «التمثيل أهون من التعبير، التعبير يهدف إلى إنشاء شيء جديد أما التمثيل فيتعلق بما قد حصل» (نفس المصدر).

إن أصحاب السلطة حسب نظرة سعاده ونظامه يجب أن يكونوا من المؤهلين المتمتعين بصفات ممتازة وقدرات ومزايا تجعلهم صالحين لتولي السلطة، وليس فقط أن يتم انتخابهم ديموقراطياً وينالوا أكثرية أصوات الناخبين. يجب أن يتوفر فيهم الشرطان الاثنان وليس فقط الشرط الواحد. إن «شرط الأهلية» (العبارة هي لهنري حاماتي من سلسلته «أفكار- تجربة ناقصة») معمول به على صعيد المصالح الاجتماعية كلها في العالم كله، فأنت لا يمكنك أن تكون قائداً للسيارة إذا لم تكن أهلاً للقيادة وحاملاً رخصة قيادة، ولا يمكنك أن تبني بيتاً، ولا يسمح لك، إذا لم تكن مهندساً معمارياً مرخصاً، ولا يمكنك أن تكون رئيساً للجامعة إذا لم تكن دكتوراً ومجازاً، ولا يمكنك أن تكون قائداً للجيش إذا لم تكن جنرالاً، ولا يمكنك أن تكون رئيساً للمحكمة إذا لم تكن قاضياً..

الخ. (حاماتي- نفس المصدر). إن سعاده قد رأى وجوب العمل بشرط الأهلية أيضاً في الدولة وليس فقط في المجتمع، وقال إنه لا يمكنك أن تكون رجل دولة وتمارس السلطة إذا لم تكن مؤهلاً وعندك الإمكانية والكفاءة لذلك، وليس فقط أن تنال أكثرية أصوات الناخبين، فوضع المرسوم الدستوري عدد 7 الخاص بشروط الأهلية للعمل في قيادة الحزب- الدولة، وقال لعبدالله سعاده: «لا يحق لك أن تكون عضواً في المجلس الأعلى لأنك لست أميناً فكيف صرت رئيسه» (أوراق قومية). فكان في نص المرسوم: «ينتدب الأمناء للأعمال التي تتطلب صفات ممتازة».

الانتخاب هو تعبير عن رأي وليس تعبيراً عن إرادة

لقد أصاب الأمناء الذين وضعوا المرسوم الثامن سنة 1951 عندما قالوا بانتخاب المجلس الأعلى من بين الأمناء، لكنهم أخطؤوا عندما حصروا حق الانتخاب بالأمناء وحجبوه عن سائر القوميين الاجتماعيين فحرموهم بذلك من حقهم المقدس والبدهي في أن يكونوا مصدراً للسلطات. لم يكن الأمناء سنة 1951 يفهمون معنى الديموقراطية التعبيرية، لم يفهموا الصفة التعبيرية وما تعنيه. قالوا إن الأمناء إنما يعبرون عن إرادة القوميين عندما ينتخبون نيابة عنهم. لكن ما قالوه هو خطأ كبير، وهذا الخطأ يكمن في أن عملية الانتخاب هي عملية تعبير عن رأي وليست عملية تعبير عن إرادة، فلا يحق لأحد أن يعبر عن رأي غيره فكل فرد يمكنه أن يعبر عن رأيه وهذا حقه المقدس المنصوص عليه في الدستور في مادته الثامنة. فالأمناء لا يحق لهم التعبير عن رأي غيرهم من القوميين، لا يجوز لهم ذلك. الأمناء لا يحق لهم الانتخاب عن الأعضاء، بالنيابة عن الأعضاء، ولا يجوز لهم ذلك. الأمناء وُجدوا ليس للتعبير عن رأي الأعضاء في من يفضل الأعضاء أن يكون رئيسهم، بل وجدوا للتعبير عن الإرادة العامة للأعضاء، وإرادة الأعضاء العامة هي تحقيق غاية الحزب، وليست إرادة القوميين العامة هي مجموع الآراء المتعددة المختلفة للأعضاء حول من يفضلون أن يتولى سلطاتهم التشريعية والتنفيذية. وقد شرحنا كيف أن الإرادة هي غير الرأي، الإرادة هي لتحقيق مصلحة أما الرأي فلا. (نشوءالأمم- الفصل السابع). أنت عندما تنتخب فلاناً تنتخبه ليس لأن لك مصلحة في انتخابه، فانتخابك إياه إذاً ليس تعبيراً عن إرادة وراءها مصلحة بل هو تعبير عن رأي، وليس لأحد أن يعبر عن رأيك بالنيابة عنك. (هذا الموضوع

هو موضوع دراسة معمقة في معنى الديموقراطية التعبيرية نشرت في مجلة الفينيق الإلكترونية- العدد التاسع).

الخطأ الأفدح: كيف منحوا رتبة الأمانة

لنختتم هذه الفقرة نقول إن من تولوا إكمال دستور سعاده سنة 1951 لم يكونوا فاهمين دستوره والقواعد التي بني عليها، لم يكونوا مدركين أبعاد فلسفة سعاده الدستورية. أنهم استعملوا الأمناء كهيئة انتخابية أكثر من كونهم أصحاب مؤهلات لتولي السلطة في الحزب- الدولة. وليس ذلك فحسب، إنهم كمجلس أعلى قد احتكروا صلاحية تسمية الأمناء الجدد وصاروا ينتخبون المرشحين لنيل الرتبة انتخاباً بأكثرية الثلثين في المجلس. إن الرتبة هي شهادة بمؤهلات حاملها ولا يجوز إطلاقاً أن تعطى له بالانتخاب بل بالامتحان، مثل كل الشهادات. فضلاً عن ذلك فإن جعل المجلس الأعلى نفسه صاحب صلاحية منح الرتبة هو مهزلة ما بعدها مهزلة. تصوروا أن السلطة التشريعية هي نفسها تنتخب من سينتخبها! هذه ليست ديموقراطية سعاده بل هذه فضيحة كاملة. لو أن هيئة حزبية مستقلة عن السلطة التشريعية قد تولت انتخاب المرشحين لنيل الرتبة لكنا أمام نصف مصيبة، أما أن تتولى السلطة التشريعية نفسها تسمية من سينتخبها فالمصيبة تصبح كاملة.

نقول نصف مصيبة لأن مبدأ انتخاب المرشحين ليصبحوا أمناء هو مبدأ فاسد لا يتفق مع معنى رتبة الأمانة ودورها ووظيفتها أكان من يتولى انتخاب المرشحين هيئة حزبية مستقلة عن السلطة أم السلطة نفسها. إن شرط الأهلية لا يتأمن عن طريق الانتخاب بل عن طريق الامتحان، عن طريق إثبات الأهلية إثباتاً بالاستحقاق بعد النجاح في الامتحان. إن استحقاق الرتب والمؤهلات لا يجوز أن تقرره سلطات سياسية بل مؤسسات مهنية مختصة، ليس انتخاباً بل نجاحاً في اختبار وامتحان. (حاماتي- نفس المصدر). تصوروا أن أحدهم صار دكتوراً أو قبطاناً أو قاضياً عن طريق انتخابه لهذه الدرجة العلمية بأكثرية ثلثي أعضاء المجلس النيابي! فكيف يصح أن يصير غيره أميناً في الحزب عن طريق انتخابه لهذه الرتبة بأكثرية ثلثي أعضاء المجلس الأعلى؟ لذلك قلنا إن جعل المجلس الأعلى نفسَه صاحب صلاحية منح رتبة الأمانة كان مصيبة كاملة. وإن ما لا يزال يجري الآن من عملية منح وتعيين وتسمية أمناء هو سلسلة مصائب

مستمرة ومتكررة. (إن الطريقة العملية الصحيحة لاستحقاق رتبة الأمانة ونيلها هي مشروحة في الدراسة التي نوهنا عنها في مجلة الفينيق الالكترونية العدد التاسع).

إن إقدام المجلس الأعلى سنة 54 على انتخاب 31 أميناً جديداً ما كان إلا تسوية بين متصارعين على السلطة، وكأن السلطة كانت مغنماً شخصياً ومنفعة شخصية، ولم يكن بهدف رفد قيادة الحزب بإمكانات جديدة ومؤهلات ومؤهلين مناضلين جدد كما يفترض برتبة الأمانة أن تكون. إن تسوية سنة 54 لم تحقق للمتصارعين على السلطة- المغنم أهدافهم ومآربهم ومنافعهم فعمدوا إلى إجراء عملية تسوية أخرى سنة 56 أسوأ من الأولى فأقدموا على انتخاب مجموعة أمناء آخرين. وعندما لم تحقق هذه التسوية الثانية للمتصارعين على السلطة- المغنم وتحقق لهم أهدافهم ومآربهم ومنافعهم شقوا الحزب وتقاسموه وقتلوا بذلك سعاده من جديد. إذا صح أن سعاده قد قال «أنا أموت أما حزبي فباقٍ»، يكون شقُ الحزب وتقاسمه سنة 57 هو قتل جديد لسعاده وخيانة لآخر ما فكر به وقاله وأوصى فيه.

من هو الصادق؟

لقد قلنا (خمس صفحات قبل هذه) إن عبد المسيح وجميل صوايا كانا سنة 1934 معارضين لسلطة الزعيم المطلقة، وقلنا إن هذه الواقعة رواها عبدالله قبرصي في مذكراته (ج 1 ص 49) كما ذكرها جان داية في كتابه (محاكمة سعاده ص 120). وهنا نضيف إن جبران جريج أيضاً أثبتها في كتاب من الجعبة (ص 144) واستشهد بما رواه فكتور أسعد في جريدة البناء بمناسبة الأول من آذار 1959، وفكتور حضر الواقعة واشترك فيها، كما استشهد جبران بما كتبه عبد المسيح نفسه «في إحدى رسائله» (هكذا يقول جبران دون أن يحدد أي رسالة وأي تاريخ) حيث يقول العم حرفياً: «بعد مناقشة دقيقة ومستفيضة صوتت الأكثرية إلى جانب النص. وهذا ما جعل بضعة منّا، ثلاثة من الاثني عشر، يقدمون استقالتهم الفورية من عضوية اللجنة التأسيسية». (الثلاثة هم عبد المسيح وجميل صوايا ورفيق مروش).

أما فؤاد حداد فيقول في رسالة إلى جبران تاريخ 5 تشرين أول 69 ما يلي: «إنني أذكر تلك الجلسة عندما عارض جورج عبد المسيح إحدى المواد في الدستور التي تعطي

الصلاحية المطلقة «للقائد العام» (هكذا كانوا يسمونه قبل إبرام الدستور) وأيضاً لقب الزعيم، وقد جادل زعيمنا المحبوب من أجل ذلك وأراد الانسحاب، وقد تهيجت جداً لِما حصل ووقفت أمام الباب ومنعته من الخروج وقلت: لن يخرج أحد من هنا إلا ونحن متفقون على كل شيء. وقد تدخل الزعيم بعد ذلك وتكلم فينا وكانت عباراته وكلماته تهز أوتار قلوبنا. وقد خرجنا من ذلك الاجتماع متفقين» (من الجعبة ص 144).

لنرى الآن ماذا يقول عبد المسيح عن هذه الواقعة. الرسالة التي ذكرها جبران وقال إن العم كتبها وقال فيها إن ثلاثة من أصل اثني عشر عارضوا سلطة الزعيم المطلقة واستقالوا من عضوية اللجنة التأسيسية، هي رسالة مجهولة التاريخ ومجهولة المرسل إليه ومجهولة المضمون الكامل، ولا يمكن الاعتماد عليها كشهادة من فم عبد المسيح نفسه.

ولكننا وقعنا على نص لعبد المسيح في كتاب «من وحي النهضة» يقول فيه أن كون سعاده زعيماً للحزب مدى حياته وصاحب السلطتين التشريعية والتنفيذية، كان اقتراحاً من أحد الرفقاء الأوائل، لم يذكر من هو، لكن مقدمة الاقتراح كما كتبها العم توحي بأن العم نفسه هو من قدم هذا الاقتراح، لأن هذه المقدمة هي نموذج عن أسلوب عبد المسيح في الكتابة وتحمل تعابيره المشهور بها. يقول: «في فوضى المفاهيم وفوضى الألفاظ ومدلولاتها انتشرت في اللغة العربية لفظة «زعيم» حتى أفرِغت نهائياً من محتواها الأصلي ومدلولها اللغوي. وما دامت النهضة تعني الوضوح وما دام المعلم سعاده قد حرص على تحديد الألفاظ بمدلولاتها في التحدي القدري للفوضى المتفشية في كل شيء في شعبنا، فإن من الضروري إملاء الألفاظ بمحتواها الأصلي. هذا ما قدم به أحد المقبلين على الدعوة لاقتراحه بأن يكون سعاده زعيماً للحزب مدى حياته، يلقي إليه المقبلون على دعوته السلطة التامة في التشريع وفي مهام التنفيذ» (من وحي النهضة ص 212).

أما نحن اليوم فنقف حائرين لا نعرف أين هي الرواية الصحيحة، فهل عبدالله قبرصي وفكتور أسعد وفؤاد حداد وجبران جريج هم جميعهم كذابون يقابلهم الصادق الوحيد جورج عبد المسيح؟ أم ماذا؟

هناك شهادة أخرى لجميل صوايا كتبها بعد طرده من الحزب وبعد اشتراكه في

تأسيس حزب كمال جنبلاط، فبناء على طلب جنبلاط كتب صوايا مقالة امتدت على سبع صفحات تحت عنوان «نشأة الحزب القومي السوري» ونُشرت في كتاب جنبلاط «أضواء على حقيقة القضية القومية الاجتماعية السورية». في مقالته يقول صوايا: «... فكان الأستاذ سعاده يفكر بأن يكون للحزب مجلس، ثلثا أعضائه دائمون أما الثلث الأخير فينتخب أعضاؤه انتخاباً، ولكن الأستاذ جورج عبد المسيح لم يرق له هذا النوع من الإدارة وأصرّ أن تكون لها الصيغة الدكتاتورية. وكان أن اجتمعنا سعاده وعبد المسيح وأنا في غرفة بمنزل السيد فؤاد خوري بشارع جان دارك برأس بيروت، وقام عبد المسيح وأقفل الباب قائلاً لن يخرج أحدنا من هنا قبل أن نتفق على الصيغة النهائية. وفي الحقيقة لم نخرج من الغرفة إلا وقد فازت فكرة جورج عبد المسيح وقررنا أن تكون إدارة الحزب دكتاتورية استشارية...»

واضح جداً أن رواية صوايا ليس لها أي مقدار من المصداقية لأسباب عديدة لا تخفى على المبتدئين في فهم قضية الحزب. كما أن مقالة صوايا الممتدة على سبع صفحات مليئة بالأخطاء من كل نوع.

تسوية 1954

نعود إلى مجرى الأحداث سنة 1954. إن ما حدث في الحزب تلك السنة من صراع داخلي على السلطة يعطينا صورة جلية عن أساليب المناورات والعنعنات والعبث بالحزب وقيادته وأعضائه من قبل من يفترض فيهم أن يكونوا أمناء على الحزب ووحدة قيادته واستقراره الإداري وسلامة معنويات أعضائه. والأبشع من هذا الصراع هو التسوية التي اعتمدوها لحلّه. لقد استقال العم من رئاسة الحزب في مناورة لإحراج المجلس الأعلى ظناً منه أن هذا المجلس لن يستطيع انتخاب غيره، فيستسلم له ويوافق على منحه صلاحيات استثنائية تطلق يده وتعطيه حرية أكبر في التصرف (سليم سعدو سالم. حان الوقت ص 100). وهذا كان من المستحيل أن يوافق المجلس عليه وهو الذي كان يشكو من «تسلط» عبد المسيح وتفرده، فكيف يشرعن هذا التسلط وهذا التفرد. وتجدر الملاحظة هنا أن عبد المسيح لم يذكر أبداً مسألة طلبه صلاحيات استثنائية في أي من رواياته ومذكراته. المجلس الأعلى سارع وقبل استقالة العم و»استطاع» أن ينتخب عصام المحايري رئيساً، مما حول الإحراج صوب عبد المسيح، فعمد هذا

الأخير لقلب الطاولة وخربطة انتخاب المحايري واعتبار قبول المجلس لاستقالة العم لم يتم بطريقة صحيحة وبالتالي هو لا يزال رئيساً وليس المحايري! والغريب العجيب في أمر عبد المسيح أنه فيما كان داخل المجلس الأعلى يعتبر نفسه رئيساً لأن استقالته لم تقبل بشكل سليم، كان خارج المجلس يظهر للرفقاء خلاف ذلك ويؤكد لهم أن عصام هو الرئيس ويقول لهم: «إن عصاماً هو الرئيس ولو أمرني أن أركع على إسفلت الشارع لما عصيت ولما سجلت بادرة عدم امتثال» (إلى منير ص 86). إن تفاصيل ما حدث وتفاصيل حجج العم لن نخوض فيها لأن فيها متاهات تضجر وتمل، وهي موجودة لمن يريد الاطلاع عليها في «رسالة إلى منير حيدر على مدى عشر صفحات (83 حتى 93)، نكتفي فقط بما قالته الأمينة الأولى لعبد المسيح: «إذا كنت مصراً أن تبقى أنت رئيساً فلماذا استقلت؟!» (مذكرات الأمينة الأولى ص 230). إن موضوع صلاحيات الرئيس ومسألة طلب عبد المسيح صلاحيات تطلق يده من قيود المجلس الأعلى لم تنشأ سنة 54 بل قبلها. لقد نشأت قبيل انتخابه رئيساً للمرة الأولى حوالي سنة 51. يروي عبد الله سعاده في مذكراته (أوراق قومية ص47) ويقول: «في جلسة من جلساتنا وكان عبد المسيح قد طرح موضوع صلاحيات الرئيس، وفي نيته أن تكون صلاحيات رئيس السلطة التنفيذية قريبة من سلطة الزعامة. وكان قد حذّرني بعض الأمناء من هذا الاتجاه عند عبد المسيح، وطلبوا إلي أن أبذل جهدي لمنع ذلك، وبالفعل كنت مقتنعاً برأيهم. وفي جلسة معينة توليت أنا الرد على عبد المسيح الذي كان ينفعل ويصعد انفعاله حتى وصلنا إلى حد إمكانية المجابهة الجسدية والاشتباك. ولكن الحضور حالوا دون ذلك وخصوصاً الأمينة الأولى. وتوقفت الجلسة ودخل عبد المسيح إلى مكتبه واستدعاني إليه، وحين دخلت وقف معاتباً وقال: أنا لا أدافع عن صلاحياتي إنما عن صلاحياتك أنت، لأنك أنت الرئيس الآتي بعدي وأريد أن أحميك وأخلصك مما أعاني منه من تدخل وتطفل هؤلاء الهواة في المجلس الأعلى. فقلت له بألم: أتقصد أنك ترشيني...».
إن رواية عبد الله سعاده هذه لا يمكننا اعتبارها مستنداً يمكن البناء عليه رغم ما يتمتع به قائلها من مصداقية وفروسية وصراحة اشتهر فيها، فهذه الرواية رواها في وقت كان فيه الصراع محتدماً جداً والخصومات متفاقمة ولا يمكن الركون لروايات ومبالغات المتصارعين والمتخاصمين. لكن المهم فيها هو أن عبد المسيح كان يسعى للحصول على صلاحيات أكثر مما هو لرئيس الحزب دستورياً.

بقي المحايري رئيساً أسبوعين فقط، حيث عاد عبد المسيح رئيساً للحزب في تسوية كانت أبشع من التسويات التي يعقدها الطائفيون بين بعضهم لاقتسام السلطة في لبنان. حتى إن مفاوضات هذه التسوية قد شهدت ما يضحك ويبكي ويخجل في نفس الوقت، فعندما قبِل المجلس بأن يعتبر استقالة العم لم تقبل بشكل صحيح وقبِل أيضاً بأن يعيد التصويت عليها، رفض العم ذلك واقترح بديلاً هو إقالته وليس قبول استقالته. لماذا؟ العم يقول لنا لماذا. يقول: «فلا يكون تخلى عن واجبه مختاراً» (إلى منير صفحة 87). لكن هذا السبب لا يمكن قبوله لأن العم كان قد استقال بالفعل وتخلى عن واجبه بالفعل. إن السبب الحقيقي لطلبه إقالته كان لأن الإقالة ضرورية ومطلوبة لاكتمال هبوب الرفقاء وعصيانهم المسلح وتجمعهم خارج اجتماع المجلس الأعلى وهم لا عذر لهم بالاعتراض والضغط لعودة العم لرئاسة الحزب طالما هو قد استقال طوعياً. إن مسألة العصيان المسلح بتحريض من عبد المسيح للضغط على المجلس الأعلى تكلم عنها بتفصيل ناظر تدريب منفذية دمشق آنذاك الرفيق سالم سعدو سالم في كتابه «حان الوقت» صفحة 107.

التسوية كانت، وباختصار شديد، أن يبقي المجلس الأعلى كل شيء على حاله وأن يقرر تعيين مجموعة جديدة من الأمناء بالانتخاب في جلسة واحدة يعقدها مع الأمناء القدماء ثم يجتمع الجميع وينتخبون مجلساً أعلى جديداً ثم ينتخب هذا بدوره رئيساً شرعياً جديداً. وهنا لا بد أن نعيد التنويه بأن اعتبار الأمناء هم الهيئة الناخبة حسب المرسوم الثامن الذي صدر سنة 1951، أي إن الأمناء هم مصدر السلطة في الحزب، هو اعتبار مخالف مخالفة صارخة لدستور سعاده ولمبدأ الديموقراطية التي قال بها سعاده، فسعاده يقول إن الديموقراطية تعني أن الشعب كله هو مصدر السلطة وليس نخبة منه. فالنخبة، حسب سعاده، أي الأمناء، هي رجال السلطة وليس مصدرها، والفرق كبير جداً. ثم أن انتخاب الأمناء انتخاباً هو أيضاً يعبر عن عدم فهم لمعنى الرتب ودورها وكيفية اكتسابها، فالسلطة التشريعية، أي المجلس الأعلى، لا يجوز لها هي أن تنتخب من سينتخبها. هذه فضيحة لا ترتكبها إلا الدول الاستبدادية التي تدعي الديموقراطية بالشكل وتخالفها بالأساس، فكيف بحزب سعاده أن يرتكب هذه الفضيحة وهو الذي في نظرته الجديدة إلى الحياة أراد أن «ينقذ الديموقراطية من الهلاك»؟!

فضيحة التصويت على منح رتبة الأمانة

لقد اعتبر كل من طرفي الصراع على السلطة بأن هذه التسوية هي لصالحه، وكان حريصاً أن يظهر متجرداً نزيهاً في عملية التصويت لمنح الرتبة للمرشحين لها فلا يثير غضب أحد ولا يبدو منحازاً لأحد ضد أحد آخر. لذلك تم التساهل كثيراً في الشروط الدستورية الصارمة، كي لا يغضب أحد وكأن الرتبة هي دعوة لعشاء فلماذا تدعو هذا ولا تدعوني أنا. فعبد المسيح مثلاً يخبرنا أنه لم يصوت ضد أو مع أحد (إلى منير حيدر ص 89) وقد وافق على عملية الانتخاب والمنح لكل رفيق بحجة غريبة عجيبة لا علاقة لها بالشروط الدستورية الصارمة الواردة في مرسوم سعاده الدستوري عدد 7. حجة عبد المسيح هي: «الثقة بأن أصوات منحه رتبة الأمانة تجعل منه أميناً فعلاً فيجتهد في ذلك» (نفس الصفحة) وفي هذا التصرف من العم ما يدل على أن الهدف من هذه العملية كان النجاح في الصراع على السلطة والحرص على اكتساب أصوات الأمناء الجدد عندما يحين التصويت على رئاسة الحزب، ولم يكن الحرص على إيجاد أمناء حقيقيين يتمتعون فعلاً بالشروط الدستورية الصارمة لرتبة الأمانة. لو أن حرص العم كان على الحزب ونظامه والإتيان بأمناء فعليين حقيقيين لعَمَد إلى التصويت مع أو ضد لكي يأتي أمناء فعليون حقيقيون لا مجرد مصوتين في انتخابات رئاسة الحزب.

كيف عاد عبد المسيح رئيساً؟

التصويت على الأمناء الجدد تم في تشرين الأول 54 وكان نتيجته 31 أميناً جديداً، أي 31 صوتاً جديداً في انتخابات المجلس الأعلى الذي سينعقد قريباً لانتخاب رئيس الحزب، تضاف إلى 21 صوتاً قديماً فيكون عدد الأمناء قد أصبح 52 أميناً- صوتاً انتخابياً.

حسب الاتفاق- التسوية استقال المجلس الأعلى واستقال الرئيس المحايري واجتمع الأمناء بتاريخ 30 تشرين الثاني سنة 1954 لينتخبوا مجلس أعلى جديداً، فحضر 44 من أصل 52 وانتخبوا 15 عضواً شكلوا المجلس الأعلى الجديد، وهم حسب ترتيب الأصوات التي نالوها: مصطفى أرشيد، عصام المحايري، جورج عبد المسيح، أسد الأشقر، جورج صليبي، الأمينة الأولى، محمد يوسف حمود، إسكندر شاوي، كامل أبو كامل، فاضل كنج،

حسن الطويل، إبراهيم يمّوت، فؤاد شواف، نوري الخالدي، مصطفى عبد الساتر. ولم يفز سامي خوري وعبدالله قبرصي وإنعام رعد. (الحصاد المر ص 277).

الضغط المسلح لانتخاب العم رئيساً

بعد انتخاب المجلس الأعلى جاء دور انتخاب رئيس الحزب. عمل كل من عبد المسيح وخصومه حساباتهم فتبين أن لا ضمانة ولا حسم في نتيجة انتخاب الرئيس من قبل هذا المجلس الجديد، فصار طرفا الصراع على السلطة يفكران «بالوسائل الأخرى» التي تمكنهم من الوصول إليها. وهنا صار لغط كبير واتهام لعبد المسيح بأنه لجأ إلى القوة المسلحة وضغط على الأمناء وعلى أعضاء المجلس الأعلى وأجبرهم تحت الضغط المسلح على انتخابه هو رئيساً جديداً للحزب. وبقي هذا اللغط والاتهام دون إثبات إلى أن صدر سنة 2017 كتاب الأمين سالم سعدو سالم «حان الوقت- سليم سعدو سالم يعرف ويعترف» وفيه تفاصيل الضغط المسلح الذي قاده كناظر تدريب منفذية دمشق بتحريض من عبد المسيح وتكليف من إسكندر شاوي. حتى إن سالم يروي كيف لقنه العم ماذا يجب أن يقول ويكذب في حال تم التحقيق معه. يمكن الاطلاع على هذه التفاصيل في كتاب «حان الوقت» صفحة 111. تجدر الملاحظة هنا أن العم في رسالته إلى منير حيدر يقول إن الصف الحزبي والمنفذين تنادوا وتجمعوا في القاعة خارج اجتماع المجلس. وفي كتاب مراحل الانتفاضة- عودة الحقائق- يقول إن الصف رأى اللعبة. بينما سليم سعدو سالم يؤكد أنه لم يكن في القاعة إلا ستة رفقاء بقيادته للضغط المسلح بتكليف مباشر من إسكندر شاوي.

تكرار الضغط المسلح بعد أربعين سنة

طالما نحن نتكلم عن الضغط المسلح، ولأن الشيء بالشيء يذكر، سأروي هذه الواقعة كما نقلها لي شخصياً أحد أعضاء المحكمة الحزبية أربعين سنة تقريباً بعد الضغط المسلح الأول سنة 1954. لا يذكر الراوي التاريخ بالضبط ولكن الحدث الذي رواه جرى في أواسط تسعينيات القرن الماضي. كان مركز الحزب في رأس بيروت منطقة الجان دارك. كانوا أربعة أمناء، رئيس المحكمة الياس جرجي وأعضاء المحكمة ميشال الحاج وعادل شجاع وممثل الحق القومي أحمد الهاشم.

كانوا مجتمعين في مركز الحزب كمحكمة، وكان اجتماعهم قريباً من اجتماع آخر للجنة منح رتبة الأمانة في نفس الطابق، حين سمعوا ضجيجاً وجلبة ثم صراخاً وخرطشة سلاح خارج غرفة المحكمة، ما يدل أن عراكاً أو تحركاً عنيفاً يحدث هناك. خرج الأمينان أحمد الهاشم وميشال الحاج لاستجلاء الأمر فوجدا مجموعة من الرفقاء المسلحين يهددون بأنهم لن يقبلوا إلا أن يصدر قرار عن لجنة منح رتبة الأمانة بمنح الرفيق أسعد حردان الرتبة... فكان لهم ما أرادوا.

ألاعيب ومناورات

نعود إلى سنة 1954. يروي عبد المسيح هذه المناورة الطريفة وهذا الاتفاق الجنتلمان الذي عقده مع عصام المحايري وهما المرشحان الاثنان الوحيدان للرئاسة آنذاك: «وكان قد تم الاتفاق بأن يصوت عبد المسيح لعصام المحايري ويصوت عصام لنفسه. فإذا نال عصام الأصوات اللازمة يصبح رئيساً ويعلن انتقاء عبد المسيح للعمدة فيقبل عبد المسيح ويخرج من عضوية المجلس الأعلى للعمل مع الرئيس عصام. ومع أن صوتينا ذهبا لعصام جاءت النتيجة على غير ما كان يرغب عبدالله قبرصي وإنعام رعد. نال عبد المسيح الأكثرية المطلوبة في الدورة الأولى وأعلن القبول لمدة أقصاها تسعة أشهر وطلب أن يعاونه عصام في عمدة الإذاعة.» (إلى منير ص 90). قلنا إن هذه مناورة طريفة، فهل يترشح إنسان ويصوت لسواه؟! هل كان العم يريد أن يرضي عصام لأنه انتزع الرئاسة منه انتزاعاً؟ ولماذا ترشح عبد المسيح إذا كان يريد لعصام أن يكون رئيساً ويصوت له؟ وكيف يقول عبد المسيح إن عصاماً قد تهيب مسؤولية الرئاسة التي «لا طاقة له بمواجهتها» وإنه في المرة الأولى عندما كان رئيساً لأسبوعين فقط قد تعثر وتأزمت معه الأمور ولم يتمكن من تعيين مجلس عمد يتعاون معه فعلياً» (إلى منير ص 88)، كيف يتوافق ترشُّح عصام مع قول عبد المسيح عن «رغبة عصام للخروج من تحت العبء الذي حملوه إياه في عملية مرحلية للتوافق مع آراء شارل مالك» (إلى منير ص 89) وإذا كان ذلك صحيحاً فكيف يترشح للرئاسة مرة أخرى بعد وقت قصير؟! إنها فعلاً ألاعيب ومناورات يشترك فيها الجميع ومنهم عبد المسيح، وهذه الألاعيب والمناورات تتعارض تعارضاً صارخاً مع العقلية الأخلاقية الجديدة التي بناها سعاده وبنى عليها نظامه القائم على الصراحة والوضوح والأهلية والتضامن

والثقة. «إن كل نظام يحتاج إلى الأخلاق بل إن الأخلاق هي في صميم كل نظام يريد أن يبقى» (سعاده).

إن هذه الألاعيب والمناورات والروايات على لسان العم لا تبرهن إطلاقاً على ممارسات رصينة ديموقراطية وسعي صادق لتحمل مسؤولية قيادية، بل تدل على نهج يحرص على إرضاء خواطر ورفع عتب وصفقات غير منطقية وغير جدية وغير رصينة. فكأن عبد المسيح يريد أن يقول لنا إنه لم يكن يريد أن يكون رئيساً وإنه صوت لعصام، لكنه رضخ رضوخاً لإرادة الذين انتخبوه «فقبل» الرئاسة لمدة أقصاها تسعة أشهر، وكأنها أعطيت له دون أن يترشح لها. إنها ألاعيب مفضوحة في سياق صراع غير شريف على السلطة. إننا نفهم ونقبل وجود صراع على السلطة بمعنى التنافس الشريف والسعي لإثبات الجدارة لتسلم السلطة، ولكننا في هذه الروايات نرى أنفسنا أمام أساليب خداع وأفخاخ ومقالب وتكاذب وركض وراء السلطة بواسطة هذه الأساليب المكروهة والمدانة.

خصوم عبد المسيح يتهمونه بأنه متمسك بالسلطة حتى ولو كان عن طريق تأليب الرفقاء وخلق أجواء ضغط لإجبار المجلس الأعلى على الرضوخ له. وهو في المقابل يصور نفسه الشريف النبيل الصادق الزاهد (يصوت لمنافسه ثم يقبل بالرئاسة لمدة تسعة أشهر) ويضع كل الشرور والسيئات على خصومه حتى الخيانة. فعصام حسب عبد المسيح لا يتعاون معه أحد إلا عبد المسيح، عصام يتعثر ولا طاقة له في مواجهة ما يعترضه... وعبدالله محسن يرفض التعاون مع العم لأن في حوزة هذا الأخير تحقيقات تدينه بما يقرب من الخيانة العظمى لتهاونه في أمر الإخبار عن خطة تسليم الزعيم، عبدالله قبرصي كذا وفلان كيت...الخ. لا يوجد غير العم من هو صالح وجدير وحريص على العقيدة وقادر على القيادة.

المهم أنه بعدما صار العم رئيساً، وعصام عميداً شغر مقعدان في المجلس الأعلى شغلهما عبدالله قبرصي وإنعام رعد لأن سامي الخوري، وقد نال أصواتاً أكثر منهما، كان ملحوظاً أنه سيصبح عميداً ولا يجوز الجمع بين عضوية المجلس الأعلى ومجلس العمد. ثم انتخب المجلس حسن الطويل رئيساً له وإنعام رعد ناموساً. وبعد فترة استقال حسن من رئاسة المجلس وبقي عضواً فيه، بسبب لوم وجهه إليه المجلس حول تصرفاته في

منفذية الشوف، وكان عادل حسن منفذاً، لكن نص قرار قبول استقالته كان «لأسباب صحية». وأنتخب عبدالله قبرصي رئيساً للمجلس.

إنجازات؟

لا بأس أن نتوسع هنا ونستطرد في ذكر أهم الأعمال التي تحققت بعد هذه التسوية التي من حسناتها الوحيدة أنها أمنت نوعاً من الاستقرار في السلطة وإن كان لم يدم طويلاً. ذلك لأن هذا التوسع له علاقة بالأزمات التي حدثت في سنة 55 ثم سنة 57. المجلس الأعلى من جهته أنجز قانون أصول المحاكمات وقانون مجلس الأمناء (حُلّ بعد الانتفاضة سنة 57). رئيس الحزب بدوره عين مجموعة كبيرة من العمد والمسؤولين المركزيين، وأصدر بيانه الشهير بعنوان «الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي» ودرس، ولم يحسم، ما عُرِف برسائل الشرابي التي هي كناية عن محاولة الأميركان لعقد صفقة مع الحزب... سنتطرق إليها بالتفصيل بعد قليل.

نذكر في هذا السياق أسماء الذين عيّنهم العم وتعاون معهم في المراكز والمسؤوليات التنفيذية، وجلّهم انقلبوا عليه بعد حين وهو صار يتناولهم واحداً واحداً بسِيَرهم الحزبية والشخصية معاً. لقد عيّن العم ليعاونه في السلطة التنفيذية الرفقاء والأمناء التالية أسماؤهم:

جورج عبد المسيح عميد مالية واقتصاد، سامي خوري عميد ثقافة، عصام المحايري عميد إذاعة، غيث مقدم (أي غسان جديد) عميد الدفاع، عبدالله محسن، كامل حسان، جبران جريج، سعيد تقي الدين عمد دون مصلحة. كامل حسان وسعيد شهاب الدين كميل الجدع وسعيد تقي الدين وإسكندر شاوي وكلاء لعمدات الداخلية والمالية والاقتصاد والثقافة والدفاع. زكي نظام الدين وحسين جمال وغسان عظم ودعاس ناصيف وفارس معلولي نواميس للداخلية والمالية والاقتصاد والثقافة والدفاع. جميل مخلوف وإميل رعد مفتشين في الداخلية. كما عين عبدالله محسن ناموساً للرئاسة، عيسى سلامة منفذاً لمنفذية اللاذقية وعصام المحايري منفذاً لمنفذية دمشق (خلفاً لعبدالله محسن). وعين جبران جريج رئيساً للشعبة السياسية في لبنان. (لم يلبث أن استقال وخلفه فيها إبراهيم يمّوت وأعضاؤها كانوا غسان تويني وسعيد تقي الدين ومحمد

بعلبكي ونظمي عزقول وجبران جريج نفسه. وفي السنة التالية حُلت وتألفت شعبة سياسية غيرها برئاسة سعيد تقي الدين) كل هؤلاء عملوا مع عبد المسيح ولم يرفض منهم إلا عبدالله محسن الذي صدر مرسوم بتاريخ 27 تشرين الثاني 54 بقبول استقالته من مسؤوليته عميد دون مصلحة وناموسية الرئاسة «لأسباب صحية». والغالبية العظمى من هؤلاء صاروا بعد قليل خصوماً لعبد المسيح ولم يكد يسلم منهم واحد من اتهاماته لهم بشؤون حزبية وشخصية معاً.

الوضع السياسي في سورية

لكي نفهم الأحداث الحزبية والاتجاه السياسي الذي كان مركز الحزب في الشام يتحرك ضمنه، يجب فهم الأحداث العامة والسياسة العامة في الشام وعلاقة الحزب بها، فمثلاً نحن لا يمكننا فهم البيان السياسي الذي أذاعه الحزب بعنوان «الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي» قبيل مقتل المالكي سنة 1955، ولا فهم مضمون رسائل الشرابي «الأميركية» والموقف الحزبي الحقيقي منها، قبل معرفة وفهم الحد الأدنى من تفاصيل الوضع السياسي العام الذي كان مخيماً على سورية، ومواقف مختلف القوى السياسية الشامية ومكانها من المحاور والقوى العالمية التي كانت تتجاذب بلادنا وتتصارع عليها، وحلف بغداد مثل، نحن ملزمون بالبدء من انقلاب سامي الحناوي والإطاحة بحسني الزعيم وإعدامه مع رئيس حكومته محسن البرازي على يد الضابط، فضل الله أبو منصور الذي أصبح لاحقاً قومياً اجتماعياً، مروراً بسلسلة الانقلابات العسكرية التي تلت، وعلاقة الأميركان بها وعلاقة هؤلاء بأديب الشيشكلي وعلاقة هذا الأخير بالحزب.

من هو أديب الشيشكلي؟

يعتقد القوميون الاجتماعيون بأن أديب الشيشكلي هو رفيق قومي اجتماعي، ولكن لا يوجد في الحزب كله من يشهد على انتمائه ودخوله الحزب. ظل أديب يُعتبر قومياً اجتماعياً منذ سنة 1947 حتى سنة 1964 تاريخ مقتله على يد أحد حراسه في مزرعته في البرازيل، حيث بدأ القوميون يصحون من غفلتهم ويتساءلون عن حقيقة انتماء هذا الرجل إلى الحزب أو عدم انتمائه. حتى إن شقيقه الرفيق صلاح لا يعرف عن أديب إذا

كان قد انتمى ودخل الحزب أم لا. وربما كانت قومية صلاح هي التي غطت أديب وصبغته بصفة قومي اجتماعي.

أول مرة لفت نظرنا اسم أديب الشيشكلي كانت سنة 1948 عندما اقترحت مجموعة من الضباط القوميين الاجتماعيين على سعاده بأن يقوم الحزب بانقلاب عسكري في لبنان، وكان أديب يقاتل ضمن جيش الإنقاذ في فلسطين، فاجتمع به سعاده في منطقة بنت جبيل، على أساس أنه قومي اجتماعي، للوقوف على رأيه في هذا الموضوع.

ثم برز اسمه عندما قام سعاده بالمقابلة الأولى مع حسني الزعيم بُعيد انقلابه العسكري وإطاحته برئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي، بتاريخ 30 آذار 49، أي قبل حادثة الجميزة بشهرين ونصف. يومها اعتقد الكثيرون أن أديب هو الذي كان واسطة حسني إلى سعاده. وأديب كان قد اشترك في انقلاب حسني الزعيم وكان عقيداً قائداً للواء الأول.

وأكثر ما يلفت هو ورود اسمه على لسان سامي جمعة ضابط المخابرات السوري الذي تكلم عن دور لأديب بعيد الاجتماع السري بين حسني والحسيني ووزير الخارجية الإسرائيلي موشى شاريت (أو شرتوك) في بلودان قبل ظهر 15 حزيران 49، أي نفس يوم الاجتماع الثاني بين سعاده وحسني الذي جرى بعد ظهر 15 حزيران، وأديب يكتم سر اجتماع حسني- شاريت، الذي لا بد أنه علم به، عن سعاده في خيانة صريحة ودور عمالة مفضوحة للعدو.

وأديب سيصبح رئيساً للجمهورية وسيقرّب إبراهيم الحسيني إليه ويسلمه مناصب حساسة للغاية.

وبعد استشهاد سعاده سطع اسم أديب كثيراً ولعب دوراً كبيراً، فهو الذي تطوع لتسهيل مجيء جورج عبد المسيح إلى دمشق واستلامه إدارة الحزب. ومن يومها بقي أديب لصيقاً بجورج عبد المسيح وعصام المحايري وقيادة الحزب. ومن يومها لعب أديب دوراً رئيساً في الدولة الشامية كما في «توجيه» سياسة الحزب في الشام، أو على الأقل التأثير بها والحضور فيها وفي تفاصيلها، حتى صار الحزب في الشام وعلى ألسنة القوى والأحزاب السياسية الشامية يُعرَف «بحزب الشيشكلي».

لم يلعب أديب الشيشكلي أي دور في منع حسني من خيانة سعاده أو حتى في الاتصالات والمفاوضات التي سبقت هذه الخيانة، مع أن أديب كان مديراً للأمن العام في عهد حسني وقد شارك بهذه الصفة في الاجتماع الودي الشهير الذي عقد في شتورة بتاريخ 24 حزيران بين كل من حسني الزعيم ومحسن البرازي من جهة وبشارة الخوري ورياض الصلح من جهة أخرى بالإضافة لمديري الأمن العام اللبناني والشامي فريد شهاب وأديب الشيشكلي. لم تذكر الصحف آنذاك شيئاً عن الغرض من ذلك الاجتماع سوى أنه كان ودياً، ولكن من الواضح أن غرضه كان أمنياً متعلقاً بقضية الحزب، يتبين ذلك من حضور مديري الأمن العام في الدولتين. فمن الطبيعي إذاً أن يكون موضوع الاجتماع موضوعاً أمنياً، ومن الطبيعي أن يكون لأديب دور رئيس في تنفيذ التفاهم الودي المنبثق عن اجتماع شتورة.

فهل لعب أديب دوراً مشبوهاً وسلبياً ومضراً للحزب منذ ذلك الحين؟ هل أديب يتعامل مع الأميركيين؟ وهل يتساهل الأميركيون الذين حملوا حسني الزعيم إلى الحكم في الشام واستعملوه لقتل سعاده، فيوافقون على وجود مدير للأمن العام موالياً للحزب السوري القومي الاجتماعي وليس موالياً لهم؟

صحيح أن حسني الزعيم أبعد أديب إلى حلب عقب استشهاد سعاده ثم سرّحه من الجيش، وقيل يومذاك إن حسني كان يخاف أديب فأبعده بسبب تعاطفه مع القوميين واحتجاجه على تسليم زعيمهم، لكننا نعتقد أن هذا الإبعاد وهذا التسريح لم يكن إلا تضليلاً وتمويهاً لما سيعطيه الأميركيون لاحقاً من مهمات رئيسة في الدولة وفي الحزب على السواء. يعزز هذا الاعتقاد أنه فور إعدام حسني ورئيس وزرائه محسن البرازي (بعد أربعين يوماً من استشهاد سعاده) ظهر أديب بلباسه العسكري (رغم كونه مسرحاً من الجيش) واستلم فوراً قيادة اللواء الأول قبل أن تعمد السلطات الانقلابية إلى أي تشكيلات ومناقلات عسكرية، مما يبرهن أنه كان لا يزال في الجيش وأن تسريحه كان صورياً إعلامياً للتضليل فقط. يشهد على ذلك سامي خوري قائلاً: «بعد إعدام حسني الزعيم عاد أديب الشيشكلي للظهور ورأيته في اليوم التالي وهو يلبس بزته العسكرية وعليها رتبة عقيد فسألته: أين أنت؟ فقال: في اللواء الأول. وكان قد عاد لاستلام قيادته» (صفحة 173).

اغتيال الرفيق «الرب» مجيب المرشد

ولأديب أيضاً دور مشبوه في اغتيال الرفيق «الرب» مجيب المرشد بعد أن كان قد قبض على والده، الرب أيضاً، سليمان المرشد وسجنه عندما كان أديب ملازماً في الجيش، ثم شنقه عندما صار رئيساً. كما أن لأديب سوابق في الاغتيالات السياسية والعمليات الأمنية والتوجهات الطائفية تجاه العلويين والدروز. يروي سامي خوري (ص 197– 198) ملابسات قتل العقيد محمد ناصر آمر سلاح الجو السوري المنافس القوي لأديب، ودور المكتب الثاني في ذلك وعلاقة إبراهيم الحسيني واعتقال هذا الأخير وقصة تبرئته وتسفيره ثم مقتله «بحادث سيارة في روما». ولنا عودة إلى التوجه الطائفي لأديب بعد قليل، أما الآن فنذكر أن الرفيق مجيب المرشد قد قُتل على يد الملازم أول عبد الحق شحادة المساعد الأول لأديب الشيشكلي عندما كان رئيساً لسورية، وأن الحزب سكت عن هذه الجريمة التي طالت أحد أعضائه الاستثنائيين من حيث الأهمية، ما أثار نقمة القوميين الاجتماعيين على قيادتهم واستدعى بياناً طويلاً من عميد الإذاعة عصام المحايري نجده في كتاب الأمين أحمد أصفهاني «سعاده والحزب في أوراق فريد شهاب (ص 131). أما أهمية الرفيق مجيب المرشد فتكمن في أنه كان في جبال العلويين طائفة من عشرات الألوف من الناس تعبد رباً هو سليمان المرشد، وعندما شُنق سليمان ورث ابنه مجيب الربوبية عنه، ومجيب كان لا يزال رباً في نظر أتباعه عندما انتمى إلى الحزب وكان بدأ العمل على نشر الحزب وقضيته بين أتباعه الذين يطيعونه كونه رباً. إن الشيشكلي بقتله الرفيق مجيب قضى على إمكانية كبيرة جداً لجعل عشرات الألوف من المواطنين يتحولون من عبادة شخص إلى الإيمان بالقضية السورية القومية الاجتماعية.

اغتيال قائد سلاح الجو العقيد محمد ناصر

وعن تاريخ أديب الشيشكلي المشبوه في الاغتيالات السياسية، فبالإضافة لاغتيال الرفيق مجيب المرشد قد اغتال العقيد محمد ناصر آمر سلاح الجو السوري بالاشتراك مع إبراهيم الحسيني، وهذا الأخير حماه الشيشكلي بطريقة مفضوحة كما يلي: راديو دمشق يذيع الخبر التالي: «إن اعتداء قد تم في الساعة العاشرة والنصف مساء الاثنين 21–7–50 ذهب ضحيته آمر سلاح الجو السوري العقيد محمد ناصر عضو مجلس

العقداء». وأشيع بأن العقيد ناصر كتب اسمَي المقدم إبراهيم الحسيني وعبد الغني قنوت لعدم تمكنه من النطق وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بخط مضطرب أمام المحققين. بعد تشييع العقيد ناصر رسمياً تم اعتقال رئيس المكتب الثاني إبراهيم الحسيني والملازم في المكتب الثاني عبد الغني قنوت، وسجنا. ولكن المحكمة الخاصة المشكلة للنظر في هذه القضية برئاسة القاضي إسماعيل قولي، أصدرت قراراً بالأكثرية ببراءة المتهمين مع مخالفة رئيس المحكمة المدني الوحيد! وبالطبع فإن معظم الناس وأوساط الشعب لم تقبض حكم البراءة الصادر بالاكثرية، وظلت أصابع الاتهام موجهة إلى أديب الشيشكلي على أنه وراء الحادث (بشير موصلي ص 436 وأيضاً أكرم الحوراني ص 1228). وما عزز هذا الاتهام أنه لم يعمل على كشف القتلة في وقت أن القتيل هو آمر سلاح الجو وليس شخصاً عادياً.

أديب الشيشكلي الطائفي

أما لماذا أقدم أديب الشيشكلي على قتل كل من مجيب المرشد ومحمد ناصر، فالجواب يختلف بين الأمس واليوم، أي بين ما كان يُعتقَد في ذلك الوقت أوائل خمسينيات القرن الماضي، وبين ما تكشف لنا اليوم من أسباب أكثر خطورة. جواب الأمس نجده في ما كتبه الأمين الراحل ياسين عبد الرحيم عن شقيقه الرفيق الشهيد يونس عبد الرحيم، قال: «يدبر الشيشكلي اغتيال العقيد محمد ناصر الذي لا يعرفه يونس شخصياً ولا يهمه أكان علوياً أم بوذياً، فيتأذى يونس لأن محمد ناصر ضابط لامع كفوء... وينقم يونس على الشيشكلي لأنه رأى في اغتيال غير المؤيدين له ظلماً واستهانة بالإنسان واعتداءً على الحقوق والحريات العامة. فالشيشكلي سكّير يتصدى لقيادة البلاد فأولى به أن يعتزل. وكان مما يجعل يونس ينقم على الشيشكلي مقتل الرفيق مجيب المرشد بهذه الطريقة الباردة التي لا تحفل بقانون ولا حق وترى في الضعفاء سلعة مباحة للظلم والجور والقتل... لكل هذا يوجه يونس رسالة مغفلة إلى الشيشكلي يتوعده فيها بالقتل لأن السياسة التي يتبعها تعتبر العلوي حماراً والدرزي خائناً وكلاهما من صنف أدنى من البشر الأحرار الكرام... هكذا كان موقف يونس من الشيشكلي في وقت كان يُعتبر الشيشكلي قومياً اجتماعياً في أوساط الحزب وخارجه...» (خميرة الغد ص 153-154).

أما جواب اليوم فنجده في الوثيقة الخطيرة التالية:

الإسرائيليون يدعمون الشيشكلي

موقع «سيريا كومنت» الإلكتروني نشر بتاريخ 20-6-2018 دراسة للكاتب اليهودي الصهيوني مائير زمير، وهو كان قد نشرها أولاً في جريدة هآرتز العبرية بتاريخ 15-6-2018. ومائير زمير هو عميد كلية العلوم السياسية في جامعة بن غوريون في تل الربيع (تل أبيب)، بالإضافة لكونه كاتباً سياسياً مشهوراً في دولة الاحتلال الإسرائيلي. دراسة مائير المشار إليها تتناول التدخلات الإسرائيلية في الحروب السرية التي رافقت نشوء الدولة اليهودية في فلسطين سنة 1948، وما بعده، والأدوار الإسرائيلية في أحداث العراق والشام وخاصة الانقلابات الثلاثة التي قام بها كل من حسني الزعيم وسامي الحناوي وأديب الشيشكلي، كما قضية الوحدة العراقية السورية التي كانت مطروحة بقوة في الفترة بين نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن الماضي.

لسنا الآن بصدد مناقشة مائير زمير، ولسنا نعتبر معلوماته حقائق أكيدة غير قابلة للنقاش، رغم مركز كاتبها الأكاديمي والعلمي المرموق، ورغم أنه دعمها بنشر تقارير سرّية لم تكن منشورة أو معروفة سابقاً. بل ما يهمنا هنا هو ذكره لأديب الشيشكلي كواحد من الذين تلقوا دعماً ومساعدة من دولة العدو الإسرائيلي لإنجاح انقلابه واستلامه السلطة في سورية.

دراسة زمير كبيرة تناهز بضع عشر من الصفحات، لكن سنكتفي الآن بنقل هذه الفقرة بالإنكليزية كما وردت بقلم الكاتب الإسرائيلي.

The opponents of Anglo-Iraqi control in Syria were ultimately successful. On December 19, Col. Adib Shishakli, of Kurdish descent, led a tank assault on Damascus and seized power in order to save Syria from British influence and avert unification with Iraq.

A number of signs suggest possible Israeli involvement in the coup,

including a meeting between Shishakli and Israeli representatives ahead of the event. Either way, there is no doubt that once Shishakli seized power, Israel helped him consolidate his regime, as it had done with Za'im.

وترجمتها كما يلي:

«إن خصوم النفوذ الإنكليزي- العراقي في سورية كانوا قد حققوا نجاحاً. ففي 19 كانون الأول (سنة 1949) العقيد أديب الشيشكلي، المتحدر من أصول كردية، قد قاد انقلاباً واغتنم السلطة لإنقاذ سورية من التأثير والنفوذ البريطاني والحؤول دون الوحدة السورية العراقية.

عدة مؤشرات كانت تدل على الدور الإسرائيلي في هذا الانقلاب، بما فيها اللقاء الذي تم بين الشيشكلي وممثلين عن الجانب الإسرائيلي، قبل الانقلاب. على كل حال فإنه لا شك في أن إسرائيل ساعدته في تدعيم وتقوية حكمه بعد استلامه السلطة، تماماً كما فعلت مع حسني الزعيم قبله».

ويورد الكاتب خمس وثائق- رسائل كانت المخابرات الإسرائيلية قد حصلت عليها بواسطة عملائها، هي:

الأولى بتاريخ 7 كانون الثاني سنة 1950. غير معرّف عنها (ننشرها في باب الملاحق كما وردت).

والثانية بتاريخ 20-5-1945 من كميل شمعون سفير لبنان في لندن إلى جميل مردم بك وزير خارجية سورية، بواسطة السفارة البريطانية في بغداد.

والثالثة بتاريخ 15-9-45 من الملك سعود إلى الرئيس السوري شكري القوتلي تحكي عن الدور الفعال لابن سعود في مقاومة الاتحاد الهاشمي العراقي السوري.

والرابعة بتاريخ كانون الأول 1946 من الرئيس العراقي نوري السعيد إلى الرئيس التركي عصمت أينونو.

والخامسة بتاريخ 6-5-47 من سفير سورية في لندن إلى وزير الخارجية السورية في دمشق.

إن الغرض الرئيس الذي كان يهم دولة العدو إسرائيل تحقيقه وقتذاك كان الحؤول دون تحقيق الوحدة العراقية السورية، وقد وجدت في أديب الشيشكلي ودعمه ومساعدته وسيلة مفيدة لتحقيق هذا الغرض. فأديب كان أيضاً من المعارضين الشرسين لهذه الوحدة، كما سنرى بعد قليل، ولم يتورع عن التورط في المحظور من أجل ذلك.

الحقيقة أن مراجع عديدة وكثيرة تحدثت عن أديب الشيشكلي وعلاقاته الملتبسة مع القوى الأجنبية وتورطه في المنافسة الفرنسية- البريطانية، ثم الأميركية، للسيطرة على سورية. ما يهمنا هنا من موضوع الشيشكلي هو دوره المشبوه والخطير وعلاقاته وأدواره ومهماته السرية التي قادته في النهاية للتآمر على سعاده والاشتراك في خطة الإيقاع به وقتله لقاء وعود بتمكينه من السلطة في دمشق، ثم لعب الدور الكبير والرئيس والمؤثر في سياسة الحزب السوري القومي الاجتماعي بعد استشهاد الزعيم، وكل ذلك سنشرحه بالتفصيل فيما سيأتي من هذا الكتاب. أما الآن فنكتفي بهذه اللمحة التي أوردناها لنشير إلى أن إقدام الشيشكلي على قتل محمد ناصر ومجيب المرشد لا يمكن أن يكون إلا تنفيذاً لمهمات خطيرة ومشبوهة ولخدمات كان أديب يؤديها لذوي المصلحة منها.

انقلاب الحناوي

سوف نستعرض الآن تطور الوضع السياسي في شريط مختصر من الأحداث السياسية في الشام وموقع الحزب منها.

انقلب سامي الحناوي على حسني الزعيم في 14 آب 1949، أي شهر وأسبوع بعد تسليمه سعاده وإعدامه. وكانت مهمة الضابط فضل الله أبو منصور، الذي انتمى إلى الحزب فيما بعد، هي اعتقال حسني الزعيم. وهذه المهمة كانت هي مفتاح نجاح الانقلاب، وفضل الله يقول في مذكراته إنه أعدم حسني ومحسن البرازي رمياً بالرصاص بناءً لأوامر من قيادة الانقلاب.

عُرف الحناوي بشخصيته الضعيفة ومواقفه السياسية الغامضة. ينتمي إلى حزب الشعب الموالي للغرب وهو لم يكن لامعاً ولا متزعماً مجموعة من الضباط مما يجعلنا

نطرح علامة استفهام كبيرة على «سر» نجاح انقلابه بسرعة وعمن يقف وراءه ومن سهّل له النجاح. الحناوي أعلن فور نجاح الانقلاب بأنه سيعود إلى وظيفته في الجيش ويترك السياسة للسياسيين. وبالفعل فقد شكل هاشم الأتاسي وزارة انتقالية قررت بدورها الدعوة لانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستوراً جديداً للبلاد وحددت 5 تشرين ثاني موعداً للانتخابات. أما لماذا «يخاطر» سامي الحناوي ويترأس انقلاباً عسكرياً ثم بعد نجاحه يعود فيتواضع ويزهد ويرجع إلى وظيفته في الجيش؟ الجواب يكمن في الليرات الذهبية الإنكليزية!!

الليرات الذهبية الإنكليزية

فيما يلي قصة الليرات الذهبية الإنكليزية:

يخبرنا سامي جمعة عن السهرات في فندق بلودان التي كانت تقام وتجري بحضور الميجر ميد الملحق العسكري الأميركي وجنرالين واحد فرنسي والآخر تركي هو فؤاد أورباي كان قد عيّنه حسني الزعيم مستشاراً خاصاً لإعادة تنظيم الجيش، وكان قد استقدمه للاستفادة من خبرته بتشكيل لواء خاص في الجيش السوري على غرار الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي بحيث يكون قوام هذا اللواء السوري من الأقليات العرقية في سورية من أكراد وشركس، وبحيث يعتمد عليه في حماية نظام وسلطة حسني الزعيم. وهنا يجدر أن نذكر أن الضابط التركي أورباي كان حاضراً اجتماع حسني الزعيم مع موشى شاريت في فندق بلودان أواسط حزيران. (أوراق سامي جمعة ص 66). ثم يخبرنا سامي عن انقلاب الحناوي ما يلي: «في مساء يوم الثالث عشر من آب 49 اجتمع المقدم الشركسي خالد جادة برئيس حرس بيت حسني الزعيم، وكان شركسياً أيضاً، وسلمه مقداراً من الليرات الذهبية الإنكليزية واتفق معه بالمقابل على الانسحاب من بيت حسني منتصف ليل الرابع عشر من آب مع أكبر عدد ممكن ممن يثق بهم من أفراد الحرس وأن يعطل قبل انسحابه الأسلحة ويجعلها غير صالحة للاستعمال. وفي فجر اليوم الرابع عشر من آب 49 نفذ اللواء سامي الحناوي انقلابه وقامت قوة بقيادة المقدم أمين أبو عساف والنقيب فضل الله أبو منصور باعتقال حسني من بيته الخالي من الحرس ودون مقاومة...» (أوراق سامي جمعة ص 78).

هكذا كانت المخابرات الأجنبية تقبض على اللعبة كلها وتشتري هذا وتستأجر ذاك من الضباط وتوظفهم وتعين لهم أدوارهم وهؤلاء كانوا يؤدون أدوارهم بكل انضباط! هكذا نجح انقلاب حسني الزعيم بسهولة، وهكذا سقط حسني ونجح انقلاب سامي الحناوي بسهولة، وهكذا سيسقط الحناوي وسينجح انقلاب أديب الشيشكلي، الأول والثاني، بسهولة.

نترك للقارئ الفطن تقدير سبب قرار الصهيونيين قتل حسني ومحسن، ومصلحتهم في هذا القتل.

ضياع الفرصة الأولى

يقول سامي خوري: «اتضح بعد الانقلاب أن الرأي العام الشعبي في دمشق أصبح مؤيداً للحزب لأنه يمثل سعاده الذي سلّمه حسني ليعدم في لبنان وصارت جميع الأوساط المثقفة والسياسية تسعى للتعرف على الحزب ومبادئه وتتصل بأعضائه وتبني علاقات معهم» (ص 188). كان أركان الانقلاب، غير سامي الحناوي، ضباط مستقلون سياسياً غير خاضعين لأي من الأحزاب السياسية الموجودة آنذاك، ولم يكن بينهم قوميون اجتماعيون إلا عصام مريود وألكسي شبيعة وفضل الله أبو منصور، وهذا الأخير كان صديقاً للحزب ولم يكن قد انتمى إليه فعلياً بعد. رغم ذلك فإن الاحزاب السياسية السورية كلها اشتركت في الحكم عبر أول حكومة تشكلت بعد الانقلاب، بمن فيهم أكرم الحوراني وميشيل عفلق، ما عدا الحزب السوري القومي الاجتماعي. سيقول سامي خوري وعبد المسيح وغيرهم فيما بعد أن السبب الوحيد، لذلك كان عدم وجود شخصيات حزبية سياسية تعمل في السياسة في سورية، وإن الحزب كان مشغولاً في لملمة نفسه بعد صدمة استشهاد سعاده. لكن بشير موصلّي يقول: «ولم يخطر على بال أحد أن يطالب بمنصب وزاري لعضو معين في الحزب، ولو فعل لكان له ذلك. وقد أخطأنا حين لم نطلب منصباً وزارياً لعصام المحايري أو نوري الخالدي أو كمال كنج (وهذا كان نائباً في البرلمان كقومي اجتماعي منذ ما قبل انقلاب حسني) أو عيسى سلامة أو صفوح الدروبي أو سامي سحلول أو راتب حراكي أو غيرهم (بشير ص 378). إن أعضاء الحكومة التي تشكلت برئاسة هاشم الأتاسي كانوا كلهم يحترمون الحزب ولا توجد عندهم خصومة تجاهه، ما عدا الحوراني وعفلق اللذين

كان تأثيرهما ضعيفاً، حتى إن سامي الحناوي قائد الانقلاب كان على رأس وفد من الضباط ذهبوا إلى الأمينة الأولى في صيدنايا ورافقوها إلى بيت الرفيق نجيب الشويري في دمشق. وعندما زارت الأمينة الأولى اللواء الحناوي لشكره أعلن لها أن الجيش ثأر لسعاده، وتكلم الملازم تحسين ميداني مؤكداً ولاءه لمبادئ سعاده وأن الجيش مؤمن بها (موصلي ص 383). فلو أن معاوني سعاده لم يهربوا إلى عمان ولو أنهم بقوا متماسكين معتصمين في دمشق، حتى لو أدى بقاؤهم في دمشق إلى اعتقالهم، لكان الحزب تمكن من الاشتراك في أول حكومة تشكل بعد انقلاب الحناوي، بل لكان حضوره السياسي والشعبي الأقوى والأفعل.

وكم كان جميلاً أن يتم الإجماع على الأمينة الأولى رئيساً للحزب في ذلك الوقت لِما أبدته وبرهنت عليه من رباطة جأش وشجاعة ووعي والتزام. فقد كانت محجاً للمعزين والمهنئين معاً بعد انقلاب الحناوي من جميع السياسيين ورجال الإعلام والثقافة في لبنان والشام.

سعاده استشهد لكي يقي بجسده الحزب والرفقاء، فلم يفهم «المعاونون» معنى استشهاده فهربوا إلى عمان بدل مواصلة المواجهة حتى ولو كانت من السجون. كان جورج عبد المسيح على رأس الحزب في تلك الفترة، وهو المتخفي والمحدود الحركة والظهور وغير المعروف في الأوساط السياسية والإعلامية والثقافية السورية، فضلا عما اشتهر عنه وعن قوله بأن السياسة ليست هي هدف الحزب وغايته بل المجتمع والوصول إلى الشعب هو الهدف، وهذا خطأ لأن السياسة القومية هي «سياسة المجتمع» كما يقول سعاده، وأن المجتمع تقوده السياسة وأن حياة المجتمع لا تسير وتتطور بدون سياسة ولا يمكن الفصل بين السياسة والاجتماع. صحيح أن سعاده في «نشوء الأمم» تكلم على الفرق بين الاجتماع والسياسة وقال إن هذا الفرق يجب أن يظل واضحاً، ولكنه بقوله لم ينف العلاقة بين الاجتماع والسياسة بل أكدها. إن عمل عبد المسيح على ترشيح عصام المحايري للانتخابات النيابية، وهذا عمل سياسي، لا يعفيه من عمله على «إبعاد الحزب عن السياسة». إن موضوع السياسة في الحزب ومعناها ومعنى دعوة سعاده للرفقاء للابتعاد عن السياسة، وعن أي نوع من السياسة كان سعاده يتكلم في دعوته هذه، هو موضوع مستقل يستأهل بحثاً خاصاً.

الحزب يرشح عصام المحايري عن أحد مقاعد دمشق وسط حماس القوميين والتفاف شعبي كبير تكفيراً عن جريمة حسني وتعاطفاً مع الحزب. نجح عصام نجاحاً كبيراً وسقط عفلق والبيطار وخالد بكداش.

في 12 كانون أول كان أول اجتماع للجمعية التأسيسية، أي لمجلس النواب الجديد، ووضعت دستوراً مؤقتاً تم بموجبه انتخاب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، ثم كلف خالد العظم تشكيل وزارة ائتلافية. أما قائد الانقلاب سامي الحناوي فقد تعين قائداً للجيش ثم رئيساً للأركان. وإذا عرفنا أن الأتاسي والعظم هما من رجال عهد شكري القوتلي الذي انقلب عليه حسني الزعيم، وأنهما من السياسيين التقليديين المتعاطفين مع الغرب وينتميان إلى حزب الشعب الموالي إجمالاً للغرب والواقع تحت تأثيره ونفوذه، وإذا عرفنا أيضاً أن الوزارة الائتلافية التي تشكلت ضمت في معظمها أعضاء في حزبي الشعب والوطني المتعاطفين مع الغرب، بالإضافة لسلاسة وسهولة وسرعة نجاح الانقلاب وإجراء الانتخابات وتشكيل الوزارة، أدركنا أن هناك «تدبيراً» من جهات دولية فاعلة لإنجاز كل هذه التطورات، وهذه الجهات لا يمكن أن تكون غير الولايات المتحدة الأميركية وشركائها الأوروبيين.

في الأشهر القليلة التي أعقبت ورافقت عهد الحناوي- الأتاسي- العظم كان الحدث السياسي الأبرز هو الجدل حول الوحدة السورية العراقية التي كانت مطروحة بقوة تحت مظلة الهيمنة الهاشمية المدعومة أميركياً، وكان الانقسام الشعبي كبيراً حولها على خلفية الولاء للهاشميين أو عدمه واختلاط التطلعات القومية بالنعرات الطائفية والمصالح الفردية وتنازع كل شيء مع كل شيء.

انقلاب الشيشكلي الأول

بعد انتهاء المهمات التي تولاها الأتاسي والعظم والحناوي واستنزاف أدوارهم وانتهائها، كان لا بد من انقلاب جديد. ففي 18-12-49، أي أربعة أشهر وأربعة أيام على انقلاب الحناوي، أذاع راديو دمشق البلاغ رقم واحد فيه أن أديب الشيشكلي قاد انقلاباً واعتقل سامي الحناوي ومساعده أسعد طليس. وفي البلاغ رقم واحد شيئين رئيسين هما: أولاً- الحفاظ على الشرعية الممثلة بالجمعية التأسيسية المنتخبة، وعودة

الجيش إلى ثكناتـه وترك السياسـة للسياسـيين. ثانياً- رفض مشروع الاتحاد السـوري العراقـي الـذي كان مطروحاً شـعبياً وسياسـياً وذلك بهـذه الصيغـة: «إذا كان الاتحاد السـوري العراقـي هو اتحاد الشـعبين فالسـوريون جميعهم يؤيدونه بـكل قوتهم ولكن الحقيقة هي أن الدعوة له ترمي فقط إلى إقامة عرش في سـورية يتربع عليه شـخص هو الأمير عبدالله الوصي على عرش العراق».

بالنسبة للحفاظ على الشرعية وعودة الجيش إلى ثكناته، فإنها ترديدة تكررت في جميع الانقلابـات تقريباً. لقد كان قادة الانقلابات يغطون ارتباطاتهم المسـتترة بأن يعلنوا أن حركتهم هي وطنية إنقاذية وليسـت ذات أهداف سياسـية شـخصية، وأنهم مستعدون لتسـليم الحكم للسياسـيين وأنهم هـم سـيعودون إلى ثكناتهم ولن يتعاطـوا في القضايا السياسـية إلا إذا كانـت الضرورة وسـلامة الوطن تقتضي ذلك. هذا مـا أعلنه الحناوي وهذا ما أعلنه الشيشـكلي، مع أن الضرورة وسـلامة الوطن يختلف معناها ومداها من انقلاب إلى آخر. حتى إن حسني الزعيم كان قد أعلن أن الجيش سيتخلى عن السلطات إلى الحكومة الشرعية. وربما هذه الترديدة كانت التعليمة المشـتركة التي مصدرها الجهة الواحدة التي كانت وراء كل هذه الانقلابات. أما بالنسبة للشيشكلي فكانت فرادته أنه اختبـأ وراء غيره، فقد عين أنور بنّود رئيسـاً للأركان وعيّن نفسـه معاوناً له. والملاحظ أيضاً أنه عيّن إبراهيم الحسـيني رئيساً للمكتب الثاني، أي المخابرات العسكرية، فأديب الشيشـكلي قرّب الرجل العسـكري الأول في عهد حسني الزعيم الذي قال عنه صبري القباني إنه أكثر رجل يثق به حسني ويؤمنه على أسراره. ولا ننسى أن لأديب الشيشكلي وإبراهيم الحسـيني تاريخاً مشـبوهاً مشـتركاً خلال حكم حسـني الزعيم عندما كان لهما دور مشـترك في اللقاء السري بين حسـني الزعيم وموشـى شـاريت في بلودان أواسـط حزيران 49 قبيل لقاء حسني مع سعاده مساء 15 حزيران.

هذا بالنسـبة إلى البند الأول من البلاغ الأول للانقلاب. أما بالنسـبة للبند الثاني أي مـشروع الاتحاد السـوري العراقي، فقـد كان واضحاً أن الانقـلاب كان ظاهره أنه قام عـلى خلفية الصراع حول الوحدة السـورية العراقية، والداعـون إلى هذه الوحدة كانوا الحناوي ومعاونه طليس وحزبي الشـعب والوطني المهيمنين على البرلمان والوزارة معاً. والرافضـون كانوا أكثرية كبيرة من ضباط الجيش وعلى رأسـهم أديب الشيشـكلي قائد

اللـواء الأول وأمين أبو عسـاف قائد معسـكرات القابون. والسـبب الحقيقي لمعارضة ضباط الجيش السـوري للوحدة مع العراق كان لأن الضباط العراقيين أعلى رتبة وأكثر عدداً من الضباط السوريين الذين خافوا من انتقال النفوذ والإمرة العسكرية للعراقيين. ويظهر أن الحناوي لم يسـتطع أن يكسـب ولاء الجيش له، فكان السـبق للجيش بقيادة الشيشكلي.

هذا فيما ظهر على سطح الأحداث السياسية، أما في العمق فكانت السياسة الأميركية لم تـرسُ بعـد ولم تعتمد على خطـة محددة للإمسـاك بدولتي العراق الشـام وضمهما إلى نطاق نفوذها في حربها الباردة مع الجبهة الشـيوعية المنافسـة لها. فكانت هذه السياسـة الأميركية- الإنكليزية تحرك السياسـيين المحليين الواقعين تحـت تأثيرها ونفوذها، على تناقضهـم وتناقض مصالحهم الذاتية، وتتلاعب بهم وتبدلهم تكتيكياً وتراقب وتترصد توزع القوى المحلية واتجاهاتها، وهي على أبواب مشروع إسـتراتيجي كبير بعد سنوات قليلة هو مشروع أيزنهاور وحلف بغداد.

الحزب في ظل الشيشكلي

ما يهمنا في موضوع الشيشكلي هنا هو موقفه من الحزب وموقف الحزب منه وطبيعة العلاقة بينهما في ظل قيادة عبد المسيح. وسنرى في الصفحات التالية كم ألحق أديب من الأضرار السياسـية بالحـزب وكم سـاهم في إبعاد الحزب عن النـاس حتى صار الناس يطلقـون عـلى الحزب اسـم «حـزب الشيشـكلي» في الوقت الـذي صار فيه الشيشـكلي مكروهاً شعبياً.

لا نريـد الآن أن نسـتبق تطـور الأحـداث السياسـية ولكن لا بأس مـن إيجاز أعمال أديب وأضراره التي ألحقها بالحزب والبلاد معاً:

انقلاب الشيشكلي لم ينتج عنه تبديل سياسي يذكر، فقد بقي مجلس النواب كما هو ولم ينته دور ونفوذ أي من الأحزاب السياسية التي كانت قائمة. فقط صعد نفوذ الشيشكلي في الجيش وصار يحسب له حساب في السياسة. تم تعيين أنور بنّود رئيساً للاركان بدلاً مـن الحناوي الذي اعتقـل، وأديب الشيشـكلي «تواضع» واكتفى بأن صـار معاوناً له. لكنـه كان واضحـاً للجميـع أن أديب كان في الواقـع القوة الفعليـة في الجيش والمحرك

الرئيس لكل ما يجري فيه (سامي خوري ص 193). على الصعيد الحزبي كان الشيشكلي يعتبر قومياً اجتماعياً لكن الحزب كان غائباً كلياً عن التقرير في مجريات الحدث الأمني والسياسي ولا سلطة له على أديب لا مركزياً ولا محلياً على صعيد منفذية دمشق. ويقول سامي خوري، وغيره أيضاً، إنه لم تكن لعبد المسيح سلطة توجيه أو تقرير على أديب وكان يكتفي بشكليات ومظاهر نظام الشكل كأن يؤدي أديب التحية الحزبية الرسمية لرئيس الحزب «تحيى سورية حضرة الرئيس» عند مقابلته على مرأى من الرفقاء والمسؤولين في بيت الأمينة الأولى.

في هذه الأثناء واجهت مجلس الشعب السوري عدة قضايا سياسية خطيرة أهمها ثلاث هي: دين الدولة والقطيعة الجمركية مع لبنان والاتحاد مع العراق. في الموضوع الأول كان السجال حامياً بين من يريد أن يدخل في الدستور نصاً يقول بأن دين الدولة الإسلام، وعلى رأسهم بعض كبار رجال الدين والأخوان المسلمين، يقابلهم ويقف ضدهم الطلاب والمثقفون والمغتربون السوريون على اختلاف مذاهبهم الدينية، وقد قام هؤلاء بمظاهرات وأرسلوا برقيات تطلب عدم النص على دين الدولة في الدستور مما يكرس امتيازات سياسية في وقت يجب أن يحترم الدستور وحدة حقوق الشعب. وقتها انبرى فارس الخوري الذي كان قد حل نفس المشكلة في الجمعية التأسيسية سنة 1928 بأن أفتى بالحل الوسط الذي ينص على أن يكون دين رئيس الدولة الإسلام. واليوم سنة 1950 نشر دراسة مطولة بسط فيها مبررات استبعاد مادة دين الدولة من الدستور والإبقاء على دين رئيس الدولة. أما الحزب فقد كان منسجماً كلياً مع المبدأ الأساسي السادس «الأمة السورية مجتمع واحد»، والمبدأ الإصلاحي الأول المنبثق منه «فصل الدين عن الدولة»، فانبرى عصام المحايري وقدم مداخلة واسعة ومعمقة ومتزنة في مجلس الشعب كان لها أثر ممتاز في جميع الأوساط الشعبية وحتى الدينية. أما أديب الشيشكلي فلم يتدخل في هذه المسألة بحجة أنه عسكري ولا يتدخل في السياسة، مع أنه تدخل بقوة في المسألتين السياسيتين الأخريين. وكانت النتيجة أن فاز الحل الوسط وبقي النص الدستوري: «دين رئيس الدولة الإسلام، مع إضافة أن الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع. وكانت هذه سقطة أولى للشيشكلي حيث كان باستطاعته، كصاحب النفوذ الأول في الشام، حسم الموضوع باتجاه فصل الدين عن الدولة لو أنه كان قومياً اجتماعياً مخلصاً.

موقف الحزب الشاذ من قضية الانفصال الجمركي

أما في قضية الانفصال الجمركي والاتحاد مع العراق، فقد كان للحزب موقف شاذ مستغرب ننقله عن سامي خوري كما يلي: «في مطلع عام 1950 ثارت مشكلة العلاقة الجمركية بين سورية ولبنان التي كانت تشكل منذ أيام الانتداب الفرنسي نوعاً من الوحدة الجمركية، ولكن الوحدة الاقتصادية ابتدأت تتزعزع عندما عقدت الحكومة اللبنانية سنة 1948 اتفاقية النقد مع فرنسا وهاجمها سعاده في أحد مقالاته، كما رفض المجلس النيابي السوري آنذاك عقد اتفاقية مماثلة مطالباً باستقلال النقد السوري عن الفرنك الفرنسي، ولكن حسني الزعيم عاد ووقع تلك الاتفاقية بعد الانقلاب الذي قام به. وفي أوائل آذار 1950 طلبت سورية من لبنان، ونحن في عهد الشيشكلي، أن يختار بين وحدة جمركية واقتصادية ونقدية مع سورية أو الانفصال التام بحيث يصبح كل من البلدين حراً في اتباع الطريق الذي يراه متوافقاً مع مصالحه. رفض لبنان اقتراح الوحدة فقرر مجلس الوزراء السوري الانفصال الجمركي عن لبنان» (خوري ص 194).

المستغرب في الأمر هو تعيين عصام المحايري في لجنة صياغة بيان الانفصال وموافقته عليه مع ما يعنيه الانفصال الجمركي من تعطيل وإيذاء التعاملات والمبادلات والدورة الاقتصادية الاجتماعية كلها بين لبنان والشام. إن تأييد الحزب لهذا الانفصال يتعارض مع مبدأ وحدة الوطن السوري ووحدة مصالحه ومصيره ومع مبدأ الدورة الاقتصادية الواحدة بين جانبي الحدود السياسية، وهذا ما أشار إليه سعاده في رفضه لاتفاقية النقد مع فرنسا. «كنا مندفعين خلف نظرة عاطفية ضيقة» (خوري ص 195)، وكانت سياسة الحزب سياسة طفولية انفعالية أرادت تحدي حكومة رياض الصلح وإيذاءها بهذه الطريقة التي لا يتأذى منها إلا الشعب! هذا كان تبرير سامي خوري، لكن يبدو أن سياسة الحزب كانت متماهية مع سياسة الشيشكلي، فهذا ما كان يريده الشيشكلي أو ما كان مكلفاً به.

قضية الاتحاد مع العراق

في قضية الاتحاد مع العراق وقف الحزب الموقف العاجز أمام أديب الشيشكلي الذي كان على رأس معارضي الوحدة لاعتبارات مصالحه السياسية الشخصية وطموحاته

السياسية الفردية على أساس أنه في حال الوحدة سيصبح ضابطاً صغيراً برتبة عقيد في دولة غنية بالضباط من رتب عالية سيهيمنون حتماً على الجيش والدولة. مرة أخرى نحن أمام قوميين، إذا اعتبرنا الشيشكلي قومياً، هم أكبر من الحزب ويطبعون الحزب وسياسته ومواقفه بطابع مصالحهم الفردية المتعارضة مع مصلحة الحزب وعقيدته وقضيته وغايته. وإن عبّر هذا الأمر عن شيء فعن ضعف القيادة المركزية في الحزب وعجزها عن فرض سياسة الحزب على الأعضاء أو إعلان هؤلاء الأعضاء خارجين عن سياسة الحزب. ولعل هذه القضية التي نشأت سنة 1950 كانت المقدمة والمؤشر لما سيحدث سنة 1954- 1955 من تورط الحزب في موقف حائر ومتردد وملتبس أقرب إلى حلف بغداد الاستعماري الصهيوني منه إلى معارضته. كان الصراع على أشده بين الاتجاه الوحدوي مع العراق والاتجاه المعارض له والحفاظ على الكيان السوري كما هو. حتى إنه تشكلت في العالم العربي جبهتان: الأولى تتألف من السعودية ومصر هدفها الحفاظ على الواقع الراهن يساندها معظم ضباط الجيش السوري وعلى رأسهم أديب الشيشكلي، والثانية تدعو إلى وحدة سورية والعراق وتتألف من الهاشميين في الأردن والعراق ولم يكن لها من سند في الشام بعد خلع الحناوي. كان من السهل فهم الموقفين المصري والسعودي، فهما تقليدياً ضد نشوء دولة في الهلال الخصيب ستصبح أقوى منهما وستقف ضد هيمنتهما ومد نفوذهما عليها. وفي المقابل كان الهاشميون مع الوحدة ليس من منطلق قومي يحرص على وحدة حياة الشعب ووحدة مصالحه ومصيره، بل من منطلق سياسي فئوي هاشمي. أما موقف الحكومة السورية الرسمي آنذاك، وهي تحت تأثير وسلطة الجيش وأديب الشيشكلي، فتمسكت «بميثاق الضمان الجماعي» الذي أقرته جامعة الدول العربية وقامت على أساسه، وهذا يعني أنها كانت ضد الوحدة العراقية السورية.

نأتي الآن إلى بيت القصيد وهو السياسة الغربية بقيادة أميركا وموقفها من الموضوع، وهذا الموقف وهذه السياسة هي أهم ما يجب حسبانه، بسبب النفوذ الكبير للأميركيين لدى معظم السياسيين السوريين والعرب بشكل عام. نلاحظ هنا بوضوح كبير كيف أن السياسة الأميركية، ومنذ قيام دولة إسرائيل، كانت مع الشيء وضده في نفس الوقت، عاملة على تأجيج الصراع والفوضى والخلافات مع إبقائها تحت السيطرة والتوجيه لاستثمارها في خدمة الأهداف الصهيونية. أميركا كانت ضد الوحدة العسكرية

والاقتصادية والشعبية بين الشام والعراق، لأن مصلحة إسرائيل تقتضي ذلك، وفي نفس الوقت كانت تروّج بقوة لنوع من الوحدة في السياسة الخارجية بين الدولتين السورية والعراقية، أي لتحالف سياسي يناهض النفوذ الشيوعي القادم إلى المنطقة.

أين كان الحزب؟

الرأي العام في الشام والعراق لم يكن يميز كثيراً بين الوحدة القومية اجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً، وبين التحالف السياسي تحت المظلة الأميركية لخدمة أهداف غربية، فانساق بعضهم لهذا التحالف السياسي ظناً أنه يخدم طموحاتهم القومية في الوحدة، وانساق البعض الآخر فرفض الوحدة القومية بحجة الوقوف ضد السياسة الأميركية وأهدافها الاستعمارية وخدمة إسرائيل. أما الحزب الذي كان يفترض به توضيح الأمور والوقوف بقوة وبحزم ووضوح مع الوحدة القومية خارج المظلة السياسية الأميركية الصهيونية، فإن موقفه كان ضعيفاً وملتبساً هو الآخر وحائراً ومتراوحاً عاجزاً عن الانحياز، لأن الآراء داخل مراكز القرار في الحزب كانت متضاربة حول موقف الحزب السياسي من أديب الشيشكلي وحكمه ومواقفه كلها. «...وكان خوفي كبيراً أن يؤدي هذا الموقف السياسي للحزب في النهاية إلى خيبة عميقة عند القوميين تنعكس على قوة الحزب وتماسك صفوفه وصلابتها» (سامي خوري ص 186). يبدو أن مخاوف سامي خوري كانت في محلها، فتماسك صفوف الحزب لم يصمد كثيراً، حيث تضعضعت الصفوف منذ 1954 وحدث الانشقاق سنة 1957، وكان الموقف من حلف بغداد وما رافقه من تذبذب وتردد وتورط وإقدام وإحجام وما رافق ذلك من بلبلة وضعف وعدم تماسك، وما رافق هذا الضعف وعدم التماسك من بروز الفئوية ونزعة التسلط والفردية والإغراءات السياسية ومنافعها الشخصية، السبب الرئيس للانشقاق.

هكذا كان أديب الشيشكلي يمسك الحزب، حيث سياسة الحزب كانت ضعيفة وحائرة، ولم يكن الحزب يمسك أديب الشيشكلي. وإذا أراد رئيس الحزب أن يعبّر عن سلطته على أديب فلم يكن هذا التعبير أكثر من مظاهر شكلية كأن يصرّ الرئيس على جعل أديب ينتظر خارج المكتب قبل أن يأذن له بالدخول، أو كأن يؤدي أديب التحية الحزبية للرئيس عند مواجهته، وهناك روايات عديدة حول هذا الموضوع منها روايات

عبد المسيح نفسه. وعندما نقول إن أديب كان ممسكاً بالحزب فإننا نعني ما نقول. مثلاً، رأى أديب أن سورية يجب أن يكون فيها حزبان رئيسيان فقط هما الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب آخر يمثل الاتجاه العروبي يجب أن يتألف من اندماج حزبي الاشتراكي والبعث العربي، وطرح هذه الفكرة على الحزب السوري القومي الاجتماعي وأقنعه بها فقبلها فوراً وبدأ يستعد لتنفيذها، «فعقد اجتماع موسع في دمشق لمسؤولي منفذيات الجمهورية السورية لوضعهم في الصورة السياسية الجديدة التي إذا تحققت تستلزم من الحزب أن يكون حاضراً لتقديم عدد من الأشخاص في المناطق السورية المختلفة» (سامي ص 201). لكن حزبي البعث والاشتراكي لم يكونا بتصرف الشيشكلي ورهن خططه ورغباته، كما كان الحزب القومي، فرفضا الفكرة وأسقطاها. وهكذا خسر الحزب مرتين: خسر سياسياً من جراء حسبانه على الشيشكلي ويعمل لحسابه في وقت كانت تتعاظم النقمة الشعبية والسياسية على حكمه الاستبدادي. والحزب خسر الشيشكلي نفسه عندما عمد هذا الأخير إلى حل الأحزاب كلها وضيّق عليها وعلى نشاطها، ومن ضمنها الحزب السوري القومي الاجتماعي المحسوب عليه.

ولكي نكون منصفين ونحن بصدد سرد تاريخي يحتم علينا التهيب والتزام أقصى درجات الموضوعية والحقيقة والأمانة في نقل الرواية والمشهد التاريخي، لا بد من الاستدراك والتأكيد أنه بموازاة الفشل والضعف السياسي كان للحزب نجاحاته على صعيد النمو والامتداد والانتشار في صفوف الشعب. كان له قوته الشعبية المتنامية وانتشاره في مختلف الأوساط دون فوارق وحدود طبقية أو مذهبية أو أي نوع من أنواع الحواجز التي كانت تشكل حدوداً للأحزاب والحركات السياسية الأخرى. إنما نقصد القول إن قوة الحزب وانتشاره في مختلف الأوساط والمناطق لم تكن بفضل قياداته المشغولة في صراعاتها وتخبطها في مواقفها السياسية، بل كانت بالرغم من هذه القيادات وغير متكافئة مع هذه القيادات. إن قوة الحزب كانت بفضل عقيدته وقدوة زعيمه الشهيد أكثر بكثير من فعل قياداته ونجاحاتها.

الحزب والعمل السياسي والتحالفات

في بداية الخمسينيات كانت للحزب تحالفاته وعلاقاته السياسية (وهذه انهارت كلها سنة 54- 55 كما سنرى) ولكن لم يكن له سياسة، أي لم يكن له أهداف سياسية

مقررة في مجالسه ويعمل على تحقيقها وفق برنامج معين يضعه أمامه ويعمل على تنفيذه. كان الحزب يتعاطى السياسة المحلية السورية كواحد من القوى السياسية السورية مثل حزب الشعب المهيمن في مجلسي النواب والوزراء، والحزب الاشتراكي العربي برئاسة القومي السابق المطرود من الحزب وصاحب الأدوار الملتبسة أكرم الحوراني، وحزب البعث والجبهة الإسلامية الاشتراكية برئاسة مصطفى السباعي ذي الخلفية الإخوانية والمشهور بإصراره على تضمين الدستور بند دين الدولة. كان عصام المحايري، عميد الإذاعة، هو الممثل عن الحزب في العلاقات السياسية وكان على علاقة تعاون وتفاهم وتنسيق مع كل من الحوراني وأديب الشيشكلي بشكل خاص، ولكن لم يتمثل الحزب ولا مرة في مجلس الوزراء حتى بعد صعود الشيشكلي وسيطرته على كل مفاصل الدولة السورية. أما حزب الحوراني الأقل انتشاراً وقوة من الحزب السوري القومي الاجتماعي فقد كان الحاضر الدائم في مجلس الوزراء رغم تأرجح علاقته بأديب من معارضته إلى موالاته، مع رجحان معارضته له، وكأن أكرم كان مفروضاً فرضاً، من قوى «مجهولة»، على ذوي الحل والربط في الشام. كان أديب الشيشكلي يشرِك الحزب، بشخص عصام، كحليف له في جميع التحركات والاجتماعات السياسية المرتبطة بالصراع على السلطة بين مختلف التيارات السياسية الفاعلة في الشام ولكنه ولا مرة «سمح» للحزب بأن يكون له وزير في الدولة.

إن سياسة اللاسياسة، أي سياسة التعاطي بالسياسة دون استقلالية ودون أهداف سياسية قومية معينة، بل إن الدوران في فلك القوى السياسية الأخرى ذات التوجه الفردي المصلحي، مهما كانت صديقة، دون التفاهم معها على أهداف محددة معينة وإلزامها بتنفيذها تحت طائلة فك التحالف معها، لا يمكن اعتبارها سياسة قومية جديرٌ بالحزب السوري القومي الاجتماعي أن يتبناها. إن سياسة الاستقواء بالتحالفات والعلاقات السياسية والانضواء تحت قيادة القوى السياسية الطائفية الطابع والتوجه، بدل الاستقواء بحضور الحزب الشعبي ونموّه الكبير في جميع الأوساط واستقلاليته السياسية التي تميزه وتحصنه وتزيد من شعبيته، إن سياسة الاستقواء بالغير هذه التي نراها اليوم سنة 1918 إنما تجد جذورها وأصولها منذ بداية الخمسينيات بعد استشهاد الزعيم. فالتحالفات السياسية في استحقاقات معينة والتي تبدأ وتنتهي مع بداية وانتهاء هذه الاستحقاقات، مثل انتخابات نيابية أو الموقف من مشروع سياسي قومي معين،

هي شيء معقول ومقبول ومطلوب وطبيعي في حزب قومي تكون السياسة أحد أضلع نشاطاته، أما أن يكون الحزب كله ملحقاً وتابعاً ومحسوباً دائماً وبشكل مستمر على جبهة سياسية معينة، وبقيادة أطراف أخرى ذات توجه وطابع طائفي في الغالب، فهذا ما يفقد الحزب استقلاليته ويضعفه سياسياً وشعبياً بنفس الوقت.

الانقلاب العسكري الثاني للشيشكلي وموقف الحزب التابع له

قلنا سابقاً إن الشيشكلي كان الحاكم الفعلي لسورية رغم بقائه نائباً لرئيس الأركان ثم رئيساً للأركان فقط بعد انقلابه الأول، ذلك أن الجيش كانت له الكلمة الأولى في توجيه السياسة والسياسيين. وما أن حاول حزب الشعب، الذي كان مهيمناً على مجلسي النواب والوزراء، أن يتصرف بما لا يرضي الجيش ويخرج عن سيطرته حتى انقض هذا الجيش بقيادة الشيشكلي مرة ثانية بتاريخ 29-11-51 وعزل حكومة الدواليبي المؤلفة من حزب الشعب والجبهة الإسلامية والمستقلين والتي كانت قد تشكلت في اليوم السابق. ومن جديد تكرر السيناريو الذي اعتُمد في الانقلاب الأول: بيان الانقلابيين ركز على رفض إنشاء عرش جديد في سورية، إشارة إلى رفض الوحدة العراقية السورية التي كان يروج لها حزب الشعب. رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، وكان يعتبر من الجناح «التقدمي» في حزب الشعب، لم يُعتقل بل حاول الانقلابيون أن يتعاونوا معه لكنه استقال بعد الفشل في تشكيل حكومة يرضى عنها الانقلابيون. حينذاك أذاع الشيشكلي البلاغ رقم اثنين بصفته رئيس الأركان العامة ورئيس المجلس العسكري وأعلن حل مجلس النواب، ثم عين فوزي سلو بمهام رئاسة الدولة متمتعاً بجميع صلاحيات السلطة التنفيذية، وبقي هو رئيساً للأركان ورئيساً للمجلس الأعلى العسكري وعنه تصدر المراسيم اعتباراً من 2-12-51. في هذه الأثناء كان الحزب عبر ممثله عصام المحايري قوة سياسية رئيسة في سورية إلى جانب الإسلاميين والاشتراكيين العروبيين وفي حلف واقعي معهم تحت مسمى «الجبهة التقدمية» التي كان الشيشكلي راضياً عنها. أعطى الحزب تأييداً كاملاً للشيشكلي وكان عصام قريباً جداً منه وكانت جريدة الحزب الجيل الجديد توفر له الدعم الإعلامي (سامي خوري ص 210). ومن جهته ابتدأ أكرم الحوراني يبتعد عن الشيشكلي، ما أدى إلى انفصام العلاقة التي استمرت منذ سنة 49 بين أكرم وعصام،

وبالتالي بين الحزب والاشـتراكيين العروبيين، وابتدأ أكرم يهاجم الشيشـكلي والحزب معاً، حتى إنه في اتهاماته وصل لدرجة الإسـفاف واتهم الحزب بالعمالة لفرنسا وألمانيا وإيطاليـا والاسـتعمار اليهودي وبالتفريط بالحقـوق القومية والدعـوة إلى الصلح مع إسرائيل. (مذكرات أكرم الحوراني ج2 ص 1486).

مآثر وبدائع الشيشكلي والحزب يخسر سياسياً وشعبياً

كان الشيشـكلي قد أظهر منذ مراحل حكمه الأول ميله إلى التسـلط والقمع، وهذه المـرة عبّر عن ضيق من المعارضة التي كان بطلها أكرم الحوراني، فأصدر في أول نيسـان أمراً بإقفال جريدة «الاشتراكية» لأكرم الحوراني. وكان في أول شباط قد أصدر مرسوماً يحظر فيه على أي طالب مدرسـة أو جامعة رسـمية أو خاصة مـن الانتماء إلى أي حزب من الأحزاب السياسـية. كـما أصدر قراراً يحظر فيه على الموظفـين الانتماء إلى الأحزاب السياسـية. ووصل معه الأمر بتاريخ 6-4-52 إلى إصدار مرسـوم بتوقيع فوزي سـلو يقضي بحل الأحزاب السورية جميعها، ومنها طبعاً الحزب السوري القومي الاجتماعي.

في تلـك الفـترة صار الحزب يُعرف في الأوسـاط السياسـية المعارضـة، وهي غالبية الشـعب، «بحزب الشيشـكلي»، وصار الحزب يخسر سياسـياً وشـعبياً من جراء توفيره التغطية لأديب الشيشكلي المكروه شعبياً، وجريدة الجيل الجديد خير برهان. وانفرطت «الجبهة التقدمية» التي كان الحزب قطباً أساسياً فيها.

نشوء حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب يعزل نفسه سياسياً

في هـذا الوقت نضجت المفاوضات بين الحزب الاشـتراكي العـربي وحزب البعث وتشـكل حـزب البعث العربي الاشـتراكي وكوّن معارضة قوية لأديب الشيشـكلي، ما دفـع هذا الأخـير لملاحقتهـم ومطاردتهم والتضييق عـلى تحركاتهم، حتـى إن الحوراني اختفـى كلياً عن الظهور العلني أواخر سـنة 52 ولكن كان من المعروف أنه في دمشـق. أما الحزب السـوري القومي الاجتماعي فقد اكتفى أنه خـارج دائرة الملاحقة والمطاردة وبقي عملياً يمارس نشاطه الحزبي رغم حل الأحزاب وإقفال مراكزها، ولم يبادر الحزب لأي نوع من النشـاط السـياسي أو المبادرة للتصدي لأزمة الحريات السياسـية، فأصبح «لا مع سـتي ولا مع سـيدي»، أي لا يشـترك في الحكم ولا يشـترك في المعارضة. هكذا

تم تحييد الحزب كلياً عن الساحة السياسية « وهذا أسوأ ما يمكن للحزب أن يقع فيه» (سامي الخوري ص 218).

نحن نرى اليوم أن المسألة لم تكن مجرد صراع سوري داخلي على السلطة بقدر ما كان تحكم وتوجيه وتحقيق أهداف مرسومة بدقة تتولاها السفارة الأميركية في دمشق. وقلنا سابقاً إن أبطال الانقلابات في سورية كانوا كلهم أدوات تلعب أدوارها المعطاة لها. كان أبطال الانقلابات يحصلون على هوامش يستطيعون التحرك ضمنها على هواهم ولكن هذه الهوامش لم يكن مسموحاً لها أن تتعارض مع المهمات الاستراتيجية التي يؤدونها. إن عزل الحزب سياسياً «لا مع ستي ولا مع سيدي» أواخر سنة 52 وعدم قيامه بأي مبادرة أو نشاط سياسي وإعلامي وشعبي للضغط وحل أزمة التسلط والحكم الفردي الطاغي لأديب الشيشكلي، جعله أقرب إلى الشيشكلي منه إلى ضحاياه. وكل الأسباب تجعلنا نرى بوضوح أن ذلك كان تمهيداً لعزل الحزب شعبياً وسياسياً مقدمة لوضعه في بلبلة داخلية وإدخاله في حالة صراع داخلي على السلطة بعد قليل، وثم توريطه وضربه الضربة القاضية التي تمت سنة 55.

الشيشكلي يؤلف حزبه

بعد حل الأحزاب وترويض بعضها وخنق البعض الآخر، أقدم الشيشكلي على تأسيس حزب خاص به هو حزب التحرير العربي، وذلك في مهرجان كبير في مدينة حلب. أما الغريب العجيب في الأمر أن أديب انتقل إلى حلب بطائرته الخاصة ولم يدعُ لمرافقته عليها من الصحافيين إلا عصام المحايري! (كان بالإضافة لكونه عميد الإذاعة رئيس تحرير الجيل الجديد). هذه الصورة هي أوضح ما يكون عن الطفولية السياسية، بل العمى السياسي الذي كانت قيادة الحزب واقعة فيه. فقد نجح أديب ومن ورائه بتصوير الحزب في عين الشعب وقواه السياسية المعارضة أنه يؤيد حاكماً عسكرياً دكتاتوراً، والدكتاتورية العسكرية هي دائماً عمرها قصير.

إن المسؤول عن هذا العمى السياسي لم يكن عبد المسيح وحده بل والمجلس الأعلى أيضاً، لأن سياسة الحزب يقررها المجلس الأعلى وينفذها الرئيس. لكن لعبد المسيح الدور الظاهر من الموضوع مما يجعله أكثر مسؤولية. العميد سامي خوري الذي شهد

وشارك في هذا المشهد الحزبي يفسر الأمر ويقول: «قد يكون من أهم الأسباب التي جعلت الحزب يلتصق بأديب الشيشكلي هذا الالتصاق الذي أبعده عن مكانه الطبيعي في العمل السياسي التقدمي الحر المستقل هو أن رئيس الحزب في ذلك الوقت جورج عبد المسيح كان لبناني الجنسية ومحكوماً بالإعدام في لبنان ومطلوباً للقضاء منذ سنة 49 مما قد يكون شكّل عنده نقطة ضعف شخصي انعكست على الحزب وسياسته. كان أديب يبتز العم ويبقيه تحت تهديد الترحيل إلى لبنان» (ص 219). هذه المسألة استعملها العم وقالها بنفسه لخالدة الصالح ليقنعها بإيوائه في غرفتها بعد مقتل المالكي (خالدة الصالح- مقدمة مذكرات الأمينة الأولى). مهما يكن من أمر فإن الوضع الشخصي لعبد المسيح أو غيره ما كان يجب أن يؤثر في سياسة الحزب في أي حال من الأحوال.

عبد المسيح في خدمة أديب؟

لقد ذكرنا سابقاً أن الحزب عقد اجتماعاً موسعاً في دمشق لمسؤولي المنفذيات تنفيذاً لما يخصّه من مشروع سياسي اقترحه أديب يقوم على تشكيل تحالف من الحزب ومن دمج البعث والعربي الاشتراكي. كان ذلك عندما كانت العلاقة جيدة بين أديب وأكرم الحوراني، أما عندما تحول أكرم إلى المعارضة فقد تغيرت سياسة الحزب من أكرم أيضاً وتحولت من التحالف والصداقة إلى الخصومة. يروي سامي خوري على مدى ثلاث صفحات (229- 230- 231) عن وساطة قام بها د. أنطوان المقدسي بين الحزب وأكرم عن طريق جمع سامي بأكرم لبحث إمكانية عمل سياسي مشترك. وعندما وافق عبد المسيح أصر على إرسال عيسى اليازجي مع سامي خوري ليحضر اللقاء، وذلك رغم معارضة سامي الشديدة لذلك، ثم يروي سامي كيف أن عيسى أفشل اللقاء بجدل عقائدي عن العروبة. ويقول سامي إن عبد المسيح تقصد إفشال اللقاء بهذه الطريقة كي يفشِل أي تقارب سياسي مناهض لأديب الشيشكلي.

لم نذكر هذه الواقعة لنؤكد تفسير سامي لها، فقد يكون تفسير سامي صحيحاً وقد يكون غير صحيح، ولكننا لا نعتبر أن سياسة عبد المسيح كانت تخدم الشيشكلي صدفة، لا صدف في السياسة بل تبادل مصالح. وهذه المرة أيضاً يلفتنا عبد المسيح عندما يدخل في جدال عقائدي في معرض موضوع سياسي بحت. هكذا كان يتصرف في لقاءاته مع كمال جنبلاط في دمشق سنة 49- 50 عندما تظاهر هذا الأخير أنه مهتم

بالحزب وعقيدته (كي يكسب سياسته ودعمه)، كان عبد المسيح يطلب من جنبلاط أن «يدرُس العقيدة» مما اضطر غسان تويني لأن ينصحه بالاقتصار على البحث السياسي مع جنبلاط ولا يتعداه إلى العقائدي. وهنا نتذكر سعاده وما نقله عنه جبران جريج هكذا: «الزعيم أبدى تذمره من زيارة أخرى للشهبندر قام به وفد من الحزب شكله الزعيم لمتابعة الاتصالات، وهذا التذمر نشأ من حوار غير موفق ورط الوفد نفسه فيه حول العقيدة والعروبة والحدود الطبيعية بدلاً من أن يستمر الحوار والبحث على أساس سياسي واقعي لا علاقة له بهذا الجدل الذي لا يفيد في هذا الحقل بل يضر» (مع أنطون سعاده ج 2 ص 95).

المهم في هذا الموضوع أن عبد المسيح لم يكن ليعترض على العلاقة السياسية الجيدة مع الحوراني، والتي كان يتولاها عصام المحايري، إلا بعد تحول الحوراني إلى معارضة أديب الشيشكلي. وإن عبد المسيح كان يُعرف بأنه دائماً في صف الشيشكلي ويشيد به ويمدحه، وبعد كل «مآثر» أديب وما ألحقه من أضرار في الحزب، ها هو عبد المسيح سنة 2006 يشيد به ويقول لمنير حيدر: «...أديب الشيشكلي الذي استمر في المسيرة الصاعدة حتى وصل إلى رئاسة الجمهورية في دولة الشام. وهذا المركز سلط عليه سهام المستعمر وعمالة بعض حكام الدول العربية فانزلق إلى العروبة الزائفة ظناً منه أن التيار اليساري يحمله إلى مركز تحقيق أفضل. وبقي في صموده بشأن المسألة الفلسطينية فألّب عليه الاستعمار المتهود...» (رسالة إلى منير حيدر ص 72). ومرة أخرى نقرأ مثل هذه الإشادة بأديب الشيشكلي على لسان عبد المسيح في رده على كتاب هشام شرابي الجمر والرماد، حيث يعتبر أن الأميركان سنة 53 كانوا يريدون تنحية الشيشكلي وأننا «صمدنا ضد خطط الأميركان المتهودة»، ويعتبر أن هشام شرابي اندفع مع خطط الأميركان ضد الشيشكلي وأقنع عصام بوجوب تنحية الشيشكلي (بدأ جمراً وانتهى رماداً ص 101). هل كان عبد المسيح مغشوشاً بالشيشكلي لهذ الدرجة وبعد كل ما سببه هذا الأخير من أضرار ومكائد ضد الحزب؟

أديب يصبح رئيساً للجمهورية والحزب معه «على طول»

في تلك الأثناء استقال بشارة الخوري، 8-9-52، بعد امتناع الجيش عن التدخل ضد المعارضة التي كانت تقودها «الجبهة الوطنية الاشتراكية» المؤلفة بشكل أساسي من

الحزب وجنبلاط وشمعون، وتم انتخاب كميل شمعون رئيساً في 23-9-52. ذلك أجج المعارضة في الشام لحكم الشيشكلي وزاد في الوقت نفسه من قمع هذا الأخير لها باعتقال المزيد من البعثيين والاشتراكيين مثل ابن سلطان باشا الأطرش منصور وشقيقه ناصر، وهذا ما كان يزيد في رصيد هذه المعارضة ويزيد في النقمة على حكم أديب ومن يؤيده. الحزب في لبنان كان قطباً رئيساً في المعارضة الشعبية والسياسية القوية لبشارة الخوري وعهده، أما في الشام فكان موقفه معاكساً تماماً، فقد كان على خصومة مع المعارضة الشعبية القوية لحكم الشيشكلي وعلى موالاة ومحسوبية مع حكم الشيشكلي الضعيف والمعزول شعبياً. فالحزب تعاون مع أديب بواسطة عصام عندما أصدر دستوراً جديداً لسورية وقد أعلن مجلس الوزراء مشروع الدستور الجديد الذي يأخذ بالنظام الرئاسي بتاريخ 21-6-53، وحدد موعداً للاستفتاء عليه وانتخاب رئيس الجمهورية في الوقت نفسه بتاريخ 7-7-53 في ظل مقاطعة سياسية وشعبية ما عدا الحزب السوري القومي الاجتماعي (سامي ص 233-234). وطبعاً كان أديب هو المرشح الوحيد، وطبعاً فاز بأغلبية 99 بالمئة.

رغم ذلك أديب يخذل الحزب

كانت المعارضة قد عارضت الدستور الجديد وقاطعت الانتخابات وعقدت مؤتمراً في حمص بتاريخ 4-7-53 ضم أحزاب البعث العربي الاشتراكي والشعب والوطني والجبهة الإسلامية وانضم إليهم سلطان الأطرش وشكلوا لجنة أصدرت بياناً تقول فيه: «إن دساتير الأمم ثمرة جهادها ونضالها والدساتير الحرة يكون ميلادها في جو حر طليق، أما تلك التي تدبر في ظلام الدواوين وفي جو خانق من الحكم البوليسي والإرهاب فلن تكون إلا سجل الرق وسفر العبودية لأمة كريمة عرفت قيمة الحرية». كان هذا المؤتمر عملية فصل نهائي للحزب السوري القومي الاجتماعي عن التيار الذي يمثل معظم الفعاليات السياسية في البلاد ووضَعه في صف المؤيدين لأديب الشيشكلي دون أن يحصل منه على أية فائدة أو يحقق له أي مبدأ من مبادئه القومية الاجتماعية (سامي ص 238). إن أول عمل قام به أديب كرئيس للجمهورية هو إطلاق جميع الموقوفين السياسيين من المعارضة، وعندما حان موعد تأليف الحكومة في 19-7-53 تم إرضاء مختلف أحزاب المعارضة ورفض أديب توزير صديقه عصام المحايري. ولماذا

يوزّره، فالحزب في جيبه بوزير وبدون وزير. في آخر شهر تموز أصدر قانون الانتخابات النيابية الجديد وحدد تاريخ 9-10-53 موعداً لإجرائها.

ويسقطه في الانتخابات

أحزاب المعارضة تقاطع الانتخابات وتصدر ميثاقاً يشجب الحكم الفردي ويعتبر ما يصدر عنه غير ملزم للبلاد ويدعو لإقامة أوضاع ديموقراطية دستورية جمهورية نيابية تنبثق عن انتخابات صحيحة حرة في ظل حماية وإطلاق الحريات العامة وحماية الاستقلال والسيادة القومية من المؤامرات الداخلية والخارجية، أما أديب فأصدر مرسوماً تشريعياً سمّاه قانون الأحزاب ودعا جميع الأحزاب لطلب ترخيص بموجب القانون الجديد. لم يتقدم بطلب ترخيص سوى الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب الشيشكلي، أي حزب التحرير العربي، والحزب الشيوعي، واعتبرت الأحزاب الموقعة على ميثاق المعارضة أحزاباً غير شرعية. والغريب هو أن طلب الحزب للرخصة لم يستجَب له ولكنه اعتبر مرخصاً بمجرد عدم إجابة الحكومة على طلب الترخيص خلال المدة القانونية المحددة في القانون وهي شهر واحد. أما الانتخابات فقد دخلها كل من حزب التحرير والحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي. لم تعلن نتائج الانتخابات في مساء يوم الانتخاب كما جرت العادة بل تأخرت لظهيرة اليوم التالي وكانت المفاجأة غير المتوقعة للحزب وهي سقوط مرشحيه كلهم ما عدا زكي نظام الدين في القامشلي، ولم يفز إلا مرشحو حزب أديب الشيشكلي ومن كان على لائحته. وهكذا تكون سياسة الحزب قد خسّرت الحزب مرتين: مرة عندما فشل مرشحوه، أو تم تفشيلهم، وكان ذلك نكسة موجعة للقوميين حيث إن الحزب بالرغم من إعطائه شرعية للانتخابات بدخوله فيها وعدم مقاطعتها قد تلقى ضربة لم تكن متوقعة ممن كان محسوباً عليه، والمرة الثانية أو الخسارة الثانية، وهي الأفدح، هي خسارته المصداقية الشعبية ودخوله في عزلة سياسية واكتسابه صفة بشعة كثيراً هي صفة «حزب الشيشكلي». كانت إدارة الحزب المركزية تبرر سياستها بأن همها الرئيس هو الوصول إلى الشعب وليس إلى السلطة، وطالما أن الشيشكلي يغض النظر عن نشاط الحزب في صفوف الشعب فهذا يكفي ليبرر الحزب مهادنته ومهادنة حكمه. لكن هذا

التبرير أثبتت الأحداث وتطورها بطلانه وفساده، إذ خسر الحزب شعبياً وتعاظمت قوة الأحزاب المعارضة كثيراً.

الانفجار الشعبي ضد الشيشكلي

سوف نختصر مرحلة طويلة من حكم الشيشكلي كرئيس للجمهورية، وسنذكر فقط أن المعارضة الشعبية تعاظمت ضده وشهدت سورية إضرابات ومظاهرات طلابية احتجاجاً على قمع الحريات وعلى الحكم الفردي الاستبدادي الخارج عن إرادة الشعب. كما شهدت اعتقالات سياسية وزج الحوراني وعفلق والبيطار وحسن الأطرش وغيرهم في السجون. الطريف هنا أن سامي خوري رأى المعتقلين في السيارات العسكرية من شرفة مكتبه وعرف منهم الحوراني وصبري العسلي ومخايل إليان، وتمنى أن يكون عصام المحايري بينهم، لأنه كان يكره أن يرى الحزب خارج معارضة استبداد أديب وتوقع أن يصبح الحزب خارج الحياة السياسية كلياً في سورية. وقد أسر بهذا التمني وهذا التوقع إلى عبد المسيح الذي «نظر إليّ نظرة جوفاء» (أمل لا يغيب ص 246).

كما انفجرت ثورة في جبل السويداء أخمدها الشيشكلي بالقوة العسكرية وأراد اعتقال سلطان الأطرش قائد الثورة السورية ضد الفرنسيين سنة 1925. ويذكر أن وساطة الحزب آنذاك أتاحت للأطرش الانسحاب إلى الأردن عبر ثغرة من طوق الجيش عملاً بالخطة التي اقترحها الحزب وتم التوافق عليها. بعد ذلك قام الضابط العربي الاشتراكي مصطفى حمدون بتمرد عسكري في حلب فجر 25-2-54 على رأس سرية المشاة التي يقودها واحتل إذاعة حلب وأعلن انفصال منطقة حلب عن حكومة أديب الشيشكلي وناشده مغادرة البلاد حقناً للدماء.

وأخيراً اقتنعت إدارة الحزب لكنها تأخرت كثيراً

يقول سامي خوري إن قيادة الحزب عقدت اجتماعاً في ذلك اليوم ورأت فيه أنه من الأفضل أن يغادر أديب الشيشكلي البلاد وإعادة الوضع السياسي إلى ما كان عليه قبل انقلاب الشيشكلي. وكان معلوماً أن قيادة الحزب لم تكن لتقرر وترى هذا الرأي لو لا علمها بعجز الشيشكلي وعزمه بالفعل على مغادرة سورية، ولو لا أن الرأي العام كله كان ينحو هذا المنحى ويضغط لإعادة الوضع السياسي إلى ما كان عليه قبل الانقلاب.

أي إن قيادة الحزب كانت لا تزال لآخر لحظة مرهونة للشيشكلي وتابعة له ومراهنة عليه. كتب الرجل استقالته وأعطاها للزعيم شوكت شقير رئيس الأركان لإذاعتها، وغادر سورية حوالي التاسعة من مساء 25-2-1954.

موقف محرج ومخجل للحزب

أركان المعارضة الذين أخلى شقير سبيلهم بعد مغادرة الشيشكلي، اجتمعوا في حمص في بيت هاشم الأتاسي وانضم إليهم شقير كرئيس للأركان، وأعلنوا العودة إلى الوضع الدستوري الذي سبق الانقلاب. وهنا يجب ذكر ما حل بالمحايري الذي أصر عليه عبد المسيح وغسان جديد وغيرهما بالانضمام إلى اجتماع المعارضة في حمص. كان المحايري يعرف أن الحزب قد تأخر كثيراً وأن المجتمعين في حمص لن يستقبلوه، فرفض رفضاً شديداً وعنيداً، ولكنه رضخ أخيراً لأوامر الرئيس عبد المسيح فذهب...» وعاد مكفهر الوجه وفي وضع نفسي سيئ جداً وقال إنه عاد لأنه عرف أن لا مجال لدخوله اجتماع المعارضة، وكانت تعرف بالجبهة الوطنية، وإنه لم يرد أن يعرّض نفسه لموقف يعرف مسبقاً طبيعته ونتائجه» (سامي خوري ص 254)

كيف استقر الوضع السياسي بعد مغادرة الشيشكلي؟

يظهر أن حزبي الشعب والوطني كانا أقوى وأكثر شعبية من حزب البعث العربي الاشتراكي والجبهة الإسلامية معاً، لأن نتيجة اجتماع المعارضة في بيت هاشم الأتاسي في حمص كانت تكليف صبري العسلي تشكيل حكومة جديدة. تشكلت الحكومة وعارضها حزب البعث العربي الاشتراكي ولم يشارك فيها، وأصدر بياناً ضمّنه ثلاثة شروط أو مطالب بينها واحد هذا نصه: «سحب ترخيص الأحزاب الإقليمية التي لا تدعو إلى القومية العربية والتي تحمل طابع التشكيلات العسكرية»، وبدهي أن يكون المقصود هو الحزب السوري القومي الاجتماعي. العسلي لم يتجاوب مع هذا الشرط، فهو لا يريد أن يتقمص أسلوب الشيشكلي، فبقي حزب البعث خارج الحكومة وانتقل للمعارضة. والجدير ذكره هنا أن المحايري استعاد صفته نائباً عن دمشق بسبب إعادة الوضع الدستوري إلى ما كان عليه قبل الانقلاب، وهاشم الأتاسي استعاد صفته رئيساً للجمهورية وأول تدبير قام به هو تكليف صبري العسلي من حزب الشعب تشكيل حكومة ضمت أعضاء من

حزبي الشعب والوطني ومستقلين، واستثنت حزب البعث، وطبعاً استثنت أيضاً الحزب السوري القومي الاجتماعي المحسوب على أديب الشيشكلي. وهكذا تكون قيادة الحزب في الشام قد وضعت الحزب في موضع «لا مع ستي ولا مع سيدي».

هكذا كان الوضع السياسي العام في الشام، وهكذا كان وضع الحزب قبيل مقتل المالكي. الوضع السياسي العام في الشام لم تكن السياسة الأميركية بعيدة عنه وعن مجرياته: الشيشكلي كان رجلها المعتمد الأمين، وعندما أنجز مهمته سلّم الأمر لحزبَيْ الشعب والوطني المعروفين بموالاتهما وطواعيتهما للغرب، وصار الدرب مفتوحاً لشكري القوتلي للعودة إلى دمشق من منفاه في القاهرة حاملاً معه سياسته المتعاطفة مع الغرب بكل جرأة واطمئنان. سوف تهدأ التوترات والانشغالات بالسياسة المحلية الآن وسوف تزداد حدة المسائل والقضايا المتعلقة بالسياسة الخارجية، وتحديداً بموضوع الأحلاف والاصطفافات السياسية الخارجية وحلف بغداد بشكل أخص. وصار بإمكاننا الآن أن نقرأ في رسائل الشرابي وفي البيان السياسي الذي أصدره الحزب ونفهمهما على ضوء فهم ظروفهما.

رسائل الشرابي

كان «الأمين» هشام الشرابي في أميركا صديقاً للسفير اللبناني هناك شارل مالك. ومعروف أن مالك متأثر بالفكر المسيحي المتصهين أو ما صار يعرف «بالمسيحية الصهيونية» التي تعتبر المسيحية امتداداً لليهودية ومنبثقة منها ومكملة لها وتتبنى كل القصص التوراتية وتقدسها، وتأخذ بكل التأويلات الصهيونية للدين اليهودي والوعد الإلهي المزعوم بتمكين اليهود من احتلال فلسطين وقتل وتشريد أهلها منها... الخ. ومن نافل القول أن يكون مالك متماهياً مع السياسة الأميركية- الصهيونية وأهدافها في بلادنا، إذا لم يكن عميلاً لها وموظفاً رسمياً عندها. مالك أقنع هشام بأن الأميركان بصدد تنفيذ انقلاب في دمشق لإنقاذها من النفوذ الشيوعي السوفياتي وإعادتها إلى «العالم الحر»، وأن الحكومة الأميركية ترغب بأن يكون الحزب هو رافعتها في هذا الانقلاب بسبب ما يُعرف من عداء فكري وسياسي بين الحزب والشيوعية، وأن الوقت قد حان ليمسك الحزب السلطة في الشام. مالك لم يعط هشام تفاصيل أكثر بانتظار الموافقة المبدئية من مركز الحزب. بدأت رسائل الشرابي حاملة هذا الاقتراح-

المشروع إلى المركز خلال شهر كانون الثاني من سنة 1955، وكان آخرها في 19 شباط، أي قبيل البيان السياسي الذي أصدره الحزب حول «الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي»، وخاصة ما يتعلق منه بحلف بغداد ومشروع ايزنهاور وكل السياسة الغربية الاستعمارية الداعمة للصهيونية والمتبنية لأهدافها في بلادنا.

بقي هذا المشروع الذي حملته رسائل الشرابي إلى المركز بين أخذ ورد ودرس واستقصاء حول جديته وتفاصيله، فلم يرفضه الحزب فوراً بل صرف وقتاً لدرسه والتأكد منه ومن ضماناته، يقول عبد المسيح: «...هذه الرسالات حملها إنعام رعد مع أجوبتي المبدئية عليها إلى بيروت لدرسها مع الخمسة من أعضاء المجلس حينذاك في لبنان ومع عصام المحايري الذي جاء بيروت في ذلك الوقت ومع عميد التدريب غسان جديد» (رد عمدة الإذاعة على مذكرات الأمينة الأولى ص 339). كما حاول إرسال عميد الإذاعة وعضو المجلس الأعلى عصام المحايري إلى أميركا للاطلاع على حقيقة الأمر وتفاصيله وضماناته، وعندما تعثرت رحلة المحايري إلى أميركا عقد المجلس الأعلى جلسة بتاريخ 16 نيسان (قبل أسبوع من مقتل المالكي) واتخذ قراراً برفض هذا المشروع، وذلك بعد أن رفع رئيس الحزب جورج عبد المسيح إلى المجلس رفض الرئاسة «المبدئي» لهذا المشروع، أي ليس النهائي، بانتظار سفر المحايري إلى أميركا للتأكد من العرض وضماناته. ولا يخفى أن الرفض المبدئي يعنى إبقاء المجال مفتوحاً لمزيد من الدرس والمناقشات والمفاوضات. هناك رسالة من عبد المسيح إلى الشرابي بخصوص هذه المسألة، والرسالة وقعت في أيدي السلطات السورية في محاكمات المالكي واستُعمِلت ضد الحزب ولكنها لم تُنشر. هذه الرسالة الجوابية ليست متوفرة اليوم، مع أنه كان يفترض بعبد المسيح أن يحفظ نسخة عنها للتاريخ. لقد أفرج عبد المسيح عن «بعض» مضمونها، وأوضح ما يلي: «...الرسالة واضحة.. فيها تحذير واضح من أن يؤخذ الشرابي لقلة خبرته بأمور من هذا النوع.. وفيها تحذير من أشخاص وحوادث يجدر أن تعلمنا بالبرهان. وفيها تذكير له بأن عصاماً سيذهب في جولة للاتصال بالأحلاف(؟) وتحذير من أي عمل حتى يصل عصام....». بدهي أن هذا الذي ذكره عبد المسيح عن مضمون رسالته للشرابي لا يعنى أبداً أنه رفض مقترحاته الواردة في رسائله، رغم ذلك يتابع عبد المسيح في توضيحه ويقول: «الرسالة واضحة برفض اقتراح شرابي لأسباب مذكورة.. وتحذيره من مزالق السياسة...» (مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة...ص 190).

إن توضيح عبد المسيح هذا ليس واضحاً أبداً، وليس كافياً للقول إنه رفض مقترحات الشرابي، خاصة وأن البيان السياسي الذي أذاعه الحزب يشدد على سياسة رفض الحياد وضرورة التوجه إلى الغرب للوقوف معه، كما سنرى بعد قليل. كيف يكون عبد المسيح قد رفض مقترحات الشرابي وهو كان بصدد إرسال عصام إلى أميركا للبحث فيها والتأكد من ضماناتها، وقد أرسل لهشام يذكره بسفر عصام ويحذره «من أي عمل حتى يصل عصام»، وكان قد كلف هشام بالحصول على فيزا لعصام رأساً من أميركا لئلا يحصل تأخير ومماطلة من السفارة الأميركية في دمشق، ففعل هشام واستحصل على الفيزا، وتكفل عبد المسيح كرئيس للحزب بدفع ثمن بطاقة السفر وكل تكاليف السفرة. وكل هذه الأمور والتفاصيل اعترف بها عصام خطياً في مرافعته أمام المحكمة العسكرية في دمشق سنة 1955، وبالرغم من أن عصام في مرافعته سيقول كلاماً دفاعياً عن نفسه وعن الحزب ويفيد بأن الحزب رفض مقترحات الشرابي، فها هو يقول: «... ولهذا اهتم الحزب بمعرفة المصدر الذي جعل هشام يذهب في تأكيداته واقتراحاته هذا المذهب، لأن معرفة هذا المصدر وكونه أميركياً أم لا وما هي قيمته ومسؤوليته كلها أمور تجعل لتأكيدات الشرابي قيمتها أو عدمها. ولذلك فكّر الحزب أو رئيسه على الأصح، على الرغم من رفض الاقتراح، إيفاد موفد على نفقة الحزب مهما بلغت التكاليف للاتصال بهذا المصدر واستدراجه إلى الإفضاء بمعلومات وبالذين سيكونون الأداة في هذا الانقلاب...» (صفحة 101 من كراس مرافعة عصام المحايري). وقال أيضاً: «إن الحزب كلّف هشام الشرابي بالحصول على تأشيرة سفر لعصام المحايري إلى أميركا لأنه يخشى أن تعرقل هذه التأشيرة من قبل السفارة في دمشق» (نفس المصدر ص 104).

يبدو أن هذا المشروع قد أسال لعاب البعض من مسؤولي الحزب، ذلك أنهم صاروا يطرحون شروطاً لقبوله، ومن هذه الشروط أن تعترف الحكومة الأميركية بحقوقنا القومية، ما يدل على أن البعض في مركز الحزب كان لا يزال يراهن على أن الحكومة الأميركية يمكن لها أن تعترف وتلبي «شروطنا القومية»، وهذا البعض كان من جماعة «الخط المتصلب» الذي يمثله عبد المسيح ومن «الخط المتساهل» الذي كان يمثله خصوم عبد المسيح في نفس الوقت. والدليل هو زيارات المسؤولين الحزبيين لشارل مالك عند عودته إلى لبنان والنقاش معه في هذا الموضوع، وهذا ما بررته عمدة الإذاعة في ردها على

مذكرات الأمينة الأولى بالقول: «وإذا كان الأمناء قبرصي وأرشيد والمحايري والرفيق سعيد تقي الدين زاروا مالك وتحدثوا إليه فلأنه عارف بأمور تساعد العاملين في النهضة السورية القومية الاجتماعية على استجلاء الأمور...» (الرد ص 191). أما عن «الخط المتصلب والخط المتساهل» فإن أطراف الصراع على السلطة كانت هكذا تسمي بعضها، وقد قلنا سابقاً إن الخلاف في الحزب لم يكن على العقيدة أو على الاتجاه السياسي بل على السلطة وكيفية ممارستها وأحقية ممارستها. وإن تطابق الموقف من رسائل الشرابي كما التوافق على مضمون البيان السياسي الذي أذاعه الحزب دليل آخر على ما نقول. نحن ليس لدينا الوثائق الأصلية لهذه القضية، أي ليس لدينا نسخ عن رسائل الشرابي ولا نسخ عن مداولات الرئاسة والمجلس الأعلى أو نسخ عن قراراتها في هذا الموضوع، ولا نسخ عن أجوبة عبد المسيح للشرابي، ومعلوماتنا مأخوذة من شهادات وأقوال خطية قصيرة، لكن كافية، للأشخاص الذين كانوا معنيين بهذا الموضوع. أما بيان الحزب بعنوان «الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي» فلدينا نسخة منه وهي تعوض عن فقدان نسخ الرسائل.

البيان السياسي

هذا البيان صدر عن الحزب باتفاق سلطتيه التنفيذية والتشريعية تحت عنوان «الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي- وموقف الحزب من شؤون الساعة وقضايا الأحلاف»، لقد أعده رئيس الحزب جورج عبد المسيح وكتبه عميد الإذاعة عصام المحايري ودرسه ووافق عليه المجلس الأعلى. صدر هذا البيان في غمرة الصراع السياسي الخارجي على سورية والصراع السياسي الداخلي بين القوى السياسية السورية. كان عنوان ذلك الصراع هو حلف بغداد والموقف منه، وهو حلف يرعاه «العالم الحر» حسب التعبير الشائع يومذاك، أي الغرب بقيادة أميركا ويضم عراق نوري السعيد وتركيا بشكل أساسي اللذين عقدا ميثاقاً بينهما في 24 شباط 55 «للتعاون في مجالات الأمن والدفاع ضد الخطر الشيوعي»، ثم انضمت باكستان في تموز 55، ثم إيران في تشرين الثاني، في مواجهة «الستار الحديدي» أي الجبهة الشيوعية بقيادة روسيا والاتحاد السوفياتي. وكان لحلف بغداد دول وحكومات تتعاطف معه وتدور في فلكه وتدعمه دون أن تنضم إليه رسمياً، مثل دولة إسرائيل ومثل حكومتي الأردن ولبنان،

في مقابل دول وحكومات ضده تقف مع الجبهة الشيوعية السوفياتية أو واقعة ضمن نفوذها مثل سورية الشام. أما السعودية فكانت الاحتياطي الأميركي وتظهر بمظهر المعارض لحلف بغداد تحت ستار الخصومة التقليدية مع الهاشميين في العراق والأردن. أما مصر فكانت في عهد الملكية مع المحور الأميركي وثم صارت مع عبد الناصر في محور عدم الانحياز و«الحياد الإيجابي» وهؤلاء كانوا ضد حلف بغداد وأقرب إلى الجبهة الشيوعية. مركز الحزب كان في الشام وأغلب العمد مقيمون في دمشق أما المجلس الأعلى وأغلب أعضائه فلبنانيون مقيمون في بيروت يأتون إلى دمشق في نهاية كل أسبوع لعقد الاجتماع الدوري لمجلسهم. وكان الحزب على خصومة شديدة ومنافسة قوية مع جميع الأحزاب الدمشقية تقريباً، وسبب هذه الخصومة، إضافة إلى الصراع العقائدي، هو ما شرحناه مطولاً عن موقف الحزب المؤيد للحكم الاستبدادي لأديب الشيشكلي المكروه شعبياً والمقاطَع من جميع القوى السياسية المحلية السورية، ناهيك عن الموقف السياسي العالمي وموقع مختلف الأحزاب والتيارات السياسية الشامية من سباق السياسات الخارجية وتنازعها على سورية. كان الحزب في ذلك الوقت متهماً بتعاطفه مع الغرب والدائرين في فلكه، أي حكومة نوري السعيد في بغداد وحكومة كميل شمعون في لبنان. وكان الحزب يجهد لنفي تلك التهمة ويسعى لتقديم نفسه كحركة سيادية سورية مستقلة غير خاضعة للنفوذ الأجنبي، وكان يرفع شعار «لا شرقية ولا غربية حركة قومية اجتماعية». هكذا هو الحزب في الأساس كما بناه سعاده وهكذا هو الحزب دائماً في وجدان أعضائه، ولكن هل استطاعت قياداته الثبات على هذا الأساس والسير دائماً بما يرضي وجدان الأعضاء القوميين الاجتماعيين؟ هذا ما سيجيب عنه مضمون البيان السياسي الذي سنقرأه بعد قليل. نحن نرى أن الجواب هو لا، لم تستطع قيادات الحزب أن تقنِع أحداً، لا الأعضاء القوميين الاجتماعيين ولا الشعب السوري ولا الأحزاب والتيارات السياسية السورية، بأن حزب سعاده لا زال كما بناه مؤسسه ورسم له سياسته القومية المستقلة.

كيف ستستطيع هذه القيادات أن تقنع الأعضاء والمواطنين والتيارات السياسية الأخرى بأن الحزب هو حزب مستقل وسياسته مستقلة تعمل للسيادة القومية وتحارب النفوذ الأجنبي وعملاءه المحليين الذين ينفذون سياسة الأجنبي وأهدافه وغاياته في

البلاد، وهذه القيادات متعاطفة مع إحدى الجبهات الخارجية وغارقة ومنغمسة بصفقات سياسية ومالية وتسليحية معها؟

لقد تكلمنا كثيراً في هذا الفصل عن «تعاطف» قياديي الحزب كلهم، بمن فيهم وعلى رأسهم عبد المسيح، مع الغرب ومؤيديه وعماله المحليين في لبنان والشام. وسنرى الآن كيف كانت العلاقة الودية مع عراق نوري السعيد وكيف كان التمويل والتسليح يصل الحزب من العراق الخاضع للسياسة الأميركية. فعبد المسيح يقر بالتعاون مع الحكومة العراقية التي «اقتنعت» بأن الحزب يُعَد الثورة الوحيدة التي تستحق المساندة، ووعد العراقيون بالمساعدة (ص 114- 115 من رسالة إلى منير حيدر). تجدر الملاحظة هنا أن العم يأخذ على منير قوله بأن الحزب فكر بالتعاون مع بغداد، ويسمي قول منير «وهماً»! أما في الصفحة 123 فيقول: «إن رئاسة الحزب تمكنت من جعل حكومة العراق تساند، سراً عن الأميركان والإنكليز، بمساعدة شمعون، في غض البصر عن وصول السلاح إلينا إلى مطار بيروت وأماكن أخرى»، (ثم ما يلبث أن ينتقد من اعتبروا هذا الأمر «تعاوناً بغيضاً»)! ثم يعمد لاحقاً إلى اتهام عبدالله سعاده وسامي خوري وجورج صليبي بأنهم فضحوا للأميركيين اتصالات الحزب السرية مع حكام العراق واستلام السلاح منهم بتسهيل من شمعون (نفس المصدر ص 126). يا للسذاجة، وكأن الأميركيين بحاجة لعبدالله سعاده وسامي خوري وجورج صليبي ليفضحوا السر ويخبروهم عن أمر ذي علاقة بشمعون وحكومة العراق!

هذه العلاقة السياسية مع حكومة نوري السعيد سبقت البيان السياسي الذي صدر عام 55، فها هو عبد المسيح يقول لمنير حيدر: «أتينا بالسلاح بعد مفاوضات ودراسات استمرت من أواخر عام 54 بواسطة آل الجمالي النيّري الفكر وبضعة من الساسة والضباط الذين هالهم المد الشيوعي والانكفاء البريطاني عن المنطقة فأقنعناهم أن فينا القوة التي ستغير الوجه الكالح» (نفس المصدر ص 127). في هذه الأجواء من التعاطف والتعاون السياسي والمالي والسلاحي مع الأميركيين وعمالهم في لبنان والعراق، الذين «هالهم الانكفاء البريطاني عن المنطقة»، حسب تعبير عبد المسيح، أصدر الحزب بيانه السياسي الذي نقحه وطبعه محمد يوسف حمود في بيروت على شكل كراس من سبعين صفحة. فماذا في هذا البيان؟

قلنا إنه كبير ومؤلف من سبعين صفحة، لذلك سنكتفي بإبراز أهم نقاطه وخاصة النقاط التي تبين لنا إذا كان الحزب يرفض حلف بغداد أم لا. في هذه المسألة بالذات تبدو الازدواجية واضحة وصريحة، نجد في البيان لغتين وموقفين، وكما يقول المثل ضرب على الحافر وضرب على المسمار، وإن كان الضرب على حافر الرفض أقل بكثير من الضرب على مسمار القبول. فالقيادات الحزبية تريد أن ترضي أعضاءها وتقدم نفسها كملتزم بعقيدة سعاده وغاية الحزب، فترفض حلف بغداد الاستعماري، وهذه القيادات نفسها تريد من الجهة الأخرى وفي نفس الوقت أن تبرر جموحها نحو الغرب وعماله المحليين والتورط معهم بعلاقات تعاطف وتعاون سياسي ومساعدات مالية وتسليحية، وقد بينّا بعض تفاصيلها فوق، فترفض الحياد وتروج لضرورة التوجه نحو الغرب وتقطع أي إمكانية وأي احتمال لمجرد التفكير بالالتفات إلى المعسكر الشيوعي. هكذا يكون الرقص على الحبلين: أمام القوميين نقول إننا رفضنا حلف بغداد، وأمام أصدقائنا الأميركان نقول إن موقفنا واضح معكم، لقد بررناه نظرياً في البيان السياسي ونفذناه عملياً على الأرض كما تعلمون، لكننا مضطرون لإرضاء قواعدنا الحزبية.

رفض

فلنقرأ: «**إن الغرب الذي يقدمونه لنا ضماناً لسلامتنا طعننا في إبان تعاوننا معه (يقصد في الحرب العالمية الأولى)، يشجعه على ذلك ضعفنا، وإن الاعتماد عليه لا ينقذنا لأنه اعتماد على قوة لا نملكها ولا نملك توجيهها لصالحنا. والويل لنا إذا نحن ركنّا إلى الغرب مع كل تعهداته ومواثيقه وكنا في الوقت نفسه ضعفاء. ألم تكفنا تجربة الحرب العالمية الأولى وقت كان شبابنا وأبطالنا يتساقطون لنصرة القضية المشتركة، قضية حرية أمتهم المشتركة مع الغرب في صراع واحد مع الترك وحلفائهم الألمان، فإذا بالغرب يمتهن حرمة شهدائنا ويلغ في الدماء الزكية التي بذلناها ويقابلنا بأبشع جريمة مرت بالعالم حتى اليوم، جريمة تقطيع أوصال شعب بأسره وإلقائه لقمة سائغة في أشداق التجزئة والدسائس الصهيونية. هذا الغرب بعامل مصالحه الاستعمارية وخضوعه للنفوذ الصهيوني، وبالرغم من تعاوننا معه، ساعد اليهودية العالمية على اغتصاب أرضنا في فلسطين... ومعنى هذا أن الأطماع الاستعمارية للغرب في بلادنا ما زالت قائمة، وما زال اليهود من وراء هذا الغرب يحركون ويوجهون لما فيه تحقيق أطماعهم التوسعية،**

فتعاوننـا مع الغـرب واعتمادنا على مواثيقـه ونحن ضعفاء لا ينجينا مـن أخطار مؤامرة جديدة»(البيان السياسي صفحة 13– 14)

ونقـع على كلمة «رفـض» يتيمة وبطريقة غير مباشرة هكذا: «**ليس مبدأ الحلف بحد ذاته هو الذي يدفعنا إلى رفضه، ولا كون التحالف هو مع الغرب بواسطة تركيا، بل لأن الحلف لم يتضمن ما يمكن اعتباره مسـاعداً لوطننا في سـعيه لاسـتكمال سيادته ووحدته** (ص 52).

انعطاف ثم ترحيب

لنـر الآن كيف بدأ التحضير للانعطاف نحو القبول، ونقرأ: «**إن السياسـة هي تبادل مصالـح ومنافـع فعلى أسـاس المصالح المتبادلة تنشـأ صداقة جديدة لعدو سـابق ما دام قـد تنازل عن أطماعه وسـلّم للأمة بحقها القومي، كما ينشـأ عـداء جديد لصديق قديم تحركت في نفسـه أطماع وشـهوات، فالطعنة التـي وجهتها إلينا دولة ما تعنـي لنا امتهاناً لمصالحنـا، حين أنهـا لدى هذه الدولة تعنـي تأميناً لمصالحها. وما دامـت المصالح معقدة متشـابكة والعلاقات تقوم على أساس تبادلها فطاعننا بالأمس قد يصبح بتبادل المصالح طاعنـاً معنـا اليـوم**» (ص 46). بعد ذلك يشـن البيان حملة على سياسـة الحياد ويعتبرها مرادفـاً لليأس ومدعـاة للريبة، فيقول: «**إن هذه الظروف مناسـبة للسـعي لتأمين الحق القومـي، وإعـلان الحياد مرادف لإعـلان اليأس مـن إمكانية انتزاع هـذا الحق القومي. وإذا كنـا في هذه الظروف الدولية الدقيقة نعلن الحياد المرادف لليأس من تحقيق شروطنا القومية فلسنا ندري متى وكيف يمكن لشروطنا القومية أن تجد النور في التطبيق العملي! إن مـا ينبغي اتباعه ليـس الحياد لأن الحياد في هذه الظروف مدعـاة للريبة... إننا نرحب بحلف يؤدي إلى توفير أسـباب المنعة والعز عن طريق إفسـاح المجـال لقوتنا القومية أن تنمـو وتزدهـر.... لذلك فنحن نأبى إعلان الرفض المبدئـي للأحلاف في هذه الظروف بالذات...**»(ص 49).

ويعلن العداء الحاد مع المعسكر السوفياتي ويقطع أي احتمال لأي علاقة تعاون معه، نقرأ: «**وبيننا وبين الغرب اشـتراك على الصعيد الفكري والعقائدي في محاربة الشيوعية، عدونـا الأكيد، عـدو قيمنا وحقوقنا القومية، عـدو نظامنا القومـي ونظرتنا القومية إلى**

الحياة وعدو نفسيتنا الحضارية المادية- الروحية....» (ص 55). وأيضاً: «**إن المدرسة القومية الاجتماعية تأبى على أمتنا أن تنجر في أهداف لا تخدم قضيتها بل تخدم مصالح معسكر سوفياتي تختلف بالكلية عن مصلحتنا بل وتحمل لمصلحتنا الأذى والتدمير، إنها تأبى على أمتنا أن تعمل سياستها لهدف كالحياد لا يغير من حالنا...**» (ص 67)

نحن إذ نقرأ هذا نتوقف ونسأل: هل كان سعاده مخطئاً عندما أعلن موقف الحزب الرسمي الحيادي في الحرب العالمية الثانية، وكرر موقف الحياد وشدد عليه عدة مرات ودعا إدارة ومحرري جريدة سورية الجديدة للالتزام به؟ هل كان موقف سعاده «مرادفاً لليأس ومدعاة للريبة» حسب تعابير بيان الحزب سنة 55؟ وطالما أن السياسة هي تبادل مصالح، وليست تبادل عقائد، كما يقول البيان، وإذا كان «طاعننا بالأمس قد يصبح طاعناً معنا اليوم»، فلماذا ينطبق هذا المبدأ فقط على الغرب الاستعماري ولا ينطبق على المعسكر السوفياتي أيضاً؟ وإذا كنا نشترك مع الغرب في العداء للشيوعية أفلا نشترك مع الشيوعية في العداء للاستعمار الغربي الرأسمالي؟ ومن قال لقيادة الحزب سنة 55 إن الغرب والشرق لا يشتركان معاً في العداء «لنظامنا القومي ونظرتنا القومية إلى الحياة ولنفسيتنا الحضارية المادية- الروحية»؟ ألم يقل سعاده في رسالته من الأرجنتين في 10 كانون الثاني 47 إن «فلسفة الماركسية الجامحة قد انتهت في الأخير بالاتحاد مع صنوها المادية الرأسمالية الخانقة»؟

نرفض الحياد، ونعادي السوفيات ونرفض التعاون معهم، ونتوجه إلى الغرب، وماذا بعد؟ ألا يعني ذلك أننا وضعنا أنفسنا في جيب هذا الغرب؟ وماذا ينفعنا بعد ذلك أحملنا شروطنا القومية أم لم نحمل؟ وماذا إذا رفض الغرب شروطنا القومية، وهو يرفضها سلفاً، فماذا يحلّ بنا ونحن قد وضعنا أنفسنا في جيبه برفضنا الحياد ورفضنا مجرد التفكير بالالتفات إلى المعسكر الآخر؟ ألا نكون بذلك قد انخرطنا في حلف بغداد الاستعماري الصهيوني؟ وأي مصداقية تبقى لقول القيادات الحزبية اليوم إن الحزب كان قد رفض حلف بغداد سنة 55؟

هكذا كانت سياسة الحزب سنة 55، سياسة حمقاء خرقاء غبية مراوغة متورطة فيما لا يمكن تبريره والدفاع عنه، وهذه السياسة كانت سياسة عبد المسيح كما كانت سياسة خصومه في المجلس الأعلى، والخلاف بينهما لم يكن على الموقف السياسي ولا

على مستوى فهم العقيدة وما تمليه على معتنقيها من موقف سياسي، بل كان الخلاف خلافاً على السلطة لا أكثر ولا أقل.

والحزب يوافق على مشروع أيزنهاور

في تاريخ 16-3-57 صدر بيان مشترك لبناني- أميركي يعلن انضمام لبنان إلى مشروع أيزنهاور، وذلك بعيد تصويت البرلمان اللبناني على قبوله به. كان شمعون رئيس الجمهورية وسامي الصلح رئيس الوزراء وشارل مالك وزير الخارجية، وكان غسان تويني لا زال نائباً ممثلاً للحزب في البرلمان وقد صوت بالموافقة. (نيابة غسان امتدت من 13-9-53 إلى 20-9-57 عندما خلفه بالنيابة حتى 18 تموز 1960 أسد الأشقر الذي كان رئيساً للحزب).

ومشروع أيزنهاور معروف أنه شقيق حلف بغداد ويقوم على ما كان يسمى «ملء الفراغ» وأهم أهدافه هي حماية إسرائيل وجعلها مقبولة، وترعاه الولايات المتحدة الأميركية وتؤيده أطراف حلف بغداد نفسها، وممثل الحزب في البرلمان اللبناني وافق عليه!

كيف تطورت الأحداث في الشام وفي لبنان

لا بأس من الاستطراد قليلاً هنا ونرى كيف تطورت الأحداث، لأن لذلك علاقة بموقف الحزب في أحداث 1958 وعلاقته بفؤاد شهاب وانقلاب 1962. فبعد شمعون جاء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية. شهاب وقف ضد الأحلاف العسكرية ليس لأنه مناوئ للغرب ومتمرد على السياسة الأميركية بل لأنه جاء ضمن تسوية مع الأميركيين بعد اقتتال سنة 58، تقول بجعل لبنان ساحة التقاء وتوازن وتعايش السياسات والمحاور المختلفة، خاصة وأن العراق كان قد انسحب من هذا الحلف بعد ثورة عبد الكريم قاسم في 14 تموز 58. وهكذا سحب شهاب لبنان من مشروع أيزنهاور وأمن خروج القوات الأميركية من بيروت في 27-11-58 وأعاد العلاقات الدبلوماسية مع الجمهورية العربية المتحدة وعقد اجتماع قمة مع جمال عبد الناصر في خيمة على الحدود اللبنانية- الشامية وجعل لبنان يشارك في مؤتمر الدول غير المنحازة في بلغراد عام 1961. وكل ذلك تم بسلاسة وبموافقة الأميركيين، فالخطوات التي اتخذها شهاب لا

يجب أن تفسر اليوم بأنها كانت انهزاماً للسياسة الأميركية أو انتصاراً للسياسة المصرية، فعزل الحزب والاستغناء عن خدماته التي أداها لهم في حوادث 58 ثم توريطه وضربه في انقلاب 62، وحدها تكفي للقول بإنجازات كبرى للسياسة الأميركية الصهيونية في لبنان، في عهد فؤاد شهاب.

نفس الموقف ونفس التبريرات بعد نصف قرن

سنعود إلى موقف الحزب وسياسته في لبنان سنة 58 وما بعد، بعد قليل، لكن يجب أن نستوفي الآن شرح ما كان عليه سنة 55 مقدمة لفهم أسباب الانشقاق سنة 1957. ففي سنة 2006، تاريخ رسالة عبد المسيح إلى منير حيدر، أي بعد نصف قرن من موقف الحزب سنة 55، يستمر عبد المسيح بتبرير سياسة التوجه إلى الغرب، بدعوى أن حقوقنا القومية معلقة معه، ويكرر نفس التبريرات الواهية الواردة في بيان سنة 55، بينما خصوم عبد المسيح يستديرون 180 درجة مما يدل على أن سياسة التوجه نحو الغرب كان بطلها عبد المسيح قبل خصومه وأكثر منهم، وليس صحيحاً ما قاله لنا من أن خلافه معهم كان بسبب تنازلهم و«تسكعهم» أمام الأميركان في مقابل وقوفه هو ضد هذا التنازل.

يقول العم لمنير حيدر مبرراً موقف الحزب الرافض للحياد بأنه لا يجوز الحياد بين معسكرين عدوين لنا، وأنه «كان علينا أن نعلن التوجه نحو الغرب لاستخلاص حقنا منه واتصالنا به يجب أن يكون مصحوباً بشروطنا القومية للوقوف معه» (رسالة إلى منير حيدر ص 96). إن العم بذلك يختلف مع سعاده ويخالفه بشكل صارخ لأن سعاده بقي يدعو للحياد بين المعسكرين المتحاربين في الحرب العالمية الثانية، والاثنين كانا أعداء لنا، وبقي يوجه محرري جريدة سورية الجديدة للوقوف موقف الحياد إلى أن تعلن إحدى الجبهتين المتحاربتين موقفاً يؤيد حقنا بالسيادة والاستقلال، وقد أسهبنا في موقف سعاده الحيادي هذا في الفصل الثاني من هذا الكتاب. سعاده كان يريد من المتحاربين أن تبادر جهة منهم لتأييدنا وتأييد حقنا أولاً قبل أن نعمد نحن للتوجه إلى هذه الجهة أو تلك. أما عبد المسيح فيريد أن نعين نحن الجهة التي «يجب» أن نتوجه لها ونقف معها، رغم أنه لا يعود ينفعنا اصطحابنا لشروطنا القومية بعد أن نكون قد رفضنا الحياد ورفضنا التعاون مع الجبهة المقابلة بنفس الوقت، وحددنا هذه الجهة سلفاً قبل أن نتأكد أن هذه الجهة ستلبي شروطنا القومية؟ إن المنطق السياسي يقول إننا يجب

أن نحمل شروطنا ونعلنها للجهتين وليس لجهة واحدة، وننتظر لنرى من من هاتين الجهتين مستعدة لقبولها، قبل أن ننحاز سلفاً ونختار سلفاً واحدة منهما. إن اختيارنا المسبق يضعنا في جيب من اخترناه واخترنا الوقوف معه، ونحن بذلك نشجعه ليرفض شروطنا القومية، فلماذا يقبل بشروطنا ونحن قد اخترناه سلفاً بشروط وبغير شروط. إن الموقف السياسي الذي اتخذه الحزب في الخمسينيات، وضمنه بيانه السياسي، ويدافع عنه ويكرره عبدالمسيح بعد نصف قرن يستند إلى حجج ضعيفة وفاسدة، فالقول إن مصالحنا هي معلقة مع الغرب وحده، وهذا ما يحتم توجهنا إلى الغرب لتحصيل تلك الحقوق والتحالف معه، هو كالقول بأننا لا يجب أن نقاتل عدونا الذي اغتصب حقوقنا بل يجب التوجه إليه والقول له إن لنا معك حقوقاً ولا يمكننا أن نتحالف مع غيرك لتحصيلها منك! أننتظر من عدونا أن يقبل بشروطنا ونحن نعلن أننا ليس لنا إلا هو من يمكن التحالف معه! ما هذا الغباء وما هذه السذاجة وهذه الطفولية السياسية التي كان يسبح فيها الحزب! هل هذا كان حزب سعاده حقاً؟ طبعاً لا، فسعاده بريء بريء بريء من هذا الانحراف الفظيع الذي كان واقعاً فيه عبد المسيح وخصوم عبد المسيح داخل الحزب على السواء.

المنطق المتهافت الفاسد يناقض نفسه دائماً

يستمر عبد المسيح بمجادلة ومحاججة منير حيدر ويقول له إنه لا يصح القول إننا «اخترنا» التوجه نحو الغرب والوقوف معه، يقول:»ليس في الأمر اختيار، إنه الموقف الذي تستلزمه الحال التي كانت سائدة». ويقول له أيضاً: «اتصالنا بالشيوعيين غير وارد لعداء مبدئي مع الشيوعية، ولهذا فالمعسكر الشيوعي لا يؤمن باشتراكنا معه» (ص 96– 97). وأيضاً: «الشيوعية لا تأبه قط للشروط القومية ولا للحقوق القومية ولا للمقومات القومية. فلا يمكن أن نتصور قبولاً روسياً للشروط القومية» (ص 98). وهو بذلك يناقض ما جاء في البيان السياسي نفسه من أن السياسة هي تبادل مصالح وليست تبادل مبادئ، ويخالف المبدأ السياسي الذي أعلنه سعاده وهو أن الصراع في العالم ليس صراع مبادئ بل صراع مصالح، غير مدرك بأن لجبهتي الحرب مصالح أكيدة في التعاون مع من يرون في التعاون معه مصلحة لهم بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف العقائدي. وعبد المسيح نفسه

يعود ويقر بأن للروس مصلحة قومية وأن الشيوعية ليست فوق مصلحة الروس القومية (ص 100)، كما يقر بإمكانية وقوف المعسكر الشيوعي معنا ومساعدتنا لإحقاق حقنا، مناقضاً قوله السابق بأن اتصالنا بالشيوعيين غير وارد لسبب مبدئي وبأن المعسكر الشيوعي لا يؤمن باشتراكنا معه، فها هو يقول لمنير بعد قليل: «لو أمكن أن نُجمِع على وعي قضيتنا وعلى مقاييس الشروط القومية، واتجهنا نحو الغرب بعزم وإيمان لأمكننا أن نستخلص حقنا من الغرب **ولحفزنا الشرق أيضاً على المزايدة في إحقاق حقنا**» (ص 102). هكذا يعترف عبد المسيح بأن الشرق يمكنه أن يساعد، بل يزايد، في إحقاق حقنا، وإن لم يرَ هذه الإمكانية إلا بعد اتجاهنا نحو الغرب «بكل عزم وإيمان» حسب تعبيره المتحمس.

يضع اللوم على غيره وهو المسؤول

رغم أن عبد المسيح يريد أن يتجه نحو الغرب «بكل عزم وإيمان»، فإنه يصور نفسه أنه المتصلب والمتمسك بالعقيدة المتشدد ضد التنازلات التي يقدمها «المنحرفون» في المجلس الأعلى للأميركيين. فها هو يقول إن الصراع كان بينه وبين المتنازلين أمام الإغراءات الأميركية ووعود رئيس دائرة الاستخبارات الأميركية للشرق الأوسط- المستر بروكس- وهم غسان تويني وجورج صليبي وفؤاد أبي عجرم وعبدالله قبرصي وسعيد تقي الدين وإنعام رعد، ثم انضم إليهم وتقدمهم في التسكع عبدالله سعاده وأسد الأشقر، وكان وسيطهم مع بروكس هو شارل مالك (ص 79- 80)، ويقول أيضاً إنه كرئيس للحزب رفض شروط بروكس التي وضعها مقابل «إغداق المال للحزب دون تحديد الكمية»، وهذه الشروط كانت تقديم الحزب معلومات عن الشيوعيين وقبول إسرائيل كواقع تاريخي. (ص 80)، وإن رفضه لهذه الشروط مقابل المال أثار المتسكعين وبدؤوا هجومهم عليه، ما أدى إلى أزمة بينه كرئيس وبين المجلس الأعلى. ثم يقول في مكان آخر (ص 113- 114): «...لكن الحلقة في سلسلة المؤامرة الكبرى كانت محكمة ودقيقة الحبك. **وكان الذين يفترض فيهم تحطيم دائرتها قد غلت أياديهم بفعل المخدر الذي حمله شارل مالك بعد أن رفضنا عروض الذي يسميه جورج صليبي أكبر شخصية سياسية في الشرق**» (يقصد المستر بروكس). هكذا يضع عبد المسيح اللوم على غيره، فالذين يفترض فيهم تحطيم دائرة المؤامرة هم قيادة الحزب وسلطته التنفيذية

وعلى رأسها رئيس الحزب، وليس الذين «غلت أيديهم بفعل المخدر الذي حمله إليهم شارل مالك». المتسكعون الذين غلت أيديهم لا ينتظر منهم ولا يفترض بهم أن يحطموا حلقة المؤامرة، بل إن المتمسكين بالعقيدة والمتصلبين المتشددين هم من يفترض فيهم ذلك. أما أن يكون المتسكعون المنحرفون المتنازلون أمام الإغراءات قد تكاثروا على عبد المسيح حتى حاصروه وشلّوا يديه هو الآخر فإن ذلك يدعو للتساؤل: ما هذه القيادة وما هذه الرئاسة العاجزة التي نما في عهدها كل هؤلاء المتسكعين المتنازلين المنحرفين؟

المحايري يكرر نفس الموقف المزدوج بعد 36 سنة

قلنا إن عصام المحايري هو الذي كتب البيان السياسي سنة 55، وكان عميداً للإذاعة، وها هو سنة 1991 أي بعد 36 سنة وقد أصبح رئيساً للحزب يكرر نفس أسلوب الازدواجية في الموقف السياسي. بين يدي «بيان رئيس الحزب الأمين عصام المحايري بمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لتأسيس الحزب» (بيان من 30 صفحة- عن المركز الفني للطباعة والإعلان، طرابلس). كان الحدث السياسي هو مؤتمر مدريد للسلام برعاية أميركا وكانت الحكومة السورية، التي يعمل الحزب تحت مظلتها، منخرطة فيه. كيف مرر عصام المحايري موقف الحزب السياسي من الحدث؟ من جهة هو رئيس حزب عامل تحت المظلة السياسية للحكومة السورية ولا يستطيع الخروج من تحت هذه المظلة ويأخذ موقفاً معارضاً لها ولشعاراتها السياسية المناقضة لعقيدة الحزب القومية وسياسته المستقلة المفترضة. وهذه الشعارات كانت مثل: الأرض مقابل السلام، والالتزام بالشرعية الدولية وقراراتها، وإعطاء كل ذي حق حقه...الخ. ومن جهة أخرى هو كرئيس للحزب ملزم باتخاذ الموقف السوري القومي الاجتماعي الصحيح المنسجم مع عقيدته وقضيته القومية القائلة برفض السلم الأميركي والإسرائيلي وعدم الاعتراف بقرارات دولية تناقض حق الأمة السورية وسيادتها الكاملة على أرض وطنها ومنها فلسطين كلها، وإنه ليس لليهود حقوق عامة أو خاصة في فلسطين، وإن القوة هي القول الفصل في إثبات الحق القومي أو إنكاره...الخ. فكيف مرر عصام المحايري موقف الحزب السياسي سنة 1991؟ في سنة 55 اعتمد الحزب الازدواجية في الموقف السياسي فدبج عبارات ترضي القوميين وإيمانهم والتزامهم بعقيدتهم، وعبارات ترضي الأميركيين الذين كان الحزب متعاطفاً معهم ومنخرطاً معهم في علاقات سياسية ويتلقى منهم مساعدات مالية وتسليحية.

في سنة 91 اعتمد المحايري نفس الأسلوب: رفض جذري لمؤتمر مدريد ونتائجه المعروفة سلفاً، وفي نفس الوقت قبولاً بمؤتمر مدريد بحجة «الواقعية السياسية»، تعبيراً جديداً لم يكن مستعملاً سنة 55، ومقترِحاً جبهة «يتم بها تحرك متكامل على طاولة مؤتمر مدريد وفي شتى المحافل الدولية والعربية و... الإسلامية». فلنقرأ: **«إن سلامنا القومي لا يمكن أن تحققه لنا قوة خارجية أياً كانت، فكيف بنموذج دولي تستبد به قوى الضغط الرأسمالي والصهيوني.... هذا النموذج لا يستهدف فقط من مؤتمر السلام شرعنة ما تم من اغتصاب لأرضنا وحقوقنا في فلسطين وغيرها فحسب وإنما يستهدف في المقام الأول الوصول إلى فرض مبدأ التسليم بحق اليهود التوراتي بأرض الميعاد»**.

وبعد قليل ينعطف ويتكلم عن «الواقعية السياسية» ويقول: **«إن تشكيل جبهة سياسية من الشام والأردن ولبنان وفلسطين يتحقق فيها حد أدنى من التماسك وحد أدنى من التوازن الاستراتيجي السياسي- العسكري النضالي ويتم بها تحرك متكامل على طاولة مؤتمر مدريد وفي شتى المحافل الدولية والعربية والإسلامية... آن لنا أن نقوم بمسؤولياتنا على أساس منطق الواقعية السياسية النضالية الاستراتيجية بعيداً عن المنطق القومي العاطفي وبعيداً بشكل أخص عن حسابات المصالح والأغراض الذاتية والمنافسات والمزايدات الفئوية التي دفعت القضية القومية ثمنها مسلسلاً مذلاً من الخذلان والتعثرات»** (ص 20- 21). البعض يعتبر أن كلام المحايري الوارد آنفاً على «الواقعية السياسية» إنما هو موجه للحكومات بعد قبولها حضور مؤتمر مدريد، ليطلب منها التماسك للحد من الخسائر والتنازلات، ولم يكن يعني تبنياً وموافقةً من الحزب لمؤتمر مدريد. لكن المحايري بدعوته «للبعد عن المنطق القومي العاطفي» كان يتبنى هذه الواقعية السياسية ويتبنى مشاركة الحكومات بمؤتمر مدريد ولا يعارضها. هكذا كان، ولا يزال، قادة الحزب بعد استشهاد سعاده، يبيعون كلاماً حلواً للقوميين الاجتماعيين ويبيعون موقفاً سياسياً وعملياً آخرَ للقوى السياسية التي يعملون تحت مظلتها. هل صرنا نعرف الآن لماذا قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن سعاده كأنه أتى لجيل غير هذا الجيل، وإن سعاده استشهد في عز شبابه وعطائه وإشعاعه فكراً وفلسفة وبطولة لأنه كان وحيداً دون معاونين؟

استمرار العلاقة مع الأميركان

ستتكلم الآن عن استمرار العلاقة مع الأميركان بعد صدور البيان السياسي سنة 55 وأيضاً بعد اغتيال المالكي. سنتجاوز الآن موضوع اغتيال المالكي الذي سنعود إليه بعد قليل.

قلنا فوق إنه لكي نقرأ البيان السياسي الذي أصدره الحزب في شهر آذار 55 قراءة صحيحة ونفهم الموقف السياسي الذي يتضمنه، يجب أن نقرأ الأحداث المرافقة له ونقرأ الجو السياسي الذي كان سائداً في البلد في حينه، قبله وبعده. لذلك تطرقنا للوضع السياسي العام في الشام الذي سبق البيان. والآن سنرى أن العلاقة مع الأميركان ومحاولة تحسين شروط التعامل معهم استمرت بعد البيان السياسي، مما يؤكد تفسيرنا له. سنعتمد هنا على شهادة إبراهيم يمّوت بشكل أساسي وهو سيتكلم عن حالة التعاطف مع الأميركان واليمين المتحالف معه التي كان الحزب فيها. الحقيقة أن كثيراً من الأمناء القياديين قد كتبوا عن تلك المرحلة، وتطابقت كتاباتهم مع يمّوت، مثل سامي خوري وإنعام رعد وعصام المحايري وغيرهم، ولكننا لم نشأ الاعتماد كثيراً على كتاباتهم لأنهم من خصوم عبد المسيح وربما كان ما يكتبونه مجروحاً عندما يتطرقون إليه وإلى دوره. أما إبراهيم يمّوت فكان من أبرز مؤيدي عبد المسيح وشهادته فيه لا يعقل أن تكون منحازة ضده. أما لماذا يكون عبد المسيح هو محور هذا العرض لسياسة الحزب؟ فأولاً لأنه كان رئيس الحزب وثانياً لأننا نريد تخطئة الاعتقاد والزعم أنه كان ضد السياسة الأميركية اليمينية في ذلك الوقت الذي سبق صدور البيان السياسي وسبق مقتل المالكي وسبق الانشقاق الحزبي سنة 57.

كان تعاطف الحزب مع الأميركان ومع اليمينيين المتحالفين معهم، وتعاطف هؤلاء مع الحزب، واضحاً وظاهراً ويأخذ أشكالاً عديدة. فها هو أحد مريدي عبد المسيح الأمين إبراهيم يمّوت يشهد ويقول في الحصاد المر (ص 294) وبعد اغتيال المالكي وعودة عبد المسيح إلى لبنان، ولا يزال رئيساً للحزب، ما يلي: «.. النشر في الصحف كان سهلاً، وبدأت الحملة الصحفية على الحكام في الشام تأخذ أبعاداً جديدة بفعل أعضاء الحكم اللبناني اليميني المتعاطف مع الأميركان. وعاد التحرك السياسي اليميني الغربي المناهض للحكم القائم في الشام يأخذ طريقه بقوة إلى بعض المتعاطفين معه من

المسؤولين في مجلسي الحزب. فالأميركيون ومن ورائهم البريطانيون لم يسكتوا على تسلط حزب البعث بعد غياب المالكي، فأعادوا بقوة وسرعة ربط جسورهم ببعض القياديين، وفي أكثر الحالات بواسطة الساسة اليمينيين في العراق والشام.»

هـذا الكلام الذي يقوله يمّوت يعبّر عن حالـة حزبية عامة ولم يكن التعاطف مع الأميركيين ومع اليمين محصوراً بفئة من الحزب هي خصوم عبد المسيح، بل إن هذا الأخير كان جزءاً من هذا الجو التعاطفي العام. وكل قول آخر بأن عبد المسيح كان ضد الخط السياسي الأميركي واليميني هو قول خارج عن الواقع وغير صحيح. ستمر معنا أمثلة وشواهد على ذلك في سياق هذا البحث، أما الآن فنكتفي بهذه الرسالة التي وجهها عبد المسيح إلى كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان سنة 1957 والتي يفتتحها بالقول: «يا فخامة الرئيس الموقر، تحية الإجلال والإعجاب»، ويختتمها بالقول: «اقبلوا يا فخامة الرئيس الموقر أصفى الولاء وابقوا خير عادل» (الرد على الأمينة الأولى ص 35– 36).

الشيشكلي مجدداً – سلاح صدئ مكسور والحزب يصرّ على استعماله

إن تعاطف قيادات الحزب كلها مع الغرب، وقد صار الغرب كله تحت المظلة الأميركية، يظهر ويتبدى من وقائع عديدة. مثلاً يقول إبراهيم يمّوت في حصاده صفحة 295 ما يلي: «...أذكر أنه في فترة الصيف من عام 55 (أي بعد مقتل المالكي بعدة أشهر وكان العم رئيساً) كان المجلس الأعلى مجتمعاً في بيت الزعيم في ضهور الشوير. قدم **غسان تويني** وبصحبته الرئيس **المعزول أديب الشيشكلي** آتياً من روما عن طريق مطار بيروت بصورة خفية، وذلك بتدبير ومعرفة الحزب. وكان هدف الاجتماع درس إمكانية إحداث تغيير في الوضع السياسي في الشام. حصل الاجتماع بحضور غسان جديد وسعيد تقي الدين ولم يسفر عن شيء. وعاد أديب أدراجه إلى دنيا العزلة والاغتراب إلى حين اغتياله في 27–9–64 في مزرعته في البرازيل». وكان يمّوت قد قال قبل قليل: «...واشتد الصراع الداخلي ضمن قيادة الحزب بين جبهة عبد المسيح التي لا ثقة لها بالأميركين وسياساتهم الانتهازية، وبين أولئك الذين يثقون بالسياسة الأميركية التي يسوقها سياسيون عراقيون وشاميون لتكون أكثر قبولاً إذ يكون الارتباط مع مواطنين عراقيين وشاميين وإن كانوا ينفذون مخططاً أميركياً» (نفس الصفحة). لكن

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن عبد المسيح «وجبهته» لم يكن بعيداً عن التجاوب مع السياسة الأميركية وإن اعتراضه لم يكن إلا على الإخراج والأسلوب. ما كان يطلبه هو أن يتعامل الأميركيون مع الحزب مباشرة وليس بواسطة سياسيين عراقيين وشاميين (نوري السعيد وأحزاب الشعب والوطني). كان يطلب أن تقول أميركا صراحة وعلناً قولاً يعطي للحزب سبباً ومستنداً ورصيداً يمكن الاستناد إليه لتبرير سيره في خطة مشتركة بينه وبين الأميركان. لذلك ترى العم يدرس موضوع التعاون مع الأميركان ويناقش ويفاوض في ذلك مع المجلس الأعلى. وكان يتدخل عملياً لتسهيل دخول أديب الشيشكلي مطار بيروت «بصورة خفية وبمعرفة الحزب» حسب تعبير يمّوت. فـ«الحزب» الذي يسهل دخول الشيشكلي هو السلطة التنفيذية وليس المجلس الأعلى. ولا يخفى على القارئ أن هذه الصورة الخفية هي خفية على الإعلام والرأي العام فقط وليست خفية على الحكومة اللبنانية وأجهزتها الأمنية المتعاطفة مع الأميركان. وما يعزز تفسيرنا هذا هو قول يمّوت: «لم يكن الاعتراض من عبد المسيح ومؤيدي سياسته على الأشخاص والأسلوب وإنما على الهدف».(نفس الصفحة).

الحملة على مصر خدمة للأميركان

يقول يموت صفحة 296 ما يلي: «لم تقتصر الحملة الصحفية التي شنتها بعض الصحف اللبنانية، بدعم من الحزب، على حكام الشام فحسب بل تعدتها إلى حملة على نظام عبد الناصر في مصر (المعارض للأميركان)، ولم يكن الحلف الأميركي العراقي وحلفاؤه الذين في سدة الحكم في لبنان أو **سدة الحزب** بعيدين عن تلك الحملة. الهدف واضح هو محاربة المد اليساري في الشام ومصر». ونحن نعرف أن نشاطاً من مثل نشاط حملة صحفية مدعومة من الحزب هو نشاط تقوم به السلطة التنفيذية في الحزب وعلى رأسها رئيسه، وليس نشاطاً يقوم به المجلس الأعلى المتهم بالثقة بالسياسة الأميركية حسب زعم يمّوت وزعم «جبهة عبد المسيح» حسب تعبيره. فعبد المسيح كان إذاً منخرطاً في هذا النشاط، بل كان يقوده باسم التصدي للنفوذ اليساري الشيوعي في سورية ومصر، ولم يكن يعارضه. مع أن عبد الناصر لم يكن جزءاً من المد اليساري الشيوعي بل كان حالة قومية سيادية مصرية تصارع الغرب لأن الغرب هو الذي كان مهيمناً ومتشبثاً بإخضاع مصر. فصراع الحزب مع مصر وحملته الصحفية عليها لم يكن

بسبب العداء والصراع مع المد الشيوعي اليساري بل بسبب التعاطف مع الأميركان. وقد قرأنا في البيان السياسي كيف كانت سياسة الحزب الخارجية تعتبر «أن ما يجمعنا مع الأميركان هو العداء للشيوعية»، فأين الشيوعية في نظام عبد الناصر؟ ولماذا لم يخطر في بال «جبهة عبد المسيح» أن ما يجمعنا مع الشيوعية هو العداء للسياسة الأميركية ونزعتها للهيمنة والسيطرة على بلادنا؟

صحيح أن أعضاء من المجلس الأعلى، يقول يمّوت دون أن يذكر اسمهم، عارضوا تلك الحملة على حكام مصر وطلبوا مدّ الخيوط مع نظام عبد الناصر بدل استعدائه واقترحوا أن ينتدِب الحزب من يذهب لمقابلة الزعيم المصري ويشرح له حقيقة موقف الحزب (ص 296). وصحيح أن السلطة التنفيذية كلفت الرفيق أحمد شومان بتلك المهمة الدقيقة، وصحيح أن وساطة أحمد شومان قد حققت نجاحاً كبيراً لدرجة أن عبد الناصر طلب وفداً حزبياً إلى مصر ليكون في ضيافته الخاصة ليبحث معه سبل التعاون، كما طلب، تمهيداً لذلك، أن يوقف الحزب حملته الصحفية ضد مصر وثورتها، لكن رد الحزب ورئيسه على طلب عبد الناصر كان سلبياً جداً ولم تتوقف حملة الحزب على مصر وثورتها. ويتابع يمّوت ويقول: «ونجح المخطط الأميركي العراقي في وأد محاولة مدّ الخيوط مع الزعيم المصري وفاتت الحزب فرصة نادرة كان يمكن له بنتيجتها أن يوفر الكثير من الخسائر التي مُني بها في ثورة 1958 في لبنان والتي جرّه إليها المخطط الأميركي لمحاربة الخط الناصري»(ص 297).

إبراهيم يمّوت اكتفى بذكر ما نقلناه عنه فوق، ولم يقل لنا بإرادة من تقررت محاولة مد الجسور مع عبد الناصر وبإرادة من تقرر قطعها وعدم إكمالها. لم يقل لنا شيئاً عن دور عبد المسيح في ذلك، أما نحن هنا فنتساءل عمن هو المسؤول عن «نجاح المخطط الأميركي في وأد محاولة مد الخيوط مع الزعيم المصري»، حسب تعبير يمّوت، وعن دور رئيس الحزب في هذا النجاح. كيف يستطيع عبد المسيح أن يرسل أحمد شومان لمدّ الخيوط ولا يستطيع أن يتابع المحاولة التي نجحت ويرسل وفداً مركزياً لبحث سبل التعاون وتقديم شروط الحزب ومطاليبه للقيادة المصرية؟ فإما أن عبد المسيح ومن معه هم متعاطفون مع الخط الأميركي العراقي ويريدون عرقلة التعاون مع خصومه المصريين، وهذا ما نرجحه، وإما هم قيادة ضعيفة لا تستطيع اتخاذ قرارها وتنفيذه.

وفي الحالتين هي قيادة يجب أن تستقيل بسبب ضعفها وفشلها السياسي وعجزها عن اتخاذ قرار وتنفيذه. هذا هو السبب الكافي الذي كان يجب أن يدفع الرئيس عبد المسيح إلى الاستقالة، وليس موضوع مقتل المالكي ما كان يجب أن يدفعه إليها. لا بأس هنا أيضاً من ذكر رواية الأمين إيلي عون التالية التي نقلها إليّ في رسالة خاصة منه، يقول: «الرفيق الراحل أحمد شومان كان صديقاً لي ولعائلتي وغير مرة طلب من زوجتي طبخة المجدرة، وكان يأتي من بيروت إلى ضهور الشوير ومرات عدّة جلسنا في مطعم الصرفد قرب العرزال وكثيراً ما ردد أمامي: كيف استطاع سعاده تزويج الطوائف بعضها لبعض؟ روى لي أنه بعد مقابلته الناجحة لعبد الناصر وعودته من أجل إرسال وفد حزبي لزيارة عبد الناصر، سارع وأخبر العم بنتائج زيارته، غير أن العم لم يظهر أي علامات ارتياح فاكتفى بما سمع وصرف الرفيق أحمد الذي اعترته صدمة قوية حسب ما أخبرني».

إن عدم إقدام عبد المسيح على إرسال وفد حزبي لمفاوضة عبد الناصر رغم طلب عبد الناصر له، يذكرنا بعدم إقدامه على تلبية طلب المالكي لمفاوضة الحزب والتعاون معه قبيل مقتله بقليل.

في هذه المسألة يظهر أيضاً تهافت معارضي عبد المسيح، في المجلس الأعلى، وارتباكهم وتهريبهم لقرار طرده. لقد أرادوا التخلص منه وأرادوا إيجاد علة فيه كافية لطرده فما وجدوا غير موضوع اغتيال المالكي غير المحسوم وغير الواضح وغير المكتمل فيه لا جمع المعلومات ولا التحقيق ولا أصول المحاكمة وأصول إصدار الحكم، كما سنرى بعد قليل. ذلك أن العلة الحقيقية التي تشكل سبباً كافياً لتنحية عبد المسيح، أي علة الفشل السياسي بعد الفشل الأمني في حماية الحزب في الشام، إن هذه العلة كانت علة عبد المسيح كما كانت علة معارضيه في نفس الوقت.

مقتل المالكي

من هو عدنان المالكي؟

الضابط عدنان المالكي كان قد سجنه أديب الشيشكلي في أواخر عهده بتهمة محاولة التمرد عليه والإطاحة به (سامي خوري ص 257). وطبيعي أن يكون المالكي

على خصومة مع «حزب الشيشكلي»، كما كانوا يسمّون الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكان أيضاً على خصومة ومنافسة شديدة مع غسان جديد. المالكي كان من مريدي الحوراني رغم أنه لم يكن منتسباً إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، أخوه المحامي صلاح المالكي كان عضواً في ذلك الحزب وبالتحديد من جماعة الحوراني. بعد انهيار عهد أديب الشيشكلي أعيد عدنان إلى الخدمة في الجيش وكان قد بلغ رتبة عقيد، وتسلم الشعبة الأولى في الأركان وتزعم الضباط البعثيين وخاصة جماعة أكرم الحوراني. ومنذ أن دخل عدنان في الأركان نشأت بينه وبين شقير منافسة شديدة لدرجة أن طالب عدنان في أول اجتماع لمجلس الدفاع بتنحية شقير عن رئاسة الأركان، فشعر هذا الأخير بأن عدنان يشكل منافساً قوياً يحاول إزاحته من رئاسة الأركان. بدوره فقد استمر عدنان بالتصدي لشقير بالرغم من أن شقير هو رئيسه في الأركان، وقد برهن عدنان في ذلك عن قوة شخصية وثبات ومبدئية في مقابل ضعف شقير وتقلبه وغموض مواقفه.

شقير يستعمل الحزب في صراعه مع المالكي

قوة المالكي هي في كتلة الضباط البعثيين الاشتراكيين، ولم يكن لشقير من وسيلة لموازنة قوة المالكي ثم التغلب عليه إلا بالاعتماد على تكتل مقابل من ضباط الجيش واستمالة الحزب. شوكت هو أصلاً من منطقة الشوف لبنان حيث الوجود القوي للحزب وحيث القيادي حسن الطويل الصلب المراس والذي سطع اسمه مؤخراً في تنظيمه الحشود القومية النظامية في مهرجان المعارضة اللبنانية ضد حكم بشارة الخوري في دير القمر. وهو من الحائزين على تقدير سعاده وثقته وثقة الأعضاء واحترامهم له لإخلاصه وصلابة عقيدته، وفي فترة الصراع على النفوذ بين شقير والمالكي كان حسن الطويل عضواً في المجلس الأعلى. ورغم وجود عبد المسيح في دمشق يبدو أن شقير فضّل الاتصال بحسن الطويل أولاً ومباشرةً. وهنا نترك لسامي جمعة ضابط المخابرات السوري العامل تحت إمرة شقير أن يخبرنا عن تفاصيل كثيرة عما كلفه شقير بهذا الصدد، وننقل ذلك من كتابه «أوراق من دفتر الوطن» وأيضاً مما دوّنه سامي خوري من ذلك الكتاب في نفس الوقت.

طلب شقير من سامي جمعة أن يراقب المالكي مراقبة مستمرة، وطلب منه أيضاً أن يذهب إلى لبنان ويأتيه بالأمين حسن الطويل مع الحرص الشديد على عدم تسجيل دخوله وخروجه في قيود الأمن العام السوري. وقد نفذ جمعة هذا الطلب خمس أو ست مرات (جمعة ص 164). ولا بد أن يكون حسن المعروف بنظاميته وانضباطه الشديد قد استأذن رئيسه عبد المسيح ونال موافقته وأخبره بتفاصيل هذه الاجتماعات. (ويقول جمعة أيضاً إنه بناء لطلب شقير كان يأتي لشقير بالنقيب المتقاعد مفيد غصن المعروف بملازمته لغسان جديد، وأيضاً يأتي بعبدالله محسن المقيم في دمشق وبإسكندر شاوي.) وطلب شقير من جمعة ترتيب لقاء مع عبد المسيح فتم له ذلك وصار شقير وعبد المسيح يعقدان اجتماعات متتالية محورها عقد تحالف بين شقير والحزب والقضاء على منافس الاثنين، المالكي (جمعة ص 183-184). وكل ذلك لم يكن بعلم المجلس الأعلى في الحزب. والجدير بالذكر هنا أن اجتماعات شقير مع عبد المسيح قد ذكرتها مصادر أخرى وشهود آخرين سنذكرها بالتفصيل بعد قليل ومنها شهادة الرفيق زهير صواف التي ذكرها عيسى سلامة في كتابه «صفحات من حياتي (ص 51)، ولكن عبد المسيح بقي ينفي حصول أي لقاء بينه وبين شقير نفيا قاطعاً.

المالكي يخاصم المحور المصري- السعودي

ويعبّر عن ذلك بامتناعه عن استقبال شكري القوتلي العائد لسورية من منفاه في مصر أوائل آب 54، وكان في استقباله عدد كبير من الشخصيات السياسية وضباط الجيش وعلى رأسهم شوكت شقير. والقوتلي يعمل على إنشاء تكتل سياسي من الأحزاب المحسوبة على المحور الغربي وهي أحزاب الشعب والوطني والسوري القومي الاجتماعي ورابطة العلماء المسلمين ونقابات العمال ومستقلين، ومستثنياً حزب البعث العربي الاشتراكي ومجموعة المالكي. وقد مثّل الحزب في اجتماعات هذا التكتل عصام المحايري، وكانت تهدف إلى خوض الانتخابات القادمة بشكل موحد وإعادة انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. في مقابل ذلك كان خالد العظم، الذي كان في حزب الشعب ثم تحول إلى مخاصمة المحور الغربي، يجري اجتماعات مع أكرم الحوراني والبيطار لتشكيل جبهة تواجه جبهة القوتلي. أما شقير فكان يحضر اجتماعات الجبهتين ويلعب دوراً مزدوجاً.

ويخاصم البعث

في أيلـول 54 تجري الانتخابـات النيابية الأولى بعد غياب الشيشـكلي والبعث يفوز بأربعـة عشر مقعداً في الدورة الأولى، على رأسـهم أكرم الحوراني بينما الحزب السـوري القومـي الاجتماعي يسـجل خسـارة مدوية رغم تحالفـه مع أحزاب قويـة مثل أحزاب الشعب والوطني، ولا يفوز له سوى نائب واحد هو بديع اسماعيل عن طرطوس. بينما تأهـل للدورة الثانية عن الحزب كل من عصام عن دمشـق وحنا كسـواني عن الغوطة، وأيضاً تأهل عن البعث العربي الاشـتراكي كل من رياض المالكي وصلاح البيطار عن دمشق وبهيج كلاس عن الغوطة.

دبّ خلاف ومنافسة في حزب البعث بين البيطار ورياض المالكي على مقعد دمشق، وحزب البعث يقرر سحب المالكي والإبقاء على البيطار، وعدنان يثور على حزب البعث بسبب استبعاد أخيه رياض. في انتخابات الدورة الثانية يفوز البيطار على عصام ويفوز كسواني على كلاس. وكان ذلك مؤشراً قوياً على شيئين اثنين هما تراجع التأييد للحزب في الأوسـاط الدمشقية بسبب سياسته المؤيدة للشيشكلي، وأيضاً بسبب وجوده سياسياً وانتخابيـاً مع المحور المصري السـعودي الداعـم للقوتلي، ثم ازديـاد التأييد للأحزاب اليسـارية المعارضة لسياسـة الأحلاف الأميركية، حيث إن الحزب الشـيوعي قد سجل لأول مرة فوز مرشحه خالد بكداش في دمشق. على أثر هذه الانتخابات تشكلت جبهة سياسـية يسـارية كبيرة ووازنة معادية للغرب والمحور المصري- السـعودي على رأسها خالد العظم والحوراني وبكداش، وأصبحت تنافس كتلة حزب الشعب والوطني التي احتكرت تمثيل الأكثرية الشعبية لسنوات طويلة. موازين القوى فرضت تركيب تسوية سياسـية فتم انتخاب ناظم القدسي من حزب الشعب رئيساً للبرلمان وتم تكليف خالد العظم من الجبهة المقابلة بتشكيل الحكومة.

العظم يفشل بتشكيل الحكومة فيتم تكليف الحيادي المستقل فارس الخوري بتشكيلها فينجح بذلك في خلال أربعة أيام فقط فتتشكل الحكومة بتاريخ 29-10-54 من أحزاب الشـعب والوطنـي والمسـتقلين ومعارضـة حـزب البعـث وخالد العظـم والكتلـة التي تؤيدهما. لقد اتضح الفرز السـياسي بين المتعاطفين مع الغرب والحلف العراقي- التركي برعايته وبين اليسـاريين المعارضـين والمتعاطفين مع الاتحاد السـوفياتي. أما الحزب الذي

كان قد خاض الانتخابات متحالفاً مع المحور الأول لم يسعفه شعاره الذي رفعه في حملته الانتخابية «لا شرقية ولا غربية بل قومية اجتماعية» ولم يكسبه أصوات الذين وقف معهم، لقد خسر أولئك ولم يربح هؤلاء وسقط في الانتخابات. لقد كان ضعيفاً سياسياً ومتردداً وحائراً دون حليف صادق. لقد بقي معروفاً بحزب الشيشكلي ومحسوباً على المحور الغربي المصري- السعودي (قبل عبد الناصر) ولم يستطع إقناع أحد بأنه خارج حلف بغداد.

صعود المالكي

قلنا إن المالكي ثار ضد حزب البعث بعد استبعاد أخيه رياض وتفضيل صلاح البيطار عليه في انتخابات دمشق، والمالكي على خصومة ومنافسة شديدة مع غسان جديد ومع الحزب منذ عهد الشيشكلي الذي سجنه، والمالكي ضد المحور المصري السعودي الغربي الداعم لعودة القوتلي والذي كان يتدخل علناً في تفاصيل ودقائق السياسة المحلية السورية، أي إنه ضد أحزاب الشعب والوطني، وأخيراً المالكي على خصومة ومواجهة ومعارضة مع شقير، ولم تكن علاقته جيدة نسبياً إلا مع أكرم الحوراني الذي كان يعرف كيف يستفيد من كل العهود ويعرف متى يحالف ومتى يعارض وكما يقول المثل «يعرف من أين تؤكل الكتف». كل ذلك جعل من المالكي حديث الجيش والسياسة السورية كلها وهو الضابط الصغير الذي بنى نفسه بنفسه ولم يستمد نفوذه وقوته من أحد. فأخذ يصعد شعبياً وسياسياً ويقوى في الجيش وينال تأييد مزيد من الضباط حتى أصبح قطباً مستقلاً ذا وزن كبير يشكل تهديداً لمصالح ونفوذ أطراف عديدة.

صار عدنان المالكي غريماً وهدفاً لقوى سياسية عديدة في آن واحد، فبالإضافة لمراقبة شقير له بواسطة سامي جمعة فإن أكرم ديري، آمر الشرطة العسكرية، كان يراقب عدنان في لبنان بواسطة رجاله في ثياب مدنية (جمعة ص 164). والمخابرات المصرية كانت تراقبه بواسطة عدلي حشاد رجل المخابرات المصرية المشهور في سفارة مصر في دمشق، وحشاد ألقى قنبلة على منزل عدنان المالكي لإرهابه، ما أعطى حجة لشقير في تعزيز المراقبة العلنية عليه بحجة حمايته، وصار شقير يتابع تحركاته حتى الحدود اللبنانية عندما يسافر إلى صيدا لزيارة خطيبته. لقد تطور الخلاف والصدام كثيراً بين شقير

والمالكي وأصبح علنياً حتى إن عدنان كان يشتم شقير وجاهياً وغيابياً (نفس المصدر).

شقير ينقذ غسان جديد؟

يروي سامي جمعة حادثة يقول إنها حدثت معه واشترك فيها المقدم جميل زهر الدين وهي: كان الرائد مصطفى رام حمداني رئيس الشعبة الثانية في الجيش، البعثي الذي تمرد على الشيشكلي وأعلن انفصال حلب، يراقب غسان جديد مراقبة شديدة، وتمكن من التقاط مخابرة هاتفية تشير إلى أن غسان آتٍ إلى دمشق للاجتماع بالمقدم حسين الحكيم، فقرر حمداني أن يعترضه ويلقي القبض عليه ويسوقه إلى الأركان، وقد أخبر رئيسه شوكت شقير بهذا القرار. مصطفى يرسل جمعة لينصب كميناً لغسان في منطقة تورا شمال دمشق، وشقير يرسل زهر الدين لينذر غسان وينقذه ويأتي به إلى دمشق عن طريق جانبيه عبر بلدة النشابية في الغوطة، وهكذا أفشل شقير عملية القبض على غسان.(جمعة 166). لكن يحضر سؤال كبير هنا هو: كيف يقرر ضابط برتبة رائد هو مصطفى رام حمداني اعتقال مقدم في الجيش و«يخبر» رئيس الأركان بذلك؟ أم أن رئيس الأركان هو الذي طبخ الموضوع كله وكلف كلاً من حمداني بإلقاء القبض على غسان وكلف المقدم زهر الدين بإنقاذه؟ إن رواية جمعة تتحدث عن الحادثة دون التطرق إلى أهدافها أو أي شيء آخر، أما نحن فنستطيع بسهولة قراءة ما وراء الحادثة وما أمامها ونستنتج أن شقير قد طبخها ليستفيد منها ويسلف غسان، أو رئيسه عبد المسيح، خدمة كبيرة بوزن إنقاذ حياته. ويبقى سؤال آخر وهو: ما الثمن الذي قبضه شقير لقاء هذه الخدمة؟

من هو عبد الحميد السراج؟

السراج من مدينة حماه انتسب إلى مدرسة الدرك، حيث حصل على الشهادة الثانوية وانتقل إلى الكلية العسكرية. في أيام حسني الزعيم بلغ رتبة ملازم أول وأُلحق بفريق مرافقة حسني. بعد انقلاب الشيشكلي قرّبه إليه وأصبح مع زميله أحمد عبد الكريم من مرافقي الشيشكلي. بعد ذهاب الشيشكلي كاد السراج أن يسرَّح مع الذين سُرحوا من أعوان أديب لكنه نُقل إلى الخارج وعُين ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية في باريس. من باريس زار القاهرة عدة مرات في أوج ثورة مصر، فأعجب بعبد الناصر وأصبح

ناصرياً ووضع نفسه في عداد جنوده الأوفياء. بعد عودته إلى سورية تقرب من كل من البعث والمالكي وشقير معاً وتظاهر بأنه مخلص لهم (جمعة ص 169). في أوائل شباط 55 أصدر شقير أمراً بتعيين الرائد عبد الحميد السراج في رئاسة الشعبة الثانية مكان بديع بشور. عندما تسلم هذه الشعبة أفرد السراج لسامي جمعة مكتباً خاصاً في مبنى الأركان وكلّفه بمفارز ومهام جمع المعلومات والمراقبة والمداهمة، وأول عمل يعمد السراج إلى تكليف جمعة به هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن الحزب السوري القومي الاجتماعي قيادة وأعضاء وعناوين سكن قادة الحزب والأماكن التي يترددون إليها، وعن هيئة تحرير جريدة البناء والجمعيات والمدارس التي يرعاها الحزب ويديرها، كما نشاط الحزب الطلابي وعن العسكريين الحزبيين من كل الرتب، وطلب إليه تنظيم لوائح بهذه الأسماء والمعلومات في مدة قصيرة. (جمعة ص 170).

تسريح غسان جديد

في الفترة التي كان فيها السراج يجمع معلوماته عن الحزب بواسطة سامي جمعة، وكان خلاف شقير والمالكي قد ذاع في السويداء، حيث يحظى شقير بتأييد كبير على خلفية طائفية، وحدث تحرك عسكري في قطاعات الجبهة والسويداء هدفه إبعاد المالكي خارج البلاد. شقير يتخذ موقفاً مبهماً، كعادته، ولم يبارك التحرك ولم يشجبه. اجتمع مجلس الدفاع، والمالكي عضو فيه، لمناقشة تحرك السويداء والتقرير فيه، فتقرر تسريح المقدم حسين الحكيم ومعاقبة كل من المقدمين عز الدين الشوفي وجميل زهر الدين من كتلة شقير ومن طائفته بسجنهم 45 يوماً.

في اجتماع آخر لمجلس الدفاع عُرض موضوع المقدم غسان جديد على خلفية إعلانه الاستنفار في حمص عقب محاولة القبض عليه شمال دمشق التي قلنا إن شقير دبّرها سراً. المالكي اقترح إحالة غسان إلى القضاء بينما اقترح شقير الاكتفاء بتسريحه من الجيش. فاز اقتراح شقير وتم تسريح غسان في منتصف نيسان 55 بأثر رجعي اعتباراً من أول نيسان.

يقول سامي خوري (ص 279) إن غسان «ظهر التأثر قوياً عليه وإن كان يحاول إخفاءه عندما أعلمنا في اجتماع مجلس العمد بالبرقية التي تلقاها ذلك اليوم والتي تعلمه بتسريحه من الجيش، وأكثر ما أزعجه هو أنه أقدم مقدم في الجيش وترفيعه إلى

رتبة عقيد استحق منذ فترة طويلة ولكنه بقي مجمداً، وأن غسان اتهم المالكي بأنه كان وراء هذا التجميد وهذا التسريح».

الإيقاع بين الحزب وأركان الجيش والمالكي

شاعت في صفوف الحزب فكرة أن المالكي هو وراء تسريح غسان وأنه يحاول إضعاف نفوذ الحزب في الجيش، مع أن المالكي لم يكن الرجل الأول في الأركان أو المكتب الثاني أو مجلس الدفاع، وأن القرار لا يصدر عنه بل عمن هم أعلى رتبة منه مثل شوكت شقير رئيس الأركان. وأصبح واضحاً أن هناك جهات مستترة تقف وراء الإيقاع بين الحزب والعسكريين القوميين من جهة، وباقي ضباط الجيش من جهة أخرى، خاصة المالكي والمحسوبين عليه في الأركان. نستنتج ذلك من رواية سامي خوري الذي كان عميداً مقيماً في دمشق ومقرباً من رئيس الحزب ولم نعثر في مذكرات غيره على ما يرويه هو كشاهد عيان. يقول سامي خوري (ص 280): «... وليس أدل على ذلك من المنشورات التي وزعت في الغوطة وفي دمشق نفسها موقعة باسم غسان القوتلي المنفذ العام لمنفذية الغوطة في الحزب، وكانت تشتم العسكريين والأركان وتحرض عليهم وتدعو للتخلص منهم. ولكن اللغة التي كتبت فيها كانت ركيكة وتستخدم مصطلحات لا يستخدمها الحزب مثل «الحزب القومي السوري»، ما يدل على أنها مزورة ومدسوسة هدفها إثارة الفتنة بين الأركان والحزب». وأيضاً بعد نجاح حنا كسواني نائباً عن الغوطة وسقوط بهيج كلاس البعثي المحسوب على الأركان يومها، دب الحماس في القوميين وذهبوا بعيداً في تحدي الأركان وتجمعوا قبالة مركز الحزب يهتفون: يا زوبعة الله معك عالموت نحنا منتبعك، لما بيأمرنا الرئيس فوق الأركان منرفعك. وعندما نقول الأركان نعني كتلة المالكي التي كانت متحكمة في الأركان رغم أن رئيس الأركان هو شقير.

لا بد هنا من أن نورد بعض أقوال وكتابات عبد المسيح التي تبرهن أنه كان يعتبر المالكي عدواً للحزب وعميلاً للأميركيين والمصريين وأن هؤلاء إذ قتلوه فإنهم قد «ضحوا به» من أجل ضرب الحزب. يفصح عبد المسيح عن موقفه ورأيه في المالكي كعدو للحزب وكمتآمر وعميل للأميركيين والمصريين في أماكن عديدة،

لكن سنكتفي هنا بمثل واحد عن ذلك، يقول: «لم يخطر في بال أحد منا أن الذين في مدار التآمر سيقتلون واحداً منهم لاتخاذ مقتله ذريعة ضدنا» وأيضاً: «كان المالكي ضحيتهم للوصول إلى الحزب» (الخيط الرفيع ص 92). ولما كان وقوف المالكي ضد المحور الأميركي والمصري واضحاً للعيان فكان لا بد لعبد المسيح أن يعترف بذلك فيقول في مكان آخر عن المالكي بأنه «كان معانداً ضد خطط وضعتها المخابرات الأميركية ونفذتها وقتذاك مع المخابرات المصرية والأغبياء في الشام» (نفس المصدر). فبالنسبة لعبد المسيح المالكي هو في نفس الوقت واحد من المتآمرين مع الأميركان والمصريين ثم «معانداً وقف في وجه تيار عاتٍ فكان لا بد أن يقتل» (نفس المصدر ص 94).

محاولة الاتصال بالمالكي

مع حماوة الأحداث وتسارعها في الشام، صار مركز الحزب يعقد اجتماعات للقياديين المقيمين في دمشق وهم الرئيس عبد المسيح وعصام المحايري وعبدالله محسن وسامي خوري، إلى جانب الاجتماعات الدورية لمجلسي الأعلى والعمد. يقول سامي خوري: «على مرتين متواليتين طرحت على المجتمعين أن يتم الاتصال شخصياً مع عدنان المالكي لسؤاله عن أسباب الخلاف بين الحزب والأركان، ومحاولة تسوية هذا الخلاف وإيضاح موقف الحزب له. في المرة الأولى التي طرحت فيها ذلك لاحظت على وجه العم دلائل المفاجأة والارتباك ولم يعلق بشيء. وعندما اقترحت أن يقوم عصام بهذه المهمة نظراً لعلاقة العائلتين ومعرفته الشخصية بعدنان حاول عصام أن يقنعني بأن هذا الاجتماع لن يجدي نفعاً ولن نحصل منه على شيء. أما عبد المسيح فقد أيد عصام بعدم جدوى الاتصال بعدنان. وفي المرة الثانية كررت بشدة وجوب الاتصال بالمالكي خاصة وأني كنت أسمع من بعض العسكريين القوميين ومنهم ألكسي شبيعة أن عدنان ليس بعثياً وأن علاقته بالبعث هي علاقة شخصية مع أكرم الحوراني، لكن طلبي رفض للمرة الثانية، ولم أكن أعرف يومذاك أن شوكت شقير على اتصال مع العم ويحاول تعميق الخلاف بين المالكي والحزب.

ومحاولة المالكي الاتصال بالحزب

يبدو أن المالكي أيضاً يلاحظ أن شقير كان يعمل على توتير العلاقة بينه وبين الحزب، فأراد معالجة الموضوع وتوضيحه. نبقى مع سامي خوري الذي يقول: «تبين لي بعد مقتل المالكي أنه كان يحاول توسيع كتلته في الجيش بأن يضم إليها القوميين الاجتماعيين. فالمقدم ميشيل خوري أحد القوميين البارزين في الجيش كان آمراً للشرطة العسكرية أيام الشيشكلي ونُقل آمراً لموقع النبك. في أحد الأيام تلقى المقدم ميشيل خوري طلباً خاصاً من عدنان المالكي بأن يتوجه إلى دمشق لمقابلته وحدد له موعداً لذلك. في هذا الاجتماع الذي جرى في الأركان فوجئ ميشيل بقول المالكي له إن السبب في دعوته هو أنه يعرف انتماءه إلى الحزب، وأثنى على الحزب والضباط القوميين وأنه يرغب في التعاون معهم نظراً لإخلاصهم وانضباطيتهم وقدراتهم العسكرية، وإنه على استعداد لأن ينفذ هذا التعاون فوراً على أن يبقى سراً. المقدم ميشيل خوري، القومي المنضبط، نقل هذا الطلب المهم جداً إلى رئيس الحزب... لكن طلب المالكي هذا لم يصل إلى مجلس العمد أو أي عميد فيه. ميشال خوري عندما خرج من السجن اتصل بشقيقتي عبلة ثائراً على مقتل عدنان المالكي وأخبرها بلقائه به قائلاً بمرارة: ماذا فعل هؤلاء المجانين ولماذا اغتالوا الرجل الذي مدّ يده للتعاون مع الحزب» (ص 282) وهنا يتساءل سامي خوري إذا كان العم نقل إلى شقير طلب المالكي للتعاون مع الحزب، ما عجل في اغتياله؟.

محاولة أخرى كادت أن تتم

قبيل مقتل المالكي حاول الملازم معين عرنوق القومي الاجتماعي أن يرتب اجتماعاً بين عدنان وغسان جديد. لم يرفض عدنان هذه الفكرة ولكنه قال إن الاجتماع يمكن أن يتم السبت بعد عودته من زيارة إلى الجبهة. لكن هذا الاجتماع لم يتحقق إذ إن عدنان المالكي قتل يوم الجمعة. هذا ما يقوله سامي خوري ولم يذكر مصدر هذه المعلومة، ونحن لم نقع عليها من غيره. المهم في هذا الموضوع هو أن الفرص كانت موجودة للتعاون بين الحزب والكتلة الكبيرة التي كان يقودها المالكي، مما كان يعني عودة الحزب إلى الساحة السياسية بعد عزلته التي وضعه فيها الشيشكلي، ويعطل خطة رمي

العصفوريـن بحجـر واحد أي خطة قتل المالكي وضرب الحـزب التي خططها ونفذها أكثر من طرف واحد.

ويبقى السـؤال الكبير يطرح نفسـه بإلحاح: من عطّل محـاولات التفاهم بين الحزب والمالكـي؟ ولمـاذا لم يعرف العمد كأفـراد أو مجلس العمد كمؤسسـة بهذه المحاولات؟ ولماذا لم يسـتفد منها عبد المسيح وماذا كانت خطته البديلة؟ ولماذا لم يذكرها عبد المسيح في كل ما كتب وقال عن تلك المرحلة وكأنها لم تحدث؟ أم أنها لم تحدث أبداً وأن سـامي خوري يخترعها ويزج بأسماء عصام وميشال خوري ومعين عرنوق في روايات خيالية؟ لم يبق على قيد الحياة من هذه الأسـماء ليشـهد على صحة هذه المحاولات والروايات أو عـدم صحتهـا إلا عصام المحايـري. وعصام الذي لا بد أنه قرأ كتاب سـامي خوري لم يعلق عليها لا سلباً ولا إيجاباً.

كيف بدأ التوتر والخلاف مع مصر عبد الناصر؟

عندما استقالت حكومة فارس الخوري في مطلع شباط 55 وتشكلت وزارة ائتلافية برئاسـة صبري العسـلي الذي صار مع المحور المصري السـعودي المعادي تقليدياً لأي اتحـاد أو تقارب بين العراق والشـام، واشـترك فيها حزب البعث ممثـلاً بوهيب الغانم، واستثني منها الحزب، تأكد للجميع أن فكرة الاتحاد السوري العراقي قد طويت نهائياً. وكانـت ردة الفعل العراقية الإعلان عن توقيعـه على حلف بغداد العراقي- التركي... الإنكليزي- الأميركي، وذلك بتاريخ 26-2-55.

مصر بدورها أرسـلت موفداً لها إلى دمشـق هو الصاغ صلاح سـالم الذي استُقبِل في دمشـق استقبالاً حافلاً وكبيراً، وكان واضحاً أن هذه الزيارة هدفت لتحصين الحكومة السـورية ضد حلف بغداد. فخالد العظم وزير الخارجية أعلن بصراحة أن هذه الزيارة تـدور حول إقامة «ميثـاق عربي جديد» يحل مكان «ميثاق الضـمان الجماعي» الذي كان معمـولاً بـه في الجامعة العربيـة والذي كان يتيح لـكل دولة عربية حريـة عقد تحالفات مستقلة. أمـا الميثاق الجديـد فشروطه حسـب إعلان خالـد العظم: «لا تنضـم الدول الموافقـة عليـه إلى أي ميثاق آخر قبل موافقة الدول الأخـرى المصدقة عليه، وأن المجال

ما زال مفتوحاً أمام العراق لكي ينضم إلى الميثاق الجديد إذا تحرر من الحلف مع تركيا» (خوري ص 303).

المهم بالنسبة للحزب في هذا الموضوع هو أن زيارة الموفد المصري أثبتت مرة أخرى أن الحزب كان عاجزاً عن كسر طوق العزلة السياسية المفروضة عليه. فالصاغ صلاح زار مقر حزب البعث رغم أن هذا الحزب وقف من زيارته موقفاً سلبياً واضحاً، وأن مباحثاته مع قيادة حزب البعث «اتسمت بالفظاظة وسادها اختلاف الرأي وقد تركت في نفوسنا أثراً سيئاً» (الحوراني ج3 ص 1744). أما زيارته إلى مركز الحزب السوري القومي الاجتماعي التي كانت مقررة فقد ألغاها في آخر لحظة بحجة اضطراره للسفر. وقد لوحظ أن سياسة عبد الناصر من الحزب انقلبت من أيجابية وصداقة قبل الزيارة إلى خصومة وعداء بعدها بل إلى فيتو مصري قاطع ضد الحزب ووصوله إلى أي مركز من مراكز القوة والسلطة في الشام ولبنان (س. خوري ص 304). وقد رأينا فيما سبق من هذا الكتاب كيف أن الحزب لم يكمل ما بدأه الرفيق أحمد شومان مع عبد الناصر ولم يرسل الوفد المركزي الذي طلبه وكان مستعداً لاستضافته، ولا بد أن يكون الآن لموقف الحزب من حلف بغداد وبيانه الذي يدعو إلى التوجه للغرب، دور إضافي في هذا الانقلاب في الموقف المصري من الحزب. وهناك أيضاً روايات عن دسائس أكرم الحوراني وتأثيره على الموفد المصري في هذا الموضوع، حتى إن الحوراني اشترط على سالم استثناء الحزب السوري القومي الاجتماعي من أي تعاون مستقبلي.

نحن هنا بصدد بحث في تاريخ استشهاد سعاده والعوامل والأسباب الحزبية الداخلية لهذا الاستشهاد، وتحديداً في هذا الفصل، كيفية السيطرة على الحزب بعد استشهاد سعاده، ولسنا في معرض تاريخ العلاقة السورية- المصرية- السعودية وعلاقة الأميركان ودورهم فيها. وإذا استطردنا قليلاً أو كثيراً في هذا الموضوع فلإعطاء صورة عن البيئة السياسية التي كانت سائدة حينذاك وكيفية تعامل الحزب معها وهو «تحت السيطرة» الأميركية، وكيفية تأثير هذا التعامل على الحزب، وقد كان تأثيراً قوياً جداً.

المالكي أيضاً في مواجهة المصريين

في الأشهر الأولى من سنة 55 تكونت في سورية سلطة سياسية متماهية مع سياسة عبد الناصر، إذا لم نقل واقعة في دائرة نفوذها. فبعد مغادرة الصاغ صلاح سالم من دمشق عائداً إلى القاهرة، أعلن مجلس الوزراء السوري أنه وافق على ميثاق عربي جديد «يوحد» قيادة الجيوش العربية ويجنب الأعضاء سياسة الأحلاف، كما «ينسق» العلاقات الاقتصادية بين هذه الدول لتصل (متى؟) إلى الوحدة الاقتصادية. وقد قام خالد العظم والصاغ صلاح معاً بزيارة لكل من عمان وبيروت ولكنهما لم يوفقا في إقناع حكومتيهما بالتوقيع على الميثاق الجديد. أما زيارتهما إلى السعودية أوائل آذار فكانت ناجحة، إذ «وافقت» السعودية على البيان السوري- المصري المشترك الذي صار يعرف باسم الميثاق الثلاثي، وأصبح يتنافس مع الحلف العراقي- التركي، حلف بغداد.

يلاحظ القارئ هنا ويتعجب كيف أن السعودية توافق، ولا توقع، على البيان السوري- المصري المعادي للأميركيين وحلف بغداد وهي السائرة منذ إنشائها في تلك السياسة الإنكليزية ثم الأميركية. لكن هذا التعجب يزول متى عرفنا أن السياسة الأميركية كانت ولا زالت تنسق العلاقات والأدوار بين مختلف الحكومات العربية، تعاونها واختلافاتها على السواء، وإبقائها تحت السيطرة والاستثمار، ومتخذة من العداء السعودي التقليدي للهاشميين وسيلة لذلك.

لقد وصل التماهي السوري- المصري لمرحلة البحث الجدي لمشروع «الاتحاد العربي» الذي وضعته لجنة مصرية بحتة، هذا المشروع الذي عرف «بمشروع عبد الناصر» (حوراني 1777).

لقد ظهر جلياً أن المصريين الفخورين بمصر «أم الدنيا» لم تكن عروبتهم ومفهومهم لمشروع الاتحاد العربي إلا شيئاً يجب أن يبقى تحت المظلة المصرية والمصلحة المصرية والإرادة المصرية والسيطرة المصرية. أما السوريون فبعد قرون عديدة مديدة من غياب الشعور بالشخصية القومية السورية فقد كانوا غارقين في سبات الأحلام الوردية حول الوحدة العربية التامة الكاملة الشاملة كتعويض عن فراغ كبير وخطير ونقص كبير وخطير كانوا يعانون منه، والحزب السوري القومي الاجتماعي لم يصل بعد إلى

قوة شعبية وسياسية كافية ليوقظ الأمة السورية على حقيقتها وحقيقة وحدة حياتها ومصالحها ومصيرها.

كان المالكي في تلك الفترة الرجل القوي في رئاسة الأركان وفي الجيش السوري وهو العروبي الرومنسي الذي نشأ في بيئة العروبيين الخياليين، الحوراني ورياض المالكي والبعثيين الاشتراكيين، فكان رغم معارضته سياسياً للمحور المصري-السعودي، متحمساً لمشروع الاتحاد العربي ويأخذه مأخذ الجد. وضعت الحكومة السورية ملاحظاتها على الأقسام المتعلقة بالشؤون السياسية والاقتصادية لمشروع الاتحاد العربي، ووضع الجيش ملاحظاته على القسم المتعلق بالشؤون العسكرية من الرد السوري. وعندما اكتمل هذا الرد اتضح أن هناك خلافاً عميقاً بين النظرتين السورية والمصرية لمشروع الاتحاد. المشروع المصري يتكلم عن «الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي العربي»، أما التعديلات السورية فتتكلم عن «توحيد الشؤون الخارجية والعسكرية والاقتصادية»، والفرق واضح وكبير. وفي التفاصيل أن السوريين يريدون «جيش عربي موحد يتولى قيادته قائد عربي وتكون هيئة أركانه في دمشق»، أما المصريون فيريدون «قيادة عربية مشتركة مع الإبقاء لكل دولة عربية جيشها الخاص...الخ» (مذكرات خالد العظم ج 2 ص 402-404).

سافر وفد سورية إلى مصر لمناقشة مشروع الاتحاد والملاحظات السورية عليه بتاريخ 30-3-55 ويتألف من خالد العظم وشوكت شقير. فوجئ الوفد السوري باستقبال فاتر في المطار، وفي غياب عبد الناصر عن الاجتماع الأول. وبدهي في هذه الحالة أن يكون نص المشروع السوري قد سبق الوفد السوري ووصل إلى القاهرة قبله وأطلع عليه عبد الناصر ولم يعجبه فيه أن تخرج الشؤون العسكرية وقيادة الأركان عن إشرافه وإشراف مصر المباشر، وهو الذي كان يلح ويلح على ضرورة قدوم وفد سوري في الأيام الأولى من وضع نص المشروع المصري، لكن الحكومة السورية أجلت إرسال وفدها لحين انتهائها من وضع ملاحظاتها عليه. ولا شك أن المصريين يعرفون من وضع بنود المشروع السوري، أو التعديلات السورية على المشروع المصري، يعرفون أن المالكي كان هو وراء هذا الموضوع، حيث إن كتلته هي أكبر كتلة في الجيش وإنه كان مسيطراً على الأركان العامة رغم أن رئيسها لا يزال شوكت شقير، فالمخابرات المصرية

في الدوائر السياسية والعسكرية السورية كانت فاعلة وقوية.

كان الوفد السوري لا يزال في القاهرة عندما وصلها الأمير فيصل بن سعود وكان في استقباله في المطار جمال عبد الناصر ووزراؤه جميعهم. وعندما اجتمع الفرقاء الثلاثة فيصل وجمال والوفد السوري تمسك كل من المصريين والسوريين بموقفهم وانتهى الاجتماع على فشل (خالد العظم ص 405-407).

بعد هذا الاستعراض، يمكننا أن نستنتج أن اغتيال المالكي بالتحديد كان مصلحة مصرية أكيدة. أما الأميركيون فلا يهمهم أكان ضرب الحزب سيكون عبر اغتيال المالكي أو غيره. فبالنسبة للأميركيين لا بأس بالسير في خطة الاغتيال طالما هذا الاغتيال يوصل إلى الهدف الرئيس ويؤمن المصلحة الرئيسة لهم. أما المصالح الفرعية للمصريين ولشقير وحتى للبعثيين الذين انقلب عليهم المالكي بعد الانتخابات، فلا تعطل المصلحة الأميركية الرئيسة بل تخدمها. الأميركيون موجودون في جميع المواقع في سورية، هذا البلد المكشوف الذي يعج بطلاب السلطة والقوة الذي أهلكته الانقلابات العسكرية حتى فقد استقراره الأمني والسياسي، وتقلب على الحكم فيه وخلال فترة قصيرة أطراف عديدة ذات توجهات سياسية مختلفة. هذا البلد كان قد فقد حصانته الوطنية التي تقيه تدخل وتغلغل المخابرات الأجنبية، والحرب العالمية الثانية لم يمض عليها عشر سنوات والدول المنتصرة فيها عندها مصالح كبيرة وخطيرة ووجود إسرائيل وقوتها واستمرارها على رأس تلك المصالح.

قوة الحزب

قد يتبادر إلى ذهن الكثيرين هذا السؤال: وماذا يريد الأميركيون، ثم المصريون، أكثر مما حققوه وعملوه ضد الحزب؟ لقد أضعفوه شعبياً وأسقطوه في الانتخابات في عهد الشيشكلي وما بعد الشيشكلي، وقد عزلوه سياسياً وصار وحيداً دون حليف وحرموه من الحصول على وزير في جميع الحكومات إطلاقاً، وقد عبثوا في قياداته إغراءً وشراءً وخداعاً وتوجيهاً، وماذا بعد؟

الحقيقة أن الحزب، ورغم الانحرافات السياسية التي كانت قياداته ترتكبها، بالإضافة للمناكفات والانقسامات والصراعات التي كانت متفشية في أوساط قيادييه

وقياداتـه المركزيـة، فقد كانت «**روح الحزب السـوري القومي الاجتماعي تمتد في جسـم الأمـة وتنظـم جماعاتها**»، وكانت قدوة سـعاده وصحـة عقيدته وأحقيـة قضيته القومية الاجتماعية قوية جداً في نفوس أعضائه. كانت منفذيات الحزب ومديرياته ومؤسسـاته ومدارسـه ناشـطة جداً وتحقـق نتائج كبيرة، ولم يكـن ينقصها إلا قيـادة مركزية صالحة ومستقرة.

سـنورد ما رواه لنا بشير موصلي عن التظاهرة القومية الاجتماعية الضخمة والرائعة في تنظيمها في مناسـبة وعد بلفور، وكان ذلك أوائل تشرين الثاني سنة 1954 قبل مقتل المالكي بستة أشهر تقريباً. يقول موصلي:

«كان الانقسـام شـديداً بـين الأحـزاب والـشرخ كبـير بـين البعثيـين الاشـتراكيين والشـيوعيين من جهـة، والحزب السـوري القومي الاجتماعـي من جهة ثانيـة. وعادةً مـا ينضـم إليهما «الإخوان المسـلمون» وحزبا «الشـعب» و»الوطني» إذا مـا كان الأمر يتعلـق بالحزب السـوري القومي الاجتماعـي، فالقوميون عندهـم جميعهم، هم «جماعة الشيشـكلي». ولذلـك تظاهـر طلاب الحـزب وحدهـم في ذكرى وعد بلفـور... وعلى ضـوء التقاريـر التي رفعهـا الرفقاء الطـلاب الجامعيون وما برز فيها من خشـية تحويل التظاهرات العامة من احتجاج ضد وعد بلفور إلى استثمار ضد حكومة فارس الخوري التـي لا نحن معها ولا نحن ضدها، وخشـية من المندسـين، قررت القيـادة المركزية أن يسـتقل الطـلاب القوميـون الاجتماعيـون بتظاهرة يشـترك فيها أعضاء منفذية دمشـق العامة، وتبدأ بتوقيت يختلف عن توقيت المسيرة الأخرى للأحزاب الأخرى.

كان الحـزب واثقاً من أن عدد أعضائه في دمشـق يكفي للقيام بتظاهرة معتبرة. وبعد أكثر من سـاعة بقليل من انطلاق مسـيرات الآخرين شهدت دمشق بل سورية الطبيعية كلهـا لأول مـرة في ذلـك التاريـخ خروج مسـيرة طلابية «غير شـكل»- الكلام لبشـير موصـلي. كان لتأثـير نظامنا الحزبي المركزي التسلسـلي ولتنظيم الأعضاء في المؤسسـات دور كبير في تسـهيل الأعداد للمسـيرة الطلابية الراقية الرائعة. فالمشـاركون هم أعضاء منتظمـون في مديريـات، فاصطـف أعضاء كل مديريـة مع بعضهـم، وكل مديرية وراء المديريـة الأخرى حسـب الموقع الذي حدد لها. واحتفـظ كل رفيق بمكانه خلف الرفيق الآخـر ومنـع على كل مشـارك أن يبدل موقعـه في الصف أو الرتل حتـى انتهاء المظاهرة

وتفرقهـا لمنع دخـول أي مندس بين صفـوف القوميين. وحددت المسـافة بين كل رفيق ورفيق أمامه وبجانبه، وعليه المحافظة عليها حتى النهاية. كذلك جرى تقسـيم المظاهرة إلى أقسـام وعـلى رأس كل قسـم يحمـل عضوان لافتة سـوداء مسـجلاً عليهـا عبارات وأقوال لسعاده تتعلق بوعد بلفور والمسألة الفلسطينية. وأمام اليافطة يمشي أحد الرفقاء المكلفين وعلى ذراعه اليمنى شـارة الزوبعة وهو وحده مسؤول عن الهتاف ويعرف متى يأتي دوره بالهتاف حتى يردده وراءه المشـاركون، فيأتي الـرد موحداً وبنبرة وإيقاع واحد كأنه مضبوط بنوتة موسيقية جماهيرية. وشارك تيار من الطلاب المؤيدين من غير أعضاء الحـزب والتزموا بنظـام التظاهرة التي انتهت من دون أي حـادث... بانطلاق التظاهرة من سـاحة الحجاز وبوصول مقدمتها إلى جسر فكتوريا وكان آخرها لا يزال عند سـاحة الحجاز، تجلت روعة مظهرها وأظهر عرض الشـارع واسـتقامته لمسـافة طويلة، فخامة التظاهـرة. والنـاس على جانبـي الطريق في دهشـة لا تصدق عيونها وما يمـر أمامها من أعلام سوداء كبيرة في وسطها دوائر بيضاء وزوبعة حمراء، وسكون رهيب تقطعه هتافات منظمة بدقة... من دون أن يفوت المشـاهدين المقارنة بينها وبين مسـيرات الآخرين وما فيهـا من فوضى وانقسـامات وأحياناً معارك جانبية صغيرة حيـث يهتف كلٌّ على ليلاه. ولا يزال المعاصرون من ذلك الجيل يتذكرون تلك المسـيرة الرائعة بعد أن بقيت لأشـهر متواصلـة حديـث الأندية والندوات والصحف. ولا تسـألني كم طلـب انتماء للحزب تلقينا في تلك الفترة، حتى جاء نيسـان قبل أن يتم البت في تلك الطلبات فنجا أصحابها من الطوفان. وظل الناس يتذكرون طوال سنوات تلك التظاهرة الأخيرة في حياة الحزب في الشـام، حيث سـيُحجز لكل متظاهر فيها بعد أشهر قليلة مكان في سجن من سجون الشام باعتباره «مشاركاً في اغتيال المالكي»، شاء أم أبى، أكان في دمشق أم في باريس يوم الاغتيال!» (مذكرات بشـير الموصلي ص 506– 507). ونقرأ أيضاً في مذكرات نشـأت مطرود (صفحة 143) وصفاً مشابهاً.

وقتل عدنان المالكي / وقتل الحزب

حادثة مقتل المالكي وقعت مساء الجمعة 22 نيسان 1955. فوراً وقبل أن يشاع الخبر ويعم، وقبل أتضاح شيء عن ظروف الاغتيال، وخلال أقل من ساعة، انطلقت موجة طغيان مخططة ومرسـومة سـلفاً اسـتهدفت الحزب ومسـؤوليه المركزيـين والمحليين في

جميع المناطق السورية وطالت جميع مراكزه ومؤسساته واعتقل كل من ظهر من أعضائه وضباطه وعسكرييه وزجوا كلهم في السجون، كما طالت مدارسه وجريدته ومطابعها التي دوهمت وأحرقت من قبل رعاع كأنهم كانوا ينتظرون ساعة الصفر للانقضاض.

كل شيء يشي بأن استعدادات قوى الأمن لهذه الساعة كانت جاهزة بالاتفاق مع زمر ومجموعات بعثية وشيوعية بطريقة منسقة ومتزامنة. في هكذا مشهد وهكذا وضع لا تعود تفاصيل الاغتيال وكيفية حدوثه ذات أهمية. المهم أن المالكي قضى اغتيالاً ويجب أن يكون الحزب السوري القومي الاجتماعي هو من نفذ الاغتيال حسبما أشاعت جميع وسائل الإعلام العامة والخاصة. هذا التفصيل أو ذاك لم يعد مهماً لأنه مجرد تفصيل لو لم يتم اعتماده لكان تم اعتماد بديل عنه. أن يكون القومي يونس عبد الرحيم هو من أطلق النار على المالكي ثم أطلق النار على نفسه، أو أن يكون طرف آخر قد أطلق النار على المالكي ثم على يونس، أو غير ذلك، ليس مهماً كثيراً. المهم أن المالكي قد قتل وأن «الحزب القاتل» يجب أن يعاقب ويقضى عليه. هكذا كانت الأجواء الطاغية في ذلك النهار، ومن يجرؤ أن يناقش؟ ونحن أيضاً اليوم بعد 63 سنة من تلك الأحداث لن نخوض في هذه التفاصيل ولن نبني عليها لأنها غير ثابتة وغير أكيدة، لقد مر عليها هذا الزمن الطويل ولا زالت غير محسومة ولا أحد يمكنه أن يدعي أنه يملك شريطاً متسلسلاً صحيحاً لا يرقى إليه الشك عن مراحل حدوثها.

أين هي الحقيقة؟

إن الحقائق التاريخية تبنى على وقائع ثابتة أكيدة ولا تبنى على ترجيحات واستنتاجات، ويجب التمييز بين أمرين اثنين هما كيفية وتفاصيل الاغتيال من جهة ثم الجهة التي قررته وأشرفت على تنفيذه من جهة ثانية. إن كيفية قتل عدنان المالكي لم تصبح حقيقة تاريخية بعد لأنها ليست معروفة بشكل واضح وأكيد ومحسوم، أما الجهة التي خططت للقتل والتي استثمرت هذا القتل فقد أصبحت معروفة اليوم، صارت حقيقة تاريخية. لقد أصبح معروفاً من هم أصحاب المصلحة الرئيسة الأولى ومن هم أصحاب المصالح الوسيطة والفرعية والصغرى، ولكل مصلحة أدوات تأمينها وتحقيقها، ولكل من هذه الأدوات دوره المعين له.

المصلحة الرئيسة هي مصلحة الأميركيين والصهيونيين من ورائهم في القضاء على الحزب والتخلص منه. أما أن يكون المالكي هو من وقع عليه اختيار القتل، وليس غيره، فلم يكن مصلحة رئيسة للأميركيين والصهيونيين، ولم يكن شأناً مهماً كثيراً لهم بل كان هدفاً رئيساً للمصريين ومصلحة رئيسة لهم. فلو لم يصعد المالكي ويقف بوجه المحور المصري السعودي القوتلي الشقيري، وبالتالي أصبح قتله مصلحة رئيسة لهؤلاء، لكانت المصلحة الأميركية في القضاء على الحزب اعتمدت على خطة أخرى وطريق آخر. فالمصلحة الأميركية الصهيونية هي التي رتبت ونسقت المصالح الأخرى وشغلتها واستفادت منها. لقد تكلمنا آنفاً عن مصلحة المصريين والسعوديين في إيصال القوتلي إلى رئاسة الجمهورية بمساعدة حزبي الشعب والوطني، وكيف تعارض ذلك مع مصالح حزبي البعث والشيوعي وكيف أن هذين الأخيرين عجزا عن إيقاف تمدد المصالح الأميركية- المصرية- السعودية في سورية (من النتائج الفورية للاغتيال فوز القوتلي بانتخابات الرئاسة في أيلول 55)، ورأينا كيف صعد المالكي بسرعة وقوة مستفيداً من كتلة الضباط البعثيين والشيوعيين و»الضباط الشوام» ومحاولته استمالة الضباط القوميين الاجتماعيين، ورأينا كيف كان شقير يضع رجلاً هنا ورجلاً هناك ويبحث عن مصلحة استمرار مركزه في الجيش رئيساً للأركان وكيف كان يرى في صعود المالكي تهديداً له ولمركزه. وأخيراً رأينا كيف كانت مصلحة الحزب كما كان يراها العم والمجلس الأعلى معاً في التعاون مع الأميركيين ومع شقير، سراً، وكيف أنهم لم يروا في المالكي إلا منافساً ونداً لغسان جديد. هكذا كانت المصلحة كما رأتها قيادة الحزب آنذاك، وعبد المسيح على رأسها، آخر المصالح وأقلها وأصغرها حتى ولو افترضنا أنها مصلحة حقيقية وليست وهمية.

مجادلات

قد يكون العم بريئاً من تكليف يونس عبد الرحيم وبديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي بالقتل، وقد يكون يونس بريئاً من إطلاق النار على المالكي وعلى نفسه، وقد لا يكون، لكن ما كان ثابتاً وأكيداً هو أن جو العداء كان بارزاً وطافياً وواضحاً بين الحزب وكل من أحزاب البعث والشيوعي فضلاً عن المالكي. وما كان ثابتاً وأكيداً أيضاً هو أن قيادة الحزب قد عجزت عن حماية الحزب والدفاع عنه وعن أعضائه بوجه موجة الطغيان التي اجتاحته.

إن كل المجادلات حول من قتل المالكي ولماذا قتل المالكي ومن قتل يونس عبد الرحيم ولماذا قتل يونس عبد الرحيم، وغيرها من مجادلات ومناقشات المجالس الحزبية لهذه التفاصيل، إن كل ذلك كان خارجاً عن الموضوع الرئيس. فالموضوع الرئيس هو أن قيادة الحزب هي المسؤولة عن خسارة الحزب شعبياً (خسارة الانتخابات) وسياسياً (عزلته السياسية) وهي المسؤولة عن الفشل المريع في الدفاع عن الحزب ورد الطغيان الذي اجتاحه. لقد كان العم في مجادلاته (من قتل ولماذا قتل...) يدافع عن نفسه من تهمة قتل المالكي في وقت أن مهمته هي الدفاع عن الحزب بوجه موجة الطغيان. كما أن المجلس الأعلى حتى ولو تجمعت لديه عناصر تتهم عبد المسيح بالتورط في الاغتيال، كان واجبه الدستوري والأخلاقي هو الدفاع عن رئيس الحزب بوصفه ممثلاً عن الحزب كله، ذلك حفاظاً على وحدة القيادة ووحدة المسؤولية تجاه الرفقاء كما تجاه الرأي العام. وللإنصاف نقول إن المجلس الأعلى كان بالفعل يدافع عن رئيس الحزب ويحافظ على وحدة الحزب ووحدة القيادة والمسؤولية، لكن ذلك كان في الأشهر الأولى ما بعد الاغتيال وأنه سرعان ما تبدّل وتغير لتعود المناكفة بين الرئيس والمجلس الأعلى ويصبح سؤال «من قتل المالكي» أكثر تداولاً من سؤال «من هو المسؤول عن حماية الحزب ورد الطغيان عن القوميين».

عبد المسيح بريء أو متورط، ضحية إشاعات وخبريات واستهدافات أو أنه كان مشاركاً ومساهماً مع شوكت شقير، مع علمه ودرايته بمصلحة شقير والمصريين والأميركيين والصهيونيين أو عدم علمه ودرايته بها، مع حسبانه وظنه أن هناك مصلحة للحزب في قتل المالكي أم غير ذلك. فكل هذه الأمور لا تعدو كونها شبهات وفرضيات غير صالحة لاعتماد أي منها كحقائق تاريخية. الحقائق التاريخية موجودة في غير مكان وغير مجال. فعندما نقول مثلاً إن عبد المسيح كان على خلاف وصدام، أقله عدم انسجام، مع الغالبية العظمى من المسؤولين المركزيين في الحزب الذين عملوا معه، نكون نعلن حقيقة تاريخية نراها واضحة لا شك فيها، نراها في كتابات وأقوال عبد المسيح نفسه فضلاً عن غيره. أيضاً، عندما نقول إن عبد المسيح توارى عدة أيام بعد الاغتيال قبل أن ينتقل سراً إلى لبنان ويترك وراءه في الشام حزباً ينهار ويتم القضاء عليه، وهو رئيسه، نكون نعلن حقيقة تاريخية نراها واضحة دون أن يستطيع أحد نكرانها. أما أن نقول إن عبد المسيح شيطان مكتمل الصفات الشيطانية، أو أنه ملاك أو

قديس تحمّل من سهام المقربين فضلاً عن الأبعدين ما لم يتحمله قائد غيره، فلا نكون نعلن حقيقة تاريخية بل هجاء وتقريعاً ومدائح ومجادلات لا تشبه الحقائق التاريخية بأي شكل من الأشكال. ومع ذلك لا يعني هذا أنه يجب أن نغض النظر عن أحداث معينة لها علاقة بموضوعنا بحجة أن تلك الحوادث ومعرفتها لن تساعدنا على بناء الحقيقة التي نسعى إليها، فكل إضاءة وكل إشارة وكل معلومة يجب حفظها وتسجيلها، فإذا بدت اليوم غير ذات أهمية أو فائدة فيمكن أن تصبح غداً مفتاحاً لحقائق كانت مجهولة.

تبرئة الحزب!

يجمع القوميون اليوم على الاعتقاد بأن محاكمات دمشق قد برّأت الحزب من تهمة قتل عدنان المالكي. هكذا يعتقد طرفا الانشقاق الحالي، ويذهب الطرف المركزي للقول بأن التهمة والإدانة رست على عبد المسيح وأن عبد المسيح تورط بالقضية دون علم المؤسسات الحزبية الرسمية، وكان هذا الطرف بذلك يبرهن أنه لا يرى الحزب وحدة قيادة ووحدة مسؤولية، كأنه يتنصل من المسؤولية ويرميها على رئيس الحزب. كأن هذا الطرف خال تماماً من أية مسؤولية وكأنه لا علاقة له برئيس الحزب وليس مسؤولاً عن مراقبة أداء رئيس الحزب وحسن تنفيذه لسياسة المجلس، كأنه يوجد حزبان: حزب الرئيس وحزب المجلس الأعلى.

لكننا لا ندري كيف تكوّن هذا الاعتقاد. فإن المحاكم الشامية، وبغض النظر الآن عن عدالة أحكامها أو عدمها، لم تبرئ الحزب. لم يصدر حكم ببراءة الحزب. هل إن كل الأحكام الوجاهية والغيابية القاسية بحق مجموعة كبيرة من أعضاء المجلس الأعلى ومجلس العمد تعني تبرئة للحزب؟! طبعاً لا. ففضلاً عن الحكم على الرقيب الأول في فوج الشرطة العسكرية الرفيق منعم دبوسي وعلى الوكيل في الجيش الرفيق بديع مخلوف بالإعدام وتنفيذ الحكم، فقد حكم بالإعدام غيابياً على جورج عبد المسيح وإسكندر شاوي، وبالسجن على كل من الأمينة الأولى وعصام المحايري وكامل حسان وفؤاد الشواف، فهل بعد هذه الأحكام يمكن القول إن المحكمة برأت الحزب؟ هل تعني إدانة رئيس الحزب وأعضاء في المجلس الأعلى ومجلس العمد تبرئة للحزب أم إدانة؟! ومن هو الحزب إذاً، بالنسبة للمحكمة، إذا لم يكن لا رئيسه ولا أحد من مسؤوليه المركزيين؟!

علاقة عبد المسيح بمقتل المالكي

إن أول إشارة لتورط عبد المسيح بقتل المالكي صدرت عن عصام محايري من سجنه، حيث قال للمحققين إن يونس عبد الرحيم لا يمكن أن يقدم على فعل القتل إلا بأمر من رئيس الحزب وعميد الدفاع، وقد أرسل من سجنه رسالة إلى المجلس الأعلى تحمل نفس الاتهام. يومها وقف الحزب كله ووقف المجلس الأعلى كله الموقف الصحيح وتضامن مع رئيس الحزب ودافع عنه، حتى إن عبدالله قبرصي وإنعام رعد طالبا المجلس بوجوب الحكم على عصام وطرده، لكن عبد المسيح رفض هذا المنطق لأنه لا يؤخذ على سجين في المزة ماذا يقول.(رسالة إلى منير ص 148)

إن موضوع إدانة أو تبرئة عبد المسيح لم ينته بعد في الحزب رغم مضي أكثر من ستين سنة عليه، وبين الإصرار على البراءة وبراهينها من جهة، والإصرار على الإدانة ودلائلها من جهة أخرى، نستطيع أن نرى بوضوح نزعة الفئوية والفردية والعنعنات ومصالح الصراع على السلطة التي هيمنت على حزب سعاده بعد غيابه بالاستشهاد، وكأن سعاده لم ينشئ نظاماً ومؤسسات معنية مختصة ولم يشرع لمحكمة حزبية ولم يؤسس لعقلية أخلاقية راقية جديدة. كأن سعاده استهلك روحه ووجدانه وعبقريته وعلمه وفلسفته وقضى عمره كله وجهاده وآلامه المقدسة لكي ينشئ هذه القضية فقط ليتسلى بها من يأتي بعده إلى قيادة الحزب ويجعل الرفقاء القوميين الاجتماعيين الذين تعاقدوا مع زعيمهم على قضية خطيرة تساوي وجودهم، يصرفون قوتهم وحيويتهم وإمكاناتهم في صراع داخلي مهلك ومميت على بقايا حزب وأشلاء قضية.

لن أدخل طرفاً في هذا الصراع المقيت ولن أستدرج الرفقاء إلى الانغماس فيه، فهذا البحث ليس هدفه نصرة هذا الطرف أو ذاك، بل هدفه محاولة الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الحقائق التي إذا تجمعت استطعنا بواسطتها استخراج الحقيقة التاريخية الكاملة، والحقيقة هي وحدها ما يصلح البناء عليه. ونحن نتكلم على الحقيقة والوصول إليها، نعرف أن كلاً من طرفي هذا الصراع يدّعي امتلاكها، لكن الحقيقة شيء وادعاءها شيء آخر. سنعرض هنا، دون انحياز، حجج الطرفين وسنرى أن الحقيقة بعيدة عن كليهما، إن الحقيقة موجودة في مكان آخر، وفيما يلي دليلنا.

حجج براءة عبد المسيح

لـو كان موضـوع مقتـل المالكـي هو الموضـوع الرئيس لهـذا الكتاب لاسـتحق هذا العنوان أكثر بكثير من مجرد عرض سريع للحجج القليلة التالية لبراءة أو إدانة المتهمين بالقتل. لكن اكتفاءنا بهذا الإيجاز يسد الحاجة للتطرق إلى الموضوع بشكل عام.

1- الإصرار المسـتميت لسـفير مصر في دمشـق عـلى المالكي لحضور المبـاراة وإلغاء رحلتـه المقـررة إلى صيدا، ما يعني اسـتدراجاً مصرياً للمالكي للوقـوع في المصيدة. وإذا أضفنا إلى ذلك سـوء العلاقة بين الحزب والمصريين نخلص للاستنتاج أن المصريين هم من دبروا قتل المالكي من غير التعاون مع الحزب ورئيسه الذي هو على خصومة معهم. لكن هذا لا ينفي أن يكون رئيس الحزب غافلاً عن مصلحة المصريين ومسـاعيهم وأنه قد تعاون مع غيرهم، مع شقير مثلاً، وليس معهم هم في التخطيط للقتل.

2- آمر الشرطة العسـكرية الضابط أكرم ديري العامل تحت إمرة شـقير ينقل يونس من مكان جانبي بعيد عن المالكي ويضعه خلف المنصة الرئيسـية حيث يجلس المالكي، مـا يمكـن أن يعني أن يونس لم يكن في وارد القتل وأن أكرم نقله ووضعه حيث يسـهل توريطـه (سـامي خوري 288). لكن هـذا الدليل هو دليل تورط وضلـوع أكرم ديري أكثر منه دليل براءة عبد المسيح.

3- يونس ومصطفى رام حمداني وأكرم ديري وشـقير: «بتاريخ 28-12-55 نقل الرائد مصطفى رام حمداني من رئاسـة الشعبة الثانية إثر مشادة عنيفة جرت بينه وبين الرائـد أكـرم ديري قائد الشرطة العسـكرية بحضور رئيس الأركان شـوكت شـقير الذي عيّن بديع بشـور عوضاً عنه. سـبب المشادة أن الرائد حمداني قد تبلغ من مصدر موثوق أن الرقيب في الشرطة العسكرية يونس عبد الرحيم قد عقد العزم على اغتيال العقيد عدنان المالكي بسـبب عدائه للحزب السوري القومي، وعندما ذهب حمدون لمقابلة رئيس الأركان وجد عنده الرائد أكرم ديري فوجدها مناسبة لعرض الموضوع وطلب نقل يونس إلى الجزيرة أو اللاذقية، وما إن سمع أكرم ما قاله حمداني حتى هاج وثار وغضب وطلب منه أن لا يتدخل بشـؤون الشرطة العسـكرية. وبعد أخذ ورد طلـب حمداني من شـقير أن يكون حكماً فـما كان من الأخير إلا أن أخـذ جانب أكرم طالبـاً من حمداني عدم التدخل في اختصاصات غيره، فطلب حمداني نقله من الشـعبة

الثانية وسارع شقير بتلبية طلبه وقال له: سنرسلك إلى القاهرة لاتباع دورة أركان. هذه الحادثة أدت للتضحية بركن مهم من أركان الجيش للحيلولة دون نقل رقيب بسيط أو على الأقل دون التحقيق معه، تدل على أن حادثة اغتيال المالكي لم تأت من فراغ ولا نتيجة هوس رقيب مجنون بعقيدته الحزبية بل تدل أنها كانت تطبخ على نار هادئة» (سامي جمعة ص 151). هذه الرواية عاد وأكدها أكرم حوراني في مذكراته (ج 3 ص 177) وقال إنه هو الذي نقل لحمداني نية يونس عبد الرحيم بقتل المالكي. وهذه الرواية تعني أن شقير وأكرم ضالعان بمؤامرة القتل وهما بحاجة ليونس ودوره المرسوم ولذلك تمسكا به ضد رغبة حمداني. هذا الدليل هو أيضاً دليل تورط أكرم وشقير وليس دليل براءة عبد المسيح، لم يقل أحد إن عبد المسيح كان وحده متورطاً.

4- عدم وجود أي احتياطات لدى رئيس الحزب في 22 نيسان ووقوعه مع مجلس العمد في فوضى وارتباك، ما اضطرهم للهروب والتواري من دون تنسيق، ووقوع البعض منهم في الأسر. فلو أن رئيس الحزب كان متورطاً في العملية في 22 نيسان دون علم بقية العمد لكان احتاط لنفسه على الاقل ولم يضطر إلى اللجوء إلى بيت الرفيقة خالدة الصالح ثم التخفي والنوم في العراء قبل انتقاله إلى لبنان. وهذه النقطة هي من أهم ما اعتمدته دفاعات الأمين عصام والمحامون القوميون في المحكمة العسكرية في دمشق. لكن هذا الدليل لا يكفي، فصحيح أن العمد لم يكونوا على دراية وأنهم وقعوا في فوضى وارتباك ويمكن تفسير ذلك أن رئيس الحزب، إذا كان متورطاً، لم يخبر أحداً منهم وأنه هو نفسه كان مطمئناً ومعتقداً أن الحزب سيستفيد من العملية، بدليل قوله لسليم سعدو سالم «إنها زوبعة في فنجان وأيام قليلة وتنقضي».

5- الحجج المنطقية القوية التي ساقها عبد المسيح في تفنيد قرار الاتهام ومطالعات المدعي العام، وهي ما احتوته عدة رسائل وبيانات وكتب بقلم عبد المسيح. لكن هذه الحجج القوية والصحيحة هي دليل تخبط وتهافت المتآمرين في إخفاء تورطهم هم ومحاولتهم حصر التهمة بالحزب وحده وبالمسؤولين الحزبيين الأبرياء، وليست دليل براءة عبد المسيح نفسه.

6- شهادة الرفيق خضر حموي التي قدمها إلى عميد القضاء، وكان العميد هو نصري أبو سليمان، بأنه قابل شخصياً المساعد الأول في الجيش الحاج حسين الذي

استدعى الرفيق يونس عبد الرحيم من بيته، رغم أنه في إجازة، لحراسة عدنان المالكي يوم الاغتيال في الملعب البلدي... «قلت للحاج حسين مستغرباً: كيف تعين يونس في هذه المهمة وأنت تعرف أنه قومي؟ أجابني الحاج حسين: أنا لم أعين يونس بل جاءني أمر موقع من رئاسة الأركان أبلغني إياه مدير الشرطة أكرم الديري وجاء فيه أن آتي بيونس عبد الرحيم من بيته ومن إجازته يوم الجمعة وأعينه حارساً وراء المالكي بعد أن أترك ثلاثة صفوف فارغة بينه وبين صف المالكي. طلبت من الحاج حسين أن يعطيني أمر المهمة أو نسخة عنه فقال إنه لا يستطيع وإذا فعل فإنهم سيعدمونه... وقد اطلعت على أمر المهمة الصادر عن أركان الجيش ووجدت أنه مختوم بختم الأركان وختم الشرطة الرسمي...» (مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة... ص 277). هذه شهادة تثبت تورط الديري وشقير ولا تثبت براءة عبد المسيح، تثبت أن يونس قد تلقى أمر الذهاب إلى الملعب من شقير والديري وليس من عبد المسيح، ولكنها لا تنفي أن يكون يونس معبأً ومهيأً سلفاً وأن عبد المسيح كان قد ترك مهمة تحريك يونس ووضعه خلف المالكي، للديري وشقير.

7- شهادة رباح شريح والد الرفيق فهمي شريح التي أدلى بها للرفيق المحامي خضر حموي، وخضر بدوره نقلها إلى عميد القضاء نصري أبو سليمان، «...قال لي رباح إنه كان حاضراً المباراة التي قتل فيها المالكي، وقد رأى الملازم أول عبد الكريم النحلاوي يلبس قمبازاً حموياً ويجلس إلى يسار المالكي، فلفت ذلك نظره لماذا يلبس ذلك اللباس المموه، فأخذ يراقبه فرآه بعينه يأخذ مسدساً من تحت القنباز ويطلق النار على عدنان المالكي وليس على يونس عبد الرحيم. وفي نفس اللحظة رأى أكرم ديري يقفز من الجهة الثانية إلى يونس عبد الرحيم الذي كان يخرطش للاستنفار، فيطلق النار على رأس يونس قائلاً له: قتلته وقتلت حالك يا كلب. فاستدعى نصري أبو سليمان رباح شريح فأدلى بتلك الإفادة، وعلى أثرها طلب محامي الحزب هاني البيطار من التحقيق فحص الجثث للتأكد من أنواع الرصاصات التي اخترقتها وأيضاً رصاصة الانتحار. أجاب القاضي إنه من أجل حرمة الأموات لا يسمح بفحص الجثتين. فقال الأستاذ بيطار نتمسك بفحص جثة يونس وتشريحها. فرفضوا لأنهم يعرفون أن الرصاصات مختلفة ومن مسدسات مختلفة وأن يونس لم ينتحر ولا يوجد وشم على جبينه (نفس المصدر ص 279). إن

هذه الشهادة إذا صحّت فيمكن أن تعني أن الديري وشقير كان عندهما قاتل احتياطي لاستعماله بديلاً عن يونس في حال تردد هذا الأخير في تنفيذ قتل المالكي أو في الانتحار بعد قتل المالكي.

حجج إدانة عبد المسيح

1- شهادات بديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي: هذان الرفيقان الشهيدان اللذان أعدما ظلماً بتهمة الاشتراك في القتل، وهما لم يشتركا في القتل، قد شهدا ثلاث مرات بأن عبد المسيح وإسكندر شاوي حرضاهما وكلفاهما بدور في قتل المالكي الذي كان مخططاً في 17 نيسان، أي قبل القتل الفعلي بأسبوع، وأنهما تبلغا بإلغاء العملية الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم. الشهادة الأولى قدمها مخلوف للأمينة الأولى في المحكمة عندما جلس بقربها وأسرّ لها بها. والشهادة الثانية قدماها لعميد القضاء سليم عثمان الذي أوفده المجلس الأعلى لاستجوابهما. شهادتهما لعميد القضاء يكذبها عبد المسيح الذي يقول في الصفحة 69 من كتاب مراحل الانتفاضة، إن المحاميين رياض أبو فاضل وجان خوري أرسلهما «المركز» إلى مخلوف والدبوسي اللذين أكدا براءة عبد المسيح والشاوي من تهمة تحريضهما. واضح أن شهادة عثمان هي أقوى من شهادة أبي فاضل وخوري لأن عثمان هو عميد قضاء أرسله المجلس الأعلى بمهمة تحقيق وقد قدم تقريره للمجلس، أما الآخران فلا صفة رسمية لهما والذي أرسلهما هو «المركز» الذي قد يكون عبد المسيح نفسه، وهما لم يقدما تقريراً لأحد.

أما الشهادة الثالثة فقد ذكرها عصام (حديث إلى جريدة البناء 29 نيسان 2000) وقال إنه خلال مواجهتهما له في السجن، كل منهما ذكر له أن العم وشاوي كانا يجتمعان إلى حلقة تضمهما مع يونس عبد الرحيم، وأن الاغتيال طرحه العم في أحد الاجتماعات وأن يونس أبلغ أنه سيتولى التنفيذ.

نحن سنفترض أن عصام يكذب أو يتخيل أو أن مخلوف ودبوسي قالا ما قالاه مجبرين تحت التعذيب وتحت المراقبة في المحكمة (للأمينة الأولى) وفي السجن (لعصام)، فماذا عما قاله يونس لأخيه الرفيق ياسين عبد الرحيم؟ هذه الواقعة نقرأها على لسان المحايري كما يلي: «يذكر لي الأمين ياسين في بيروت عند استذكارنا لاغتيال المالكي وسائر ذكرياتنا

الحزبية أنه قبل أسبوعين أو ثلاثة من مقتل المالكي كان وشقيقه يونس يتدرجان في القرية، وأن يونس قال له: العم طلب مني أن أقتل المالكي وأنتحِر. فأجابه ياسين: ليش ما عملتها؟ فقال له يونس: لأنني جبان (البناء 1023 تاريخ 20-5-2000).

هذه الرواية عاد ياسين وأكد نصفها سنة 2002 في كتابه (خميرة الغد ص 155). فقد نفى ياسين نفياً قاطعاً أن يكون يونس قال له إن العم أمرني بقتل المالكي وأنتحِر، ويقول ياسين إن الفرق كبير بين التحريض غير المباشر وبين إعطاء الأمر بهذه الصورة. لكن ياسين أقر بأن يونس قال له قبل شهر تقريباً من حادثة مقتل المالكي: «هل تعرف أنني كدت أقدم على محاولة قتل المالكي؟» وعندما سأله ياسين «ليش ما عملتها» أجابه يونس «من جبانتي يا أخي».

2- شهادة مخلوف ودبوسي أن يونس ترك مكانه وذهب إلى مكان قريب من مخلوف ودبوسي وأخبرهما أن مسدسه «أجدب» أي روكب وأن الرصاصة لم تنطلق، أجابه مخلوف: شو جبنت؟ تركهما وعاد إلى مكانه وما هي إلا دقائق حتى انطلقت الرصاصات القاتلة لعدنان ويونس.(س. خوري 288)

3- تطابق رواية مخلوف ودبوسي الواردة في تقريري عميد القضاء ووكيله مع رواية قرار الاتهام الذي استخلصه المحقق العسكري من مخلوف وعبد المنعم بعد تعذيب شديد بأنهم كانوا مكلفين بتنفيذ خطة القتل في يوم عيد الجلاء في 17 نيسان وأن إسكندر شاوي أبلغهم تأجيل التنفيذ الساعة السادسة صباح ذلك اليوم.

4- شهادة سليم سعدو سالم ومعين عرنوق. يتحدث ناظر تدريب منفذية دمشق في مذكراته (سليم سعدو سالم يعرف ويعترف ص 115- إلى 120) عن «مشوار الليل في دمشق» ويروي كيف كان عبد المسيح يحرضه على قتل عدنان المالكي وكيف قطع الموضوع عندما لمس تردد سليم وكيف أخذ شاوي منه المسدس دون سبب واضح... الخ.

وأيضاً شهادة الأمين معين عرنوق المكررة التي أدلى بها لأكثر من رفيق واحد. عرنوق كان ضابطاً في الجيش عندما التقى بالشهيد الملازم عبد المنعم دبوسي على الجبهة

في منطقة الحمة قبل مقتل المالكي بوقت قصير، حيث قال له دبوسي ما معناه: «**لو جاء المالكي إلى الاحتفال لكنا روحناه». الأمين عرنوق هو اليوم، مثل الأمين سالم، على مشارف التسعين من عمره ولا يزال يروي ما جرى معه بألم وحسرة...**

5- شهادة الرفيق زهير الصواف، أشار إليها عيسى اليازجي صفحة 51 من كتابه «صفحات من حياتي»، عن اجتماع العم مع شقير والسراج. ملخصها أن الصواف أعطى مفتاح بيته في دمشق لرئيس الحزب بناء على طلبه كونه يقضي وزوجته عطلة صيفية في الزبداني، وأن الصواف الذي يحمل مفتاحاً آخر عاد في أحد الأيام إلى بيته في دمشق ليجلب معطفاً لزوجته يقيها برد المساء في مصيف الزبداني، ففوجئ بوجود عبد المسيح وشوكت شقير وعبد الحميد السراج في البيت، وقد غضب عبد المسيح وتوتر ثم أمر الصواف ألا يذكر ما رأى في بيته أمام أي كان. وهذه الشهادة تلتقي مع شهادة سامي جمعة التي ذكرناها في مكان آخر من هذا الكتاب والتي تحدثت عن قيامه بجلب حسن الطويل وعبد الله محسن وإسكندر شاوي ثم عبد المسيح للقاء شقير والاجتماع معه مرات عديدة (صفحات من دفتر الوطن ص 164 و184). بالإضافة لذلك هناك شهادة للرفيق نشأت مهدي مطرود بأنه رأى عبد الحميد السراج خارجاً من اجتماع مع عبد المسيح في مركز الحزب في منطقة عين الكرش (نشأت مطرود- إني أعترف، ص 144).

وما يعزز هذه الشهادات هو إنكار عبد المسيح لها إنكاراً شديداً. كان يمكن لعبد المسيح أن يعترف بهذه اللقاءات كشيء طبيعي له الحق به كرئيس للحزب، فرئيس الحزب يحق له بل من واجبه أن يلتقي ويجتمع مع من يرى فائدة من الالتقاء معه والاجتماع به ولا أحد يحق له أن يحاججه في هذه اللقاءات. أما أن ينكر عبد المسيح هذه اللقاءات التي قام عليها شهود، فهو بالضبط ما يثير الريبة والشك بأنه يخفي شيئاً.

6- إصرار شقير على رفضه العنيد لاقتراح المحايري أن يسلم عبد المسيح نفسه. عصام المحايري لم يكتب مذكرات بل له عدة مقابلات ومقالات صحفية تحدث فيها عن موضوع مقتل المالكي. ففي حديث لجريدة الحياة تاريخ 22 نيسان 2000 وأيضاً لجريدة البناء في 29 نيسان 2000 أدلى بالمعلومات التالية: عندما كان سجيناً في المزة وقد سمع اعترافات بديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي عن علاقة عبد المسيح وتجنيده لهما

لقتل المالكي، أراد أن يبرهن على براءة الحزب وأن يحصر الاتهام بشخص عبد المسيح واقترح على المحققين وكبيرهم أكرم ديري أن يعمل عصام على إقناع قيادة الحزب في بيروت لتسليم عبد المسيح للتحقيق في دمشق وهو يستطيع الدفاع عن نفسه. ويروي عصام بعد ذلك تفاصيل عن رفض شوكت شقير لهذا الاقتراح «رفضاً باتاً». ويقول سامي خوري عن هذه الواقعة إن عصام لم يكن يعلم بالاجتماعات التي عقدها جورج عبد المسيح مع شوكت شقير ولا بما يدبرانه للتخلص من عدنان المالكي وإن رفض شقير رفضاً باتاً تسليم عبد المسيح ليس إلا لخوفه من أن يصل التحقيق إليه شخصياً (س. خوري 316). فشقير لا يريد لعبد المسيح أن يعترف للمحكمة عن اجتماعاته مع شقير واشتراكه معه في خطة القتل، ولذلك رفض رفضاً باتاً اقتراح عصام للمحكمة بالإتيان بعبد المسيح. هل ترفض أي محكمة في العالم جلب المتهم الرئيسي للمثول أمامها؟! يقول عصام: «رفض شقير أن أقوم بمحاولة لدى قيادات الحزب لحمل العم على تسليم نفسه، بحجة أن ما أرمي إليه هو تبرئة الحزب، مع أنه يدرك أن تسليم العم نفسه لا يبرئ الحزب تلقائياً إلا من خلال ما يدلي به العم في التحقيق معه، في الوقت الذي كان شقير يذيع على الملأ رصد الأركان العامة جوائز مالية ضخمة لمن يساعد في إلقاء القبض عليه».

نعتقد أن هذه المسألة هي ما دفع ببعض القوميين لاحقاً للقول إن شقير نفسه هو من سهّل هروب عبد المسيح وسهّل انتقاله إلى لبنان. في ذلك يشير الأمين سليم سعدو سالم في مذكراته، تحت عنوان «الهروب المفبرك صفحة 129»، إلى تلك السيارة العسكرية المطفأة الأنوار التي شوهدت خلف السيارة التي أقلت عبد المسيح مع الرفقاء عبد الهادي حماد ويوسف دعيبس وفضل العقاد وسليم سعدو سالم بعد العاشرة ليلاً من بيت الرفيقة خالدة الصالح إلى منطقة الزبداني، والتي غادرت بعد انعطاف سيارة الرفقاء باتجاه مفرق الزبداني. ويتكلم الأمين سالم عن الهروب الآمن والمُراقَب تلك الليلة حيث لم تكن توجد حواجز عسكرية على الطريق، هذه الحواجز التي ظهرت بكثرة في اليوم التالي...

7- الأمينة إدما ناصيف في مذكراتها شهدت أن عبد المسيح قال أمامها وأمام الأمينة الأولى والرفيق الدكتور سامي سحلول ما معناه أنه سيقتل عدنان المالكي، هكذا: «...

وفي الساعة الخامسة والنصف أذاع راديو دمشق أن جريمة حصلت في الملعب البلدي ذهب ضحيتها العقيد عدنان المالكي وأن القاتل قتل نفسه، ولم يذع اسمه. أسرعت عند سماع الخبر إلى جيراننا الرفيقين نعمة حمادة وحسن مخلوف اللذين كانا يسكنان في غرفة واحدة قربنا. ما إن سمع حسن بالخبر حتى قفز واقفاً وقال «راح بديع» ثم سقط على الأرض مغمياً عليه. بعد إسعافه سألناه ما علاقة بديع؟ فبقي صامتاً. حينها تذكرت بديع وكيف عرفتني عليه الرفيقة مريم. كما تذكرت وجه الأمينة الأولى حين زارتنا الأسبوع الفائت وكيف كانت مضطربة وقالت لوالدتي إنها خائفة ولكنها لا تعرف ممن وعلى من. ثم طلبَت من والدتي السماح لي بمرافقتها. فذهبنا إلى بيت الرفيق أسيمة الموصلي في سيارة يقودها الرفيق الدكتور سامي سحلول. كان رئيس الحزب عبد المسيح في السيارة معنا، وفي الطريق توقف سامي وأخرج من جيبه رسالة يبدو أنه حصل عليها من عمله في قيادة الأركان، حيث كان يقضي خدمة العلم، ثم قرأها بصوت عالٍ لرئيس الحزب وكأنه يريد أن تسمعها الأمينة الأولى: قرار صادر عن مكتب العقيد عدنان المالكي رئيس شعبة المخابرات- مذكرة إبعاد لجورج عبد المسيح عن سورية. بعد انتهائه من قراءتها نظر إلى عبد المسيح بانتظار رأيه فقال الأخير: لن أترك له الوقت للتنفيذ. فالتفتت إليّ الأمينة الأولى وكأنها تقول: سمعت! وبعد أقل من أسبوع قتل المالكي، وقد ذكّرتني الأمينة الأولى بهذه الحادثة حين كنا سوياً في سجن المزة». (مذكرات إدما ناصيف ص 26-27).

لا بد لنا هنا أن نلاحظ من قصة إيقاف السيارة ليقوم الدكتور سحلول بقراءة الرسالة أن عبد المسيح لم يستغرب ولم يسأل الرفيق سحلول عن سبب إيقاف السيارة جانب الطريق، ما يشير إلى أنه كان قد اتفق معه على ذلك. فضلاً عن أن الرفيق سحلول لم يكن ليجرؤ على قراءة تلك الرسالة أمام غير العم لو لم يكن الأمر مرتباً سابقاً. فالعم أراد من الأمينة الأولى أن تقتنع بأن عبد المسيح مظلوم والمالكي يتأبط به شراً.

8- لمذكرات الأمينة الأولى قيمة معنوية خاصة جديرة بالتوقف عندها واحترامها وأخذها بعين الاعتبار رغم كونها احتوت روايات وتقييمات واستنتاجات شخصية قد تكون صحيحة وقد يكون بعضها مبالغاً به بسبب الضغوط النفسية الهائلة التي تعرضت لها بعد ثماني سنوات سجن، فقد اتهمت العم صراحة ليس فقط بالتورط في

مقتل المالكي بل أيضاً في التآمر على الحزب وعليها شخصياً. لقد صدر كتاب عن عمدة الإذاعة في تنظيم الانتفاضة هو «مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة الأحقاد وسندان التلاعب» سنة 2005 يرد ويبين خطأ الكثير من معلومات الأمينة الأولى، وليس كلها، ويصححها، ويستند إلى شبهة التزوير في كتابها بعد كتابته، حيث إن رجا اليازجي كان قد راجع الكتاب وبقي عنده سنيناً عديدة قبل الإفراج عنه.

إذا كان يوجد من تزوير للمذكرات، أي حذف وإضافات وتعديلات وتدخلات من أي نوع، فذلك يجب أن يكون حدث من قِبل أليسار وليس من قبل اليازجي. صحيح أن المذكرات بقيت مدة طويلة مع رجا اليازجي وأن رجا معروف بخصومته لعبد المسيح، لكن الصحيح أيضاً أنه تسنى للأمينة الأولى أن تراجع مذكراتها بعد استعادتها من اليازجي وانكبت عليها لإكمال القسم الأول منها في جو هادئ ومستقر، ولو أنها وجدت أي نوع من التلاعب بها لكانت صححته وأزالته. وهي كانت حريصة على ألا يصيب مذكراتها تلف أو ضياع أو سرقة، فأودعتها في خزنة أحد البنوك في جنيف وأوصت أن تنشر بعد وفاتها.

أما أن تكون أليسار هي من تلاعبت بالمذكرات وغيرتها وبدلت فيها بعد وفاة والدتها، فإنه أمر لا نعتقد أنه قابل للظن والتصديق بسهولة. لا نعتقد أن أليسار تخون والدتها وتغدر بها بعد وفاتها. الجميع يعرف أليسار وأخلاقها وصدقها والتزامها. من المستحيل لكل من يعرف أليسار أن يصدق «أن قبولها بنشر المذكرات كما نشرت جاوز حد الانخداع إلى تخوم التواطؤ» (مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة الأحقاد وسندان التلاعب ص 351). لا يصدق أن أليسار «مخيلتها مريضة بالحقد الأعمى والغباء المزمن» (ص 355). ولا يعتقد أن أليسار هي واحدة من «ضعاف عاجزون منافقون وصوليون منحرفون» (ص 355)، أو أنها واحدة ممن «تلوثوا بعاهات الثرثرة الفارغة والزعم الباطل والتستر المهلهل والعجز المعيب» (ص 356).

إن الرد على المذكرات لا يقدم تفسيراً لما ذكرته الأمينة الأولى عن ترك عبد المسيح في بيتها حقيبة تشبه حقيبة أليسار المدرسية، لتضليلها، وفيها وثائق خطيرة وأسرار عسكرية للجيش السوري، ولو لم تنتبه إليها في الوقت المناسب ويزيلها من هناك الرفيق المقدم غسان جديد، مذهولاً ومستغرباً ومستنكراً وجودها هناك، ولو أن الشرطة ضبطتها

هنـاك، لكان ذلك سـبباً للهلاك المحتـم للأمينة الأولى. وأيضاً، إن الـرد على المذكرات لا يقدم تفسـيراً مقنعاً عـلى ما ذكرته الأمينة الأولى عن ارتباك عبد المسـيح وغضبه غير المـبرر وانفعاله العنيف يوم 17 نيسـان لمجرد تأخر شـقيقته الرفيقة أنجيـل بالعودة من الأردن، ففي 17 نيسـان كان الموعد المقرر لاغتيال المالكي حسـب اعتراف الرفيق بديع مخلـوف للأمينـة الأولى خلال المحاكـمات، قبل أن يتأجل إلى 22 نيسـان. كما أن الرد لا يقدم تفسـيراً مقنعاً لهذا الاعتراف سـوى أن المذكرات مزورة وأن مخلوف لا يمكن أن يعترف للأمينة الأولى بما ليس صحيحاً.

رغـم ذلك فـإن الرد عـلى مذكرات الأمينـة الأولى فيـه أوجه كثـيرة ذات مصداقية يجب الأخذ بها، مثل السـعي الموثق للعم للوسـاطة لإخراجها من السجن، ومثل قصة الفرامل المعطل خصيصاً لقتلها والذي أوضحه السائق آنذاك غسان زكريا، وغير ذلك ممـا قـد يكون التبس عـلى الأمينة الأولى وجعلها تذهب في تفسـيراتها مذهبـاً بعيداً عن الواقـع. لكن نقطـة الرد الضعيفة والقاتلة هي في هذا النوع من الشـتائم التي احتواها، وما كانت الاتهامات والشتائم يوماً وسيلة ناجحة للمحاججة والتوضيح.

كـما أن هنـاك ضعفـاً آخـر في الرد عـلى المذكرات وهو القـول: «إننـا نملك كحزب معلومـات كثـيرة عما جرى من حذف وإضافة وتعديل ولكـن نعفّ عن ذكرها حرصاً عـلى أصحاب هذه المعلومات الذيـن وعدونا بإخراجها إلى النور في الوقت المناسـب» (ص 16). هذا يشبه الإعلان الصريح أنه ليس هناك أي معلومات عن حذف وإضافة وتعديـل، فلو كنا نملك مثل هذه المعلومات لما كنا نعفّ إطلاقاً عن ذكرها، لأن إظهار الحقيقة التاريخية هو أهم بكثير من الحرص على أصحاب معلومات مفترضين مجهولين. فالكتاب كله قد صدر لإظهار الحقيقة وهذه الحقيقة يجب أن تكون لها الأولوية.

ثـم إن الموقف السـلبي جداً من عبد المسـيح الذي وقفته الأمينـة الأولى في مذكراتها كان قد سـبقه الموقف السـلبي نفسه على لسانها خلال سجنها، أي قبل كتابتها لمذكراتها ونشرهـا بسـنين عديـدة. وفي هـذا الصـدد نـورد حادثتين تؤكـدان ذلك همـا: تحميلها رسالتين مع الأمينة إدما ناصيف، التي كانت مسجونة معها، واحدة خطية إلى المجلس الأعلى ضمنتها اتهاماتها لعبد المسـيح وتحذيراتها منه، الثانية شـفهية لعبد المسـيح نفسـه ولشـقيقتها الرفيقـة ديانـا فيهـا إيعاز بـأن تأخذ صفية وأليسـار وراغدة مـن بيت مري

والاستقلال برعايتهن عن عبد المسيح. وأيضاً رسالتها من سجنها بواسطة خالدة الصالح إلى المجلس الأعلى ضمنتها نفس الشكوك والاتهامات والتحذيرات من عبد المسيح. وهاتان الحادثتان مؤكدتان وموثقتان. وبالإضافة إلى هذه المواقف السلبية من عبد المسيح التي وقفتها الأمينة الأولى قبل كتابتها مذكراتها، فإنها كررت نفس الموقف بعد كتابة المذكرات، وذلك في أحاديث ومقابلات شخصية مع عدد كبير من الأمناء والرفقاء.

هل هذا هو المخرج وهل هذه هي الحقيقة؟

إنه من غير المبرر إطلاقاً أن يتجاهل طرفا البراءة والإدانة حجج وبراهين بعضهما البعض، أو أنهما يجيبان عليها إجابات غير مقنعة وغير كافية، مما يجعل طالب الاطلاع على تاريخ الحزب يقع في حيرة والتباس في قضية عمرها أكثر من ستين سنة وكان يجب أن تكون قد صارت واضحة وجلية من زمان، ومما يدفعه إلى التحليل والاستنتاج بدل المعرفة والاطلاع. وإذا ما أردنا الإصرار على معرفة الحقيقة، أو أقرب شيء ممكن من الحقيقة، وأردنا الاستطراد المنطقي لتكوين اقتناع ويقين، يمكننا تصور المخرج المنطقي التالي، الذي قال به عدد من الدارسين والباحثين، ومنهم سامي خوري، مع استدراكنا وتحفظنا وتسجيلنا بأن هذا المخرج هو مخرج منطقي قد يرضي عقولنا المنطقية على قدر ما هو متوفر حتى الآن من معلومات، وليس هو «الحقيقة» النهائية الكاملة، فهذه تحتاج لأكثر من مجرد استطراد منطقي وتصور ذهني. إن هذا المخرج المنطقي الذي سننقله كما قال به وذكره وتوصل إليه كثيرون قبل الآن، والذي يخرجنا من مجادلات إدانة أو براءة عبد المسيح من تهمة قتل عدنان المالكي في 22 نيسان 1955، هو:

إن عملية الاغتيال كانت مقررة في عيد الجلاء في 17 نيسان، وإن عبد المسيح كان منخرطاً فيها حينذاك قبل أن يتراجع وينسحب من العملية، وإنه بالفعل قد تفاجأ بما حدث في 22 نيسان لأنه كان يجهل الخطة البديلة التي قررها فريق شقير والمخابرات المصرية ومن معهما ومن وراءهما. وفيما يلي الحجج التي قادت إلى هذا الافتراض-المخرج:

1- اعترافات بديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي، ليس فقط للمحققين، قبل التراجع

عن اعترافاتهما في المحكمة، بل أيضاً لعميد القضاء سليم عثمان وللأمينة الأولى بأن العملية كانت مقررة في عيد الجلاء في 17 نيسان.

2- الأمينة الأولى تروي اضطراب عبد المسيح يوم عيدي الجلاء والفصح في 17 نيسان وثورته وعصبيته وحتى شتائمه على شقيقته أنجيل لأسباب غير ذات أهميه ظاهرة، وتروي عن تصرفات له غريبة وغير مفهومة مما يدل أنه كان في حالة حرجة، ما يوحي بأنه كان ينتظر حدثاً كبيراً خطيراً في ذلك اليوم (ص 238 و239)، وأنه لم يكن يعلم أن العملية تأجلت بسبب انسحابه منها.

3- الأمينة الأولى تروي (ص 264) أنه في المحكمة العسكرية بعد أن تراجع الرفيق عبد المنعم دبوسي عن اعترافاته السابقة بأن القتل كان مدبراً في يوم عيد الجلاء، حيث كان المالكي يتهيأ لإلقاء كلمة في مقهى قرب البرلمان، وأن العملية تأجلت عندما أتى إسكندر شاوي ليبلغهم بالتأجيل الساعة السادسة صباحاً، جلس دبوسي بقربها في المحكمة وسألته إذا كان لرئيس الحزب معرفة بالعملية أجابها: «وكيف لا؟ فهل نقوم لوحدنا بهذه العملية؟ لكن احفظي الأمر بيننا.

4- عبد المسيح نفسه يعترف بأنه نصح غسان جديد وعصام المحايري بمغادرة دمشق يوم عيد الجلاء تحسباً، وأن هذا كان اقتراح عيسى سلامة الذي نقل إلى العم خبر عن لسان النائب عباد عن لسان معاون رئيس المكتب الثاني من الأركان العامة، بأن مؤامرة تدبر لانقلاب بعثي يوم عيد الجلاء ومن جملة أهدافها قتل رجال الحزب القومي (المذكرات بين مطرقة...ص 202). فكيف لعبد المسيح أن يستجيب لاقتراح عيسى سلامة وينصح غسان وعصام بالابتعاد قبل أن يتحقق من الرواية وأصحابها الأولين، وكيف له ألا ينقل الخبر إلى الحكومة ويحذرها ويطلب منها تحمل مسؤوليتها في حماية رجال الحزب المهددين بالقتل. ولماذا ينصح غسان وعصام فقط بالابتعاد وما هي التدابير التي اتخذها لحماية بقية المسؤولين بمن فيهم هو نفسه. ولماذا لم يثر هذا الموضوع الخطير في مجلس العمد أو المجلس الأعلى ولم يتكلم عنه إلا لاحقاً بعد أن ظن المحايري به وبعلاقته بمقتل المالكي؟ الجواب المنطقي الوحيد على هذه التساؤلات هو أن عبد المسيح كان وحده منخرطاً سرّاً في عملية 17 نيسان ومطمئناً ويعتبرها لصالح الحزب وليست خطراً عليه.

5- لا يعقل أن يضغط المحققون لانتزاع اعترافات من مخلوف ودبوسي بأن الاغتيال كان مقرراً في عيد الجلاء، في وقت يريد المحققون أنفسهم إثبات تهمة الاغتيال التي تمت في 22 نيسان. فما حاجة المحققين لاختراع عملية 17 نيسان؟ صحيح أن مخلوف ودبوسي اعترفا بنية الاغتيال التي كانت مقررة في عيد الجلاء تحت التعذيب الشديد، فالتعذيب والإرهاب وكل أشكال الضغوط المادية والنفسية لا تؤدي فقط إلى انتزاع اعترافات خيالية غير حقيقية بل إنها تؤدي أيضاً إلى اعترافات بحقائق ووقائع كان يجري إخفاؤها وكتمانها. وصحيح أن المحققين فبركوا ولفقوا تهمة القتل في 22 نيسان، لكن الصحيح أيضاً أنه حتى الكذب والتلفيق والتزوير بحاجة إلى حقائق معينة مهما كانت قليلة وجزئية كي يبنى الكذب والتلفيق والتزوير عليها ويكتسب منها مقداراً من المصداقية والتصديق.

6- إن وقائع وتفاصيل عملية الاغتيال الذي حدث في 22 نيسان وما سبقها من دور السفير المصري بالإصرار على المالكي للحضور، وما رافقها من دور لأكرم الديري بتقريب يونس الذي كان في مكان بعيد ثم وضعه خلف المالكي في الملعب، تشير بقوة إلى براءة الرفقاء المتهمين وتوجه الشبهة لغيرهم، وإن من يقرأ دفاعات عبد المسيح ومحاججاته للمحققين ومطالعات المدعين، لا يسعه الا أن يقبل ويعترف بمنطقية وصحة الكثير من هذه الدفاعات والمحاججات. لكن نقطة الضعف في هذه الحجة هي أن اتجاه الشبهة والاتهام إلى أطراف غير قومية اجتماعية، لا يعني أيضاً بالضرورة تبرئة للأطراف القومية الاجتماعية نفسها من الاشتراك ومن لعب دور معين ومحدد في العملية.

7- يروي سامي خوري (ص 301) أن العم أراه أمراً مكتوباً من رئاسة الأركان (شقير) إلى مديرية الأمن العام «بإخراج المدعو جورج عبد المسيح من الجمهورية العربية السورية نظراً لاتصالاته المشبوهة مع عدد من ضباط الجيش». وذلك كان في منتصف نيسان 55 أي قبل الاغتيال بأسبوع تقريباً. وهذا قد يعني أن العم يتردد في تنفيذ خطة الاغتيال أو أنه انسحب منها، فأراد شقير ابتزازه والتلويح له بإبعاده و«تسليمه» إلى لبنان؟ كما أن تسريح غسان جديد كان أيضاً في حوالي منتصف نيسان 55، ما قد يعني أيضاً تهديداً للعم بسبب تردده في التنفيذ أو الانسحاب منه، خاصة أن شقير كان يشيع أن المالكي كان وراء التسريح مع أن التسريح لم يوقعه المالكي بل وقعه

رئيس الجمهورية ووزير الدفاع ورئيس الأركان. (رياض المالكي، ذكريات على دروب الكفاح ص 189).

يستطيع أي فرد منا أن يحلل ويخمن ويفترض ما شاء، ولكلِ فرد الحق في ذلك، ولكن ليس لأحد الحق في الحكم على الأمور بناء على تحليله وتخمينه وافتراضاته. إن ما قدمناه فيما سبق من الدلائل التي تدين عبد المسيح بالاشتراك في عملية الاغتيال، كما من الدلائل التي تبرئه من ذلك، هو الذي دفع البعض إلى هذا الاستنتاج المنطقي آنف الذكر وإلى تكوين مخرج نظري يقول باشتراك العم في شوط كبير من التحضيرات مع شوكت شقير، ثم عدوله وانسحابه قبل وقت قصير من موعد التنفيذ المفترض الذي كان في 17 نيسان في يوم عيد الجلاء، ما دفع بشقير لابتزاز العم وتهديده بالإبعاد. فهل انسحب العم ووكيل عميد الدفاع إسكندر شاوي ولم يبلغا الخلية التنفيذية إلا في الساعة السادسة من صباح 17 نيسان حسب شهادة بديع مخلوف وعبد المنعم دبوسي لكل من عميد القضاء ووكيله؟ وهل كان العم وإسكندر شاوي يجهلان الموعد البديل لتنفيذ خطة القتل التي استمر بها شقير ومن وراءه، ثم تفاجأا بهذا الموعد؟ أم أن عبد المسيح قد أجّل عملية 17 نيسان تأجيلاً فقط لأسباب قد يكون أقلّها تأخر شقيقته بالمجيء من عمان، وأن قصة الإبعاد إلى لبنان وتسريح غسان جديد كان لها هدف تضليلي آخر غير التهديد والابتزاز؟

قد يكون الهدف منها هو إقفال الباب خلف العم حتى يعلم أن الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو التخلص من المالكي الذي تسبب له بأمر الإبعاد، إذ إن المخابرات وشقير قد تأكدوا سابقاً أن قناعة عبد المسيح بعداء المالكي له وللحزب أصبحت أمراً ثابتاً وأن التخلص من المالكي هو شرط الخلاص من الترحيل إلى لبنان. قتل المالكي قتل للترحيل. وهناك تفسير آخر هو على الشكل التالي. إن عبد المسيح الذي طالما ذكر على مسمع الكثيرين، منهم سامي الخوري والأمينة الأولى ومسؤولون حزبيون آخرون، عن أنه مهدد بالترحيل إلى لبنان حيث حكم الإعدام ينتظره هناك، أراد الآن البرهان لهم أن قرار ترحيله لم يكن تهديداً أو مزحة وها هو القرار الفعلي يصدر عن السلطات وبالتالي فهو حر أن يدافع عن نفسه كرئيس للحزب.

إن هذا الاستنتاج يبقى استنتاجاً نظرياً فقط ولا يجوز اعتماده مكان الحقيقة

التـي تبقـى، إلى حـد الآن، مجهولة. لكنه اسـتنتاج يكتسـب أهميته من أنـه يحل كثيراً مـن المتناقضـات ويجلو كثيراً من الالتباسـات. مثلاً، إنه يفسر لنـا وجود حجج قوية ضد عبد المسـيح وبنفـس الوقت يفسر وجود حجـج قوية أيضاً معـه. هكذا يمكننا أن نصدق ونؤكد جميع الروايات والشـهادات التي تشير إلى تورط العم مثل مسدس سـالم سعدو سـالم، واجتماعات العم السرية مع شـقير التي قام عليها شهود، وتفلت يونـس وإفصاحه عن نيته بقتل عدنان المالكي، وشـهادة مخلوف أمـام عميد القضاء ووكيلـه وأمـام الأمينـة الأولى في قاعة المحكمـة، وفي نفس الوقـت، يمكننا أن نأخذ بجميـع حجج العم الواردة في سلسـلة من ولماذا وإنكاره المسـتمر بعلاقته بالاغتيال الذي وقع في 22 نيسان.

هذا الافتراض يقودنا إلى طرح سـؤالين اثنين، الأول هو: إذا صح أن العم انسـحب انسحاباً من العملية، ولم يؤجلها تأجيلاً، فما هو سبب الانسحاب؟ والسؤال الثاني هو: لمـاذا لم يبلغ مجلس العمد والمجلس الأعلى بالحقيقـة الكاملة، قبل أو بعد الاغتيال، لماذا لم يبلغهما باشـتراكه والشـاوي بالتخطيط للاغتيال ووصولهما لمراحل متقدمة في تأليفهما الخلية الثلاثية ثم عدولهما وانسـحابهما من العملية كلها، ما أدى لإقدام شقير على ابتزاز رئيـس الحزب بإصدار أمر ترحيله وتسريح عميد الدفاع؟ الجواب على السـؤال الأول من السـهل الوصول إليه، فالعم، يقول سـامي خوري، لا بد أنه راجع حسابات الربح والخسـارة واسـتعرض الأخطار المحتملـة أو وصلت إليه معلومات عـن خطط ونوايا المصريين والبعثيين وحتى شـقير باسـتعمال الحزب ثم توريطه وكشفه وضربه، فأحجم عن السـير به. أما الجواب عن السـؤال الثاني فيكمن في أنه لم يشـأ أن يعترف للمجلس الأعـلى بأنه كان يشـترك سراً في قضية خطيرة وخطرة لمدة ممتـدة من الوقت دون إعلام المجلس بها. أما لماذا لم يكن يخبر المجلس في حينه بما كان يفعله قبل إحجامه فيعود لأمر جوهري هو أن موضوعاً أمنياً خطيراً لا يجوز البوح به وبتفاصيله إلا لحلقة ضيقة جداً، خاصة أن العم كان في صراع على السـلطة مع المجلس الأعلى ولم يكن يثق بأعضاء هذا المجلس. إنه نادراً ما كان يثق بأحد. ويخبرنا سليم سعدو سالم عن مسألة الثقة عند عبد المسـيح ضمن قصـة تأمين خروجه من بيت الرفيقة خالدة الصالـح إلى الحدود اللبنانية (136). كما أن سـليم سعدو سـالم يتوصل للاقتناع التالي (صفحة 171): «لكن جورج

عبد المسيح بعد أن اكتشف الخدعة أو الفخ الذي أوقعه فيه شوكت شقير وعبد الحميد السراج، وبعد إدراكه فظاعة ما حدث، لم يعد بمقدوره أن يعترف بتصرفاته التي كان ينفرد بها».

القضية الأخطر والأهم

رغم ذلك فإن قضية تورط عبد المسيح أو عدم تورطه في مقتل المالكي ما كان يجب أن تكون هي القضية التي تشغل الحزب، وما كان يجب أن يحاكم رئيس الحزب عليها وبسببها، ذلك أن لرئيس الحزب أن يقوم بالأعمال والأفعال التي بتقديره تفيد الحزب وتعطيه مكاسب معينة، فيمكن أن يكون الرئيس أساء التقدير أو الحساب أو التصرف فيُسأل ويحاسَب على سوء التقدير والحساب والتصرف هذا ضمن هذه الحدود. ويمكن أن يكون الرئيس أساء تقدير خطورة وفداحة العمل الذي قام به فتفرّد ولم يضع بقية العمد والمجلس الأعلى بصورة ما يقوم به، فيُسأل ويُحاسب على إساءة التقدير لخطورة العمل وفداحته والتفرّد به ضمن هذه الحدود. كان من الواجب على الرئيس فور وقوع الأزمة أن يخبر المجلس الأعلى بكل شيء من أجل أن يتصرّف هذا المجلس على ضوء المعلومات والوقائع الحقيقية الأكيدة. عند ذلك كان يُنتَظَر من جميع المسؤولين والرفقاء أن يتضامنوا مع رئيسهم ويدافعوا عنه في وحدة قيادة ووحدة سياسة ووحدة حزب، وهم قد تصرفوا ذلك فعلياً في الأشهر الأولى فقط لكن سرعان ما تحولوا بعد ذلك إلى الانشغال كلياً في مسألة مسؤولية أو عدم مسؤولية عبد المسيح عن الاغتيال. والسبب كان الصراع الداخلي على السلطة بين عبد المسيح وخصومه داخل الحزب. هم أرادوا استعمال شبهة تورطه في الاغتيال كي يبعدوه عن السلطة، وهو أمعن في التعمية على حقائق التورّط بهجوم معاكس وبدأ بحملة تشهير ضد الجميع تقريباً ووقف موقفاً سلبياً لا تعاونياً مع الرئيس الجديد للحزب الأمين مصطفى أرشيد رغم أن هذا الأخير لم يكن من خصوم عبد المسيح ولم يكن منخرطاً بالصراع على السلطة، حتى وصل الأمر به إلى تأليب الرفقاء على قياداتهم والتهديد بشق الحزب وصولاً إلى شقّه فعلياً بتاريخ 24-10-1957.

إن القضية التي كان يجب أن تشغل الحزب أكثر، بل وتجعله يحاسب رئيسه عليها أكثر، هي قضية أخرى أهم وأخطر من مسؤولية أو عدم مسؤولية الرئيس عن

الاغتيـال، إنهـا قضية تخـلي رئيس الحزب والسـلطة التنفيذية عن واجبها بحماية جسـم الحزب والتصدي لمحاولة الاعتداء عليه وعلى أعضائه وممتلكاته، والتواري تاركة لكل فرد أن «يدبر حاله بنفسه».

ألا يفـترض أن يبقـى رئيـس الحـزب جـورج عبد المسـيح وعميد الدفاع غسـان جديد ووكيله إسكندر شاوي في دمشق، أكانوا أبرياء من مقتل المالكي أم لم يكونوا، لخـوض معركة الدفاع عـن الحزب ومواجهـة كل الأخطار المحتملـة؟ ها هو عضو المجلـس الأعـلى وعميد الإذاعـة عصام المحايـري قد رفـض التـواري معتمداً على براءته وبراءة الحزب وحتمية توصل القضاء لإثبات هذه البراءة، فلماذا لم يفعل العم وغسان وإسكندر نفس الشيء؟ إن رئيس الحزب وعميد الدفاع ووكيله هم أولى من عميـد الإذاعة بالبقاء والمواجهة وتحمل المسـؤولية لدفع الأخطار عن الحزب. كيف لرئيـس الحزب أن يترك قيادة الحزب ويترك رفقاءه لمصيرهم ويتخلى عن مسـؤوليته في العمـل لحمايتهـم ورفع الأخطار عنهم؟ إن تحجج رئيس الحزب بأنه غادر دمشـق بنـاء لأوامر وإلحاح المجلـس الأعلى لا يكفي لتبرير تخليه وتواريه وتخفيه خمسـة أيام دون أن تبدر منه أية إشـارة إلى أنه سـيفعل شـيئاً غير التخلي والتواري والتخفي. كما أن روايـة عبد المسـيح أنه أرسـل عبد الهادي حمـاد ليلاً من الحدود الشـامية اللبنانية، حيث كان متوارياً، ليعود إلى دمشق ويأتي له بسيارة تعيده إلى دمشق، إن هذه الرواية دحضتها رواية عبد الهادي نفسـه إلى سـليم سعدو سـالم، وهي أن العم خدعه وأبقاه متسـمّراً خلـف صخرة ممنوع عليه مغادرتهـا وأن العم ابتعد بحجـة الذهاب لقضاء حاجة ثم يعود، لكنه لم يعد وأن عبد الهادي أضاعه وعاد إلى دمشـق لعند بيت سـالم وانهمر بكاءً لظنه أن العم قُتل أو اعتُقل (حان الوقت 136).

أما أن تكون مؤامرة ضرب الحزب قد بانت فوراً لحضرة الرئيس وعميد الدفاع وأنهما أدركا فوراً عدم جدوى البقاء والمواجهة الإعلامية والقانونية وحتى المقاومة الشـعبية، فهذا يعني أن أجواء التوتر كانت سائدة ومعروفة قبل الاغتيال وأن المخاطر كانت بائنة ومعروفـة قبـل الاغتيال، فماذا كانـا قد أعدا لها ولمواجهتها غير التـواري والهرب وترك الرفقاء يتدبرون مصيرهم دون خطة ودون تنظيم؟ إن أسوأ ما يقدم عليه مسؤول وقت الخطـر ووقـت بدء المعركة هو أن يـترك كل شيء ويتوارى، ونحن على مسـافة أقل من

ست سنوات من المثال الفدائي الذي مثله سعاده في 8 تموز 1949، فسعاده يومها لم يترك كل شيء وينجو بنفسه، وهو الزعيم الذي تمنى له رفقاؤه كلهم أن يتوارى وأن ينجو وكان رفقاؤه كلهم مستعدين لتفهم نجاته بنفسه وكانوا يرجونه ويتوسلون إليه ليفعل، مدركين القيمة العظمى التي يمثلها ويختزنها. فإذا كان عبد المسيح ضالعاً في مقتل المالكي، أو لم يكن ضالعاً، فهذه القضية لم تكن هي القضية الأساسية، وما كان يجب أن ينشغل بها الحزب لا على صعيد قياداته العليا ولا على صعيد أعضائه، وما كان يجب أن تكون هي المادة التي بسببها نشأت أزمة عبد المسيح وبسببها تم طرد عبد المسيح بالطريقة الواهية والمتهافتة التي تم فيها الطرد.

إن القضية الأساس التي كان يجب أن تثار ويُسأل عنها عبد المسيح ويحاكَم عليها هي قضية تواريه وتركه مركز الحزب وتركه قيادة الحزب وتركه الرفقاء طرائد لأعدائهم دون مرجعية تنظم دفاعهم عن أنفسهم وتقوده، خاصة أن الأخطار كانت ظاهرة طيلة سنوات 54 و55، وأن عبد المسيح نفسه كان يقول إنه «الخبير المطلع على نيات المتآمرين» (من رسالة مكتب عبر الحدود رقم 35/ 1-24 أي تشرين الثاني 56. وأيضاً من مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة... ص216). لكن المجلس الأعلى كان قد أعماه الصراع على السلطة مع عبد المسيح ولم يعد يهمه إلا إدانة عبد المسيح بجريمة القتل فحاكمه عليها ولم يحاكمه على مسؤوليته كرئيس في حماية الحزب وأعضائه ودفع الأخطار عنهم.

أين المحكمة الحزبية التي شرّعها سعاده؟

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المجلس الأعلى قد تعدى صلاحياته وجعل نفسه محكمة ولعب دور «الخصم والحكم» معاً، مما يتعارض مع تشريع سعاده ونظام الحزب. فنظام الحزب كما وضعه سعاده يقضي بأن المجلس الأعلى هو سلطة تشريعية وليس سلطة قضائية، وبالتالي ليس سلطة تحقيق وإدانة. كان على المجلس والرئيس معاً أن يتدارسا إحياء «المحكمة المركزية للحزب السوري القومي الاجتماعي» التي شرّعها سعاده، وهذه المحكمة وحدها هي لها صلاحية المحاكمة والإدانة. إن نظام سعاده وتشريعه، لو طُبق، كان وحده ضمانة حفظ الحزب وحمايته من الانشقاق ومن جميع مثالب الصراعات الداخلية، ولنا من القرار الذي اتخذته المحكمة الحزبية بإبطال

انتخاب الأمين أسعد حردان لرئاسة ثالثة، وخضوع الجميع له، مثلاً في كيف تُحل المسائل الخلافية الداخلية في الحزب.

لكن المجلس الأعلى كان يدرك أن محاكمة عبد المسيح في محكمة حزبية مستقلة، في قضية مقتل المالكي وما كشفته من عدم وجود خطة لتنظيم مقاومة ضد المؤامرة على الحزب وترك المسؤولية وترك الرفقاء لمصيرهم، أو في قضية التمرد النظامي وتحريض الرفقاء على قياداتهم وإشراكهم في مهاوي الصراع المقيت على السلطة والتهديد بشق الحزب، هي محاكمة سترتد وتشمل المجلس نفسه لأن المجلس يحمل نفس المسؤولية وما كان يجب أن يكون غافلاً طيلة سنوات عن ضرورة وجود خطة وتدبير لحماية الحزب من الأخطار التي كانت بائنة وواضحة.

صحيح أن عبد المسيح هو الذي طلب تحقيقاً حزبياً في قضية مقتل المالكي، بعد أن انتقل الهمس عن مسؤوليته في الاغتيال إلى الجهر والعلن، ولكن عبد المسيح كان الأجدر به أن يستقيل من رئاسة الحزب ويطلب تحقيقاً، ليس لتحديد مسؤوليته أو عدم مسؤوليته عن الاغتيال بل لتحديد مسؤوليته أو عدمها عن القضيتين الاثنتين اللتين قصر بهما وهما: عدم وجود خطة مسبقة لدرء المخاطر التي كانت محدقة بالحزب والظاهرة منذ سنوات، ثم تركه الميدان والهروب من مسؤولية المواجهة للدفاع عن الحزب وعن الرفقاء وحمايتهم. فلو حصل ذلك كنا سنرى الحزب كله يدافع عن رئيسه ويبرئ رئيسه ويحمي رئيسه من تهمة الضلوع في قضية مقتل المالكي، فعبد المسيح كان رئيساً للحزب كله وليس رئيساً لمريديه ومحبيه فقط. كنا سنرى الحزب كله يدافع عن رئيسه لإبعاد هذه التهمة عنه ونفيها حتى ولو كان يوجد شك كبير أو صغير عند البعض في علاقته بالاغتيال. نقول «كنا سنرى...»، ولكننا لم نر ما كنا سنرى لأن وضع قيادة الحزب التشريعية والتنفيذية كلها لم يكن سليماً ولم يكن منتظراً من هذه القيادات أن تثمر شيئاً طيباً.

إن قضية مقتل المالكي لا زالت إلى اليوم وبعد مرور أكثر من ستين سنة عليها غير واضحة تماماً وغير محسومة تماماً ويكتنفها غموض كبير. ذلك لأنها لم تخضع لمحاكمة سليمة، لا من قِبل الحزب ولا من قِبل السلطات القضائية الشامية، وأيضاً لأنها جزء من عمل مخابراتي لخدمة مصالح وخطط واستراتيجيات دول كبرى وهذه الدول لها

عملها وعيونها وركائزها في حكوماتنا و... أحزابنا أيضاً. إن المجلس الأعلى بتجاوزه صلاحياته وجعل نفسه محكمة ولعب دور الخصم والحكم بنفس الوقت، وطرده عبد المسيح استناداً إلى تهمة اغتيال المالكي غير المحسومة والتي تعتريها شوائب كثيرة، وبالطريقة الناقصة التي تم فيها الطرد، ورغم المحاذير التي كانت واضحة بأن عبد المسيح سيشق الحزب، هي كمن يعمد إلى قلع شوكة من أحد أصابعه بطريقة قطع اليد كلها من الكتف! إن المجلس الأعلى بذلك يتحمّل مسؤولية شق الحزب ويتقاسمها مع عبد المسيح.

في المصيدة الأميركية

لقد ضرب الأميركان ضربتهم المزدوجة: قتل المالكي وضرب الحزب خلال أسبوع واحد من تلكؤ الحزب في قبول العرض الأميركي عليه لاعتماده ركيزة ووسيلة لهم لتوجيه السياسة الرسمية في الشام، عبر ما سمي برسائل الشرابي. إن السذج وحدهم يصدقون أن محاولة تجنيد الحزب من قبل الأميركان هي مجرد عرض من «أحد الوسطاء» (شارل مالك) الذي يستطيع «إقناع» الحكومة الأميركية «بالتعاون» مع الحزب لأحداث الانقلاب في الشام، وأن السذج وحدهم لا يعرفون طريقة عمل المخابرات الأجنبية وكيفية مباشرتها في تجنيد عملائها.

لقد كان في جسم «الأمناء»، الذين منحوا الرتبة خارج شروطها الدستورية الصارمة، مثل هشام الشرابي، كما في الجسم القيادي في السلطتين التشريعية والتنفيذية، من يعتبر أن العرض الأميركي هو اعتراف من الأميركان بقوة الحزب وجدارته وأهليته لقيادة البلاد، وكانوا مسرورين لهذا العرض ويعدونه مفخرة وفرصة سانحة مؤاتية لا يجب تفويتها، وقد سال لعاب البعض في قيادة الحزب ومنهم عبد المسيح نفسه، وهذا واضح وموثق في البيان السياسي الذي أذاعه بعيد رسائل الشرابي، فلم يكن العم بعيداً عن تلك الأجواء التفاؤلية وعن تلك الآمال المعقودة على العرض الأميركي. ما كان يطلبه هذا البعض هو تصريح قصير من الأميركيين يتجاوب ولو لفظياً مع مقتضيات عقيدة الحزب وقضيته القومية، أي ما كان يسميه «الشروط القومية»، مثل: «إن حكومة الولايات المتحدة تعلن حرصها على مساعدة الفلسطينيين في مساعيهم لنيل حقوقهم الوطنية في أرضهم» أو ما شابه ذلك. إن تصريح من هذا النوع العمومي

الدبلوماسي الذي يحمل أكثر من معنى واحد، ولا يحدد ما هي حقوق الفلسطينيين الوطنية وما هي أرضهم. فقط تصريح عمومي وغامض من هذا النوع كان كافياً على ما يبدو ليعتبر البعض أنهم وجدوا ضالتهم وحصلوا على الشروط القومية التي يطلبونها والتي ملؤوا بها بيانهم السياسي. ولقد بينا في مكان آخر كيف أن رئيس الحزب والمجلس الأعلى قد اتفقا على هذا الأمر في البيان السياسي كما في إيفاد عصام المحايري إلى أميركا للاستكشاف والتفاوض على العرض، وإن عدم ذهاب عصام في آخر لحظة لم يكن بسبب قرار مضاد اتخذته قيادة الحزب بل بسبب تقاعسه وتأخره عن تقديم طلب الفيزا، ما دفع الرئيس إلى الطلب من هشام بأن يحصل على فيزا لعصام رأساً من وزارة الخارجية في واشنطن. كما أن رفض الحزب للعرض الأميركي لم يتم إلا بعد أن أحجم الأميركيون عن «مساعدة الحزب» ولم يقدموا له ولو تصريحاً عمومياً يمكن اتخاذه دليلاً على أن الشروط القومية سيتم الأخذ بها.

أما لماذا تأخر الأميركان عن «مساعدة الحزب» وتقديمهم التصريح المطلوب، فلأن لديهم خطة بديلة وكانوا يفاضلون بين الخطتين وأيها سيعتمدون. خطة توريط رئيسه بقتل المالكي أم خطة تنفيذ انقلاب فاشل في الشام يتورط الحزب فيه ويكون كفيلاً بضربه ضربتين كبيرتين تقضيان عليه معنوياً ومادياً وهما: إثبات تهمة التعامل مع الأميركان أعداء سورية وأصدقاء إسرائيل، والتآمر على سلامة الدولة ومحاولة تغيير السلطة بالقوة المسلحة، ما يعطي مبرراً ممتازاً لحملة تصفية مادية كاملة للحزب في الشام وإلى أمد بعيد غير محدد.

يبدو أن الخطة البديلة قد فازت وهي اغتيال المالكي واتهام الحزب وتصفيته على هذا الأساس، خاصة وأن هذه الخطة كان قد شُغل عليها وعلى التحضير لها على مدى فترة زمنية ليست قصيرة. كان الأميركيون والإنكليز مرتاحين وعندهم الوقت الكافي والخيارات العديدة للإيقاع بالحزب، فالحزب كان مكشوفاً لهم وكانت عيونهم وأذرعهم عليه. كان الحزب منخوراً من المخابرات ومسرحاً لنشاطها، نتبين ذلك من مجمل الحوادث الحزبية في تلك الفترة ومن اتهامات القياديين لبعضهم البعض ومن شهادات عديدة منهم. فمثلاً يخبرنا سليم سالم (ص 178– 179) عن مهمات كُلف

بها على درجة كبيرة من الخطورة لم يكن رئيس الحزب عبدالله محسن نفسه يعرف بها، (محسن كانت فترة رئاسته قصيرة بين رئاستي أسد الأشقر وعبدالله سعاده)، فمن يرغب في معرفة المزيد منها فليقرأ أخبارها هناك.

حصاد المتآمرين والمستفيدين

بالإضافة لما حققه الأميركيون والصهيونيون، فإن المصريين بدورهم قد أصابوا هدفين ثمينين هما القضاء على الحزب والمالكي معاً. إن القضاء على الحزب كان هدفاً كبيراً للسياسة المصرية في سورية لأسباب عديدة تكلمنا عليها وشرحناها فيما سبق في هذا الكتاب. وفي هذا المجال سأورد هنا ما نقله لي الأمين إيلي عون، كشاهد عيان. لقد سبق أن أوردت شهادة الأمين عون بشأن ما اطلع عليه من صور وأوراق في الصندوق الذي أعارته إياه الرفيقة راغدة، الابنة الأصغر لسعاده (تحت عنوان سعاده في أوروبا- الفصل الثاني)، ففي نفس السياق يقول الأمين عون: «...لا زلت أذكر أنني قرأت نسخة من برقية صادرة من أحد رجال الاستخبارات المصرية الموجودة في الشام في الخمسينيات مرسلة إلى الرئيس جمال عبد الناصر يقول فيها إننا تمكنا من ضرب الحزب القومي وشقه وإن ما تبقى منه فرع صغير بقيادة عبد المسيح. وعلمت لاحقاً أن تلك البرقية سرّبها أحد القوميين السريين في الشام والذي كان موظفاً في إحدى الشعب الاستخبارية، إلى الأمينة الأولى ومنها إلى ذلك الصندوق. ولا أعرف كيف ومتى تم ذلك».

لقد استفاد أيضاً البعثيون والشيوعيون من فراغ الساحة من أي معارضة شعبية أو عسكرية لهما واستولوا على مقاليد الحكم بكل أشكاله. فقد تشرذمت كتلة المالكي بعد مقتله إلى مجموعات صغيرة لأنه لم تكن تربطها ببعضها إلا مطامع ومطامح السلطة والقوة التي كانت تراها في صعود المالكي. وأبرز الكتل العسكرية التي بقيت متماسكة هي كتلة الضباط البعثيين وكتلة الضباط الشيوعيين، وهؤلاء اندفعوا بكل قوة في برنامج اضطهاد الحزب بدافعين اثنين قويين هما العداء العقائدي ثم الانتقام لمقتل المالكي. وإلى جانب كتلتي البعث والشيوعي برزت كتلة «الضباط الشوام» الذين كان يحسب أكثرهم من ضباط الشيشكلي أيام رئاسته للجمهورية وحزب التحرير العربي، ومن هؤلاء أكرم الديري وعبد الحميد السراج، وقد تمكن هذا الأخير من اجتذابهم وترؤسهم ونجح في توجيههم نحو التعاون مع القاهرة وجمال عبد الناصر (س.خوري 312).

هكذا تجمع كل هؤلاء في حملة اضطهاد الحزب الذي كان معزولاً دون غطاء سياسي ودون خطة دفاع عن النفس، والذي أصبح دون رئيس ودون عميد دفاع، فرئيسه وعميده غادرا الشام إلى لبنان تاركين وراءهما حزباً كبيراً ينهار ويتم التنكيل به وبأعضائه في جميع أنحاء سورية.

هستيريا العسكريين الجائعين لضرب الحزب

طالب هؤلاء الحكومة بإعلان حالة الطوارئ للقضاء على الحزب بسرعة، ووزير الداخلية أمر بإقفال جميع مراكز الحزب ومصادرة أمواله وممتلكاته. رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي كان له موقف آخر شجاع من هذا الموضوع، وقيل إنه طرد من مكتبه مجموعة العسكريين الذين ذهبوا إليه مطالبين بإعلان حالة الطوارئ ولاحقهم بالعصا حتى الباب وقال لهم: «في قانون بالبلد». رئيس الوزراء صبري العسلي كان له موقف شجاع أيضاً، فإنه اعتبر جريمة اغتيال المالكي جريمة عادية لا تستدعي إعلان حالة الطوارئ وإن القضاء بإمكانه أن يبت بها بنزاهة. أما حزب البعث فكان لأحد قطبيه أكرم الحوراني الذي كان صديقاً مقرباً من عصام المحايري طيلة خمس سنوات سابقة، كان له موقف متطرف مع إعلان حالة الطوارئ وسرعة إجراءات ملاحقة الحزب، بينما القطب الثاني في حزب البعث ميشيل عفلق فقد اشترط لإعلان حالة الطوارئ الحصول على ضمانات مسبقة بألا تستخدم للقيام بأعمال لا يقبل بها. أما الشيوعيون فحدث ولا حرج.

في 26–4–55 عقد المجلس النيابي جلسة عادية اكتفى خلالها برفع الحصانة عن النائب القومي حنا كسواني، ولم يعلن حالة الطوارئ. رغم ذلك ورغم أن رئيس الحكومة صبري العسلي حاول إبقاء الأمر بيد القضاء وحده، فقد اندفع الجيش في حملة اعتقالات واسعة بمساعدة وإرشاد البعثيين والشيوعيين طالت جميع المدن والقرى السورية.

روحية التحدي والإيمان بصحة القضية ينتصران في قوميي الشام

لقد تحدثنا في مقدمة الفصل الأول من هذا الكتاب عن ظاهرة الإيمان المطلق لأعضاء الحزب واستعدادهم الكامل لبذل كل شيء في سبيل المطلب الأعلى المتمثل

في قضيـة الحزب وغايتـه، في مقابل عجز معظـم القيادات وضعـف مؤهلاتها وتمردها على سـعاده وعقيدته ونظامه ونهجه وانحرافها السـياسي ثم انغماسها بعد استشهاده في صراعاتها على السلطة التي أدت بها إلى تقاسم الحزب. هذه الظاهرة تجلت بأبهى صورها في ملحمـة الصمـود والتحدي التـي صنعها قوميو الشـام بعد مقتـل المالكي وهروب قياداتهـم المركزيـة وتركهم يواجهون النار بصدورهم العاريـة. تجلت في التنظيم الحزبي السـري الـذي دوّخ آلة القمـع والاضطهاد والتنكيـل وأعياها. تجلـت في تلك الصبية الرفيقة الطالبة في المدرسـة الثانوية التي استقبلها الجلادون بحفلة «الفلق» وهي بعد في ثيابها المدرسية، ألبسوها بنطال أحد الجنود قبل وضعها على ظهرها ورفع رجليها للفلق فكانـت تعزيتهـا أن الوحـوش الجائعة التي تجمعت حولهـا لا زال في وجدانها شيء من الحياء والحشـمة التي هي من جمال النفسـية السورية الحقيقية. كان القوميون لا يقلقون على أنفسـهم بل على محاولة هؤلاء الوحوش قتل روح المقاومة في الشـعب عندما يرى الشعب مبلغ الاضطهاد والتنكيل الذي يتعرضون إليه نيابة عنه.

لكن القوميين أنقذوا الشـعب وأعادوا له الثقة بنفسـه وبالمعبرين عن جمال نفسـيته وعن مصلحته الحقيقية، وذلك عندما كان يستيقظ الشعب في الصباح ليرى المنشورات على مدخل كل باب من بيوتهم يوزعها أشباح من الحزب لم ينل منهم ومن روحيتهم لا اضطهاد ولا تنكيل. أما البطل الرفيق إسماعيل جمعة المسؤول الأول عن التنظيم الحزبي السـري فقـد أعيى آلـة التعذيـب والتنكيل طويلاً جـداً قبل أن يشي بـه ضعيف جبان، فدخل السـجن ليتحدى السـجانين وليس ليُذل أمامهم. لقد تحدث إسـماعيل جمعة في تقريـره بعد خروجه من السـجن أن عبد الحميد السراج شـخصياً هـو الذي حقق معه وعذبه وأن سحنة السراج كانت تتغير تغيراً عجيباً فتضيق عيناه وينقلب وجهه إلى وجه وحش مفترس، وأشد ما أزعج السراج هو أن الرفيق إسماعيل هو من حماه مسقط رأس السراج (س. خوري 292–293).

في مقابل قيادات تسعى مجدداً في خدمة الشيشكلي!

نسـتمر قليـلاً في متابعة تطور الأوضاع السياسـية في الشـام، ونعتـذر من القارئ إذا كنـا أطلنـا في هذا الموضوع، فذلـك ضروري لفهم موقف القيـادات الحزبية فهماً صحيحـاً ضمن تلك الأوضاع. بعد اغتيـال المالكي عبّر وزير الخارجية خالد العظم

عن السياسة الخارجية السورية في بيان أذيع داخل مجلس النواب بتاريخ 6-6-55 أبرز ما فيه رفض حلف بغداد ورفض التعاون مع الغرب الداعم للعدو الإسرائيلي، في وقت كان التوجه إلى الغرب والتعاون معه أبرز ما احتواه بيان الحزب السياسي قبيل اغتيال المالكي. وشكري القوتلي يعلن من القاهرة في 25-7-55 أنه يؤيد السياسة العربية التي أعلنها عبد الناصر وأنه يشجب سياسة الأحلاف الاستعمارية. وكان واضحاً أن الرجلين يتنافسان على الولاء لعبد الناصر قبل الانتخابات الرئاسية السورية التي ستجري في 18-8-55. القوتلي يؤيد السياسة المصرية من زمان منذ ما قبل عبد الناصر، أما العظم فموقفه المؤيد لمصر هو جديد، وقد اعتمد على التحالف اليساري البعثي والشيوعي. جرت الانتخابات وفاز القوتلي في ظل ظاهرة غير عادية هي اتفاق عبد الناصر ونوري السعيد على تأييده. وما يلفت أيضاً هو وجود تأثير ونفوذ لنوري السعيد في سورية داخل مجلس النواب السوري، وتجيير هذا النفوذ للسياسة المصرية في سورية وللقوتلي الذي أعلن قبيل الانتخابات أنه يشجب سياسة الأحلاف الأستعمارية. يبدو أن العراقيين السائرين في السياسة الإنكليزية الأميركية وحلف بغداد لا يخشون معارضة مصر لسياستهم ولا يعتبرونها معارضة جدية ولكنهم يخشون معارضة الشيوعيين والبعثيين أكثر، أو أن الأميركيين كانوا ماسكين طرفي الخيط وليس طرفاً واحداً فقط.

نصل الآن إلى بيت القصيد، فأديب الشيشكلي توقع ألا يقبل الجيش بالقوتلي رئيساً وأن هذا الجيش سينقلب على القوتلي قريباً. وما عزز هذا الاعتقاد هو أن عدداً من ضباط الجيش طافوا بالسيارات في شوارع دمشق ومروا أمام منزل القوتلي وهم يهتفون هتافات ضد انتخابه، وأيضاً ضد شوكت شقير الذي سانده (س. خوري 321).

والغريب العجيب في الأمر هو «تولي أعضاء الحزب نقل أديب إلى سورية، وعندما لم يحصل الانقلاب المتوقع قرر العودة إلى لبنان فأعاده أعضاء الحزب إلى بيروت ولم نعرف عنه شيئاً فيما بعد» (س. خوري 321). هكذا كانت قيادات الحزب في بيروت وكأنها تحتقر آلام القوميين وتضحياتهم وتُعرِّضهم لمزيد من الآلام والتضحيات ولِأخطار محتملة جديدة ثمناً لغبائها السياسي بل للعمى السياسي الذي كانت واقعة فيه. كانت قيادات الحزب في بيروت، عبد المسيح وخصومه على السواء، لا تزال تراهن

على حصان أعرج مريض ولا تدرك أن اللعبة في الشام مدوزنة على وقع مصالح الدول الأجنبية التي كانت تتحكم بأديب الشيشكلي وبغيره. كانت القيادات الحزبية في بيروت في غيبوبة كاملة.

كيف انتهى شوكت شقير؟

لم يعد لشوكت شقير أي دور يؤديه في عهد القوتلي، لقد استُنفذ الرجل وحان موعد إنهاء خدماته. رأي القوتلي أن سورية صارت واقعة في قبضة العسكريين المتعددي الولاءات مما يهدد وحدتها، فكان لا بد له من أن يقوم بحملة إقالات وتنقلات في أوساط الضباط خاصة المسيسين منهم، وقد كلف شقير بتنفيذ مروحة واسعة من هذه التغييرات. لكن شقير المفترض أنه من داعمي القوتلي اختار أن يماطل ويتهرب لأن لا مصلحة له بمخاصمة ضباط كبار في الجيش وهو بحاجة لهم للمحافظة على مركزه في قيادة الأركان. إلى أن خيّره القوتلي بين تنفيذ المناقلات والإقالات أو الاستقالة، ففهم الرسالة فوراً واستقال في 7 تموز 56 وقبلت استقالته وتم تعيين اللواء توفيق نظام الدين مكانه رئيساً للأركان.

محاولة انقلاب 1956 والحزب المخدوع

في صفوف القوميين اعتقاد راسخ اليوم أن الحزب كان يعد لانقلاب سنة 56 بالتعاون مع ضباط مستقلين، على رأسهم العقيد عمر قباني، وأنه وصل في إعداده لمراحل متقدمة قريبة من ساعة الصفر، وأنه قرر إلغاء كل شيء بسبب حرب السويس كي لا يتهم أنه غافل الجيش السوري والدولة السورية المنهمكة في مساعدة مصر لرد العدوان الثلاثي عليها. لكن الحقيقة هي غير ذلك تماماً..

كان الحزب يومها يبحث عن طريق للعودة إلى الشام بعد العزلة الشعبية والسياسية التي أوقعته فيها قيادته منذ وقوفها مع الشيشكلي واستبداده في مواجهة الإرادة الشعبية الرافضة له ولاستبداده، وصولاً إلى عجز الحزب عن رد شبهة اغتيال المالكي التي ألصقت به. كان الحزب يبحث عن طريق للعودة إلى الشام فما وجدت قياداته إلا التعاون مع عدد كبير من السياسيين السوريين المعارضين والضباط الذين كانوا مبعدين أو مسرحين، وهؤلاء كانوا متعددي الولاءات والارتباطات التي لا يمكن

ضبطها والسيطرة عليها. فمنهم من كان معارضاً وطنياً مستقلاً ومنهم من كانت تحركه مصالح الوصول إلى السلطة ومكاسبها ومنهم من كانت له ارتباطات مع عراق نوري السعيد ومع الغرب، أي أطراف حلف بغداد، ومنهم من كان عميلاً للحكومة السورية نفسها التي كان يجري إعداد الانقلاب عليها... إن هذا الانفلاش والتوسع في التعاون والاشتراك مع مروحة كبيرة من الأشخاص غير القوميين قد أدى إلى انكشاف الانقلاب ومعرفة السلطات السورية به وبتفاصيله، وبالتالي إحباطه.

كان غسان جديد كعميد للدفاع مرتبطاً مباشرة برئاسة الحزب وكان يقدم لرئيسه تقارير دورية عن سير العمل في الانقلاب وعن المركز الرئيس الذي يحتله الحزب في هذا الانقلاب (س. خوري ص 334). هذا ما يقوله ويشهد به عميد الثقافة سامي خوري، أما سامي جمعة فيقول إنه فيما كانت هذه الترتيبات تجري كان المكتب الثاني السوري يعلم بها من عدة طرق: «من المعلومات التي حصل عليها السراج من مصادره الخاصة ومن مخابرات إحدى الدول المشتركة في محاولة الانقلاب أو من أحد المشتركين فيه، ومن سفير بلجيكا في سورية الذي كان متعاوناً كلياً مع المكتب الثاني وزوده بكل ما يعلم به عن هذه المحاولة مما كان يبحث في اجتماعات السفراء الغربيين الأسبوعية في دمشق، وعن طريق النقيب برهان أدهم الذي كان قد سرّح من الجيش السوري ثم عمل مخبراً للمكتب الثاني وهو من الذين تظاهروا أنهم مع المشتركين في هذه المحاولة، وكذلك من خلوق إبراهيم زكي الدين الذي كان يعمل في دائرة الملحق العسكري في السفارة العراقية في دمشق، وكذلك من اختراق المكتب الثاني للحزب لأكثر من عشرين عنصراً من العناصر التي كانت تتدرب في معسكرات الحزب، ومن بعض السياسيين المشتركين في المحاولة (سامي جمعة ص 229). ويقول جمعة إنه في أوائل تشرين أول 56 كانت الشعبة الثانية تعرف بدقة جميع تفاصيل هذه المحاولة ومخططاتها العسكرية ولم تعلن عنها رسمياً حتى 24-11-56، أي بعد حوالي شهرين. ومما يلفت هو ورود أسماء جورج عبد المسيح وأديب الشيشكلي والعقيد إبراهيم الحسيني (ما غيره) الملحق العسكري السوري في روما وعدد من النواب والسياسيين السوريين كمتورطين في الاشتراك في المحاولة الانقلابية، وقد صدر قرار اتهام بحقهم وأحيلوا إلى القضاء (نفس المصدر).

هكذا فشل الانقلاب قبل أن يباشر الانقلابيون بتنفيذه، وكان من حسن حظهم أنه قد تم كشفهم قبل مباشرتهم بالتنفيذ. الجدير بالملاحظة هنا أن الحزب كله كان منخرطاً في هذا العمل وهذه السياسة حتى أواخر سنة 1956 على الأقل، عبد المسيح ومن والاه كما المجلس الأعلى ومن معه، أي طرفي الصراع على السلطة في الحزب. فالخلاف بينهم لم يكن إذاً خلافاً على سياسة الحزب ولم يكن خلاف عقائديين ضد منحرفين كما صار يروّج عبد المسيح ومريدوه قبيل الانشقاق وخلال الانشقاق الذي حدث بعد أقل من سنة.

مقدمات الجمهورية العربية المتحدة

بعد الإعلان عن فشل المحاولة الانقلابية سنة 56 برز اسم الضابط الشيوعي عفيف البزري أثناء محاكمة المتهمين بها، وقد أصبح فيما بعد رئيساً للأركان خلفاً لتوفيق نظام الدين. يبدو أن تدابير القوتلي لإبعاد الجيش عن التحكم في سياسة الدولة السورية لم تؤتِ ثمارها، فقد تم تشكل مجلس قيادة من العسكريين كان يعقد اجتماعاته بحضور ومشاركة الملحق العسكري المصري في سفارة مصر في دمشق عبد المحسن أبو النور، مما يعبر عن مدى التحاق سورية في عهد القوتلي الجديد، بالسياسة المصرية ومدى تجذر النفوذ المصري في مفاصل الدولة السورية (الحوراني 1490). ولا عجب في ذلك فمنذ أواخر 56 حتى أوائل 58 خلال غياب الحزب شعبياً وسياسياً كانت فكرة الوحدة مع مصر قد اجتاحت سورية، وظن السوريون وخاصة العروبيون الخياليون أن هذه الوحدة ستحل لهم مشاكلهم كلها دفعة واحدة وأن عبد الناصر هو القائد البطل المنتظر الذي يستطيع أن يحقق للسوريين جميع آمالهم السياسية والقومية.

وما كان ينغص هذه الأحلام هو صدمة البعثيين وكل العروبيين الخياليين السوريين من الأسلوب المصري في التعاطي مع موضوع الوحدة العربية، هذا الأسلوب الذي يتسم بالبطء وعدم حرق المراحل والتركيز على إلحاق السياسة السورية بالسياسة المصرية أكثر من أي شأن آخر، بينما العروبة السورية كانت تطلب وحدة كاملة دفعة واحدة دون إبطاء كي لا يفلت من أيديهم هذا الحل السحري لجميع مشاكلهم وهذا المحقق العجيب لجميع مطامحهم وآمالهم!

أما الحزب الشيوعي الذي كان قد تمكن من بناء كتلة عسكرية لا بأس بها، على رأسها رئيس الأركان عفيف البزري وقوة سياسية وشعبية يتكلم باسمها النائب في البرلمان خالد بكداش، هذا الحزب كان يتحسس من المصريين الذين نجحوا في المزاوجة بين صداقتهم مع الاتحاد السوفياتي سياسياً وتسليحياً من جهة، واضطهادهم وملاحقتهم للشيوعيين المصريين من جهة أخرى. وكان الشيوعيون السوريون يدركون أنهم سيصبحون أقلية صغيرة وضعيفة شعبياً وسياسياً وعسكرياً في ظل وحدة عربية كاملة مع مصر، هذا إذا لم يطَلْهم الاضطهاد والملاحقة هم أيضاً كما هو الحال مع رفاقهم الشيوعيين المصريين. وأكثر ما كان يزعج الشيوعيين السوريين هو قبول الاتحاد السوفياتي بالسياسة المصرية الازدواجية تجاه الشيوعيين المصريين والاتحاد السوفياتي. كان الشيوعيون السوريون لا يزالون أمميين طوباويين غير مدركين أولوية وأحقية المصالح القومية الروسية التي كانت وراء سكوت السوفيات عن اضطهاد مصر للشيوعيين. لقد أدرك الشيوعيون السوريون أخيراً أن الأولوية المصرية هي مصر ومصالحها وليس العروبة والوحدة العربية، وقد يكون الروس هم من نبّه الشيوعيين السوريين إلى هذه الحقيقة، فاتخذ هؤلاء موقف المزايدة في العروبة وفي الوحدة العربية الاندماجية الفورية مع مصر وصاروا يتفوقون على البعثيين في هذا الموضوع. ولِما لا، فالشيوعيون يرون أنه لن تحدث وحدة عربية اندماجية يمكن أن تهدد حضورهم ونفوذهم السياسي والعسكري والشعبي في سورية، فالسير مع التيار ومع رغبات الجماهير هو أسلوب شيوعي قديم.

مخاض الجمهورية العربية المتحدة

أتى وفد عسكري مصري إلى دمشق لبحث مسألة «توحيد الجيشين» ولكن بحثه اقتصر على موضوع توحيد المصطلحات العسكرية دون أن يتطرق إلى الأساس الذي يفترض أن يُبنى عليه الجيش العربي الواحد (حوراني 2488) وانتهت الاجتماعات دون الوصول إلى أي نتيجة. تأكد السوريون أن المصريين غير جادين في مسألة توحيد الجيشين وإنشاء جيش عربي واحد. عقد مجلس القيادة العسكري برئاسة عفيق البزري اجتماعاً لم يحضره الملحق العسكري المصري عبد المحسن أبو النور كما هي العادة، وأعلن البزري أن المصريين غير جادين في إقامة أي نوع من الاتحاد أو الوحدة سواء بين الجيشين أو

البلديـن. واتخذ المجتمعون قراراً بتأليف وفد عسـكري سـوري يسـافر إلى مصر فوراً، وتم اسـتدعاء عبد المحسـن أبو النور من بيته وتم إبلاغه والطلب منه مرافقة الوفد إلى القاهرة فوراً. أبو النور حاول إرجاء السـفر إلى اليوم التالي بداعي التحضير للاسـتقبال ولكـن كان إصرار الوفد السـوري على السـفر حالاً وتمت كتابة مذكـرة كُلِّف الضابط أمـين النفوري بإيصالهـا إلى رئيس الجمهورية شـكري القوتلي ورئيـس المجلس النيابي أكرم الحوراني ورئيس الوزراء صبري العسلي ووزير الدفاع خالد العظم، على ألا تسلم إلا بعد سفر الوفد ووصوله إلى القاهرة وذلك لوضع أركان الدولة السورية أمام الأمر الواقع وتفادي قيامهم بأي عرقلة. في هذه المذكرة إصرار الجيش السـوري على الوحدة الاندماجية وتذكير الحكومة بالعهد الذي قطعته على نفسـها بالعمل على تحقيق الوحدة بين سـورية ومصر ويحذرها من النتائج التي تترتب عليها في حال تقاعسـها أو تجاهلها لهذه المذكرة. سـلّمت المذكرة صباح 13-1-58 وكانت بعنـوان «مذكرة القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة بشأن الوحدة مع مصر» (الحوراني 2489).

سـافر الوفـد ولم يستطع مقابلة عبد النـاصر إلا في اليـوم الرابع لوصولـه، بدأ عبد الناصر يشرح للعسـكريين السـوريين الفرق بين المجتمع السوري والمصري ونظاميهما وبـين الجيـش السـوري والجيـش المـصري وهيكليتهـما، وسـأل إذا كان العسـكريون السـوريون يقبلـون بإلغـاء الأحـزاب السياسـية في الجيـش، كما تحدث عـن الفرق بين مفهومـي الوحدة والاتحـاد وبأن الاتحاد يتطور ويصبح وحدة بينـما الوحدة الفورية إذا فشـلت فتصير انتكاسـة خطيرة وتصبح العودة إلى الاتحاد الفدرالي صعبة كثيراً...الخ. ويبدو أن العسـكريين السـوريين وأحزاب البعث والشـيوعي لم يكونوا يفقهون الفرق بين هذه المفاهيم ويظنون أنها واحدة فكان جوابهم بأنهم «كعسـكريين يضعون أنفسهم بتصرف عبد الناصر يفعل بهم ما يشـاء» (الحوراني 2439-2449). وتجاه إصرار الوفد العسـكري السوري على الوحدة الفورية تم الاتفاق على تأليف لجنتين مصرية وسورية تتوليـان وضع الأسـس والمبـادئ للوحدة والتفاصيـل والقرارات التـي يجب أن تتخذ قبل إعلان الوحدة بشـكل رسـمي، وذلك بعد أن وافق السـوريون على جميع الشروط المصرية وأهمها حل الأحزاب السورية جميعها!

بعد عودة الوفد إلى دمشق شهدت الأحزاب والقوى السياسية السورية نقاشات حول مفهومي الاتحاد والوحدة وأيهما أفضل، حتى إنه في اجتماع لحزب البعث العربي الاشتراكي أجري تصويت ففاز الاتحاد على الوحدة، فاز الحوراني على عفلق. أما الحزب الشيوعي فقد نشر بياناً بتاريخ 16-2-58 أيد فيه الاتحاد «الذي يأخذ بالظروف الموضوعية لكل بلد».

كيفية إعلان الوحدة السورية المصرية- الجمهورية العربية المتحدة

لم يعد بإمكان عفيف البزري والشيوعيين، ولا البعث ولا الكثير من السياسيين والعسكريين السوريين الذين طحشوا على الوحدة الفورية الاندماجية قبل نضوج نقاشاتهم حول الفرق بين الوحدة والاتحاد، التنصل والتملص من الاتفاق الذي أبرمه الوفد العسكري السوري في القاهرة، وانقلبت الأدوار: صار المصريون يلحّون على تنفيذ شروط الوحدة بسرعة وأولها حل الأحزاب السورية. وكان حزب البعث العربي الاشتراكي أول من اجتمع لتقرير موقفه من المطالب المصرية. اجتمعت قيادته القطرية ووافقت على حل الحزب بالإجماع وأصدرت بياناً بذلك نشر في الصحف بتاريخ 24-2-58 ووقعه أمينه العام ميشيل عفلق. لم يستطع المسؤولون في الدولة السورية كرئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب والوزراء ووزير الخارجية والدفاع، وكلهم ضد الوحدة الاندماجية الفورية التي تهدد مراكزهم ومصالحهم، تغيير شيء في الاتفاق الذي أبرمه العسكريون السوريون مع القاهرة دون استشارتهم ودون موافقتهم. فلم يعد المجلس النيابي السوري يملك إلا أن يجتمع في 5-2-58 بحضور رئيس الجمهورية شكري القوتلي الذي تلا الأسس الدستورية التي قامت عليها الوحدة، ثم رشح جمال عبد الناصر لرئاسة الجمهورية العربية المتحدة. وفي نفس الوقت، وحسب الاتفاق، عقد مجلس الأمة المصري جلسة تلا خلالها عبد الناصر أسس الوحدة التي تضع في يده جميع السلطات التنفيذية في مصر وسورية، وتشكيل المجلسين التنفيذيين في الإقليمين وتعيين رئيس كل منهما وتحديد اختصاص هذين المجلسين بقرار من عبد الناصر وحده. وهكذا تكون الوحدة قد أعلنت بالتزامن في سورية ومصر. (بعض المصادر تقول إن الوحدة أعلنت بتاريخ 21 شباط 58).

أين كان الحزب السوري القومي الاجتماعي؟

في استعراضنا لكل هذه الأحداث في تاريخ العلاقة السورية- المصرية نعلم أننا ابتعدنا كثيراً عن موضوع هذا الكتاب الذي هو تاريخ استشهاد سعاده والعوامل الحزبية الداخلية لهذا الاستشهاد، ولكننا نفعل ذلك كي نبرهن ونبين أن السيطرة على الحزب بعد قتل زعيمه، وزج هذا الحزب في سياسات بعيدة عن نهجه واتجاهه الذي رسمه له وسار عليه زعيمه، كان مقدمة ضرورية لتحييد هذا الحزب وأخذ سورية لتبنّي خيارات وسياسات بعيدة عن مصالحها.

في وقت فقدت فيه سورية استقرارها السياسي وصارت عرضة لانقلابات عسكرية مشبوهة كلها من تخطيط وتدبير ورعاية القوى الأجنبية، وفي وقت أصبحت سورية غارقة في تيارات متلاطمة أفقدتها وعيها لحقيقتها مجتمعاً واحداً- أمة واحدة معلمة وهادية للأمم، بناءة للتمدن الإنساني منذ ما قبل التاريخ الجلي، في وقت أصبحت سورية تسلم أمرها كله لغيرها وتضحي بسيادتها لتلهث وراء وهم وسراب بعيد عنها وعن حقيقة مصالحها الحيوية، في هذا الوقت كانت قيادات الحزب السوري القومي الاجتماعي المفترض أنه المعبّر عن حقيقة الأمة السورية وحقيقة مصالحها مشغولة في صراعاتها الداخلية التي قسمت الحزب وأهلكته واستهلكت حيويته وحيوية أعضائه حتى صار حزباً معزولاً سياسياً وشعبياً وغير معروف إلا من خلال الوظائف التي يورطه فيها المستفيدون منه أو من خلال انقساماته وأجنحته وصراعاتها التناحرية فيما بينها.

إن الحزب السوري القومي الاجتماعي كان يمكنه خلال سنوات 49 حتى 55، وهي سنوات العمل الحزبي العلني الواسع في الشام بعد استشهاد سعاده، من أن يزرع في وعي الشعب معنى الوحدة القومية ومعنى الوطن ومعنى الأمة مجتمع واحد في وطن واحد ومعنى وحدة الحياة الاجتماعية الاقتصادية في البيئة الطبيعية الواحدة والفرق بين كل ذلك وبين الجبهة العربية وتعاون الأمم العربية. كان الحزب يمكنه أن يشرح الفرق بين العروبة الوهمية والعروبة الواقعية، لكن الحزب كان مقصراً أو فاشلاً في هذه القضية، والدليل هو هذا الجدل الابتدائي الذي تلهى به السوريون حول معنيَي الوحدة والاتحاد والفرق بينهما، بغياب الحضور الإعلامي والثقافي السوري القومي

الاجتماعي ووضوح وصحة عقيدته. إن الفقر والشح والغموض في شرح الحزب للعروبة الواقعية القومية الاجتماعية نجده ونتبينه في اللغة الملتبسة والغامضة الواردة في بيان الحزب الشهير بعنوان «الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي»، هذه اللغة التي تتجنب ذكر الأمة السورية والوطن السوري وتستبدلها بتعابير جديدة غير ذات دلالة واضحة مثل «النطاق الطبيعي» (البيان السياسي ص 39) ومثل الهلال السوري الخصيب. فالنطاق الطبيعي قد يعني وطناً وقد يعني قارة كاملة ولا يكفي للتعبير عن وحدة الوطن ووحدة الأمة ومعنى الوطن ومعنى الأمة. أما تعبير الهلال الخصيب فيستعمله البيان لأنه مقبول ويجري على ألسنة العروبيين الخياليين أيضاً ولا يشكل لهم مشكلة، لكن هذا لا يكفي إذا لم نبرهن أن الهلال السوري الخصيب ليس مجرد هلال أو منطقة ضمن «الوطن العربي» بل هو وطن واحد لأمة واحدة تامة هي الأمة السورية، وللأمة السورية قضية قومية مستقلة عن أية قضية أخرى. وهذا البيان بدل أن يتكلم على وحدة الحياة الاجتماعية الاقتصادية في الوطن السوري الواحد والأمة السورية التامة يتكلم بدل ذلك على «وحدة السوق» (نفس المصدر ص 61)، وكأنه لا يوجد سوق بين كل من سورية ومصر والمغرب والحجاز! حتى إن هذه اللغة الخجولة المترددة الملتبسة لا تسمي العقيدة السورية القومية الاجتماعية باسمها بل تقول عنها إنها «نزعة»، فكما أن هناك نزعة عروبية خيالية فهناك أيضاً «نزعة أخرى» على أساس الهلال السوري الخصيب (ص 40- 41). إننا الآن لا نتردد أبداً في القول بأن القيادات الحزبية، ومنذ ذلك الوقت، لم تكن تثق بعقيدتها ولم تكن تجاهر بها وبالتالي لم تكن مؤهلة لشرحها ونشرها وجعلها واضحة للناس والرأي العام، وإن ما نراه اليوم من تجنب الإعلام الحزبي المركزي ذكر تعابير الوطن السوري والأمة السورية والاستعاضة عن ذلك بتعابير «المنطقة» و«المشرق العربي» و«البيئة الطبيعية» دون تحديد ودون تعيين، هو استمرار «لنزعة» مسايرة العقائد الأخرى والحرص على عدم الصراع العقائدي معها. لا نبالغ إذا قلنا إن «نزعة» نعمة ثابت لا زالت مستمرة بأشكال مختلفة.

يقظة القومية السورية والتحرر من التبعية لمصر

ليس بين أيدينا أية وثيقة توضح موقف الحزب آنذاك من موضوع الوحدة السورية المصرية بالطريقة التي تمت بها، وإن كنا نعرف أن موقفه كان موقف المعارض لكن

العاجز عن التأثير. الحزب كان مشغولاً في انقساماته من جهة، ومن جهة أخرى كان منغمساً في السياسة المحلية اللبنانية التي كانت محور اهتمامه وحركته، وكان على أعتاب التورط في ملهاة أخرى هي الأحداث الدامية التي اندلعت في لبنان متموضعاً في الطرف المناوئ للأطراف التي اضطهدته ونكلت به في الشام، حتى ولو كان هذا الطرف مدعوماً من قتلة سعاده سنة 49.

رغم ذلك، أي رغم غياب الحزب عن الحدث الكبير المتمثل في الوحدة السورية المصرية وتسليم أمور سورية كلها إلى مصر، شهدنا بعد وقت قصير انهيار هذه الوحدة التي قامت على أسس غير سليمة وكان متوقعاً لها أن تنهار لكن ليس بهذه السرعة. لم نجد شرحاً لأسباب انهيار الوحدة بهذه السرعة وتعليلاً معمقاً له أفضل وأوفى من شرح وتعليل عميد الثقافة في الحزب الأمين سامي خوري في كتابه «أمل لا يغيب» في الصفحتين 358 و359 فيمكن الرجوع إليه هناك. الدكتور سامي خوري كان خبيراً في تاريخ الحضارة السورية وفي خصائص كل من المجتمع السوري والمصري وتاريخ العلاقة بينهما، وله أبحاث وكتب عديدة في هذا الموضوع. أما إذا كنا نريد موجزاً مختصراً لأسباب انهيار الوحدة السورية المصرية فيمكننا قراءة ذلك من شعور السوريين جميعهم آنذاك بما صاروا يسمونه الاحتلال المصري والسيطرة المصرية على سورية واختزال المصريين للشخصية السورية ومصالحها وسيادتها. لقد استيقظ السوريون وانتصروا لهويتهم وحقيقتهم وسيادتهم، لقد أدرك السوريون عفوياً وبداهة أن تبعيتهم لمصر وتجاوزهم وإغضاءهم عن العراق والأردن ولبنان وفلسطين هو كمن يحاول توحيد ما جعلته الطبيعة متفرقاً وتفريق ما جعلته الطبيعة واحداً موحداً. هذا كله معناه: يقظة القومية السورية، حتى في الداعين إلى القومية العربية أنفسهم.

وصول حزب البعث إلى السلطة في سورية

نختتم هذا الموضوع بذكر الانقلاب الذي قام به حزب البعث ضد الضباط الذين قادوا الانفصال عن مصر ووضع حد للتبعية لها في كل شيء، هذا الانقلاب الذي استمر إلى يومنا وصمد أكثر من نصف قرن.

لقد قلنا آنفاً إن جميع الانقلابات العسكرية التي حدثت في سورية كانت من تدبير

وتسهيل المخابرات الأجنبية، خاصة الإنكليزية ثم الأميركية فيما بعد. ولا نستثني انقلاب البعث سنة 1963 رغم التحفظ هنا لأن انقلاب البعث كما تطور لاحقاً قد أفلت من تحكم المخابرات الأجنبية واستطاع أن يتحكم هو بقراره وسياسته، والبراهين على ذلك كثيرة، أهمها وقوف سورية بوجه السياسة الأميركية والغربية بشكل عام ودفعها أثماناً باهظة لهذا الموقف السيادي القومي، لن يكون آخرها ما تدفعه وتبذله منذ 2011 حتى اليوم. أما أننا لم نستثن انقلاب البعث سنة 1963 من دائرة الانقلابات العسكرية التي دبرتها وسهلتها القوى الأجنبية، فلنا مما قاله وكتبه ميشيل عفلق نفسه سنة 1971 عن ذلك خير دليل. ففي كتابه «نقطة البداية- أحاديث بعد الخامس من حزيران» صفحة 15، يتحدث عفلق عن «الهوة التي نشأت بين البعث والجماهير واتسعت مع الزمن ومع تراكم الأخطاء والانحرافات والمشاكل»، يقول: «...**ولكن المؤامرات وحملات التجني التي كانت تتوالى عليه بشراسة متزايدة، كثيراً ما لجمت عنده حاجة الصراحة وحاسة الصدق مع النفس، فكتم الكثير من أمراضه وورطاته ومشاكله حتى لا يفيد الأعداء والخصوم من صراحته ويتسلحون بها ليزدادوا إمعاناً في تهديمه، وهكذا نشأت الهوة بينه وبين الجماهير واتسعت مع الزمن ومع تراكم الأخطاء والانحرافات والورطات والمشاكل. وظهر آخر الأمر أن الأعداء هم الذين أفادوا من ذلك التستر على العيوب والأمراض، وإن أكبر مؤامرة دبرها الاستعمار وأعداء الأمة العربية ضد حزب البعث كانت في توريطه في السلطة...**»

الانشقاقات

الانشقاقات التي تعرّض لها الحزب هي نتيجة طبيعية لعدم الأمانة وعدم الإخلاص للقضية وعدم الاستعداد للتضحية في سبيلها ممن كان مطلوباً منهم ذلك. وإن الانشقاقات التي تعرّض لها الحزب هي أيضاً نتيجة طبيعية للنزعة الفردية وضعف الالتزام بمصلحة الحزب والقضية التي من المفترض أن تعلو فوق كل المصالح والاعتبارات الأخرى. إن أعذار الدنيا كلها ليست كافية أو صالحة لتبرير شق وتقسيم حزب سعاده وبعثرة ميراثه والعبث بما بناه وزرعه وتعهده وسقاه بروحه وفكره وعلمه وفلسفته وإشعاعه وجهاده الأسطوري المتواصل. «...**هذا ما قصدت لتنبيه الشعور إليه، إلى الواجب الذي ينتصب في هذا الوقت العصيب ليحاسب أبناء هذا الجيل على**

مـا سـيورثون أبناءهم. هذا ما يهمني أنا قبل كل شيء، قبل جسـدي ومطاليبه القليلة، بـل هذا الشيء- القضية العظيمة- الذي أحرق نفسي وجسـدي لعل النور الذي يتولد من هذا الاحتراق يكفي لإضاءة سبيله» (من رسالة إلى عبود سعاده تاريخ 5-9-41). هكـذا كان يتصرف سـعاده ويتعهد الحزب والقضيـة العظيمة التي أنشـأها، وقد بادله معاونوه بعد استشهاده بأن شقوا الحزب واقتسموه وبعثروه.

إن الجيل الحالي والأجيال اللاحقة ستحاسـب الذين شـقوا حزب سعاده واقتسموه وبعثـروه ولن ترحمهم. ومهما زينوا لارتكاباتهم ومهما أولوها وبرروها وفسروها، فإنها ستبقى تلطخ سمعتهم وذكراهم بعد موتهم، ولن يذكرهم التاريخ إلا أنهم شقوا حزب سـعاده فخانوه وخانوا ما تعاهدوا معه عليـه عندما قال لهم: «**أما الصعوبات الخارجية فتهـون متى تغلبنا على الصعوبات الداخلية وتمركزت إرادة أمتنا في نظامنا الذي يضمن وحدتها ويمنع عوامل القسمة المتفشية خارج الحزب من التسرب إلى وحدتنا المتينة التي نضحي في سبيلها بكل ما تطلبه منا التضحية**» (الخطاب المنهاجي الأول).

إن انشـقاقات سـنة 1957، كما سـنة 1974 وسـنة 1987 وثم سـنة 2012 (أنفصال قاده المحايري على قياس الكيان الشـامي)، هي صفحات سود ليست من تاريخ حزب سـعاده، بـل من تاريخ مـن ارتكبوها وقاموا بها وشـاركوا فيها وتبعوهـا ودافعوا عنها وقبلوهـا، وإن حـزب سـعاده وحركتـه ونهضتـه وقضيتـه هي بـراء منهـا وضحية من ضحاياهـا. إن حزب سـعاده هو اليـوم مخطوف ومرهون وأسـير قراصنة وقطاع طرق وسارقي تراث عظيم ومدّعي أبوّة وما هم إلا ناقصي رجولة وفاقدي مصداقية.

سـنتناول انشـقاق سـنة 57 بشـكل رئيس لأنه أول الانشـقاقات وأكبرهـا وأطولها وجرحه أكثر عمقاً ونزفاً. لقد سمّاه من قام به «بالانتفاضة» تيمناً وتقليداً لقول سعاده: «**إن للحـزب انتفاضـات دوريـة يطرح بها كل وهـن وكل جبن وكل التـواء يعلق به في مراحل سيره نحو الانتصار. وقد أوجبت عودة الزعيم هذه الانتفاضة الجديدة المعيدة له صفاء عقيدته**» (مقالة نعمة ثابت بطل الخيانة 5-8-47). لكن انتفاضة الزعيم قد جمعت صفوف الحزب ووحدته على أسس عقيدته وغايته، بعدما كادت تتفرّق هذه الصفوف بعامل الانحرافات العقائدية والسياسية والتفسخ والميعان والتفكك النظامي، وقد قام بـه مصدر السـلطتين التشريعية والتنفيذية الذي تعاقد معـه جميع الأعضاء زعيماً ومعلماً

وهادياً للأمة والناس. أما «الانتفاضة» سنة 57 فقد قسمت الحزب وشتتت أعضاءه وبعثرته وأضعفته وأهلكته وأفقدته مصداقيته بين الناس كعامل للوحدة القومية، بينما هو يغرق في انقساماته. انتفاضة الزعيم قام بها مصدر السلطة لتوحيد الحزب، بينما انتفاضة سنة 57 قام بها متصارعون على السلطة وأدت إلى شق الحزب.

إن وثائق انتفاضة سنة 57 المجموعة في كتاب «مراحل الانتفاضة» فيها ما يؤكد أن الأزمة كلها هي أزمة صراع على السلطة وليس على أي شيء آخر.

1- بياناتها كلها تقريباً فيها تحذير من الانشقاق وتهديد به بدعوى الحرص على وحدة الحزب ووحدة القوميين.

ورد ذلك في بيان استقالة محمد يوسف حمود في 16-10-57 هكذا: «...وصارحتكم بأن هذا القرار لن يلزمني لأنه سيعجل في شق الحركة شقاً مرعباً رهيباً تتحملون أنتم تبعته...»، أي إن حمود يعتبر الانشقاق، وإن كان يضع وزره على غيره، أمراً رهيباً مرعباً. ورغم ذلك فقد أقدم عليه.

وورد ذلك في الإعلان- النداء الذي وجهه فاضل كنج ويوسف قائد بيه ومحمد يوسف حمود وجورج عبد المسيح بتاريخ 17-10-57 هكذا: «...وأبدينا نحن الأربعة استعدادنا للتلبية أملاً في أن يكون بها ما يحفظ وحدة الصف وسلامة القضية... لنبقى كعهد الزعيم بنا المجتمع السوري الناهض بوحدة العقيدة ووحدة الصف ووحدة القيادة في وحدة الحياة...». وورد ذلك في بيان عميد الإذاعة محمد يوسف حمود بعنوان «إلى الوضوح» في 30-10-57 هكذا: «...وكما أراده الزعيم وبرهنتم عنه أنتم وحدة عقيدة ووحدة صف بوحدة قيادة في وحدة الحياة...».

وورد ذلك أيضاً في بيان عميد التدريب جورج عبد المسيح تاريخ 4-11-57 بعنوان «ضد معطلات العقل» حيث قال: «...نحن في معركة وحدة الحزب ضد عوامل التفسخ التي لن تتمكن رغم زخمها من النيل منا...» لكنه خاض معركة شق الحزب وليس معركة وحدته.

وورد ذلك أيضاً في بيان لعميد الإذاعة محمد يوسف حمود بعنوان «وشهادة للحقيقة» في 3-12-57 فيه: «...وودت متابعة المساعي الساذجة للحيلولة دون وقوع الانشقاق

الرهيب الذي رأيت هوته الراعبة...»...الخ.

لكن كل هذا الحرص على وحدة الصف ووحدة القيادة وكل هذا التحذير من الانشقاق لم يكـن كافيـاً ليدرك المنشـقون أنـه لا يمكن إنقاذ الحزب من الانشـقاق... بالانشـقاق. فباسم وحدة الحزب نشُقّ الحزب وباسم الحرص على العقيدة نشق الحزب وباسم العمل على الإصلاح نشـق الحـزب... وكل ذلك بعدما أن نكرر التحذير من شـق الحزب ومن خطر شـق الحزب! وبعد أن شـقينا الحزب قلنا إن الحزب واحد موحد ولم ينشـق، نحن الحزب وكل ماعدانا ليسـوا من الحزب! قلنا ذلك لكي تكتمل عملية الانشقاق وتترسخ ولا يعود مجال لإعادة النظر. هكذا هي كل الانشقاقات في جميع المؤسسات المنقسمة على نفسها: كل قسم يدّعي أنه هو ولا أحد غيره يمثل الحق والحقيقة كلها.

2- فيهـا حملـة لتصويـر الخلاف أنه بين عقائديـين ضد منحرفين، لكن هذا الشـعار بقـي شـعاراً ولم يتبعه أمثلة وشـواهد وبراهـين. الانحراف السـياسي كان واضحاً وقد اشـترك فيه الجميع بمن فيهم عبد المسـيح، ولنا من البيان السـياسي في عهد رئاسته مثل واضـح، ولنـا من قرار إرسـال المحايـري إلى أمـيركا للمفاوضة حول رسـائل الشرابي مثـل آخر، ولنا من روايات عبد المسـيح نفسـه لمنير حيدر عن تسـليح الحـزب وتمويله من نوري السـعيد وأطراف حلف بغداد، وعبد المسيح رئيساً للحزب، مثل آخر. حتى مـن بيانـات الانتفاضة ومن تعاطـف تيار العم مـع «اليمين» وتنبيهـه لليمين من خطر اليسـار (وعدم تنبيهه اليسـار من خطر اليمين!) أمثلة أخـرى (في بيان «عودة الحقائق» في كتـاب مراحل الانتفاضة نقرأ: في هذا الجو الضاغط قتل المالكي. ورأى اليسـاريون فيـه فرصتهـم فاغتنموها، وكان اليمينيون سـادرين رغم تنبيهنا لهـم)، ولنا من موقف اللاموقف لعبد المسـيح مـن انحراف نعمة ثابـت دليل آخر. أما الانحـراف العقائدي فلم يقدم عبد المسـيح مثلاً واحداً عليه وعلى أن خصومه قد وقعوا فيه. هذا الانحراف العقائـدي لم يكن مطروحاً كعامل انقسـامي سـنة 57، لكنه صار لاحقاً بعد الانقسـام الحجـة الأكثـر تداولاً لـدى تيار عبد المسـيح فصـاروا يرفعـون شرط «درس العقيدة» بوجـه المطالبين بوحدة الحزب، وكأنهم هم القيّمون على العقيدة وهم الأسـاتذة الذين يمتحنـون القومـين في معرفتهـم وفهمهم وصحـة اعتناقهم للعقيـدة. إن شرط درس العقيدة صار حجة لاسـتمرار الانقسـام في وقت لم تكن العقيدة والالتزام بها أو عدمه

سبباً من أسباب الانقسام. إن ذلك يدل مجدداً على أن الصراع الداخلي في الحزب لم يكن سوى صراع على السلطة، وسببه الرئيس هو النزعة الفردية التي اعتبرها سعاده أخطر من الاحتلال الأجنبي.

3- فيها براهين صحيحة على أن طرد العم لم يكن سلبياً من الناحية النظامية الدستورية، لم تتخذه محكمة حزبية مستقلة ولم يراعِ أصول المحاكمة العادلة وفرص الدفاع فضلاً عن أنه لم يقدم الحجج والشهود والبراهين الكافية للاتهام والإدانة، وعملية الطرد كان فيها تهريب وتسرع ولم تحترم قواعد العدالة والشفافية، مثلها مثل عملية طرد فريد الصباغ التي بدورها تشكل فضيحة اشترك فيها عبد المسيح نفسه وكانت سابقة تكررت ضده هذه المرة. لو كان مقتل المالكي هو السبب الحقيقي ولو كانت الإدانة أكيدة ومحسومة لما استعجل الطاردون بالطرد ولما حرقوا مراحل المحاكمة بل كانوا أعطوا عبد المسيح أكثر من فرصة واحدة للمثول والدفاع، كي تكون محاكمته علنية مستوفية كل شروط العدالة التي أرساها سعاده والتي ذكرناها بالتفصيل في هذا الفصل تحت عنوان «العم يطرد اثنين». فضلاً عن ذلك فإن الذين طردوا عبد المسيح كانوا قد طردوا حسن الطويل، وكانوا قد جردوا إسكندر شاوي وجميل مخلوف وحنا كسواني وجورج جورج من رتبتهم وأحالوهم إلى المحكمة تمهيداً لطردهم بتهمة التمرد وخرق النظام وليس بتهمة متصلة بمقتل المالكي. إن هذا يدل مرة أخرى على أن طرد عبد المسيح كان في الحقيقة ضمن سياق طرد غيره وبسبب الصراع على الحزب، أي على السلطة في الحزب، وليس بسبب اتهامه وإدانته بقتل المالكي كما جاء في قرار طرده.

حتى لو كان عبد المسيح متورطاً بمقتل المالكي كان على الإدارة الحزبية التنبه إلى مخاطر قيامه بشق الحزب كنتيجة للطرد، وكانت هذه المخاطر بائنة وظاهرة بوضوح. فالإدارة قطعت يد الحزب للتخلص من شوكة في إصبعه. هذا فشل في الرؤية واستعجال غير مبرر. فالإدارة بقرارها ذاك أطلقت رصاصة على العم فأصابت الحزب أيضاً بها.

4- فيها تفاصيل كثيرة عن ممارسات لا نظامية وعن فساد مالي وإغراء الرواتب ورفع غير المؤهلين وإبعاد غيرهم، وكل ذلك موثق وله شهود وقرائن، مما يدل على أن الذين طردوا عبد المسيح لم يكونوا أفضل منه لا نظامياً ولا عقائدياً ولا سياسياً ولا في شيء من الصفات التي تؤهل صاحبها للقيادة حسب نظام سعاده وحسب الشروط

المنصوص عنها في الدستور وأقلها «أن يكون في جميع الظروف السهلة والصعبة مثالاً في الإيمان بالزعيم والعقيدة والنظام وفي الأمانة الكلية في القيام بالأعمال والمسؤوليات والمهمات التي أسندت إليه».

إن جميع انتقادات الانتفاضيين وثورتهم ضد مثالب جماعة المركز كانت صحيحة وهي نفس المثالب التي «تتمتع» بها القيادات المستمرة إلى اليوم: تقريب أتباع ورفع غير المؤهلين وإبعاد غيرهم، إغراء بالرواتب والعبث بالنظام والدستور وتطويعه لخدمة مصالح التشبث بالسلطة. فطرد عبد المسيح لم يكن إذاً لأسباب إدانته بمقتل المالكي، بل لإبعاده والتخلص منه ومن إثارته لهذا الفساد المالي والسياسي والإداري الذي كان مستشرياً وإمساكه ورقة بيده في صراعه على السلطة مع المتورطين فيه، علماً أن جزءاً كبيراً من هذا الفساد كان موجوداً إبان رئاسة عبد المسيح ولم ينشأ فجأة مع صيرورة أسد الأشقر رئيساً، أي إن عبد المسيح كان مسؤولاً أيضاً عنه. وهذا معناه أن طرد عبد المسيح كان في حقيقته صراعاً على السلطة اتخذ من مقتل المالكي حجة ومبرراً.

5- فيها مبالغة في مديح العم وإعطائه صفات وأدواراً جعلت منه شخصاً «كامل الصفات» ما جعل الانتفاضة كلها تدور حوله، وهذا يبرر استعمال خصومه عبارة «جماعة عبد المسيح»، مثلاً نقرأ في بيان «على اللادستورية» لعميد الإذاعة محمد يوسف حمود في 14-1-58 ما يلي: «...وقف نفسه، فتوته وشبابه وشيخوخته وكل عمره بما فيه وبما في آله وماله للعطاء والفداء، ذلك الذي ما انحرف ولا انجرف ولا كلّ ولا ملّ لا ليلاً ولا نهاراً سراً وجهاراً، بالعقل والقلم والبيان والنداء والتنظيم الدائب والصراع الشاق، حاملاً إعدامه على كتفيه هاتفاً: إن أيام الجهاد أمامنا لا وراءنا يا رفقاء.»

إن شق الحزب هو جريمة ما كان يليق بمجلس أعلى في الحزب أن يدفع إليها ويوفر لها حيثيات وأجواء ساعدت الانشقاقيين على انشقاقهم، وأيضاً ما كان يليق بتاريخ عبد المسيح المجبول بقضية الحزب والمتماهي معها، أن يتلطخ بها. إن الانشقاق لهو جريمة موصوفة بحق سعاده وحزبه وقضيته كلها، وسعاده كان قد حذّر ونبّه من خطر الوقوع فيه منذ سنة 1935 في خطابه المنهاجي الأول، كما أنه عمل المستحيل لتفادي شعور رفقاء الأرجنتين والبرازيل بأية أزمة سلطة وانحراف وخيانة في مركز الحزب في بيروت، عندما كان هو لا يزال في الأرجنتين وأوصى رفقاءه هناك «بتنفيذ تعليمات

المركز» عملاً «بوحدة القيادة ووحدة السياسة ووحدة الحزب»، حسب تعبيره، وقد استفضنا في شرح ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

إن التهاون في الحفاظ على وحدة الحزب لا يمكن تبريره بالحرص على العقيدة، فالعقيدة لا يمكن لأحد ادعاء احتكار معرفتها والإيمان بها، وهي عصية على التحوير والتزوير والتحريف ولا فضل لأحد في صيانتها وحمايتها. إن تراث سعاده لهو مكتوب ومحفوظ وهو ملك الأجيال التي إذا ما وُجد جيل منها يقصر عن فهمها وسبر عمقها وإدراك صحتها وضرورتها ولزومها لنهوض سورية من قبر التاريخ، فإن جيلاً بعده لا بد أن يأتي ويرفعها مشعالاً ونوراً يضيء لأمة هادية ومعلمة للأمم ظنها أعداؤها ميتة.

إن عملية شق الحزب أصبحت اليوم عقدة ذنب تلاحق كل الذين قاموا بها أو أيدوها أو ما زالوا يدافعون عنها ويبررونها، والدليل على ذلك هو أن «وحدة الحزب» بقيت الهاجس المرافق لجميع القوميين الاجتماعيين هنا وهناك وهنالك حتى الذين منهم من لا زال يتشبث بمبررات أثبت التارخ أنها ليست بمبررات أبداً.

إن الخطأ الكبير القاتل الذي وقع فيه من شقوا الحزب سنة 1957، كما في سنة 1974 وسنة 1987 هو خطأ، بل مرض، النزعة الفردية القاتلة وخطأ عدم الاقتداء بسعاده في طريقة معالجة الانحراف العقائدي والسياسي. لقد رأينا كيف أن سعاده الذي رأى الانحراف العقائدي والسياسي يذر قرنه في مركز الحزب في الوطن، وهو يرى ويراقب من الأرجنتين، كان شديد الحرص على وحدة الحزب ووحدة سياسته رغم مرارته التي عبّر عنها في رسالته لمعروف صعب في 21-9-46 وفي تجنبه تسمية الانحراف انحرافاً قبل مواجهة المنحرفين ومناقشتهم، وبدلاً من ذلك سمّاه «بالأساليب السياسية الاختبارية الجديدة»، وتجنبه اتخاذ التدابير من بعيد حرصاً على منع نشوء أي تمرد محتمل، وانتظاره حتى عودته ليستعمل سلطته الدستورية ويضرب ضربته القاضية للانحراف والمنحرفين.

لو أن الانحراف كان هو المبرر الأول لقيام عبد المسيح بانتفاضته، وليس الصراع على السلطة، لكان يجدر أن يطيع النظام ويخضع له، حتى ولو كان مظلوماً، ويثق بأن القوميين الاجتماعيين سينصفونه ويعطونه حقه كاملاً ولو بعد حين، إن عبد المسيح لم

ينتفض ولم يتمرد خلال انحراف نعمة ثابت ورهطه خلال غياب الزعيم، فلماذا ينتفض ويتمرد سنة 57؟ عبد المسيح يقول إنه لم ينتفض ولم يتمرد في المرة الأولى لأن سعاده كان سيأتي ويضع حداً للانحراف، وإنه في المرة الثانية سنة 57 كان سعاده قد استشهد. لكن استشهاد سعاده لا يعطي عبد المسيح القدرة في الحلول مكانه لوضع حد للانحراف دون شق الحزب. إن سعاده قد استشهد ولكن بقي تراثه المكتوب العصي على التحريف وبقيت تجربته وقدوته في معالجة الانحراف من دون انشقاق.

محاولة الاشتراك بالسلطة الحزبية قبل الانشقاق

إن الانشقاق أتى بعد مفاوضات ومساومات ومحاولات لاقتسام السلطة، ولم يكن في هذه المحاولات أي شرط حول العقيدة حيث الانحراف عن العقيدة لم يكن مطروحاً أبداً ولم يكن أحد يثير هذا الموضوع. كل المحاولات كانت حول كيفية الحصول على أعلى مقدار وأكبر حصة من السلطة. وفي تلك المساومات برزت أساليب الخداع والمراوغة والمناورة بشكل واضح مما لا يتفق أبداً مع المناقب القومية الاجتماعية، أي مناقب الصراحة والنزاهة والصدق والحرص على مصلحة الحزب وجعلها فوق النزعات الفردية والمصالح الفئوية. ولعل المقطع الذي سنورده الآن من بيان «الإعلان- النداء» من كتاب وثائق الانتفاضة ما يعطي مثلاً واضحاً عما نقول:

«... وفي اليوم ذاته 13-10-57 أصدر رئيس الحزب (أسد الأشقر) مرسوماً حلّ به مجلس العمد وعيّن الأمناء جورج عبد المسيح عميداً للإذاعة، فاضل كنج عميداً للمالية، محمد يوسف حمود عميداً دون مصلحة ويوسف قائد بيه عميداً دون مصلحة، بالإضافة لإبقاء الأمناء سامي الخوري للثقافة والخارجية وعلاء الدين حريب للداخلية ورئيس الحزب للتدريب. وأبدينا نحن الأمناء الأربعة استعدادنا للتلبية أملاً في أن يكون بها ما يحفظ وحدة الصف وسلامة القضية على تخوفات وتحسبات وتحوطات لاحتمالات، منها حتمية إقصائنا عن المجلس الأعلى ليؤتى بسوانا من النوعية المسيطرة على أكثرية الأمناء الناخبين، ومنها احتمال رفض المجلس الأعلى استقالتنا من عضويته حتى لا يمكننا من التلبية والعمل كعمد، ومنها رفض بعض أعضاء مجلس العمد المنحل الانصياع للمرسوم كما كانوا قد هددوا سابقاً. وفيما نحن ننتظر تواقيع أعضاء مجلس العمد المنحل على تبلغ المرسوم لنتبلغه نحن من ثم ونوقع، وفيما لا يزال الأمين

جورج صليبي العميد السابق يرفض التبلغ والتوقيع، ينعقد المجلس الأعلى بجلسته الدورية لنسمع فيها حملة من بعض أعضائه على رئيس الحزب لأنه عيننا عمداً قبل موافقتهم، ولنسمع فيها رسالة من الأمين إنعام رعد عضو مجلس العمد المنحل يشكو فيها رئيس الحزب ويثير شائعات تمس بعض العمد المعينين بالمرسوم...الخ.»

هكذا كان الجو وهكذا كانت الأزمة، مسألة صراع على السلطة وليس مسألة عقائديين ضد منحرفين عن العقيدة. إن القوميين الاجتماعيين في أي حال لا يمكن لأحد أن ينحرف بهم عن طريق زعيمهم وقضيته المقدسة عندهم، ولا خوف من الانحراف أن يطيح بهم في مهاويه، ذلك لأن لهم من تجربة سعاده مع هذا الانحراف درساً رائعاً حفظوه وتعلموا منه، وها هم يثبتون اليوم كما أثبتوا في كل يوم أنهم يتشبثون بقضيتهم تشبثاً قوياً كاملاً تاماً حتى ولو تراكمت جثثهم تطأها الأجيال القادمة سلماً ترتقيه نحو المجد. أما غير ذلك فإن نتيجة الانشقاق لم تكن إلا فقدان الحزب وقضيته لمصداقيتهما عند الشعب، وإضعاف معنويات الأعضاء، وقتل الروحية المتفوقة التي كانت وراء روعة ومثالية الإقدام والتضحية ونصرة الحقيقة حتى ولو كان ثمن نصرة الحقيقة بذل الدم والروح، هذه الروحية التي وصفها سعاده في عبارته المشهورة: «**صحة العقيدة وشدة الإيمان وصلابة الإرادة ومضاء العزيمة**».

الأمراض السياسية والاجتماعية

إن القضية الرئيسة التي لعبت دوراً في نشوء الأجواء السلبية المتشنجة التي ساهمت في قتل روحية «المثالية الأولى» التي نشأ عليها الحزب في حياة سعاده، هي قضية نشوء المنازعات والمماحكات والعنعنات والنزعة الفردية التي انغمس فيها الجميع والتي لا تخضع لضابط من قانون أو حق عام. وهذه القضية كان سعاده قد تنبه إليها باكراً واستبق نشوءها وعالجها بالنظام، قال: «**وقد جعلت نظامه فردياً في الدرجة الأولى مركزياً متسلسلاً منعاً للفوضى في داخله واتقاء لنشوء المنافسات والخصومات والتحزبات والمماحكات وغير ذلك من الأمراض السياسية والاجتماعية، وتسهيلاً لتنمية فضائل النظام والواجب**» (**من سجن الرمل بيروت 10 كانون أول 1935**). إن هذه الأمراض السياسية والاجتماعية عادت وتفشت في غياب سعاده وخلقت أجواء بشعة غريبة عن أصالة النهضة القومية الاجتماعية ولا زالت مستمرة حتى اليوم وهي تهدد روح

الجماعـة وشروط التضامن والتعاون والثقة الضروريين لكل عمل خطير وكبير. في كل الجماعات إطلاقاً تنشـأ خلافات وتبرز عنعنات وهذه يتـم علاجها بالنظام والاحتكام له وبالتدابير الإدارية مثل التنبيه أو التحذير أو حتى الفصل والبتر لإبقاء جسم الجماعة صالحـاً ومؤهلاً للعمل والإنتاج، والواعون لمعنى النظام وأهميته يخضعون له حتى ولو شـعروا أنهم مظلومون، فالخضوع للنظام مع الظلم أفضل بكثير من التفلت والفوضى المؤديين حتماً للخراب والدمار. إن أسـاليب الاتهامـات العلنية غير المضبوطة بالنظام، وأسـاليب التجريـح والتخويـن، وأن يجعل شـخص معين نفسـه مرجعـاً للحكم على النـاس وتقييمهم خارج مرجعية المؤسسـات المعنية وحدها بالحكم والتقييم، فإنه لأمر من أخطر المخاطر وأكثرها أذية وضرراً. طبعاً هناك حالات من عدم الثقة بمؤسسـات وأجهزة أثبتت بالتجربة عدم أهليتها بأن تُطاع، لكن على المتضررين منها سحب ولائهم لهـا والابتعاد إذا ما يئسـوا من إصلاحها، ولا يحق لهم لا قانونيـاً ولا أخلاقياً اغتصاب سلطتها اغتصاباً.

إبراهيم يمّوت يشهد

إن تصويـر الانتفاضـة بأنه قام بها عقائديون ضـد منحرفين هو غير صحيح، لم يكن الخـلاف على العقيدة بل على السـلطة. وهو خـلاف ظهر للعلن بدءاً من سـنة 54، أي قبـل ثلاث سـنوات حـين لم تكن العقيدة مـدار جدال أو خلاف مـن أي نوع. حتى إن الفسـاد المالي الـذي كان موضوع اتهام المنتفضين ضد خصومهـم لم يكن أيضاً مطروحاً سـنة 54 ولا سـنة 55 بل إن طرحه والحديث عنه بدأ بداية سنة 56 وعبد المسيح رئيساً، أي إن مسـؤولية ضبط تدفق المال السياسي وتدفق السلاح للحزب من المحور العراقي الإنكليـزي، أي مـن حلف بغداد، هي مسـؤولية السـلطة التنفيذية، وعلى رأسـها عبد المسيح وليـس المجلس الأعلى الـذي انتفض عليه عبد المسيـح، وها هو الخـازن العام إبراهيـم يمّـوت وهو أحد أقطاب الانتفاضة يشـهد كـما يلي: «كنـت لا أزال عضواً في المجلـس الأعـلى وخازناً عاماً في الحزب، وكنت بصفتي الثانيـة بدأت أتلقى عن طريق عمـدة الماليـة أموالاً غير واضحـة المصدر، وكنت أعلم أن أمـوالاً أخرى ترد إلى بعض العمدات دون أن تمر علي. كما كنت أتلقى أوامر صرف لحساب العمدات دون أن تذكر تفاصيلها، وكنت أعرف أن بعضاً منها يذهب لشراء سلاح، وذلك من بعض التفاصيل

المسجلة. تداولت وعبد المسيح بهذا الأمر ولفته إلى المسؤولية المترتبة عليه وعلى الحزب، إذ لا يجوز أن يدخل أي قرش أو يصرف أو يشترى سلاح دون علمه وموافقته فضلاً عن موافقة المجالس الحزبية. قدمت استقالتي من الخزانة العامة وأخبرت عبد المسيح أني لا أريد أن أشترك في عمل لا نظامي ولا دستوري وأشرت عليه بأن يستقيل هو إذا لم يكن بإمكانه القبض على الأمور وتصويبها (الحصاد المر ص 301).

أما الانحراف السياسي فنحن نعرف أن سياسة الحزب ترسمها السلطة التشريعية أي المجلس الأعلى وتنفذها السلطة التنفيذية أي رئيس الحزب ومجلس العمد تحت إشراف الرئيس. ولم نعثر إطلاقاً على أية وثيقة من المتفضين أو المتفض عليهم تبين وجود أي نزاع حول سياسة الحزب بين الطرفين. وإذا كان قد وُجِد انحراف في العلاقات السياسية أو في تبني سياسات مخالفة عن تلك التي أقرها الحزب في مجلسه الأعلى، فالمسؤولية هي مسؤولية السلطة التنفيذية، أي الرئيس وليس المجلس الأعلى. مسؤولية الرئيس أن يضبط وينفذ سياسة الحزب المرسومة في المجلس الأعلى ويمنع أي انحراف عنها، وإذا لم يكن يستطيع ذلك فالملامة تقع عليه والتقصير يكون منه.

وعبدالله سعاده يستفيق... ويشهد

في غمرة الأزمات الانشقاقية التي حدثت عند «المركزيين» بين 1974 و1987 وفي اجتماع لمنفذية بيروت بمناسبة أول آذار 87 يخطب عبدالله سعاده قبل أن يداهمه الموت بأربعة أشهر فقط ويقول إن العلة في القيادة وأنا منها، لا أتهم غيري وأبرئ نفسي، أحمل قسطي من هذا الخطأ. مرسوم رتبة الأمانة لو طبقناه كما نصّه المعلم لطالبت أنا بإعفائي من شرف الأمانة. الحمدلله الذي أغنانا بكثرة الأمناء شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لغايات انتخابية. أعيّنك أميناً فتنتخبني، تنتخبني أسدي لك مصلحة في الحزب. يقول عبدالله سعاده في خطابه الذي نقله إبراهيم يمّوت في حصاده صفحة 435: «نتكلم عن عقيدتنا وبعضنا من المفكرين يسترق سواقي من عقائد أخرى وتقتبل نفسه حاملي عقائد أخرى بغية أن يأخذ رخصة باليسار. نحن التقدم ونحن اليسار، أما الذين يتملقون القوى ليكسبوا بها ثمناً رخيصاً فويل لهم مما قالت ألسنتهم وويل لهم مما يكسبون. هؤلاء تجار في الحزب وليسوا قوميين... الأزمة الحزبية هي في القمة السلطوية، في القمة الهادفة إلى الاستمتاع بالسلطة والتي تزين لنفسها تسخير المبادئ والنظام والدستور من أجل

استمرار سلطويتها في الحزب. نحن لا نقبل في حزبنا متسلقين على سلالم نضال القوميين الاجتماعيين، لا نقبل في حزبنا متوسلين رضى قوى غير قومية اجتماعية، أما من التمس الرضى والقوة المستعارة من الخارج فليس له الحق في أن يكون قومياً اجتماعياً ولا تحميه أي سلطات شكلية دستورية. عندما نحن نتقاتل كيف لنا أن نندد بقتال الطوائف، حزب الأمة وحزب الوحدة الروحية وحزب القضية الصريحة الواضحة بقلم المعلم وقدوته ونضاله لا يسمح فيه بالاتجاه إلى مآرب سلطوية فئوية. كل فئوي في حزبكم ليس قومياً اجتماعياً ولو تزين بألف دستور وشكل دستور.»

أما في 4 نيسان من سنة 1987 نفسها، وفي بيان صحفي نشره في جريدة النهار يقول عبدالله سعاده: «...إن الصراع على السلطة أصبح العلة في حزبنا ومن أجل تثبيت هذه السلطة جرى اللعب بالسلطة وبالأمناء. إن كل ما يقال عن خلافات فكرية أو سياسية هو من باب ذر الرماد في العيون».

وكان عبدالله سعاده نفسه، عندما كان في السلطة، يمارس ما صار يرفضه اليوم وينتقده، ألم يقل: «أحمل قسطي من هذا الخطأ»؟ فقد عقد اتفاقاً مع ياسر عرفات أوائل السبعينيات ينص على ما يلي: أولاً، الموافقة على إشراك القوميين الاجتماعيين بفصائلهم الحزبية تحت قيادة غرفة عمليات فتح. ثانياً، يؤمن الحزب الفصائل الثورية وتتعهد فتح بتسليحهم وتدريبهم وتكليفهم بعمليات ضمن مخططاتها واعتبارهم مناضلين فتحويين عليهم في فتح ما على الفتحويين من واجبات ولهم ما للفتحويين من حقوق (أوراق قومية صفحة 223). ولا يخفى أن هذا الاتفاق لا يعني أكثر من بيع القوميين الاجتماعيين أو تأجيرهم لفتح. وهكذا يكون عبدالله سعاده قد وافق على ما رفضه الزعيم سنة 48. ولا بأس هنا أن نورد ما أوضحه سليم سعدو سالم عن هذه المسألة وهو كان شاهد عيان. يقول سالم إنهم كانوا يلتقون في الكويت في منزل خالد الحسن، هو وعرفات والياس مسوح وخالد وأخواه علي وياسين. وفي أحد اللقاءات طرح الياس مسوح مسألة أن تقوم فتح بتسليح الحزب ليقوم بدوره في المقاومة، موقف ياسر عرفات كان نسخة عن موقف «اللجنة العربية العليا» في فلسطين سنة 1948، وكان سليم سعدو سالم شاهداً عياناً هناك أيضاً ومشاركاً في مفاوضات تسليح الحزب في ذلك الوقت. ياسر عرفات رفض بشكل قاطع تسليم أي سلاح للحزب ليستعمله

القوميون باسم الحزب، ولم يقبل إلا أن يقاتل القوميون تحت لواء فتح وبقيادتها (ص 41– 42). ونحن إذ نطلع على هذه الوقائع اليوم نتذكر أن ميزانية حركة فتح كانت سعودية المصدر، وما إدراك من هم وراء الحكام السعوديين، ويبدو أن سلاح فتح كان ممنوعاً أن يُستعمل إلا كما ترسمه له المراجع التي مولته. ونتذكر أيضاً، مع سالم، اتصالات الرفقاء مع كبار المسؤولين الذين يمثلون اللجنة العربية العليا في حيفا، حيث كانت النتيجة هي نفسها دائماً: «لا سلاح للقوميين. نقدر لكم وطنيتكم وصلابتكم ونعرف مقدار إخلاصكم ولكن لا نستطيع التعامل معكم كحزب خارج تنظيمات الهيئة العربية العليا وخارج قيادة سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني... نقول لهم لكن توزعون السلاح على الجميع على النوادي والجمعيات والهيئات المحلية وعلى كل قبضاي وصاحب عضلات فلماذا لا ينالنا نحن شيء منه؟ فيأتي الجواب: إنها أوامر عليا يمكنكم أن تحاربوا ضمن صفوف قوات الهيئة العربية العليا، أعطونا رجالكم ونحن نسلحهم ليحاربوا ضمن صفوف الهيئة العليا وتحت قيادة سماحته أو أن ندمجهم بجيش الإنقاذ الذي يجري الإعداد له...» (سليم سعدو سالم ص 35)

كيف عاد عبدالله سعاده رئيساً للحزب؟

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، كما يقول المثل، سنذكر هنا أيضاً أن عبدالله سعاده بعد خروجه من السجن سنة 69 صار رئيساً للحزب بطريقة غير شرعية. فالمجلس الأعلى الذي انتخبه ارتكب مخالفتين وخطأين في انتخابه، الخطأ الأول إجرائي يشرحه الأمين محمد البعلبكي الذي يقول: «...إن القوميين الاجتماعيين فوجئوا بتسرع المجلس الأعلى الجديد في انتخاب رئيس جديد للحزب تسرعاً أطاح بأحكام النص الصريح في المادتين التاسعة عشرة والعشرين من قانون الانتخاب العام وهما المادتان اللتان لا تبيحان للمجلس انتخاب رئيس للحزب قبل انقضاء خمسة عشر يوماً تلي انتخاب أعضاء المجلس الأعلى وتقدم خلالها الترشيحات للرئاسة. فقد جرى انتخاب الرئيس بعد ستة أيام فقط من انتخاب أعضاء المجلس الأعلى الجديد في جهل فاضح أو تجاهل صارخ لما نصت عليه المادتان المذكورتان. وكأن المجلس أسير الانفعال يمضي لاهثاً لضمان انتخاب شخص معين سالباً بذلك الحق الدستوري لكل قومي اجتماعي في أن يرشح نفسه ضمن المهلة القانونية. (من رسالة محمد بعلبكي للمجلس بتاريخ

18 تشرين الثاني 1970). أما الخطأ الثاني فهو خطأ جوهري خطير هو «أن المجلس الأعلى قد انتخب للرئاسة رفيقاً كان المجلس السابق قد أوصى بقرار رسمي بمحاسبته ومحاسبة سواه من المسؤولين عن أحداث 58 وأحداث المحاولة الانقلابية قبل إسناد أية مسؤولية مركزية إليهم» (نفس المصدر). علماً أن عبدالله سعاده نفسه كان بعد خروجه من السجن قد أعلن للقوميين وجميع المواطنين أنه لن يعود لتحمل أية مسؤولية حزبية قبل محاكمته أمام المحكمة الحزبية العليا التي ستنبثق عن السلطات الدستورية الجديدة. والمضحك هنا هو أن المادة 26 من القانون الدستوري التاسع قد نصت على أن رئيس الحزب هو الذي يقترح هيئة المحكمة الحزبية العليا على المجلس الأعلى الذي يعينها بناء على هذا الاقتراح. فرئيس الحزب المنتخَب الآن هو الذي سيقترح هيئة المحكمة التي ستحاكمه! (نفس المصدر)

نقدم هذه الشهادات والوقائع لكي نصل إلى النتيجة التي أكدنا عليها مراراً وتكراراً وهي أن الخلاف والنزاع كان على السلطة وليس على أي شيء آخر، وأن جميع القيادات التي توالت على الحزب بعد استشهاد الزعيم قد انغمست في هذا الصراع، وهي لو اقتدت بسعاده وسارت على نهجه وتمسكت بنظامه لكان تاريخ الحزب قد تغير تغيراً كبيراً، ولما حدث انشقاق وانقسام ولكان الحزب في وحدته ووحدة قيادته ووحدة سياسته قد عالج مشاكله وعثراته واستفاد منها في سيره كما كل الأجسام الحية النامية التي تتعرض في سيرها لكل أنواع المصاعب والعثرات. أما الصراع الفئوي على السلطة فلم يؤد إلا إلى الانشقاق والانقسام، وهذا الانشقاق والانقسام لم يؤد إلا إلى تراجع مريع لا زال يتخبط فيه من سببوه ومن ساروا به إلى اليوم، وإن استمرار الحزب وبقاءه على قيد الحياة إنما هو بالرغم من قياداته التي تهاونت وسببت انشقاقات متتالية، وليس بفضلها. إنه استمرار مستمد من قدوة سعاده نفسه، هذه القدوة التي لا زالت متوهجة بعد سبعين سنة من استشهاده، وليس مستمداً من أي شيء آخر أبداً.

كيف استقال عبد المسيح وكيف طرد؟

نعود الآن إلى سياق سردنا التاريخي، ولا زلنا في مرحلة الانشقاق الأول، ونزود القارئ بنموذجين اثنين عن الأساليب الملتوية الفاضحة للصراع على السلطة، واحد عن كيفية استقالة ثم طرد عبد المسيح والثاني عن كيفية حدوث الانشقاق.

في وثائق مراحل الانتفاضة نقرأ: «...استقال العم مفسحاً المجال لتلك الفئة المخربة الانحرافية مجال العمل على مسؤوليتها وآملاً في أن تستطيع بانسجامها مع بعضها أن تحرك العمل الحزبي باتجاه لعله يكون في مصلحة الحزب! (من بيان رئيس مجلس الأمناء إبراهيم يمّوت- مراحل الانتفاضة). ويقول يمّوت في نهاية بيانه: «إننا حاولنا أن نجنب الحزب هزات قد تعرقل سيره وكانت الثقة لا تزال تراودنا في أن يرتدع الضالون عن ضلالهم، هذه الثقة اللامتناهية في أصالة النفس السورية والتي خذلها بعض الذين فسدت نفوسهم بما لا يقبل العلاج». لكن «الثقة اللا متناهية» قد انتهت، والحزب قد تعرض لأكبر هزة في تاريخه، وسيره انحرف 180 درجة وعاد القهقرى، وكل ذلك بسبب الانشقاق.

الملفت هو كيفية تبرير وشرح أسباب استقالة عبد المسيح. ففي الوقت الذي يبرر فيه عبد المسيح ومن معه تمردهم وانتفاضتهم وشقهم للحزب بأنه كان يجب إنقاذ الحزب من المنحرفين المنجرفين وإزاحتهم عن قيادة الحزب وإعادة تكوين مركز يستجيب له الرفقاء (التعميم الأول- مراحل الانتفاضة) كان عبد المسيح ذاته ومؤيدوه ذاتهم قد عملوا على «فسح المجال لتلك الفئة المخربة الانحرافية للعمل على مسؤوليتها آملين أن تستطيع بانسجامها مع بعضها أن تحرك العمل الحزبي باتجاه لعله يكون من مصلحة الحزب»! ساعة يجب إنقاذ الحزب منهم وساعة يمكن المراهنة عليهم لتحريك العمل باتجاه «لعله» يكون لمصلحة الحزب! أنستقيل من قيادة الحزب احتجاجاً على انتشار تهمة الضلوع بمقتل المالكي، وأيضاً لإفساح المجال لغيرنا لعلهم يحقون مصلحة الحزب، ثم نعود ونتشبث بالقيادة، حتى ولو أدى هذا التشبث لشق الحزب، لأسباب ضرورة بقائنا وعدم صلاحية غيرنا؟! هكذا فإن الأسباب المعلنة للاستقالة لم تكن حقيقية ولم تكن منطقية ولم تكن صادقة. إنها المناورات وأساليب الالتفاف والخداع والكر والفر مما لا يتفق أبداً مع نظام سعاده والعقلية الأخلاقية الجديدة التي علّمها ومارسها في حياته وفي استشهاده.

ومن جهة أخرى، نرى نفس الأساليب الملتوية يستعملها خصوم عبد المسيح الذين طردوه لأنه «المجرم الأكبر». إذا كان عبد المسيح هو المجرم الأكبر فلماذا لم تقبل استقالته؟ وإذا كان عبد المسيح متسلطاً وعنيداً وفردياً ومستبداً فلماذا لم تقبل استقالته؟

الجـواب هو أن خصوم عبد المسيح يريدون إزاحته ليس فقـط من قيادة الحزب بل من الحزب. إن رفض استقالته المتكررة لم تكن كافية للتخلص منه ومن وجوده في صفوف الحزب. إن الصراع على السـلطة كان «يا قاتل يا مقتول» وكأن حزب سـعاده هو إرث لهذه القيادات وحقٌ وملكٌ لها تتقاسمه أو تتقاتل عليه.

لقـد آن الأوان، ومن زمـان وقبل اليوم، أن يدرك الأعضـاء القوميون الاجتماعيون المخلصـون المؤمنون الأبريـاء أنهم كانوا ولا يزالـون بيادق وأحجـاراً يحركها المالكون الوارثـون الذيـن قتلوا سـعاده أكثر من مـرة واحدة. لقـد آن الأوان ليـدرك القوميون الاجتماعيـون أن الخـلاف الذي زجهم فيه هـؤلاء العابثون لم يكن خلافـاً على العقيدة ولا على الخط السـياسي كما روجوا ويروجون وكابروا ويكابرون ويسـتمرون بالمكابرة والمجادلة ستين سنة وهم مستعدون للاستمرار ستين سنة أخرى. إن سعاده قد استشهد ليـورث رفقـاءه تاريخاً من الفداء والصراع حتى الموت من أجل تحقيق الهدف الأسـمى المعلن في غاية الحزب وليس من أجل تحويل الحزب إلى ميدان لصراعات تناحرية داخلية دمرته وأبعدته عن الشـعب. إن سـعاده قد اقتحم الموت واستشهد ليورث شعبه وأمته تاريخـاً مـن البطولـة الاجتماعية من أجل قضيـة قومية عامة هي قضيـة حياته ومصالحه ومصـيره، وليـس من أجـل أن يورث شـعبه وأمته أحزابـاً أو أجزاء من أحزاب تسـير على نفس الأسـاليب الفاسـدة التي كانت من أسـباب محنته وقعوده عن طلب الوحدة الاجتماعية والقومية وبقائه في حضيض الانقسـامات والضعف والعبودية. إن سـعاده قد استشـهد ليورث شعبه وأمته نموذجاً من نهضة وحركة وحزب «ذا أساليب جديدة يسـتمد قوتـه من القومية الجديـدة...» وليس حزباً سياسـياً عاديـاً، أو أقل، يضاف إلى الأحزاب السياسية التقليدية الموجودة ويصبح في انقساماته أصغر منها وأضعف.

شريط سريع للأحداث الحزبية، قبل تهريبة الطرد

بعدما استقال عبد المسيح من رئاسة الحزب ورفضت استقالته، ثم أصر على استقالته عدة مرات ثم اعتزل حتى قبلت وانتخب الأمين مصطفى أرشـيد رئيسـاً مطلع صيف 56، وهو نائب منطقة جنين في الضفة الغربية من نهر الأردن في فلسطين، وقد توفي بعد فترة حوالي سـتة أشـهرمن انتخابه قبل أن يتم انتخاب أسـد الاشـقر مكانه في 7 شـباط 57. هذه الفترة القصيرة كانت كافية لنشوء محاور وتكتلات فئوية في القيادات العليا لها

امتداداتها في الصف الحزبي، كما شهدت هذه الفترة انتخاب مجلس أعلى جديداً وزيادة في التورط والانحياز للخط السياسي الأميركي رافقته حالات تمرد وعدم انضباط وبلبلة فاقمها مرض الرئيس الجديد وعدم تمكنه من القبض على ناصية الأمور، وزادها تفاقماً قعود عبد المسيح ورفضه التعاون مع الرئيس الجديد أرشيد. فالأمين حسن الطويل قام بحملة تنديد «بالجناح الأميركي اليميني»، كما سمّاه، في الحزب وأصدر عدة بيانات وزعها على القوميين في سابقة اعتبرت أنها كانت انتفاضة سبقت انتفاضة عبد المسيح ومهّدت لها. حوكم حسن وجُرّد من رتبة الأمانة ثم طرد لاحقاً في حزيران 57 ولم يعمم قرار طرده إلا في أيلول. والفريق المقابل لحسن الطويل بدوره لم يقصر أبداً في الممارسات اللانظامية اللامعهودة في حزب عرف بالتشدد في ممارسة النظام، فأرسل بعض المسؤولين في الخط المصنف أميركي يميني رسائل وبيانات غير نظامية موجهة إلى منفذيات بكاملها في الوطن وعبر الحدود. كما سافر البعض منهم إلى بعض المغتربات ليشرحوا وجهة نظرهم ويستقطبوا الرفقاء هناك. يقول يمّوت في هذا الصدد: «بدا أن المعركة كانت معركة وجود وخرجت عن المألوف من تقاليد الحزب ونظامه. كل فريق يحشد فيها كل الإمكانيات المتاحة ويستعمل كل الأساليب بغض النظر عن تأثير ذلك الخروج عن النظام على مسيرة الحزب وتماسكه» (صفحة 317).

في هذه الأجواء بالذات تألفت «لجنة جمع معلومات» حول مقتل المالكي مؤلفة من عبدالله قبرصي وعيسى سلامة ومصطفى عبد الساتر. المجلس الأعلى لم يجر تحقيقاً، وكلما كان يُسأل عن التحقيق يجيب رئيسه عبدالله قبرصي بأن هناك معلومات تجمع وعندما تستكمل المعلومات ترفع للمجلس الأعلى الذي يحيلها للتحقيق أو الحفظ. (شهادة للحقيقة لمحمد يوسف حمود في 9-11-57، من كتاب وثائق الانتفاضة). لكن اتهام عبد المسيح انتشر على ألسنة أمناء كثيرين وصار الصف الحزبي يضج به قبل إجراء أي تحقيق، فعقد مجلس الأمناء جلسة بدعوة من رئيسه إبراهيم يموت سأل خلالها عبدالله قبرصي عن صحة الاتهام ومصير التحقيق فكان جواب قبرصي: «إني أعلن براءة الحزب مؤسسات ومسؤولين من تهمة اغتيال المالكي». ويقول محمد يوسف حمود متابعاً: «...وأخيراً بعدما انفجرت أزمة الوضع الداخلي الانفجار الذي تعرفون عقد المجلس الأعلى جلسة مستعجلة رُفع إليه فيها التحقيق(؟) وخُتم، واعتبر المجلس نفسه محكمة تنظر في الدعوى(؟) متجاهلاً وجود المحكمة المعينة(؟)، وحكم مجرِّماً

عبد المسيح وطرده بالسرعة التي يمليها التصميم (المسبق)».

هنا لا بد لنا من ذكر رد عبدالله قبرصي على مسألة تبرئته الحزب مؤسسات ومسؤولين من تهمة اغتيال المالكي. يقول قبرصي بتاريخ 11 كانون أول 1971 ويوضح أن المجلس الأعلى سنة 55 كلف لجنة منه مع مصطفى عبد الساتر وأحمد حمود للتحقيق في اتهام الحزب بمقتل المالكي، وأن اللجنة صرحت للمجلس بأن الحزب بمؤسساته وأفراده بريء من التهمة حتى يثبت العكس، ولم يقصد من التصريح التبرئة النهائية. وأن المجلس كان قد كلّف عميد القضاء المحامي سليم عثمان باستجواب مخلوف والدبوسي اللذين صرحا له أن عبد المسيح وإسكندر شاوي حرضاهما، وقد صرحا بمثل ذلك للأمينة الأولى.

نعود إلى شهادة محمد يوسف حمود، حيث تستوقفنا عبارة «متجاهلاً وجود المحكمة المعينة»، فقد كان يوجد محكمة حزبية لا نعرف عنها الآن الشيء الكثير. نعرف فقط أن رئيسها آنذاك كان أسد الأشقر، وذلك من نص ناقص لتعميم حزبي رقم 4- 23 لقرار للمجلس الأعلى في جلسته تاريخ 9 كانون الثاني 1955 بانتخاب أسد الأشقر رئيساً للمحكمة والأمينين جورج.... (هنا واختفى باقي التعميم، إنه موجود في النشرة الرسمية تاريخ 15 شباط 1955 صفحة 17، فمن معه هذه النشرة- الوثيقة فليكمل نص هذا التعميم). لكن المؤكد أن المجلس الأعلى لم يكلف هذه المحكمة بتولي القضية، لأنه كان مستعجلاً جداً ومشغولاً جداً في الصراع على السلطة، بل إنه اعتبر نفسه محكمة حاكمت وحكمت على عبد المسيح بالطرد ولم يستمع إلى مرافعته ولم يعطه مهلة وفرصة للدفاع عن نفسه، أي إن المجلس لم ينعقد كمحكمة على أساس قانون عقوبات معين محدد معروف ولا على أساس نظام محاكم وإجراءات وأصول محاكمة حقيقية عادلة. كل ما في الأمر أنه انعقد وقرر أن عبد المسيح هو مسؤول عن قتل المالكي، وطرده. دعك الآن من أسباب وحيثيات ودلائل «ثبوت التهمة»، فهذه القضية هي قضية صعبة ومعقدة وإن مرور ستين عاماً عليها الآن لم يزدها إلا غموضاً وصعوبة، بل دعنا ننظر إلى الإجراءات الشكلية التي تمت فيها المحاكمة. أليست شكليات محاكمة الزعيم وإعدامه هي أفضل وأكمل من شكليات محاكمة عبد المسيح وطرده؟ تلك كان فيها استجواب ومحامو اتهام ودفاع ومرافعة ثم مذاكرة ثم إصدار حكم ثم لجنة عفو ثم

تصديق حكم ثم إعدام. أما هذه فلم يكن فيها شيء من ذلك أبداً. كيف يقبل المجلس الأعلى المفترض أن يكون ملتاعاً من طريقة محاكمة الزعيم التي كانت أشبه بجريمة اغتيال، كيف يقبل أن يكون هو أقل عدالة من الذين اغتالوا الزعيم وقتلوه؟! قالوا إنهم استدعوا عبد المسيح ولم يحضر، وقال هو أنه لم يتمنّع عن الحضور بل اعتذر لعدم توفر وسيلة نقل وهم لم يبلغوه مسبقاً ويعطوه مهلة كافية للحضور... وكل ذلك هو محاججات وتفاصيل صغيرة كان يمكن معالجتها بسهولة في محكمة ومحاكمة جدّية ومستقلة.

كيفية حدوث الانشقاق

بتاريخ 24-10-1957 وقع الانشقاق «رسمياً» بانتخاب مجلس أعلى ورئيس للمنتفضين- المنشقين. فقد أصدر المنتفضون- المنشقون «التعميم الأول» رقم 1-25 افتتحوه بعبارة تحذر من الانشقاق(!!) هكذا: «بعدما باتت هذه الحالة الشاذة تنذر بخطر انشقاق الصف السوري القومي الاجتماعي وتشتيت الرفقاء واتضاح عجز المتسلطين على المركز عن قيادة الحركة السورية القومية الاجتماعية التي لا تستجيب إلا لقيادة المعبرين عن النظام الجديد بعقيدته وتعاليمه ودستوره وقوانينه». هكذا تم افتتاح بيان الانشقاق وخرق النظام والدستور والقوانين: بالتحذير من الانشقاق وخرق النظام والدستور والقوانين! أنقذوا الحزب من خطر الانشقاق... بالانشقاق! إنهم يعرفون أن الانشقاق جريمة ويعرفون أن القوميين الاجتماعيين يرفضون الانشقاق، فاستهلوا بيان انشقاقهم بتحميل غيرهم وزر انشقاقهم. يتابع التعميم: «فوجه رئيس مجلس الأمناء الأمين إبراهيم يمّوت دعوة إلى فريق من أمناء الحركة فلبوها واجتمعوا أياماً وليالي متوالية تدارسوا فيها الوضع وواجهوا حقيقة الأزمة ممارسين مسؤولية الأمانة... وقرروا جعل عدد أعضاء المجلس الأعلى تسعة... وبعد الاقتراع السري والفرز أعلن انتخاب الأمناء حسن الطويل، إبراهيم يمّوت، فاضل كنج، محمد يوسف حمود، جميل مخلوف، منيب حسيني، يوسف قائد بيه، إسكندر شاوي، حنا كسواني، أعضاء المجلس الأعلى للحزب... وفي تمام الساعة الثانية من صباح الخميس 24-10-57 عقد المجلس الأعلى برئاسة رئيسه إبراهيم يمّوت جلسة اتخذت فيها القرارات التالية: أولاً، إعلان لا شرعية الهيئة القائمة قبل إعلان المركز والتي كانت مكونة كمجلس أعلى من

الأمناء عبدالله محسن، حسن جمال، يوسف دعيبس، أديب عازار، إميل رعد، مصطفى عـز الدين، أحمـد جميل حمود، الياس جرجـي قنيزح، وإعلان لا شرعيـة الهيئة التنفيذية القائمة قبل إعلان المركز والتي كانت مكونة كسـلطة تنفيذية من الأمناء أسـد الأشقر، سـامي خـوري، علاء الدين حريب، أنيـس فاخوري، إنعام رعـد. ثانياً، إعلان بطلان الأحـكام والقـرارات الصادرة عن هيئة المجلس الأعلى السـابقة بحـق الأمناء طرداً أو توقيفـاً، لعدم صحـة التحقيق والحيثيات التي بنيت عليها الأحـكام والقرارات ولعدم دسـتورية الهيئـات الحاكمة والمقررة. ثم عقـد المجلس الأعلى جلسـة خاصة لانتخاب رئيس للحزب، وبعد الاقتراع السري والفرز أعلن انتخاب الأمين جورج عبد المسـيح لرئاسـة الحزب بالإجماع، وتقرر اسـتدعاءه لأداء قسم المسـؤولية فحضر وأدى القسم. ثم عقد المجلس الأعلى جلسة قرر فيها بعد المناقشة في الأسباب: تعليق رتبة الأمانة عن حامليها كافة على أن يعاد النظر في اسـتحقاق كل منهم لها خلال سـتة أشهر». ولم ينس المنشقون اختتام قرار الانشقاق باسم سورية وسعاده!!.

واضـح أن هذا التعميم هو تعميم لانقلاب اتخذت فيه قرارات انقلابية لا دسـتورية مثل: قرروا جعل عدد أعضاء المجلس الأعلى تسـعة، دعوا **بعض الأمناء** وليس كلهم، أعلنـوا لا شرعيـة المجلس الأعلى القائم ولا شرعية السـلطة التنفيذية القائمة، وأعلنوا بطـلان الأحـكام والقـرارات الصادرة دسـتورياً عن الهيئات السـابقة، انتخبوا رئيسـاً للحـزب دون مهلـة لترشـيح أحد، قـرروا تعليق رتبـة الأمانة فعدلوا بذلك الدسـتور بطريقة لا دستورية....

وكان المنتفضـون في 23-10-57، أي قبـل يـوم واحـد مـن تعميـم الانشـقاق، قد أصـدروا بيانـاً تحت عنـوان «الأمناء يتنـادون» (يمّوت ص 469) حشـدوا فيـه أقوالاً للزعيـم تصف وضع الحزب وحالته الداخلية السـيئة خلال غيابه القسري والتي أدت إلى استشـهاده، لمقارنتها بوضع الحزب السيئ سـنة 57، ومن تلك الأقوال القول التالي الذي قاله في مقالة «قواعد الترشـيح للنيابـة في الحزب» تاريخ كانون الثاني 1949: «**إن الذي يتجنب الصراع ويزعم أن مشـاكل خصوصية مـن تجارية وغيرها تمنعه من القيام بالواجـب ليـس محارباً قومياً اجتماعيـاً ولا يجوز اعتباره صالحـاً لتمثيل مصلحة الحزب والتعبير عن القضية القومية الاجتماعية المقدسة وعن إرادة القوميين الاجتماعيين**».

وكم ينطبق هذا القول لسعاده على جورج عبد المسيح بالذات عندما استقال جورج عبد المسيح من عمدة الدفاع بعيد عودة سعاده إلى الوطن سنة 1947 في وقت كان سعاده بأمس الحاجة إليه، وكان قد رفض استقالته عدة مرات، تلك الاستقالة التي كان سببها المعلن هو أن عبد المسيح منهك وبحاجة لنقاهة ولوقت ليرمم أوضاعه الشخصية والاقتصادية.

الجدير بالذكر أن الأمناء الذين تنادوا وقرروا هم 12 أميناً من أصل 52 أميناً كانوا يحملون الرتبة آنذاك، انتخبوا من بينهم تسعة وهؤلاء التسعة قرروا تعليق رتبة 52 أميناً على أن يعيدوا النظر في استحقاق كل واحد من الـ52 خلال ستة أشهر، والستة أشهر صارت الآن أكثر من ستين سنة ولم تنته إعادة النظر بعد. تسعة اغتصبوا السلطة وعزلوا من عَداهم عن رتبته وسلطته معاً! والمضحك أن هؤلاء التسعة قد «استدعوا» عبد المسيح لأداء قسم المسؤولية وكأن عبد المسيح لم يكن هناك، إنه بريء من دم هذا الصديق، إنه فقط لبّى الاستدعاء، وهم قد انتخبوه بالاقتراع السري، فسرية الاقتراع ضرورية هنا من أجل الالتزام بأدق تفاصيل النظام والأصول النظامية!

إننا ندوّن هذه المعلومات هنا عن كيفية إعلان الانتفاضة- الانشقاق ليرى القارئ ويتحقق كيف أنها كانت أقرب ما يكون إلى «انقلاب» على الشرعية القانونية النظامية والدستورية باسم الشرعية والقانون والنظام والدستور، وليرى القارئ كيف تكون مبررات الانشقاق، أي انشقاق، مبررات متهافتة متناقضة تبدو لامعة وبراقة في البداية «بفضل» فساد الأوضاع التي يقوم الانشقاق ضدها، لكن سرعان ما تظهر نتائج الانشقاق الوبيلة والوخيمة وسرعان ما تؤسس لانشقاقات أخرى تستعمل نفس المبررات.

قضية الخارجين على النظام

المنتفَض عليهم، أي المركزيون، أصدروا مرافعة سمّوها «قضية الخارجين على النظام القومي الاجتماعي»، ركزوا فيها على آفة التمرد على النظام والخروج عليه وركزوا على شخصية عبد المسيح «ونواياه» دون أن يتطرقوا إلى ما كان المنتفضون يأخذونه عليهم، أي دون الدفاع عن أنفسهم بوجه تهم الفساد الإداري والمالي والأمني والسياسي التي

كانت تلاحقهم. المتفضون كانوا يعترفون بخروجهم عن النظام وإن كانوا يعتبرونه خروجاً شكلياً فقط، أما المركزيون فما اعترفوا بأي نقيصة مما كان الانتفاضيون يرمونها عليهم. المنتفضون كانوا يعترفون بأنهم «انتفاضة» بكل ما تعنيه هذه الكلمة من خروج على المسار الطبيعي النظامي، أي بكل ما تعنيه من عنف معنوي تمردي، أما المركزيون فقد تجاهلوا مفاسدهم التي أعطت خصومهم المبرر والحجة لانتفاضتهم.

نحن اليوم إذ نقرأ ونطلع ونستعرض مراحل تلك الفترة ندرك بكل وضوح أن لكل من اتهامات الطرفين شيئاً كثيراً وكبيراً من الحقيقة، ولولا ذلك لما استطاع كلاهما الدفاع عن مواقفهما واجتذاب قوميين اجتماعيين عاملين بإخلاص إليهما. الحقيقة أن مثالب هذا الطرف قد ساعدت الطرف الآخر في الصمود والاستمرار واكتساب قدر معين من الحصانة لدى الصف الحزبي.

المركزيون يزدادون وضوحاً وعلانية في مسارهم

«الانجراف والانحراف والانجرار» حسبما كان يسميه أسد الأشقر في المجالس الحزبية المغلقة قبل الانشقاق، كان قد بدأ بخجل وتردد فتطور الآن بعد «التخلص من عبد المسيح» وصار وكأنه شيء طبيعي حتى بلغ درجة زج الحزب في معارك مسلحة لأهداف وغايات ملتبسة غريبة عن غاية الحزب الأساسية وتحت إمرة وقيادة ومصالح وتوجيه غريب عن الحزب، فأخذ الحزب جانب الجبهة اليمينية المتحالفة مع الأميركان في حرب أهلية طابعها طائفي، والذريعة كانت جاهزة: الحزب يدافع عن نفسه، وكأن الحزب لا يعرف الدفاع عن نفسه إلا بأخذه جانب أحد الأطراف المتقاتلة.

وبعض المنشقين يصحون ويعتكفون

إن أبرز شخصين من رموز الانشقاق، بعد عبد المسيح، كانا إبراهيم يمّوت ومحمد يوسف حمود. الأول عمل رئيساً للمجلس الأعلى والثاني عميداً للإذاعة، والاثنان لم يلبثا أن عبرّا عن خيبتهما من الانشقاق وتحققا أن ما كانا يعولان عليه لم يكن حقيقياً. يمّوت لم يستمر كثيراً في «العمل المسؤول» في الانتفاضة، وهو يروي لنا كيف أن العم حاول إقناعه بالعودة إلى هذا العمل، ويظهر أنه كان يعول في بداية الانشقاق على قيادة عبد المسيح «التاريخية» أنها ستقود إلى تحقيق غاية الحزب، لكنه استمر «لبعض الوقت»

فقط حسب تعبيره وقد عبرّ لاحقاً عن خيبته وعاد يراهن على «قيادة تاريخية لا بد أن تخلق»، ويدعو إلى الحفاظ على العقيدة «إلى أن تأتي تلك اللحظة» (الحصاد المر ص 242). حتى إن يمّوت يعمد سنة 1993، بعد انكفائه عن الانتفاضيين، إلى انتقاد عبد المسيح وقيادته ويتهمه بعدم امتلاك معطيات قيادية. يقول: «...حين نقيم تلك الفترة الهامة في الحياة السياسية في الشام يوجه اللوم إلى قيادة الحزب هناك لأنها لم تستطع مجاراة القوة السياسية والعسكرية التي يتمتع بها سوريون قوميون اجتماعيون، على رأسهم رئيس الجمهورية وعسكريون بارزون نافذون في قطاعات هامة في الجيش. سنحت فرصة جيدة للحزب وواجه في نفس الوقت امتحاناً عسيراً تتفتح في حال نجاحه آفاق واسعة لتحقيق أهداف الحزب وغايته في الوطن السوري بأكمله، إلا أن النجاح في تلك الفترة كان يتطلب معطيات قيادية حزبية ضخمة لم تكن متوفرة» (الحصاد المر ص 273).

أما محمد يوسف حمود، فقد اعتكف هو الآخر سريعاً لنفس الأسباب وهو الذي كان شعلة حماس واندفاع قوي للانتفاض والانشقاق وهو الذي دبج مديحاً شعرياً مبالغاً فيه لعبد المسيح واختتم أحد بيانات الانتفاضة بقوله: «إلى صف الزوبعة الحمراء يا غابات الأسنّة» (الإعلان النداء- مراحل الانتفاضة)

قلنا إنه كان للفساد المالي والسياسي والإداري في الحزب برئاسة أسد الأشقر سنة 57، قبل الانشقاق، «الفضل» في تبرير هذا الانشقاق والدفع إليه. وما قلناه موثق ومصرح به من رئيس الحزب أسد الأشقر نفسه، حيث كان يعترف ويجاهر بالفساد على كل صعيد، مالي سياسي إداري مناقبي، ويعلن عنه في المجالس العليا أي أمام الأمناء والمجلس الأعلى وفي اجتماع عام لهيئات المنفذيات، وكان يسميه «الانجراف والانجرار والانحراف». وهذا موثق في «الإعلان- النداء» الذي أذاعه الأمناء الأربعة بتاريخ 17-10-57. (مراحل الانتفاضة). لذلك فإننا إذ نعمل هنا على تسفيه الانشقاق وتسميته جريمة فلا يعني ذلك دفاعاً عما سمّي «جماعة المركز أو مكتب كرم»، فهؤلاء لم يكونوا أبرياء أبداً وقد رأينا فوق فساد عملية طرد- اغتيال عبد المسيح التي ارتكبوها والتي توجوا بها الفساد المالي والسياسي والإداري الذي كانوا منغمسين فيه. لكننا لا بد من أن نؤكد هنا أن الفساد الذي تكلمنا عنه لم يكن عبد المسيح بريئاً منه أبداً، أي من السماح بحدوثه، حيث كان هو رئيساً للحزب طيلة سبع سنوات قبل أسد الأشقر، ولا

يجوز التصديق أن الفساد قد بدأ فجأة مع مجيء أسد رئيساً.

الحقيقة أن خيبة إبراهيم يمّوت كانت قد بدأت بعد أقل من سنة من انشقاقه مع عبد المسيح، ففي 19 أيار 58 يبعث برسالة إلى المجلس الأعلى للمنتفضين يوضح فيها أهمية إصدار بيان بإعلان الحياد في أحداث 58 لوضع حد للبلبلة التي هم فيها، ويتحدث في رسالته عن عدم انسجام بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، أي بين رئيس الحزب عبد المسيح والمجلس الأعلى للمنتفضين، مما يعيدنا إلى أجواء ما قبل الانشقاق، ويتحدث فيها عن ميل لدى بعض العمد والسلطة التنفيذية للعمل والتعاون مع الحكومة المنخرطة في الحرب الأهلية لقاء بعض الشروط، وكرر في رسالته اعتبار نفسه مستقيلاً من كل المسؤوليات الحزبية وفي حالة قعود تام عن العمل الحزبي الرسمي. نقرأه في الصفحة 338 من الحصاد المر يقول: «...لذلك اقترحت بسبب بروز بعض ظواهر عدم الانسجام بين السلطتين، أن تتحمل السلطة التنفيذية في هذا الظرف مسؤولية العمل الحزبي بمفردها وتقوم على مسؤوليتها بتصريف الأعمال الحزبية. وكررت في ختام الرسالة اعتبار نفسي مستقيلاً من كل المسؤوليات الحزبية وفي حالة قعود تام عن العمل الحزبي الرسمي». إن يمّوت في رسالته لا يذكر لماذا هو في حالة قعود تام عن العمل الحزبي الرسمي، ويظهر أنه كان في هذه الحالة منذ ما قبل أيار 58. ويظهر أيضاً أن المجلس الأعلى في الانتفاضة هو الآخر لم يكن راضياً أو منسجماً مع سلطة عبد المسيح الرئاسية، وإن اقتراح يمّوت بأن يُلغى دور المجلس الأعلى ويتم تسليم كل السلطات للرئيس ومجلس العمد، يأخذنا للاعتقاد والاستنتاج بأن سلطة عبد المسيح كانت فعلاً طاغية ومهيمنة ومتجاوزة لصلاحيات المجلس الأعلى، مما يذكرنا باتهامات المركزيين لعبد المسيح التي يظهر أنها كانت صحيحة. وهذا يؤكد لنا مرة أخرى أن المشكلة مع عبد المسيح، والتي تتكرر ضمن صفوف الانتفاضة، هي مشكلة صراع على السلطة أكثر منها حرصاً على سلامة العقيدة وسلامة القضية من الانحراف السياسي في المحور الأميركي- اليميني. يعزز هذا الاستنتاج أن إبراهيم يمّوت احتاج أن يوجّه رسالة إلى عبد المسيح في 26 تموز 58 بعيد نزول الأميركان إلى شواطئ لبنان، وبعد ثورة العراقيين على الملكية، يقترح عليه فيها أن يصدر بياناً من رئاسة الحزب أو عمدة الدفاع إلى القوميين الاجتماعيين بأن يكونوا على أتم الاستعداد لمحاربة الأجانب إذا ما تعرضوا لاستقلال البلاد، وأن يبدؤوا بتنظيم لجان ارتباط مع كل أفراد الشعب

الذين يريدون محاربة الأجانب، ومنهم المعارضون، في سبيل تنظيم القتال إذا ما دعت الحاجة» (نفس الصفحة). لكن اقتراح يمّوت لم يؤخذ به وإن نزول الأميركان في لبنان لم يحرك قيادة عبد المسيح لمجابهته. إننا نصدق يمّوت بأن رفضه للانزلاق باتجاه المحور الأميركي- اليميني كان سبباً في سيره في الانتفاضة سنة 57، لكن يبدو أن يمّوت كان مصدقاً أن عبد المسيح عمل للانتفاض والانشقاق للسبب عينه الذي عمله يمّوت.

أما محمد يوسف حمود فقد «أخذ ينحو منحى الحياد بين المنتفضين والمركزيين ويرى أن الحياد أجدى في رأب الصدع وإعادة اللحمة وإنه يصعب عليه رؤية الانشقاق مستمراً» (نفس المصدر ص 388). حتى إنه اقترح أن يصدر المركزيون عفواً عاماً عن المنتفضين معترفاً بذلك بأن المنتفضين قد خرقوا النظام وأن المركزيين يمثلون الشرعية الدستورية التي تعفو.(نفس المصدر ص 389)

وبعض المركزيين أيضاً يصحون ويعتكفون

من الجهة الأخرى، أي جهة المركزيين، يعتكف أيضاً رئيس المجلس الأعلى وعميد الخارجية الأمين أديب قدورة ويشهد على حالة الفساد السياسي والنظامي والمناقبي التي كان يتخبط بها فريقه. ففي كتابه «حقائق ومواقف» يكتب قدورة عن مرحلة 58 التي كان فيها عميداً للخارجية وينتقد انحياز قيادته للمحور العراقي الأميركي الشمعوني ويقول: «...زارني عيسى سلامة وسامي خوري وأسد الأشقر. كانوا يحاولون أن يوصلوا إلي، ولكن بطريقة خجولة ومبطنة، أنهم حصلوا على مبلغ من المال من جهة خارجية. وعندما استهجنت الأمر أكدوا لي ذلك، معللين فعلتهم بأن الحزب يستفيد مادياً. لكن المبلغ الذي أخبروني عنه كان ضئيلاً لا يستحق كل تلك المجازفة بالحزب. هذه بعض المآسي التي جعلتني أقرر توقفي عن العمل الحزبي مع هذه العقليات. يكفي ما عاناه الحزب سياسياً وما دفع من أثمان باهظة بفعل سياسة أسد الأشقر وعيسى سلامة وسامي خوري الذين شكلوا داخل الحزب فريقاً مستقلاً عن كل السياسة المرسومة من قبل المجلس الأعلى ومناقضة لنهجه وسياسته بشكل دائم. لقد كانوا يخفون أسرارهم وأمورهم عن الجميع. ثالوث قائم على سياسة خاصة وبيده القرار. كانوا في الاجتماعات الرسمية التي كانت تعقد في منزلي يخفون عنا كافة معلوماتهم واتصالاتهم. كانوا يتهامسون بين المجموع وكأنهم في عالم آخر. علماً بأني

عميد الخارجية وعيسى سلامة ناموس العمدة. هوذا أمام ناظري نهج من السلوك السياسي الخاطئ الذي أوصل الحزب إلى ما أوصله إليه من تراجع وخسائر من الصعب جداً تعويضها.» (صفحة 208). وأديب قدورة كان قد وجّه رسالة إلى المجلس الأعلى ومجلس العمد ورئيس الحزب عام 58 يقول فيها: «...كان الرئيس أسد الأشقر يبحث في شتى المسائل مع ناموس عمدة الخارجية عيسى سلامة سراً عني كعميد للخارجية، رغم أن مركز قيادة الحزب كان في منزلي. وكنت أستغرب انفراد رئيس الحزب بعيسى سلامة واطلاعه على نتيجة لقاءاته وأحاديثه ومقابلاته للرئيس شمعون،... قدمت المذكرة إلى رئيس الحزب واختتمتها باستقالتي من العمل الحزبي معللاً توقفي عن المسؤولية بخطورة موقف الحزب وخروجه كلياً عن خط الزعيم سعاده، وتحالفه مع الكتائب وشمعون وانغماسه بالتحيز لفريق دون الآخر بدلاً من أن يكون عاملاً فعالاً للحد من الحرب الطائفية» (صفحة 218).

وبعد أديب قدورة اعتكف محمد البعلبكي وبعد البعلبكي قعد الكثيرون وغادروا الحزب، وكثيرون أيضاً انتقلوا من هذه الفئة لتلك، بل تنقلوا من هنا لهناك عدة مرات قبل أن يبتعدوا كلياً فيخسر الحزب خيرة رجاله ونسائه المخلصين، ويخسر الحزب مصداقيته أمام الشعب ويفقد حجته في طلب الوحدة القومية والاجتماعية للشعب، وينشغل الحزب بنفسه ويصرف القوميون الاجتماعيون حيويتهم وعناصر قوتهم في صراعات داخلية مهلكة ومميتة.

بتاريخ 4-7-2012 أرسل كاتب هذا البحث رسالة إلى أحد رؤساء حزب الانتفاضة- الانشقاق يقر فيها بفساد الأوضاع الحزبية هنا وهناك وتأخر الحزب وقصوره عن القيام بالنهضة التي تأسس الحزب أصلاً من أجل بعثها والقيام بها، ويقول له قد مات الذين سببوا الانشقاق كلهم وإننا الآن يجب أن نكون متحررين من تأثيرهم واعتباراتهم وحججهم ومبرراتهم ومجادلاتهم، وإننا اليوم مسؤولون عن الوحدة ولسنا مسؤولين عن الانشقاق وبقائه جاثماً ثقيلاً على كاهل الحزب، ويدعوه إلى أخذ القرار الكبير الجريء الصادم من أجل مصلحة حزب سعاده الواحد وقضيته الواحدة. كان جواب هذا الرئيس أن أثنى على روحية دعوتي له وحسن الغاية منها ثم قال إنه لا يستطيع أن يتصرف بالثقة التي منحه إياها الذين انتخبوه رئيساً! (هذه

الثقة التي أولاني إياها الرفقاء بانتخابي رئيساً للحزب لا تخضع للتصرفات الفردية والشخصية ولست أنا من يقرر استقالتي من رئاسة الحزب في صفقة بين أفراد) كأنه يقول: أقبل وأستطيع أن أتصرف بوحدة حزب سعاده وبثقة سعاده بنا حزباً واحداً وحركة واحدة وقضية واحدة، ولكنني لا أقبل ولا أستطيع أن أتصرف بثقة من انشق على حزب سعاده وانتخبني رئيساً.

أحد الانشقاقيين، وقد عاد إليه صفاء الوعي والضمير، وقد شاهد واشترك في عدة محاولات ومفاوضات لإعادة الحزب إلى وحدته يقول سنة 1993: «إن النيات الطيبة التي كان يظهرها أكثر المتفاوضين لم تكن أكثر من إظهار لبراءة الذمة تجاه مجموع القوميين الاجتماعيين الذين كانوا يلحون بأكثريتهم على وجوب العودة إلى وحدة القيادة. لم يخلُ الأمر من فريق رفع نصب عينيه مصلحة الحزب العليا، ودخل جولات المفاوضات بإخلاص وتفانٍ، ولكن ما كان يبرز مشروع لحل ما حتى يتدخل الممسكون بالمواقف الثابتة ليعرقلوا أي حل ويبددوا أي أمل» (يمّوت ص 381).

أختم هذا العنوان وأقول وأجزم بأن انشقاق الحزب كان قراراً أجنبياً نفذه قوميون اجتماعيون، إما سقماء عطّلتهم النزعة الفردية وأطفأت فيهم شعلة الإيمان بسعاده وبالقضية القومية الاجتماعية المقدسة، وإما أغبياء وإما بسطاء وإما عملاء. وإن من قرر شق الحزب لا زال يريده منشقاً، وإن كل ما يُحكى عن مساعي ومفاوضات ويُنشر من صور لقاءات ما هو إلا عملية امتصاص لضغط القوميين الاجتماعيين الذين يريدون أن يروا حزب سعاده واحداً. وإنه يوجد في داخل الحزب من هم مستفيدون من الانقسام ومن هم حراس له ومكلفون بالحفاظ عليه وممنوع عليهم تسهيل إنهائه. فليدرك القوميون الاجتماعيون ذلك ويكفوا عن المراهنة والتعويل على جني الدبس من قفا النمس، وليعمد رفقاء سعاده على تولي أمرهم بيدهم.

الرفيق الأول والأمين الأول والرئيس الأول... والانشقاق الأول

قد يكون جورج عبد المسيح «بطلاً من أبطال النهضة» كما كان يردد الرفيق ش- أ- ر ويقول لي، كلما كنت أعبر عن عدم إعجابي به، وكنا سوياً ندرس الرياضيات في كلية العلوم في الجامعة اللبنانية أوائل السبعينيات. وقد يكون

جورج عبد المسيح هو «المجرم الأكبر» كما ينقل إبراهيم يمّوت عن عبدالله سعاده أنه قال عنه. لكن عبد المسيح مات وعبدالله سعاده مات، ومات جميع الذين اشتركوا في شق الحزب سنة 1957، تقريباً، والذين يقرؤون هذا الكتاب الآن ليسوا مسؤولين عن «إنجازات» الذين ماتوا، ليسوا مسؤولين إلا عن قراءة التاريخ كما هو بوقائعه وأفعال الذين ساهموا به وأعمالهم دون الدخول إلى نواياهم والتورط في تقييمهم إيجابياً أو سلبياً. فالنيات بالأعمال، يقول سعاده، وليست الأعمال بالنيات، وأن التاريخ يسجل الأعمال والأفعال ولا يسجل النيات.

فعبد المسيح العم، والعم أخ الأب، كان مريدوه يقولون إنه الرفيق الأول والأمين الأول والرئيس الأول، وهو بالإضافة لكل ذلك... صاحب الانشقاق الأول في الحزب (هذا التعبير هو للأمين إيلي عون). إننا نشك كثيراً في أن يكون هو أول رفيق انتمى إلى الحزب، فسعاده يخبرنا عن ثلاثة، أول من الشوير قبل عبد المسيح، دون ذكر أسبقهم إلى الانتماء، «اثنان منهم كانا طالبين في الجامعة الأميركية وواحد من هذين أرسل إليّ كتاباً يطلعني فيه على اهتدائه إلى بعض الطلبة ذوي الإمكانات، وواحد منهم من شرق الأردن والباقون من لبنان ويسألني الإسراع في العمل. فطلبت منه أن يأتي برفقائه فجاء بهم إلي وكانوا ثلاثة أحدهم عبد المسيح...» (خطاب الزعيم في أول آذار 1938). فعبد المسيح لم يكن المقبل الأول لأن ثلاثة من الشوير أقبلوا قبله وواحد منهم دل الزعيم على عبد المسيح، وأن الحزب تأسس من هؤلاء في البداية قبل وضع القسم الحزبي وقبل حلف اليمين. أما حلف اليمين وأداء القسم الذي يقول عبد المسيح إنه كان أول من فعله، فلم نعثر على مصدر آخر يؤيده. كما أننا نشك أن يكون هو الأمين الأول لأنه ليس متوفراً لنا، ولا لغيرنا، أي وثيقة تثبت ذلك. أما أن يكون الرئيس الأول فإنه قد سبقه صلاح لبكي في الحصول على لقب النائب الإداري للزعيم خلال السجن الأول في حزيران سنة 1935، ثم نعمة ثابت في رئاسة المجلس الأعلى ومجلس العمد.

وينتقد الزعيم ويتمرد عليه

مع ذلك فإن أولوية الانتماء والأمانة والمسؤولية لا تعطي صاحبها امتيازاً وحصانة وحقاً في التصرف بالحزب وفي الحكم على الحزبيين الآخرين وتقييمهم. نعم إن جورج عبد المسيح هو الذي كان يحكم على الآخرين ويقيّمهم ولم يفلت أحد من الرفقاء الذين عملوا معه، وخاصموه بعد ذلك، من حكمه وتقييمه. حتى إن

عبد المسيح قد انتقد سعاده صراحة، بل إنه تمرد عليه. أما كيف انتقد سعاده وكيف تمرد على سلطة الزعامة فيخبرنا إياه هو نفسه وليس أحداً غيره. ففي آخر لقاء مع سعاده في عاليه 14 حزيران 49 يروي لنا عبد المسيح ما يلي: «...فقال لي الزعيم: إنك لا تغير عادتك هذه ومتى بنيت رأياً عن شخص لا يمكن أن تتزحزح عنه. والأنكى أنك تعمل دائماً على أساس ما تبني من آراء شخصية عن الأفراد. وكان هذا القول ما كرره لي الزعيم عدة مرات بسبب بعض القوميين الاجتماعيين الذين يقدمهم لتسلم بعض المسؤوليات وأبدي رأيي بهم وأمتنع عن التعاون معهم لعدم ثقتي بمقدرتهم على العمل، وهم قادرون على الكلام أمام الزعيم حتى يظن أنهم أهل للمسؤولية» (مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة...ص 76). فعبد المسيح يقرّ في ذلك أنه كان يتمرّد على سلطة الزعيم «ويمتنع عن التعاون» مع من يضع الزعيم ثقته بهم ويعينهم للمسؤوليات، وهو أعلم من الزعيم في من يصلح ومن لا يصلح للمسؤولية.

عبد المسيح يفتتح حملات التجريح بالرفقاء والأمناء

إن جورج عبد المسيح مع كل جهاده وإنتاجه وعمله الحزبي المتواصل ونكرانه لذاته وراحته الشخصية وإعطائه وقته كله وحياته كلها لهذا العمل وهذا الجهاد، فإننا نستطيع أن نستخرج من كتاباته وأقواله إنه كان سباقاً ورائداً في بدء حملات تجريح وتخوين وتشويه لسمعة الذين عملوا معه. لقد كان راضياً عنهم عندما عملوا معه ثم صار يكيل لهم اتهامات من كل نوع حين مخاصمتهم له وتركهم إياه.

في بيان «عودة الحقائق» في 9-11-57 من كتاب مراحل الانتفاضة نقرأ: «...وكان أوقحهم معروف صعب، تهجم على الزعيم لتغطية إهماله أمر سلامة الزعيم سنة 1949 هو وعيسى سلامة اللذان كتما عن الزعيم التنبيه بأن حسني قد قرر تسليمه، وعبدالله محسن الذي غضب وذهب إلى بيته ولم يوصل إلى الزعيم ما قاله له أحمد عسّي من أن حسني قرر التسليم ويجب حماية سعاده منه، بمجرد قول معروف بأن الزعيم لا يرغب بأن يراه أحد غير معروف، حنق محسن وذهب إلى بيته». أما كيف تهجم معروف على الزعيم فلم يوضحه العم ولم يعطنا مثلاً عنه وبرهاناً عليه. (في مكان آخر يضيف الياس جرجي إلى الذين أهملوا تبليغ الزعيم ويسقط منهم عيسى سلامة- رسالة إلى منير حيدر صفحة 36). أما عن عدم تحذير الزعيم فإننا صرنا نعرف اليوم من شهادات أكثر من طرف واحد أن سعاده كانت قد وصلته جميع التحذيرات والتنبيهات لخيانة حسني

ونيته تسليم سعاده لأعدائه، وإن ذهاب سعاده للمقابلة الأخيرة مع حسني كان سببه قضية أبعد بكثير من مسألة وصول التنبيهات أو عدم وصولها.

وفي بيان «عودة الحقائق» أيضاً نقرأ: «...أمور أخرى مرعبة كشفها التحقيق (تحقيق عبد المسيح وحده) بأمر معروف صعب لا تزال نسخها المخطوطة الموقعة كافة معنا وستعطى لمحكمة حزبية...». هذا الكلام ورد في تشرين الأول 57، وهو كلام عن تحقيق جرى نهاية 49 أو أوائل سنة 1950، أي بعد أكثر من سبع سنوات كان في بدايتها ولفترة غير قصيرة عبد المسيح رئيساً للحزب وكان معروف معاوناً له عميداً للإذاعة، فلماذا قبل العم بإعطاء معروف مسؤولية مركزية رغم وجود أمور مرعبة ارتكبها؟! ولماذا بقيت هذه الأمور المرعبة خافية عن الجميع حتى الآن، إلا عن عبد المسيح وحده؟! ولماذا مات عبد المسيح ولم يسلم هذه النسخ «المخطوطة والموقعة» إلى محكمة حزبية كما وعد طيلة نصف قرن؟! وهل هذه الوثائق ملك لعبد المسيح كي تموت معه أم هي ملك للحزب؟! وفي مكان آخر فإن عبد المسيح يتهم صعب بالخيانة الصريحة، ولا يحاكمه بل يتعاون وإياه في إدارة الحزب رغم معارضة صعب «التقليدية الدائمة» لعبد المسيح، مما يثير تساؤلات إذا ما كان العم «مجبراً» على التعاون مع صعب ومن كان يجبره على ذلك. الجواب على هذه الأسئلة ليس عندنا، بل عندنا إن معروف صعب كان من أشد معارضي عبد المسيح وإن عيسى سلامة وعبدالله محسن كانا من أشد خصوم عبد المسيح. إن تعاون عبد المسيح مع من كان يتهمهم بالخيانة والتآمر، وإعطاءهم وظائف إدارية مركزية في الحزب إبان رئاسته، لا يمكن تبريره وتفسيره بمقولة عبد المسيح المشهورة: «إن دم الزعيم يطهر الجميع ويغسل أدران الجميع». إن هذه المقولة لا معنى لها في علم الإدارة ولا وجود لها في الشروط الدستورية الواضحة التي تؤهل الرفقاء لتحمل مسؤوليات قيادية مركزية. نحن نفهم ونقبل أن يتم العفو عمن ارتكب شنيعة في لحظة ضعف أو جبن، لكن لا نفهم ولا نبرر أن يتم رفع هؤلاء وإعطاؤهم مسؤوليات مركزية!

لم يسلم أحد من اتهامات عبد المسيح غير الثابتة وغير الموثقة وغير المحالة إلى مراجع التحقيق والحكم في الحزب، رغم كونه هو رئيساً للحزب طيلة سبع سنوات متواصلة وكل تلك الاتهامات حدثت إبان فترة رئاسته. فجبران جريج «...تهاون بحفظ أوراق سرية ضبطها الأمن الشامي»، دون تعيين أو تحديد ودون دليل. حتى إن غسان جديد،

عميد الدفاع حين مقتل المالكي، كان همه الوحيد، حسب عبد المسيح، الهروب إلى لبنان هو وجبران جريج (من رسالته الأولى إلى ديانا المير). وعبدالله قبرصي يخسر الدعاوى القضائية التي يوكله فيها الرفقاء، ومعروف صعب أصبح يغار على زوجته... إلى تفاصيل مقززة ومعيبة عن رذائل وموبقات غير قابلة التصديق رواها عبد المسيح كأنها حقائق، وغير ذلك الكثير مما يعاف القارئ من قراءته كله (يوجد نموذج عنه في كتاب أيام قومية ج 5 ص 19). أما أن يكتم عبد المسيح هذه الأخبار عن موبقات ورذائل ويتعاون مع أصحابها ولا يبوح بها إلا بعد انفكاك أصحابها عنه، فهو ما يجعلنا نستنكر إعلانها والبوح بها، بنفس درجة استنكار حدوثها، إذا كانت قد حدثت فعلاً، ولا أحد يصدّق أنها حدثت فعلاً. من السهل ملاحظة سعي عبد المسيح للنيل من سمعة خصومه في الحزب، وبطريقة غير سليمة لا من ناحية منطقيتها وإمكان تصديقها ولا من حيث صدورها ووقوعها خارج المكان الصالح للبت بها. لن نطيل في هذه المسألة ولكن لا بد من إعطاء أمثلة عنها كي لا تكون اتهاماتنا هنا لعبد المسيح مثل اتهامات عبد المسيح التي ننتقدها.

في كتابه «رسالة إلى منير حيدر» الصادر عن دار الركن بيروت 2006 يقول العم ويكرر القول إن سعاده لم يكن يعلم بخيانة حسني وباتفاقه مع رياض على تسليمه، ومن جهة أخرى يقول لمنير حيدر إنه لا يجوز القول إن سعاده كان ضحية مؤامرة، أو فخ حسب تعبير منير، لم يكن متنبهاً لها (صفحة 26). فإذا كان الزعيم متنبهاً وعارفاً، فكيف نعود ونقول إنه لم يكن يعلم بقرار تسليمه وبأن عدم إخباره من قبل جرجي ومحسن وصعب هو جريمة؟ (ص 36)، كيف نعود ونقول إن تهاون هؤلاء الثلاثة في إيصال الخبر إلى الزعيم أدى إلى وقوع النكبة العظمى؟ (ص 27). أن تكون «جريمة» إهمال إيصال الخبر قد أدت إلى وقوع النكبة، يعني أنهم لو لم يتهاونوا ولم يرتكبوا هذه الجريمة لما وقعت النكبة ولما تم تسليم الزعيم إلى أعدائه الذين أعدموه. إن هذا الاستنتاج المنطقي يتعارض مع تأكيد عبد المسيح نفسه بأن سعاده كان عارفاً بأنه سيستشهد وأن سعاده قال ذلك لعبد المسيح في عاليه: «لقد أكملت لكم رسالتي وسأختمها بدمي... فليكن دمي الفداء». فهل نصدق رواية عبد المسيح بأن الزعيم كان يمكن له أن يتفادى تسليمه وإعدامه لو لم يتهاون الأمناء الثلاثة ويرتكبوا جريمة عدم إيصال الخبر إليه، أم نصدق رواية عبد المسيح أن الزعيم كان متنبهاً لمؤامرة التسليم وأنه كان يعرف سلفاً أنه سيختم رسالته بدمه ويكون دمه الفداء؟ النتيجة من كل هذه

المحاججة المنطقية هي أن عبد المسيح يريد أن يتهم خصومه «بجريمة» أدت إلى إعدام الزعيم وحصول «النكبة الكبرى». إن العم يريد ذلك رغم أن عدة شهادات أكدت أن سعاده كانت قد وصلته كل التحذيرات والتنبيهات عن نية حسني بتسليمه.

مثل آخر، يقول العم في نفس الكتاب (ص 36): «عام 52 وصلت نسخة التحقيقات من المحكمة العسكرية في لبنان إلى الياس جرجي ليوصلها إلى رئاسة الحزب فأضاعها لأن فتح ذلك السجل كان مما يوصل دور التحقيق إليه هو أيضاً، ولا تزال ضائعة أو مخفية». ونحن إذ نقرأ ما يقوله العم نتساءل: طالما أن هذا السجل هو ضائع أو مخفي فكيف عرف العم أن فيه ما يتناول الياس جرجي؟ أم أن العم يريد أن يتهم جرجي مستنداً إلى وثيقة ضائعة أو مخفية ولم يطلع عليها؟ وفي مكان آخر يتهم الياس جرجي بإخفاء مرسوم من الزعيم بتجريد عدد من الأمناء من رتبهم، والادعاء أنه أضاعه، ويستنتج أن اسم الياس جرجي كان من بين المجردين من رتبتهم. وهذا الاستنتاج تدحضه رسالة الزعيم إلى الأمينة الأولى تاريخ 30 حزيران 49 التي ورد فيها عبارة «الأمين الياس جرجي»، فلو كان الياس جرجي قد فقد رتبته لما وصفه الزعيم بالأمين بعد ذلك. لكن عبد المسيح الذي يفتَرض أنه قرأ رسالة الزعيم إلى الأمينة الأولى، لا يتورع عن الاستنتاج والاتهام الظالم بأن الياس جرجي كان من بين الذين جُردوا من رتبة الأمانة.

إن ما يلفتنا بشكل خاص هو حجته ضد عبدالله سعاده، لأن ما أخذه على عبدالله كان قد وقع فيه هو نفسه. يقول: «عبدالله سعاده فضل أيام طلبةُ الزعيم للعمل بالحزب أن ينصرف إلى الخصوصيات... بعد موقف مزر في السجن سنة 1949 واتهامه الزعيم بالسعدنة لكي ينقذ مصيره هو، تابع التمسك بفلسفة الانصراف إلى الأعمال الخاصة. رفض عبدالله سعاده أن يعمل حزبياً مع الزعيم بحجة وجوب العمل لعائلته أولاً. ورفض العمل معنا عام خمسين بعد اغتيال الزعيم مفضلاً جمع الثروة في السعودية واعداً بتقديم عشر ما يربح للخزانة الحزبية ولم يقدم حتى اشتراكاته الشهرية لعدم إيمانه بالعقيدة.» (إلى منير حيدر ص 61). أما نحن فنعلم أن سعاده لم يلح على الأمين عبدالله كما ألح على الأمين جورج عبد المسيح ليبقى عميداً للدفاع، وأن عذر عبد المسيح كان، مثل عذر عبدالله، الانصراف إلى ترميم أوضاعه الشخصية والاقتصادية. «لم يكن قد مضى أربعة أشهر على سماح الزعيم لي بأخذ فرصة انصرف فيها إلى عمل خاص

أرمـم خلالهـا الأوضاع المالية والصحية...» (من يوميات جورج عبد المسيح). ثم إننا نستغرب كيف أن عبد المسيح يكلف عبدالله سعاده ويصر عليه كي يترشح للنيابة عن الحزب في الانتخابات النيابية اللبنانية سنة 54. (أوراق قومية ص 50). كيف يقبل عبد المسيح أن يتمثل الحزب في البرلمان بشخص يزعم عبد المسيح أنه لا يؤمن بالعقيدة ويضع مصالحه الشخصية الخصوصية قبل مصلحة الحزب؟!

إن من يقرأ اتهامات وتجريحات عبد المسيح للرفقاء والأمناء الذين عملوا معه قبل أن يتركوه، يتساءل: لماذا تكون كل الاتهامات بحق جورج عبد المسيح هي إشاعات واتهامات كاذبة، ولا تكون اتهاماته هو لغيره اتهامات وإشاعات كاذبة؟ إننا لا نغالي إذا قلنا إن عبد المسيح هو الذي افتتح ودشن حملات التجريح والاتهامات بالجملة للمسؤولين خارج الإطار النظامي الصالح وحده للبت في هذه الاتهامات. وإن ما رواه الأمين سليم سعدو سالم في كتابه الذي صدر حديثاً (حان الوقت- سليم سعدو سالم يعرف ويعترف، الفرات للنشر والتوزيع سنة 2017) عن حملات عبد المسيح واتهاماته التي كالها للمسؤولين المركزيين العاملين معه، وفي أحاديث شخصية معه خارج المركز وخارج الاجتماعات والجلسات الرسمية، إن ما رواه الأمين سالم، وكان مرافقاً لصيقاً لعبد المسيح حين سمع منه هذه الحملات (ص 98)، لا يمكن تكذيبه وردّه لرغبة انتقامية أو تشهيرية أو لمصلحة فردية معينة خاصة بالأمين سالم، فالرجل تجاوز التسعين من عمره عندما كتب ما سمعه وشاهده، واحتمالات صدقه أكثر بكثير من احتمالات كذبه بل إننا محمولون لتصديقه تماماً لأن رواياته تتقاطع مع روايات غيره وتتقاطع أيضاً مع ما يقوله عبد المسيح نفسه عن «ضحاياه» في غير مكان ومرجع.

انتخابات عبدالله سعاده النيابية والتلاعب الأميركي بالحزب والعذر الأقبح من ذنب

لا شك إطلاقاً في شجاعة وشهامة عبدالله سعاده وفروسيته كما تضحياته الكبيرة. إن هدف هذا الكتاب ليس البحث والتفتيش عن أخطاء الأشخاص وإبرازها للنيل منهم، بل إننا نبحث عن الأخطاء الكبرى التي أثرت في تاريخ الحزب وعن الانحراف عن نهج سعاده وقضيته القومية الاجتماعية بغض النظر عن الأشخاص وأسمائهم. عندما نفعل ذلك تغيب عن ناظرنا هذه الأسماء ولا يبقى أمامنا إلا الحدث ونتائجه والعبرة الواجب تعلمها منه. إن هذا الانحراف الذي نبحث عنه كان سبباً كبيراً من أسباب

محاصرة سعاده ثم قتله سنة 1949، كما كان هذا الانحراف عينه سبباً كبيراً من أسباب محاصرة الحزب واضطهاده على هذه الكيفية التي أضعفته لدرجة التهجين والتدجين وإيقاف اندفاعته وجعله حزباً سياسياً عادياً أو أقل.

ها هو عبدالله سعاده في مذكراته- أوراق قومية، يعترف بطريقة مباشرة بأن الحزب عندما كان هو رئيسه كان يتلقى أموالاً من الأميركيين، وأن الحزب كان يستعمل هذه الأموال لينفذ سياسات غريبة عن حقيقته الناصعة التي مثّلها الزعيم وعن حقيقة غايته السامية، أكان الحزب ومسؤولوه عارفين أو غير عارفين بما يفعلون. ها هو عبدالله سعاده يروي وقائع معركته الانتخابية الأولى في الكورة سنة 1954، ثم الثانية سنة 1960 وكان رئيساً للحزب، ويروي كيف انغمس الحزب وتورط في معركة انتخابات المجالس الملية للطائفة الأرثوذكسية. إنه يلفت نظرنا إلى أمرين اثنين هما:

أولاً: يفاخر عبدالله سعاده بأنه نال أكثرية أصوات الطائفة الأرثوذكسية في الكورة وأن ما أسقطه كانت الأصوات السنية والمارونية، وطبعاً إلى جانب تدخل الحكومة وأجهزتها والضغوط الهائلة على الموظفين الحكوميين وتدخل رجال الدين (محروم من نعمة المسيح في الدنيا والآخرة من ينتخب عبدالله سعاده- تليت في كنائس الكورة المارونية بإيعاز من المطران أنطون عبد) وغير ذلك. فإذا نظرنا إلى الموضوع بمنظار عقيدة الحزب ومبادئه نرى أن النجاح ضمن طائفة معينة والخسارة ضمن طائفة أخرى هو ذنب الحزب وليس ذنب الطائفة. لا نرى عذراً للحزب في أن يكون مقبولاً هنا ومرفوضاً هناك. إأنه عذر أقبح من ذنب. قبل استشهاد سعاده كان الحزب يلقى نفس القبول والإقبال في جميع الأوساط، من حلب حتى القدس مروراً باللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا، فضلاً عن دير الزور ودمشق والسويداء ودرعا وعمان، وإن ما كان يفاخر به الحزب ويعتبره أحد دلائل صحة عقيدته وتعبيرها عن وحدة الشعب ووحدة مصالحه هو هذا القبول والانتشار في جميع الأوساط. كان للحزب على سبيل المثال مديرية فاعلة مؤلفة من رهبان موارنة في منطقة اللويزة في جبل لبنان كان مديرها المنسنيور يوحنا مارون وناموسها الأب بولس مسعد (مذكرات فريد الصباغ). كما كان له انتشار وخلايا حزبية بين طلاب وأساتذة مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. ولم يكن الحزب يتدخل في الشؤون الدينية للطوائف وينغمس في شؤونها الملية وانتخاباتها كي لا تتدخل هذه الطوائف والملل في شؤون الحزب والأمة

عملاً بمبدأ فصل الدين عن الدولة.

يقـول عبدالله سـعاده في مذكراته (صفحة 67) إنه قبض مبلـغ مئة ألف ليرة لبنانية، وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت سـنة 1960، من «عائلات» أرثوذكسـية طلبه منها كي يستطيع مجاراتها في تأييد البطرك هزيم ضد سامي سماحة في انتخابات المجلس الملي الأرثوذكسي في الكورة. وإنه «اكتشف» بعد عدة أسابيع أن هذا المبلغ صرفته السفارة اليونانيـة، ثـم «تفاجـأ» بعـد عدة أشـهر أن هـذا المبلغ قد دفعتـه السـفارة الأميركية في بيروت. فعبدالله سـعاده لم يخطر على باله يومها كيف «لعائلات»، مجرد عائلات، مهتمة بانتخابـات ملتها الدينيـة تتمكن من تأمين مبلغ مالي ضخم في نفـس النهار الذي طلبه منهـا. وإذا كان مـن عبرة اسـتفاد منها الدكتور سـعاده رئيس الحزب فهـي: «بعد هذه الحادثة لم أعد أسـتغرب الصفقات السياسـية الداخلية والخارجية في كل صغيرة وكبيرة في لبنان»(صفحـة 68) ولم تكـن العبرة ضرورة العمل لإبعـاد الحزب عن الانغماس في هذه الصفقات السياسية الداخلية والخارجية.

وعلى سـيرة قبـض المال الأميركـي، يذكر د.سـعاده في مكان آخـر (صفحة 72) أن «الحـزب كان على علاقة مع الأميركيين» وأنهم كانوا يحرضون الحزب على الشـيوعيين وعـلى عبـد النـاصر ويطلبـون طلبات وخدمـات ومعلومـات من الحـزب «كجزء من سياسـتنا المشـتركة» حسـب تعبير المسـؤول الأميركي، وعندما يرفض د.عبدالله التلبية يقـول لـه الأميركـي: «إن موقفكـم هذا سـيؤدي إلى قطع دعمنـا المالي لكم». ثـم يأتيه مسـؤول أميركـي آخر أعلى مـن الأول ويقـول له: «إن السياسـة الأميركيـة تحترم هذا الحزب وإنهم يوافقون على استمرار الدعم المالي دون أي شروط». ويتابع رئيس الحزب ويقول: «وافقت على اسـتمرار قبول الدعم المالي بسـبب فقرنا الذي يعطل علينا الكثير من عملنا...»

حلوة وكذابة

بـما أننـا تكلمنا عن انغماس الحزب بشـؤون الملة الأرثوذكسـية، إبان رئاسـة عبدالله سـعاده الأولى سـنة 1960، فلنـر الآن إذا كان ما رواه د.سـعاده عن هـذا الانغماس هو اسـتمرار لمسـاع وأهداف خارجية لقيـت بعض التجاوب من مسـؤولين قوميين لجعل الحزب «حزب الروم»، دون أن يدروا. هذه المساعي التي بدأت في أوائل الخمسينيات، أي قبل واقعة الانتخابات الملية الأرثوذكسية بعشر سنوات، هذه المساعي والخطط التي

كان وراءها نفس الجهات التي قتلت سعاده سنة 1949 وكانت جزءاً من خطة السيطرة على الحزب بعد استشهاد الزعيم.

هذا الموضوع كان يجب أن يكون مكانه في مطلع الفصل الخامس من هذا الكتاب وفي السياق التاريخي لما بعد استشهاد سعاده مباشرةً، لكننا نثبته هنا لعلاقته بالحديث عن عبدالله سعاده. ففي الخمسينيات كتب سعيد تقي الدين مقالته «حدثني الكاهن الذي عرفه»، وهي مقالة رائعة من حيث هي قطعة أدبية، ولكنها حملت في عنوانها ومضمونها مفردات وعبارات دينية، وفي مضمونها أيضاً إيحاء بأن سعاده قد عاد «لبيت الطاعة» قبل موته، وحتى إنه عاد إلى ممارسة شعائر وطقوس طائفته الدينية. فبالنسبة للعنوان، أن سعيد تقي الدين الكاتب والمؤلف والأديب يعرف أن كلمة «عرَّفه» بالعربية لا تعني «أخذ اعترافه بذنوبه» كما هو مقصود أن تعني كعنوان للمقالة. ثمة من يقول إن هذه الكلمة قد أعطيت له وطُلِب منه أن يبرزها في العنوان، وثمة من يقول إن سعيد قبِل باستعمالها وإعطائها معنى تفهمه العامة (أخذ اعترافه بذنوبه) مما لا يتفق مع معناها اللغوي الصحيح (جعله يتعرف أو يعرف) لأن سعيد اعتبر أنه لا بأس بإدخال تعابير عامية في قطعة أدبية تهدف إلى تصوير حالة تلامس وجدان العامة وإحساسها.

أما من حيث مضمون المقالة التي تؤكد أن الكاهن «عرّف» سعاده (بمعنى أخذ اعترافه بذنوبه) وأن سعاده قال للكاهن «لماذا لا؟» عندما سأله الكاهن إذا كان يود أن يتمم واجباته الدينية. فإن لدينا ما يكذّب هذه «الاعترافات» المزعومة، فإن المقالة نفسها تخبرنا بأن سعاده قد قال للكاهن الذي طلب منه أن يعترف: « **ليس لي من خطيئة أرجو العفو من أجلها، أنا لم أسرق، لم أدجّل، لم أشهد بالزور، لم أقتل، لم أخدع، لم أسبب تعاسة لأحد**»، فكيف يكون قد اعترف وكيف يكون الكاهن قد «عرّفه»؟ ثم إن سعاده لم يتقدم إلى كرسي الاعتراف ولم يركع أمام الكاهن كما يقتضي سر الاعتراف الكنسي، فكيف يكون قد اعترف وكيف يكون الكاهن قد عرّفه؟ وماذا يبقى من معنى لعنوان المقالة غير قصد ترسيخ الاعتقاد بأن سعاده عاد لطائفته في آخر لحظة من حياته؟

نحن هنا لا ننتقد سعيد تقي الدين، لأننا نشك في أن يكون سعيد عارفاً بالغرض الخفي وراء هذه العبارات ووراء الذي مررها له. عندما أسمع أنا تلاوة هذه المقالة في كل احتفال وإحياء لمناسبة استشهاد الزعيم ينتابني شعور بالامتعاض وعدم الرضى بسبب هذا الإيحاء بأن سعاده قد عاد إلى بيت طاعة طائفته قبيل موته، فضلاً عن معنى

وأجواء الشكوى والندب والحزن التي تجلبها هذه التلاوة لهذه المقالة، بدل معاني وأجواء الفخر بالاستشهاد والاعتزاز به والتحفز والتوثب والاستعداد للانتقام والفداء والاقتداء ببطولة الزعيم وثباته في مجابهة الطاغوت حتى آخر لحظة من حياته. وأعجب كيف يصر الرفقاء على ترديد هذه المقالة في كل ثامن من تموز، وكأنه وُجد من أوعز إليهم بترديدها منذ أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، وأراد لهم أن يصدقوا أن سعاده ولد أرثوذكسياً ومات أرثوذكسياً وأنه اعترف للكاهن وعاد لطائفته ومارس شعائرها وطقوسها.

حزب الروم

والغريب والمريب أن تعمد جريدة البناء تاريخ 8-7-74 في ذكرى استشهاد سعاده الخامسة والعشرين إلى نشر رسالة كتبها نفس الكاهن يزعم فيها أن سعاده أجابه وقال له: «لقد ولدت أرثوذكسياً وأموت أرثوذكسياً». فكيف يمكن تصديق أن سعاده يعلن للكاهن ويقول له ولدت أرثوذكسياً وأموت أرثوذكسياً في وقت أن سعاده نفسه يكتب للرفيق جبران مسوح في 3-10-43 ويقول له: «...**ثم إن الزعيم بما هو رسول القومية إلى جميع أبناء الأمة بلا فارق مذهبي فهو ليس نصرانياً ولا محمدياً ولا درزياً، بل هو من الجميع وللجميع. ويجب أن تمنعوا التكلم عن الزعيم بصفة نصراني أو غيره**».

إن سعاده لا يقول الشيء وخلافه في نفس الموضوع أبداً، وإن سعاده طبق ونفذ كل كلمة قالها في حياته وعند موته، وهذا معروف ومحسوم لدى كل من يعرف سعاده ويعرف تماهيه مع عقيدته وقضيته في كل تفاصيل حياته وبشكل كامل. إن ما قاله الكاهن نقلاً عن سعاده واضح تماماً أنه غير صحيح، وإن الكاهن استرسل كثيراً باختراعه لروايات نسبها لسعاده. مثل على ذلك قوله: «وقد رسم إشارة الصليب على وجهه ثلاث مرات متتالية وكرر أقوالي: يا الله اغفر لي أنا الخاطئ، وبعد ذلك ناولته القربان المقدس فتناوله». كما أنه من السهل تماماً نفي مزاعم الخوري بأن سعاده قال أمامه: «راحت عليك يا أنطون،... وهكذا كان تسليمي إلى الحكومة اللبنانية العزيزة فصدقت بي الآية المسيحية: مثل خروف سيق به إلى الذبح». قد يكون الخوري برباري قصد خيراً وأراد أن يقول إن سعاده هو مؤمن وليس كافراً، لكن أن تعمد جريدة البناء على نشر وترويج هكذا ترهات فإنه لواضح أن الدوافع هي بيع وشراء حتى ولو كان على حساب الحقيقة وقدسية استشهاد سعاده والقضية التي من أجلها استشهد. إن دور الكنيسة الأرثوذكسية والدور السياسي الذي كان يلعبه البطريرك والأدوار التي وزعها على مطراني بيروت وجبل لبنان

إيليـا كـرم وإيليا صليبي، واحد يحتضن القوميين الفاريـن من الاضطهاد وواحد يحتضن مضطهديهـم (مذكرات الرفيق متى أسـعد في كتابه: الماضي المجهول وأيام لا تنسـى ص 74) كان دوراً سيئاً جداً لا يتفق أبداً مع الدور الروحي الطيب الذي كان من المفترض أن تلعبه. إن موقف الكنيسـة الأرثوذكسية من الحكم على سعاده بالإعدام عندما استشارها رياض الصلح باعتبار أن سـعاده «أحد رعاياها» كان دوراً منحازاً للمجرمين والمتآمرين ومتواطئـاً معهـم. في ذلك يروي متى أسـعد في مذكراته ما قاله له المطران إيليا كرم سـنة 1962 عندما كان في حمايته، يقول: «عندما علم خليل ابن بشارة الخوري الذي كان مقرباً من الحزب القومي أن حكم الإعدام صدر بحق الزعيم سعاده، دخل على أبيه وطلب منه تخفيض الحكم إلى المؤبد فقال له بشـارة الخوري: اذهب إلى مطران بيروت إيليا الصليبي واطلـب منـه أن يتصل بي هاتفياً ويطلب مني تخفيض الحكم وأنا بدوري سـأُعلِم رياض الصلح بأن الطائفة الأرثوذكسية تطلب تخفيف الحكم. وعندما ذهب خليل الخوري ليلاً في 7 تمـوز إلى مطرانية بيروت، وبعد جهد سـمح له بمقابلـة المطران الصليبي وطلب منه الاتصال بوالده، غير أنه لم يستجب وقال له: روح خليهم يخلصونا منه» (الماضي المجهول ص 74).

لم تكتفِ الكنيسـة الأرثوذكسية بالسكوت على جريمة قتل سعاده، بل والتواطؤ مع القتلـة، بل إنها كرّمت هؤلاء القتلة ومنحتهم الوشـاح الأكبر لوسـام القديس مرقس. ينقل متى أسعد هذا الخبر عن الباحث المرحوم أنطوان بطرس من كتابه «أنطون سعاده من التأسيس إلى الشهادة- المجلد الثاني»، يقول:

«في التاسع من كانون الأول 1950 احتفل في ديوان رئاسة الوزارة اللبنانية بالسراي بتقليـد ريـاض الصلح الوشـاح الأكبر لوسـام القبر المقـدس المهدى إليه مـن بطريرك الاسـكندرية وسائر إفريقيا الأرثوذكسي، وناب عنها بالاحتفال المطارنة إيليا الصليبي ونيفـون سـابا وإيليا كرم بحضـور وزراء العدلية والاقتصاد والماليـة والزراعة وهنري فرعـون وأديب الفـرزلي. وقد أطرى المطران الصليبي خدمـات رئيس الوزراء للطائفة والملـة. وذكـرت بعض المصادر أنه سـبق تقديم الوسـام مبـادرة تقدير مـن قِبل رئيس الوزراء تجاه آباء الطائفة في بيروت بسبب دعمهم لقراراته» (متى أسعد ص 75).

نعرف أن هذا موضوع مسـتقل وكبير يتعلق بعلاقة الدين والدولة وتحوّل الدين إلى وسـيلة تسـتعملها الدولة لإخضاع الشـعب الموزع في ولاءاته على المرجعيات الدينية،

كما يتعلق بتجنيد الماسونية العالمية لكثير من رجال الدين والسياسة واستعمالهم لتنفيذ أهداف أكبر منهم ولا طاقة لهم على رفضها. لكن يجب القول هنا إن الكاهن برباري لم يكتب رسالته المذكورة آنفاً إلا بطلب من المطران، على اعتبار أن مضمونها هو من الأسرار الكنسية لا يجوز البوح به إلا بإذن أو إيعاز من المطران. لا شأن لنا في الأمور الكنسية لكن لنا كل الشأن فيما يتعلّق بسعاده وبالحزب، فنشر جريدة الحزب لرسالة الكاهن برباري في 8-7-74 أي قبيل الحرب الأهلية اللبنانية الطائفية بعدة أشهر، يبرهن عن طواعية مسؤولي الحزب للأهداف الخفية المشبوهة لأعدائه. إن ثمة من أراد إشراك الحزب في ذلك الأتون الطائفي كحزب للروم في مقابل أحزاب لكل من الطوائف الأخرى.

والفرنسيون يتلاعبون بالحزب أيضاً ورئيس الحزب «يا غافل إلك الله»

نعود إلى متابعة التاريخ مع عبدالله سعاده، إن أبرز محطة من محطات تاريخ الحزب مع عبدالله سعاده هو تاريخ انقلاب 61-62 الفاشل والعجائب والغرائب التي يرويها لنا. إن عبدالله سعاده، كما في الدعم المالي الأميركي، لم يفقه سبباً للعرض الفرنسي هذه المرة من وزارة الخارجية الفرنسية مباشرة «بمساعدة الحزب للوصول إلى السلطة وبدعم مالي وسلاحي وسياسي كامل»، إلا متأخراً. يقول: «ارتحت كثيراً إلى الوعد بهذا الدعم السياسي والمادي لنا للوصول إلى السلطة، ولكنني لم أعرف سبب هذه الحماسة الفرنسية إلا فيما بعد» (صفحة 74). صحيح أن عبدالله سعاده عاد ورفض هذا الدعم، ولكن بعدما رفضه قبل ذلك الجنرال ديغول من أجل صديقه الجنرال فؤاد شهاب. إن تصرف عبدالله هذا وغفلته هذه كانا نقطة في بحر تصرفات سلفه أسد. إنه قد ورث هذه الخصال وراثة من أسلافه في قيادة الحزب ومجالس الحزب خاصة عندما كان أسد الأشقر له حصة الأسد فيها، أكان في المجلس الأعلى أو في رئاسة الحزب. مثلاً قصة العشرة آلاف دينار أردني التي دفعها الملك حسين لأسد، «وكانت مشروطة بتنفيذ الحزب لبعض الأعمال لمصلحة الحكومة الأردنية في لبنان والشام». هذا المبلغ الذي أعاده عبدالله ورفض شروطه ولكن عاد فقبله «كهدية غير مشروطة من الملك حسين» (صفحة 101). ولأن الشيء بالشيء يذكر، وعلى سيرة الملك حسين، فإن سامي خوري يقول:

«تمكنت من مغادرة لبنان حاملاً جواز سفر أردني خاص. كان الحزب قد طلب مجموعة من جوازات السفر من الملك حسين لتنقل بعض مسؤوليه لعدم وجود وثائق

رسمية لديهم، ومنهم عيسى سلامة وسامي خوري وغيرهم» (ص 389). هل كانت هذه الجوازات دون ثمن يدفعه الحزب؟

عودة إلى الانقلاب، إن السذج وحدهم يظنون أن مرحلة التحضير للانقلاب والاتصالات التي جرت ببعض الضباط غير القوميين مثل فؤاد لحود وغطاس لبكي وغيرهما، والسياسيين اللبنانيين مثل شمعون وريمون إده وسليمان فرنجية وصائب سلام وإبراهيم الأحدب وإدوار حنين وجواد بولس وسليمان العلي وغيرهم، كانت خافية عن عيون السفارات الأجنبية الفاعلة حتى في التعاطي في أصغر السياسات المحلية اللبنانية، فما بالك بمسألة مثل مسألة تغيير السلطة برمتها والانقلاب عليها؟ والسذج وحدهم يصدقون أن الأجهزة الحكومية اللبنانية لم تكن عارفة بما يعده الحزب ويستعد له. يخبرنا سامي خوري (ص 406) أن عبدالله قبرصي عندما قابل المقدم جلبوط مدير الأمن العام استشف منه أن الحكومة على اطلاع تام بما يخطط له الحزب ووصف الانقلاب بأنه «المغامرة الكارثة»، فهل يعقل ألا يكون قبرصي أخبر عبد الله سعاده بذلك؟

في اليوم التالي لفشل الانقلاب، قبل بدء التحقيق وقبل بدء استجواب عبدالله سعاده في المحكمة العسكرية، يذكر لنا ويقول: «...وشاهدت هناك العقيد فؤاد لحود وأخاه الذي بادر الموجودون بأن يسألوني إذا كان ضالعاً في الانقلاب، فنفيت اشتراكه...»، فهل من شك في أن لحود كان قد خضع لمساءلة من رؤسائه، قبل يوم الانقلاب، عن مدى علمه أو حتى اشتراكه في الانقلاب؟ ألا يبرهن هذا المشهد أن السلطة اللبنانية كانت عارفة بالاتصال الذي تم مع لحود؟ ثم هل كان رئيس الحزب ومعاونوه متأكدين من أن السياسيين الطائفيين في لبنان الذين فاتحوهم بالانقلاب لن يبيعوا هذه المعلومات للسلطة لقاء ثمن تعودوا أن يقبضوه ويقبضوا أبخس منه؟

ويذكر لنا عبدالله سعاده أنه أوفد الرفيق نقولا طراد لمقابلة المسؤولين في الخارجية الفرنسية، الذين «أبدوا تقديرهم الكبير للحزب الذي برغم الصعوبات استطاع أن ينمو وينتشر مخترقاً الحواجز الطائفية والإقطاعات السياسية، وأن حزباً أصيلاً يتمتع بهذا الصبر والإيمان لم يعد جائزاً إلا مساعدته للوصول إلى السلطة، وعرضوا الدعم المالي والسلاحي والسياسي الكامل...» (ص 74). ألم يخطر في بال رئيس الحزب ومعاونيه أن أهدافاً مشبوهة وخطيرة وخطرة يجب أن تكون وراء هذا المديح والاستعداد

الكاذب للمساعدة المالية والتسليحية والسياسية الكاملة التي أغدقتها وزارة خارجية الدولة التي تآمرت على وحدة سورية وسيادة سورية في سيفر ولوزان وسان ريمو، وفي سايكس بيكو وسلخ لواء الاسكندرون وكيليكيا وبيعهما إلى تركيا، والتآمر على سعاده ومحاولة قتله في السجن ثم نفيه وإنشاء أحزاب طائفية لمحاربته والحد من انتشار حزبه وعقيدته وقضيته؟ وهل معقول أن «يرتاح» ويأنس رئيس الحزب لهذا الأمر ويقول: «ولكنني لم أعرف سبب هذه الحماسة الفرنسية إلا فيما بعد»؟!

القياديون الحزبيون يهربون أو يختفون تاركين الحزب والقوميين فريسة بين أيدي السلطات المتلهفة للقضاء عليهم، تماماً كما حدث سنة 55 في الشام، كان بإمكانهم على الأقل المفاوضة على الضباط المعتقلين لديهم ووضع شروط بعدم ملاحقة أعضاء الحزب، ولو كان عندهم حسّ بالمسؤولية وقليل من روح سعاده وقدوته لكانوا استقالوا فوراً من مسؤولياتهم في اليوم الأول لوجودهم في السجن أو في أماكن هربهم، قبل أن يطردوا منها. لن نزيد في سرد المزيد من هذه العجائب والغرائب. سنتوقف هنا ولن نذكر كل ضروب وفصول اختراق الحزب وجعله مكشوفاً وعرضةً لنشاط المخابرات الأجنبية واستعمالها واستثمارها فيه.

الأسئلة الكبيرة والجواب الضائع

ولن نذكر كل ضروب وفصول الصراع على السلطة الذي طبع تاريخ الحزب ورافق القيادات الحزبية ولازمها حتى اليوم. فهذه صارت صفة وحالة ملازمة للأقسام الثلاثة الرئيسية لهذا الحزب سيئ الطالع بقياداته الممعنة فيه تقسيماً وخراباً. لكن هذا الوضع المأساوي يطرح سؤالاً كبيراً، بل قضية أساسية جوهرية هي:

ما هي الأسباب الحقيقية التي تجعل الوصوليين والفاسدين وأصحاب النزعة الفردية يصلون إلى قيادة الحزب، أي إلى قيادة هؤلاء الرفقاء القوميين الاجتماعيين الجنود الأوفياء لسعاده ولعقيدته ونظامه، هذه العقيدة وهذا النظام الذي يحارب الوصولية والفساد والنزعة الفردية ويكافحها؟. ما هي الأسباب الحقيقية التي تقف وراء اختراق هذا الحزب الذي حصّنه سعاده بنظام بديع وقال عنه «**إنه النظام الذي لا بد منه لتكييف حياتنا القومية الجديدة ولصون هذه النهضة العجيبة التي ستغير وجه التاريخ من تدخل العوامل الرجعية التي لا يؤمن جانبها والتي قد تكون خطراً عظيماً يهدد كل حركة تجديدية بالفساد...**»؟ (الخطاب المنهاجي الأول).

ما هي الأسباب الحقيقية التي تجعل القوميين الاجتماعيين المفترض أنهم واعون لعقيدتهم ونظامهم ولخطورة غاية الحزب وقضيته التي تساوي وجودهم كله، يقبلون بأن يصبحوا «أكواماً من الرجال» لا يفهمون من النظام إلّا مجرد طاعة عمياء لمن قسّموا حزبهم وأضعفوه ويمعنون فيه تقسيماً وإضعافاً؟!

إن ما نسمع عنه من «معارضة» في صفوف القوميين، أكان من الداخل أو من الخارج، لا يكفي أبداً لمكافحة الفساد في الإدارة المركزية، بل إن العكس هو الصحيح. إن مجرد المعارضة، من الداخل أو من الخارج على السواء، هي ما يرتاح له القابضون على الأحزاب من فوق، من رأسها، إنها ما يمدّهم بمصل البقاء بحجة «اللعبة الديموقراطية»: سلطة ومعارضة! هذا فضلاً عن أن طبيعة الحزب السوري القومي الاجتماعي وقضيته ونظامه لا تقبل بمعارضة وموالاة، لا تقبل بأقل من «وحدة قضية ووحدة قيادة ووحدة سياسة» حسب تعبير سعاده (انظر رسائله بين سنتي 46 و47 قبيل عودته إلى الوطن، وقد أوردنا نماذج عنها في الفصل الثاني). أعتقد أن المطلوب هو استعادة حزب سعاده، استعادة جذرية وكاملة وعدم التعايش مع الانقسام والانشقاق والفساد، بل اجتثاثه ومعاقبة مرتكبيه، ثم الاعتذار من الشعب للتأخر في استعادة حزب سعاده لأصحابه الحقيقيين.

نسمع عن محاولات أخرى أكثر جديّة من مجرد معارضة، ولسنا ندّعي معرفة برامجها وأهدافها القريبة والبعيدة. قرأت منذ حوالي سنة أو أكثر بقليل مقالة في مجلة الفينيق الإلكترونية للرفيق أسامة المهتار، يقول:

«على القوى الحية المتبقية من السوريين القوميين الاجتماعيين أن تجد بعضها بعضاً وأن تلتحم في كتلة متراصّة لمواجهة تحديات الواقع الحزبي الراهن. والواقع الحزبي الراهن هو ثلاثة مراكز انشقاقيّة تتعاطى السياسة للسياسة وتتناكف فيما بينها ويجمعها الجهل المطبق في أهمية نظرة الحزب إلى الحياة وغايته، وأهمية وضع الخطط الحزبية والبرامج العملية لتحقيقها. ويجمعها كذلك، وإن بنسب متفاوتة، الفساد والصنمية والانحراف».

أما عن كيفية «مواجهة تحديات الواقع الحزبي الراهن» والشكل الذي ستأخذه والمدى الذي ستذهب إليه، فيبقى رهن المستقبل، إنه موضوع آخر وله كلام آخر وكتاب آخر...

الملاحق

الملحق الأول

عبد المسيح العقائدي وعصام المحايري العروبي وإنعام رعد الثوري

هناك سببان اثنان لتضمين هذا الكتاب بحثاً مستقلاً في عقائدية عدد من معاوني سعاده قبل استشهاده، هما:

أولاً، البرهان على أن معاوني سعاده كانوا مبهورين بعلمه وعقيدته- فلسفته، كما بشخصيته وقدرته ومؤهلاته المتعددة، أكثر بكثير من فهم وإدراك عمق هذه الفلسفة- العقيدة.

ثانياً، البرهان أن الانقسام الحزبي الذي ارتكبه معاونو سعاده بعد استشهاده لم يكن إطلاقاً بسبب الخلاف على العقيدة أو أن هؤلاء هم منحرفون وأولئك هم عقائديون، بل بسبب الصراع على الحزب، أي الصراع على السلطة في الحزب وادعاء أحقيتها لهذا الطرف أو ذاك.

هذان هما السببان الوحيدان لهذه المناقشة، وليس السبب هو مجرد المجادلة العقائدية.

نعرف أن جماعة ما صار يعرف بالانتفاضة، أو جماعة عبد المسيح، يعتبرون أنفسهم ويعتبرون عبد المسيح «ضمانة عقائدية»، ويتهمون جماعة الطرف الثاني بالانحراف عن العقيدة ويصفونهم بالمنحرفين. وأن كل المحاولات التي بذلها قوميون كثر مخلصون راعهم أن يروا الحزب منقسماً وأن يصبح الانقسام حالة دائمة ومستمرة، فعملوا ولا زالوا يعملون على إعادة الوحدة إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي كما بناه سعاده وأراده أن يكون، إن كل محاولات هؤلاء اصطدمت بشرط غير عملي وغير مفهوم وغير قابل للتطبيق هو «درس العقيدة». إن درس العقيدة يجب أن يكون عملاً بدهياً ومستمراً ودائماً لا ينتهي في الحزب، لكن ما هو غير عملي وغير قابل للتطبيق هو أن يتحول «درس العقيدة» شرطاً يجب تنفيذه قبل تحقيق وحدة الحزب، كي نقبل بهذه الوحدة! فمن يُدرّس من ومن يفحص من ومن يعطي علامات نجاح أو رسوب لمن؟ ومن يقرر مدة الدرس ومتى ينتهي هذا الدرس أو أنه سينتهي أم لا؟ إن تفاوت

الأعضـاء في فهم العقيدة والإيـمان بها والقدرة على شرحها هو حالة بدهية كانت قائمة خـلال وجود سـعاده، وسـتبقى قائمة في كل وقـت، ولم تؤد إلى انقسـام الحزب خلال وجـود سـعاده ولا يجـب أن تؤدي إلى انقسـام الحـزب بعده، فلا يجب طرحها كشرط مستحيل التطبيق لإعادة وحدته إلا إذا كنا لا نريد للحزب أن يتوحد.

سـنبدأ بأخذ نموذج عقائدي هو جورج عبد المسـيح وسـنرى كم هو يشكل، أو لا يشـكل، «ضمانة عقائدية» حسـبما يصف نفسـه ويصفه مريدوه. كما سـنأخذ نماذج من كتابات قطب في الطرف الآخر هو عصام المحايري، وسـنرى أن الطرفين متسـاويان في مسـتوى فهم العقيدة وإدراك أسسـها، وأن لا أحد يسـتطيع الادعاء أنه افضل من أحد في هذا المجال. وإذا كان هناك من فارق فهو فارق في أسلوب هذا الشخص أو ذاك وفي الموضوع الذي يميل إلى الكتابة فيه.

جورج عبد المسيح العقائدي

في مقدمة كتاب «من يوميات عبد المسيح» طبعة سنة 1986، وتحت عنوان «مدخل» يقـول أ- ح (المرجـح أنـه اليـاس حبيب) عن عبد المسـيح ما يلي: «بلغ مدى من سـمو الفهم للفلسـفة القومية الاجتماعية وأسسـها العلمية غاب فيه عن أنظار الكثيرين نحو العلاء، إلّا الذين مسّت بصائرهم أنوار الفكر القومي الاجتماعي».

وعبـد المسـيح يقـول عن نفسـه أيضاً إنـه كان المسـؤول الأخير عن كل مـا يطبع في جريـدة الجيل الجديد، وإنـه كان المشرف الفكـري عليها، هكـذا: «إن تعليمات الزعيم كانـت واضحـة بأن لا يصـفّ العمال أي مقال أو خـبر إلا إذا كان مجازاً مـن الزعيم أو من الأمين جورج عبد المسـيح المسـؤول الأخير عن كل ما يطبع». حتى إن عبد المسيح لا يوافـق وكيل عميد الثقافة هشـام شرابي إذ يقـول هذا الأخير عن المقال الذي كتبه في موضوع حياتنا الجديدة، بإمضاء زينون: «وأعطيت المقال لوديع الأشـقر المسـؤول عن التحرير فنشره دون تعليق في الصفحة الرابعة». العم لا يوافق ما قاله هشام، بل إن العم يقول: «كان وديع الأشـقر مسـؤولاً عن ترتيب الجريدة وليس عن التحرير، ومقالات فكرية من هذا النوع لم تكن تنشر بدون المشرف الفكري على الجريدة»، بما يعني أن عبد المسيح هو نفسـه كان المـشرف الفكري على الجريـدة وليس وكيل عميد الثقافة هشـام

شرابي ولا رئيس التحرير وديع الأشقر الذي لم يكن، حسب عبد المسيح، إلا مسؤولاً عن ترتيبها (بدأ جمراً ص 184- 185). لكن عبد المسيح يعود بعد قليل ويخالف قوله السابق ويعترف بأن وديع الأشقر كان رئيساً للتحرير (بدأ جمراً. ص210).

في مقابل هاتين الشهادتين الإيجابيتين بعبد المسيح، شهادته هو بنفسه وشهادة كاتب مقدمة يومياته، سنورد هاتين الشهادتين المعاكستين، واحدة لهشام شرابي وواحدة لعصام المحايري.

يقول عصام المحايري عن عبد المسيح العقائدي ما يلي: «لم يقم السلطان المعنوي لعبد المسيح على زاد فكري عقائدي يستقطب عقول القوميين الاجتماعيين ويكون له دوره في انشدادهم إلى صاحبه. فلم يُعرف عن عبد المسيح قبل استشهاد سعاده أي أثر فكري، ولا قام هذا السلطان على مواقف قيادية تميزت بالإدراك العالي والبصيرة النفاذة، ففي غياب الزعيم لم يتميز عبد المسيح عن نظرائه سائر أعضاء القيادة المركزية التي جاء الزعيم يصحح مسارها بعد إدانته بعض مسالكها المنحرفة، وإنما قام سلطانه المعنوي في النفوس على أسطورة العنف وقوة البأس المنسوبة لسيرته وتاريخه...» (من حديث لعصام في جريدة الحياة في 23-4-2000، ثم في البناء وقد نقله بشير موصلي في كتابه ص 571).

أما هشام شرابي فيقول عن عبد المسيح الكاتب والصحافي والعقائدي ما يلي: «كانت أفكاره غامضة وطريقة تعبيره صعبة وملتوية... كان يريد أن يبرهن لنفسه وللحزب أنه سعاده آخر، ومن هنا انفجر ذلك السيل الذي لا ينقطع من الكتابة. أفكار ناقصة غريبة أربكت القراء وأدت إلى بلبلة فكرية واسعة في صفوف الحزب» (الجمر والرماد- وأيضاً أوردها العم في رده على هشام. بدأ جمراً وانتهى رماداً. ص 199- 200).

ولكي نخرج من حلقة المديح والهجاء سنورد نماذج عن كتابات لعبد المسيح العقائدية كالتالي:

الغموض

لقد اخترت أنموذجاً من كتابات عبد المسيح من الصفحة 33 من كتاب «من وحي النهضة» صدر سنة 1999، يقول: «أيها الرفقاء إن فهمنا للنظرة القومية الاجتماعية

مساعد لنا في التفقه في مفاهيمها ومقاييسها الشاملة. ومن هنا حرصنا على عدم إبراز الأعمال التي نقوم بها فيما هو حق مجتمعنا ووطننا على كل امرئ إمكانية، في هذا المجتمع الحي، سواء كان على أرض الوطن أو في أي مكان على الأرض. وإذا سجلنا في سيرنا بعض الأعمال الفذة يقوم بها رفقاء قدوة في الصراع والفداء وأزكى الشهادات، فلسنا نجاري العادات التي يتمرس بها الذين ما زالوا في جاهلية الفكر اللاقومي اجتماعي».

إن من يقرأ هذه الفقرة القصيرة، وقد اخترتها اختياراً عشوائياً كمثَل فقط، يحتاج لإعادة القراءة أكثر من مرة والتوقف والعودة إلى الوراء ثم محاولة ضبط المقاطع والبحث عن علاقتها ببعضها، من أجل استخراج المعنى المقصود، دون نتيجة حاسمة. فالمعنى المقصود غير واضح أبداً، والنص يحتوي عدة أفكار لا علاقة لبعضها بالبعض الآخر. نحاول أن نقرأ ما قبلها علّنا نفهم السياق الذي أتت فيه ونفهم المعنى المقصود منها، فنجد أن الموضوع هو رسالة أولى من 12 رسالة بعثها العم إلى الرفقاء في الوطن وعبر الحدود سنة 1969، وهي رسائل تعليمية توجيهية أعادت عمدتا الإذاعة والثقافة طباعتها وجمعتها في كتاب واحد سنة 1999.

نعود إلى النص محاولين فهمه. مطلعُه يفيدنا أن فهم النظرة هو مساعد لنا في التفقه في مفاهيمها ومقاييسها الشاملة. الفهم هو مساعد على التفقه، لكن ما الفرق بين الفهم والتفقه؟ وما معنى أن تكون المقاييس شاملة؟

لنكمل، «ومن هنا حرصنا على عدم إبراز الأعمال التي يقوم بها...». ماذا يقصد في قوله: «ومن هنا»؟ إن (ومن هنا) هي عبارة وصل وعلاقة بين فكرتين مثل (لذلك) أو (لهذا السبب)، لكن ما هي العلاقة بين الفهم المساعد في التفقه وبين الحرص على عدم إبراز الأعمال التي نقوم بها؟ ثم لماذا نحرص على عدم إبراز الأعمال التي نقوم بها؟ لماذا نخفي أعمالنا؟ أليس من الأفضل أن نبرز أعمالنا الجيدة لشعبنا كي يقتدي شعبنا بنا؟

لنتابع النص، «وإذا سجلنا في سيرنا بعض الأعمال الفذة... فلسنا نجاري العادات التي يتمرس بها الذين ما زالوا في جاهلية الفكر اللاقومي اجتماعي». فهل هي سيئة عادات إبراز الأعمال الفذة؟ ولماذا؟ وهل الذين لا زالوا في جاهلية الفكر اللاقومي اجتماعي يسجلون أعمالاً فذة؟! وأيضاً، لماذا نحن نحرص على عدم إبراز أعمال نقوم

بها ثم نسجل أعمالاً فذة أخرى نقوم بها؟ كيف نقرر ونختار ما نخفيه وما نبرزه؟ وما علاقة كل ذلك بالفهم المساعد على التفقه؟

هذا مثل عن كتابات عبد المسيح التي تتطلب مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلاً في محاولة فهمها، ما يجعل القارئ يعافها ويتركها.

خذ هذا المثل الآخر من مقالة «صحة التعبير الحياتي» من كتاب البناء الاجتماعي صفحة 171: «الجزء فيه ما في الكل من فعل القوة الإرادي لتحقيق ما هو أفضل. الفرد- في الاصطلاح العددي- هو جزء من المجتمع. وهو في استمرار وحدة الحياة- المجتمع إمكانية المجتمع للتعبير الصحيح عن ذاته. وحقيقة المجتمع الشاملة- وهي في حقيقة أجزائه التي لا تتجزأ- تظهر في هذا التعبير الكلي في الكل. ووعي هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الإنسان الكامل، المجتمع، تجعل الفرد- الإمكانية الاجتماعية للتعبير- المعبر الفعلي عن صحة خصائص النفسية في العمل المتنوع لسد حاجات المجتمع المتنوعة، في الانسجام الطبيعي البديع». وهل نلوم هشام شرابي إذا قال عن كتابات عبد المسيح: «كانت أفكاره غامضة وطريقة تعبيره صعبة وملتوية»؟

المدرحية

ليس من الصعب أبداً لمن يقرأ سعاده في جميع كتاباته أكانت علمية كما في كتاب نشوء الأمم، أم كانت عقائدية وفلسفية كما في مؤلفاته وأعماله الأخرى من مقالات ومحاضرات وخطب ورسائل وشروح في العقيدة، أن يرى كيف أنه ينظر إلى الحياة كلها وفي جميع شؤونها نظرة مادية روحية، أي نظرة تأخذ بجميع العوامل والقوى المادية والروحية الفاعلة والمتفاعلة والموجودة معاً ودائماً في كل شأن من شؤون الحياة الإنسانية. وسعاده الحريص على الجلاء والوضوح في كل أمر قد شرح المقصود من «الروح» بأنه كل ما هو قيمة إنسانية نفسية لا تقاس ولا تزان ولا تُحَدّ في مكان وزمان معين، مع كونها اجتماعية فاعلة في الحياة ضمن هذا الوجود وليست مفارقة أو غيبية، إنها القيم الاجتماعية الإنسانية التي ليس لها تحديد واحد في العالم لأنها ليست مادية. ويعطي مثلاً عن هذه القوى الروحية الفاعلة في الحياة مثل الحق والخير والجمال والعدالة وسائر القيم النفسية التي يتميز بها الإنسان (نظرة سعاده إلى الإنسان. الأعمال الكاملة 8 ص 174). إنه

لواضح جداً للجميع أن سعاده ينظر إلى الوجود والحياة الإنسانيين نظرة مادية روحية، أي مدرحية، ولكن ما هو غير واضح للكثيرين هو التالي:

هل هذه النظرة المدرحية إلى الحياة والوجود الإنسانيين هي نظرة فلسفية أم نظرة عادية؟ وما هي الخصائص أو الميزات التي تعطي لنظرة معينة إلى أمر معين صفة «نظرة فلسفية» أو لا تعطيها؟

أيضاً: إذا اتفقنا أن النظرة المدرحية هي نظرة فلسفية، وليست مجرد نظرة عادية، فهل هذا يعني أن المدرحية، كنظرة فلسفية، هي كل فلسفة سعاده أم أنها فقط جزء من فلسفة سعاده أو صفة من صفاتها أو ميزة من ميزاتها؟ وبكلام آخر: هل إن المدرحية تختصر وحدها وتتضمن وحدها كل فلسفة سعاده وأبعاد هذه الفلسفة وصفاتها وميزاتها وأصولها وفروعها و...؟؟ وهل المدرحية كنظرة فلسفية تصلح لتكون هي اسماً للفلسفة القومية الاجتماعية أم فقط ميزة أو صفة من ميزاتها وصفاتها؟

بين تشرين الأول وتشرين الثاني من سنة 1950 كتب عبد المسيح في جريدة الجيل الجديد الدمشقية ثلاث مقالات تحت عنوان واحد: «قواعد الانطلاق في المدرسة المدرحية»، ثم نشرها في كتابه «البناء الاجتماعي» سنة 1993 صفحة 72 إلى 78. العنوان يوحي بأنه سيكتب شيئاً في هذه المقالات عن المدرحية كفلسفة، ذلك أن قواعد انطلاق الفكر تعني المبادئ الفلسفية. لكنه في مقالاته تلك يتكلم عن كل شيء ما عدا المدرحية، لم يذكر المدرحية لا مباشرة ولا مداورة، لا كفلسفة ولا غير فلسفة، ما يجعلنا نتذكر قول هشام شرابي في كتابه الجمر والرماد أن العم كان يجيب من يسأله عن المدرحية ومعناها: «انتظروا عودة هشام من أميركا فهو يشرحها لكم»، وقد ذكر هشام الرفيق حنا دميان كواحد من السائلين.

نحن إذا حاولنا أن نجد في كتابات عبد المسيح الأخرى، عندما يتطرق إلى المدرحية، أجوبة على الأسئلة التي طرحناها فوق، نجد أنه متردد ومختلف لحد التناقض وغير واثق مما يقول، فهو لا يعطيك رأياً واحداً ثابتاً واضحاً عن معنى المدرحية إذا ما كانت مجرد لفظة أو كانت نظرة فلسفية.

مثلاً، في كتاب «رسالة من رسالة» سنة 1972 يقول لنا: «إن المدرحية ليست هي

الفلسفة التي تقدمها النهضة»، و»المدرحية هي لفظة وليست نظرة»، وأيضاً «إن سعاده ذكر لفظة مدرحية مرة فقط في رسالة واحدة من رسالاته التوضيحية» (رسالة من رسالة ص 231– 233). بينما نحن نعرف أن سعاده يذكر لفظة مدرحية مرات عديدة وفي أماكن عديدة وليس مرة واحدة فقط في رسالة واحدة فقط كما يريد ويقول عبد المسيح، ونحن نعرف أيضاً أن سعاده عندما يذكر لفظة مدرحية يذكرها كنظرة فلسفية وليس مجرد لفظة دون محتوى فلسفي. سعاده يستعمل عبارة «مادي روحي» مرات كثيرة جداً، ويدمج هاتين الكلمتين ويستعمل كلمة «مدرحية» عدة مرات وليست مرة واحدة. استعملها في رسالته الشهيرة إلى القوميين من الأرجنتين في 10 كانون الثاني 1947، واستعملها أيضاً ثلاث مرات في كلمته في مؤتمر المدرسين صيف 48 (رسالة الحياة القومية الاجتماعية وفلسفتها المدرحية إلى الأمة السورية وإلى الأمم جميعاً، ورسالتها الاجتماعية وفلسفتها المدرحية، والرسالة القومية الاجتماعية المدرحية)، ومرة في مقالته «لائحة العقاقير لا تصنع طبيباً» (النظرة المدرحية إلى الحياة والكون والفن)، ومرة في مقالة «الأمة تريد نهضة لا حلة (نظرة مدرحية إلى الحياة والكون والفن). وفي كل مرة كان يستعملها بالمعنى الفلسفي، حيث يكون يتكلم على الفلسفة وأساس الارتقاء الإنساني والنظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن.

أما في سنة 78، وفي ردّه على هشام شرابي عاد عبد المسيح وغيّر مقاربته للمدرحية وصار يعتبرها «فلسفة جديدة» وليس مجرد لفظة. يقول: «إن العالم اليوم يحتاج إلى فلسفة جديدة لا ترى العالم حقل صراع بين القائلين بالروح وبين القائلين بالمادة، إنها المدرحية. إنها حقيقة الوجود كما هو ليس مادياً محضاً ولا روحياً محضاً، إنه كما هو مادي– روحي بلا ازدواجية، وليس مادة مشبعة بالروح ولا روحاً مغلفة بالمادة. لا ثنائية. وليست المدرحية هي فلسفتنا، بل الوجود الإنساني للإنسان الكامل– المجتمع. المدرحية ميزة الوجود ويمكن أن نعتمدها في البحث في بدل الكل عن الكل.» (بدأ جمراً ص 187).

هكذا لا يعطيك عبد المسيح رأياً واضحاً ثابتاً، ففي هذا النص الواحد الذي لا يتجاوز عدة أسطر نقرأ أن المدرحية هي الفلسفة الجديدة التي يحتاجها العالم، كما نقرأ في نفس الوقت وفي نفس النص أن المدرحية ليست هي فلسفتنا! أما كيف «يمكن أن

نعتمدها في البحث في بدل الكل عن الكل» فلا أحد يعلم ما معناه أو ماذا يقصد به عبد المسيح.

إن هذا الارتباك والتردد والغموض والتناقض عند عبد المسيح في مقاربته للمدرحية، في مقابل الوضوح والجلاء وسهولة العبارة عند سعاده، يجعلنا لا نوافق على وصف عبد المسيح بأنه «ضمانة عقائدية» بل يجعلنا نميل إلى توصيف هشام شرابي له بأنه «كانت أفكاره غامضة وطريقة تعبيره صعبة وملتوية».

إن ما يكتبه عبد المسيح في العقيدة يتطلب منك أن تخمّن وتقدّر وتفترض وتؤول وتحاول أن تفهم ماذا يقصد أن يقول. فقوله مثلاً بأن «المدرحية ليست هي فلسفتنا» يمكن أن يكون قصده منه التالي: المدرحية ليست هي الاسم لفلسفتنا، أو المدرحية ليست هي وحدها كل فلسفتنا، بل إن المدرحية هي ميزة فلسفتنا أو هي ميزة نظرتنا الفلسفية للوجود الإنساني. إننا نرجح أن يكون هذا ما يريد عبد المسيح أن يقوله، لكنه في مكان آخر يعيدنا إلى الوراء ويقول لنا إن المدرحية هي لفظة وليست نظرة، وعندما يقول إنها ليست نظرة كأنه يقول إنها ليست نظرة فلسفية.

أراني مدفوعاً بقوة الآن لأدلي برأيي في المدرحية ومعناها ومحلها من الفلسفة القومية الاجتماعية، مع أن هذا الكتاب ليس هو المكان لنشر آرائنا في الفلسفة، ولكن طالما أن الشيء بالشيء يذكر فلا بأس من إكمال هذا العنوان بهذا الرأي السريع التالي:

يظن الكثيرون أن المدرحية هي فكرة صعبة أو معقدة وبحاجة لمطولات وشروح طويلة ومعمقة وعويصة لإيضاحها، وهذا برأيي خطأ كبير. صحيح أن سعاده كان يفكر في تأليف كتب ثلاثة تكون المدرحية سمتها البارزة، ولكن لم يكن ذلك أولوية عنده، فعقيدة سعاده يمكن فهمها والاقتناع بها واعتناقها دون تلك الكتب الثلاثة الموعودة. فالرفيق الدكتور علي حمية مثلاً يذكر لنا أن سعاده كان قد عزم على تأليف كتاب خاص لشرح المدرحية (مقالة علي حمية: «يا ليته لم يؤسس حزباً»، مجلة اتجاه تاريخ 2 تشرين الثاني 2016)، وقد استشهد علي بكلام لسعاده في رسالة كتبها لإبراهيم طنوس في الأرجنتين، فلو أن علي حمية عاد إلى كلام سعاده المذكور وقرأه من جديد لوجد أن المدرحية لم تكن مدرجة في لائحة المواضيع التي كان سعاده عازماً على التأليف فيها.

ولـو أن المدرحية كانـت أولوية ملحة لكان أدرجها في لائحته. الرسـالة المذكورة كتبها سـعاده في 17-3-42 ويقول فيها: «...مع أني كنـت جهزت عنوانات الفصول لمؤلف فلسفي اجتماعي في طبقات الأمم أبحث فيه النظام السياسي- الاقتصادي- الاجتماعي الأنترنسيوني وأستخرج منه نظرة إلى العالم تعين اتجاهاً جديداً، ثم إني كنت قد أخذت في تخطيط موضوع فلسفي في الدولة وإنشاء نظام جديد لها يختلف عن النظام الذي اتخذته بعـد الثورة الفرنسـية. ولكن جميـع ذلك هو الآن مجرد رؤى. وفي مثـل هذه الحالة أجد كتاب نشوء الأمة السورية...» (الأعمال الكاملة ج 10 ص 250). واضح إذاً أن مؤلفاً عـن المدرحية كموضوع مسـتقل لم يكن مدرجـاً على لائحة المواضيـع والكتب الثلاثة التـي كان سـعاده ينوي كتابتهـا، وإن كنا نتوقـع أن النظرة المدرحية إلى الحياة سـتكون بـارزة في هـذه المواضيع كلها، تماماً كما كانت بارزة في جميع أعماله وأقواله وكتاباته حتى العلميـة منها، أي في كتاب نشـوء الأمم، نتوقع ذلـك لأن النظرة المدرحية هي نظرة إلى الحيـاة كلهـا وكل قضاياها السياسـية والاقتصادية والاجتماعية وأي بحث فلسـفي في هذه القضايا سـتكون المدرحية سـمته البـارزة. ففي كتابه «الـصراع الفكري في الأدب السـوري» يدعونا سـعاده: «...للاتصال بنظرة إلى الحياة والكون والفن جديدة تجسـم لنا مثلنا العليا وتسـمو بها وتصور لنا أمانينا في فكرة فلسـفية شاملة تتناول مجتمعنا كله وقضاياه الكبرى المادية الروحية من اجتماعية واقتصادية ونفسية وسياسية وفنية...».

ولسعاده إشارة أخرى إلى كتاب يشرح «**مبدأ الأساس المادي الروحي للحياة الإنسانية**»، لكن ليس كموضوع مسـتقل بل «**كبحث واسـع وفلسـفة كاملة في الاجتـماع والتاريخ**». هذه الإشـارة وردت في مقالة «بين الجمود والارتقاء» في كتاب الإسـلام في رسالتيه حيث قال: «**ومن اسـتعارات رشـيد الخوري قوله في الرسـالة المحمدية إنهـا مدرحية، أي مادي روحي معاً، فقد يظن القارئ غير المطلع أن هذا القول هو فكرة جديدة فلسفية للخوري، والحقيقة أنه مأخوذ من كتابي: نشـوءالأمم» ومن شرحي لمبادئ الحزب. فهو فكرة فلسفية اجتماعية أبديتها في مناسبات عديدة. وآخر ما أعلنته من أمر نظرتي الفلسفية كان في خطابي في أول آذار سـنة 1940 قلت: إن الحركة السـورية القومية الاجتماعية، لم تأتِ سـورية فقط بالمبادئ المحيية بل أتت العالم بالقاعدة التي يمكن عليها استمرار العمران وارتقاء الثقافة. إن الحركة السورية القومية الاجتماعية ترفض الإقرار باتخاذ قاعدة الصراع بين المبدأ المادي والمبـدأ الروحـي أساسـاً للحياة الإنسـانية، ولا تقـف حركتنا عند هذا الحد بـل هي تعلن**

للعالم مبدأ الأساس المادي- الروحي للحياة الإنسانية ووجوب تحويل الصراع المميت إلى تجانس يحيي ويعمر ويرفع الثقافة ويسير بالحياة نحو أرفع مستوى. إن المبدأ الذي جاء به سعاده هو نظرية فلسفية شاملة تتناول قضايا العالم الاجتماعية والاقتصادية وشرحها، ويقتضي كتاباً على حدة يبحث في المبادئ الماركسية المادية لتنظيم المجتمع، والمبادئ المازينية الروحية لتنظيم المجتمع والصراع بين هاتين الفئتين من المبادئ، ثم مبدأ سعاده الذي يخرج من القاعدتين المتصادمتين بقاعدة واحدة عامة يمكن أن تجمع عليها الإنسانية، وهو بحث واسع بل فلسفة كاملة في الاجتماع والتاريخ».

فالمدرحية إذاً هي، كما يذكر لنا سعاده، قول مأخوذ من كتابه نشوء الأمم ومن شرحه لمبادئ الحزب، وهي فكرة فلسفية أبداها في مناسبات عديدة لم يكن آخرها خطابه في أول آذار سنة 1940. وإذا كان يقتضي وضع كتاب على حدة يشرح المبدأ المدرحي الذي جاء به سعاده، فلن يكون كتاباً يتناول شيئاً جديداً بل كان سيكون كتاباً يتوسّع في الفكرة القديمة ذاتها لكن بتفصيل أكثر، كان سيكون كتاباً متخصصاً للمتخصصين في الفكر والفلسفة ودراسة الفلسفات المتصارعة في العالم، وهذا يمكن لتلامذة سعاده تأليفه بعد استشهاده. أما عامة الشعب فلم تكن بحاجة إلى هذا الاختصاص.

نقول ذلك لنميز بين الحاجة الملحة من جهة وبين الاقتضاء للمشتغلين في حقول الفلسفة من جهة أخرى. ولتوضيح فكرتنا أكثر نشير إلى أن سعاده كان يرى حاجة ملحة لوضع كتابه العلمي «نشوء الأمم» لدرجة أنه ألفه في السجن ودفعه للطبع قبل تنقيحه بسبب هذه الحاجة وهذا الإلحاح. أما الكتاب الذي ذكره في مقالة «بين الجمود والارتقاء» فإن سعاده لم يقل عنه إنه حاجة ملحة بل قال إنه يقتضي وضعه على حدة، أي إننا إذا أردنا الخوض في هذا «البحث الواسع في الاجتماع والتاريخ» فإن ذلك يقتضي وضع كتاب على حدة يبحث في هذه المواضيع.

إن سعاده كان قد أوضح عقيدته وكانت المدرحية ميزتها البارزة من الأساس، منذ البداية، وما كتبه فيها وعنها كان كافياً لفهمها واعتناقها لدى العامة من الناس. منذ البداية فَهِم المقبلون على عقيدة سعاده أنها تنظر إلى الحياة نظرة مادية- روحية، أي مدرحية، ترى الحياة الإنسانية تتأسس وتبنى وتتطور وترتقي بعوامل وقوى مادية وروحية معاً.

إن سعاده لم يكن بحاجة ليقول أكثر مما قال بهذا الخصوص، من أجل شرح عقيدته، وهو في كل كتاباته ورسائله وخطبه وبياناته وكل أعماله كان واضحاً أنه يأخذ بالأسباب والقوى والعوامل المادية والروحية معاً، ابتداءً من كتابه العلمي «نشوء الأمم» وتعريفه الأمـة «جماعة من البشر تحيى حياة موحدة العوامل المادية الروحية...» ومروراً بمبادئ الحزب ووصولاً إلى غايته وانتهاء باستشهاده.

وهكذا فالمدرحية هي أبرز صفة للفلسفة القومية الاجتماعية وأهم ميزة من مزاياها وأقوى خاصة من خصائصها، والمدرحية يمكن أيضاً أن نستعملها كاسم للفلسفة القومية الاجتماعية من باب تسمية الكل باسم الجزء أو باسم إحدى صفات هذا الكل، فلا يضير الفلسفة القومية الاجتماعية أبداً أن نسميها ونطلق عليها اسم الفلسفة المدرحية، أو النظرة المدرحية إلى الحياة والكون والفن، وإن سعاده سبق أن استعمل هذه العبارات بنفسه كما رأينا في الصفحة السابقة.

سأختم هذا الرأي السريع بهذه القصة الطريفة التي حدثت وكنت شاهداً عليها والتي تبرهن أنه ليس من الضروري أن نكون مثقفين في العلم والفلسفة ومختصين فيهما لكي نفهم النظرة المدرحية إلى الحياة:

الرفيق الشهيد سليم كان محدود الثقافة ولكنه غير محدود الإيمان بسعاده وقضيته المقدسة، أحب المواطنة سلوى حباً كبيراً ملأ له قلبه وعقله وروحه، لكنه لم يكن ليبوح لها بذلك بسبب ظروفه وفقر أحواله. كانت المواطنة سلمى تحبه هي أيضاً وتحب فيه رجولته وشهامته ولكنها كانت تصده كلما اقترب منها وحاول لمسها أو إمرار يده على شعرها، حتى إنها شككت بنواياه واشتكت من جسارته وما اعتبرته تحرشاً بها، لمدير المديرية. لما استدعاهما المدير معاً للاستجواب واستجلاء الأمر، قال الرفيق ثليم (الرفيق سليم) ما معناه: أنت يا حضرة المدير عندما تأخذك قوة الروح عند سماعك وإعجابك وانسجامك مع أحد الخطباء أو الشعراء تعبّر عن ذلك بالتصفيق، والتصفيق تعبير مادي عن شعور روحي، وعندما تأسرك هضامة طفلك وجماله ونقاوة روحه تعبّر عن ذلك بضمه وبتقبيله، والضم والتقبيل تعبير مادي عن عوامل روحية، وأنا عندما أحب ثلوى (سلوى) حباً قوياً مخلصاً وتتحد روحي بروحها أعبر عن ذلك تلقائياً بلمثها (بلمسها) وعبطها.

لم يستطع المدير أن يعلق بشيء على ما قاله الرفيق سليم، لكنه نظر إلى سلوى نظرة من يوافق ويثني على ما سمعاه من سليم، فما كان من سلمى إلا أن غمرته وقبلته على جبينه وقالت له: وأنا أيضاً أحبك يا سليم ولكن يجب أن ننتظر فالأيام أمامنا وسنتوج حبنا بالزواج... وقد تزوجا لكن لم تمض عدة أشهر على زواجهما حتى استشهد الرفيق سليم الذي كان ينظر إلى حبه للرفيقة سلمى نظرة مدرحية رغم محدودية علمه وثقافته، واستطاع إقناع مديره وإقناع سلمى معاً بصحة نظرته وتصرفه.

المدرحية هي إذاً فكرة فلسفية جزء من فلسفة سعاده الشاملة ونظرته إلى الحياة في جميع شؤونها، ويمكن أن نفهمها ونستعملها في أصغر شؤون الحياة وأبسطها كما فهمها الرفيق سليم، تدرجاً إلى أعلى مراتب الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأدب والفن وأدقها وأعقدها وأكثرها تشعباً واختصاصاً.

الإنسان- المجتمع

يعتبر عبد المسيح أن الفلسفة القومية الاجتماعية ما هي إلا فلسفة الإنسان- المجتمع التي شرحها سعاده في مقالته الشهيرة «نظرة سعاده إلى الإنسان» وما عدا ذلك «ليس فلسفتنا». إن حجة عبد المسيح القوية في ذلك هي قول سعاده في مقالته هذه: «هذه هي فلسفة الإنسان الجديدة».

الحقيقة هي أن فلسفة سعاده هي النظرة الشاملة إلى الحياة والكون والفن، ولا يجوز اختصارها لا بالمدرحية وحدها ولا بنظرته إلى الإنسان وحدها. فعندما يقول سعاده عن نظرته إلى الإنسان، الإنسان- المجتمع، هذه هي فلسفة الإنسان الجديدة، فمعنى ذلك أن هذه هي نظرة سعاده الفلسفية الجديدة إلى الإنسان، وليس معناه أن «الإنسان- المجتمع» هو وحده كل الفلسفة القومية الاجتماعية، كما فهم عبد المسيح. تماماً كما نقول مثلاً: هذه هي فلسفة الأخلاق الجديدة، التي معناها هذه هي النظرة الفلسفية الجديدة إلى الأخلاق. أو كما نقول مثلاً: هذه هي فلسفة النظام الجديدة التي معناه هذه هي النظرة الفلسفية الجديدة إلى النظام...الخ. ودليلنا هو ما قاله سعاده نفسه **أن المبدأ الذي جاء به سعاده هو نظرية فلسفية شاملة تتناول قضايا العالم الاجتماعية والاقتصادية وشرحها**. ودليلنا أيضاً هو أن لنظرة سعاده الشاملة إلى الحياة والكون والفن، أي

فلسفته، نظرات فرعية إلى مختلف شؤون الحياة والكون والفن: نظرة إلى الإنسان والقيم الإنسانية، ونظرة إلى أساس التطور الإنساني المدرحي، ونظرة إلى الدين للإنسان وليس الإنسان للدين، ونظرة إلى النظام كنظام فكر ونهج، وغير ذلك، أي إن لسعاده نظرات فلسفية جديدة إلى قضايا إنسانية عديدة تؤلف أجزاء وفروعاً لنظرته الشاملة إلى الحياة والكون والفن. فعندما يقول سعاده مثلاً أن الدين للإنسان وليس الإنسان للدين وأن اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض والسماء معاً، ألا يكون قوله فلسفياً ينظر إلى الدين نظرة فلسفية جديدة؟ وأين نضع هذا القول الفلسفي، أفي خانة المدرحية أم في خانة الإنسان- المجتمع؟ لا في خانة المدرحية ولا في خانة الإنسان- المجتمع، بل في خانة النظرة الفلسفية الجديدة إلى الحياة والكون والفن، في خانة الفلسفة السورية القومية الاجتماعية.

إن الفلسفة السورية القومية الاجتماعية لها أضلاع وأقسام وأجزاء، وبالتالي نظرات إلى مختلف شؤون الحياة، وإن هذه الأضلاع والأجزاء والنظرات هي كلها تنتمي إلى فلسفة واحدة هي الفلسفة القومية الاجتماعية.

وسعاده نفسه قد أعلن ذلك في المحاضرة الثانية من محاضراته العشر عندما قال: «وقضية من هذا النوع تحتاج، لفهمها فهما كاملاً، إلى درس طويل عميق، لأن لكل قضية كلية على الإطلاق أضلاعاً رئيسية هامة كل ضلع منها يحتاج إلى درس وإلى تحليل وتعليل وإلى تفهم تام شامل. وبدهي ألا نتمكن من فهم قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي كلها بكامل أجزائها وفروعها... إلا بالدرس والتأمل الطويل».

حتى إن عبد المسيح قد شوّه معنى نظرة سعاده إلى الإنسان، نفسها، وأراد أن يوضحها ويشرحها فألقى عليها غمامة. المثل على ذلك هو ما أوردناه آنفاً تحت عنوان «الغموض» من مقالة «صحة التعبير الحياتي» حيث يقول: «الجزء فيه ما في الكل من فعل القوة الإرادي لتحقيق ما هو أفضل. الفرد- في الاصطلاح العددي- هو جزء من المجتمع. وهو في استمرار وحدة الحياة- المجتمع إمكانية المجتمع للتعبير الصحيح عن ذاته. وحقيقة المجتمع الشاملة- وهي في حقيقة أجزائه التي لا تتجزأ- تظهر في هذا التعبير الكلي في الكل. ووعي هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الإنسان الكامل، المجتمع، تجعل الفرد- الإمكانية الاجتماعية للتعبير- المعبر الفعلي عن صحة خصائص النفسية

في العمل المتنوع لسد حاجات المجتمع المتنوعة، في الانسجام الطبيعي البديع». فهل نلوم هشام شرابي عندما يقول إن أفكار عبد المسيح هي «أفكار ناقصة غريبة أربكت القراء وأدت إلى بلبلة فكرية واسعة في صفوف الحزب»، أو عندما يقول أيضاً: «كانت أفكاره غامضة وطريقة تعبيره صعبة وملتوية»؟

الجماهيرية والجماهير

سعاده لم يكن يستعمل كلمة «الجماهير» وكان يستبدلها بعبارات مثل «مجموع الشعب» أو «المجموع العظيم» للشعب، وهذا طبيعي في صاحب قضية وفلسفة ومدرسة فكرية لها مفرداتها وقاموسها مثل سعاده، فهو كان يحرص على «الضرورة اللفظية للعقيدة». ولكن سعاده لم يكن يرفض استعمالها أو أن يستعملها الرفقاء بمعناها الحقيقي الذي لا يعني شيئاً سيئاً أبداً. فالجماهير هي جمع جمهور، وما العيب فيها! إن ما كان يرفضه سعاده هو الديماغوجية، وهذه لفظة أجنبية تعني التلاعب بعواطف الجماهير التي غالباً ما تكون سهلة الانقياد للمهرة في دغدغة عواطفها.

ففي مقالة سعاده «قواعد الترشيح للنيابة في الحزب السوري القومي الاجتماعي»، يقول: «**إن من أشد العلل التي يحاربها النظام القومي الاجتماعي، خبثاً وخطراً، هي علة التلاعب بعواطف الجماهير وتسخيرها للمآرب الخصوصية، علة الديماغوجية. فإن هناك أشخاصاً لهم القدرة على دغدغة ميول الجماهير وعنعناتها. هؤلاء لا تكتشِف شعوذتهم الجماهير إلا بعد نكبة أو فضيحة**»**(الأعمال الكاملة ص 250)**.

لذلك فالجماهيرية ومخاطبة الجماهير ارتبطت بالتلاعب بعواطف هذه الجماهير واستغلالها لمآرب خصوصية، لكن ليس من الضروري أن تكون مخاطبة الجماهير دائماً موسومة بالتلاعب بعواطفها لاستغلالها وخداعها، فالمصلحون المخلصون يمكنهم هم أيضاً مخاطبة الجماهير، والجماهير يمكن أن تنقاد للمصلحين كما يمكن أن تنقاد للمستغِلّين. يمكن مخاطبة الجماهير، أو مجموع الشعب أو المجموع العظيم حسب تعبير سعاده، بلغة صادقة بعيدة عن التلاعب والخداع وبعيدة عن الديماغوجية، تماماً كما فعل يسوع الذي قال عنه سعاده «**إنه كان سورياً يتكلم ويخاطب الجماهير بالسريانية**» (الأعمال الكاملة 5 ص 90).

لكـن عبـد المسـيح يبـدو أنه يريـد أن يترك الجماهـير طعـماً للديماغوجيـة، أي حقلاً يحتكـره ويحتكر مخاطبته الديماغوجيون المستغِلون المدغدِغـون لعواطف الجماهير، ولا يريد للحزب أن يخاطبهم ويجتذبهم. يقول: «لم تكن حركتنا في الأسـاس جماهيرية لكي تجتـذب الجماهـير، إنما حركة نهضة يعـبر فيها الواعون عن الإرادة الشـعبية» (بدأ جمراً. ص 192). هـذا الاعتقـاد الخاطئ الذي روّجه عبد المسـيح هو ردة فعل مبالغ فيها على الجماهيريـة الفوضويـة، والغوغائيـة التـي يسـتعملها ويمتطيها السياسـيون الرجعيون الديماغوجيـون ويسـخرونها لمصالحهـم الفرديـة. لكن الحركـة القوميـة الاجتماعية بلى تطمـح لأن تجتـذب الجماهير لتنظمها وتسـعى وتعمل لاكتسـابها ولا شيء يمنع ذلك أبـداً. الفرق كبير بين الجماهيرية والجماهير، فإذا كنا ضد الجماهيرية الفوضوية الغوغائية لا يعني أننا لسنا حركة جماهيرية تخاطب الجماهير أو أننا لا نعمل لاجتذاب الجماهير. فها هو سـعاده يقول إن «صفة الحزب الصحيحة هي أن يكون حركة شعبية واسعة النطاق وثورة اجتماعية اقتصادية سياسـية» (خطاب أول آذار 38، الأعمال الكاملة ص 186)، وفي مكان آخر يقول إن الحزب يجب أن يصبح حركة الشـعب العامة. فحركة الشـعب العامة والحركة الشعبية واسعة النطاق لا يمكن إلا أن تتوجه إلى الجماهير وتجتذبهم ولا تتركهـم ضحيـة الديماغوجيين. صحيح أن سـعاده لم يسـتعمل كلمة جماهـير إلا نادراً، فهـو كانـت له مفرداته كـما قلنا، ولكن من الخطـأ القول إنه لم يكن يجتـذب الجماهير أو إنه لم يكن يسـعى لربحها وتنظيمها واكتسابها للقضية. إن سعاده في جولاته إلى المناطق كان يخاطب جموع الشـعب، أي الجماهير الشعبية، وهو قال إن حركتنا هي حركة الحفاة وممزقي الثياب وكانت مديريات الحزب تشمل باعة اليانصيب وعمال العتالة في بيروت والشام وحلب. فالجماهير هي جمع جمهور وسعاده لم يكن يتجنب مخاطبة واجتذاب أي جمهور من الجماهير، ولم يكن يقتصر على «الواعين المعبرين عن الإرادة الشعبية». سيقول لنـا قائـل بأننا نحن لم نفهم القصد الحقيقي للعم وأننا نحن نسيء تفسـير كلامه. إذا كنا نحـن لم نفهـم كلام العم فالذنب ليس ذنبنـا بل هو ذنب العم الذي يسـتعمل عبارات ملتبسـة يساء فهمها. إن كلام العم يوحي ويعني أَنَفاً من الجماهير وعدم الاهتمام بها بل «بالواعين المعبرين عن الإرادة الشـعبية»، وكأن الجماهير الشـعبية لا تستطيع أو لا يجوز لهـا رفع صوتها مباشـرة أو أنها لا يوجد بينها ومن ضمنها واعون وهي بحاجة للواعين من خارجها كي ينوبوا عنها ويعبروا عن إرادتها. وهذه النزعة تضع اللوم على الجماهير

وليس على الديماغوجيين الذين يستغلون الجماهير، بينما سعاده قال إن العلة هي علة التلاعب بعواطف الجماهير، أي الديماغوجية، وليست علة الجماهير أنفسهم. إن سوء قراءة سعاده جعل بعض القوميين يقولون إننا نحن يهمنا النوعية وليس الكمية. وهذا أيضاً قول خطأ وفكرة خاطئة عن الحزب، فالحزب يقول بالنوعية ويهمه النوعية ولكن لا يرفض الكمية بل يطلبها. نحن نقول بالنوعية أولاً والكمية ثانياً ولسنا نقول بالنوعية أولاً والكمية أبداً. سعاده كان يريد «تحريك جماعات كبيرة» ولم يكن يريد الاقتصار على القلة النوعية. ها هو مثلاً في رسالته إلى وليم بحليس تاريخ20-7-42 يقول له: «**وما الفائدة من كتابة بحث جليل لحفنة صغيرة من الناس في حين إلحاح الحاجة لتحريك جماعات كبيرة بسرعة**».

عيد العمال– عيد العمل

وعبد المسيح أيضاً يرفض تسمية عيد العمال بعيد العمال، ويصر أنه عيد العمل وليس عيد العمال، ويدّعي أن رأيه هذا هو رأي سعاده والحزب. ففي مقالة له بعنوان «تمجيد العمل» كتبها أول أيار 1953 يقول: «... ولهذا نعمل على إنصاف العمل ولا نقول بإنصاف العمال، لأن القومية الاجتماعية ترى وجوب القيام بواجب العمل المنتج الطبيعي في كل مواطن على الإطلاق». فنحن حسب عبد المسيح لا نقول بإنصاف العمال! هكذا يفهم المبدأ الإصلاحي الرابع الذي يقول «**بإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة**»، وكأن إنصاف العمل لا يعني إنصاف العمال، كأن العمل يتم بدون عمال يجب إنصافهم! وكأنه لم يقرأ شرح المبادئ وقول سعاده: «إن هذه الإقطاعات كثيراً ما يكون عليها مئات ألوف من الفلاحين يعيشون عيشة زرية من الرق يرثى لها. وليست الحالة التي هم عليها غير إنسانية فحسب، بل هي منافية لسلامة الدولة بإبقائها قسماً كبيراً من الشعب العامل والمحارب في حالة مستضعفة... إن الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يستطيع السكوت على هذه الحالة... وإذا ترك للفرد الرأسمالي حرية مطلقة في التصرف بالعمل والإنتاج كان لا بد من وقوع إجحاف بحق العمل والعمال.» وأيضاً: «نقول بالحق والعدل الذي يجعل مجموع الشعب في حالة خير وبحبوحة فلا يكون أناس في السماء وأناس في الجحيم». وأيضاً: «ونهضتنا تريد أن تضع حداً لهذا الاستعباد ولأصحاب الرساميل الفردية الذين يستعبدون بواسطتها

الناس». فهل كل هذه الأقوال لم تعن له إنصافاً للعمال؟

لو أن عبد المسيح قال مثلاً: نحن نقول بإنصاف العمل ككل وليس فقط إنصاف العمال الصناعيين (البروليتاريا)، وإن إنصاف العمل يتضمن ويعني إنصافاً لكل العاملين صناعة وغلالاً وفكراً وفناً، وضمنهم العمال، لو أن العم قال ذلك لكان قوله صحيحاً مئة بالمئة. أما أن يقول إننا ننصف العمل وليس العمال فهو قول يدل على تقصير في فهم العقيدة وحرفية مميتة في قراءتها، ولا يمكن تفسير هذا التقصير وهذه الحرفية إلا بضيق الأفق أو بالانفعال تجاه الشيوعيين آنذاك المغرقين في تبني مصالح الطبقة العاملة الصناعية دون النظر إلى مصلحة المجتمع، حيث المجتمع هو وحدة حياة، أي وحدة مصالح ووحدة مصير. كان على عبد المسيح أن يقرأ سعاده جيداً، فسعاده خاطب العمال في عيدهم وقال لهم إن مصلحتهم هي من مصلحة مجتمعهم وبلادهم وإن حق العمل ونوال النصيب العادل من الإنتاج لا يمكن تأمينه في مجتمع فاقد السيادة على نفسه وعلى أرض وطنه مصدر حياته وموارده ومصالحه. إن سعاده كان حريصاً جداً على إنصاف العمال وتأمين مصلحتهم المستمدة من مصلحة أمتهم ومجتمعهم، ففي مقالته بعنوان «العمال» كتبها بتاريخ 11-11-37 في جريدة النهضة، نبّه من خطر صرف العمال السوريين عن القومية وعن الاهتمام بمصلحة مجتمعهم وقال: «أما مسألة إنصافهم باعتبارهم شركاء في الإنتاج القومي فهي من المسائل القومية التي تجد حلها في المبادئ القومية» (الأعمال الكاملة 2 ص 257). كما أن سعاده في مكان آخر اعتبر أن «صيانة مصلحة العامل التي جعلها الحزب السوري القومي في صلب مبادئه» هي من ضمن الأفكار التي يقلدنا فيها الشيوعيون، إلى جانب محاربة الإقطاع واستعارة فكرة القومية (الأعمال 2 ص 156).

إن عيد العمال العالمي له وقت وموعد كل سنة في أول أيار، أما عيد العمل فغير موجود ومن غير المعقول أن نستبد وحدنا ونلغي عيد العمال ونقيم مكانه وفي وقته وموعده عيداً للعمل. ولا ندري ما هو الخطأ في أن يكون للعمال عيد، وهم «أكثرية الشعب» كما يقول سعاده. الحزب يقيم للمغترب عيداً وللفلاح عيداً وللأم عيداً وللمعلم عيداً وللطفل عيداً وللشجرة عيداً، فلماذا لا يريد عبد المسيح أن يكون للعمال عيد؟!

إن سعاده في يوم عيد العمال أول أيار سنة 49 وجّه نداء إلى منتجي ثروة الأمة وبنائي مجدها استهله بمخاطبة العمال والفلاحين السوريين، وإذا كان سعاده أضاف في مخاطبته للعمال والفلاحين مخاطبته لأصحاب الفنون والحرف ومخاطبته للمنتجين علماً وفكراً وغلالاً وصناعة، فلأن عقيدته اجتماعية تقول بالمجتمع وحدة حياة ووحدة مصالح ووحدة مصير وليس لأنه يرفض أن يكون للعمال عيد وهم أكثرية الشعب كما يقول في هذا النداء نفسه. إن كون عقيدة سعاده اجتماعية قومية لم يمنعه في ندائه من تخصيص مخاطبة العمال والمزارعين السوريين دون غيرهم أكثر من مرة. إن كون المجتمع وحدة حياة ووحدة مصالح ووحدة مصير لم يمنع سعاده والحزب من أن يحيي عيد المغترب في بيروت، أو عيد الفلاح في بعلبك أو المعلم أو الأم أو غيرهم، فلماذا يمنعه من أن يحيي عيد العمال؟! لماذا يغير عبد المسيح عيد العمال ليصبح عيد العمل ولا يغير عيد الفلاح أو المعلم أو الأم أو المغترب لتصبح هذه أعياد الفلاحة والتعليم والأمومة والاغتراب؟!

ورب قائل، مرة أخرى، إننا نحن من أساء فهم عبد المسيح في مقالته «تمجيد العمل» وإنه لم يقصد أن يغمط العمال حقهم ولا يرفض إنصافهم. لكننا نجيب أنه إذا كنا نحن قد أسأنا فهمه فالذنب ليس ذنبنا بل هو ذنب العم المسؤول وحده عن سوء الفهم هذا. فهو لم يستطع إيضاح العقيدة وأبعادها الحقيقية. إنه يمعن في إساءة تفسير العقيدة في المقالة ذاتها فيقول: «بتمجيدنا للعمل نرفض تحقير مستغلي طاقة المجتمع. فمستغلو طاقة المجتمع إذا كانوا منه فهم مرضى يتوجب علينا العمل لشفائهم، وإذا كانوا أغراباً فعلينا أن نفهِمهم بقوتنا المادية- النفسية أن إنتاجنا يجب أن يكون بمجمله لنا». هكذا فعبد المسيح ليس فقط يرفض القول بإنصاف العمال بل أيضاً يرفض تحقير مستغليهم. إنه يرفض تحقير الإقطاعيين والرأسماليين الفرديين المغرقين في فرديتهم فاقدي الوجدان القومي والشعور بمصلحة الأمة والوطن الذين يستغلون العمال والمنتجين (طاقة المجتمع)، وإن العم بذلك يرفض قول سعاده عنهم إنهم «حقيرين» و»ذليلين في عظمة الباطل». العم يعتبرهم مجرد مرضى يتوجب علينا العمل لشفائهم، بل والعطف عليهم، أليس المريض يستوجب العطف؟ المرضى بالنسبة لعبد المسيح هم مستغلو طاقة المجتمع وليس المرضى هم من خاطبهم سعاده قائلاً لهم: «وما أحقر الحياة التي تحيونها بالكدح والشقاء، الأمراض تساوركم والإعياء يلازمكم والازدراء

يحدق بكم فكأنكم عبء على الحياة والحياة تفيض من در معاولكم ومطارقكم» (نداء الزعيم إلى منتجي ثروة الأمة وبنائي مجدها).

إن عبد المسيح يرفض تحقير مستغلي طاقة المجتمع لأنهم مرضى يجب السعي لشفائهم، وكأن العم لم يقرأ سعاده ولم يفهم الحرب التي أعلنها وقال إننا حركة هجومية نهاجم الحزبيات الدينية ونهاجم الإقطاع المتحكم بالفلاحين ونهاجم الرأسمالية الفردية الطاغية»، وهل يمكن مهاجمة الإقطاع والرأسمالية الفردية الطاغية وفي نفس الوقت مهادنة الإقطاعيين والرأسماليين الفرديين الطاغين؟ طبعاً لا، فها هو سعاده يخاطب العمال والفلاحين ويقول لهم: «إن صراعنا القومي أيها العمال والفلاحون هو صراع مزدوج. إنه صراع ضد الإقطاعي والرأسمالي المتحالفين مع الإقطاع والرأسمال الأنترنسيوني» (من ندائه إلى منتجي ثروة الأمة وبنائي مجدها). إن سعاده لم يأت لشفاء المرضى المستغِلين (بكسر الغين) بل أتى لشفاء المرضى المستغَلين (بفتح الغين). إنه جاء ليغير «النظام الاقتصادي السيئ الذي يجعل مئات وألوفاً من الفلاحين في حالة من شظف العيش، في حالة من الجهل، في حالة من المرض والبؤس... خمدت في نفوسهم عوامل الحياة وشوهتهم الأمراض وأقعدهم الذل... وسن القوانين إلى أقصى حد ينمي حيوية الشعب ويعطي الخير العام مهما تذمر بعض الخصوصيين لما سيحرمون منه» (من شرح المبدأ الإصلاحي الرابع). «يضع هذا المبدأ حداً للتصرف الفردي المطلق في العمل والإنتاج الذي يجلب أضراراً اجتماعية كبيرة» وأيضاً: «الرأسمالي عندنا أشد الناس ابتعاداً عن الاهتمام بأية قضية قومية أو وطنية أو بأي مصير للجماعة القومية. إن تخطيطه تخطيط فردي محض والمصلحة مصلحة فردية محضة، ولذلك لا يحجم حتى عن التحالف مع أي رأسمال أجنبي ضد مصلحة المجموع الذي هو أحد أفراده... إن وضع حد لحالة من هذا النوع أمر ضروري جداً»(نفس المصدر). «نحن نقول بحياة الأمة لا بقتلها ليحيا أفراد ليسوا من الأمة في شيء، ولا يمكن أن يكونوا، لأنهم جعلوا قضيتهم قبل مصلحة الأمة، لأنهم يعملون في سبيل باطلهم» (من خطاب الزعيم في البقاع الأوسط 23-4-48).

إن عبد المسيح الذي يرفض تحقير مستغلي طاقة المجتمع ويرفض محاربتهم بل يوجب محاربة أمراضهم فقط من أجل شفائهم، كأنه يرفض كلام سعاده التالي: «إن

الذين يطلبون الفخفخة ويطلبون جاهاً لأشخاصهم يشترونه بآلام الشعب يبيعونها ليشتروا ذلك الجاه، هم في حقارة تعلو لتظهر بأقبح ما يمكن أن تظهر به حقارة في المجتمع الإنساني... حولنا ذل يكتسي ثوب العظمة، ذل حقير أناني يحاول أن يكوّن عظمة حقيرة أنانية! ما أكثر ما حولنا من هذه العظمات الحقيرة الأنانية التي لا يمكن أن ترى ذل الشعب ولا أن تتألم لآلام الشعب. إن هذه العظمة الأنانية لا تزال تفتك بموارد حياة هذا الشعب وتهلك موارد الأمة في حربها اللئيمة الذليلة لتقيم عظمة ذلها! إن الحرب قائمة بيننا وبينها وهي حرب ضرورية ليكون لنا الانتصار الذي نسير إليه. لم يتسلط اليهود على جنوبي بلادنا ويستولوا على مدن وقرى لنا إلا بفضل يهودنا الحقيرين في ماديتهم الحقيرين في عيشهم، الذليلين في عظمة الباطل. نحن في صراع مع الإرادة الأجنبية ومع الإرادات الخصوصية المتحالفة معها ونأبى أن نهادن الواحدة أو نهادن الأخرى. ونأبى إلا أن نحارب الاثنين معاً لأن لنا القدرة على محاربة الفئتين المتحالفتين معاً. إن لنا في الحرب سياسة واحدة هي سياسة القتال، هذه سياستنا الواحدة في الحرب، أما السياسة في السلم فهي أن يسلّم أعداء هذه الأمة للأمة بحقها ونهضتها. إننا نريد أن يسلم الرأسماليون الجشعون بحق الشعب الذي يمتصون دماءه، إننا نريد أن يرتدع الإقطاعي الذي باع الوطن والأمة ويعترف بحق الفلاح والكادح. إننا نريد الإقطاعيين والرأسماليين أن يسلموا للشعب بحق الأمة ويعترفوا بحق العمال وحق الفلاحين، بحق هذا المجموع العظيم (الجماهير!) في الحياة والعز. هذه هي حربنا وهذا صراعنا. هكذا نفهم الحرب ونفهم السياسة وإننا واثقون أن فهمنا هو الفهم الصحيح وأن النصر الأخير لهذا الفهم، لهذه الحقيقة، لهذه الحركة القومية الاجتماعية» (من آخر خطاب لأول آذار 49).

إن سعاده يهاجم، يحارب، يقاتل، يصارع، ويرى الحرب ضرورية ضد «يهودنا الحقيرين في ماديتهم»، وضد «الفئتين المتحالفتين معاً»، وعبد المسيح يرفض تحقير هؤلاء ولا يرى فيهم إلا مرضى يجب أن نسعى لشفائهم منه. وهكذا يقدم عبد المسيح نفسه، ويقدمه أتباعه لنا، ضمانة عقائدية!

بين الحياة والعيش

يقول عبد المسيح في رده على هشام شرابي «إن الفلسفة القومية الاجتماعية تتطلب

أن يضحي المرء بكل لذاذات العيش ليتمتع بعز الحياة الحرة ويستنير بالفكر المنبثق من نظام الوجود الأساسي» (بدأ جمراً. ص 194)، وذلك بناء على قول سعاده بأننا نقتل العيش لنقيم الحياة.

دعنا الآن من «نظام الوجود الأساسي»، هذه العبارة التي ينفرد بها عبد المسيح ولا ينفك يرددها والتي لم نقع عليها أبداً في كل تراث سعاده المكتوب، ولنر إذا كانت القومية الاجتماعية تتطلب أن يضحي المرء بكل لذاذات العيش ليتمتع بعز الحياة، أم لا.

ليس صحيحاً أبداً أن الفلسفة القومية الاجتماعية تتطلب من معتنقيها التضحية بكل لذاذات العيش، بل الصحيح أنها تطلب من معتنقيها قتل العيش الذليل لإقامة العيش الكريم الذي فيه عز وحياة. إن التمتع بعز الحياة ليس شرطه التضحية بكل لذاذات العيش الكريم أبداً، وإن عز الحياة ليس شرطه أن يكون خالياً من لذة العيش، ولا عيب أبداً في لذة العيش عندما تكون في العز وليس في الذل.

لسعاده كلام كثير عن الفرق بين حياة العز والعيش الذليل، وهذا مثل واحد: «قلت إن الحياة تعني لنا وقفة عز فقط. وقلت أيضاً إننا نقتل العيش لنقيم الحياة. إننا أردنا حياة لا عيشاً، بين الحياة والعيش بون شاسع وفرق عظيم. الحياة لا تكون إلا في العز، أما العيش فلا يفرق بين العز والذل، وما أكثر العيش في الذل حولنا!» (خطاب أول آذار 1949، الأعمال الكاملة ص 282).

إن قول سعاده هذا لا يمكن ولا يجوز تأويله بأننا نقتل العيش بشكل مطلق، بل يجب فهمه كما هو فعلاً بأننا نقتل العيش الذليل الذي يبعدنا عن حياة العز، وليس كل عيش هو عيش ذليل. إن سعاده في قوله الآنف كان واضحاً وقد شرح الفرق بين العيش والحياة وقال إن العيش لا يفرق بين العز والذل، أي إنه يمكن أن يكون في العز كما يمكن أن يكون في الذل، بينما الحياة لا تكون إلا في العز. فهل هذا يعني أن العيش لا يكون إلا في الذل وإننا يجب أن نضحي به وبكل لذاذاته إذا أردنا أن نعتنق العقيدة القومية الاجتماعية؟!

إن ما قاله عبد المسيح يشبه ما قاله رشيد سليم الخوري «بأن المسيحية جعلت الفقر

شرطاً أساسياً لدخول السماء عملاً بقولها للغني الذي طلب أن يرث الحياة الأبدية: بعْ كل أملاكك ووزع ثمنها على الفقراء واتبعني» (الأعمال 5 ص 114، أو الحلقة 18 من الإسلام في رسالتيه- خرقاء ذات نيقة). سعاده أجاب على هذا التأويل المتطرف للآية المذكورة، وقال إن يسوع كان يعلّم تعليماً مناقبياً ولم يكن يضع قانوناً وشريعة، ويجب فهم تعليمه أنه حضّ على العطاء والبذل وليس شرطاً أو قانوناً ليحاسب الناس عليه. ونحن اليوم يجب أن نفهم قول سعاده بأنه يجب قتل العيش لإقامة الحياة فهماً تعليمياً مناقبياً للحض على حياة العز والشرف والبطولة المرتفعة عن مجرد العيش الذليل. إن في تأويل عبد المسيح مبالغة وانحرافاً عن حقيقة نظرة سعاده الواقعية إلى الحياة. إن ما اتهم به عبد المسيح من أن عنده نزعة لا واقعية في فهم العقيدة القومية الاجتماعية، وإنه يؤول سعاده تأويلاً بعيداً عنه وعن عقيدته ويفصل كلام سعاده عن موضوعه ويطلقه من الظروف التي قيل فيها، فيه الكثير من الصواب. إن قول عبد المسيح بأن الفلسفة القومية الاجتماعية تتطلب أن يضحي المرء بكل لذاذات العيش ليتمتع بعز الحياة الحرة، لأن سعاده يقول بقتل العيش لإقامة الحياة، يشبه القول بأننا لا يجب أن نسير في هذه الحياة بل يجب أن نبقى واقفين، لأن سعاده قال «بأن الحياة كلها وقفة عز فقط». لكن لا، «إن الحياة كلها وقفة عز فقط» هي تعليم مناقبي يعني أن مواقف العز البطولية في الأوقات الصعبة الحرجة هي مواقف تساوي الحياة كلها، ويجدر بنا أن نقفها عندما تتطلب مصلحة أمتنا منا أن نقفها.

الموقف من اليهود

إن النزعة اللاواقعية لتأويل العقيدة القومية الاجتماعية تظهر في كيفية فهم عبد المسيح لقول سعاده التالي: «ليس لنا من عدو يقاتلنا في ديننا وأرضنا وحقنا إلا اليهود». إن عبد المسيح يسلخ هذا القول عن سياقه وموضوعه ومناسبته، ثم يطلقه إطلاقاً يصبح معه سعاده يحارب حرباً دينية ضد اليهود كعقيدة دينية، ولا يرى عدواً له في العالم غير اليهود. وصار عبد المسيح ومن جاراه يقولون بأن اليهود هم «العدو الأوحد»، في وقت أن سعاده الواقعي يرى العداوة على حقوقنا والمغتصِبة أرض وطننا في اليهود وفي غير اليهود، ويقول مثلاً، إن التهديد التركي لا يقل خطراً عن اليهودي.

إن سعاده لا يقول أبداً إن اليهود كلهم في العالم هم أعداؤنا الوحيدون أو

الأوحدون. إن قول سعاده آنف الذكر لم يكن مطلقاً بل مقيداً في موضوعه ومناسبته ويجب فهمه كله ضمن موضوعه ومناسبته. إنه كان يخاطب أهل الإيمان الديني من السوريين لينبههم إلى حقيقة وحدة حياتهم ومصالحهم ومصيرهم في هذه الحياة وليدعوهم إلى نبذ العداوات الدينية بين بعضهم البعض ويلفتهم إلى وحدة الإيمان الديني بين المسيحية والمحمدية وأن لا عدو لنا في ديننا، كما في أرضنا وحقنا، إلا اليهود. وقد ورد هكذا: «كلنا مسلمون لرب العالمين، فمنا من أسلم لله بالإنجيل ومنا من أسلم لله بالقرآن ومنا من أسلم لله بالحكمة، فاتقوا الله واتركوا تآويل الحزبيات الدينية، فقد جمعنا الإسلام وأيد كوننا أمة واحدة، وليس لنا من عدو يقاتلنا في ديننا وأرضنا وحقنا إلا اليهود» (في مكان آخر يستهل قوله هكذا: «ما من سوري إلا وهو مسلم لرب العالمين...). هكذا يكون الغزاة اليهود لفلسطين هم أعداؤنا في ثلاثة: في الدين والوطن والحقوق، ويمكن لغيرهم أن يكون عدواً لنا في واحد أو اثنين فقط. إن هذا القول لا يعني أبداً أن اليهود أينما وجدوا في العالم هم أعداؤنا بمجرد أن يكونوا يهوداً بالولادة، ولا يعني أبداً أنه ليس لنا أعداء غيرهم في العالم. ثم إن سعاده استعمل كلمة اليهود في قوله سالف الذكر لأن قوله كان مقارنة بينهم وبين الإسلام، أي مقارنة في الأديان، ومن الطبيعي أن يستعمل هنا كلمة يهود وليس كلمة صهيونية، فالصهيونية ليست ديناً بل حركة سياسية وإن كانت ذات جذور ومبررات بعضها ديني. لو كان سعاده يعقد مقارنة بين الحركات السياسية لكان ذكر الأخوان المسلمين والأخوان المسيحيين والصهيونية اليهودية والصهيونية المسيحية ولم يكن ليذكر المحمدية والمسيحية واليهود. إن سعاده والحركة السورية القومية الاجتماعية لا تحارب حرباً دينية بل حرباً قومية وطنية سياسية، ولنا من تراث سعاده المكتوب أنه كان يحترم حق الناس بإيمانهم الديني كما يشاؤون، حتى اليهود منهم. إن سعاده كان يستعمل كلمة صهيونيين وصهيونية حيناً وكلمة يهود ويهودية أحياناً حسب موضوعه إذا كان سياسياً أو دينياً. لسعاده تعبير هو: «يهودي ديني وصهيوني سياسي» نجده في رسالته الثانية إلى غسان تويني تاريخ 7-4-46. وقد استعمل كلمة اليهود أكثر من كلمة صهيونية، حتى في المواضيع السياسية، لأن اليهودية نفسها كدين لها صبغة وطابع سياسي من حيث الوعد الإلهي المزعوم بأرض كنعان، ولأن الغزو اليهودي لسورية، المستند إلى هذا الوعد الديني- السياسي، قد بدأ تاريخياً قبل نشوء الصهيونية

بكثير، إنه غزو مستند إلى ادعـاءات واعتقادات وخرافات دينيـة ذات مفعول ونتائج سياسـية. لذلك فإن حربنا مع اليهود هي حرب سياسـية ووطنية ولأسـباب سياسـية ووطنية من جهتنا نحن، وليسـت حرباً دينية. يعني ذلك أن مهمتنا ليسـت مناقشـتهم ومجادلتهم ومقارعتهم في اعتقاداتهم الدينية السماوية الغيبية الماورائية في كيف يفهمون الله وكيـف يعبدونـه وإذا كان الله إلههـم وحدهـم أم إله البشر كلهـم، وإذا كان الله قد اختارهـم وفضلهم على بقية أمم الأرض أم لا، وفي كيف يفهمون الخير والشر والحياة والمـوت والآخـرة. إن كل هـذه الأمـور الدينية نحـن لا علاقة لنا بها وليسـت هي ما نحاربه فيهم ونتصدى له، بل إن مهمتنا هي رد عدوانهم على سورية ومقاومة أطماعهم وهجرتهـم إليهـا. إن مهمتنا وواجبنـا هو رد ادعائهم «بأرض الميعـاد» ومقاومته، لأنه يتناولنا ويستهدفنا ويهددنا وحدنا دون باقي الشعوب والأمم، ونحن ملزمون بالدفاع عـن وطننا وشـعبنا. إن اليهود من حيث هم دين، دينهم له فرادة بأن له شـقاً سياسـياً أرضياً، ولا يقتصر على السماويات، إنه ليس ديناً سماوياً بحتاً. هذه هي بالضبط الناحية التـي تهمنـا وتخصنا، وهي لا تخص شـعوباً أخرى غيرنا. فعندما يقول سـعاده بعداوة اليهـود لنا إنـما يعني هذه الناحية بالضبـط، ناحية أطماعهم السياسـية الدنيوية بأرضنا وقتلنا وتهجيرنا وسلب وطننا منا، وليس غيرها.

إن سـعاده في كل ما قال وكتب وعمل قد عبر أصدق تعبير عن ريادة الأمة السورية في التمـدن وفي ميزات العطـاء الفكري والثقافي والحضاري وحقوق الإنسـان وحريته المقدسـة. فرغـم ما أصاب الأمة السـورية من ظلـم وجحود وعدوان ومـا تتعرض له من تقتيل وتشريد واحتلال، فها هو سـعاده يحرص، كالإعجاز، على صيانة الحقوق في الاعتقاد الديني الماورائي حتى للطامعين بوطنه من اليهود أنفسـهم. فها هو سعاده ينبه ويلوم أحد الرفقاء الذي كتب مقالاً هاجم فيه اليهود في العالم كدين ولم يكتف بمقاومة أطماعهم في سورية، وقال له:

«... وظهر اهتمام الجريدة بمحاربة اليهود في العالم وإظهار عيوب السياسة الأميركانية والسياسة البريطانية، وقلة اكتراثها بالمواضيع السورية البحتة، وسياسة الحركة السورية القومية الاجتماعية التي تقول بمحاربة الصهيونية ومطامع اليهود في سـورية، ولا يهمها بعد ذلك أن تحارب اليهود من أجل مصالح الحركة الألمانية الاشـتراكية القومية، أو من

أجل مصلحة الحركة الإيطالية الفاشيستي».

وكان سعاده قد لام ونبه رفيق آخر وقال له:

إن النهضة السورية القومية الاجتماعية قد اكتفت بالفصل بين الدين والدولة، فقد بينت في شرح المبادئ الحد الذي تقف عنده النهضة القومية من الدين فلا يجوز تجاوز هذا الحد إلى بحث حقائق أو أوهام أديان معينة ومهاجمتها بهذا الشكل.» (إلى إبراهيم طنوس 22-7-1939)

وها هو سعاده أيضاً يؤكد على حق اليهود المقيمين في سورية بإنشاء مجالس ملية، أي دينية، وحريتهم في شؤونهم الدينية الخاصة، ولا يعترض إلا على الوجه السياسي منها، أي على محاولتهم تشكيل «مجلس إسرائيلي قومي». ففي مقالة كتبها بتاريخ 30-10-1937 بعنوان «مجلس إسرائيلي قومي» يقول:

«لا يوجد لبناني يريد أن يعترض على شؤون اليهود الملية وأحوال معتقداتهم الخاصة ولكن لا يوجد لبناني واحد يقبل أن يجري تساهل في أمر نشوء قوميات غريبة في لبنان. فإذا كان اليهود حقيقة يريدون غرضاً ملياً بحتاً فلا وجه لإيجاد صباغ قومي لهذا الغرض... يمكن لليهود أن ينشئوا مجلساً ملياً أو طائفيا، أما طلب إنشاء مجلس قومي لليهود في لبنان فتجاوز لا تقبل به الكرامة اللبنانية.»

فهل يجوز بعد ذلك تأويل أقوال سعاده بأنه يعادي اليهود ويحاسبهم على معتقداتهم الخاصة ويحاربهم بسبب دينهم الذي ورثه أبناؤهم عن أجدادهم غير مختارين؟ طبعاً لا، فإن سعاده والحركة السورية القومية تقول بمحاربة الصهيونية ومطامع اليهود في سورية ولا يهمها بعد ذلك أن تحارب اليهود في العالم لمجرد كونهم يهوداً أو تستعدي الذين لا تهمهم هذه الخرافات والعداوات ولا يأخذون بها وهم يهوداً فقط لأنهم مولودون يهوداً. إن عبد المسيح انخرط في حرب المفاهيم الدينية التي تتعدى مسألة الوعد المزعوم بأرض الميعاد، الذي هو وحده ما يهمنا وما هو موضوع حربنا، وألّف كتاباً سمّاه «قواعد السلوكية اليهودية»، وفيه مناقشة وتفنيد كل اعتقادات اليهود كدين. إن ما عالجه عبد المسيح في كتابه المذكور قد يكون صحيحاً كله، ولسنا نجادل إذا كان صحيحاً أو غير صحيح، لكننا نريد أن نقول بأن حربنا مع اليهود ليست حرباً دينية

بل هي حرب مع العدوانية اليهودية التي تكمن في الشق السياسي من دينهم الذي هو أطماعهم بوطننا كأرض ميعاد يزعمون أن إلههم يهوة وعدهم بها. أما غير ذلك فلا شأن لنا في تفاصيل معتقداتهم الدينية الأخرى التي راح عبد المسيح يفندها واحدة تلو الأخرى.

إن سعاده قد اكتفى بمقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين السورية ودعا السوريين إلى مقاومتها بكل قوتهم لأنها تريد قتلهم وتشريدهم واغتصاب وطنهم، أما خارج هذا الإطار فسعاده لا يستعدي اليهود في العالم لمجرد أنهم ولدوا يهوداً. وسعاده أيضاً لا يعتبر اليهود سوريين مساوين لنا في الحقوق، لأنهم لم يدخلوا ضمن تعريف الأمة السورية وبقوا عصاة على الاندماج ويشكلون خطراً على سورية ووحدتها وسيادتها، وهذا حقه وحق كل دول العالم بأن تحدد وتضبط هجرة الوافدين إليها وتمنع من ترى فيهم خطراً. أما ألا نرى غير اليهود عدواً لنا له أطماع في سورية، ونعتبر اليهود كلهم بكل اعتقاداتهم الخاصة في الله والسماء أنهم أعداؤنا «الوحيدون»، فنكون ننخرط في قضية دينية وحرب دينية تعيدنا إلى مفاهيم القرون الوسطى وحروبها الدينية، ونبتعد عن سعاده وقضيته القومية الاجتماعية.

الاشتراكية العلمية

في مطلع الفصل الأخير من كتابه «نشوء الأمم» يقول سعاده إن «القياس كان ولا يزال مصيبة كبيرة في الأبحاث العلمية الاجتماعية خصوصاً في الأبحاث التي لا تجرد علم الاجتماع من النظريات الفلسفية، من الفلسفة الاجتماعية. وهو الالتجاء إلى القياس، ما أوجد كثيراً من الخلط في المسائل الاجتماعية عموماً ومسألة الأمة والقومية خصوصاً».

فلنر كيف فهمه وترجمه عبد المسيح، حيث يقول ما يلي: «ماركس افتقد الأساس العلمي في أخذه بالقياس ليضع نظرية الحتمية التاريخية. والعلم لا يقبل بالقياس. العلوم الاجتماعية وقد وصلت إلى هذه السوية في حقل التجارب ترفض القياس. ولا يجوز أن توسم النظريات المرتكزة إلى القياس بأنها علمية ليصح القول بأن الماركسية علمية» (الخيط الرفيع ص 11).

لــن ننتقد عبد المسيح في اسـتعماله عبـارة الماركسـية العلمية بدل عبارة الاشـتراكية العلمية، ولن نبحث في الفرق بين الماركسـية والاشـتراكية العلمية، أو في كيف توصل عبـد المسيح للقـول بـأن ماركس يأخـذ بالقياس وبـأن أخـذ ماركس بالقيـاس أفقده الأساس العلمي. لن نخوض في هذا الموضوع لأنه موضوع مستقل ويخرج عن غرض هذا الكتاب.

أمـا أن يقول عبد المسـيح بأن «العلم لا يقبل بالقياس»، هكذا بشـكل مطلق ونقطة على السطر، فإنه لقول لم يسبقه إليه أحد.

فإذا كان العلم يتميز بشيء عن غيره فبالقياس. القياس هو وسيلة العلم الأولى ودون القياس لا يوجد ما نسـميه علم. كيف لعبد المسـيح أن يتورط بهذا القول الاسـتبدادي الذي سيأخذه عليه طلاب العلوم جميعهم على اختلاف مجالاتهم؟

أن سعاده العالم الذي يعرف أهمية القياس في العلوم، والذي رأى كيف ينزلق بعض علماء الاجتماع ويخلطون بين العلم والفلسـفة ولا يجـردون علم الاجتماع من نظرياتهم الفلسفية، والذي وعد قراء «نشوء الأمم» بأنه سيتجنب فيه «التأويلات والاستنتاجات النظرية وسائر فروع الفلسفة» ما وجد لذلك سبيلاً، إن سعاده كان يحذّر من المبالغة في اسـتعمال القيـاس والالتجاء إليه في العلوم الاجتماعية حـصراً لأنها غير مادية بحتة ولا يسري عليها القياس دائماً الذي هو وسـيلة العلوم المادية الأول، وأيضاً بسـبب صعوبة تجريدها من النظريات الفلسـفية، أي بسبب صعوبة التفريق بين علم الاجتماع وفلسفة علم الاجتماع، بين العلم وفلسفة العلم، بين ما يخضع للقياس وما لا يخضع له. وسعاده نفسه لم يقل لنا إنه سيستطيع التفريق بين الاثنين مئة بالمئة، بل قال إنه سيتجنب ذلك ما استطاع إلى هذا التجنب سبيلاً. أما عبد المسيح فيجعل من نفسه الخبير وحده بكل شيء والعارف وحده بكل الأمور الفلسـفية والعلمية وغيرها، ويعلمنا ويقول لنا بأن العلم لا يقبل بالقياس، وأن من يأخذ بالقياس يفتقد الأساس العلمي!

إن ثمة من يعتبر أن سـعاده عنى بكلمة «قياس» الاسـتدلال المنطقي وليس القياس المادي، لكن القياس أكان مادياً أو اسـتدلالاً منطقياً فإنه شـأن علمي ولا يمكن للعلوم الاستغناء عنه، ومن الخطأ العلمي الفادح أن نقول إن «العلم لا يقبل بالقياس».

الباطل هو النقص في الكمال!؟

لسعاده رائعته الفلسفية «الحق والحرية» كتبها بتاريخ 1-1-48 وفيها تعريف بالقيم النفسية الإنسانية المجتمعية بما لم يعهده أحد من قبل، أو بعد. فيها **أن الحق انتصار على الباطل** في معركة إنسانية وليس في معركة غيبية تجري وراء هذا العالم ولا يشترك فيها الإنسان- المجتمع. وفيها **أن الباطل هو انخذال في هذه المعركة الإنسانية**، ولولا انتصار الحق وانخذال الباطل لما عُرف أيهما الحق وأيهما الباطل، لأن الباطل لا يظهر بلباس الباطل بل بلباس الحق. وفيها أن الانتصار لا يكون إلا بالحرية لأن الحرية صراع. ويل للعقائد الباطلة من الحرية لأن الحرية صراع...الخ.

كيف صار الباطل هو النقص في الكمال عند عبد المسيح؟! كيف لم يعد انخذال في المعركة الإنسانية مع الحق؟! عبد المسيح عنده تعريفه الخاص للحق والباطل وهذا التعريف يقدمه لنا وكأنه بدهي ومحسوم، يقول: «وإذا عرفنا أن الباطل هو النقص في الكمال نفهم أن المعركة غير منتهية أبداً وأننا نصعد من قمة إلى قمة إلى أعلاها، قمة انتصار الإنسان- العقل» (من وحي النهضة ص 233).

يظن عبد المسيح أنه هو أيضاً يجيد الكلام عن القيم الإنسانية المجتمعية الأساسية ويقبض عليها بتعريفها تعريفاً فلسفياً متيناً قوياً، غير مدرك أن في قوله تناقضاً فاضحاً لكل من يجيد القراءة. إن قوله معناه أننا سنبقى في الباطل إلى ما لا نهاية، فالنقص في الكمال سيبقى نقصاً لأن «المعركة غير منتهية أبداً» حسب عبد المسيح. ومعناه أيضاً، وبنفس الوقت، أن المعركة بلى ستنتهي لأن القمم ستنتهي «إلى أعلاها قمة انتصار الإنسان- العقل»، خلافاً لما يقوله سعاده بأننا كلما اجتزنا قمة تراءت لما قمم أخرى.

نكتفي بهذه النماذج المختارة من كتابات عبد المسيح، ونختار بالمقابل نماذج أخرى من كتابات خصم له وسنرى أن القول بعقائديين مقابل منحرفين هو مجرد ادعاء، وأن الطرفين يتساويان في المستوى المتدني لفهم العقيدة القومية الاجتماعية.

عصام المحايري العروبي

سأنقل فيما يلي جزءاً من دراسة كنت كتبتها منذ عدة سنوات بعنوان «ثنائية النص القومي الاجتماعي في موضوع العروبة»، وبالتحديد نقد لعروبة عصام المحايري.

ولقد اخترت عصام تحديداً لأنه عُرِف في الحزب بأنه الأبرع في شرح العروبة القومية الاجتماعية.

الواقع اللبناني- الواقع العروبي

إن قضية «الواقع اللبناني» التي نشأت في الحزب في غياب سعاده القسري عن الوطن خلال الحرب العالمية الثانية، قال عنها سعاده إنها قضية «**التحديد القومي للأمة السورية**»، وشرحها باختصار شديد قائلاً: «**في هذه الناحية الواضحة التي لا يمكن أن يحصل فيها أي التباس حصلت اعوجاجات كادت تشوش حقيقة القضية القومية الاجتماعية... في الواقع اللبناني كل شيء صار لبنانياً، فقد تكلم نعمة ثابت على قيم لها كل الصفة القومية العامة ونسبها إلى لبنان واللبنانيين فقط بدلاً من أن ينسبها إلى سورية والسوريين كما يتفق مع الحقيقة**». هذه القضية استطاع سعاده حسمها والقضاء على الانحرافات التي تضمنتها، بما يتمتع به من قوة ومستوى فكري مكنه من تعريتها وإعادة النصاب إلى العقيدة القومية السورية ومبادئها الأساسية والإصلاحية في محاضرات عشر ألقيت في بيروت أوائل سنة 1948، وأيضاً بما يتمتع به من سلطة دستورية مكّنته من طرد أبطالها بعدما أصروا على انحرافاتهم بدوافع سياسية شخصية.

فمن يمكنه اليوم يا ترى، وكيف يمكن اليوم القضاء على «الواقع العروبي» الذي يغزو الحزب ويسبب الاعوجاجات ذاتها التي سببها الواقع اللبناني، ويشوش حقيقة القضية القومية الاجتماعية منذ استشهاد الزعيم حتى اليوم؟

سنة 1948 يقول سعاده إن الحزب في غيابه قبِل الواقع اللبناني بحكم النظام فقط، لأنه وجد أن القوميين الاجتماعيين لم يتقيدوا بفكر واحد من تلك الأفكار، ويقول أيضاً إن قبول هذا الخروج العقائدي، وإن يكن في الظاهر فقط، يكوَن مسألة من المسائل الخطيرة. أما في انتشار «الواقع العروبي» الحالي فإن الظروف قد تغيرت إلى الأحسن والأسهل. اليوم صار تمرير الانحراف باسم النظام عملية صعبة جداً، وصار الإشراك في العقيدة، إذا جاز التعبير، عملية مستحيلة. فتراث سعاده صار كله مكتوباً ومتوفراً ولا يستطيع أحد الالتفاف عليه أو تغطيته أو إخفاءه. وأن النظام، وحكمه، فقد أوضحه سعاده في المحاضرة الأولى، وهو نظام الفكر أولاً ثم نظام النهج الذي يحقق الفكر. إن

النظام هو شيء عميق جداً في الحياة وهو ليس مجرد طاعة وامتثال.

إن ثمة قضية هي قضية «الواقع العروبي» داخل الحزب اليوم تشبه قضية «الواقع اللبناني» في أربعينيات القرن الماضي. وكما أن القوميين الاجتماعيين لم يأخذوا بفكرة واحدة من تلك الأفكار الخاصة بالواقع اللبناني، فإنهم اليوم يشاهدون قضية الواقع العروبي دون أن يأخذوا بفكرة واحدة من أفكاره. فما هي أفكار الواقع العروبي؟

بين يدي كتاب اسمه «العروبة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، نصوص لأنطون سعاده» من إعداد المحامي صبحي فريح، صدر سنة 2008 عن مطابع ألف باء الأديب- دمشق. لقد طلبت هذا الكتاب لأستعين به في دراستي عن «ثنائية النص القومي الاجتماعي في موضوع العروبة»، فوجدت فيه إلى جانب نصوص مختارة لسعاده، نصوصاً كثيرة لكتاب ومسؤولين قوميين اجتماعيين لا تتفق، في جوانب كثيرة منها، مع نصوص سعاده الموجودة قربها في نفس الكتاب! لم أستطع إلا أن أناقش هذه الجوانب التي لا تتفق مع نصوص سعاده، بل تتعارض معها، لأنني رأيت في ذلك إكمالاً لموضوعي الذي كنت بصدده. إني أحترم من سأناقشهم وأعرف وأرى جهادهم وتضحياتهم وأحترمها، لكن لموضوع الفكر والعقيدة مقام، ولاحترام الأشخاص مقام ومكان ومجال آخر.

هذا زكي قنصل وليس سعاده

في تمهيد صبحي فريح لكتابه خطأ فادح، والأفدح منه هو خطأ بشير موصلي الذي قدم للكتاب ومن المفترض أن يكون قد قرأه. صبحي نقل كلاماً لزكي قنصل ونسبه زوراً إلى سعاده، أشكل عليه النص أهو لزكي قنصل أم لسعاده، فقرر أنه لسعاده. أما بشير موصلي الأعتق في الحزب والقارئ والكاتب والمسؤول كيف له أن يقرأ النص ولا يكتشف الخطأ؟!

إن سعاده في مقالته «الشهرة على حساب الحزب السوري القومي الاجتماعي» يورد نصاً كتبه زكي قنصل، تمهيداً للرد عليه، وقد رد عليه، وهذا النص هو: «... **إن أفضل السبل هي أن ينظم كل قطر من الأقطار العربية شؤونه الداخلية ثم يهتم بعقد محالفات مع غيره تكون نواة اتحاد عربي قد يصير مع الزمن إذا تآلفت الثقافات وتقاربت العقليات**

وتشابكت المصالح وحدة شاملة أو إمبراطورية بالمعنى الذي تريد...» (الأعمال الكاملة ج 4 ص 90).

إن أي قومي اجتماعي مبتدئ إذا قرأ هذا النص يعرف أنه ليس لسعاده، فكيف لم يعرف ذلك لا صبحي ولا بشير؟ نعتقد أن بشيراً كان يعرف ذلك، وعلى الأقل كان يجب أن تستوقفه سطحية وسخافة النص فيعمد إلى التدقيق في نسبته إلى سعاده أو زكي قنصل، لكن هوس التقرب من أصحاب العروبة الوهمية أعماه وأفقده على ما يبدو حاسة التمييز. كان بشير هو أيضاً واقعاً في عقدة إرضاء العروبيين الوهميين والبحث عن مكان بينهم، هذه العقدة التي كانت الإصابة بها متفشية على نطاق واسع في الحزب، كما سنرى، وهذه العقدة جعلته يفعل أي شيء، فلنقرأ له هذه الجملة: «إن الدعوة إلى الوحدة العربية والعروبة الشاملة كاسحة وترفض أي نقاش أو موقف موضوعي لدعمها بالأساليب العلمية لتحقيقها التي كان ولا يزال الحزب ينادي بها». هكذا كان يفهم بشير عروبة الحزب الواقعية الصحيحة: دعم الوحدة العربية والعروبة الشاملة... لتحقيقها. وعندما يشرح المرحوم بشير العروبة الواقعية الصحيحة يقول إنها «...تفضي إلى تشكيل دولة عربية قومية منيعة مؤلفة من أربعة أقاليم بدلاً من اثنين وعشرين» (مقدمة كتاب صبحي فريح)!!

عروبة عصام المحايري

قلنا إن عقدة إرضاء الآخرين والبحث عن مكان بينهم هي مناخ عام هيمن على الحزب بعد استشهاد سعاده، وسببها هو ضعف القيادات التي كانت حوله والتي أتت بعده ولم تستطع إكمال ما بدأه. لم تستطع إكمال نهج سعاده الصراعي الهجومي بسبب ضعفها المثلث الأضلاع: علمياً وعقائدياً ومعنوياً، وسنشرح هذا المثلث بعد قليل بعد أن نقرأ قليلاً في كتابات عصام المحايري.

في خطاب مفتوح وجهه لأديب الشيشكلي سنة 1953، يبدأ عصام بداية عقلانية رصينة في تعريف العروبة الواقعية الحقيقية ويقول: «العروبة في حقيقتها شعور قوي طاغ بتساند أجزاء العالم العربي وتآخي أبنائه ورغبة عميقة في ضرورة توحيد اتجاهاته وتأمين تلاحم قواه وتضافر إمكاناته، ولا معنى للعروبة وراء ذلك». ولكنه بعد ثلاثة

أسطر فقط سرعان ما يخلط القومي بالعربي ويصوب على الانكماش الانعزالي اللبناني دفاعاً عن الانفلاش العروبي، مع أن الاثنين يلعبان نفس الدور في تفريق ما جعلته الطبيعة واحداً وجمع ما جعلته الطبيعة متفرقاً، حسب قول سعاده، ويصف العروبة «بالإحساس القومي النامي الذي لا ينكره أي مكابر».

ثم ينصرف عصام لوصف ما سمّاه «بشعور سعاده العربي المتأجج» ويحشد في هذا الوصف ما استطاع من عبارات اللهفة القلبية والمحبة في توصيف مسألة سياسية لا علاقة لها بهذه العواطف أبداً، يقول: «إن شعور سعاده العربي المتأجج هو شعور واع مسؤول مدرك قوي عنيف جارف تعبيراً عما يكنه الفؤاد وينبض به القلب ويمتلئ منه الفكر من محبة شاملة كاملة للشقيق وعالم الأشقاء وتحسس مرهف دقيق بمساعدة الأخوة العربية وخدمتها وتنميتها وتفكير واع بوضع النفس وقواها وإمكاناتها بعد إطلاقها إلى أقصى مداها وفعاليتها...»

ويستمر عصام بخلط القومي بالعربي بما يشبه التوسل للتقرب من العروبيين الوهميين، مستعملاً عبارات مثل «الجبهة العربية القومية الفعالة» ومثل «الرسالة القومية الاجتماعية لا تعتبر حقيقة الأمة السورية إلا من ضمن عملها لعالمها العربي»، ما يعني أن الحقيقة القومية السورية هي مشروطة بالعروبة، ويعني أن العروبة هي أولاً وهي قبل القومية السورية، ولا قومية سورية من دون عروبة. أما عبارة «الجبهة العربية القومية الفعالة» فيبدو أن عصام لا يعرف أن الصفة القومية تطلق فقط على سورية وليس على الجبهة العربية. يبدو أنه لم يقرأ رسالة سعاده إلى الرفيق صلاح الدين الأيوبي تاريخ 11-12-37 التي يقول له فيها: «**للحزب السوري القومي الاجتماعي قضية واحدة هي قضية القومية السورية، أما مسألة الجامعة العربية فهي من المسائل التي يريد الحزب أن تكون سورية مستعدة للتعاون فيها مع الأقطار العربية الأخرى التي يهمها إيجاد هذه الجبهة والاشتراك فيها، وبالتالي تكون قضية سياسية لا قضية قومية**».

وعصام يتطور عروبياً، فها هو سنة 1985 وفي مقالة «العروبة كيان حضاري» (لم نزل في كتاب صبحي فريح)، لم يعد يميز أبداً إطلاقاً بين العروبة الحقيقية الواقعية والعروبة الوهمية الزائفة، صارت العروبة عروبة واحدة مطلقة من أي تعيين وتحديد، صارت العروبة كياناً حضارياً وصار عصام المحايري يتكلم على مقولات جديدة

ويصف العروبة باستعمال عبارات صالحة لوصف الأمة الواحدة. مثلاً: «العروبة تجاوزت حدود كونها أحد العوالم الحضارية الكبرى كعالم الحضارة الأنكلو-أميركي أو عالم الحضارة اللاتينية أو الهندوكية لتغدو اشتراكاً في مصالح حياتية اقتصادية اجتماعية ثقافية روحية تكاد تبلغ مصالح الوجود ولتصل بالفعل وفي سياق الصراع لصيانة الوجود أن تصبح مشاركة في المصير».

ويتابع بخلط القومي بالعربي ويورد نصوصاً لا معنىً واحداً واضحاً لها مثل: «وأكدنا على رسالة سورية لعالمها العربي التي هي رسالة التوحيد والنهوض في وعي قومي تاريخي»، مما لا نستطيع أن نعرف ماذا يقصد بالوعي القومي التاريخي، أهو وعي قومي سوري أم وعي قومي عربي أم ماذا؟

وعصام المحايري في مقالته «عروبة لبنان» (30-3-85 مجلة صباح الخير) يتبنى مقولة شوقي خيرالله ويقول «الهجرة الفينيقية القادمة من حضرموت»، مفضلاً شوقي خيرالله على سعاده الذي يتكلم على عرب مستعربة، أي هجرة سورية كنعانية إلى العربة، ففي المحاضرة الثالثة يقول سعاده: «أما العلاقة والقرابة الدموية بين سكان سورية وسكان العربة فقد قام عليها الدليل، ولكن من أخذ من الآخر أكثر؟ يمكن أن يكون السوريون الكنعانيون المستعربون أكثر في العربة من العرب الذين دخلوا سورية وتسرينوا، وأن كثيراً من العرب الذين دخلوا سورية بالفتح المحمدي هم عرب مستعربة، أي إنهم سوريون كنعانيون في الأصل تحولوا إلى البداوة بعامل جفاف الأرض وقطنوا العربة واكتسبوا الطابع العربي».

وفي مقالته هذه، يطلق عصام شعارات غوغائية رائجة مثل: «لا يمكن أن يكون لبنان متفرجاً وحيادياً، إنه إن لم يكن في معركة العروبة يكون معبر العدو في معركته ضد العروبة»، وكأن المعركة هي معركة عروبة، وكأن معركة العدو هي ضد العروبة.

أما في مدينة سدني الأسترالية التي زارها سنة 1987 فيتبنى عصام صراحة مقولة العروبيين الوهميين ويستعمل عبارات «الوحدة العربية» و«وحدة العرب». ثم في سنة 1997 يقترب أكثر فأكثر من طلب استعادة «أمجاد العرب» ويدعو إلى جعل شعارنا ما زعم أن سعاده قاله، وهو: «نحن لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها». فها هو

في مقالـة «العروبة بين دعاتها وصناعها» (جريدة البناء 22-11-97) يزايد على سـاطع الحـصري ويبزه في عروبتـه الوهمية الخيالية ويقول: «وهكذا تنتقـل العروبة من الموازنة التـي وضعها فيها المرحوم سـاطع الحـصري في كتابه، العروبة بـين دعاتها وخصومها، إلى موازنـة تفرضهـا إعادة نظر جدية صادقة باتجاه اسـتراتيجية تصنع للعروبة أمجادها، هـي الموازنـة القائمة على العروبة بين دعاتها وصناعها، فنجعل شـعارنا ما قاله سـعاده العظيم: نحن لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها. فنتائج الفعل غير نتائج القول».

لن نستفيض الآن في إيراد ما يقوله سعاده عن أوهام الوحدة العربية ووحدة العرب واسـتعادة أمجـاد العرب، التي رددهـا عصام المحايري، تكفي مراجعة مقالات سـعاده الشـهيرة التي كتبها قبل استشـهاده بوقت قصير، «العروبة أفلسـت» و«انتصار القومية السورية يحقق الجبهة العربية القوية» و«حاربنا العروبة الوهمية لنقيم العروبة الواقعية»، لتبيان سـطحية وسـخف ما يقوله عصام. لكننا سـنتوقف قليلاً عند ما نسبه إلى سعاده زوراً دون إسـناد ودون مرجع ودون دليل، وهو القول: «إننا لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها»، ونسأل:

1- هل صحيح أن سعاده قال ذلك؟ متى؟ أين؟

2- إذا كنا نعمل للوحدة العربية فلماذا لا نقول بها؟ ما العيب أن نقول بما نعمل به وله؟

3- لأي وحـدة عربية نحـن نعمل ولا نقول؟ هل هي وحـدة الجبهة العربية؟ طبعاً لا، لأننـا نحـن نعمل ونقول لوحدة الجبهـة العربية، وليس فقط نعمـل دون أن نقول. إذاً فالوحـدة العربية التي نعمل لها، حسـب المحايـري، ولا نقول، هي شيء غير الجبهة العربيـة. فـما هو هذا الشيء، وما هـي هذه الوحدة؟ لأي وحـدة عربية نحن نعمل ولا نقول؟ إن عصام لا يقول لنا. ولماذا لا يقول لنا؟ السـبب هو بكل بسـاطة: أن سـعاده لم يقل ذلك أبداً ولا يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام الذي لا معنى له.

الضعف المثلث الأضلاع

قلنـا إن القيـادات الحزبيـة التـي أتت بعد سـعاده لم تستطع إكمال نهجـه الصراعي الهجومي بسـبب ضعفها المثلث الأضلاع، علمياً وعقائدياً ومعنوياً. وسـنشرح الآن ما نعنيه بهذا القول.

أ- الضعف العلمي

يتضح لنا ضعفها العلمي عندما نتتبع أدوات ووسائل وحجج مناقشاتها ومحاوراتها. فهذه القيادات كانت قبل استشهاد سعاده تتكل عليه في كل شيء، وبعد استشهاده قلما استعملت السلاح العلمي الثمين الموجود في كتاب نشوء الأمم مثلما فعل هو نفسه في محاضراته العشر، خاصةً حيث استشهد بمضمونه وحقائقه مرات ومرات. هذا الكتاب قال عنه سعاده إنه الأساس العلمي للعقيدة. لقد رأينا كيف أن عبد المسيح أساء فهم عبارة سعاده عن «مصيبة اللجوء إلى القياس في العلوم الاجتماعية خاصة التي لا تجرد علم الاجتماع من النظريات الفلسفية والفلسفة الاجتماعية»، وقال إن العلم لا يقبل بالقياس! أما عصام المحايري، وكان عميداً للإذاعة في أوائل الخمسينيات، فنراه يلجأ في محاوراته للعروبيين إلى «الحقائق المقررة»، حسب تعبيره، ولكنه كان يكتفي بهذا العنوان العريض: «الحقائق المقررة»، ولم يشرح ويفسر ويورد هذه الحقائق ولم يستعملها في أماكنها الحقيقية، وإذا فعل تبين أنه هو نفسه أساء فهمها. ولكي لا يبقى كلامنا اتهامياً عمومياً سنعطي مثلاً عن كيفية فهم عصام «للحقائق العلمية المقررة» كما يلي:

في خطابه المفتوح إلى أديب الشيشكلي سنة 1953، وكان عصام لم يتطور بعد ولم يصل إلى القول بالوحدة العربية وطلب استعادة أمجاد العرب، وعندما أراد شرح حقيقة المزيج السلالي السوري، علمياً، قال عنه إنه «**مزيج متفوق ممتاز لأرقى أنواع السلالات وأميزها**». ولا شك في أن تعبير «أرقى أنواع السلالات» هو تعبير عنصري وليس تعبيراً علمياً وأن سعاده لم يقل به أبداً. بل إن سعاده يقول «**بنوع المزيج السلالي السوري الممتاز**». سعاده يقول بنوع المزيج وليس بنوع السلالات الممتزجة. وهذا النوع الممتاز هو ممتاز ليس بسبب أنواع السلالات ورقي السلالات وامتياز السلالات الداخلة فيه، بل بسبب كثرته وغناه وتكرار حدوثه وتجانسه. هذا هو المبدأ العلمي الذي قال به سعاده سنة 1937 وصارت تؤيده وتؤكده وتبرهنه العلوم العصرية الحالية التي تقول بأنه كلما ازداد المزيج وازدادت عناصره كانت نتيجته أكثر صحة ومناعة. إن المبدأ العلمي الذي قال به سعاده هو مبدأ التجانس والتباين الدموي السلالي وليس مبدأ امتياز السلالات وتفاضلها. إن سعاده تكلم عن نوع المزيج وليس عن نوع السلالات

الممتزجة وتفاضلها. بل إن سعاده نبّه وشدد في كتابه العلمي «نشوء الأمم» على عدم جواز الأخذ بعقيدة تفاضل السلالات، وإن قوله بالسلالات الراقية والسلالات المنحطة هو قول ينطبق على السلالات الأولية فقط، وهذه لم يعد لها وجود إلا نادراً وفي الجماعات البدائية المنعزلة خارج نطاق المدنية. ها هو سعاده في الفصل الثاني من كتابه، وتحت عنوان «السلائل والعقليات»، يقول: «**إن السلالات أمر فيزيائي واقع والأدلة على وجوده متوفرة. ومما لا شك فيه أن هناك فوارق بين السلالات في الارتقاء والتمدن والاستعداد لها عند السلائل الأولية... وقد يكون ذلك نظراً لعدم اكتمال تطورها. وإذا تركنا السلالات الابتدائية وعمدنا إلى السلالات الواقعة ضمن نطاق المدنية الآسيو-أوروبية وجدنا أنها كلها قد برهنت عن توفر مزايا الارتقاء فيها... وبدهي أن لكل فرد نفسية أو عقلية مستقلة ولكن ذلك لا يعني أنها أساس للمقابلة والتفضيل السلاليين. وللسلالات عقليات مستقلة موجودة فعلاً ولكن يجب ألا يتخذ ذلك حجة للتمسك بعقائد تفاضل السلالات المتمدنة تفاضلاً أساسياً جوهرياً...**»

أما عصام المحايري فأراد التمسك بعقيدة تفاضل السلالات وقال «بأرقى أنواع السلالات وأميزها». إن عصام أراد أن يناقش العروبيين الوهميين ليس بسلاح الحقائق العلمية التي أوضحها سعاده بل بسلاح «الحقائق المقررة» التي قررها هو وحده خلافاً لسعاده.

يجدر هنا، وللملاحظة فقط، أن نذكر بأن سعاده قد تكلم على «السلالة السورية الممتازة» في نشوء الأمم كما في المحاضرة الرابعة، مما قد يثير التباساً لغير المدققين الذين يظنون أن سعاده نفسه يفاضل بين السلالات ويقول بالسلالة الممتازة وغير الممتازة، لكن يجب التنبيه أن هناك فرقاً كبيراً بين معنى السلالة العرقي الدموي من جهة ومعنى «السلالة التاريخية» من جهة أخرى، ولا يجب الخلط بين الاثنين. إن سعاده عندما تكلم على السلالة السورية الممتازة كان يتكلم على السلالة التاريخية وليس الدموية العرقية. وهذا واضح من كون السوريين هم مزيج سلالي عرقي وليسوا سلالة واحدة لتكون ممتازة أو غير ممتازة. السلالة التاريخية مشروح معناها في نشوء الأمم وهي تعني المزيج التاريخي المعين وطابعه المميز عبر التاريخ، وهذه مسألة خارجة عن موضوعنا الآن.

لقد أعطينا مثلاً واحداً عن المستوى المتدني لفهم واستيعاب مسؤول حزبي رفيع (عميد إذاعة وعضو مجلس أعلى) منذ سنة 1951 لناحية مهمة من الأساس العلمي

للعقيدة. والآن بعد ثمانين سنة من صدور كتاب نشوء الأمم لا زال كثير من القوميين الاجتماعيين يسيئون فهم عبارة سعاده: «**من يدري هل يقدر للإنسانية أن تصبح مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور**» ويؤولونها عكس معناها الحقيقي ويرددون ببغائياً ويقولون: «سعاده سأل نفسه هل يصبح العالم أمة واحدة في المستقبل، فأجاب: من يدري». أما الحقيقة فهي أن سعاده لم يسأل ولم يجب، وهو بريء من هذا التأويل الأعوج المستعجل اللجوج الذي يريد أن يقول: صحيح أننا اليوم أمة سورية تامة ولكن يمكن أن نصبح أمة عربية في المستقبل، بما يوحي أن هذا المستقبل هو مستقبل قريب. إنه مثل ثانٍ عن الضعف العلمي لا بد أيضاً من توضيحه الآن كما يلي:

إن سعاده في الفصل السادس من نشوء الأمم الذي عنوانه «نشوء الدولة وتطورها، وتحت العنوان الفرعي الأول «الثقافتان المادية والنفسية»، وفي الفقرة الثانية يقول: «**ولقد تكلمنا على الاجتماع البشري وأشرنا إلى أنه عريق في القدم وأنه صفة بشرية عامة، حتى إن ما قلناه في هذا الصدد ليحمل على الاعتقاد أن اجتماعية الإنسان شيوعية بلا حدود أو قيود، والواقع غير ذلك، فالمجتمع الإنساني ليس الإنسانية مجتمعة، ومن يدري هل يقدر للإنسانية أن تصير مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور**».

فسعاده إذاً لم يكن يتكلم على العروبة ولا عن الأمة والقومية، إنه كان يتابع شروحه العلمية حول معنى «الصفة البشرية العامة» لهذا الاجتماع، تمهيداً للدخول في معنى الدولة وواقع الدولة. كان سعاده يوضح ما يعنيه بعراقة الاجتماع البشري في القدم وما يعنيه بأن الاجتماع هو صفة بشرية عامة، كي لا نسيء فهم المقصود من عبارة «صفة بشرية عامة» وكي لا نظن أن المجتمع الإنساني هو الإنسانية مجتمعة، وكأن الإنسانية مجتمع واحد. يريدنا أن نفهم بأنه حيثما وجدنا الإنسان وجدناه بحالة اجتماعية، دون أن يعني ذلك أن الإنسانية مجتمع واحد.

سعاده يريدنا أن نعرف أن «الواقع غير ذلك»، الواقع ليس مجتمعاً إنسانياً واحداً، وأنه لا أحد يستطيع القول أو يدري إذا كانت الإنسانية سيقدر لها أن تصير مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور. أما العصور فهي قياس الأزمنة الطبيعية، كأن نقول العصر الجليدي أو العصر الحجري أو المعدني. وعبارة مستقبل العصور تعني مئات الآلاف من السنين المقبلة.

إننا في هذه المناسبة نهيب بجميع الرفقاء السوريين القوميين الاجتماعيين أن يدرسوا سعاده بهدوء والكف عن الترديد الببغائي للخرافة التي تقول إن سعاده سأل نفسه، وإن سعاده أجاب نفسه، ولكل هذه الحكاية السخيفة.

ب- الضعف العقائدي

أما الضعف العقائدي فهو واضح من اللغة العمومية الملتبسة التي تحمل أكثر من معنى واحد، ومن خلط العلم بالسياسة وخلط السياسة بالعقيدة وعدم تصنيف الأفكار وتحديدها بوضوح. وظاهر أيضاً من اللغة الإنشائية وعبارات «الشعور المتأجج والمحبة ونبض الفؤاد ووشائج العاطفة...الخ التي استعملها المحايري في نقاش عقائدي وفي مواضيع سياسية.

وأكثر ما يظهر الضعف العقائدي هو في تغييب المبادئ الأساسية تغييباً كلياً وعدم ذكرها بالمرة وعدم الجهر بها واستعمالها وإبرازها وتبيان صحتها. ويبلغ الأمر ذروته في تجنب استعمال ولفظ كلمات الأمة السورية والوطن السوري واستبدالها بعبارات «مقبولة» نسبياً من الخصوم العقائديين، مثل عبارات: المشرق العربي والهلال العربي الخصيب والمحيط القومي والجبهة الشرقية و»المنطقة». وأيضاً في الوقوع في تبني مقولات العروبيين الوهميين الذين يفرقون بين الوطني والقومي ويقولون: «وطنياً وقومياً»، حيث الوطني بالنسبة لهم هو المتعلق بالكيان السياسي مثل لبنان أو الشام، والقومي هو المتعلق بالأمة كلها. وهذا خطأ فادح لأن الحقيقة هي أن الوطني هو النسبة للوطن السوري كله وليس فقط النسبة لجزء منه. وكثرت تعابير «لبنان وسوريا» والواو بينهما، كما كثر تعبير «لبنان والأمة» دون ذكر اسم الأمة كأنها هذه الأمة لا اسم لها أو كأن اسمها يسبب حساسية للآخرين، وهم لا يريدون لأحد أن يتحسس من اسم سورية والأمة السورية والوطن السوري. إنهم يريدون أن يكونوا «مقبولين» ليس كما هم سوريين قوميين اجتماعيين بل كما يريدهم الآخرون أن يكونوا.

ج- الضعف المعنوي

أما الضعف المعنوي فيتبدى فيما يمكن أن نسميه الخوف والتهيب من كثرة الخصوم العقائديين، وعدم الثقة بالنفس وبالعقيدة، والشكوى من عزوف أصحاب العقائد الأخرى عن الحوار واستمرارهم باتهام الحزب أنه عدو لبنان واستقلال لبنان أو أنه

عدو العرب والعروبة، وهذا واضح في مجمل كتابات وخطابات أكثر الكتّاب والخطباء القوميين بعد استشهاد سعاده، وعندنا مثل عنه في كتاب صبحي فريح الذي كنا الآن بصدده، وخاصة مقالات عصام ومهنا فضلاً عن مقدمة بشير.

إن هذا الخوف والتهيب وعدم الثقة بالنفس وبالعقيدة هو غير مبرر إطلاقاً، وهو لم يكن موجوداً في حياة سعاده أبداً. في حياة سعاده كان الحزب ينمو ويزداد عدده بسرعة وقوة وكان يكتسح المناطق في الساحل وفي الداخل. في بيروت لم يكن يوجد حي من أحيائها إلا وفيه مديرية ناشطة للحزب، ولم يكن يوجد بيت أو عائلة دون أن يكون فيه رفقاء ناشطون في الحزب. كان سعاده يزرع الرفقاء زرعاً في كل منطقة يزورها ويمر بها، وكانت العقيدة تنتشر وتزهر وتثمر في كل مكان بفضل وضوح الخطاب العقائدي وجلاء الفكرة وقوة الحجة والثقة بها، والناس تكره الغموض والالتباس والمراوغة وتطلب الصراحة والصدق وشدة الإيمان وقوة الاندفاع.

ها هو إنعام رعد يقول في مذكراته «الكلمات الأخيرة» ما يلي: «كانت المرحلة تشير إلى أن الحزب بات حديث الأمة، فسعاده في اللاذقية، في حلب، في دمشق يحاضر ويخطب. وفي بيروت هناك الندوة الثقافية ومحاضراته العشر. وسعاده مرجع يأتيه الطلاب والشباب من كل أنحاء الأمة. والحزب يخترق المناطق والأحياء، في بيروت وفي غيرها. في الجميزة يقام مكتب لجريدة الجيل الجديد، وفي البسطة تكثر المديريات وتنمو، ورأس بيروت قفير نحل للقوميين الاجتماعيين. وفي الجامعات حركة الحزب قوية ومديرياته منتشرة...» (الكلمات الأخيرة ص 49- 50). أولاً يسأل القوميون الاجتماعيون اليوم عن السبب الذي جعل حزبهم يعود القهقرى فينقلب المشهد رأساً على عقب؟

في مقابل ذلك، لنقرأ معاً كيف كانت حالة الخصوم العقائديين على لسان ميشيل عفلق نفسه. إن الأستاذ ميشيل عفلق هو نفسه يقول بأن وصول حزب البعث إلى السلطة كان مؤامرة دبرها الاستعمار، هو يقول ذلك وليس نحن، وعفلق يتكلم بصراحة عن «الهوة التي نشأت بين البعث والجماهير واتسعت مع الزمن ومع تراكم الأخطاء والانحرافات والمشاكل». أقرأه يقول في كتابه «نقطة البداية- أحاديث بعد الخامس من حزيران 1971) ما يلي:

«...ولكن المؤامرات وحملات التجني التي كانت تتوالى عليه بشراسة متزايدة كثيراً ما لجمت عنده حاجة الصراحة وحاسة الصدق مع النفس، فكتم الكثير من أمراضه وورطاته ومشاكله حتى لا يفيد الأعداء والخصوم من صراحته ويتسلحوا بها ليزدادوا إمعاناً في تهديمه. وهكذا نشأت الهوة بينه وبين الجماهير واتسعت مع الزمن ومع تراكم الأخطاء والانحرافات والورطات والمشاكل. وظهر آخر الأمر أن الأعداء هم الذين أفادوا من ذلك التستر على العيوب والأمراض، وأن أكبر مؤامرة دبرها الاستعمار وأعداء الأمة العربية ضد حزب البعث كانت في توريطه في السلطة...» (نقطة البداية- عفلق- ص 15).

ويتابع عفلق ويقول: «علينا أن نخرج الحزب من الغرف والقاعات، ونخرج مبادئه وإمكاناته وتنظيماته ودراساته وخططه ومشروعاته ونخرج حماسته وإيمانه واندفاعاته من هذا الإطار الضيق ونبذره في الأرض العربية الواسعة وبين الجماهير الكادحة» (نفس المصدر ص 40).

إن مجرد مقارنة بسيطة وسهلة جداً بين ما قاله كل من إنعام رعد وميشال عفلق، ومقارنة وضعي الحزبين آنذاك مع وضعهما اليوم، توضح لنا صدق قولنا بأن عقدة إرضاء الخصوم العقائديين والبحث عن مكان بينهم هي مناخ عام هيمن على الحزب بعد استشهاد زعيمه، وسببها ضعف القيادات التي أتت بعده والتي لم تستطع إكمال ما بدأه، لم تستطع إكمال نهج سعاده الصراعي الهجومي بسبب ضعفها المثلث الأضلاع، علمياً وعقائدياً ومعنوياً.

إن الضعف المعنوي هو ناتج عن الضعف العقائدي، والضعف العقائدي هو ناتج عن الضعف العلمي، والضعف السياسي هو ناتج عن ضعف انتشار الحزب وتراجع قوته الشعبية بسبب ضعف قياداته العلمي والعقائدي والمعنوي معاً.

إنعام رعد الثوري

سأخرج من كتاب صبحي فريح لأقرأ في كتاب إنعام رعد: «حرب التحرير القومية»، وأيضاً في «قراءة جديدة للمحاضرات العشر» التي كتبها وألحقها في كتاب المحاضرات العشر لسعاده.

لـن أطيل، سأتناول فقط ما لـه علاقة بعقـدة إرضاء الآخرين والبحـث عن مكان بينهم على حساب التساهل في العقيدة.

في كتابـه «حـرب التحرير القومية» يقدم الأمين الراحل إنعام رعد محاورة ومناقشـة رائعة أظهرت فسـاد النظرة الماركسـية اللينينية إلى مسألة صراعنا القومي ومسألة تحرير فلسـطين، وأظهـرت صـواب النظرة القوميـة الاجتماعيـة. لكنه يعود في نهاية المناقشـة ليقـول: «**إن الحـوار الذي نطرحه لا نقصد منه تسـفيه أي فكر آخـر بقدر ما يهمنا جلاء المواضيـع... وهـو حوار ثـوار مع ثوار تعاقـدوا على تغيير مجتمعهـم وتغيير مصيره من مصير الذل والانحطاط والتجزئة والاسـتعباد إلى مصير التقدم والنهوض والمجد. وهو حـوار فكـري ثوري يحترم كل فكـر ثوري آخر من ضمن اعتباره حـق النقد... وهو لا ينقض الماركسـية لينكر قيمتهـا الثورية والفكرية الكبرى بل هـو يعتبر أن قضايا الثورة القومية في العصر الحديث تتجاوزها وتطرح تحديات جديدة للفكر الثوري المعاصر...**» (حرب التحرير القومية ص 102).

نحـن لا نجد أي مـبرر لاحترام الأفكار الفاسـدة في صراع العقائد والأفكار. نحن نحترم الناس وحق الناس في اعتناق الفكر الذي يريدون، ولكننا لا نحترم الفكر الذي نراه نحن فاسداً، والفرق كبير بين الاثنين، أي بين أن نحترم الفكرة أو نحترم صاحبها.

ونحـن لا نجد أي مبرر لمنح صفة ثوار، تعاقـدوا على تغيير مجتمعهم وتغيير مصيره مـن مصير الذل إلى مصير المجـد، لخصوم عقائديين برهنّا للتو أن عقيدتهم فاسـدة ولا تـؤدي إلى إنقاذ شـعبنا وبلادنا مـن مصير الذل وإيصاله إلى مصـير المجد. نحن لا نجد مـبرراً لذلـك إلا الحرص على إرضـاء أصحاب العقائـد الأخرى والبحـث عن مكان بينهم.

إن صراع العقائـد الذي أعلنه سـعاده «**هـو امتحان العقائد والقيـم ونهايته هي دائماً غالـب ومغلوب... ويل للعقائد الباطلة مـن الحرية، لأن الحرية صراع!**». فإذا كنا فعلاً في صراع فكري عقائدي، يفترض بنا أن نصرع العقائد الأخرى لا أن نحترمها ونتعايش معهـا. نحن نحترم أصحاب هذه الأفكار ونتعايش معهم كمواطنين لنا ونحترم حقهم في الـصراع، ولكننـا لا نمنحهم شـهادات بأنهم بواسـطة أفكارهم الفاسـدة المصروعة

سيصلون إلى «تغيير مجتمعهم من مصير الذل والتجزئة والاستعباد إلى مصير التقدم والنهوض والمجد»، حسب تعبير إنعام رعد.

إن روحية المسايرة والمجاملة والمديح للعقائد الأخرى ليست هي الروحية التي تريد الانتصار في معركة العقائد، ولا هي الروحية التي تثق بحقيقتها وصحة عقيدتها. إن هذه الروحية لا تُكسب جماهير، لأن الجماهير تريد عقيدة واضحة واثقة غير مترددة وتريد قادة مصارعين واثقين من أنفسهم ومن عقيدتهم وصحتها وحريصين على إبراز عقيدتهم وصحتها فقط، وليسوا حريصين على منح شهادات الثورية لخصوم عقائديين.

عروبة إنعام رعد

إنعام رعد لا يستعمل أبداً ولا يذكر إطلاقاً عبارات الأمة السورية والوطن السوري، بل تراه يحوم حولها ويدور مستعملاً عبارات «مقبولة» من الخصوم العقائديين مثل: مدانا الحيوي، مدانا المجتمعي، الهلال العربي الخصيب، بيئتنا القومية، الجبهة الشرقية، المشرق العربي، المنطقة. وهو حريص جداً على إبراز «أي صيغة للاتحاد العربي كمطلب عام»، حتى إنه يقول: «**إن وعينا لروابطنا المجتمعية القومية الطبيعية مرتبط بالضرورة بوعينا لروابطنا العربية. وإن دعوتنا لتوحيد مدانا المجتمعي والاستراتيجي تتم على أرضية اللقاء العربي العام ومن ضمنه**» (حرب التحرير القومية ص 51). إن المواطن هنا يتساءل: ما دام وعينا لروابطنا المجتمعية القومية الطبيعية يرتبط بالضرورة بوعينا لروابطنا العربية، فما الفرق يا ترى بين روابطنا القومية وروابطنا العربية؟ هذه روابطنا وتلك هي روابطنا، وتلك مرتبطة بالضرورة بهذه، فلماذا إذاً التمسك بمربطنا؟ وماذا يمنع من أن نلتحق بمربط غيرنا ونرتاح من هذا اللعب والرقص على الكلام؟

ونحن نسأل أيضاً: هل صحيح أن روابطنا القومية السورية هي مرتبطة بالضرورة بعروبتنا، كما يقول إنعام رعد، أم أن عروبتنا هي التي يجب أن تكون مرتبطة بضرورة وعينا القومي السوري أولاً، كما يقول سعاده؟ إن سعاده قد شدد وكرر ونبه مرات ومرات وفي مناسبات كثيرة بأن سورية يجب أن تكون هي شيء أولاً كي تستطيع تقديم شيء للعالم العربي، أي إن القومية السورية هي ضرورة لعروبتنا، ولكنه ولا مرة قال إن عروبتنا هي ضرورة لقوميتنا السورية.

وإنعام رعد يقول أيضاً:

«**إن توكيدنا على ارتباط حرب التحرير بالوحدة الطبيعية هو من ضمن الروابط العربية الأساسية، وهو بلورة سليمة للمطالب الاتحادية العربية**»، ثم يتابع ويتكلم على «**حلف سياسي اقتصادي عسكري تتطور روابطه النامية والمتلاحمة نحو أية صيغة اتحادية وفق اضطراد التطورات الاجتماعية...**».

إن الكلام على «أية صيغة اتحادية وفق اضطراد التطورات الاجتماعية» كان تمهيداً سيؤدي بإنعام رعد إلى الكلام على تطوير غاية الحزب، أي تعديلها، أي تغييرها، كما سنرى ذلك بعد قليل.

إن إنعام رعد، ومن بعده توفيق مهنا الذي كان أكثر جرأة وأكثر وضوحاً، يدّعي أن كل الذي يشرحه ويقوله عن عروبة الحزب، أي عن الاتحادية وفق أي صيغة، هو شرح أمين وصحيح لعقيدة سعاده ومبادئ سعاده ونظرة سعاده، وليس فيه أي خروج أو مبالغات أو انحرافات. عظيم، سلّمنا معه، لماذا إذاً يطلب تطوير غاية الحزب في موضوع العروبة؟!

يقول إنعام رعد في قراءته الجديدة للمحاضرات العشر ما يلي: «**ومفهوم سعاده للجبهة العربية هو مفهوم الصيغة في السبعينيات أوسع نطاقاً منها في الثلاثينيات بعامل نمو هذه الروابط...**» (قراءة جديدة ص 12).

هكذا بدأ إنعام، بالتلميح، بالكلام الخجول الممكن التراجع عنه أو تأويله، أما توفيق مهنا فكان أوضح وأكثر إفصاحاً وأسرع التقاطاً لإشارات رعد. يقول مهنا: «**إن دعوة سعاده المبكرة إلى قيام الجبهة العربية في الثلاثينيات والتي تطورت إلى الدعوة لقيام نواة اتحادية عربية في الأربعينيات كانت سباقة في العالم العربي**» (من دراسة لمهنا منشورة في كتاب صبحي فريح: العروبة في الحزب السوري القومي الاجتماعي - نصوص لأنطون سعاده).

مهنا يحسم: دعوة سعاده تطورت. إن تعبير إنعام رعد «الصيغة في السبعينيات أوسع نطاقاً منها في الثلاثينيات» تجاوزه مهنا بثلاثة أمور هي:

1- «أوسع نطاقاً» عند رعد صارت «تطورت» عند مهنا.

2- النطاق الأوسع غير المحدد (أية صيغة) عند رعد صار صيغة محددة (نواة اتحادية عربية) عند مهنا.

3- أربعون سنة عند رعد (من الثلاثينيات إلى السبعينيات) صارت فقط عشر سنوات عند مهنا (من الثلاثينيات إلى الأربعينيات). السبعينيات هي تاريخ كلام رعد، أما الأربعينيات فهو تاريخ المذكرة التي قدمها وفد إحدى منفذيات الحزب في فلسطين إلى مؤتمر مشاورات الاسكندرية لتأسيس الجامعة العربية سنة 1944. هذه المذكرة التي ورد فيها اقتراح توحيد شؤون الثقافة والدفاع والخارجية فيما بين بيئات العالم العربي الطبيعية، اعتبرها مهنا الحد الفاصل بين الجبهة التي دعا إليها سعاده، وتوحيد شؤون الثقافة والدفاع والخارجية التي دعا إليها كاتب مذكرة المنفذية، والتي اعتبرها مهنا تطوراً في دعوة سعاده، أي في غاية الحزب، وسمّاها مهنا النواة الاتحادية العربية.

نحن الآن في سنة 2018، أي على مسافة أكثر من 85 سنة من الثلاثينيات، فكيف يا ترى يجب أن تصبح غاية الحزب اليوم؟

الملحق الثاني

صورة من تقرير فريد الصباغ إلى المجلس الأعلى

التقريـر مؤلف من حوالي عشرين صفحة وهو منشـور في «الكتـاب القومي» العدد الرابع، ويشرح بالتفصيل لماذا وكيف عمل عبد المسيح على طرد «الأمين فريد الصباغ» بطريقـة غـير قانونيـة وغير شرعية دون محاكمـة ودون توجيه تهمـة ودون تحقيق ودون إعطائه حقه المقدس في الدفاع عن نفسـه، مما يتعارض تعارضاً صارخاً مع نظام سـعاده وتشريعـه وعدالتـه. هذه هي الصفحـة الأولى منه بخط اليد نقلتها من حسـاب الرفيق الدكتور ميلاد السبعلي على الفايس بوك.

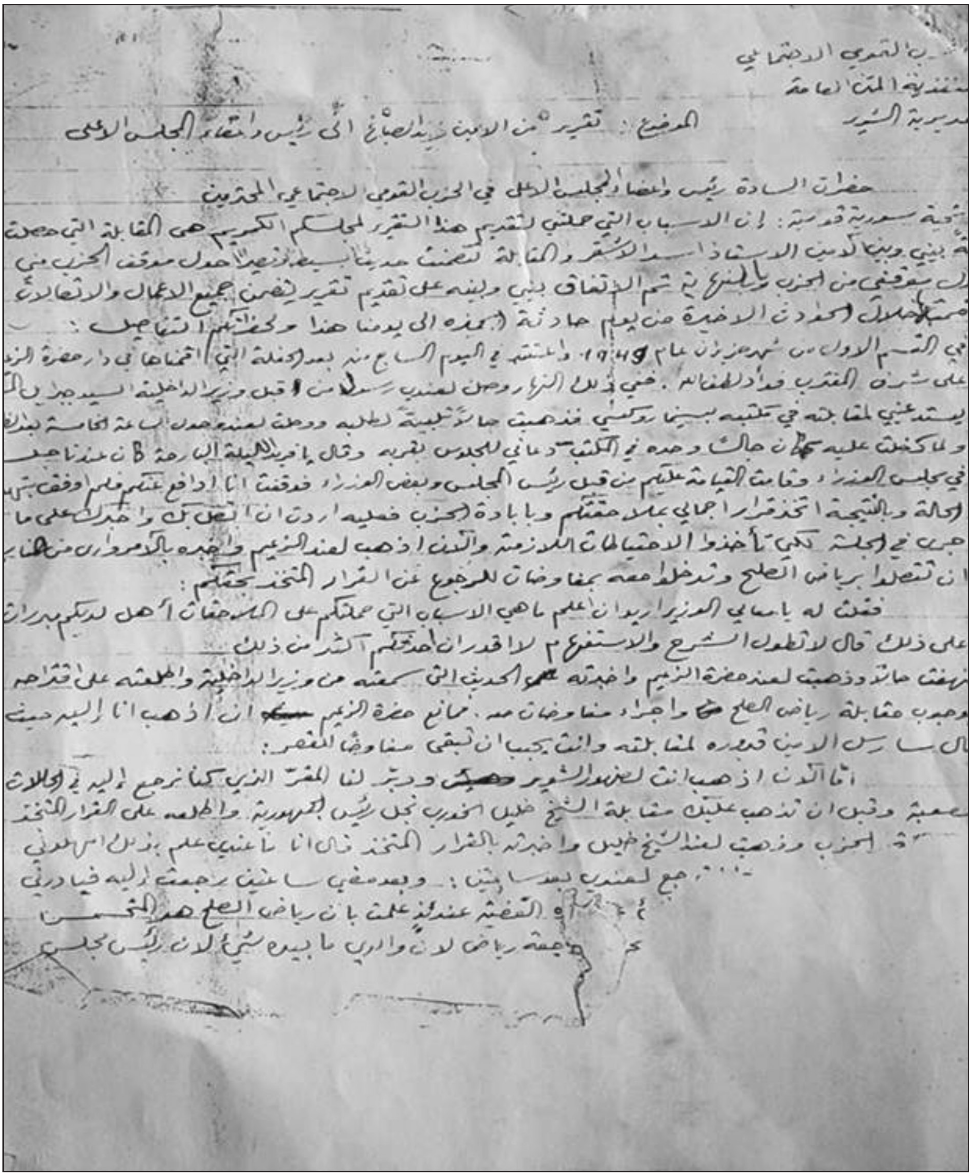

...ب القومي الاجتماعي
منفذية المتن العامة
مديرية الشوير

الموضوع: تقرير من الامين زيد الصايغ الى رئيس واعضاء المجلس الاعلى

حضرات السادة رئيس واعضاء المجلس الاعلى في الحزب القومي الاجتماعي المحترمين
تحية سورية قومية: إن الاسباب التي حملتني لتقديم هذا التقرير لمجلسكم الكريم هي المقابلة التي حصلت
بيني وبين الدكتور الاستاذ اسد الاشقر والمقابلة تتضمن حديثاً بسيطاً [illegible] حول موقف الحزب مني
[illegible] توقيفي من الحزب بالشرع ثم تم الاتفاق بيني وبينه على تقديم تقرير يتضمن جميع الاعمال والاتصالات
[illegible] خلال الحوادث الاخيرة من يوم حادثة الجميزة الى يومنا هذا وكما اليكم التفاصيل:
في القسم الاول من شهر حزيران عام 1949 واعتقد في اليوم السابع منه بعد الحفلة التي اقمناها في دار حضرة الزعيم
على شرف المقتب فؤاد الصايغ. في ذلك النهار وصل لعندي رسول من قبل وزير الداخلية السيد جبرائيل [illegible]
يستدعيني لمقابلته في مكتبه بسينما روكسي فذهبت حالاً تلبية لطلبه ووصلت لعنده حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر
ولما دخلت عليه كان جالساً وحده في المكتب دعاني للجلوس بقربه وقال يا زيد الليلة البارحة كان عندنا جلسة
في مجلس الوزراء وقامت القيامة عليكم من قبل رئيس المجلس وبعض الوزراء فوقفت انا ادافع عنكم فلم اوفق بتهدئة
الحالة وبالنتيجة اتخذ قرار اجماعي بملاحقتكم وبابادة الحزب فعليه اردت ان اتصل بك واخبرك على ما
جرى في الجلسة لكي تأخذوا الاحتياطات اللازمة والآن اذهب لعند الزعيم واخبره بالامر وان من الضروري
ان تتصلوا برياض الصلح وتدخلوا معه بمفاوضات للرجوع عن القرار المتخذ بحقكم:
فقلت له يا معالي الوزير اريد ان اعلم ما هي الاسباب التي حملتكم على الملاحقات اهل لديكم [illegible]
على ذلك قال لا اطول الشرح والاستفهام لا اقدر ان اخبركم اكثر من ذلك
نهضت حالاً وذهبت لعند حضرة الزعيم واخبرته بالحديث الذي سمعته من وزير الداخلية واطلعته على اقتراحه
بوجوب مقابلة رياض الصلح واجراء مفاوضات معه. فمانع حضرة الزعيم ان اذهب انا اليه حيث
قال [illegible] رئيس الامين [illegible] لمقابلته وانت يجب ان تبقى [illegible]:
اما الآن اذهب انت لعند الشوير [illegible] ودبر لنا المقر الذي كنا نرجع اليه في الحالات
الصعبة وقبل ان تذهب عليك مقابلة الشيخ خليل الخوري نجل رئيس الجمهورية واطلعه على القرار المتخذ
[illegible] الحزب وذهبت لعند الشيخ خليل واخبرته بالقرار المتخذ قال انا لا علم لي بذلك [illegible]
[illegible] جع لعندي بعد ساعتين: وبعد مضي ساعتين رجعت اليه فبادرني
[illegible] التفتيش عندئذ علمت بان رياض الصلح هو المتحمس
[illegible] رياض لان والدي ما بيعمل شيء الان رئيس المجلس

الملحق الثالث

وثائق السفارة الإنكليزية في بيروت

فيما يلي ثلاث صفحات باللغة الإنكليزية، الصفحتان الأوليان تؤلفان جزءاً من تقرير شهر أيلول سنة 1949 مرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية في لندن من سفارتها في بيروت. والصفحة الثالثة هي جزء من تقرير شهر حزيران.

في الأسطر الخامس والسادس والسابع من المقطع الثاني من الصفحة الأولى نجد ما هو متعلق بجورج عبد المسيح، وترجمته هي كالتالي:

«الزعيم (أو القائد) الجديد المفترض للحزب، جورج عبد المسيح، قد نجح في البقاء متوارياً (أو مختبئاً)، ويُعتقَد أنه في سورية».

هذه الوثائق تكتسب أهميتها من كونها تشير إلى أن الحكومة البريطانية كانت تعرف سلفاً أن عبد المسيح سينتقل إلى الشام ويصبح رئيساً للحزب. كما تشير إلى الارتهان الكامل لبشارة الخوري ورياض الصلح لمشيئة وإرادة الحكومة البريطانية.

1 13102 E

CONFIDENTIAL No. 9.

From Beswa

BRITISH LEGATION, BEIRUT.

POLITICAL SUMMARY FOR THE MONTH OF SEPTEMBER 1949.

With preparations to be made for the President's reinauguration and the formation of a new Cabinet, the relative calm of August did not last long into September. Political consultations began on September 7th and the month ended with a series of important events, the presidential reinauguration being followed by the visit of King Abdullah, the death of Emile Eddé and a serious outbreak of trouble in the Bekaa. The premature onset of the autumn rains, which started at least a month too soon on September 7th, may not have been without some effect on the revival of political activities and the public's reactions to them.

2. The liquidation of the Parti Populaire Syrien affair (see recent Summaries) continued without much overt excitement. On September 1st forty-one members of the party were sentenced to terms of imprisonment varying from one and a half to six years and thirty-seven persons already sentenced lost their property and civic rights. The supposed new leader of the party, Georges Abdel Massih, remained successfully in hiding, allegedly in Syria, but two minor leaders, Assad Ashkar and Abdulla Kobrossi, gave themselves up. The latter, who was head of the political section of the party, claimed in the course of his interrogation that it was Colonel Husni Zaim who was to blame for Anton Saade's resort to armed insurrection. Although the opposition leader, Kamal Jumblatt, continued to make capital out of the arbitrary, hole and corner manner in which Anton Saade had been tried, the Government felt strong enough to take advantage of the opportunity afforded by the President's reinauguration to grant an amnesty to all those whose sentences were for one year or less.

3. The non-Parliamentary opposition was busy during the month trying to agree on a common line to follow in regard to the reinauguration of the President and the formation of a new Cabinet. All its parties continued to maintain their view that the present Chamber was illegally elected but the principal leaders of the shadowy inter-party coalition seemed at times prepared to accept office, if offered sufficiently attractive terms, with a view to preparing the way for fresh elections. The President took advantage of this frame of mind to engage the opposition in discussions and place on it at least a part of the blame for the impasse. On September 7th he even offered Abdul Hamid Kerameh the premiership, knowing well enough that he would and could not form a Government. Kerameh would not on that occasion even nominate one of his supporters for a post in a coalition Cabinet but contacts between the opposition leaders (notably Henri Pharaon) and the President were not broken off. The result, no doubt foreseen by the President, was that the Committee of National Liberation and associated parties were not able to agree with Emile Eddé's party, the "Al Kutlat al Wataniat" (National Bloc), on a joint programme, since the latter maintained its insistence that elections should be held before September 21st. At the last moment, when time had made this condition impossible of fulfilment, a weak compromise formula was found. The gist of it was that the opposition would only give a de facto recognition to anything that happened

/after ...

- 2 -

unfortunately true that two of the Lebanese staff of the Information Section of this Legation were among those arrested. They were dismissed for engaging in local political activities as soon as enquiry had established that they had played an active role in the work of the Party. It is not certain how far Colonel Zaim was implicated in the early stages. Some of the officers who helped him to power are known to have been members of the Party, and the Lebanese Prime Minister assured His Majesty's Minister that Zaim had been right behind Saade until it became clear that his plot was doomed to failure, but as Riad Solh not only distrusts but actually detests Zaim personally this is hardly evidence.

4. With the Tabbara incident out of the way, renewed consideration was given during the month to the question of Syrian-Lebanese economic relations. While Syria is anxious to restrict imports, the Lebanon has hitherto been in favour of a policy of economic liberalism. The effect of unrestricted imports on local production and the lack of outlets for Syrian-Lebanese industrial and agricultural products have aggravated the present commercial malaise in both countries, and the fluctuating rate of exchange between the Syrian and the Lebanese pound has been an additional obstacle to proper co-operation. Early in the month the Syrian Government sent the Lebanese Government a note, asking them to choose before the end of the month between three separate plans: (i) complete economic union; (ii) economic independence but with an identical customs tariff and free interchange of nationally-produced goods; (iii) revision of the present system, particularly the creation of joint machinery for the control of exports and the limitation of imports. The Lebanese Minister of National Economy, for his part, set up a number of mixed commissions, in which commerce, industry, the government and the consumer were all represented, to examine and report within a month on measures which he had introduced in May to protect Lebanese industries; and on June 17th he had a preliminary meeting with the Syrian Minister of Economy.

5. On the evening of June 11th the owner of the weekly paper "Kul-Shay" was attacked by thugs just outside his office and badly beaten up. Such incidents are not uncommon in Beirut (the owner of the "Telegraph" was similarly attacked in March by members of the P.P.S.) but a certain interest attaches to this particular incident, in that the assailants, one of whom was a sergeant in the army, were protégés of the picturesque and bellicose Druze, Emir Majid Arslan, the Minister of Defence. Press comment on this has been heavily censored and the Minister of Defence is suing "Kul-Shay" for libel.

6. Sir William Strang visited Beirut from June 9th - 12th and met, among others, the President of the Republic, the Prime Minister and the Minister for Foreign Affairs. His visit coincided with that of Mr. Sam Cooper, Assistant Director of the Middle East Section of the State Department, and the Lebanese press, which does not know the meaning of the word coincidence, did not fail to interpret this as a sign of the Anglo-American rivalry in the Middle East.

7. The Commander-in-Chief, Mediterranean, flying his flag in H.M.S. "Vanguard", visited Beirut from June 22nd - 25th. Though the visit was unofficial, he was entertained to lunch by the President and later returned the compliment.

/8. ....

1 E 9483

SECRET
No. 6

BEIRUT SUMMARY FOR THE MONTH OF JUNE

From Bailey

A. POLITICAL

At the end of May, Lebanese relations with Syria were still severely strained as a result of the dispute over Captain Tabbara, the Syrian officer who had been arrested by the Lebanese gendarmerie after he and three of his men had shot and killed, on Lebanese territory, a well-known smuggler accused of illegal traffic with the Zionists. On June 1st, however, after a day's delay as a result of a fresh frontier incident which was soon cleared up, the Egyptian-Saudi-Arabian Arbitration Committee announced their verdict. This was to the effect that the Lebanon was in the right juridically, but that the Syrian point of view was correct on the political and moral plane. Captain Tabbara and his men were to be handed over to Syria for trial, and both governments were to express to the other their regret at the incident. This verdict was accepted by both countries and relations between them returned to normal. The President of the Republic and the Prime Minister had a meeting with Colonel Zaim and Muhsen Barazi at Chtaura on June 24th, and as soon as Zaim had been elected President he informed the Lebanese President by telegram and received an immediate and appropriate reply.

2. On the night of June 9th there was a sharp clash in the Beirut suburb of Jemayze between the Phalangists and the Parti Populaire Syrien (also known as the Parti Populaire Social), a group of right-wing extremists founded in the early thirties by Antoun Saade, who was then a lecturer in German at the American University, on the lines of Hitler's storm-troopers. There was some shooting and in the ensuing mêlée the building in which the Party's printing-press was housed was set on fire. The Government already had evidence that the P.P.S. was preparing a <u>coup d'état</u>, and had made plans to deal with the situation. As soon as the clash occurred those plans were put into effect and by the evening of the 10th the police had arrested some two hundred and fifty members of the Party, and discovered considerable quantities of machine-guns, grenades and explosives. So many more arrests were made in the following days, both in Beirut and in the villages, as the active members of the Party were rounded up, that the regular prisons were soon filled to capacity and a new use found for the UNESCO building, which accommodated the overflow. Preparations were made for the trial by a Military Tribunal of those arrested, and some indication of the nature of the charge against them was given later in the month by the Attorney-General, who stated that documents which had been seized showed that the P.P.S. was a para-military organisation working for the overthrow of the régime, and that its leaders were in contact with prominent Zionists, on whose support they depended for the success of their intended coup. Though most of the leading members of the Party had been arrested by the end of the month, Antoun Saade himself was still at large, in spite of the fact that the Lebanese authorities had put a price of £.Leb.10,000 on his head.

3. One of the aims of the P.P.S. was the creation of a Greater Syria, to include Syria and the Lebanon, Transjordan and Palestine. It was also violently anti-communist. It is perhaps for these reasons that the Party was popularly supposed to enjoy British support. It is

/unfortunately ....

الملحق الرابع

وثيقة من مائير زامير

الوثيقة- الرسالة الأولى التي وردت في دراسة الكاتب مائير زمير، ننشرها كما وردت، صورة عن الأصل، وهو لم يعرّف بها ولم يذكر مصدرها أو الجهة التي هي موجهة إليها. لكن مضمونها يفصح عنها. أما الرسائل الأربعة الأخرى التي ذكرناها في الفصل الخامس تحت عنوان «**الإسرائيليون يدعمون الشيشكلي**» فهي منسوخة عن الأصل وليست صورة عنه، ولا شيء يؤكد أنها لم تتعرّض للتنقيح، ولذلك لم نعتبرها وثائق. ويمكن للقارئ الاطلاع عليها في موقع «سيريا كومنت» الإلكتروني تاريخ 20-6-2018.

زامير نشر تلك الرسائل ليبرهن أن المخابرات الإسرائيلية كانت تحصل على الوثائق الرسمية المصنفة سرية الخاصة بالدول السورية، وبالتالي كان تدخّلها مبنياً على معرفة بتفاصيل سياسة تلك الدول.

MOST SECRET

7th January,1950

The Iraqi Military Mission (attached to the Iraqi Legation) in Damascus is actively preparing the ground for a counter-revolution to pave the way for a union of Syria with Iraq, and is in constant contact with Syrian circles which are preparing for such a move.

Meetings have taken place with Subhi Omri, a member of the Syrian parliament as well as of the Moslem Brotherhood, and with Subri A-sli, an active worker for the union of Syria with Iraq. These two men have recently been to Beirut and there met Nebia Aazma of the National Party (who formerly represented Syria in Paris) and Aadal Aazma, the latter's brother.

Active preparations are being made for a military operation in the area of the valley of Gota (or Djota) near Damascus and in Wadi al-Aajam (fifteen kilometres south of Dqmascus). The operation is expected to spread from this area and to take in Damascus and cities further north. A member of the Syrian parliament, Haval Sarur, sheikh of the Masayid tribe, is to be instrumental in bringing the necessary arms into Syria. Most members of the Syrian parliament are expected to support the projected move; one of them, Hussein Mariud, is already in Wadi al-Aajam, helping in the preparations.

الملحق الخامس

صفحة من مذكرات فريد الصباغ

هذه صفحة واحدة من مذكرات فريد الصباغ التي لم تنشر بعد.

لقد حصلت على نسخة مطبوعة من مذكرات المرحوم فريد الصباغ تبلغ 93 صفحة، لن أنشرها هنا لأن لا حق لي بذلك، وهي منقولة عن النسخة الأصلية بخط اليد. وهذه الأخيرة لا زالت بحوزة عائلة المرحوم فريد الصباغ، وهم أصحاب الحق الوحيدين بنشرها.

قضية العميد جورج عبد المسيح مع حضرة الزعيم بعد رجوعه من المهجر

عندما اقترب موعد رجوع حضرة الزعيم من المهجر عام 1946 بدأ الأمين السيد عجاج المهتار من تلقاء نفسه كتابة تقرير مفصل قدر الأمكان يشرح بعض الأحداث التي حصلت في الحزب بغياب حضرة الزعيم وهنا أريد أن أذكر شيئاً عن رغبة الأمين مهتار بكتابة هذا التقرير ، فقد كان الأمين عجاج المهتار شاعراً زجلياً من الطراز الأول ولا مثيل له على الإطلاق خاصة بما يتعلّق بقضايا الحزب السوري القومي الاجتماعي وبما يتعلق بالزعيم بنوع خاص ولكن كان خطه غير مقروء في بادئ الأمر وكان يتعذر عليه الكتابة بخط واضح ولكنه كان صاحب إرادة لامثيل لها فتعلّم قواعد الخط الجميل وأصبح خطاطاً يلفت الأنظار منذ وجودنا في سجن بعبدا وكان أحد المساجين القوميين الأستاذ محمد الباشا الذي أصبح فيما بعد مديراً عاماً لليانصيب الوطني اللبناني والأستاذ الباشا كان خطه جميل جداً يكتب على القاعدة الفارسية شبيهاً بخط حضرة الزعيم ، فوجد الأمين عجاج هذه الفرصة مناسبة وطلب من الرفيق محمد الباشا أن يعلمه قاعدة الخط الفارسي الذي رحب بذلك وبدأ بالعمل يومياً حتى أصبح الرفيق عجاج من أفضل الخطاطين وأصبح عمله الدائم نظم الشعر والخط الجميل.

من هنا جاءت رغبته بكتابة هذا التقرير ليطلع الزعيم على بعض ما حصل في غيابه من شؤون وشجون ويريه كيف أصبح يستطيع الكتابة بخط جميل، ومن الأحداث التي ذكرها في التقرير حادثة حصلت يوم مهرجان الإصلاح في ضهور الشوير عام 1946 وكان العميد جورج عبد المسيح عميداً للدفاع في ذلك الوقت وكان هو المسؤول عن سير القوافل الحزبية ووصولها الى ضهور الشوير وكان ممنوع على القوميين الهتاف الحزبي القديم (أي لسوريا والزعيم) كما كان ممنوع أيضاً ظهور أعلام الزوبعة وكان العلم الحزبي بشكل جديد وكان العميد عبد المسيح متابعاً المسيرة من طريق بحنس الى بكفيا فضهور الشوير يسهّل المرور من الإزدحام الحاصل وعندما وصل الى محلّة الصندوق الواقعة بين ضهور الشوير وبكفيا سمع هتافاً على مكبر للصوت يقول:" يا أبناء الحياة ، لمن الحياة؟ ..." أي النداء الحزبي القديم المعروف بنداء الحزب الذي كان ممنوعاً فأجابه العميد عبد المسيح على الفور هذا النداء ممنوع سكّر فمك وكلمات بذيئة صدرت بالصوت العالي وكان السيد مهتار يروي هذه الواقعة في تقريره الذي كان مؤلفا من خمسون صفحة بالخط الرائع ، وقد تسلّم حضرة الزعيم هذا التقرير في بلدة بشامون في منزل الرفيق كامل حسّان على طاولة الغداء وكان بعض العمد موجودون أيضاً على المائدة وفي تلك الساعة أيضاً وصلت برفقة والرفيق وديع الياس مجاعص لنطلع الزعيم على الأخبار التي سمعتها من الوزير جبرايل المرّ بوجوب تركه منطقة الشوف وانتقاله الى المتن الشمالي وبالتحديد الى بلدته ضهور الشوير ، طلب مني أن أجلس الى جانبه كي أطلعه على الأخبار ، وكان التقرير بيده يطّلع عليه فواجهني بالصفحة الموجود عليها حادثة الهتاف فاطلعت عليهاولم أتفوه بأي كلمة ،فقال لي لماذا لم تجب ؟ هل هذه الحادثة صحيحة؟ فقلت له ياحضرة الزعيم أرجو تأجيل الجواب الآن "مش وقتها" ، فأصرّ طالباً الجواب في الحال فقلت له نعم صحيحة وكان العميد جورج يجلس في الكرسي المقابل وكان الزعيم مستاءً من بعض الأحداث المذكورة في التقرير وبالأخص هذه الحادثة فما كان منه إلاّ أن استدعى العميد عبد المسيح بعد انتهاء الغداء الى غرفة مجاورة وعاتبه على هذه الحادثة فاعتقد العميد جورج بأنني أنا الذي وشيت عليه وكتبت هذه الحادثة لأن الزعيم اتخذ بعد جلسة طويلة مع العميد جورج عبد المسيح إجراءً وأقاله من جميع وظائفه وقال له يجب أن ترتاح لأن أعصابك تعبانة.

أصبح جورج منذ ذلك التاريخ يكرهنا أنا وكامل ابو كامل لأننا أصبحنا يد الزعيم اليمنى وتغير الجو فيما بيننا وأصبحت مكروهاً وأضمر لي الشرّ وأصبح يتفوّه بكلام غير مرض ولكني لم أبالي بهذا الأمر على الإطلاق وبقيت على موقفي وقد تبيّن لي أن هذا الكره سببه بعض الأضاليل التي ذكرها في مذكراته ولم أسمعها منه في أي مناسبة ولكنني الآن أجيبه "الله يسامحه" وأترك للتاريخ أن يظهر الحقيقة ومن هو المخطئ ومن هو المصيب.

الملحق السادس

هذا هو حسني الزعيم

نثبت في الصفحة التالية هذه الوثيقة الأصلية بخط اليد منذ سنة 1947 التي تصف شذوذ حسني الزعيم الأخلاقي والوطني. إن هذه الوثيقة تكتسب أهميتها من الأمور التالية:

أولاً: إنها شهادة من المصادر العسكرية العليا في الدولة السورية على المستوى المنحط أخلاقياً ووطنياً لحسني الزعيم. إن قائد الانقلاب الذي حدث في 30 آذار 1949 ينتمي إلى الطبقة التي عادةً ما يختار منها الأجنبي عملاءه، طبقة الشاذين أخلاقياً ووطنياً، والذين يسهل على الأجنبي ابتزازهم، حيث يكون قد أمسكهم وأمسك عليهم ما يفضحهم ويدمّر سمعتهم في حال تمردوا عليه. هؤلاء الشاذين يكونون بذلك منقادين تماماً لإرادة وإملاءات الأجنبي الذي اختارهم وجندهم.

ثانياً: إنها تثبت أن شذوذ حسني الزعيم الأخلاقي والوطني كان منظوراً ومعروفاً من رؤسائه المباشرين في الجيش والحكومة، كان يعلم به وزير الدفاع أحمد الشرباتي ورئيس الوزراء جميل مردم، ورغم ذلك بقي الشاذ حسني الزعيم في منصبه قائداً للواء الثالث ثم رئيساً للمحكمة العسكرية في دير الزور، بل إنه نال ترقية حتى صار مديراً للأمن العام في دمشق، ثم تمت تسميته رئيساً للأركان في الجيش عام 1948 من قِبل رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الحكومة جميل مردم بك قبيل انقلابه بعد سنة. وهذا يثبت أن رؤساءه أنفسهم هم أيضاً كانوا مرتكبين خاضعين لابتزاز الأجنبي بفعل ارتكاباتهم التي أمسكهم عليها هذا الأجنبي. هؤلاء الرؤساء، عسكريين وسياسيين، لم يكونوا بمنأى عن الفضائح التي طالت الجيش في تلك الفترة بعد حرب عام 1948 والتي أدت إلى النقمة العارمة من قِبل الضباط الوطنيين السوريين، هذه النقمة التي أدت بهؤلاء الضباط إلى تأييد انقلاب حسني الزعيم ظناً منهم أن حسني ينقلب على الفاسدين!

ثالثاً: التقرير مقدم من قبل مفتش عام الجيش السوري العقيد **قيصر زهران**. في

البحث عن صاحب هذا الاسم في محرك البحث غوغل نقع على اسم قيصر زهران في مذكرة إدارية في حرب عام 1948 على الجبهة السورية. كما نقع على اسم **قيصر زهران يمّين** في مذكرات الرئيس إميل لحود عن والده الذي كان من أوائل من دخلوا المدرسة الحربية في حمص وفي نفس الفوج الذي كان منه اللواءان فؤاد شهاب وجميل لحود. أما في المراجع الحزبية القومية فنقع على اسم العقيد **زهران يمّين** كمدرب لصف الضباط الذي أنشأه سعاده عام 48 والذي خرّج الفوج الأول من الضباط الحزبيين. ما يدل أن صاحب هذه الأسماء الثلاثة هو شخصٌ واحدٌ. المعلومة الوحيدة عن تاريخه الشخصي والعسكري والحزبي تأتي من كتاب النقيب فؤاد عوض الطريق إلى السلطة. وهو يقول إن العقيد زهران يمّين من مواليد دير القمر. وإنه كان في نفس رتبة فؤاد شهاب في الأقدمية في المدرسة الحربية، وإن بشارة الخوري استشار في أيهما يختار تسميته كقائدٍ للجيش فأشار عليه كميل شمعون بزهران بينما البطريرك عريضة اختار شهاب. ويقول عوض إن شهاباً قد اعتقل العقيد زهران يمّين على أثر حوادث عام 49 في سجن القلعة بسبب انتمائه الحزبي. وعلى الأرجح إن عدم اختياره في بداية عهد بشارة الخوري كقائدٍ للجيش قد جعله يختار الانتقال إلى الجيش السوري، حيث كان ذلك متاحاً في تلك الأيام. وقد ورد اسم هذا العقيد في كتاب للباحث صقر أبو فخر بين من اختاروا البقاء في الجانب السوري مثل الضباط أنطون بستاني، شوكت شقير، شكيب وهاب وغيرهم من السياسيين مثل فارس الخوري وعادل أرسلان.

رابعاً: لا بد أن العقيد قيصر زهران يمّين كان قومياً اجتماعياً اختاره سعاده لتدريب وتخريج الضباط وصف الضباط القوميين الاجتماعيين، ولا بد أن الرفيق زهران كان قد أخبر سعاده عن حسني الزعيم وشذوذه، وبالتالي كان سعاده على اطلاع تام وكامل على نوعية ومستوى قائد الانقلاب كما على ارتكابات وفضائح العسكريين والسياسيين في الشام.

يجب أن نشير هنا أيضاً إلى أن الكولونيل فوكس الوارد ذكره في الوثيقة معروف بأنه رجل المخابرات الإنكليزية، وقد اهتم بعد الانقلاب بالاطمئنان على حسن معاملة القوتلي في السجن. وهكذا تكون المخابرات الأجنبية تتلاعب بعملائها كلهم

فتصدمهم ببعضهم البعض أحياناً، تقتل من انتهت صلاحيته وتحافظ على غيره لدور مقبل. فالقوتلي تحتاج إليه المخابرات الأجنبية لدور مقبل، ليعود رئيساً للجمهورية السورية بعد عدة سنوات... فاهتمت بحسن معاملته في السجن.

أما أحمد الشرباتي وزير الدفاع فإن هناك أخباراً نشرت منذ تلك الأيام، أي عقب فضائح حرب عام 1948، بأنه تزوج من يهودية من ليتوانيا السوفياتية، وزوجة وليد جنبلاط نورا الشرباتي هي ابنتهما.

وإذا عدنا إلى الأعمال الكاملة لسعاده وجولته في الشام عام 48 نجد أن سعاده اجتمع بأحمد الشرباتي بصفته وزيراً للدفاع السوري وقد أسفرت محادثاتهما عن اتفاق «إنه ليست للحزب أية مصلحة عدائية لشخصية فخامة الرئيس شكري القوتلي، وإنه ليست للحكومة الشامية أية مصلحة عدائية أو مقاومة لقضية الحزب وعمله، وإنه بعد جلاء المسائل يمكن الوصول إلى الترخيص للحزب بالعمل في الجمهورية الشامية». إن تعبير «جلاء المسائل» يعني دون شك أنه كان هناك مسائل خلافية كبرى بين الحزب والمسؤولين السوريين. الحزب كان يعرف فساد وارتكابات المسؤولين السوريين ويقاومهم، وإن هؤلاء بدورهم كانوا يقاومون الحزب ويقفون منه ومن حرية عمله موقفاً سلبياً. وقد أدلى سعاده بعد المحادثات بتصريح للصحف الشامية نشرته جريدة القبس كما يلي: «...إن الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يتدخل في مسألة تفضيل شخصي لأجل الأشخاص، إن التفضيل عندنا هو على أساس تسهيل حرية العمل للحزب الذي هو نهضة قومية اجتماعية للأمة لتحقيق الوعي القومي والإصلاح الاجتماعي، نحن حزب قضية قومية لا حزب أشخاص» (الأعمال الكاملة ج 8 ص 165). وهكذا نتبين أن همّ سعاده الأول كان تأمين حرية العمل القومي الاجتماعي، وأنه لم يتورط في تأييد مسؤولين فاسدين، ولا في معاداتهم سياسياً لأجل أشخاص فاسدين مثلهم، إن قضيته هي قضية قومية.

إن هذه الوثيقة تكتسب أهميتها الكبرى من كونها برهاناً أن سعاده كان يعلم تفاصيل ارتكابات حسني الزعيم وانحطاطه الأخلاقي وعمالته للإنكليز، منذ سنة 1947 على الأقل.

الجمهورية السورية
وزارة الدفاع الوطني
دائرة التفتيش والمراقبة
رقم ٢٦٢/ت م/س

خاص بالضباط

١٨-٥-١٩٤٧

الموضوع: شكوى ضد العقيد حسني قائد اللواء الثالث مقدمة من الملازم فؤاد سليم من الفوج السادس بدير الزور.

السند: أمر شفهي من مقام وزير الدفاع الوطني

الإشارة لمقام وزير الدفاع الوطني

تنفيذاً لأمركم الشفهي القاضي بدرس الشكوى المقدمة من الملازم أول فؤاد سليم من الفوج السادس المتمركز بدير الزور ضد العقيد حسني قائد اللواء الثالث واستجواب الملازم المذكور نعرض إليكم ما يلي:

١) - خلاصة الشكوى وإفادة المدعي:

ينسب الملازم أول سليم فؤاد إلى العقيد حسني قائد اللواء الثالث المخالفات الآتية:

آ) - الاتصال بأنصار الملكية في دير الزور وبنوع خاص بالسيد رضا الشدوش والخطيب سعيد ذكرى (?) وذلك عن طريق سرية تحت العقيد حسني من ثكنة موسى بن نصير التي يسكنه بإحدى بناياتها، والسبب تمكينه من الاتصال بصورة خفية وأثناء الليل مع زملائه من سياسيين ووطنيين وغيرهم.

ب) - معاشرة الكوكبة (?) الوطنية السليمة وعرض نفسه عدة مرات على الملازم فؤاد ليجتمع به.

ج) - سوء استعماله سيارته الرسمية وتركيبه الحوسات (?) بها وجلبه إلى الثكنة العسكرية.

د) - دفع الضباط والرتباء لشراء ما ينوف عن الـ (٧٠) ورقة يانصيب (٢ ليرات الورقة) راجع ريعها لأناس مشكوكة شرفهم (امرأة برفقة السيد فرنقص) ويثبت تجربته بمشاركة هذه المرأة وليغيظها من دير الزور من قبل شرطة الأخلاق هذه المدينة.

هـ) - مؤامرات مع عدة أشخاص وتفاخره بأنه ... بالدولة موجهة ضد عدة ضباط.

و) - توجيه شتائم غير لائقة ضد ضباط قادة وبنوع خاص ضد الأمين العام السيد أحمد الحاج - واتصاله بالكولونيل فوكس بنية مساعدته ليستلم رئاسة الأركان.

ز) - مرافقته نساء بعض الضباط بعد الظهر.

ح) - افتخاره بتجنيد أبناء البدو وزجهم بالمعارك التي حصلت ما بين الإنكليز والفرنسيين من جهة والفرنسيين الفيشيين من جهة ثانية وذلك لصالح الإنكليز واستعداده لتكرار ذلك إذا أمرت عليه ظروف ملائمة في هذا العهد.

٢) - مطالعات المفتش العام:

إن دائرة التفتيش مطلعة على اتصال العقيد حسني بالسيد رضا الشدوش كما أنها لا تجهل ما أقدم عليه هذا الضابط القائد بما يختص باللوكية (?) السليمة ونقله إلى الدائرات ...

— ٢ —

بدون سابقة كما أننا مطلعة أيضاً على ما قام به من أعمال شائنة في أيام الشيشكلي من رعاية لمصالح هؤلاء وتعاون مع أبناء البدو وزجهم في مصانع للإنافة لهم ولأولادهم، كما أن ذلك ليحصل على رتبة عقيد وعليه للوزارة الوقوف على تفاصيل هذا الحادث من عدة ضباط أسمي منهم الملازم أول جميل عزيز والملازم أول حمدان مالكي وغيرهم على شرط أن تستحلفهم بالقرآن وأن تطمئنهم على مستقبلهم. أما قضية استعمال السيارة العسكرية لنقل المومسات أو غيرهم، وإجبار الضباط والرقباء على شراء أوراق اليانصيب فهذا أقل ما يتجاسر عليه الضابط المذكور.

<u>اقتراحات المفتش</u> — نظراً لأن العقيد حسني أقدم من العقيد المفتش العام بالرتبة ولكون قانونياً لهذا الأمر أن يحقق معه بما ينسب إليه وبما أن دائرة التفتيش متأكدة من صحة الأكثرية التهمات المذكورة عن العقيد المذكور فنقترح تشكيل لجنة تحقيق تؤلف من ضباط ذوي صلاحية للقيام بالتحقيق ذاته، وإني أرجو من وزارة الدفاع تعيين هذه اللجنة كما أرجو سلامة التحقيق توطئة لإحالة هذا الضابط إلى المحاكم العسكرية إذا تمكنت هذه اللجنة من تثبيت قسم من الجرائم المنسوبة إليه.

العقيد [illegible]

المفتش العام للجيش السوري

وزارة الدفاع الوطني

مفتش الجيش العام

فهرس الأعلام

أ

أبو النور، عبد المحسن: 430-431-432

ابو جودة، إدوار: 112-122

ابو جودة، ملحم ماضي: 212-214-215

أبو سلمان، نسيب: 216

أبو سليمان، نصري: 404-405

أبو شقرا، ميشال: 179

أبو شهلا، حبيب: 283

أبو عجرم، خليل: 149

أبو عجرم، فؤاد: 302

أبو عساف، أمين: 341

ابو عسلي، الفريد: 69

أبو فاضل، رياض: 406

أبو كامل، كامل: 293-328

أبو مراد، عساف: 291

أبو منصور، فضل الله: 294-333-340-341-342

أتشيسون، دين: 181

إده، ريمون: 58-476

أدونيس: 241-246-304

أديب، ألبير: 97

أديب، خالد: 29-70

اذاعة الشرق الادنى: 97

أرسلان، عادل: 172-180-181-182-183-222-226-536

ارسلان، مجيد: 103-108-122-232-234

أرشيد، مصطفى: 328-418-452

أسعد، فكتور: 149-323-324

أسعد، متى: 474

اسماعيل، بديع: 384

اصفهاني، أحمد: 206

أنتيبا، فايزة معلوف: 243

أورباي، فؤاد: 341

أيبان، أبا: 182

إيليا كرم (مطران): 474

أينونو، عصمت: 339

الأتاسي، هاشم: 341-342-344-353-361-425

الأمير فيصل بن سعود: 395

الاتحاد السوفياتي: 146-147-365-384-431

الأحدب، إبراهيم: 476

الاشقر، أسد: 29-67-103-106-123-124-132-135-142-186-301-328-371-374-424-442-444-454-456-458-459-461-462-475

الأشقر، وديع: 233-307-482-483

الاطرش، حسن: 360

الاطرش، زيد: 187

الاطرش، سلطان باشا: 358

الامم المتحدة: 108-146-148-154

الامير الوليد بن طلال: 31

الأمينة الأولى: 141-171-178-200-205-212-215-216-219-221-233-234-236-238-239-245-248-250-254-259-263-272-273-274-278-295-299-326-328-343-347-356-363-365-378-401-405-409-410-411-412-413-414-417-420-424-465-468

الاونيسكو: 148

الأيوبي، أحمد: 23

الايوبي، صلاح الدين: 512

البرازي، محسن: 229-235-269-333-335-340

البزري، عفيف: 180-430-431-433

البستاني، رامز: 193-195

البطرك هزيم: 471

البعلبكي، جعفر: 23

البعلبكي، محمد: 332-449-462

البيطار، صلاح: 384-385

البيطار، هاني: 405

الجامعة الاميركية في بيروت: 48-100-285-464

الجبهة الاسلامية الاشتراكية: 352-353-358-361

الجبهة الوطنية الاشتراكية: 284-357-361

الجدع، كميل: 332

الجمهورية العربية المتحدة: 225-371-430-431-433

الجميل، بيار: 201

الجنرال دانتز: 97-99

الجنرال ديغول: 475
الحاج، ميشال: 21-23-329
الحزب الاشتراكي العربي: 354
الحزب الشيوعي: 384-431-433
الحسامي، جميل: 201
الحسين، كامل: 157-170-191
الحسيني، أبراهيم: 166-167-225-226-227-228-235-249-252-272-334-336-337-345-429
الحسيني، أحمد: 122
الحسيني، منيرك213-271
الحصري، ساطع: 514
الحكيم، حسين: 386-387
الحلبي، رفيق: 72-118-122-136-137
الحناوي، سامي: 269-294-333-338-340-341-342-343-344
الحوراني، أكرم: 164-169-227-240-272-337-342-352-353-354-356-382-383-384-385-389-392-425-432
الخال، يوسف: 104-137
الخالدي، نوري: 329-342
الخطيب، سامي: 206
الخوري، بشارة: 101 122--137-138-191-193-204-213-229-258-281-285-288-335-357-358-382-474-527-536
الخوري، خليل: 137-138-474
الخوري، رشيد: 489
الخوري، سليم: 213-501
الدده، جورج: 119
الدروبي، صفوح: 342
الراسي، أنيس: 92
الزعبي، محمد: 254
الزعيم، حسني: 57-156-157-159-160-165-166-167-168-170-172-173-180-181-182-183-184-186-187-189-191-192-198-203-210-214-217-221-222-225-226-227-229-237-240-242-247-251-252-253-257-269-272-275-278-279-280-294-333-334-335-338-339-340-341-342-344-345-386-535-

536-537
السباعي، مصطفى: 352
السبعلي، ميلاد: 525
السراج، عبد الحميد: 386-387-408-
418-424
السعيد، نوري: 159-160-339-365-
366-367-379-427-429-440
السودا، يوسف: 120-123
الشاعر القروي: 80-94
الشاوي، فؤاد: 213
الشرباتي، أحمد: 535-537
الشلبي، محمد: 254-255
الشوفي، عز الدين: 387
الشويري، نجيب: 234-272-343
الشيخ، محمد: 118
الشيشكلي، أديب: 169-180-210-221-
222-22-227-228-229-236-237-
240-250-270-271-272-288-295-
300-302-333-334-335-336-337-
338-339-340-342-344-345-346-
347-348-349-350-352-354-355-
356-357-358-359-360-362-366-
378-379-381-382-427-428-429-
511-515
الشيشكلي، صلاح: 139-166
الصالح، خالدة: 356-404-409-413-
417
الصايغ، نجيب: 215
الصفدي، جميل: 77-78-79
الصلح، رياض: 101-105-108-111-
122-137-153-171-172-173-184-
191-197-204-213-214-220-228-
229-249-258-269-281-283-284-
303-335-348-474-527
الصلح، سامي: 249-371
الصلح، منيب: 249
الصواف، زهير: 408
الصيداني، نمر: 207
الضيعة، أديب: 236
الطرزي، صلاح: 180-226
الطويل، حسن: 98-286-293-302-329-
331-382-383-408-441-453-455

العاص، شاكر: 164

العجي، رفول: 291

العسلي، صبري: 360-361-425-432

العظم، خالد: 156-432-344-383-384-391-393-394-395-426

العظمة، يوسف: 246

العقاد، فضل: 409

العقل، جهاد: 109

العلي، سليمان: 476

الغريب، يوسف: 90-91

الغزي، جمال باشا: 139

الفرزلي، أديب: 474

القباني، صبري: 157-181-345

القوتلي، شكري: 150-171-180-334-339-344-362-383-427-432-434-535-537

القوتلي، غسان: 388

الكتلة الوطنية: 156

الكردي، أبراهيم: 86

الكولونيل فوكس: 536

اللجنة العربية العليا: 448-449

المالكي، رياض: 384-394-416

المالكي، صلاح: 382

المالكي، عدنان: 381-385-389-390-397-398-401-403-405-407-409-410-413-417

المحايري، عصام: 25-107-124-166-168-224-254-283-288-298-300-301-325-328-330-332-334-336-342-343-344-347-348-352-353-355-357-358-360-363-364-365-375-377-383-389-391-401-408-414-419-423-425-481-482-483-508-511-512-513-514-515-516

المحكمة العسكرية الفرنسية: 96-118

المر، أسكندر: 91-92

المر، جبرائيل: 192

المر، غبريال: 122

المرشد، سليمان: 336

المرشد، مجيب: 336-337-340

المسالمي، رجا: 208

المستر بروكس: 374

المستر ميد: 187-249
الشهبندر، عبدالرحمن: 357
المطران أيليا الصليبي: 474
المطران أيليا كرم: 474
المطران انطون عبد: 470
المطران نيفون سابا: 474
المعلوف، وديع: 261
المفتي الحاج أمين الحسيني: 449
المقدسي، أنطوان: 356
المقدم جلبوط: 476
المكتب الأعلى المختص: 75-149
الملاذي، منير: 139
الملك حسين: 475
الملك عبدالله: 157-260-302
الملك فاروق: 279
المناصفي، محمد باشا: 48-75-76-77
المهتار، أسامة: 23-478
المهتار، عجاج: 100-109-133
المير، جورج: 86
المير، جولييت: 87
المير، ديانا: 467
النجار، شكيب: 259-297-298
النجار، فؤاد سليم: 296
النحلاوي، عبد الكريم: 405
النفوري، أمين: 405
النمر، نسيب: 188
الهاشم، أحمد: 329-330
اليازجي، رجا: 411
اليازجي، عيسى: 356-408
اليازجي، يوسف: 224

ب

بحليس، وليم: 28-79-85-89-91-92-116-123-496
بخعازي، الياس: 83
بدوي، أسعد: 203
بردياييف، نيقولا: 103-136
بري، أبراهيم: 204
بريدي، حبيب: 207-208
بشاره، عادل: 23
بشناتي، عبد الرحمن: 100-195-196
بشور، بديع: 387-403
بكداش، خالد: 384- 344 - 431

بشور، توفيق: 167-252

بشور، حنا توفيق: 166

بشور، وديع: 107

بطرس، أنطوان: 207-229

بعلبكي، محمد: 332-449

بلدي، جورج: 78-250-272

بن غوريون: 181-182-183

بندقي، جورج: 73-74-78-79-80-81-83-116

بنود، أنور: 345-346

بنيان، محمود: 227

بوش، جورج: 159

بوظو، علي: 164

بولس، جواد: 476

بولس، نجيب: 167-252

ت

تحوف، عبد القادر: 236

تقي الدين، سعيد: 332-333-365-374-378-472

توتنجي، أدوار: 263

توما، أومير: 208

تويني، غسان: 52-72-104-114-115-116-117-137-142-262-284-285-286-287-88-289-332-357-371-374-378-503

ث

ثكنة الدرك السيار: 259

ثكنة الفياضية: 259

ج

جامعة الدول العربية: 349

جامعة بن غوريون: 338

جدع، أديب: 233-254-255-271

جديد، غسان: 332-361-363-378-382-383-385-386-387-390-399-411-414-415-416-419-429-466

جرجي قنيزح، الياس: 456

جريج جبران: 53 - 96--101-109-139-143-149-164-169-193-200-201-202-203-212-240-271-323-324-332-333-357-466-467

جمال، حسن: 456

جمال، حسين: 332

جمعة، أسماعيل: 426
جمعة، سامي: 182-190-191-192-222-225-226-227-228-249-254-234-341-382-383-385-386-387-404-408-429
جنادري، فرنسوا: 204-207
جنبلاط، خالد: 102-149
جنبلاط، كمال: 186-283-287-288-325-356
جورج، جورج: 136-441
جيش الانقاذ: 162-334-449

ح

حادثة الجميزة: 3-37-40-158-164-178-189-193-206-208-211-251-253-257-258-299-300-301-302-334
حاماتي، هنري: 320
حايك، جبران: 262
حبي، سعيد: 226-227-228
حبيب، الياس: 482
حجل، مسعد: 109
حداد ، يوسف: 271
حداد، جورج: 48-76-312
حداد، جوزيف: 23-205-216
حداد، حسني: 304
حداد، فؤاد: 312-323-324
حداد، وليم
حراكي، راتب: 254-344
حردان، أسعد: 330-421
حردان، نواف: 70-221-224-255
حزب البعث: 166-352-354-361-362-378-382-383-384-385-391-392-425-433-436-437-519-520
حزب التحرير العربي: 355-359-424
حزب الشعب: 361-383-384
حسن، عادل: 292-293-332
حسواني، أيلي: 204-208
حسين، الحاج: 404-405
حسيني، منيب: 455
حكيم، أحمد: 201
حلاق، أبراهيم: 236
حلف بغداد: 26-333-346-349-350-

-371-370-368-366-365-363-362
-440-429-427-393-392-391-385
446

حلواني، عصام: 203

حماد، عباس: 254-255

حماد، عبد الهادي: 208-409-419

حمادة، نعمة: 410

حمداني، مصطفى رام: 386-403

حمدون، مصطفى: 360

حمود، احمد جميل: 456

حمود، محمد يوسف: 109-328-367-
-458-455-454-453-444-442-439
461-459

حمود، معين: 169

حموي، خضر: 404-405

حمية، علي: 268-488

حنا، نهاد: 53-100

حنين، أدوار: 476

حيدر، منير: 98-99-105-107-297-
-373-372-367-357-329-328-326
468-467-465-440

خ

خلاط، روبير: 123

خلاط، هكتور: 123

خوري، جان: 406

خوري، سامي: 33-157-158-207-
-252-242-239-236-235-223-222
-336342-332-329-304-303-274
-360-356-355-353-350-348-347
-388-387-382-381-377-367-361
-415-413-409-403-391-390-389
476-475-461-456-436-429-417

خوري، عبلة: 245

خوري، فؤاد: 233-297-325

خوري، فادي: 23

خوري، فارس: 245

خوري، ميشيل: 390

خيرالله، شوقي: 25-256-260-261-
513-290-289-263

د

داية، جان: 23-31-183-306-312-323

دبوسي، عبد المنعم: 399-406-407-

408-413-414-416
دعيبس، يوسف: 409-456
دميان، حنا: 307-48
دير سيدة صيدنايا: 250
ديري، أكرم: 385-403-405-409
ديغول، شارل: 475

ر

رافع حمدان، توفيق: 258
رافلس، أنريكي: 89
ربابي، الياس: 201
رحمون، ممدوح: 257
رزقالله، الياس: 261
رشيد، نجيب جمال الدين: 269
رعد، أميل: 233-332-456
رعد، أنعام: 149-295-329-330-331-363-374-377-402-445-456-481-519-520-521-522-523
رعد، ناصر: 139-197
رفول، أميل: 2018
روحانا، يوسف: 193

ز

زحلان، فؤاد: 205-213-219-220
زكريا، غسان: 412
زكي، أبراهيم: 429
زمير، مائير: 338-531
زهر الدين، جميل: 386-387
زويا، لبيب: 102-260-297
زيدان، ناجي جرجي: 180-222

س

سابا، وليم: 75-139-149-202
ساسين، ساسين حنا: 89-90
سالم، صلاح: 391-393
سالم، وسليم سعدو: 25-208-409
سايكس بيكو: 93-102-157-477
سبيرز، ادوارد: 99
سترانغ، وليم: 185
سحلول، سامي: 342-409-410
سعادة، عبدالله: 326-476
سعاده، أدوار: 89
سعاده، أليسار: 263-411-412
سعاده، راغدة: 69-412-424
سعاده، صفية: 172

سلام، صائب: 476

سلامة، عيسى: 196-236-332-342-383-414-453-461-462-465-466-476

سلامة، يوسف: 212-213

سلو، فوزي: 180-353-354

سليمان، مصطفى: 242-252

سماحة، سامي: 471

ش

شادر، جوزيف: 201

شاريت، موشي: 181-182

شاهين، أنسطاس: 252

شاهين، اسكندر: 264

شاوي، اسكندر: 149-152

شبيعة، الكسي: 342-389

شجاع، عادل: 329

شحادة، عبد الحق: 336

شرابي، هشام: 126-140-154-212-242-295-297-300-304-305-306-307-357-482-483-485-486-487-488-494-500

شريح، رباح: 405

شريح، فهمي: 405

شقير، شوكت: 361-383-386-388-389-394-400-403-408-409-416-418-427-428-536

شلبي، محمد: 208-255

شما، أليان: 207

شمعون، توفيق: 188-230

شمعون، كميل: 58-98-99-101-103-108-130-137-138-285-288-289-339-358-366-378-536

شهاب الدين، سعيد: 332

شهاب، فؤاد: 289-371-372-475-536

شواف، فؤاد: 236-329

شوحي، جميل: 315

شومان، أحمد: 381-392

شيلواح، رؤوفين: 181

ص

صائغ، سلمى: 144

صايغ، فايز: 103-104-105-107-109-110-121-130-132-135-136-260

صايغ، يوسف: 142-143

صعب، أديل: 25
صعب، سليم: 212
صعب، معروف: 112-168-196-233-235-236-243-245-251-252-272-295-295-298-443-465-466-467
صوايا، جميل: 312-323-324

ض

ضاحي، أنطون: 68-87-93
ضو، نعمان: 74-84-86

ط

طبارة، أكرم: 157-191
طراد، نقولا: 476
طليس، أسعد: 344
طنوس، إبراهيم: 9-70-72-80-82-89-116-488-505
طوبيا، أدمون: 203-204-212-213-215

ع

عازار، أديب: 236-456
عبد الرحيم ، ياسين: 304-337-406
عبد الساتر، مصطفى: 176-210-295-329-453-454
عبد الكريم، أحمد: 386
عبد الكريم، عزيز: 227
عبد الناصر، جمال: 371-395-424-433
عبدالمسيح، جورج: 26-48-56-59-96-104-109-130-132-135-140-141-142-143-144-149-170-186-216-221-231-258-259-260-261-274-286-287-288-295-297-300-301-302-303-304-305-307-323-324-325-328-332-334-343-356-336-365-401-409-410-415-418-419
عبود، إدغار: 149-196-211-212-215
عثمان، سليم: 406-414-454
عرفات، ياسر: 448
عرنوق، فكتور: 236
عرنوق، معين: 25-390-391-407
عز الدين، مصطفى: 202-456
عزقول، كريم: 102-109-142
عزقول، نظمي: 333
عسّي، أحمد: 465
عسيران، عادل: 101

عطية، أستر: 284
عطية، يوسف: 284
عظم، غسان: 332
عفلق، ميشال: 520
علم الدين، زياد: 23
علامة، عبد الحفيظ: 213-254
عواد، كامل: 72
عوض، علي: 213
عون، إيلي: 23-69-381-424-464

غ

غدار، طه: 23-209
غصن، مفيد: 383

ف

فاخوري، أنيس: 110-456
فاخوري، بشيرك151
فخر الدين، سعيد: 101
فرحات، صبحي: 243
فرعون، هنري: 58-122
فرنجية، سليمان: 476
فريح، صبحي: 510-511-512-519-520-523
فضول، ميشال: 193
فندق النورماندي: 192
فندق بردى: 236-250
فنصة، نذير: 257

ق

قائدبيه، يوسف: 216-231-439-444-455
قانصو، علي: 31
قباني، عمر: 428
قبرصي، عبد الله: 27-30 60--61-62-63-96-106-109-130-131-143-165-186-192-193-197-200-201-203-263-293-295-301-302-312-323-324-329-330-331-332-365-374-402-453-454-467-476
قدورة، أديب: 168-171-172-212-297-302-461-462
قلعة راشيا: 103-187
قنصل، زكي: 510-511
قنوت، عبد الغني: 337
قولي، أسماعيل: 337

ك

كرامي، عبد الحميد: 101

كركور، أدمون: 208

كركيغارد، سورين: 103

كرم، عساف: 208-231-248-251

كريدية، محي الدين: 201

كسواني، حنا: 384-388-425-441-455

كلاس، بهيج: 384-388

كنج، فاضل: 328-342-439-444-455

كوبر، سام: 185

كوبلاند، مايلز: 192

كيلي، جيمس: 181

ل

لبابيدي، زكريا: 49-101

لبكي، غطاس: 476

لحود، أميل: 31-117-261-536

لحود، منصور: 11

لوقا، عفيف: 74

م

مؤتمر المدرسين: 487

مؤتمر مدريد للسلام: 375

مؤسسة سعادة الثقافية: 285.

ماركس، كارل: 506-507

مارون، بشارة: 138

ماكدونلد، جيمس: 181

مجاعص، نقولا الخوري

مجدلاني، ولسن: 103-149-202

محايري، نزار: 304

محسن، عبدالله: 132-149-196-244-245-251-272-274-298-331-332-333-383-389-424-456-466

محسن، هيام: 25

محلي، فؤاد: 202

مخلوف، بديع: 399-401-406-408-412-413-416

مخلوف، جميل: 236-332-441-455

مخلوف، حسن: 410

مدرسة الفريكة: 195-269-279-301

مردم، جميل: 339-535

مروش، رفيق: 323

مريود، عصام: 342

مسعد، الاب بولس: 470

مسوح، الياس: 448

مسوح، جبران: 85-6-473

مشروع أيزنهاور: 346-371

مشروع الهلال الخصيب: 184

مشروع عبد الناصر: 393

مصروعة، جورج: 195

مطرود، نشأت مهدي: 408

معتقل المية ومية: 98

معتوق، خليل: 97-98-100

معركة بشامون: 101

معلوف، حلمي: 142

معلوف، رشدي: 143

معلوف، فوزي: 102-142

معلولي، فارس: 149-303-332

مقدسي، نديم: 102

منصور، حسين: 100

منصور، عبد الرزاق: 236

مهرجان الأصلاح: 63-109

مهنا، توفيق: 523

مورلي، خالد: 107-108

موسى، عقل: 23

موصلي، بشير: 33-50-67-124-133-189-190-236-248-250-252-254-255-300-304-337-396-483-510

موفق، معروف: 254

ن

ناصر، محمد: 180-336-337-340

ناصيف، أدما: 573

ناصيف، دعاس: 332

ناصيف، لبيب: 26

ناصيف، يعقوب: 88-113

نبهان، جوزيف: 149

نبوخذ نصر: 255

نجار، فؤاد: 297

نصر الدين، ميكائيل: 23

نظام الدين، توفيق: 430

نظام الدين، زكي: 332-359

هـ

هتلر، ادولف: 44-67-68-69-94

و

واقعة سرحمول: 229-230-231-233

وعد بلفور: 91-93-102-396-397

وهاب، شكيب: 536

ي

يادين، يغئيل: 181

يزبك، جورج: 23

يمّين، قيصر زهران: 535-536

يوسف، مطانيوس: 33-172-183-184-185-204-207-230-231-299-574

يوم بكفيا: 39-48-50.

لائحة المراجع

- الأعمال الكاملة لسعاده- أحد عشر جزءاً، مؤسسة سعاده للثقافة، 2001
- دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي
- الكتاب القومي- العدد الخامس، المركز القومي للدراسات والأبحاث
- إنعام رعد: الكلمات الأخيرة، دار الأنوار- 2002
- حرب التحرير القومية، دار أبعاد 2015
- قراءة جديدة للمحاضرات العشر، أيلول 1976
- أدما ناصيف حمادة: مذكرات، دار الفرات 2011
- أديب قدورة- حقائق ومواقف، مؤسسة فكر، 1989
- إبراهيم يمّوت- الحصاد المر، الركن، 1993
- أحمد أصفهاني- أنطون سعاده في أوراق الأمير فريد شهاب، دار كتب، 2006
- أكرم الحوراني- مذكرات، مكتبة مدبولي 2000
- أنطوان بطرس- قصة محاكمة سعاده وإعدامه- الطبعة الثانية، منريخ، 2002
- الأمير عادل أرسلان- مذكرات، بيسان، 1994
- الياس جرجي- مآثر من سعاده، مؤسسة سعاده للثقافة، 2013
- بدر الحاج- التاريخ كما يشتهيه أهل الفقيد، 2010
- بشير موصلي- مذكرات، الفرات، 2016
- جبران جريج: مع أنطون سعاده- 2، 1978
- من الجعبة- المجلد الأول، 1985
- حقائق عن الاستقلال أيام راشيا، دار أمواج، 2000
- جان داية- محاكمة أنطون سعاده، فجر النهضة، 2002
- جهاد العقل- أضواء ورموز، الفرات، 2005
- جورج عبد المسيح: من يوميات جورج عبد المسيح، الركن 2007

- البناء الاجتماعي، الركن 2014
- رسالة إلى منير حيدر، الركن، 2006
- بدأ جمراً وانتهى رماداً، الركن، 2004
- أيام قومية- الأجزاء الثاني والرابع والخامس، الركن، 2015
- قواعد السلوكية اليهودية، عن دار الركن للطباعة والنشر، لا يوجد تاريخ.
- حنا توفيق بشور- من ذاكرة أبي، مكتبة الشرق الجديد 1998
- رياض المالكي- ذكريات على دروب الكفاح، دار الثبات، 1972
- سالم سعدو سالم- حان الوقت، الفرات، 2017
- سامي جمعة- أوراق من دفتر الوطن، دار طلاس، 2000
- سامي خوري- أمل لا يغيب، دار نلسن، 2007
- شوقي خيرالله- مذكرات، دار الجديد، 1990
- صبري قباني- سعاده والحزب القومي، منشورات مجلة الدنيا دمشق، 1950
- عبدالله قبرصي يتذكر1، التراث الأدبي، 2014
- عيسى اليازجي- صفحات من حياتي، دمشق، 2010
- عبدالله سعاده- أوراق قومية، 1987
- مذكرات الأمينة الأولى، دار كتب، 2004
- مذكرات الأمينة الأولى بين مطرقة الأحقاد وسندان التلاعب، الركن، 2005
- مصطفى عبد الساتر- أيام وقضية، مؤسسة فكر، 1982
- مطانيوس يوسف- سعاده والنظام اللبناني، الفرات، 2016
- نشأت مهدي- إني أعترف، دمشق رقم الموافقة 77690، 2005
- نواف حردان- على دروب النهضة- الجزء الأول، بيسان، 1997
- هشام شرابي- الجمر والرماد، دار الطليعة، 1978
- وديع بشور- سعاده ونهجه الفكري، بيسان، 1998
- ياسين عبد الرحيم- خميرة الغد، 2002

- مايلز كوبلاند- اللاعب واللعبة، دار الحمراء، 1990
- مذكرات بن غوريون، ترجمة سمير جبورن مؤسسة الدراسات الفلسطينية،1993
- كراس، الوضع السياسي في الوطن والعالم العربي سنة 1955
- كراس، بيان رئيس الحزب الأمين عصام المحايري لسنة 1991
- محاضرة غسان تويني في قاعة عصام فارس 20 أيار 2004
- جريدة الجيل الجديد الدمشقية
- جريدة صباح الخير- البناء
- جريدة كل شيء
- جريدة الحياة
- جريدة النهار
- جريدة المحرر
- جريدة الديار
- مجلة «اتجاه»
- مجلة سوريتي الإلكترونية
- مجلة الفينيق الإلكترونية